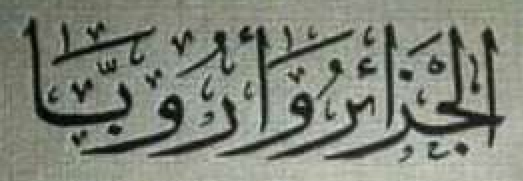


1500 - 1830

تأليف

جون ب . وولف

ترجمة وتعليق

الدكتور أبو القاسم سعد الله

عالم المعرفة

الجزائر

طبعة خاصة

2009

رقم الايداع : 4679 – 2009
ردمك : 978-9947-912-51-3

عالم المعرفة

للنشر والتوزيع

الجزائر

alemelmaarifa@yahoo.fr

دار الرائد

الجزائر

الجزائر وأوروبا

1500 - 1830

تأليف

جون ب. وولف

ترجمة وتعليق

الدكتور أبو القاسم سعد الله

عالم المعرفة
الجزائر

دار الرائد
الجزائر

John B. Wolf
173 Beacon Lane
Jupiter Inlet Colony, Florida 33458

June 6,1982

Professor Belka cem Saadallah
cité les Asphodeks
El Biar, Alger (Algiers)
Algeria

Dear Professor Saadallah,

Please let me thank you for your letter of MAy 21. It is always a pleasure to hear from young men(I'm 75 now) who were students when I was teaching at the University. It is even a greater pleasure when the student expresses interest in some of my work. Some day you will also have this kind of pleasure I am sure.

Of course I will be flattered to have you translate my recent book into Arabic. If you need another copy to make easier the task, please let me send you one. Norton has recently published the book in paperback format, and I have some twenty copies---one of which I will be happy to send to you. May I note in passing that if you find a publisher, be sure that he--or the firm--gives you the lion'sshare of any royalty. I will be mostly interested in having a few copies of an Arabic edition: if there are royalties they should mostly go to the translator.

Obviously you are to be congratulated on your career both in the USA and in Algiers. We are always happy to learn that young men who studied in our University do well as professional historians. This, I do believe, is the most important grace that is give to a professor and his colleagues.

Most sincerely yours,

John B. Wolf

P.S YOu will see by my address that I am retired and living in Flor da.

مقدمة المترجم

حين دخلت جامعة منيسوتا سنة 1961 كان مؤلف هذا الكتاب ، جون بابتست وولف من اقطابها في قسم التاريخ ، كان تخصصه هو التاريخ الفرنسي الحديث ، وكان اسم (فرنسا) يجذبني بحكم استعمارها لبلادي وبحكم جهلي بتواريخ العالم الاخر حتى ان معرفتي البسيطة بتاريخ فرنسا تبدو عظيمة مما جعلني احضر محاضرات البروفيسور وولف لاختبار معرفتي والاطلاع على رايه . ورغم ان البروفيسور وولف كان عندئذ يقترب من سن التقاعد فقدحضرت على محاضرات في الحضارة الاروبية واخرى في تاريخ فرنسا بالذات . كان وولف متحرر الفكر ، لائكي الراي ، مادي التفسير للاحداث التاريخية ، وكان لا يخفى اعجابه بقوة الدول الاوروبية العسكرية ، وسيادة الفكر على الدين في الحضارة الاوروبية الحديثة ، وسيطرة الطبقة الليبرالية في الحياة الاجتماعية ، والتقدم العلمي والتقني والمهارة والدبلوماسية ، وكان هدفه ، كما اوضحه في مقدمة كتابه (ظهور الحضارة الاوربية) هو تعليم الطلبة الامريكيين ان حضارتهم (الامريكية) ما هي الا فرع من الحضارة الاوروبية التي يجب ان تدرس على انها واحدة وموحدة وبعيدة عن كونها تاريخا قوميا للدول الاوروبية كل على حدة ، كما كان يريد تعليمهم ان التاريخ ليس علما ثابتا كبعض العلوم ، ولكنه يخضع لتفسير كل جيل حسب ما لديه من امكانيات النظر والثقافة ووفرة الوثائق ، ومما اذكره ايضا ان البروفيسور وولف كان طويل القامة ، ابيض الشعر ، حسن الهندام ، مهيب الطلعة جهوري الصوت ، وكان درسه يمتاز بالوقار والهدوء والتامل ، اللهم الا بعض الفرقعات التي كان يطلقها احيانا للترويح على الطلبة .

هذا هو البروفيسور وولف كما اتذكره في بداية الستينات دون ان يعرفني ، ثم تابعت انا دراستي في التاريخ الاوربي على اساتذة آخرين وغادر وولف جامعة منيسوتا الى جامعة اخرى ، لا اتذكرها ، على عادة الاساتذة الامريكيين المشاهير الذين تتجاذبهم الجامعات الكبيرة لتكسب هي من سمعتهم وخبرتهم ويكسبون هم من امكانياتها ، ولكن كتب وولف بقيت مقررة علينا نحن طلاب التاريخ الاوربي ، ولا سيما كتبه عن فرنسا مثل :

(ظهور الدول العظمى 1685 – 1715) و (فرنسا : 1814 – 1919) ،
بالاضافة الى كتابه (ظهور الحضارة الاوربية) و (تاريخ الحضارة) (1) .
وقد كان اسلوبه فى هذه الكتب يتميز بالوضوح ، وحرية الراي ، والتوازن
فى المعلومات ، والجدية فى البحث ، والمنهجية العلمية . وقبل ان اغادر انا
الولايات المتحدة سمعت عن ظهور كتابه (لويس الرابع عشر) الذي حظي
عليه بتقدير كبير ، وعلمت بعد ان رجعت الى الجزائر انه نشر ايضا الكتب
الآتية : (نحو توازن اوربي للقوة) و (وبدايات اوربا الحديثة) و (لويس
الرابع عشر صورة جانبية Profile . والى نهاية السبعينات كنت اعتقد
ان البروفيسور وولف ، المولود سنة 1907 ، قد اعتراه الكبر والسآمة من
العمل ، فهو اما من الذين توفاهم الله واما من المتقاعدين الخاملين ، ولكنني
فوجئت عندما عدت (1978 – 1979) الى الولايات المتحدة الامريكية
لقضاء سنة سبتية فيها بوجود كتاب جديد ظهر سنة 1979 فقط بعنوان
(ساحل شمال افريقية : الجزائر تحت الاتراك ، 1500 – 1830) من
تاليف جون بابتست وولف ، وبقدر ما جذبني العنوان الذي يهمني باعتبار
الكتاب يتناول تاريخ بلادي بقدر ما جذبني ايضا اسم المؤلف الذي سبق
لي ان عرفته من المؤرخين البارزين ، ولعل الذي جعلني اقدم ايضا على
شراء الكتاب هو ما قراته لمؤلفه من الآثار العلمية الجادة ، فكتاب عن الجزائر
بقلم البروفيسور وولف يعتبر فى حد ذاته حدثا هاما بالنظر الى ان الذين
تناولوا تاريخ الجزائر حتى الآن ، ولا سيما ذلك العهد البعيد (العهد
العثماني) هم الفرنسيون ، او بعض المبتدئين او المتطفلين على التاريخ من
من غيرهم .

حملت الكتاب اذن الى الجزائر ، واخذت اقرا فيه كلما وجدت فرصة ،
وكلما عدت اليه وجدته كتابا يختلف عن الكتب التي تعودنا قراءتها ،
مصادره ومشربه وتفسيره للأحداث . وهذا لا يعني انني وجدت الكتاب
خاليا من الضعف والهفوات ، او ان الكتاب الف لكي يكون دعاية للجزائر
تحتج به على وجودها التاريخي وعلى مساهمتها الحضارية وعلى قوتها
العسكرية (البحرية) والدبلوماسية ، بالعكس لقد وجدت فى هذا الكتاب
امورا تثير الغرابة واخرى تصدم النفس ، واخرى تزعزع الراي السائد ،
ولكن التاريخ الحقيقي هو ذلك كله . والكتاب الذي لا يجعلك تعيد النظر فى
معارفك ، ولا يحرك شعر راسك ، ولا يتحدى عقلك او عاطفتك فسلة
المهملات به اولى ، وقد وجدت كتاب وولف عن الجزائر فى العهد العثماني
يتحدى الجزائريين فى اكثر من موضع ، وهو لذلك جدير فى نظري بالقراءة
والتمعن ، ومن اجل ذلك ايضا عزمت على ترجمته الى العربية لينتفع به

1 – يقع الكتاب الاخير فى جزئين بالاشتراك مع زميله هوتون وبستر H. webster

القراء الراغبون فى معرفة دور الجزائر فى التاريخ سواء كانوا هم طلبة الجامعات او القراء العرب على العموم .

وعندما عزمت على ترجمته عرضت الفكرة على احدى دور النشر الوطنية فرحبت بنشر الترجمة ولكنها اشارت علي بالاتصال بالناشر الاصلي ، وقد لاحظت على الغلاف ان صاحب الحقوق هو المؤلف نفسه فراسلته عن طريق جامعة منيسوتا (لانني لا اعرف عنوانه) وعرضت عليه فكرة ترجمة كتابه الى العربية فجاءتني منه رسالة ودية رحب فيها بالمشروع وشجعني عليه وتنازل عن اي شروط مسبقة (2) فشرعت فى العمل ، رغم انشغالي الدائم بتاريخ الجزائر الثقافي ، وقد كنت انتهيت من الفصلين الاول والثاني سنة 1982 ، واثناء تقدمي فى العمل وردت علي رسالة من الناشر الامريكي يطلب مني ان اخبره متى وجدت ناشرا لترجمة الكتاب فاعتراني نوع من الركود والعزوف عن المشروع وتوقفت عن الترجمة حوالي سنة ونصف لان رسالة الناشر لم توضح الهدف من التدخل ، وبعد ان عدت الى الناشر الجزائري وتراسلت مع الناشر الامريكي والمؤلف ، تبين ان الناشر الاخير يريد نسبة مائوية من ريع الترجمة العربية ، وقد قبل الناشر الجزائري تحمل ذلك . وعدت انا الى المشروع ابتداء من ربيع 1984 ، وانتهيت منه فى خريف العام المذكور ، ولم يبق علي سوى مراجعة الترجمة والتعليق عليها وترجمة البيبليوغرافية ومقدمة المؤلف اللتين أجلتهما بعض الوقت .

ان الصعوبات التي وجدتها فى الترجمة تتمثل فى عدة امور :

1 ـ مصطلحات معروفة ، ولكن المؤلف لا يسير عليها بانتظام مثل الجزائر Algiers التي تعني المدينة ولكن المؤلف يقصد بها القطر الجزائري فى احيان كثيرة ، ومثل المغرب The Maghrib الذي يستعمله المؤلف فى هذا المعنى (المغرب العربي اليوم) وشمال افريقية ، بل احيانا يطلقه على الجزائر فقط وكذلك كلمة بربارية Barbary التي تعني شمال افريقية عند الاوربيين ، اما كلمة البربر والعرب والاهالي والقبائل (جمع قبيلة) والقبائل سكان زواوة القديمة فالمؤلف يستعملها بحرية كثيرة .

2 ـ ترجمة البيبلوغرافية ازعجتني ، لان المؤلف صنف الوثائق والكتب التي رجع اليها حسب موضوعاتها ، ثم حسب عصورها ، واهميتها .. الخ بالاضافة الى انه كان يتدخل فى عناصر البيبلوغرافية بالتقديم او التعليق . وهذه الطريقة تجعل الترجمة امرا مزعجا ، فلو كانت

---

2 ـ تاريخها 2 جوان (يونيو) 1982 .

البيبلوغرافية قوائم مصنفة ابجديا وكفى لهان الامر ، ولكن كيف يتصرف المترجم اذا كان المؤلف يتدخل فى كل حين لتقييم مصادره . وقد ارتاينا المحافظة على طريقة المؤلف نفسها بحيث أبقينا على ترتيبها مع ترجمة تدخلات المؤلف .

3 – كان من المحتم ان اعلق على المؤلف ببعض التعاليف ، وكانت طريقته هي التعليق على موضوعاته بتسلسل الارقام فى الفصل الواحد . وقد احترت كيف يكون تدخلي الخاص . وبعد النظر رايت ان اترك تعاليق المؤلف على ماهي عليه ، اما تعاليقي انا فميزتها بنجمة (وليس رقما) . وينتهي تعليقي دائما بعبارة (المترجم) .

4 – المصطلحات البحرية كانت من بين الصعوبات التي واجهتني . وقد اجتهدت رايي فى ترجمة بعضها وتركت ما لم اهتد الى ترجمة له على حاله ، مع كتابته بحروف عربية .

5 – الاسماء الاجنبية سلكنا نحوها الطريقة التالية : تكتب الاسم بالحروف العربية وامامه الاسم بالحروف اللاتينية وذلك لكي يهتدي اليه القاريء فى نطقه الاصلي ، اذا لم يعرفه من الحرف العربي .

6 – بالنسبة الى الاسماء العربية والاسلامية رجعنا بها الى اصولها ونبهنا عليها ان كان المؤلف كتبها خطا . ويدخل فى ذلك اسماء الناس واسماء الاماكن واسماء الكتب ايضا مثل الزهرة النيرة ، وغزوات عروج ، وتحفة الكبار الخ .

7 – واخيرا نذكر ان الكتاب فى اصله يحتوي على ثبت عام ، وقد وضعنا نحن ايضا للترجمة ثبتا عاما على النسق العربي دون الاحتفاظ طبعا بالأصل .

* * *

ان نظرة سريعة الى البيبلوغرافية تعطي فكرة عن المجهود الذي بذله المؤلف لتاليف كتابه . فقد رجع الى الوثائق والكتب النادرة والرسائل الجامعية والمطبوعات وبعدد من اللغات . كما انه زار عددا من السواحل الاوربية على البحر الابيض دون ان ينسى السواحل الاسبانية والفرنسية والايطالية ، لمعرفة آثار الماضي ولربط ما شاهده من ماديات بما وجده فى الكتب والوثائق . وقد كنا نود ان المؤلف قد كلف نفسه زيادة بعض الاميال لزيارة الضفة الاخرى من البحر الابيض والتعرف على نفس الظواهر ولكن لمواجهة « الخطر » الآخر ، خصوصا وقد عرفنا منه انه اشتكى من قلة المصادر المكتوبة ، من عربية وتركية ، التي تعكس وجهة النظر الجزائرية والعثمانية – الاسلامية عموما لاحداث القرون الثلاثة التي تناولها . ومن

هنا جاء كتابه ، في نظرنا ، مبتورا ويمثل وجهة نظر واحدة ـ الاروبية ـ المسيحية ـ رغم قيمة الكتاب الوثيقية والعلمية .

ولا يفوتنا هنا ان نقول ان هذا الكتاب هو اخر ما الفه البروفيسور وولف ، كما لاحظ ذلك بنفسه في مقدمته ، ومن ثمة فهو يمثل عصارة فكره وحصيلة تجاربه في الدراسات التاريخية التي بدا باظهارها سنة 1940 وانتهى بها سنة 1979 (تاريخ ظهور هذا الكتاب) ، غير ان تركيزه على التجربة الاروبية في عصر القوة والتقدم التي تتصادف مع التجربة الجزائرية ـ الاسلامية ـ في عهد ضعفها وتخلفها ، جعل الكتاب يظهر وكانه حكم محكمة على المتهم غيابيا دون ان يكون للمتهم محامون ولا حتى حق استئناف الحكم. ومن يشك في قوة اروبا وتقدمها خلال الخمسة قرون الماضية؟ ومن يطعن في قوة الولايات المتحدة الامريكية وتقدمها خلال القرن الماضي ؟ ولكن الحكم على الجزائر العثمانية من خلال التجربة الاروبية والامريكية من قبل باحث مادي ليبرالي في عهد التقاعد ، يعتبر في نظرنا هو عين التعسف . ومهما كان الامر فان تركيز المؤلف على دراسة التجربة الجزائرية من خلال التجربة الاروبية هو الذي جعلنا نغير عنوان الكتاب بعض الشيء ، فبدلا من العنوان الاصلي الذي هو : (ساحل الشمال الافريقي : الجزائر تحت الاتراك) اخترنا له (الجزائر واروبا : 1500 ـ 1830) .

ان هنالك امورا كثيرة تستحق التعليق ولفت الانتباه في هذا الكتاب ، ولكن هل مهمة المترجم القيام بشرح العمل الذي ترجمه ووضع حواش له ونحو ذلك من وسائل الزيادة والايضاح ؟ لا نعتقد ذلك ، ولو فعل لكان الاولى له ان يؤلف هو كتابا من عنده ويريح المؤلف الاصلي والقراء معا . ولكن مهمة المترجم هي نقل النص بامانة ثم التنبيه على ما يجب التنبيه عليه . وقد ادينا نحن هذه المهمة فيما نعتقد ، فنقلنا الكتاب بامانة وحافظنا على روح المؤلف واسلوبه وقدمناه للقارىء كما يريد هو ان يصل الى القارىء ، فلم نترك تعبيرا خاصا ولا علامات تنصيص ولا تعجب ولا نكتة ولا تعليقا الا حاولنا المحافظة عليه . ذلك انه من حق المؤلف ان يتحمل مسؤوليته لدى قارئه ومن حقه ان يعرفه ايضا على علاته . ومن جهة اخرى نبهنا على ما يجب التنبيه عليه في الهامش بعلامات النجوم التي اشرنا اليها . وما رايناه واجب التنبيه هو الخطا الواضح سواء كان تاريخيا او مطبعيا ، وكذلك التيارات التي يتغذى منها المؤلف . وعلى هذا الاساس نبهنا الى ان المؤلف :

1 ـ لا يكاد يخرج عن المدرسة الكاثوليكية ـ الفرنسية ـ الاستعمارية عند التعرض الى دراسة المجتمع الجزائري ، والاسلام والعلاقات بين المسلمين .

2 – لا يكاد يختلف عن الكتاب الآخرين في دراسة العلاقات بين الشرق والغرب بالمعنى القديم ، ممثلة هنا على الخصوص في العلاقات بين الجزائر واوروبا : تمجيد العمل الاوربي ، اضفاء الشرعية على تصرفات الساسة والامراء والضباط الاوروبيين ، وبالمقابل الحط من قيمة العمل الجزائري ، الاسلامي – العثماني ، والشك في شرعيته واهدافه .

3 – ينظر الى تصرفات الاوروبيين على انها تخضع لقوانين وتقاليد يعتبرها هو من المسلمات التي توجهها الحرب والسلم والدبلوماسية والعلاقات الاجتماعية الدولية ، بينما ينظر الى تصرفات الجزائريين – العثمانيين – المسلمين على انها تصرفات يحركها الطمع وهبوط الضمير والميول الفردية وحتى التعصب الديني .

ان امثال هذه القضايا والمواقف هي التي جعلتنا ننبه القاريء عليها في عمومها لا في تفاصيلها . ونضيف هنا باختصار الى ان المؤلف اخضع خطة الكتاب الى تطورات الاحداث الاوربية ، بما في ذلك فتح وهران الاول والثاني . ولم نجد للمؤلف موقفا مخالفا من وصف الاوروبيين المعاصرين ، مثلا ، حكام الجزائر بانهم جماعة من قطاع طرق او ذباحون او اوباش .. فهو يستعير منهم هذه الاوصاف دون ان يرد عليها . ورغم لائكيته فانه عندما يأتي الى تبرير الهزائم الاوربية امام الجزائر يذكر نفس المعاذير التي استند اليها رجال الدين والعسكريون المهزومون الاوروبيون ، ومن امثال هذه المعاذير حدوث امور خارقة للعادة ادت الى هزيمتهم : الزلازل ، والرياح ، والعواصف ، وهيجان البحر ، والطواعين ، الخ . اما خطط المدافعين وبطولة اهل البلاد ونحو ذلك فقلما يذكرها المؤلف من اسباب تلك الهزائم . وقد الح المؤلف على شيوع الرشوة لدى حكام الجزائر وطغيان الرغبة في المال مهما كان وجهه وخضوع المجتمع والحكام لممارسة الهدايا . وهذه ظاهرة لا ينكرها احد ، ولكن جعلها هي محور العلاقات ومبدأ التعايش سواء بين الحكام والاهالي او بين الحكام والاوروبيين ، هو الذي ننكره على المؤلف ، كما ان المؤلف قد الح ايضا على ان الاوروبيين كانوا مقتنعين بان « الرشوة والهدايا » هي الطريق الى قلب حكام الجزائر وهي الوسيلة الى تحييدهم عند حدوث حرب اوربية فمارسوا هذه الطريقة بكل سخاء وتنافس ايضا . ولكن المؤلف يبرر لجوء الاوروبيين الى هذه الوسيلة باسم الاضطرار . ويبدو ان منطق البروفيسور وولف كان الامبريالية العالمية بمفهومها الحديث ، بما في ذلك فكرة التوسع الامريكي ، فمهما تحرر المؤلف في الراي واحتكم الى التاريخ والوثائق فانه في نظرنا كان « يفسر » الاحداث بمفهوم اليوم .

ولكن هنالك نقاط هامة يبرزها المؤلف في كتابه تضيف اليه قيمة خاصة . ولا يمكننا ان نأتي على جميع ذلك ، ولكن يكفي ان الكتاب يعالج العلاقات الاروبية ـ الجزائرية في حجمها الدولي، وفي محتواها الاقتصادي ـ السياسي، بينما عالج المؤلفون الاخرون هذا الموضوع في الغالب معالجة دينية او وطنية ضيقة . كما اوضح دور المنافسة الاروبية واثرها على العلاقات الجزائرية ، وابرز دور هذا التنافس على التجارة والتكتل العسكري والسمعة والاستراتيجية ، ولا سيما بين فرنسا وبريطانيا وهولندا ، وهو ما نسميه بلغتنا اليوم السباق نحو التسلح والعظمة الدولية . ويمتاز الكتاب ايضا بابراز دور اليهود في الاقتصاد الجزائري بل في السياسة الداخلية الجزائرية . اما « الامتيازات » التي حصلت عليها جنوة وفرنسا واسبانيا وغيرها ، فقد اعتبرها المؤلف ، من خلال المصادر الاروبية ، نوعا من الاستعمار الحديث . ومن الطريف ان يقارن المرء بين عواقب « الامتيازات » على الدولة العثمانية وعلى الجزائر ايضا .

انني لا اشك لحظة في ان هذا الكتاب ، الذي ختم به البروفيسور وولف حياته العلمية سيحظى باهتمام كبير لدى القارىء العربي ، الذي سيجد فيه ثروة كبيرة من المعلومات والاحكام والتفاسير الجديرة بالنظر والاعتبار . فنحن لاول مرة امام عمل جاد من باحث محايد الى حد كبير كرس حياته لخدمة التاريخ تعليما وتاليفا . وكم أنا سعيد أن وفقني الله الى ترجمة هذا الكتاب الذي يخدم في نظري تاريخ الجزائر واللغة العربية ، وهما القضيتان اللتان اوقفت عليهما حياتي العلمية .

ابو القاسم سعد الله

مدينة الجزائر 13 يناير 1985

مقدمة المؤلف

عندما توقف لويس الرابع عشر عن أن يكون قضية وأصبح كتابا (1) فكرت فى موضوع جديد قد يكون ذا اهمية وفائدة ، وقد كنت ملتزما لأصدقائي أن أكتب بحثين طويلين ، راجين أن نكونا مفيدين لطلبة سنوات شهادة الليسانس ، ولكني رغبت أيضا أن أتولى الكتابة فى مشروع أكثر اهمية يشغلني خلال السنوات الأولى من التقاعد ، وليس من الغريب أن يكون هذا المشروع موضوعا للتساؤل حول احتمال الانتهاء منه ، ومع ذلك فيجب أن يكون مشروعا ضخما لدرجة تبرر العمل فيه •

وكيف برزت الجماعة التركية بالجزائر الى الوجود ؟ ان كل شخص يحاول تفسير السلوك الانساني يعرف أنه من الصعب جدا أن تقول لماذا يفعل شخص ما « هذا » دون « ذاك » ، وكان قراري ، ربما بطريقة لاشعورية ، راجعا جزئيا ، الى أن أول بحث كتبته منذ حوالي خمسين سنة عندما كنت طالبا فى جامعة كلورادو ، كان يتعلق بمظهر من مظاهر العلاقات الفرنسية ـ العثمانية فى القرن السادس عشر •

لقد كان هذا البحث قد فتح لي الباب لاستعمال ذخائر المكتبة وأعطاني الفرصة لفهم بعض الصعوبات المترتبة على استعمال المراسلات الدبلوماسية لتوضيح منهج خاص فى تطور تاريخي ، ومازلت أذكر جيدا أن خير الدين بربروسة ظهر فى بحثي شخصية عجيبة : نصفه أسطورة ونصفه حقيقة تاريخية ، متنقلا هنا وهناك على أطراف بحثي ، ومن الواضح أن هناك أسبابا أخرى ، ربما أكثر اهمية ، لاختيار هذا الموضوع ، ولكن ما دام الأمر لا يتعلق بامتحان فى التحليل النفسي ؛ فان هذه الأسباب ستظل

---

1 ـ يشير المؤلف الى كتابه عن لويس الرابع عشر الذي اشتهر به بين الباحثين (المترجم) •

وراء الستار ، وقد يكون كافيا أن نقول انني لم أرد أن أزيد شيئا عن لويس الرابع عشر في المستقبل القريب .

ان نظرة سريعة الى المواد الثانوية المتوفرة عن موضوع الجماعات البحرية لشمال افريقية قد اقنعتني بأن الميدان غير مزدحم ، بل انها تدعو الى أن كتابا بالانكليزية قد يكون موضع ترحيب ، وقد انتهيت أيضا ، ببراءتي ، الى أن المشروع سيكون مجالا بسيطا وسيكون مهما جدا للدراسة سواء بالنسبة لسنواتي الأخيرة في ميدان التعليم أو سنواتي الأولى من التقاعد ، وقد برهنت التجربة على أن المشروع كان حقيقة هاما، أما كونه بسيطا فلا .

وقد تفضلت مؤسسة غوغنهايم Guggenheim بمنحي منحة ثانية سمحت لي بالتنقل في حوض البحر الأبيض المتوسط والبحث في المكتبات ودور الوثائق عن مواد الكتاب ، وبعد عدة سنوات أعطاني (مجلس البحث في العلوم الاجتماعية) منحة مكنتني من تصوير أشرطة (ميكرو فيلم) كثيرة سواء في مجال الوثائق (الأرشيفات) أو الكتب النادرة ، وخلال هذه السنوات مكنتني نيوبيري Newberry من دراسة واستعمال غير محدود لمجموعاتها الممتازة ، ومنحتني جامعة الللينوى (شيكاغو سيركل) سنة سبتية استطعت خلالها أن أعاود الزيارة الى أوربا مدة سنة كاملة للدراسة والسفر ، وقد استعملت جزءا من هذا الوقت لدراسة السواحل الاسبانية التي كانت متعرضة لهجومات البحارة (من شمال افريقية) حيث ما يزال يمكن للمرء أن يرى الاجراءات الدفاعية التي اتخذها كل من الملك والفلاحين ، وأخيرا فان مكتبة فولغر شكسبير Folger Sheskeespeare قد دعتني الى عقد حلقة (سيمنار) بحث مما جعلني أتمكن من قضاء أربعة أشهر من البحث بواشنطن وذلك في مكتبتي الكونغرس وفولغر ، وبالاضافة الى مكتبتي فولغر ونيوبيري ، فانني مدين أيضا بالشكر الى مكتبة السجلات العامة Public Record Office والمتحف البريطاني ، والأرشيف الوطني ، وأرشفات الشؤون الخارجية ، وأرشيف تاج أراغون ، والمكتبة الوطنية ، ومكتبة جامعة أمستردام ، وذلك لسماحهم لي بتصوير كثير من المواد على الأشرطة ، وانني سأضع هذه الأشرطة (ميكرو فيلمات) في مكتبة نيوبيري عندما ينتهي طبع هذا

الكتاب ، وبالاضافة الى ما ذكرت يجب علي أن أشير الى الدين الذي علي لمكتبات جامعة شيكاغو ، وجامعة الالينوي ، وجامعة منيسوتا (مكتبة بيل Bell) ، ان كل باحث فى التاريخ يعرف كم هي مهمة هذه المكتبات لمهنتنا .

ان الأعمال المكتبية والوثائقية تقدم للباحث الكثير من المتعة وأحيانا الكثير من الاثارة ، ولكن على الباحث أن يسأل نفسه ، عاجلا أو آجلا ، « ماذا ستفعل بكل هذه المعلومات ؟ » ان هذا السؤال ليس دائما محل ترحيب ، انه يجبر المرء على أن يحدد الطرق الهامة التي تبدو بارزة من البحث ، كما يجبره على أن يسأل السؤال الآخر : « هل هذه الأخبار ستنتج كتابا مفيدا وربما كتابا مهما ؟ ، وهل يمكن أن يكون كتابا بالمرة ؟ » وليس هناك مناص من أن بحثي فى الطرق التي كانت تتفاعل فى المغرب العربي (2) بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر كان يقودني نحو قضايا عريضة ومتنوعة ، حكومة مجتمع فوضوي ، السياسة الأروبية الرسمية ونشاط الجماعات البحرية ، والتوسع التجاري ومصالح التجار المسيحيين ، وقضية الرق والفداء ، والتقاليد القبلية ، والاثنيلوجيا ، والحكومة فى المجتمعات البدوية وشبه البدوية ، والهندسة البحرية وطرق الحرب ، والأسلحة والتنظيم العسكري ، ومجموعة أخرى من القضايا الأقل أهمية ، والواقع أن بحثي كان سيصبح سلسلة من الشموع الرومانية أو من الصواريخ السماوية المنطلقة فى كل الاتجاهات ، ولكنها كانت بصفة عامة مركزة على أي موضوع رئيسي أو اعتبار ذي أهمية ، واذا استعرنا تعبير وينستون تشرشل ، فان الدراسة التي بدأت كلعبة جذابة أو حتى خليلة جميلة أخذت شكلا يجعلها تصبح وحشا كان سينمو وينمو ... اللهم الا اذا اكتشفت طريقة ما لاحتوائه .

ومن الواضح انني لو تتبعت بالدراسة كل المجالات التي كانت تنفتح أمامي لأحتجت الى عدة مجلدات ضخمة لتقديم نتائج أبحاثي ، ولكن

---

2 – خلال البحث كله ترجمنا كلمة Maghrib بالمغرب العربي ، وكلمة North Africa بشمال افريقية وكلمة Barbary Coast بشمال افريقية كذلك ، وكلمة Morocco بمراكش .

أي ناشر سيفكر في نشر عمل بهذه الضخامة عن المغرب العربي ؟ ، وأكثر من ذلك : من سيكون مستعدا لقراءته اذا استثنينا الحفنة الصغيرة من الباحثين ؟ انه من الواضح أن عملا كهذا سيكون خارجا عن النطاق . ان سلسلة من الكتب المتخصصة (مونوغرافيات) ستكون أفضل لأولئك الباحثين القلائل المهتمين بالموضوع ، ومع ذلك فان هذا لا يعني أن كتابا عاما لن يكون مفيدا ، فالواقع أنه لا يوجد كتاب بالانكليزية يتناول الجماعة التركية البحرية في الجزائر .

ومع القرار بتحديد مركز البحث ، فقد أصبح من الواضح أن الجماعة التركية البحرية في الجزائر يجب أن تكون هي في مركز المسرح . وكان ضم تواريخ تونس وطرابلس غير ممكن لأن اختلاف حياتهما الاقتصادية ونظامها السياسي سيزيد فقط في ضخامة الكتاب ضخامة تخرجه عن الحجم المعقول دون المساهمة كثيرا لا في الأهمية ولا في الجدة ، ان دراستي في خصائص التطورات التي مرت بها الجزائر خلال هذه القرون الثلاثة ، قد قادت بسهولة الى الادعاء بأن هناك أطروحتين رئيسيتين هامتين يمكن البحث فيهما بفائدة واضحة : الأولى ، التطور التاريخي للمجتمع السياسي الذي كان قد تأسس أثناء « العهد البطولي » للبحارة المسلمين والذي انتهى في الأخير بالعدوان الفرنسي سنة 1830 . وان التجربة الجزائرية هي المثال الوحيد ، على حد علمي ، لحكومة مؤلفة من جيش احتلال أجنبي دامت ثلاثمائة سنة ، فتاريخها يعتبر مهما كما يعتبر درسا ، أما الأطروحة الثانية فهي تأقلم الدول الاروبية المسيحية مع المشاكل التي تولدت عن وجود جماعة بحرية ملتزمة « بحرب مقدسة » ضد الدول المسيحية ، وكانت هذه الصعوبات قد تعقدت من كون الايالة الجزائرية كانت تكنيكيا جزءا من الدولة (الامبراطورية) العثمانية ، ومع ذلك فقد أصبحت مستقلة عن السلطان وكانت تتجاهل أوامره (فرماناته) ، لقد كان من الصعب على الحكام (الأمراء) الأوروبيين أن يفهموا أن جماعة البحارة الجزائريين كانت قادرة على اعلان الحرب وقد فعلت ذلك ، على أية دولة ترغب في نهبها دون استشارة السلطان بل حتى رغم أنف رغبات السلطان ، وكانت هذه الطريقة تبدو غالبا قرصنة مكشوفة بدل الأعمال البحرية التي كان يقوم بها الخواص على غرار

النموذج المستعمل في أوروبا ، لقد حاولت أن أجعل محور بحثي يدور حول هاتين الأطروحتين .

اني ناقشت نتائج بحثي مع أصدقاء هم أكثر مني معرفة بالموضوع ، واني أرغب على الخصوص في شكر الأساتذة : بول بامفورد P. Bamford وأندرو هيس A. Hess ، على انصاتهما لي وتقديم اقتراحات ، وهما بالطبع غير مسؤولين ، من اية طريقة ، على النتائج التي توصلت اليها ، ولعلني قد أثقلت بمناقشاتي على أصدقاء آخرين كانت اهتماماتهم بعيدة عن المغرب العربي ، فيجب علي أن أطلب منهم العفو بدل أن ألومهم على أخطائي ، وأرغب أيضا في شكر زوجتي ، ثيتة Theta على مساعدتها الكريمة في تطوير هذا الكتاب ، فلولاها لكان من المحتمل أن لا يكتمل الكتاب أبـدا .

وأخيرا فاني مدين أيضا للسيد جيمس ميرز Mairs نائب رئيس شركة نورتن Norton والمحرر الرئيسي بها ، على صبره ومساندته ، بالاضافة الى دوره في التحضيرات الأخيرة لهذا المخطوط للمطبعة .

جون ب . وولف John B. wolf

جوبيتر اينليت كولوني ، فلوريدا

7 نوفمبر 1978

الفصل الأول

استيلاء الأتراك على الجزائر

في سنة 1830 نزلت حملة فرنسية على مدينة الجزائر وقضت بسرعة على النظام التركي الذي لحتل هذا الجزء من المغرب أكثر من ثلاثة قرون . إن أصول الحكومة التركية منسوجة من الأسطورة والخيال اللذين تخللهما حقائق مشتتة . ولكن هذا الجزء الوسطي من المغرب (1) له تاريخ طويل قبل أن يصله الأتراك ، فالفنيقيون والرومان والقوطيون والبزنطيون والعرب ، غزاة ومحتلين وحكاما ، بالاضافة الى حركات ضخمة للقبائل الرحل التي تعيش على أطراف الصحراء — فكل هؤلاء قد أسهموا في تكوين عناصر السكان وفي ذلك التاريخ الذي يتمطى في الماضي .

ففي زمن الرومان انقسم السكان الى « أهل بيوت الشعر » و « أهل بيوت الطين » أي خيام القبائل الرحل والمدن والقرى . وهذا التقسيم أيضا ما يزال صالحا عندما وصل الأتراك الى المغرب في القرن السادس عشر ، وأيضا عندما احتل الفرنسيون مدينة الجزائر في القرن التاسع عشر . فالأرض مكونة من هضاب عليا ومن جبال وصحاري ومن مساحة صالحة للزراعة صغيرة نسبيا . أما ساحلها فقد كان على العموم غير جيد للرسو . فالمراسي كانت قليلة والرسو بها كان لا يصلح الا جزئيا للنشاط التجاري . حقا لقد كانت هناك مدن ساحلية تتمتع بماض سحيق يعود

---

1 — المغرب هو الكلمة العربية للشمال الافريقي من طرابلس الى المغرب الاقصى ، وهي الآن كلمة شائعة ، وتسمى المنطقة أيضا الساحل البربري The Barbary Coast (الشمال الافريقي) .

على الأقل الى العهود القرطاجنية والرومانية ، ولكن ازدهار معظم هذه المدن لم يكن أبدا ازدهارا مدهشا . ومعظم الأراضي فى المغرب الأوسط كان يسكنها رعاة رحالة ، بعضهم عرب وبعضهم بربر ، يبدلون ، من وقت لآخر ، جلودهم وأصوافهم وحيواناتهم بالانتاج الزراعي ومصنوعات سكان القرى والمدن .

وان الفتح العربي للمغرب الذي بدأ فى القرن السابع قد ترك عنصرين ثقافيين هامين فى المنطقة . وهما الدين (الاسلامي) واللغة العربية . وقد اصر أحد المؤرخين البارزين على ان اعتناق شعوب شمال افريقية للاسلام كان حقا ثورة تجاوزت الثورتين الفرنسية والروسية فى عصرنا ، ولكن لسوء الحظ فانه لا أثر للوثائق ولا يوجد سوى قليل من البقايا الأثرية التي تخبرنا كيف حدثت تلك الثورة . غير ان الذي حدث فعلا هو كثرة المذاهب الاسلامية من أكثر النماذج تعصبا الى نوع أكثر تسامحا ، وهذه حقيقة نابعة من تاريخ الأرض نفسها . ومن جهة أخرى فما دام القرآن مكتوبا بالعربية وما دام عدد معتبر من القبائل العربية قد هاجرت الى المغرب فان لغة وثقافة العرب كانتا وما تزالان هامتين .

ولكن العرب لم يستطيعوا أن يؤسسوا نظاما سياسيا يشمل المنطقة كلها . ذلك أن فتوحاتهم ، من مصر الى اسبانيا ، كانت ، جغرافيا ، قد اتسعت جدا ولم يعد من السهل السيطرة عليها فى عصر كان النقل فيه محصورا فى الخيل والسفن . وقد مرت المنطقة ، من طرابلس الى المغرب الأقصى ، « بتنظيمات جديدة » عنيفة خلال القرون السابقة للقرون الوسطى المسيحية . وكان يقود تلك التنظيمات فى العادة رجال من الصحراء حيث التعصب الديني والرغبة فى الغنيمة قد بررا احتلال سكان المدن الذين يحبون الرفاهية والكسل . تلك هي قصة المدن منذ تطورت المراكز الحضارية لأول مرة ، فالقبائل القاطنة فى الجبال تنقض عليها وتنهب ثروتها .

وكان المغرب (من المنطقة التي نسميها اليوم تونس الى المغرب الأقصى) خلال القرن الثالث عشر مقسما بين ثلاث ممالك بربرية

استطاعت أن تسيطر على المدن وعلى سكان البوادي أيضا في تلك المنطقة . فالعائلة الحفصية التي تأسست في الجزء الشرقي (وهو تقريبا ما نسميه اليوم تونس) استمرت في الحكم الى القرن السادس عشر . وفي الغرب ظهرت اتحادية من القبائل تحت ملوك رعاة يسمون بنو مرين الذين انتصروا على الحكام الموحدين في منتصف القرن الثالث عشر ، وانشأوا ، أو شجعوا ، تطور حضارة في المنطقة التي نسميها اليوم المغرب الأقصى ، وهي الحضارة التي وصلت قمتها في آخر القرن الرابع عشر . وبين هاتين المملكتين البربريتين أنشأت قبيلة أخرى بقيادة عبد الواد ، الذي هو أيضا ملك من الرعاة ، الأسرة الزيانية في تلمسان التي هي مركز تجاري هام لتبادل البضائع الأفريقية وبضائع البحر الأبيض المتوسط ، وقد امتدت شرقا الى قسنطينة وحدود المملكة الحفصية . غير ان الزيانيين كانوا منذ البداية في وضع معرض للخطر لأن أراضيهم كانت تسيل لعاب جيرانهم الأقوياء من الشرق ومن الغرب . فالمرينيون هاجموا واحتلوا تلمسان بينما احتل الحفصيون قسنطينة في الجزء الشرقي من المملكة . ونتيجة لذلك لم تظهر دولة قوية في المغرب الأوسط . ومنذ فاتح القرن الخامس عشر لا وجود لسلطة مركزية حقيقية . كان هناك قبائل يعيشون على نمط معين من الحركة من مرعى الى آخر وكان بعضهم يستقرون وقتا يكفيهم لحصاد انتاج واحد من القمح ثم يواصلون حركتهم . وكان هناك أيضا مدن صغيرة ، بعضها كان على علاقة تجارية مع بقية البحر الأبيض . وقد كانت هذه في الواقع دول ـــ مدن مستقلة بزعامة زعمائها الدينيين أو الدنيويين .

وهكذا يعطينا المغرب في نهاية القرن الخامس عشر صورة انحطاط سياسي وعسكري وتدهور اقتصادي . فالعائلة الحفصية كانت ما تزال حاكمة في الشرق ولكنها كانت ضعيفة وغير قادرة في الغالب على السيطرة على القبائل العربية القوية أو على حكم المدن التي تزعم السيادة عليها . وفي الغرب ما تزال دول المغرب الأقصى تتمتع ببعض القوى السياسية والعسكرية ، اهمها تلك التي تمركزت في فاس ، ولكن أحسن ما توصف به حكومة المغرب الأقصى أيضا هو الانحطاط وليس الحيوية السياسية . أما المغرب الأوسط ، أي المنطقة التي نسميها اليوم الجزائر ، فقد كان

بدون حكومة يمكنها أن تزعم انها تتكلم باسم كل المنطقة . فقد كان عبارة عن مستنقع سياسي من مدن صغيرة وقرى مستقلة ومن قبائل بدوية او نصف بدوية من البربر والعرب ، لعل أقواهم هم سكان بلاد زواوة . ان هذا المغرب الأوسط هو الذي سيصبح الأيالة التي تحكمها جماعة البحارة القراصنة الأتراك العثمانيين وستصبح عاصمتها مدينة الجزائر . ولكن هذا لم يحدث بدون صراع القوتين الصاعدتين في القرن الخامس عشر ، في طرفي البحر الأبيض ، ونعني بهما الممالك الاسبانية والدولة (الأمبراطورية) العثمانية .

دعنا نتابع ، أولا ظهور الدولة (الأمبراطورية) الاسبانية في الغرب . أن زواج فيرديناند وايزابيلا قد جمع بين مملكتين من الممالك الثلاث (2) التي كانت موجودة في شبه جزيرة ايبيريا تحت سلطة تكاد تكون مشتركة ، رغم أنه لم يؤد فعلا الى توحيد مملكتي كاستيل واراغون في دولة اسبانية واحدة . ذلك أن مملكة فيرد يناند ، وهي اراغون قد استمرت في تكريس اهتمامها على جزر البحر الأبيض وعلى ايطاليا ، وكانت محكومة من قبل ديلوماسيين وسياسيين ذوي اتجاه تجاري ، بينما كان لمملكة كاستل التي يسيطر عليها نبلاء عسكريون ، نظرة سياسية أكثر عدوانية . ولم تكد تسقط غرناطة ، آخر مملكة اسلامية على شبه الجزيرة ، حتى مد رجال كاستيل عيونهم عبر مضيق جبل طارق الى ميادين جديدة للنشاط العسكري . وقد أرسلت ايزابيلا جاسوسا ليتعرف على ما يجري في الضفة الأخرى ، فكان تقريره كالتالي : « أن كل البلاد في حالة يبدو أن الله أراد أن يمنحها لأصحاب الجلالة . » وكانت سياسة الملوك الكاثوليك في مملكة غرناطة المفتوحة تؤكد التحرك الاسباني في شمال افريقية . ذلك أن رد فعلهم الأول لرعاياهم المسلمين كان التسامح . وهناك اسقف كان يحترم الثقافة الاسلامية والقانون الذي يسمح بممارسة الدين الاسلامي ، فاعطى المسلمين الأسبان المعروفين بالموريسكوس عشر سنوات تقريبا من الحرية النسبية ليواصلوا

---

2 ـ كانت المملكة الثالثة هي البرتغال ، ولقد استغرق قرار ايزابيلا ، ملكة كاستيل ، في هل تتزوج من اسرة اراغون أو من اسرة البرتغال ، بنفس الوقت ، وكان قرارها الأخير مصيريا بالنسبة للممالك الثلاث .

عيشتهم التي كانوا عليها في الماضي . ولكن منذ فاتح القرن السادس عشر تغيرت سياسة التسامح وعمل الملوك الكاثوليك على اثارة تمرد في رعاياهم الموريسكيين . وكانت نتيجة الاضطهاد ارسال آلاف منهم كمهاجرين الى المغرب العربي وحتى الى المشرق حيث أصبحوا يدعون الى الجهاد ضد الممالك الاسبانية . وقد خرج بعضهم الى البحر وهاجموا سواحل مواطنهم السابقة ونهبوا الصيادين الأسبان والتجار الصغار الذين وقعوا في طريقهم . وقد جاء وابل من العرائض الى الملوك الكاثوليك يطالب أصحابها بالنجدة ضد هؤلاء المغيرين الذين نهبوا القرى والكنائس والخلوات واسترقوا الفقراء الذين وقعوا في أيديهم .

ولو عاشت ايزابيلا لنتج عن تلك الشكاوي والعرائض الاحتلال الكاستيلي للمغرب العربي (*) . فهي عندما ماتت (سنة 1504) تركت وصيتها الملحة لخليفتها بتوسيع السيطرة الكاستيلية حتى تشمل جميع شمال افريقية : من مضيق جبل طارق الى طرابلس ، ولكن موت زوج ابنتها فيليب (سنة 1506) وجنون ابنتها « جوهانا » ، والخلاف بين فيرديناند وحكومة الوصاية على عرش كاستيل — منع من حركة سريعة . كما أن توحيد المملكتين الاسبانيتين قد أصيب بخطر جديد وهو أن فيرديناند قد يلد وريثا لعرش أراغون لا علاقة له بكاستيل ، ولكن مجلس وصاية كاستيل رفض السماح لفيرديناند القيام بأي حركة قد ينتج عنها حرمان أحفاده من ايزابيلا ، وهما شارل وفيرديناند فون هابسبورغ ، في كاستيل . ولم يكن هذا المشكل العائلي هو وحده الذي منع من احتلال شمال افريقية . ففي سنة 1492 قامت حملة بقيادة كريستوفر كلومبس باكتشاف العالم الجديد الذي اجتذب منذ أوائل القرن السادس عشر النبلاء والجنود الكاستيليين الراغبين في الثروة والسلطة عبر الاطلنطي ، وبذلك امتص العالم الجديد المغامرين الذين كان من الممكن أن يحتلوا شمال افريقية .

ومن جهة أخرى فقد كان اهتمام فيرديناند والجزء الهام من أهل أراغون أكثر بايطاليا وبالنزاع الذي كان يتطور هناك بين الدول الاوروبية

(*) — لعل هذا الافتراض صحيح اذا صح افتراض آخر وهو : لو لم ينزل العثمانيون بشمال افريقية « المترجم » .

من اية مغامرة للاحتلال . وكان هو ومستشاروه الاراغونيون اكثر تسامحا مع الموريسكيين والاسلام من القشتاليين ، وكانوا ميالين الى الحلول الديبلوماسية اكثر من الحلول العسكرية . ولكنهم اعترفوا ان شيئا ما لابد من عمله للحد من نشاط « قرصنة » المعيرين الموريسكيين التي كانت تحطم التجارة والسواحل الاسبانية ، غير انهم لم يكونوا مستعدين لاستثمار الثروة والقوة البشرية الضرورية للقيام باحتلال الارض نفسها . وافضل وصف للسياسة التي اتبعوها هو « الاحتواء » بدل الاحتلال . ذلك ان فيردينا ند حاول منع القرصنة بالسيطرة على الموانىء التي يمكن للقراصنة القيام بالعمليات منها .

والواقع ان احتلال اسبانيا موانيء المدن على ساحل شمال افريقية قد بدأ في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر . وذلك عندما احتل الدوق دي مادينا سيدونا de Medina Sidona مليلية . غير انه كان قد مر حوالي عشر سنوات قبل أن تحتل قوة اسبانية المرسى الكبير (سنة 1505) لايجاد ميناء مناسب للسفن الأسبانية . وبعد ست سنوات وبدافع من الأسقف خيمينيز دي سيسنيروس Cisneros وغيره استطاع بيدرونافارو Navarro أن يحتل وهران وبجاية وفاليز (*) ، وطرابلس (سنوات 1508 — 1511) . وكان عنف الهجومات الاسبانية والمعاملة القاسية للسكان المحليين قد أحدث رجة من الرعب على طول الساحل ، وأسرعت المدن التي لم يزرها بعد الأسطول الأسباني الى فيردينالد تطلب دخولها في طاعته كتوابع لسلطانه . وجاء هذا الموقف مناسبا للسياسة الأراغونية ، لأن ايطاليا كانت في تلك اللحظة أكثر أهمية من شمال افريقية . وكان فيردينالد راضيا باقامة مراكز محصنة Presidios في أهم الموانىء على طول الساحل . فبجاية والجزائر وفاليز ووهران والمرسى الكبير ومليلية كانت اما محتلة من قبل القوات الأسبانية واما أرغمت على قبول حصون اسبانية في موانيها مع مدافع تستطيع أن تتحكم في كل التحركات . وباستثناء وهران والمرسى الكبير وطرابلس فان حكومة المدن في الواقع تركت في يد الأهالي . ومن الواضح أن هذه السياسة كانت

(*) — بالمغرب الأقصى قرب الحسيمة ، واسمها العربي (بادس) .

تهدف الى وقف نشاط البحارة القراصنة العاملين ضد الممتلكات الاسبانية اكثر مما كانت مدفوعة باية اعتبارات دينية . ولكن تبين انها كانت سياسة غير صالحة . ذلك اننا سنرى أنه بعد وفاة فيرديناند انفكت كل الحصون المذكورة من أيدي الأسبان ولم تبق الا وهران والمرسى الكبير .

والصعوبة الأساسية لسياسة الاحتواء هذه تبدو لا محالة متأصلة في التعصب الديني للشعوب البربرية والعربية في شمال افريقية ؛وهو التعصب الذي زاده اشتعالا الاستبداد الأسباني في معاملة السكان المسلمين في اسبانيا . وهؤلاء الموريسكيون الذين أجبروا على قبول التنصر أو الهجرة ، والذين سجنوا وأحرقوا من أجل عقيدتهم وعاداتهم الاسلامية ، قد نشروا في كل مكان قصص عدم تسامح الأسبانيين (اي المسيحيين) واستبدادهم وقسوتهم وغلظتهم – لكي يجعلوا من الاسم « الأسباني » شيئا كريها . وقد عانت المعسكرات الأسبانية في المراكز المحتلة على سواحل شمال افريقية من هذه الحقيقة . وما دامت هذه المعسكرات في جزر بالمراسي فانها كانت معزولة من الأرض الافريقية لدرجة أن الخبز واللحم بل حتى الماء كان غالبا يأتي اليها عن طريق البحر . وفي القرن السادس عشر حين كان النقل والاتصالات معرضة للخطر كان اعتماد تلك المعسكرات الأسبانية على المساعدة التي تأتي من الخارج نكبة . ومع ذلك فان تلك المراكز المحتلة كانت قوية . وكان لها مدافع تستطيع ضرب المراسي وقبلة المدن . كما أن المعسكرات كانت مسلحة بالقربينات . ولم يكن المسلمون يعرفون هذا النوع من السلاح ولذلك لم يكن في استطاعتهم حتى رد « غزوات » (الغارات) الجنود الأسبان ضدهم . فلم يكن في قدرة الفرسان البربر أو العرب المسلحين بالرماح والسيوف أن يهزموا الجنود الأسبان الا اذا كانوا محملين ثقيلا بالغنائم وعندما يختل نظامهم أثناء السير .

ويكاد الوقت الذي بدأ فيه الأسبان في انشاء المراكز في شمال افريقية هو نفسه الوقت الذي كانت فيه حفنة من المغامرين الشرقيين قد وصلت الى وسط البحر الأبيض لتبدأ قصة كانها في أعاجيبها وغرائبها قصة كورتيز Cortez وبيزارو Bizarro في العالم الجديد . وكان زعيمهم هو عروج واخوته الذين ربما كانوا أبناء لجندي انكشاري سابق من

ابنة لقس يوناني ارثوذكسي ، ان الأساطير تخبرنا ان هؤلاء الفتيان قد ربوا تربية اسلامية ورعة بينما كانت اخواتهم مسيحيات . غير ان الحقائق الثابتة التي نعرفها عن عروج هي انه قبل تغربيته كان بحارا مسترقا في احدى السفن التي قبض عليها فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس وانه بعد فديته أو هروبه جهزه هو واخوته أمير مصري كقراصنة بحارة يغيرون على التجار المسيحيين . وهكذا فان ولي نعمته الأول لم يكن هو السلطان العثماني بل أمير مصري ستقع املاكه بعد ذلك بقليل في قبضة ذلك السلطان وجيوشه . وحوالي مدار القرن السادس عشر ، وصل عروج واخوته : اسحاق وخير الدين الى تونس ليبدأوا حرفتهم في غرب البحر الأبيض . لقد كانوا بحارة قراصنة ومجاهدين ضد المسيحية . وكان عروج أيضا يحارب حرب ثأر ضد الرجال الذين استرقوه في سفن فرسان القديس يوحنا . وقد رحب الحاكم الحفصي لتونس بهؤلاء المغامرين وسمح لهم باستعمال موانيه في مقابل سهم في الغنائم المأخوذة من السفن المسيحية . ولم تحن سنة 1510 حتى انتشرت قصص غنائم هؤلاء البحارة ـ القراصنة انتشارا واسعا في الشرق والغرب . ولم يكن القاء القبض على سفينتين كبيرتين محملتين بأشياء ثمينة ، واللتين كانت تملكهما البابوية ، الا واحدا من الهجومات الكثيرة والعديمة النظير التي أعطت لعروج الشهرة كرجل شجاع ومقدام وجريء ، فقد تزايد عدد سفنه الخاصة ، بالاضافة الى تلك السفن التي يقودها رياس (3) مشارقة آخرون . كانوا قد اتجهوا بدورهم نحو الغرب وجعلوا أنفسهم تحت قيادة عروج . وهكذا كان عدد أسطوله القرصاني قد تجاوز اثني عشر سفينة . وكان بامكانهم أن يصطفوا في خط واحد ، كل على مرأى من جاره ، وهي عملية تسمح لهم بمهاجمة وقبض اي سفينة قد تحاول أن تعبر شبكتهم . فلو أن الرايس عروج أراد أن يقضي بقية حياته كقرصان وأمير بحر لكانت شهرته وثروته مضمونة . ولكن عروج قد طور أفكارا أخرى . فقد رأى في النظام السياسي غير المحدد الشكل للمغرب الأوسط امكانات لانشاء سيادة سياسية لنفسه ولاخوته تجلب القوة والسمعة وكذلك الخلاص

---

3 – ان الرايس هو ضابط وقائد سفينة قرصنة ، وسنستعمل هذا التعبير في هذا المعنى خلال هذا الكتاب ، والمفرد والجمع لهما نفس الشكل .

في الآخرة . وكانت جهوده لتحقيق ذلك قد كلفته ذراعه في بجاية ثم حياته عندما جهد نفسه في مد سلطانه نحو تنس وتلمسان .

ولكن في السنوات الأولى من انشاء المقيبات (المراكز المحصنة) الأسبانية ، لم يكن هؤلاء القراصنة الشرقيون هم الذين ضايقوا حكومة فيرديناند . فبينما كان المشارقة يملكون الأسلحة النارية ، كانت سفنهم عبارة عن سفن من نوع الابريق ونوع الفليوق ذات الحجم الصغير وكانت مسلحة في أحسن الأحوال بمدافع صغيرة لا يمكن أن يكون لها أي أثر على جدران الحصون الأسبانية . أما الذي ضايق الأسبان حقا فهم المغيرون الموريسكيون الذين لم يهاجروا بعد ، يتحركون لقبض الأرقاء ، وحرق ستة أو ثمانية مجاديف في الجانب الواحد ، وهي الزوارق التي من السهل اخفاؤها في مصبات الأنهار الأسبانية ، بينما المغيرون ، بمساعدة الموريسكيون الذين لم يهاجروا بعد ، يتحركون لقبض الأرقاء ، وحرق الكنائس والسطوة على اديرة الرهبان (مونستاري) . ان هؤلاء « القراصنة » من الصعب اكتشافهم ومن الصعب السيطرة عليهم . اما البحارة القراصنة الشرقيون الذين لم يكونوا في مستوى الغاليونات الأسبانية المسلحة جيدا أو التي كانت تراقب البحر الأبيض ، فقد وجدوا ما فيه الكفاية من السفن التي ترجع الى الدويلات الايطالية ـ جنوا ، وصقلية ، ونابولي ، وتوسكاني ، ودويلات البابوية ـ فكانوا يغشونها ويجعلون طاقمها عبيدا . وأول اصطدام هام حدث بين المشارقة والأسبان كان عندما دعا أهل مدينة بجاية المشارقة لمساعدتهم على طرد الأسبان من المقيبة التي كانت تتحكم في تجارتهم . وقد كانت مدافع القراصنة غير فعالة . ولم يكن عروج ورجاله على استعداد لمواجهة شراسة المدفعية الأسبانية ونار القربينات التي كانت تصب عليهم صبا . وقد تحطمت ذراع عروج بكرة مدفع وانسحب رجاله في فوضى كبيرة . وبعد عدة سنوات ، وبعد وفاة فيرديناند سنة 1515 وجد عروج مرة أخرى ، عندما استدعاه الجزائريون لمساعدتهم ضد المقيبة الأسبانية في مرساهم ، ان مدفعيته كانت على درجة من الضعف لا يمكن معها أن تحقق مرغوبه . وهكذا فبرغم أن القراصنة الشرقيين كانوا يقيمون نشاطهم في الحوض

الوسطى للبحر الأبيض فانهم كانوا ما يزالون في مستوى أضعف من القوة الأسبانية طالما كان فيرديناند على قيد الحياة .

غير ان المشارقة الذين هم في أنفسهم مسلمون ، كانوا في تعاطف مع اهل البلاد ، ومن ثمة كانوا أكثر مرونة من الأسبان في حركتهم الهادفة الى تركيز أنفسهم في شمال افريقية . وكانت اول قاعدة صلدة لهم هي مدينة جيجل الصغيرة ، وهي بلدة ذات مرسى تقع على مسافة 180 ميل شرقي مدينة الجزائر . وقد ظهر المشارقة هناك عن طريق الصدفة بغنيمة ، وهي عبارة عن سفينة صقلية محملة بالقمح في الوقت الذي كانت فيه البلدة (جيجل) مهددة بمجاعة . واعترافا بهذا الفضل دعا سكان البلدة عروج ليصبح « ملكا » عليهم . وبعد سنوات قليلة أتاح موت فيرديناند فرصة جديدة أمام القراصنة المشارقة . ذلك أن حضر مدينة الجزائر والشيوخ العرب الذين كانوا قد دعوا فيرديناند ليحكم بلدتهم ، قد شعروا ان موته (فيرديناند) قد أحلهم من يمين الولاء الذي أدوه له . فدعوا عروجا الى احضار المشارقة الى مدينة الجزائر لكي يساعدوهم على طرد الأسبان من القصبة الواقعة في مرساهم . قام عروج أولا بزيارة لشرشال (وهي قيصرية زمن الرومان) التي هي مدينة على الساحل تقع على حوالي مسافة 150 ميل غربي مدينة الجزائر ويكاد سكانها يكونون جملة من لاجيء الأندلس ، حيث سبقه اليها أحد مساعديه السابقين وجعل نفسه « ملكا » . وكان عروج لا يريد منافسا . فنزل بشرشال ، وتكلم مع مساعده « غير الوفي » واعتقله وقطع رأسه . وقد انضم المشارقة بشرشال الى رجال عروج ثم تقدموا جميعا ، باستثناء حامية بقيت بشرشال نحو مدينة الجزائر .

ولما حل عروج بالجزائر فشل في زحزحة الأسبان ولكنه استطاع أن يخيف الشيخ الذي كان يحكم المدينة ، وأجبر السكان على قبوله « ملكا » عليهم . وبعد ذلك بقليل علم أن أعيان الحضر (البلدية) كانوا يتفاوضون سرا مع الأسبان طالبين منهم المساعدة على طرد المشارقة فما كان منه الا أن جمع المتآمرين في أحد المساجد وأعدم أغناهم وأكثرهم

نفوذا . ان هذا الفشل لم يجعل المشارقة يزدادون حبا في مدينة الجزائر ولكنه ثبط عزائم المحاولات الأخرى التي تهدف الى زعزعة حكمهم .

ومن الغريب أن هذه الطريقة الخشنة في الاستيلاء على السلطة لم تمنع بدءا أخرى من ان تطلب مساعدة القراصنة المشارقة . ففي الغرب أصيبت مدينة تنس والعاصمة القديمة تلمسان بوباء التنافس على خلافة عرشي المدينتين . وفي كلا الحالتين أدى الأمر الى أن يطلب أحد الطرفين المتنازعين المساعدة الخارجية من حاكم مدينة الجزائر الجديد . ترك عروج أخاه خير الدين ، الذي سيلقب بربروسه ، على مدينة الجزائر وتوجه هو وأخوه اسحاق بجيش صغير من المشارقة نحو الغرب . وقد ظهر في البداية أن الجيش الصغير قد حقق نجاحا كبيرا في الحصول على ولاء الأهالي حتى كان يبدو أن جميع المناطق الواقعة بين مدينة الجزائر وتلمسان ستصبح قريبا تحت طاعة حكم المغامرين المشارقة . ولكن في هذه اللحظة طلب ابن شيخ مدينة الجزائر القتيل النجدة من حاكم وهران الأسباني قائلا له ان المشارقة سيتولون على جميع المغرب اذا لم يوقفوا عند حدهم . وقد طلب حاكم وهران المساعدة من ملك الأسبان الجديد ، كارلوس الأول ، الذي سيصبح بعد قليل يسمى شارل الخامس أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وحاكم الأراضي المنخفضة البرغاندية ، بالاضافة الى معظم بلاد ايطاليا وأسبانيا . وقد أرسل الملك الشاب (كارلوس) قوة عسكرية برهنت على انها أقوى بكثير من قوة المشارقة . ذلك أن كلا من عروج وأخيه قد لقي مصرعه بالاضافة الى معظم رجالهما . ولم تنج من تلك القوة سوى قلة عادت الى مدينة الجزائر لتخبر بالنكبة .

ان هزيمة جيش القراصنة المشارقة والأخبار التي مفادها ان الأسبان يستعدون لحملة أخرى تهدف الى طرد خير الدين ورجاله من مدينة الجزائر كانت هي الأحداث الحاسمة التي كانت ستعطي الشكل الحكومة الجماعة القرصانية التي ستصبح الايالة الجزائرية The regency of Algiers ويخبرنا مؤرخ تركي ، قد يكون كتب بايحاء من خير الدين نفسه ، ان موت الأخوين قد نغص عيشة خير الدين وأحزنه . عندئذ دعا

القرصان الورع الرايس أعيان حضر المدينة واخبرهم أنه عازم على العودة الى المشرق ولكنه سيترك مدينتهم فى رعاية رجاله المشارقة واهل الاندلس غير ان الاعتراضات تعالت من كل جانب • ان مؤرخنا يخبرنا ان البلدية (حضر المدينة) قد رجوا خير الدين بأن لا يتركهم • فاشترط عليهم عندئذ انه فى حالة بقائه فانه يرغب فى دعوة سلطان الدولة العثمانية لمنحه الحماية ، وقد تلا ذلك مناقشة طويلة ، واخيرا الح عليه الاعيان الجزائريون أن يرسل نائبه الموثوق به ، وهو الحاج حسن ، الى السلطان ليأتي من عنده بالمعونة المطلوبة بينما يبقى خير الدين نفسه فى مدينة الجزائر للدفاع عنها • ان مؤرخنا لم يخبرنا ما اذا كان السلطان سليم خان ، المعروف بالمخيف (The Grim) قد سأل أسئلة محددة عن علاقات المشارقة الاولى مع مصر ، ولكنه لم يؤكد لنا ان السلطان قد قبل عرض خير الدين فى وضع فتوحاته تحت مظلة الدولة العثمانية باسم السنجق (الاقليم) الغربي فى مقابل المساعدة العسكرية • وهكذا أصبح خير الدين باشا تركيا ، كما أن النقود المضروبة فى مدينة الجزائر ستحمل منذئذ صورة السلطان •

ولعل الأمر ليس بالبساطة التي يحكيها لنا صاحب كتاب (الزهرة النيرة) (*) ، رغم أن المؤرخين المسيحيين يعطوننا نفس القصة تقريبا • ومع ذلك فان الحقيقة هي أن السلطان سليم الأول ، قد قبل أن تكون الجزائر اقليما عثمانيا حدوديا جديدا • كما أرسل ألفين من جنود الانكشارية وأربعة آلاف من المشارقة الآخرين المجندين فى المليشيا الجزائرية ، بالاضافة الى ارساله لبعض المدافع والذخيرة الحربية •

لقد كان ذلك خطوة حاسمة فى تطور ايالة الجزائر التركية الذي استمر الى سنة 1830 • ان دخول الانكشارية التركية قد وفر العضلات العسكرية الضرورية ليس فقط للدفاع عن مدينة الجزائر ضد الأسبان ولكن أيضا لتوسيع رقعة الفتوحات العثمانية فى الأخير لتشمل كل المغرب الأوسط • ومن جهة أخرى فان ادخال ديوان الانكشارية باعتباره

(*) ـ ألفه محمد بن عبد الرحمن بن رقية سنة 1194 هـ ، والعنوان الكامل هو (الزهرة النيرة فيما جرى فى الجزائر حين اغارت عليها جنود الكفرة) • انظر كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ج2 ، ص 351-353 ، (المترجم) •

المؤسسة الحاكمة للجيش ، قد جاء بمؤسسة ستكون في المستقبل أساسا لحكومة الأيالة .

ولو ان الرد الأسباني كان سريعا بعد وفاة عروج لوفر على الممالك الأسبانية كثيرا من الثروة ولأنقذ حيوات عديدة ، ولكن مونكادا Moncada ، نائب صقلية لم يفهم هذه الحقيقة . لقد كان بطيئا في اعداد حملة لاحتلال مدينة الجزائر . ذلك ان مشروعه لم يبدا الا بعد أن أضاف خير الدين بونة (عنابة) الى حكومته ، وهي مدينة ذات مرسى تقع قرب الحدود التونسية ، كما انه زاد من تحصينات مدينة الجزائر . وعندما أنزل مونكادا قوات من الأسبان والطليان تقرر هو ومجلسه الحربي تأخير الهجوم على المدينة الى ما بعد وصول حلفائهم من تلمسان وانضمامهم اليهم . بقي الجيش الأسباني منتظرا أمام مدينة الجزائر مدة أسبوع . عندئذ هبت عاصفة عنيفة قرمت بستة وعشرين ، من مجموع الأربعين سفينة أسبانية ، على الصخور وقضت على معظم تموينهم الذي كان يفتقر الى المخبأ المناسب . (*) وأثناء الفوضى التي تلت ذلك هاجم جنود الانكشارية من المدينة تعززهم رجال القبائل البربرية المدفوعين بالرغبة في الغنيمة ، القوات الأسبانية المضطربة ووضعوا خاتمة النكبة . لقد انخفض عدد العبيد الى حد أدنى جديد عندما عرض المئات من الجنود الأسبان والطليان للبيع . ان الاحصاء التركي يذكر ان أكثر من ثلاثة آلاف جندي وست وثلاثين ضابطا وقعوا في الأسر على الشواطىء ، وان اكثر من ذلك بكثير قد قتلوا .

ان الامدادات من السلطان العثماني والانتصار على الجيش الأسباني قد زادت في اقدام البحارة القراصنة على توسيع مجال نشاطهم . نعم الى ذلك الحين كانوا يمارسون معظم نشاطهم في وسط البحر الأبيض ، ولكنهم منذئذ أخذوا يغيرون على سواحل كاتالونيا ، وبلنسية وجزر غربي البحر الأبيض . لقد كانت الغارات فظيعة لدرجة أن كورتيز

(*) - سنجد هذا التفسير يتكرر من المؤلف بكثرة ، فالهزائم الاوروبية امام الجزائر مرجعها دائما تقريبا الى العوامل الطبيعية وليس الى مقاومة او بطولة السكان او العساكر ... الخ . (المترجم) .

(البرلمان) مملكة اراغون عقد جلسة فى برشلونة أثناء شتاء 1519 ـ 1520 وصوت على معونة قدرها عشرة آلاف دوكا سنويا تدفعها امارة كاتالونيا وممالك بلنسية وميورقة ، وسردينيا . فاذا تذكرنا ان الملوك الأسبان قد عانوا كثيرا فى الحصول على قروض من مملكة أراغون (التي كانت تضم الامارات السالفة) عرفنا الاهمية الحقيقية لهذه المنحة . ان هذه المنحة كانت ستستعمل فى بناء قوة بحرية لمواجهة القراصنة المسلمين ، كما كانت موجهة لبناء تحصينات ومراكز رقابة ما تزال شاهدة على ان الممالك الأسبانية كانت حقا واقعة تحت حصار من جهة البحر .

كانت الحراسة الأسبانية موجهة ضد القواعد الرئيسية الممكنة للقراصنة. وكان ميناء مدينة الجزائر ما يزال تحت رقابة لمدافع الاسبانية المنصوبة فى المقيمية الواقعة على جزيرة فى المرسى . وكانت سفن خير الدين تعمل فى الموانيء الصغيرة على طول الساحل ، وخصوصا من جزيرة جربة حيث كان أخوه عروج قد أخذ البحرية القرصانية بعد هجوم على حلق الوادي الذي هو أهم مرسى تونسي . لقد أقنع ذلك سلطان تونس بوجوب منعهم من الاحتماء بموانية . وقد أنزل الأسبان حوالي ثلاثة عشر ألف رجل فى جربة ، بعضهم مسلحون بسلاح يسمى الاسكوبيتوس Escopetus وهو سلاح ناري جديد أكثر فعالية من القربينات . ان ذلك الشيخ البربري (يعني سلطان تونس) ، الذي كان قد رحب بمنح حق اللجوء الى القراصنة فى مقابل نسبة من « غنيمتهم » ، كان مستعدا أن يحلف فورا بيمين الطاعة لملك اسبانيا وأن يعد بمنع القراصنة من دخول موانية . ولكن لم تمض سنوات قليلة فقط حتى نسي يمينه ووعده . ولو أن الشاب كارلوس الأول (شارل الخامس) الأسباني لم يكن مشغولا جدا بأشياء أخرى كثيرة ، فلربما قضى على هذا التهديد الذي مثلته جماعة خير الدين القرصانية ـ الانكشارية فى مدينة الجزائر ، وهو التهديد الذي كان متناميا ضد اسبانيا وضد المسيحيين .

وسنفهم فهما أفضل لماذا لم تلجأ الممالك الأسبانية الى حركة صارمة ضد نواة جماعة القرصنة فى تلك السنوات الأولى ، اذا تذكرنا

بعض المشاكل التي كانت تواجه الملك الشاب شارل (4) . قبل كل شيء كان الأسبان غير مستعدين لقبول حكومته . فقد حدثت ثورة في بلنسية سنة 1519 ، وأخرى في كاستيل سنة 1520 ، كما حدثت ثورة بلديات (كو مينوروس) سنتي 1520 — 1521 . ذلك أن رعايا شارل الاسبانيين لم يكونوا يرغبون في الاندماج في مملكة واحدة يحكمهم قانون واحد . ان هذا الموضوع كان عليه أن ينتظر الى القرن الثامن عشر حيث لم يتحقق الا جزئيا . كما أن رعايا شارل الأسبانيين لم تكن لهم ارادة مشتركة معلنة ولا هدف محدد . ومع ذلك فان أسبانيا لم تكن سوى واحد . ان هذا الموضوع كان عليه أن ينتظر الى القرن الثامن عشر حيث المقدسة ، أي في الوقت الذي كانت ستدخل فيه فترة الاصلاح اللوثري . كما أنه ورث مشاكل عرش برغانديا الذي كان يتضمن النزاع مع فرنسا على خلافته وهكذا انضمت مشاكل برغانديا الى مشاكل ايطاليا لكي تجبر شارل على الدخول في حروب مع فرانسوا الأول ، ملك فرنسا ، وهي الحروب المعروفة بحروب الهابسبورغ — فالوا Valois التي دامت نصف قرن . لقد أفرغت هذه الحروب خزينة شارل وخزينة خصمه الفرنسي . ولكن المشاكل لم تتوقف عند هذا الحد . فشارل لم يكن فقط معاصرا للملكين قويين ومختالين في أوروبا الغربية ، وهما فرانسوا الأول ملك فرنسا ، وهنري الثامن ملك انجلترا ؛ ولكنه كان معاصرا أيضا لسليمان القانوني ، سلطان الدولة العثمانية . فكان على شارل أن يأتي لنجدة أخيه فيرديناند الذي كان يحكم في ألمانيا بلقب « ملك الرومان » عندما هاجم الأتراك فيينا سنة 1529 .

وأثناء تورط شارل العميق في السياسة الأوربية حاول خير الدين أن يؤسس سلطة اسلامية في المغرب (*) . لقد كان خير الدين رجل دولة كما كان سياسيا ماهرا ، وكان رجلا يتمتع بشخصية جذابة اذا اقتضى

4 — كان شارل فان جنت (1500—1558) وريثا لأرض أهله في الأراضي المنخفضة ، والتركة البرغاندية ، وأراضي جدة النمساوي على الدانوب ، كما كان الوريث لعرش اسبانيا ، وقد انتخب على رأس العرش الامبراطوري للدولة الرومانية المقدسة ، وقد كان يدعى في اسبانيا شارل الأول ، أما في ألمانيا فقد كان شارل الخامس .

(*) — يستعمل المؤلف أحيانا عبارة (المغرب) للدلالة على المغرب الأوسط — الجزائر (المترجم) .

الأمر ، ولكنه كان أيضا ممثلا مخيفا لعصره باعتباره حاكما غليظا اذا اقتضى الأمر ذلك أيضا . اعترف خير الدين بأن سياسة أخيه الهادفة الى الحصول على سلطة سيادة فوق المدن الداخلية كانت سياسة صحيحة، بل كانت ضرورية لا مناص منها ، للتطور الناجح الذي عرفته دولة الأتراك ـ القراصنة ـ الانكشارية . كما أن خير الدين كان زعيما مسلما وربما يرى أن اعادة فتح اسبانيا هدفا هاما للاسلام . وعندما امتدت قوانين شارل الدينية غير المتسامحة المطبقة في كاستيل الى أراغون ، جاء خير الدين لمساعدة الموريسكيين على الهروب من اسبانيا . ويبدو أن هذه التجربة قد أقنعت خير الدين بأن اعادة فتح اسبانيا لا يمكن أن يتحقق الا اذا أصبح المغرب كله تحت سلطة اسلامية واحدة وهي السلطة التي سيكون بامكانها تجييش جيوش العودة الى الأرض الأسبانية . واذا كان عروج هو المؤسس الحقيقي لجماعة القرصان فان خير الدين بربروس هو الذي كان السياسي الماهر والمنظم العسكري والقائد الذي أسس الايالة الجزائرية التركية . انه هو الذي أعطى هذه الايالة شكلها المميز وأعطى وجودها صفة الشرعية بربطها بالدولة العثمانية (أنظر الفصل الرابع الآتي) .

ولكن توحيد منطقة المغرب المضطربة تحت سلطة واحدة لم يكن أمرا سهلا . حقا انه من الممكن أن لا يتحقق أبدا . فعندما بدأ خير الدين حكمه كانت المقيمات الأسبانية تسيطر على الحركة في موانىء الجزائر ووهران وتنس وڤاليز (بادس) وعنابة وبجاية بالاضافة الى موانىء أخرى عديدة أقل أهمية . وكانت العاصمتان القديمتان تلمسان وقسنطينة في غرب وشرق المغرب الأوسط قد اعتمدتا على تسيير شؤونهما بنفسهما ولا تريدان أي تدخل من الخارج . أما في الجبال والهضاب العليا فقد كانت القبائل البربرية والعربية تحت قيادة شيوخها وأمرائها ، ولا تريد هي أيضا أن تدفع ضريبة أو تعترف بسلطة خارجية . واذا كانت مشاكل خير الدين لا تبلغ أهمية المشاكل التي واجهت شارل الخامس على المستوى السياسي فانها كانت في الواقع لا تقل عنها صعوبة في ضوء الامكانيات التي كانت لديه . غير أنه كانت لديه فرصة هامة ، وهي أن المسيحيين الأسبان كانوا يشكلون العدو المشترك وكانوا مكروهين

لدينهم ولعنف ضباطهم البحريين ، ثم أن المدن الساحلية لا يمكنها طردهم (الأسبان) الا بمساعدة الأتراك . تلك هي أول فرصة سياسية لخير الدين .

واذا كان الاشتراك في الدين يعد نقطة ايجابية فان هناك سلبيات أيضا . ففي طرفي المغرب الأوسط واجه خير الدين قوات عسكرية من العرب والبربر أكثر استعدادا لمحاربة الانكشارية التركية . ففي الغرب كان الأسبان يحتلون وهران والمرسى الكبير حيث لهم مدافع وتحصينات ورجال مسلحون بالقربينات . وكانوا أقوى من أية قوة يمكن لخير الدين أن يحضرها لمواجهتهم ، لقد كانوا حاجزا فعالا في وجه أي توسع نحو الغرب لحكومته . وفي جنوب وهران هناك سلطان فاس الذي كانت حروبه المتوطنة ضد الأسبان لم تجعله يقبل رؤية حكومة قوية تظهر في المغرب الأوسط وتمد سلطانها على تلمسان وقد تتوسع الى أبعد من ذلك . وكان هو أيضا يملك أسلحة حديثة مثل القربيلة والمدافع الصغيرة ، كما كان له جنود منضبطون انضباطا غير معروف للبربر والعرب في منطقة خير الدين . ومن جهة أخرى تعززت السلطة المراكشية (فاس) بهجرة الموريسكيين من اسبانيا . وقد رحب بهم سلطان فاس ، وأحضروا معهم عددا من الصنائع التي من بينها فن صناعة الأسلحة ، بالاضافة الى الجنود المتطوعين في جيش السلطان . فاذا لم ينضم هؤلاء الجنود المراكشيون (فاس) الى الانكشارية التركية في تحالف حر ، فان اعادة فتح اسبانيا سيكون أضغاث أحلام . غير أنه من غير المحتمل أن المراكشيين (فاس) سيتخلون عن استقلالهم ليساعدوا بكل بساطة السلطة التركية الهادفة الى التوسع والهيمنة .

وفي الطرف الآخر من المغرب الأوسط واجه خير الدين أيضا قوة عسكرية أخرى أكثر مهارة من قبل رجال القبائل العربية والبربرية (*) . فسلاطين تونس ، وهم آخر العائلة الحفصية كانوا يحكمون مقاطعة كان

(*) — يشيع هذا التعبير في الكتاب ، فالمؤلف لا يعترف ، فيما يبدو ، تقليدا للمدرسة الفرنسية ، بوجود «شعب» جزائري ، وانما هناك «القبائل» .

فيها انتاج القمح وزيت الزيتون والصوف والجلود والفواكه وغيرها كثير من المواد قد سمح بتبادل بضائع عديدة في السوق العالمي ، ومن ثمة أيضا سمح بالحصول على مداخيل أهم من مداخيل المغرب الأوسط . ومن جهة أخرى كان عند سلطان تونس مرتزقة ، كثير منهم كانوا من المسيحيين ، الذين تعلموا استعمال الأسلحة النارية قبل ظهور الاتراك . ان هؤلاء الحكام الحفصيين كانوا مكروهين جدا من رعاياهم ، ولكنهم عرفوا كيف يتحالفون مع العائلات العربية القوية ومن ثمة سيطروا على البلاد . لذلك وجد خير الدين وخلفاؤه أن تونس كانت تقف عائقا في طريق التوسع نحو الشرق . حقا أن سلاطين تونس كانوا يطمعون في قسنطينة وروابي بلاد القبائل من الناحية الغربية لدولتهم تماما كما كان حكام الايالة التركية يرغبون في التوسع نحو الشرق الى الكاف والقيروان .

وخلال عقد العشرينات ، 1520 — 1530 ، جرب النظام التركي القائم على القرصنة الانتصار والهزيمة في جهوده من أجل تشييد دولة في المغرب الأوسط . وهناك هزيمة كادت أن تكون مدمرة لذلك النظام لو استطاع الأسبان أن يغتنموا فرصة اللحظة الحرجة للقراصنة . ذلك أنه بعد الانتصار السهل على زعيم اتحادية بلاد زواوة المؤلفة من قبائل كوكو بقيادة أبرز شيوخها ، وهو ابن القاضي ، وبعد احتلال مدينتي قسنطينة وعنابة في الجهة الشرقية من الاقليم — واجه مدينتي قسنطينة سلطان تونس . ان هذا التحالف بين رجال قبائل كوكو والتونسيين سيكون مشكلا دائما لحكام الجزائر أثناء القرون التالية . فابن القاضي المتحالف مع التونسيين لم يكتف بهزيمة الجيش الانكشاري الصغير ولكنه طرده أيضا من مدينة الجزائر وأجبر الاتراك على مغادرة هذه المدينة . لقد انسحب خير الدين الى شرشال بأسطوله وطلب النجدة من السلطان العثماني سليمان القانوني . ولكن السلطان العثماني لم يكن قادرا على تقديم مساعدة هامة لأن جيشه كان في حالة حرب لاحتلال جزيرة رودس ، كما كان يستعد للهجوم على حوض الدانوب ، وهو الهجوم الذي جعل جنوده أمام أسوار فينا . ومن حسن حظ خير الدين أن رجال قبائل كوكو وزعيمهم ابن القاضي ، لم يكونوا مستعدين

للاستيلاء على الحكومة التي كان القراصنة الأتراك قد شرعوا في تشييدها وبدلا من ان يحلوا محل الأتراك عمدوا الى نهب منظم لمدينة الجزائر . وقد رأى البلدية (الحضر) ومهاجرو الأندلس الموجودون في هذه المدينة ، أن النظام التركي كان اخف الضررين .

وارسل خير الدين من جهته قراصنته ليغنموا من السفن المسيحية ، وبذلك يحصل على النقود الضرورية للاعتراف بقوته . كما انه عقد حلفا مع قبيلة بربرية ، هي القلعة ، Kalaa ، التي كانت مضادة لكوكو . وفي الهجوم الموالي كانت الدائرة قد دارت على ابن القاضي ، واستطاعت جماعة القراصنة التركية أن تستعيد مركزا في متيجة (5) ، وهي المنطقة المحيطة بمدينة الجزائر . وكان أهالي كوكو يرغبون في السلام ، لذلك أرسلوا برأس ابن القاضي الى الجزائر . أما خير الدين فقد أسس في الوقت الحاضر سلطة تركية في الجزء الشرقي من دولته .

أما في الغرب فان التوسع التركي القرصاني قد لقي تسهيلات عندما قبلت مستغانم ، وهي مدينة بحرية ، جماعة خير الدين ضد الأسبان . ان هذه العملية قد أعطت للقراصنة مرسى آمنا غير بعيد من وهران ، وهو المرسى الذي يمكنهم أن يحضروا اليه المدافع والذخائر الحربية لاحتلال المناطق الغربية المحاذية لوهران وسلطنة فاس . ومن جهة أخرى أعان القراصنة حضر مدينة فاليز (بادس) على طرد الحامية الأسبانية وبذلك أمنوا لأنفسهم مدخلا الى مرسى آخر على الساحل المغربي ، وذلك غربي مدينة وهران . والواقع أن سماح مستغانم بالنقل عن طريق البحر قد جعل بامكان قوات خير الدين أن تستولى على تلمسان ، وهي العاصمة القديمة للمغرب الأوسط . ولكنه كان استيلاء سهلا ذلك أن أحد الطرفين المتنازعين في المدينة استنجد بجنود القراصنة الأتراك لمساندة مرشحه على عرش المدينة . وبينما كانت سياسة الأسبان

---

5 ـ هو حزام ضيق من الأرض ممتد من تنس غربي مدينة الجزائر الى دلس شرقيها ، وكان معروفا باسم متيجة او دار السلطان ، وكان محكوما من مدينة الجزائر خلال العهد التركي ، أما بقية الاقليم فقد كان مقسما بين ثلاثة بايلك ، انظر الخريطة .

تقوم على تنصيب حاكم من الأهالي ثم تطلب منه أن يقسم يمين الولاء الى الملك الاسباني ، ثم يتراجعون تاركين المدينة تحت حكومة « صديقة » — كانت السياسة التركية تقوم على اقامة حامية انكشارية في اية مدينة تقع تحت السلطة التركية ، وبذلك تضمن ولاء السكان . وكان الاسبان في وهران غير مرتاحين لهذه السياسة . فحاولوا عدة مرات ارسال قوات لطرد الأتراك ، ولكنهم في سنة 1543 عندما نجحوا في الاستيلاء على المدينة لم يقدروا على المحافظة عليها بجنودهم الذين كان دينهم منبوذا من طرف سكان المدينة ، وهكذا سرعان ما رجع الأتراك اليها .

غير أن أكبر مشكل كان يواجه خير الدين في هذه السنوات الأولى كان في مدينة الجزائر نفسها . ذلك أن وجود الحامية الاسبانية في المقيبة الكائنة على الجزيرة الصغيرة في مرسى المدينة قد جعل من المستحيل عليه استعمال سفنه في هذا المرسى . وكان أسطوله الصغير لم يتشجع على مواجهة مدافع الحصن الأسباني . ولذلك كان على القراصنة أن يرسو في مكان آخر أو يتجمعوا في شواطيء بعيدة عن مدينة الجزائر . بدأ خير الدين حصارا جديدا للحصن الصغير سنة 1529 . وقد حاربت الحامية الأسبانية بشجاعة ولكنها كانت في حاجة الى الطعام والماء والذخيرة الحربية . ان سفن التموين وصلت من اسبانيا بعد أيام من استسلام قائد الحامية . وكانوا يشاهدون الأرقاء الأسبان وهم يهدمون التحصينات ويستعملون الحجارة للشروع في بناء المول (Mole) أو الرصيف البحري الذي سيربط الجزيرة بالأرض ويمنح مخبأ آمنا الى حد ما للسفن ضد عواصف البحر الأبيض . ان المؤرخ التركي يخبرنا أنه عندما سمع ملك اسبانيا بسقوط مقيبة الجزائر « لعنه الله (أي شارل) رفع أصابعه غضبا » ودعا الى عقد اجتماع مجلس الدولة . وكان الأعضاء جميعا صامتين الا المسمى دوريا (Doria) الذي اقترح مهاجمة بربروسة (وهذا هو الاسم المسيحي لخير الدين) . عندئذ عقد ملك اسبانيا السلام مع فرنسا وابحر دوريا بأسطول عظيم لمهاجمة شرشال حيث كان بربروسة يصنع كعكه .

لقد صدق المؤلف التركي لأن اندريا دوريا (6) هاجم فعلا شرشال سنة 1530 . وقد أنزل الجنود فحرروا عدة مآت من الأرقاء المسيحيين، ثم أخذوا في نهب هذه المدينة الصغيرة . لقد كان مشروعا سيئا حقا . ذلك أن شرشال كانت مسكونة في الأغلب من قبل المهاجرين الموريسكيين الذين يعرفون كيف يحاربون وكانوا سعداء بمقاتلة الأسبان أو الطليان . وبينما كان جنوده منهمكين في حرب الموريسكيين، علم دوريا أن أسطول قراصنة خير الدين كان في طريقه لانجاد المدينة . وما دامت قوة أسطول خير الدين أكبر من قوته فقد أبحر دوريا بعيدا، تاركا جنوده في المدينة أرقاء منهوكي القوى .

ان الاستيلاء على المقيمية الأسبانية في مرسى مدينة الجزائر، ثم انسحاب دوريا المفاجيء أمام أسطول القراصنة القادم لم يجعلا نظام القرصنة التركي يزداد جسارة فقط بل ساعدا على زيادة سمعة خير الدين لدى السلطان باسطانبول، ذلك أنه منذ هذا الوقت أصبح أمير البحر والقرصان (خير الدين) عاملا هاما في السياسة والاستراتيجية البحرية لوسط البحر الأبيض .

---

6 ـ كان اندريا دوريا (1466 ـ 1560) من جنوا وأميرا بحريا مرتزقا، وكان يملك أسطولا من سفن الحرب المعدة لخدمة الحكام الذين يقدمون المال والنفوذ، وكان في أول الأمر في خدمة فرانسوا الأول، ملك فرنسا، ثم انضم الى شارل الخامس، وخلال بقية حياته كان أهم أمير بحري «أسباني» في البحر الأبيض، ويقول بعض النقاد انه كان يفر من أي اشتباك قد يؤدي الى تحطيم سفنه الخاصة، بينما يلمح الغير بأنه، مثل خير الدين الذي كان أيضا يملك السفن الحربية التي يقودها، لم يؤذ أحدهما الآخر، تماما «كالذئاب لا تقتل بعضها البعض بدافع المصلحة المشتركة»، ولقد استمرت عائلة دوريا في خدمة ملوك أسبانيا كتجارة مرتزقة خلال القرن السادس عشر .

الفصل الثاني

خير الدين ضد شارل الخامس

ان الاستيلاء على مقيمة مرسى الجزائر سنة 1529 جاء في نهاية عقد من الزمن كان فيه أمراء أوروبا منهمكين في حروب امتدت من سهول هنغاريا (المجر) الى جبال البيريني فملك الفالوا الفرنسي Valois فرنسوا الأول كان سجين حرب في مدريد ، وملك هنغاريا قتل في معركة مع الأتراك ، واقتحمت مدينة رومة من قبل جنود ملك اسبانيا الكاثوليكي . أما أمراء ألمانيا الشمالية فقد شكلوا حلفا باسم « حزب لوثر » ليعارضوا به ارادة امبراطورهم . ولم يتوحد الألمان الا سنة 1529 م عندما وصلت الجيوش التركية أمام فيينا فهبوا (الألمان) لابعاد القوات العثمانية من النمسا . وفي نفس السنة عقد سلام مؤقت في كامبري Cambrais وهو المعروف « بسلام السيدات » وقد أنهى الحرب بين عائلتي الهابسبورغ والفالوا . ولكن هذا السلام لم يمنع فرنسوا الأول من ارسال مبعوث الى كل من السلطان سليمان وخير الدين يقترح عليهما القيام بعمل فرنسي – تركي ضد أسطول أندريا دوريا المرتزق آخذا بالثأر من دوريا الذي هرب من الخدمة الفرنسية الى الخدمة الاسبانية . ان هذا هو العهد الذي وصفه ماكيافيلي في كتابه (الأمير) بأنه عصر الزعماء الانتهازيين والنفعيين والسياسيين العازمين على تأمين المنافع من أجل أنفسهم .

ومن الممكن أن يكون طلب الملك فرنسوا قد أهم السلطان ومستشاريه ، ذلك أن دوريا قام ، بأمر من شارل الخامس ، بغارة على خليج كورنث Corinth قبل سنة فقط من ذلك التاريخ . ولكن مستشاري السلطان كان لديهم أمور أخرى تستحوذ على اهتمامهم . ان الهزيمة في فيينا سنة

1529 كان سببها جيش شارل الخامس بالاضافة الى جنود أخيه فيرديناند ، ملك الرومان ، الذي كان الحاكم الفعلي في ألمانيا . فهل يمكن أن يكون الطريق الى أوربا الوسطى عبر الدانوب ، مغلقا من قبل سلطة الجهاز الامبريالي الأسباني لعائلة الهابسبورغ ؟ ثم أن هناك صراخ المهاجرين الموريسكيين في بلاط سليمان ، الذين كانوا يحثون السلطان التركي على تصحيح المظالم التي ارتكبت في حق مسلمي اسبانيا . وأمام كل هذا ، ظهر باشا الجزائر ، خير الدين شخصية رئيسية . فقد كان هو وقراصنته ينزلون على السواحل الاسبانية ويحملون معهم الغنائم والعبيد والموريسكيين الراغبين في الفرار من الاستبداد الأسباني . ان هؤلاء اللاجئين كانوا يحيون خير الدين على أنه بطل مسلم يمكن أن يقود ذات يوم جيشا منصورا الى اسبانيا نفسها . ولذلك قرر سليمان استدعاء خير الدين الى اسطنبول لمناقشة موضوع انشاء أسطول عثماني وامكانية تدخل الدولة العثمانية في غرب البحر الأبيض .

لقد كان هذا موضوعا جديا بالنسبة للسلطان العثماني . ان الجيش التركي كان دائما « حيوان الأرض » وكانت انتصاراته قد تحققت عن طريق الجنود المشاة والفرسان . وكان البحر بيئة غير معروفة له . وقد كتب جان شينو J. Chesneau حوالي سنة 1540 قائلا ان « الاتراك باستثناء القراصنة ، كانوا لا يكادون يعرفون شيئا عن البحر . وهم الى اليوم اذا أرادوا أن يجهزوا حملة بحرية يتوجهون الى جبال اليونان أواناضوليا ويأخذون الرعاة ، الذين يطلقون عليهم قويا ناري Gouionari ويضعونهم في السفن ... وهكذا لم ينجح الأتراك أبدا في البحر ... غير أن بربروسة قد غير ذلك بعض الشيء . » ان تقديرات شينو كانت الى حد ما خاطئة . فالمؤرخ الأمريكي اندروهيس A. Hess ، المعروف بتخصصه في الدولة العثمانية قد أشار الى ان وحدات البحرية العثمانية كانت تعمل في البحر الايجي ضد البنادقة (الفينيسيين) وفي البحر الأحمر ضد البرتغاليين منذ العقد الثاني من القرن السادس عشر . ومع ذلك فمن الصحيح أن قوة البحرية العثمانية قد أزدادت منذ انضمام خير الدين وضباطه القراصنة الى مؤسسة السلطان البحرية . ان العثمانيين لم يكونوا يفتقرون لا الى المهارة ولا

الى أماكن بناء السفن . في السنوات الخمس التي تلت سنة 1530 كان العثمانيون قد أثاروا دهشة العالم بالسرعة التي بنوا بها سفنا حربية ممتازة وجعلوها جاهزة للابحار وبرهنوا على أنفسهم أنهم قادرون على خوض الحروب فى ذلك المكان المجهول .

وعندما دعا السلطان سليمان خير الدين الى اسطانبول سنة 1532 ، كان السؤال المطروح هو : هل ستحدث حرب فى البحر الأبيض بين الدولتين العثمانية والأسبانية ؟ وهل يمكن لهذه الحرب أن تحطم قوة حاكم الهابسبورغ فى اسبانيا بحيث لا يتمكن بعدها أبدا مرة أخرى أن يساعد على اعاقة التقدم العثماني عبر نهر الدانوب ؟ وهل يمكن لقوة اسلامية أن تستعيد اسبانيا وتصحح المظالم التى يتكبدها الموريسكيون ؟ ان مؤرخنا التركي والمؤرخين الأسبان فى القرن السادس عشر ، وكذلك فيرناندز سيزاريودورو F. C. Duro ، وهو أهم مؤرخ أسباني حديث للبحرية الأسبانية ـ كلهم يعتقدون أن سليمان قد قبل اقتراح خير الدين عن هذه الحرب ومنحه حرية بناء بحرية فى أحواض بناء السفن بالقرن الذهبي .

على أنه اذا كان لابد من هذه الحرب فأول انشغال للقوة العثمانية يجب أن يكون تأمين تونس كقاعدة لعمليات اضافية . ان تونس تقع فى الحزام الضيق للبحر الأبيض . وعلى شمالها تقع صقلية ونابولى ومالطة ، وهي المراسي الخاضعة للمسيحيين ، وكلها تمنح للسفن الأسبانية قواعد بحرية وتزودها بالطعام والشراب والخشب وغيرها من المواد . وان النزول الأخير لفرسان القديس يوحنا بمالطة وطرابلس يبرهن على أهمية هذا الجزء من البحر الأبيض اذا نشبت الحرب بين القوة التركية العثمانية وقوة اسبانيا الهابسبورغية . وما دامت الجزائر واقعة غربي هذا الجزء فانها بدون تونس تصبح غير مناسبة كقاعدة لهذه الحرب . فاذا كانت تونس صديقة فانها تصبح منطلق عمليات عثمانية أخرى نحو الغرب اما اذا كانت تونس عدوة فان هذه العمليات ان تكون ممكنة .

لقد كان الحاكم الحفصي لتونس عدوا لجماعة القراصنة الأتراك في الجزائر وباشتهم خير الدين . ولكنه كان أيضا ضعيفا أمام أي هجوم . ولعل المؤرخ والجغرافي الأسباني مرمول ، كان يعرف تونس أكثر مما يعرفها أي كاتب مسيحي آخر في ذلك العصر . فهو يخبرنا أن مولاي محمد الذي حكم تونس مدة ثمان وعشرين سنة كان له عدد كبير من الأولاد ولكنهم كانوا جميعا فاسقين لدرجة أنه لم يهتد الى من سيخلفه منهم ، وأخيرا استقر رأيه على مولاي حسن ، الذي كان أصغرهم والذي كان من نسل أميرة عربية . وقد أمل والده أن الأقارب سيؤيدون هذا الابن الشاب . وعندما جلس مولاي حسن على العرش لم يكتف بقتل وفقء عيون اخوته وأخواته ، بل فعل ذلك أيضا بأبناء اخوته وأبناء أخواته ونساء اخوته . ولم ينج من هذه المذبحة سوى أمير شاب حفصي واحد ، وهو الرشيد ، الذي فر الى معسكر شيخ عربي صديق ، يدعى عبد الله ، ولما كان العرب بدون مدفعية فانهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أي شيء في وجه مولاي حسن ، لذلك استنجد الرشيد بخير الدين . وقد رأى القرصان الباشا (خير الدين) أن هذه فرصة يجب اغتنامها ، فاصطحب معه الرشيد الى اسطانبول حيث استمع السلطان الى قصته ووافق على أمر خير الدين بمهاجمة تونس . وقد أعطى السلطان سليمان الى خير الدين أسطولا ومنحة لقب بيلارباي شمال افريقية ، وزوده بتعليمات بنهب كلابريا وصقلية ثم التحول للاستيلاء على تونس . ولما غادر الأسطول القرن الذهبي بقي الأمير الحفصي الرشيد في اسطانبول في سجن آمن . ان خير الدين لم يكن راغبا في اقامة سلطان تابع له ولكنه كان يريد أن يحكم حكما مباشرا .

كان جيش خير الدين مؤلفا من حوالي ألف وثمانمائة جندي انكشاري وستة آلاف وخمسمائة من الألبانيين والأناضوليين واليونانيين ، بالاضافة الى ستمائة من الأعلاج . وعندما كان مارا بجنوب ايطاليا توقف عدة مرات لأخذ الغنائم والأرقاء والماء والخشب ، ثم أرست الأرمادة (الأسطول) العثمانية في حلق الوادي ، وهو مرسى تونس ، وذلك في 16 أغسطس سنة 1954 . والواقع أنه لم يواجه أية مقاومة . ذلك أن مولاي حسن قد فر من المدينة الى حيث يجد الأمن عند أقاربه من العرب .

وتقدم خير الدين الى مدينة تونس فوجد ترحيبا من أصدقاء الرشيد وأقاربه ومن السكان عموما . لقد كان أغلب أصدقاء الرشيد فى السجن ، وكانوا يعتقدون أن حريتهم تعني أن الأمير الحفصي كان عائدا مع الجيش التركي . ولكنهم عندما علموا أن الأتراك عازمون على حكم تونس لحسابهم الخاص حاولوا التمرد الذي سرعان ما وضع حد له عن طريق نيران القربينات التركية . وعندئذ رضي أعيان تونس بأن يكون السلطان العثماني هو صاحب السيادة عليهم كما رضوا بخير الدين كبيلارباي . وقد بات من السهل نسبيا أن يمتد النفوذ العثماني ، بعد الاستيلاء على مدينة تونس ، الى المدن والقرى الأخرى فى المغرب الشرقي (الأدنى) الذي كان عادة خاضعا للسيادة التونسية . كما أصبح خير الدين بسرعة مسيطرا ، اسميا على الأقل ، على المدن الساحلية الممتدة من حلق الوادي شمالا وما حولها الى ميناء بونة (عنابة) الذي كان خاضعا لحكم الجزائر . وفى نفس الوقت أرسل مولاي حسن ، اثر نصيحة من علج ألماني ، الى شارل الخامس طالبا منه المساعدة ضد المغيرين القراصنة الأتراك .

ولا يحتاج الأمر الى كثير من التفكير فى الواضع السياسي لوسط البحر الأبيض لنعرف أن ملك اسبانيا لم يعد قادرا على البقاء بدون مبالاة أمام استيلاء الأتراك على تونس . فقبل أن يوضع أمامه طلب المعونة من مولاي حسن كان أندريا دوريا قد حث على أن الملك الأسباني يجب أن يتحرك لطرد القراصنة والأتراك من تلك البلاد . وقد كان الظرف مناسبا : فالسلام كان مستتبا بين دولة فرنسا ودولة الهابسبورغ . وكانت أخت شارل قد أصبحت ملكة لفرنسا . وسرعان ما وقع اعداد حملة عظيمة . وقد أخبر شارل نفسه عن « السفن والغليونات ، والسفن الشراعية ــ والسفن الابريقية ، والاسطوانات وغيرها من السفن » التي جمعها لنقل جيشه المؤلف من عناصر اسبانية وألمانية وايطالية وبرتغالية . ثم كتب أيضا « اننا غادرنا سائلين خالقنا المعونة والالهام ... وأن نقوم ، باذن الله ومساعدته ، بما يبدو أكثر فاعلية وفضلا ضد بربروسة » ان الفنانين الذين أبدعوا السلسلة الكبيرة من الرسوم الفنية على القماش

والتي ما تزال مرئية في مدينة اشبيلية قد تركوا لنا شواهد حية على عظمة وقوة الحملة العسكرية . ان هذه الوسائل الحربية خلال القرن السادس عشر كانت وسائل ثقيلة الوزن وبطيئة الحركة ، ولكنها كانت تضع ، اذا واتى الجو ، قوة كبيرة تحت تصرف القائد .

لقد كانت حملة عظيمة حقا تلك التي غادرت اسبانيا في جوان سنة 1535 : احتوت على أكثر من أربعمائة سفينة ، فيها تسعون سفينة ملكية ، وتحمل أربعة وعشرين ألف جندي وخمسة عشر ألف فرس . ولم يكن باستطاعة خير الدين أن يواجه هذه القوة : ذلك ان السلطان سليمان كان معسكرا على الحدود الفارسية ولم يكن لدى وزرائه في اسطانبول الوسائل لامداد بيلارباي شمال افريقية بالجنود لمواجهة الجيش المسيحي . وهكذا فحين نزل الأسبان بالقرب من قرطاج لم تشاهد عملية الانزال سوى بعض العرب الذين كانوا هناك ، ولم تحدث سوى بعض المناوشات خلال الليل لعرقلة تلك العملية . وقد توجه الامبراطور (شارل الخامس) الى مدينة تونس ، وكان في طريقه يقطع أشجار الزيتون ويحرق القرى ، وقد توقف في حلق الوادي طويلا لأنه جابه مقاومة شديدة في الاستيلاء على هذا الحصن والبحيرة التي تقع ضمن دفاعه . ويبدو من وصف شاهدي العيان لهذه المعركة أن الشمس والعطش كانتا لا تقلان عداوة وخطورة من الأتراك أنفسهم . وكان سقوط حلق الوادي قد خلف جزءا من بحرية القراصنة في يد شارل (1) ، ولكن كان لخير الدين بعد نظر فخبأ بعض قواته البحرية في مراسي آمنة بشمال تونس . ولما تقدم المسيحيون نحو المدينة انسحب الجنود القراصنة ـ الأتراك بسرعة عبر البلاد الى سفنهم تاركين مدينة تونس لجنود شارل الذين تقدموا لنهبها وقتل الكثير من سكانها .

وقد ترك لنا مرمول الذي كان شاهد عيان ، وصفا لنهب تونس تقشعر منه الأبدان . فقد توجه أعيان المدينة الى شارل ، بعد أن تركهم خير الدين ،

---

1 ـ كتب شارل يقول ان الحصن قاوم بشجاعة واخيرا سقط وترك «لنا عددا من السفن والسفن الايبرقية والاسطوانات مع عدد كبير من المدافع ...» انظر المراسلات 1:2 ص 193 .

وترجوه أن ينقذ حياتهم في مقابل الدراهم والمؤونة . ولكن شارل كان قد وعد الجنود باعطائهم الحق في نهب المدينة . وبينما كان الأعيان يتحدثون اليه « لم ينتظر الجنود صدور الأمر واندفعوا من الأبواب وأخذوا في النهب والسلب مع كل ما اعتاد عليه المرء ، مثل هذه المواقف من غلظة وانتهاك » . ورغم أوامر الأمبراطور فان كثيرا (من الأهالي) قد قتلوا بعضهم قتل أثناء محاولته انقاذ أملاكه من الجنود ، وبعض الجنود قتلوا من قبل زملائهم لكي يغنموا ما وجدوه ، وبعض الأرقاء المسيحيين الذين حرروا ونهبوا أيضا ، وهناك عدد منهم قتلوا من قبل أناس جشعين للغنائم . ويضيف مرمول قائلا : « ويرى المرء في الشوارع أكداسا من الرجال والنساء والأطفال ... » وكتب مرمول أيضا قائلا : « ان ملك تونس (مولاي حسن) أكد لنا أن أكثر من سبعين ألفا قد قتلوا ، وأن أربعين ألف رجل وامرأة وطفل قد سجنوا . « وكان النهب قد استمر ثلاثة أيام » حفر خلالها الجنود الأرض ونسفوا المنازل » بحثا عن الكنوز المخفية . ويخبرنا مرمول أنه في نهاية هذا النهب ظهر الجنود من المدينة وهم محملون بالبضائع والأشياء بينما يقودون الأرقاء أمامهم .

وبينما كان النهب جاريا كان مولاي حسن رفقة الأمبراطور ، ولم يفعل شيئا لحماية شعبه . ولعله ليس باستطاعته أن يفعل شيئا ، ولكن التونسيين سيتذكرون ذلك ما دام حيا . وقد أكد شارل أن تابعه ملك تونس لم يكن مرضيا عنه من طرف شعبه . فهو يكتب « انه لا أحد من رعايا مولاي حسن قد أظهر أي تأييد له » وأن المدينة « قد سلبت ونهبت ... برضى ملك تونس الذي رأى أن سكانه لم ينتصروا له . » وقد أخبر الأمبراطور — الملك (شارل) أخته أنه حرر « بين ثمانية عشر وعشرين ألفا من الأرقاء المسيحيين] الذين لم يقتلوا من طرف القراصنة ، كما كان متوقعا [الذين كان بعضهم من رعيتي ، والآخرون ينتمون الى مختلف الأمم المسيحية ... بما في ذلك واحد وسبعون فرنسيا . » وتشع وسائل الأمبراطور بالرضى عن نتائج الحملة » .

ومما يثير الدهشة أن شارل ، رغم نظرته الدنيا لمولاي حسن ومعرفته بأن أهل تونس يشاركونه فيها ، قد أعاده الى الحكم كملك تابع له .

وقد كان عليه ان يعلم أن هذا الحل لا يمكن أن يدوم • ومن الواضح أن السياسة الأسبانية سنة 1535 كانت هي نفس السياسة التي دشنها فيرديناند في العقد الأول من القرن السادس عشر • وأعاد شارل بناء حصن حلق الوادي الذي يحرس المرسى ويشكل قاعدة العمليات في الأجزاء الضيقة للبحر الأبيض بالاضافة الى العمليات جنوبا نحو جربة وطرابلس • ان هذه المقيمية الجديدة قد وضعت فيها حامية اسبانية وجهزت لكي تموّن الأسطول الأسباني • كما أرسل شارل أيضا دوريا بالأسطول لكي يستولي على بونة ومدينة افريقية (المهدية) ذات المرسى، وحاول بعد ذلك ان يجعل المدن الأخرى في اقليم تونس خاضعة لتابعه الجديد ، مولاي حسن • ومما لاشك فيه أن وضع الحاميات وحكم كل الأقليم التونسي لم يكن زهيد الثمن ولكنه لم يكن من الحكمة في شيء أن يعهد شارل بانتصاراته الى شخص ضعيف وغير مستقر مثل مولاي حسن •

غير أن الاستيلاء على تونس قد عزز تعزيزا قويا مكانة الملك الأسباني في البحر الأبيض • فحلق الوادي الواقع على الطريق الجنوبي من مضيق صقلية قد أكملت تقريبا مراقبته على مدخل غرب البحر الأبيض • ذلك أنه قبل ست سنوات من هذا التاريخ منح شارل جزيرة مالطة وطرابلس الى فرسان القديس يوحنا • وبهؤلاء الحكام التابعين لمملكته في صقلية والذين تمركزوا في النقطتين السابقتين (مالطة وطرابلس) ، بالاضافة الى قواعده في صقلية ونابولي ـ يمكن لشارل أن يصد فعلا أي اعتداء من الشرق •

أما الجزائر فقد بقيت هي الوحيدة كالشوكة في جنب الأسبان ، وهذه الحقيقة هي ما أظهره خير الدين في الحال وبطريقة درامتيكية • فبينما كانت الأمبراطورية الأسبانية تحتفل بانتصار ملكها في تونس قاد خير الدين بحارته الى جزيرتي ميورقة ومينورقة مباشرة بعد فراره من تونس وفي جزيرة ماهون Maon جاء المعتدون الى المرسى تماما في نفس اللحظة التي كان السكان يحتفلون في غمرة من الفرح بالانتصار في تونس على « القراصنة » الذين طالما عانت منهم الجزيرة • ويخبر

بعض المؤرخين أن بحارة خير الدين قد حملوا معهم ثمانية الاف شخص من الرقيق • وربما كان هذا عددا مبالغا فيه ، ولكن الهجوم أجبر الملك الأسباني على الاعتراف بأن الجزائر يجب أن تكون هي الهدف التالي •

ففي يناير 1536 كتب شارل الى نوابه في كاتالونيا وغيرها من مناطق مملكة أراغون معلنا لهم اجتماع الكورتيز (البرلمان) للموافقة على المال والرجال والعتاد للقيام بحملة ضد الجزائر • ان انتصارا يتحقق هناك سيتوج نظام الدفاع ويضمن أمن ممتلكاته الاسبانية والايطالية ضد البحارة ـ القراصنة (المسلمين) • وكان الامبراطور ـ الملك (شارل) على يقين من أن النصر سيكون حليفه لأن السلطان سليمان كان منغمسا في نزاع مع حاكم ايران الذي كان لديه ، بالمناسبة ، مستشارون عسكريون أسبان ليعلموا جيشه استعمال الأسلحة « الحديثة » • ولكن لسوء حظ الناس الذين يسكنون سواحل اقليم مملكة أراغون ، فان مشروع شارل سرعان ما تبخر • ذلك أنه (شارل) لم يكن يعلم أن لوفوري Le Forêt ، السفير الفرنسي لدى الباب العالي (2) ، كان يعقد معاهدة تجارة وصداقة مع السلطان ، تلك المعاهدة التي كانت قاعدة « للتنازلات » المشهورة والتي بمقتضاها تمتع التجار الفرنسيون والقناصل الفرنسيون بامتيازات خاصة في الدولة العثمانية ، كما كانت قاعدة الوفاق بين فرنسوا الأول وسليمان ، وهو الوفاق الذي سيسمح للأسطول العثماني ، بعد سنوات قليلة ، بدخول ميناء طولون • وكان فرنسوا الأول متطلعا الى اتخاذ اجراءقوي ضد أوروبا الهابسبورغية ، وكان على الملك الاسباني الهابسبورغي (شارل) أن يقوم برد الفعل ضد المطامع الفرنسية وليس ضد الجزائر •

وحانت فرصة الحرب الجديدة بين شارل الخامس وفرنسوا الأول عندما توفي دوق ميلانو ، ماكسيمليان سفورزا Sforza ، وهي الفرصة التي سمحت لفرنسوا الأول أن يؤكد حقوقه في تلك البلاد (ميلانو) ، وبعد أن ندد شارل بعنف بالملك الفرنسي أرسل جيشا الى بروفانس بينما كان

2 ـ هو بلاط السلطان العثماني •

(الفرنسية) سنة 1536 . ولكن قائده البحري ، دوريا ، يجوب السواحل هذا الاعتداء لم يسر سيرا حسنا : فقبل ان ينتهي الصيف مات عشرون الفا من جملة خمسين ألف جندي أسباني من الجوع والأمراض المعدية . كما كان فرنسوا أيضا غير قادر على التحرك بفعالية ، ولذلك فقد برهنت الحملة بكل بساطة على ان الرجلين لا يمكنهما التوصل الى حل عن طريق المعركة ، ولم يكن اقتراح فرنسوا بالتقائهما في مبارزة حلا أيضا .

وبينما كان شارل منهمكا في حربه ضد منافسه الفرنسي استطاع سليمان ان يتخلص من الضغط الايراني ، وأصبح بذلك قادرا على توجيه اتباهه نحو الغرب . وقد يكون قبل باقتراحات خير الدين بشن حرب ضد اسبانيا ، ولكن هدفه المستعجل هو السيطرة على البحر الأيوني ومضائق اوترانتو Otronto ولعل جنوب ايطاليا أيضا . ان هذه المنطقة لها نفس الأهمية بالنسبة للدولة العثمانية التي لمضائق صقلية بالنسبة للاسبانيين . فقد كان تامينها من الأهمية بمكان قبل التحرك نحو الغرب خصوصا بعد استيلاء شارل على تونس . ومن الممكن تأمين البحار الضيقة عن طريق الرشوة او القوة . حقا ان عملاء سليمان قد عرفوا كيف يرشون حاكم اوترانتو ولكن الخيانة المقترحة قداكتشفت قبل أنيكون الأسطول التركي مستعدا للتحرك . وقد اشتمل الأسطول التركي الذي تحرك سنة 1537 بقيادة لفتي (لطفي ؟ باشا ،) مع خير الدين بربروسة نائبا له ، اشتمل على حوالي أربعمائة سفينة من كل الأنواع ، عليها ثلاثة آلاف مدفع وخمسة وعشرون ألف جندي من بينهم خمسة آلاف مسلحين بالقربيلات ، أما البقية فكان سلاحهم النشاشيب والرماح والسهام . وعندما تحركت هذه الأرمادة (الأسطول) نحو ايطاليا سرى الرعب في شبه الجزيرة الايطالية الى أن وصل الأسطول رومة نفسها حيث كتب الأسقف ماسون Maçon « أن والدنا المقدس (البابا) وجميع بلاطه هم في خوف شديد من الأتراك لدرجة أنهم يفكرون في مغادرة المدينة ... وها هو البابا يرسل مبعوثيه الى ملك فرنسا والامبراطور شارل راجيا منهم الدخول في سلام . » ان الأخبار التي راجت بأن الأتراك لهم مئتا سفينة تحمل كل منها مائة حصان قد أقنعت الايطاليين بأن عدوانا قد أصبح وشيكا .

نزلت القوات التركية في عدد من النقط شمال وجنوب أوترانتو ، ولكن مهمتها الرئيسية سنة 1537 كانت السيطرة على جزر البحر الأيوني ومضائق أوترانتو . ولقد فشل لفتي باشا في أخذ جزيرة كورفو Corfu في بداية فصل الصيف ، ولكن بربروسة رجع اليها قبل انقضاء الصيف واستولى على تحصينات البندقية في تلك الجزيرة . وقد أسرع الحاكم الأسباني لكلابريا بارسال قوة من الفرسان الى برنديزي Brindisi ولكنه لم يستطع أن يمنع الأتراك من تدمير الساحل ووقف كل تجارة فيه . وما دام الهدف الرئيسي لهذه الحملة الصيفية هو ممتلكات البندقية في البحر الأيوني ومن ثمة السيطرة على مدخل البحر الأدرياتيكي ـ فان البندقية كانت هي المهددة أكثر من ايطاليا الأسبانية . ورغم وجود حزب قوي في البندقية يدعو الى السلام مع الأتراك فان البابا بول الثالث قد نجح بحلول فبراير 1538 في جعل البندقية واسبانيا تعقدان حلفا مع البابوية ضد الأتراك وهكذا فان الأرمادة العثمانية قد أدت الى انشاء جمعية مقدسة .

وفي السنة الموالية كان خير الدين هو قائد البحرية العثمانية في البحر الأيوني ، وكان مساعداه هما درغوث وصالح ، كلاهما بحار رايس ، وكلاهما ضابط مقدام . وكان صالح بالخصوص قد تقلد فيما بعد منصب بيلارباي شمال افريقية . ويخبرنا مؤرخ الجزائر التركي بأن أسطوله (خير الدين) كان يتألف من مائة واثنتين وعشرين » سفينة خفيفة . « بينما يذكر كاتب مسيحي أنه كانت لديه خمسة وثمانون سفينة ، وثلاثون غلياطة ، وأسطول صغير من التموين . وفي مقابل هذه القوة العثمانية جمعت الجمعية المقدسة خمسة وخمسين سفينة من البندقية ، وسبعة وعشرين من رومة وفرسان القديس يوحنا بمالطة ، وتسعة وأربعين من اسبانيا . وكان ضابط شارل ، أندريا دوريا ، هو قائد هذه القوة . ويخبرنا دورو Duro أن القائدين الآخرين لم يطيعا دائما أوامره ، وهو الأمر الذي ساهم في فشل أسطول الجمعية المقدسة . وقد اتصل الأسطولان ببعضهما في سبتمبر بالقرب من بريفيسا Prevesa وبعد عملية تكاد تكون غير مؤكدة غرقت سفينتان مسيحيتان وثلاث تركية واحتجزت خمس سفن مسيحية . وفي اليوم التالي سحب دوريا الأسطول المسيحي مفضلا ذلك على المغامرة بمواصلة الحرب . وقد

أدى انسحابه الى احراز الأتراك على النصر . ان المتشككين في الغرب ، مثل المؤرخ الفرنسي المعاصر ، برانتوم Brantome ، تذكروا أن سفن دوريا الخاصة كانت ضمن الأسطول وأوضحوا أن بربروسة ودوريا ، وكلاهما ضابط بحار ، كانا مثل ذئبين « لا يأكل أحدهما الآخر » أو مثل غرابين « لا يفقأ أحدهما عين صاحبه » أما المؤرخ التركي فقد كان مسرورا . فقد قال ان « هذه المعارك العجيبة التي جرت من ضحى الى مغرب ذلك اليوم ليس لها نظير ! »

ولم تكن قوات دوريا قد تضررت حقا في بريفيسا . فبعد الاشتباك السابق اتجه نحو الشمال الى الساحل الدلماشي حيث استولى على حصن تركي ، وهو حصن كاستلنوفا Castelnuova ، وقد استبدل دوريا الثلاثمائة وخمسين رجلا ، الذين كانوا يحرسون الحصن للأتراك بثلاثة آلاف وخمسمائة جندي اسباني وقام بتحصينه . غير أن البنادقة نظروا الى هذا العمل على انه تدخل أسباني في أراضيهم ، وخطر على سيطرتهم على الطرق البحرية الى المشرق . ونتيجة لذلك توجه عميل بندقي بعد شهور قليلة الى اسطانبول وحاول التوصل الى اتفاق مع الأتراك . لقد كانت البندقية تفضل النفوذ التركي على النفوذ الأسباني في هذه المياه .

غير أن الأسبان لم يبقوا في كاستلنوفا طويلا . ففي السنة الموالية فقط جاء خير الدين بجيش وأسطول عظيم واستولى على الحصن . ومن الثلاثة آلاف والخمسمائة جندي أسباني لم ينج من الموت أو الاسترقاق سوى ثمانمائة . وخلال صيف سنة 1539 استولى الأسطول التركي على بقية المراكز المسيحية في البحرين الأيوني والايجي . وقد أرسل خير الدين بالغنائم والرقيق الى اسطانبول حيث كانت الاستعراضات تعلن الانتصارات العثمانية . ولم يغير طرد الأسبان من كاستلنوفا من رغبة البنادقة في السلام ، ذلك أنهم في أكتوبر سنة 1540 وقعوا معاهدة مع السلطان أكدت الاعتراف ببقية المراكز البندقية وحقوقهم في التجارة مع المشرق .

وفي نفس الوقت الذي وقعت فيه البندقية السلام مع الدولة العثمانية حدثت قصة غريبة في الغرب تعكس الجو السياسي ، في منتصف القرن

السادس عشر . فقد كان شارل على علم بأن منافسه وعدوه فرانسوا الأول ، كان على اتصال مع سليمان . وكان شارل من جهته على صلة منذ أمد طويل مع شاه ايران ، الذي تستطيع جيوشه أن تصد اهتمام السلطان العثماني عن المغامرات الأروبية . أما الآن فقد حاولت الدبلوماسية الأسبانية أن تجعل خير الدين يقطع ولاءه للسلطان ، تماما كما جعلت أسطول جنوا بقيادة أندريا دوريا يقطع صلته بفرنسا . وأثبتت الاتصالات مع بربروسة أنه كان لا يمانع في الحديث عن الموضوع ولكن شروطه كانت تبدو صعبة التحقيق . ففي مقابل تحالفه مع اسبانيا ضد فرنسا والسلطان اشترط أن يكون له كل شمال افريقية من طرابلس الى المغرب الأقصى ! ويبدو أن هذا كان أكثر مما يستطيع شارل أن يتحمله ، ولكن المفاوضات بقيت مستمرة الى أن علم الأسبان أخيرا أن بربروسة كان يطلع السلطان وملك فرنسا على آخر مراحل المفاوضات . ولا يوجد في سيرة خير الدين ما يثبت أن ارتباطه بالاسلام كان صوريا فقط أو أن ولاءه للسلطان كان غير مخلص . ومع ذلك فانه في القرن السادس عشر ، وهو العصر الذي وصفه ماكيافيلي ، لا يبدو غريبا أن يحاول ملك أسبانيا شراء ذمة أمير البحر الباشا (خير الدين) من أكثر أعدائه خطرا (السلطان) . ولكن الخطة لم تصادف نفس النجاح الذي صادفته في قضية أندريا دوريا .

ويبدو أن فشل تلك المفاوضات كان من بين العوامل المباشرة لقرار شارل بالهجوم على الجزائر لكي يقطع الى الأبد دابر عش القرصنة . ولكنه قبل تنفيذ هذه المغامرة قام عملاؤه باتصالات سرية ، بواسطة حاكم وهران ، مع حسن آغا ، العلج السرديني الذي كان خليفة خير الدين في الجزائر . وبناء على هذه الاتصالات اعتقد أولئك العملاء أن حسن آغا سيسلم المدينة بمجرد ما ينزل الأسبان قواتهم ويشرعوا في الحصار . غير أن هذا الاتفاق الخيالي مع حسن آغا برهن على أنه كان بدون أساس تماما كالمفاوضات مع خير الدين. لقد كان الأسبان مكروهين من الناس الذين كانوا ينجدون الموريسكيين من الاستبداد الأسباني أكثر مما كانوا يعلمون .

وبينما كان العملاء الإسبان يفاوضون خير الدين ثم حسن آغا على
ابرام التحالف مع الجزائر او احتلال مدينة الجزائر بطريقة سهلة ، كان
الامبراطور شارل يعمل ايضا على تحرير نفسه وجيوشه بعقد اتفاق مع
فرانسوا الأول . وكانت الهدنة الموقعة سنة 1537 قد تلتها معاهدة نيس
التي انهت النزاع بين حكام الهابسبورغ والفالوا . وفي السنة الموالية
وقع اجتماع مثير في ايغ — مورث Aigues-Mortes بين الحاكمين،
وكان يبدو ان ذلك الاجتماع قد دعم الصداقة بينهما تدعيما كاملا لدرجة
ان شارل سافر عبر فرنسا وزار في طريقه باريس . وكان هذا السلام
بينهما ما يزال قائما سنة 1541 ، ولذلك خطط شارل لمشروعه العسكري
الضخم ضد الجزائر تحدوه بعض الثقة من ان ملك فرنسا لن يتدخل .
والواقع ان فرانسوا الذي علم بالمشروع بواسطة البابا ، قد أعطى
الضمانات بانه سيبقى محايدا .

وكان مشروع الاعتداء على الجزائر قد خطط له ونظم بعناية فائقة ،
ولكن شارل بقي في المانيا الى اواخر الفصل فتأخر موعد تحرك الأرمادة،
بما فيها سفن نقل الجنود والمؤونة ، الى الثامن عشر من شهر أكتوبر .
لقد كانت قوة هائلة . ان المؤرخ التركي جعل العدد يصل الى تسعين
الف جندي . ولكن المؤرخ الاسباني الذي كان أكثر محافظة ، يخبرنا
ان هذه القوة كانت تضم أربعة وعشرين الف جندي من الألمان والطليان
والاسبان ، واثني عشر ألف بحار (Marines) ، وأكثر من الفي
حصان ، بالاضافة الى المدافع واجهزة الحصار الضرورية . وقد ضم
الأسطول خمسا وستين سفينة حربية وأكثر من أربعمائة سفينة نقل من
كل الأنواع والأحجام . وعندما أرست هذه الأرمادة أمام الجزائر أسود
وجه المرسى بالسفن . ويصف لنا المؤرخ التركي مشاعر الرعب التي
أثارها هذا الاستعراض العسكري . فهو يخبرنا أن حارس المرسى قد
قال بأن « هذا الأسطول قد غطى جميع سطح البحر ، غير أنني لم
أستطع أن احصي كل السفن لأنها كانت من الكثرة بحيث لم تسمح لي
بمواصلة العد الذي بدأته . » ونفس هذا المؤرخ التركي يصر على أن
حسن آغا كان يشجع شعبه بقوله « ان الأسطول المسيحي ضخم ...
ولكن لا تنسوا نصر الله الذي يسديه للمسلمين ضد أعداء الدين . »

وأضاف قائلا بأن « الجنة في ظلال السيوف .. ان الشهداء هم أولئك الذين بشرهم الله بالشهادة . » لقد كان الجزائريون في حاجة الى هذا التشجيع . ففي مقابل تلك القوة الأسبانية الضخمة كان للجزائريين حوالي ألف وخمسمائة جندي انكشاري ، وستة آلاف من الموريسكيين الأندلسيين المسلحين ، وعدد غير محدد من البحارة الشرقيين . وقد حاول حسن أيضا أن يحصي بلدية (حضر) مدينة الجزائر للدفاع عن مدينتهم . ولكن هؤلاء الرجال لم يكونوا من جميع الوجوه صالحين كجنود .

وكانت عملية انزال القوات لم تلق من المقاومة الا الحد الأدنى من فرسان البربر البدو ، الذين ضايقوا الجناح الأيسر لتلك القوة أثناء الانزال ، غير أن شارل لم يأمر بالهجوم في الحال . فقد أرسل في أول الأمر طلبا متعجرفا بأن تسلم المدينة اليه هو ، ملك الملوك وحاكم الحكام . وكان الجواب رفضا قاطعا وطنانا كذلك . ومع ذلك فانه يبدو أنه قد دارت في الجزائر مناقشة طويلة حول امكانية البديل لضرب الحصار ، ولكن قصة متوارثة تخبرنا أن « مرابطا » يسمى قارة يوسف اعلن أن الله أخبره بأنه هو الذي سينقذ المدينة اذا هي قاومت المعتدين .

اما حسن آغا وجنوده الذين يعرفون بعض الشيء عن الحصار والحرب فلا بد أنهم فكروا فيما اذا كان من الأفضل التوصل الى اتفاق مع الامبراطور . ومع ذلك فان القرار قد اتخذ لصالح المقاومة .

وفي الرابع والعشرين من أكتوبر كان الجيش المسيحي على استعداد لبدء عملياته . ولكن عاصفة شديدة هبت حوالي الساعة التاسعة ليلا . وسرعان ما اضطربت السفن الراسية بعيدا عن الشاطيء . ويخبرنا المؤرخ التركي بأن « العاصفة التي أرسلها الله ضدهم قد رمت بكثير من سفنهم على الشاطيء ، ففر منها الأسرى المسلمون ... وقد هجم عرب مدينة الجزائر على ربابين هذه السفن وقتلوهم . » ان كثيرا من السفن المسيحية قد قطعت حبالها وارتطمت بالصخور مع كل ما فيها من المؤونة والذخيرة الحربية . والواقع أن جميع الساحل كان مغطى بالحطام . وقد نجح دوريا في ابعاد أغلب سفنه عن الساحل ووضعها في البحر ،

ولكن أغلب الأسطول قد تحطم . أما الجنود الذين لم يكونوا مستعدين لمثل هذه العاصفة فقد تبللوا بالمطر وابتل بارودهم ونار قربيلاتهم . وانهارت معنوياتهم . وأمام هذا الوضع خرجت جنود الجزائر في هجمة كادت تؤدي الى الهزيمة لولا بطولة فرسان القديس يوحنا المالطيين الذين حالوا دون وقوع ذلك . ان رماح وأقواس المسلمين كانت أفضل ملائمة للجو من القرابيل الأسبانية ، ولكن الجنود الذين كانوا تحت قيادة فرسان القديس يوحنا كانوا أكثر انضباطا من أولئك المندفعين من خارج أبواب المدينة . لقد كان من بين الرجال المشاهير في حاشية الامبراطور هوكورتيز Cortez فاتح المكسيك ، فهو الذي اقترح بالحاح على شارل أن يحاول الابتعاد وينتظر سكون العاصفة ثم يقوم بمحاولة أخرى للاستيلاء على المدينة . ولكن شارل أصغى بدلا منه الى دوريا والى مارتن دالكوديت M. D'Alcaudette (حاكم وهران) وغيرهما من قيادة أركانه الذين أوضحوا له أنه لا يملك الطعام ولا البارود ولا الرجال الذين يتمتعون بمعنويات . ان رجالا يتراوح عددهم من عشرين الى ثلاثين ألفا وبدون طعام سيصبحون في الحين جماعة من الأوباش أكثر منهم جيشا منضبطا . وهكذا بدا الانسحاب أمرا لا مناص منه .

وقد قاد شارل حطام جيشه حول كاب متيفو حيث السفن الحربية وما أمكن انقاذه من السفن الأخرى قد أرست في النهاية واستطاع وضعها في البحر بدون أضرار اضافية . ان المؤرخ الفرنسي المعاصر برانتون ، تأسف على أن الجنود قد أكلوا جيادهم الجميلة ، ولكنه هو والكثير ممن شاهدوا أو سمعوا عن الكارثة ، تساءلوا « لماذا لم ينصر الله مشروعا مسيحيا في مثل قداسة وعدالة هذا المشروع ؟ » فهل كان ذلك « لأن الله أراد أن يجعل الناس يؤمنون بأنه لا شيء مؤكد حتى تقع الواقعة ؟ » ان هذا السؤال كان قد تردد في مختلف الكتابات وأوضح هذه الكتابات بيانا هو الكتيب الذي كتبه نيقولا فيلاغنون Villaganon وهو فارس القديس يوحنا ، وعنوان هذا الكتيب : شارل الخامس ، حملة الامبراطور في افريقيا وتونس ؟ (ص 28 آخر سطر) . ويقول عنوانه الفرعي بعد ترجمته الى الانجليزية : « أنه نبذة حزينة تثير الشفقة ، وعلى كل انسان مسيحي أن يقرأها لأنها تحتوي

ليس فقط على المشروع العظيم وبطولة الامبراطور شارل الخامس وجيشه ... ولكنها تحتوي أيضا على الحفائظ السيئة من الريح والطقس ، مع عدد آخر من الموانع التي تجعل القلوب القاسية تقشعر وتتضرع الى الله من أجل العون والطمأنينة ... » ان هذا الكتيب كان قد ترجم الى كل لغة أروبية تقريبا ، ومن العجب أنه لم يهز عقائد الناس في أن الله كان الى جانبهم . (*)

ومن الطبيعي أن يكون الأتراك أكثر رضى على نتائج المعركة والعاصفة . فمؤرخنا (التركي) يخبرنا أنه « عندما رأى الكفار الخسائر التي أصابهم بها السيف الاسلامي وما أضاف البرد والمطر المنهمر ... تضاعف حزنهم وركبهم الخوف لأنهم تبينوا خطر الموقف الذي أصبحوا عليه . » ويبدو أن هذا القول لا يعبر عن كل شيء . ذلك أن مؤلفنا استمر في وصف ما حدث بقوله : « ان ساحل شمال افريقية من دلس شرقي مدينة الجزائر الى شرشال غربا قد تلطخ بجثث الرجال والجياد . » وأن الجزائريين قد استولوا على أكثر من مائتي مدفع وأن السلطان سليمان قد أرسل ، عندما سمع الأخبار ، الى حسن آغا قفطانا فخما ورسالة خطية ولقب الباشا ، وقد أنهى مؤلفنا قصته بهذه العبارة الفخيمة التي طالما تناقلها المؤلفون وهي « منذ ذلك اليوم والجزائر تبدو كالعروس العذراء ترفل في جمالها وحليها ... » لقد كان يوما مجيدا للاسلام ، يوما بقي يحتفل به خلال القرنين اللاحقين على أنه أعظم انتصارات الجزائر . حتى اليهود احتفلوا بانهزام العدو المسيحي . لقد كانوا في أسفل درجات السلم الاجتماعي في الجزائر ، ولكنهم فضلوا الازدراء التركي على الاستبداد الأسباني . وهناك قصة غير موثقة ولكن يمكن أن تكون صحيحة وهي أن قارة يوسف قد حول نفسه الى طاعون كمنقذ للجزائر حتى أن الباشا الجديد وديوان الانكشارية « اخترعوا » مرابطا آخر غير يوسف أكد للمدينة أن ارادة الله هي التي قضت بالمقاومة . أما يوسف فقد كتمت أنفاسه في هدوء .

(*) – سيلاحظ القارئ أن المؤلف يتخذ موقفا «ليبراليا» من الدين والعقيدة ، سواء المسيحية أو الاسلام ، ولكنه عند اصدار أحكامه التاريخية لم يسلم من تأثير التفاسير الدينية التي أصدرها الآخرون . (المترجم) .

وقد قال بعض الناس عن هذه القصص بأنها « اذا لم تكن صحيحة فلعلها يجب أن تكون . »

ان هزيمة الأمبراطور شارل الخامس في الجزائر كانت فاتحة صراع طويل ، غالبا ما كان غير محدد الشكل ، بين امبراطورية الهابسبورغ في البحر الأبيض بقيادة شارل الخامس ثم بقيادة ابنه فيليب الثاني ، من جهة ، والدولة العثمانية في الجزء الشرقي من هذا البحر ، من جهة أخرى . ولم تكن الجزائر هي النقطة المركزية في هذا النزاع ولكن البحارة الجزائريين الذين درسوا فن الحرب البحرية تحت خير الدين قد لعبوا دورا هاما جدا فيه . وكان خير الدين باعتباره أميرال السلطان قد قاد المؤسسة العثمانية البحرية الى وفاته سنة 1546 ، وبعده ، ثم بعد ابنه ، صعد أثنان من مساعديه الأقربين الى وظيفة بيلرباي شمال افريقية ووظيفة أميرال باشا في البحرية العثمانية . أما الجزائر فقد بقي يطلق عليها « مسرح الحروب » والقاعدة الغربية للدولة العثمانية . لقد كانت هي الجزء الاسلامي المقابل للجزيرة المحصنة لفرسان القديس يوحنا في مالطة ، حيث كان هؤلاء الفرسان يعيشون في جماعة من الحكام المحاربين ويحكمون الجزيرة ويكونون قاعدة لنشاط البحارة ذي الطابع الصليبي .

الفصل الثالث
الحرب بين الدولتين العثمانية والاسبانية

خلال نصف القرن التالي لنكبة شارل العاشر ف الجزائر كان الجنود البحارة يحاربون تحت علم ملوك الهابسبورغ الأسبانيين أو علم الدولة التابعة لهم ، وكانوا يحاربون حربا متقطعة ضد رجال هم رعايا أو تابعون للسلاطين العثمانيين . لقد كانت حربا غريبة ، لا توقفها الا هدنة أو مجرد توقف عن خوضها أو فشل الطرفين ف ايجاد المال الضروري لاستمرارها . فمن جهة كان مجراها يتوقف أو يمنع بالمشاكل الأسبانية ف الأراضي المنخفضة وفرنسا وأنكلترا والمانيا ، ومن جهة أخرى كان يتوقف أو يمنع بنزاعات سليمان مع أبنائه ومع حكام ايران ، والتدخلات العثمانية ف أروبا الوسطى . ولكن الأسبان لم يعودوا أبدا الى التفكير بجدية ف هجوم جديد على الجزائر . لقد كان فشل الامبراطور ف سحق عش القراصنة هو ثالث محاولة خلال جيل واحد ، للنزول ف مدينة الجزائر ، وكلها انتهت بالفشل . ان كثيرا من الناس الخرافيين خافوا من أن الله نفسه هو الذي كتب الهزيمة ، بينما آخرون اعترفوا بأن الجهد كان غير حكيم لأن محاولة عملية الانزال كانت ف فترة متأخرة من فصل السنة . ومع ذلك فان الأسبان ، بعد هزيمة سنة 1541 م ، لم يحاولوا مرة أخرى الاستيلاء على الجزائر . لقد كانت هناك اقتراحات هامة قدمها دوق ألبا Alba والايطاليان لا نفريدوشي Lanfreducci وبوسيو Bossio وغيرهم من أجل هجوم كاسح على المدينة (الجزائر) ، ولكن هذه

الاقتراحات لم تنجح في اقناع الملوك الأسبان بأنها كانت عملية ، الى أواخر القرن الثامن عشر حين انتهى هجوم آخر بالفشل الذريع (*) .

خير الدين في غرب البحر الأبيض المتوسط :

ومن الجدير بالذكر ان الحروب المتبادلة بين الدول التابعة لشارل والقوات الاسلامية قد نتج عنها اعتداء تركي في غرب البحر الأبيض . ذلك انه لم تأت سنة 1542 حتى كان سليمان في حرب مع الهابسبورغ في النسا ، وكان شارل من جهته في حرب جديدة مع فرانسوا الأول بخصوص ميلانو . ومما زاد الأمر تعقيدا أن هنري الثامن ، ملك أنكلترا قد وجد نفسه في حرب مع الاسكتلانديين وفرنسا . ان هذا الخليط السياسي قد أدى الى عقد معاهدة بين فرانسوا الأول وسليمان وافق الفرنسيون بمقتضاها على اقامة قاعدة في طولون للاسطول التركي بالاضافة الى تقديم معونة مالية لعلمياته ابتداء من القرن الذهبي . وعندما ظهر الأميرال باشا خير الدين قائد البحرية العثمانية ، في غرب البحر الأبيض على رأس أرمادة ضخمة أثارت الرعب في ايطاليا الأسبانية وهددت اسبانيا نفسها ، لم يعد الموضوع هو الانزال الأسباني بالجزائر بل أصبح هو الانزال التركي على الأرض الاسبانية نفسها .

ان اعتداء خير الدين في غرب البحر الأبيض قد تصادف مع نشاطات بحرية متزايدة من الجزائر ، وقد وجه خير الدين ، باعتباره بيلارباي شمال افريقية ، وأميرال باشا لبحرية السلطان ، وجه الجهاد (الحرب المقدسة) ضد الكفار ليحصل على الحد الأقصى من الغنائم والعبيد الأسرى . ان الأسطول العثماني قام بعمليات انزال على طول السواحل الايطالية ، وكان في ذلك يتعاون مع وحدة البحرية الفرنسية الصغيرة ، وأحيانا يقوم بالعلميات بنفسه . وقد نتج عن احدى هذه العمليات اعتقال حاكم قصر ريغيو Reggio ، وهو دون دياغو غيتانو D. D. Gaetano

(*) ـ انظر عن هذه النقطة ، الفصل الرابع عشر . (المترجم) .

وابنته الجميلة الموهوبة . وقد جلبت هذه المرأة الشابة نظر خير الدين واخيرا أقنعها بأن تصبح زوجة له . وفى أعلى ذلك الساحل تعاونت القوات الفرنسية والعثمانية على حصار نيس ثم الاستيلاء عليها . وأثناء هذه العملية أثبت رجال المدفعية العثمانيين تفوقهم بكل وضوح ، وكان الانضباط العثماني أفضل بكثير من الانضباط الفرنسي . ولكن الشيء الذي يبدو وأنه كان يزعج خير الدين أكثر من غيره هو أن الفرنسيين قد نفد عنهم البارود وكان عليهم أن يمدوا أيديهم فى التموين الى الأتراك . لقد أصبح خير الدين قلقا على شعب نفدت ذخيرته الحربية قبل أن تنفد من عنده الخمر !

وقد حول هذا الاعتداء التركي فى البحر الأبيض توازن القوى البحرية مؤقتا ضد الامبراطورية الأسبانية ، ولكن الأثر الكامل للتعاون الفرنسي العثماني على توازن القوى كان ضئيلا نسبيا . حقا أن تجربة القوات العثمانية البحرية فى قاعدة طولون خلال شتاء 1543 — 1544 تركت ، على العكس ، خدوشا على كل من الضيف والمضيف مما جعل التعاون فى المستقبل أقل احتمالا . وبناء على كل المراجع فان الأتراك سلكوا سلوكا نظيفا ، وكان انضباطهم متينا راسخا . غير أن الفرنسيين الذين أجبروا على التخلي عن منازلهم ومدينتهم ليفسحوا المجال للاتراك قد قاوموا التجربة . والذي كان أكثر ازعاجا لمستقبل التحالف الفرنسي العثماني هو عجز الخزينة الفرنسية على دفع ثمن دعم الأتراك خلال كل الشتاء . لقد أصبح خير الدين مقتنعا أن فرانسوا الأول قد فشل فى الوفاء بالوعد ، ونتيجة لذلك كتم كرها عميقا لكل من الملك الفرنسي وشعبه ، هذا الكره الذي ورثه خير الدين لابنه حسن . ومن جهة أخرى قرر فرنسوا أن ثمن الابقاء على أسطول تركي كان ، بكل بساطة ، مرتفعا جدا ، وأفضل من ذلك فى نظره عقد سلام مع شارل الخامس .

كما أن شارل الخامس كان يريد السلام مع فرنسا . فقد كانت له مشاكل فى ألمانيا حيث كانت الهرطقة اللوثرية قد توطنت وحيث كان أمراء شمال ألمانيا يتحدون سلطته . وقد عقد الملكان (فرنسوا وشارل) السلام فى كريسبي Grispy فى سنة 1544 . كما كان سليمان الذي

الداخلية وامكانية حدوث حرب جديدة على حدوده الشرقية ، راغبا من جهته في التوصل الى اتفاق ينهي الحرب في البحر الأبيض . وكانت النتيجة هدنة بين الدولتين الاسبانية والعثمانية .

تدخل دوغوت :

كان للهدنة بين السلطان وملك الأسبان أثر مباشر على جماعة الأيالة الجزائرية . لقد كان حسن باشا ، الذي أصبح بيلارباي شمال افريقية بعد وفاة أبيه (خير الدين) ، مخلصا للسلطان تماما كما كان خير الدين . وكانت الهدنة تعني لا محالة وقف الغارات البحرية . لذلك وجه حسن باشا جهوده لمشكل السيطرة على داخل البلاد الواقع بين المدن الساحلية والصحراء وجعله تحت سيطرة الحكومة بالجزائر . وكان لنجاحه أو فشله في ذلك الاتجاه أثر هام على مستقبل الايالة . ولكن جماعة البحارة (الرياس) ، باعتبارها كانت تتميز عن فرقة الانكشارية وميليشيا الموريسكيين في جيش حسن ، لا يمكنها أن تجد مجالا لنشاطها هناك . فما دام بيلارباي شمال افريقية متمسكا بمراعاة الفرامانات (المراسيم) من اسطانبول فان الرياس (البحارة) سيكونون بدون عمل ، ان هؤلاء الرجال قد قدموا حياتهم للجهاد والغزو ، وكانوا من جهة مسلمين صادقين عازمين على أخذ الثأر لزملائهم ضد الدولة المسيحية الأسبانية . وكانوا من جهة أخرى « غزاة » أحرارا ((Privateers) أو ضباطا بحريين حولوا الحرب الى أعمال تجارية يمكن أن تجلب الأرباح الطائلة الى أنفسهم والى ملاك سفنهم . وقد أصبح درغوث الذي كان من أعرق أصحاب خير الدين ، بل لعله أفضل أصدقائه ، زعيما لأولئك الرجال .

ومثل كثير من أبطال المسلمين في هذا العهد ، فان أصول درغوث مغطاة بسحب من الأساطير . ان مرمول يخبرنا أن درغوث ولد على جزيرة رودس قبل أن يطرد منها فرسان القديس يوحنا . ويقول براتنوم انه قد ولد بأناضوليا . أما غيرهما فيؤكد ببساطة أنه كان يونانيا وهو

أمر قد يكون حقيقة . (*) ومهما كان الأمر ، فانه منذ نعومة أظفاره لفت نظر خير الدين اليه وسرعان ما صعد الى وضع القوة والتأثير في الدوائر الداخلية لجماعة البحارة الأتراك . وكان درغوث على رأس أحد أجنحة الأسطول في بريفيسا . ولكن من سوء حظه ان ابن اخ دوريا قد اعتقله في السنة الموالية ، وهكذا وجد نفسه عند خشبة مجداف سفينة مسيحية . ان كثيرا من الرجال الممتازين في هذا العهد قد مروا بهذه التجربة ، بما في ذلك كبار فرسان القديس يوحنا ، وعروج ، وآخرون — وجميعهم جلفوا الى جانب الفقراء الأشقياء الذين لم يتقدم أحد لفديتهم . وعندما كان خير الدين في طولون اتفق مع أندريا دوريا على تحرير درغوث . لقد كانت فدية عالية : فقد حصل لومليني Lomelini ، البيت الجنوى ، على امتياز باقامة مرسى ومصنع لصيد المرجان على جزيرة تبارك (طبرقة) Tabraque الواقعة خارج ساحل بونة (**) ، بينما حصل دوريا على ثلاثة آلاف دوكا ذهبية . ولكن دوريا تأسف على هذه المساومة قبل أن يمضي وقت طويل عليها ، لأن درغوث رفض الاعتراف بالهدنة بين السلطان والملك الأسباني وسرعان ما أصبح زعيما للبحارة الذين استمروا في نهبهم للتجارة الأسبانية والسواحل الأسبانية والايطالية .

وأكبر غنيمة غنمها درغوث هي الاستيلاء على سفينة مالطية كانت تحمل خزينة مال فرسان القديس يوحنا ، التي كانت تقدر بحوالي عشرين ألف دوكا ذهبا . ولكن كان عليه أن يجد مرسى لصلياته . وكانت الجزائر قد منعت عليه ، وما دامت حلق الوادي تحت السيطرة الأسبانية فان تونس كانت خارجة عن نطاقه أيضا . وكان درغوث مثل عروج قبله ، قد أقام قاعدة على جزيرة جربة حيث رحب به شيخ من أهلها وأعطاه المؤونة ومرسى في مقابل سهم من الغنيمة التي يغنمها البحارة . وقد احتج الأسبان لدى اسطانبول ، ولكن عندما أمر السلطان درغوث بالظهور في بلاطه ليجيب على بعض الأسئلة عصي البحار الرايس ذلك

(*) تنبه القارىء الى ان نزعة المؤلف ، وغيره ايضا من الاوروبيين ، تذهب الى ان الرجال المتميزين في العالم هم من اصول اوروبية ، وهي نزعة فيها الكثير من العنصرية . (المترجم) .

(**) أنظر هامش صفحة 287 .

الأمر . انه كان أكثر اطمئنانا على حياته في وسط البحر الأبيض منه في قصر السلطان . ولما كبر أسطوله الصغير وازدهر ، شعر درغوث بالحاجة الى مرسى أفضل من الذي عنده . لقد نجح في الحصول على مدينتين صغيرتين على الساحل المواجه لجزيرة جربة ولكنهما لم ترضيا حاجته . وهناك مدينة صغيرة ذات مرسى قد تلبي حاجته ، وهي المهدية (المعروفة أيضا باسم افريقية) . انها كانت مدينة محصنة وكان مرساها نسبيا أكثر أمنا ، ولكن أعيانها لا يريدون أي شيء من البحارة . غير أن درغوث نجح في ارشاء رجل فساعده على ادخال ملاحين شرقيين من السفن الى المدينة . وفي صباح اليوم التالي Marines وجد السكان أنفسهم أمام الأمر الواقع . لقد كانت خديعة تذكر المرء بالمغامرات التي قام بها عروج منذ أربعين سنة خلت . أن تحصينات المهدية كانت ضعيفة ، ولكن عندما أصبح وراءها رجال ذوو عزم متين أصبحت المهدية مركزا معتبرا .

ومن المهدية انتشر البحارة في وسط البحر الأبيض وكانت النتيجة نكبة على الأسبان . لقد احتجت الحكومة الأسبانية لدى السلطان : فاما أن يكون درغوث قرصانا Pirate أو أن الباب العالي (حكومة الدولة العثمانية) قد نقض الهدنة . وقد يكون درغوث حقا قرصانا له طموح في اعلان الجهاد باسمه الخاص أو باسم السلطان ، ولكن يجب أن نعترف بأن درغوث لم يكن الوحيد الذي نقض الهدنة. فقد كان البحارة المسيحيون المنطلقون من مالطة وصقلية وميورقة قد « انتهكوا الهدنة » أيضا وذلك بهجومهم على التجارة الاسلامية في شرق البحر الأبيض واعتقالهم للحجاج المسلمين المتوجهين من شمال افريقية الى المشرق في مهمتهم الدينية الى البقاع المقدسة في مكة والمدينة . ولو اكتفى درغوث بعملياته انطلاقا من جربة لكان من الممكن تجاهله ، ولكن المهدية كانت قريبة جدا من حلق الوادي وصقلية ، وكان موقعها أكثر خطورة اذا أخذنا في الاعتبار أنها تكاد تتوسط الدولة التونسية في مدينة تونس التابعة لأسبانيا . وفي سنة 1550 طلب حاكم حلق الوادي من دوريا والأسطول الأسباني أن يخلصوه من هذا الجار غير المرغوب فيه .

وهبطت قطع أسطول جنوا ، معززة بجنود من صقلية ، على المهدية . وكان درغوث ، الذي وصله خبر الهجوم ، من الحكمة بحيث سحب أسطوله قبل وصول الأسبان (سبتمبر 1550) ، ولكنه ترك خمسمائة من المشارقة الأتراك للدفاع عن المدينة . ورغم أن هؤلاء الرجال قد دافعوا بشجاعة فقد كان عليهم في النهاية أن يستسلموا . ثم كانت القصة التي كثيرا ما نسمع عنها في هذا العهد : ان الناس الذين دفعوا حقا ثمن الغضب الأسباني وشره الجنود هم سكان المدينة . فهم لم يريدوا منذ البداية لا درغوث ولا بحارته ، وعندما افتكت مدينتهم من المشارقة الأتراك كان أولئك السكان هم الذين وقعوا ضحية النهب والاغتصاب والقتل والاسترقاق . لقد فتح بدرو نفارو P. Navarro منذ أول القرن طريقة العنف الأسباني . ولم ير خلفاؤه سنة 1551 سببا في العدول عن تلك الطريقة . ان مصير المهدية قد ترك لقرار شارل الخامس ومجلسه الأسباني . وقد قرروا أن حماية وتحصين المدينة سيكلف مصاريف باهظة وأن البديل اذن هو تخريب المدينة . وهكذا فان أسوارها ومنازلها ومساجدها قد هدمت عن آخرها ، أما سكانها فكان مصيرهم التشريد أو الاسترقاق .

وقد اعتذر الأسبان على هجومهم على المهدية على أساس أنهم فعلوا ما فعلوا كحلفاء لسلطان تونس مساعدين له على تخليص بلاده من قراصنة غير مرغوب فيهم كانوا قد استولوا على أحد مراسيه . غير أن الناس في اسطانبول نظروا الى المغامرة نظرة مختلفة . ذلك أن الحكومة العثمانية كانت تواجه صعوبة كبيرة وذلك يعود الى النزاع الذي تطور بين سليمان ووريثه . فقد وجد هذا الوريث التأييد والملجأ في ايران . ولكن رغم هذه القضية التعسة فان السلطان لم يكن على استعداد لرؤية الأسبان يحكمون قبضتهم على وسط البحر الأبيض . فهم اذا أضافوا المهدية ، ولعل جزيرة جربة أيضا ، الى ممتلكات فرسان مالطة في طرابلس ، ومالطة ومراسيهم في صقلية ونابولي ، فان وسط البحر الأبيض قد يغلق في وجه الأتراك . غير أن الذي دفع بسليمان الى العفو عن درغوث لم يكن هو مجرد الخوف من السيطرة الأسبانية في البحر . ذلك أن ملك فرنسا

الجديد ، هنري الثاني ، كان يلح على احياء الوفاق الفرنسي — العثماني والعمل المشترك ضد الهابسبورغ . كان هنري الثاني مهتما بازعاج الهابسبورغ في المانيا ، فتنوع الأحداث في البحر الأبيض قد يكون مفيدا لدعم سياسته الالمانية .

ومهما كان الأمر ، فان الجواب التركي على الاستيلاء على المهدية كان سريعا . فقد ظهرت قوة بحرية عثمانية ضخمة أمام السواحل الايطالية في شهر اغسطس سنة 1551 . وبعد عدة انزالات مضت الى مالطة ثم أبحرت الى طرابلس لمحاصرة الميناء الذي كان في أيدي فرسان القديس يوحنا حيث كان البحارة المسيحيون يقومون بعملياتهم ضد التجارة التركية . وكان رد فعل دوريا على ذلك ضعيفا . فقد تحطمت له في شهر يوليو ثماني سفن أثناء عاصفة . وأصبح سقوط طرابلس لا مشاحة فيه . وصادف أن كان سفير فرنسي في طريقه الى وظيفته في اسطانبول فتوقف بطرابلس حيث لاحظ تقدم الحصار عن كثب . وعندما أصبح واضحا وجوب استسلام فرسان القديس يوحنا أقنع السفير الأميرال التركي سنان باشا ، بأن يسمح للفرسان في طرابلس بالجلاء في سفينة فرنسية في مقابل استسلامهم حالا . لقد كان الأتراك مترددين في عقد أي اتفاق مع « الكلاب » ، وذلك أنه منذ ثلاثين سنة مضت وعد فرسان القديس يوحنا السلطان سليمان في معاهدة مهيبة بعدم القيام مجددا بأي نشاط بحري ضد التجارة العثمانية في مقابل الجلاء عن حصنهم في جزيرة رودس مع احتفاظهم بالشرف الحربي . ولكن الفرسان لم يلتزموا بهذا البند من المعاهدة موضحين ، على حق ، أن سليمان في الواقع لم يعطهم حق الجلاء بشرف الا لأنه لم يستطع أن يستولى على حصنهم بدون خسارة اضافية كبيرة . وأخيرا رضي سنان باشا لا ليقدم جميلا الى السفير الفرنسي فقط ولكن لينقذ رجاله هو أيضا . وهكذا سمح لفرسان طرابلس بالجلاء بحرية . أما الجنود الذين كان يتألف منهم الجيش فقد أخذوا أرقاء . وعندما أوصلت السفينة الفرنسية حمولتها من اللاجئين من طرابلس الى مالطة ، استقبل عظيم الفرسان بمالطة السفير الفرنسي ببرودة لاعتقاده أن الفرنسيين قد أعانوا الأتراك بالمعلومات والمؤونة .

ان الاستيلاء على طرابلس كان انتصارا كبيرا للدولة العثمانية ، ذلك انه مكنها من مرسى يربط البحر الأبيض بطرق القوافل المتجهة الى الصحراء والى افريقية السوداء جنوبا ، بالاضافة الى ملجأ للسفن القادمة من الغرب والمحملة بالحجاج فى طريقهم الى مكة والمدينة . وقد أصبح درغوث الذي اعيد اليه الاعتبار فى اسطانبول ، باشا طرابلس ومعه قطعة اسطول تقدر بأربعين سفينة حربية . وقد قوى تحصينات المرسى وحوله الى قاعدة معتبرة للاسطول التركي .

وكان الاستيلاء الأسباني على المهدية سنة 1550 ورد الفعل التركي فى طرابلس سنة 1551 مؤشرات الى استئناف الحرب بين الهابسبورغ والعثمانيين فى البحر الأبيض . وكان الوفاق بين هنري الثاني ملك فرنسا ، وسليمان قد ربط بين هذا النزاع وذلك الذي كان يجري فى شمال أروبا حيث جاء الملك الفرنسي لدعم أمراء شمال المانيا فى حربهم ضد الأمبراطور شارل . حقا ان طرق النقل والاتصال كانت بطيئة فى القرن السادس عشر ولكن المشاكل الأروبية وجدت طريقة لتصبح شاملة ومتشابكة على أية حال .

اتساع الايالة الجزائرية :

لم يكن هنري الثاني داهية سياسيا كما كان والده ، ولكنه مع ذلك فهم أن تعاون بيلارباي شمال افريقية كان مهما لنجاح حربه فى البحر الأبيض . وكان ذلك البيلارباي هو حسن بن خير الدين ، الذي تعلم من والده عدم الثقة فى الفرنسيين . كما أنه كان مقتنعا أن دعم السلطة التركية فى منطقة المغرب الأوسط الممتدة بين البحر والصحراء هو العمل الأساسي فى تلك اللحظة . وقد اعترف الفرنسيون بتردده فى المشاركة قلبا وقالبا فى جهودهم العسكرية ، ولذلك سعى السفير الفرنسي فى اسطانبول لدى السلطان لتبديل البيلارباي . وكان عزله قد جاء فى اللحظة التي كان فيها سيدعم سلطته على تلمسان فى وجه معارضة فاس . ان حسن قورصو الذي كان آغا الانكشارية كان محبوبا من هذه الطائفة وكان أيضا جنديا داهية ، هو الذي أكمل الاستيلاء على تلمسان بعد

استدعاء حسن بن خير الدين ، وهو الذي وضع هناك خمسمائة جندي الكشاري ليؤمنوا السيطرة التركية على تلك المدينة الهامة الواقعة على الحدود الغربية . وعندما وصل البيلارباي الجديد ، وهو صالح رايس ، أيد تماما تلك السياسة الرامية الى توسيع سلطة الايالة التركية الى المناطق الداخلية انطلاقا من مدينة الجزائر . كما أنه كان مستعدا لتأييد تقدم الحرب الفرنسية ـ التركية ضد اسبانيا .

كان صالح رايس ، الذي كان من مصر ، أحد مساعدي خير الدين وأقربهم الى ثقته ، فقد صعد بعد وفاة خير الدين ، من مجرد قائد سفينة بحرية الى أميرال باشا لأسطول السلطان . لقد جاء الى الجزائر في الوقت الذي كان فيه أمراء تقرت وورقلة ، وهم رجال قبائل عربية على حدود الصحراء ، يرفضون دفع ضريبة الاعتراف بالايالة التركية . فاذا نجح هذا التمرد فانه سينتشر عاجلا بين القبائل الاخرى في القطر ، ذلك أن دفع أية ضريبة كان عملا غير محبوب من الناس ، بل كان عملا مغضوبا عليه . فالسكان الرحل وأشباههم يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم أحرار . وكان هذا التمرد بالذات ضد الأتراك قد أوحى به معلم لشيخ (حاكم) شاب . فقد أقنع ذلك المعلم رجال القبائل هناك بالاعتقاد أن الله سيمنح بركته الى كل من يقتل تركيا ! وكان على صالح رايس أن ينسى حرب البحر الأبيض بعض الوقت ويقوم بحملة في الصحراء . ولم يكن رجال القبائل هناك في نفس درجة الانكشارية . ذلك أن رماحهم وسيوفهم لم تستطع أن تصمد في وجه رجال مسلحين بالقربيلات والمدافع الصغيرة . وهكذا تغلب عليهم صالح رايس وأجبرهم على السلم وقطع رأس المعلم المفترض فيه أنه المسؤول على التمرد . وبناء على المؤرخ التركي ، فان صالح رايس قد رجع الى الجزائر بخمسة عشر جملا محملين بالذهب وغيره من الغنائم المؤلفة من الأقمشة والجواهر ، والجلود ، بالاضافة الى الحيوانات وخمسة آلاف عبد من الزنوج .

ولكن صالح رايس واجه تمرد آخر من طرف رجال كوكو هذه المرة ، وهو التمرد الذي كان مدعوما بالذهب الأسباني . وقد وضع حدا لهذا التمرد بنفس الطريقة التي وضع بها حدا لتمرد الجنوب ،

ولكنه منع من أي عمل ضد اسبانيا . ففي خريف سنة 1553 حاول بحارة صالح رايس سلطان فاس على استعادة مرسى فاليز (بادس) Valez من الاسبان ، ولكنه لم يقم باي مجهود جدي من جانب الجزائر الى سنة 1555 حين استطاع أن يقوم بهجوم ويستولي على بجاية التي كانت ، باستثناء وهران ، اهم مركز اسباني على طول الساحل . فقد كان الاسبان بطيئين في تمويل حاميتهم هناك ، وكانت نتيجة ذلك أن حاكم بجاية كان غير قادر على الدفاع عن نفسه حين أصبح محاصرا من البر والبحر . وأخيرا وافق ذلك الرجل التعس على الاستسلام اذا سمح له ولضباطه بالعودة الى اسبانيا . ولما وصل الى بلاده سارعت الحكومة الاسبانية بمحاكمته على جبنه وسوء تصرفه وقطعت رأسه .

ولما أصبح صالح رايس مسيطرا على بجاية قرر أن وهران والمرسى الكبير يجب أن يكونا هما الهدفين القادمين للايالة الجزائرية . وبناء على ذلك وضع خطة للهجوم برا وبحرا على غرار الحصار الذي استولى به بنجاح على بجاية . ولكن قبل الشروع في الحصار الفعلي توفي صالح رايس بالطاعون « بفضل الله » كما عبر عن ذلك الأب الورع دياقودو هايدو Haedo . ولما وصلت أنباء وفاته الى اسطانبول قرر الباب العالي الغاء مشروع حصار وهران وأمر السفن التركية بالعودة الى القرن الذهبي . لقد كانت الجزائر بعيدة جدا ، وكان هناك البعض من حاشية السلطان يعتقدون أن بيلاربايات هذا السنجق (الايالة) البعيد ربما كانوا يستعملون الحرب لاقامة دولة شبه مستقلة في المغرب العربي (المغرب) . وبخروج صالح رايس الشهير من الصورة ، أصبح من عدم الحكمة أن يرخص لآغا الانكشارية ، حسن قورصو ، أن يكون الرجل الذي يستولي على وهران . انهم (أي رجال الحاشية) في الواقع كانوا على حق ، ذلك أننا سنرى كيف أن الانكشارية كانوا ساخطين حين أقلعت السفن التركية وتركتهم بدون موارد للاستيلاء على الحصون الاسبانية . ان هذه الحركة هي التي

الأهمية بمكان بالنسبة لمستقبل الايالة . وهو حادث من الجزائر ، تمرد لفرقة الانكشارية في اشعلت فتيلة أول

وبينما كان بيلاربايات الجزائر يستعملون الحرب لدعم سلطتهم في المغرب الأوسط ، كان النزاع في ايطاليا وهولندا والمجر يستنفد الموارد المحدودة للمتنازعين . لقد أصبحت حروب القرن السادس عشر مشروعا باهظ الثمن جدا اذا نظرنا الى الموارد القليلة التي كانت لدى الحكام . فالجيوش كانت مؤلفة من مرتزقة تنتظر الدفع ، وكانت المدافع والبارود والرصاص وغيرها من الذخيرة التي أصبحت ضرورية جدا لسير الحرب في البر وفي البحر ، باهظة التكاليف . ولم تكن الضرائب ولا القروض من أهل البنوك كافية لدفع أثمان الحرب التي هي دائما في ارتفاع . فخلال فترة 1557 — 1558 كان ملوك فرنسا وأسبانيا وحتى الدولة العثمانية اما مفلسين أو قريبا جدا من الافلاس . وكل من هنري الثاني ملك فرنسا وفيليب الثاني ملك الأسبان قد اعترفا بأن السلام كان حتميا وأنه لا يمكن أن يمليه قرار عسكري . وهناك قضايا سياسية أخرى كانت تحث على السلام : القضية الدينية في كل من فرنسا وهولندا الأسبانية ، وموت ماري تودور في انكلترا الذي قطع العلاقة بين أسبانيا ومملكة بريطانيا ، بالاضافة الى عدد من الصعوبات الأقل حدة والتي كانت تواجه كلا الملكين ، وكل هذه الأمور قد اشتركت في التوصل الى معاهدة شاتو كامبريزي Chateau Cambresis سنة 1559 . ان هذه المعاهدة قد أنهت الحرب بين الهابسبورغ والفالوا التي استمرت طيلة النصف الأول من القرن السادس عشر .

وبينما كان فيليب الثاني يفاوض على السلام مع ملك فرنسا ، كان أيضا يفكر في امكانية السلام مع الدولة العثمانية . فقد أكد له مستشاروه أن سليمان كان في حاجة الى السلام كما كان هو في حاجة اليه . وكان سليمان حقا يفاوض على السلام مع عم فيليب ، وهو الامبراطور فيرديناند الذي خلف شارل على العرش الامبراطوري في ألمانيا . ولم يكن سليمان مطواعا بالقدر الذي كان يؤمله فيه الملوك

المسيحيون . فقد عقد السلام مع فيرديناند بشرط أن يدفع الامبراطور الالماني كل التعويضات التي كانت تجب للدولة العثمانية منذ آخر معاهدة ، ولكن سليمان أصر ، عندما حاول وكلاء فيليب الانضمام الى المعاهدة ، على اجراء مفاوضات منفصلة بين الدولة العثمانية والدولة الأسبانية . وقد فكر فيليب في عدة بدائل . وكان يبدو ان ارشاء الصدر الأعظم (الوزير الأول) قد يكون افضل الطرق . فعرض عليه عشرة آلاف ايكوس Ecus سنويا ، على أن تودع النقود باسم الوزير اما في البندقية واما في اسطانبول ، بشرط المحافظة على السلام بشرف . وفجأة ، ولأسباب ما تزال غامضة ، قرر فيليب أن عقد هدنة مع السلطان سيكون أدنى من قدره . وهكذا رجع الى خططه الرامية الى ابعاد الأتراك عن الحوض الغربي للبحر الأبيض .

من جربة الى ليبانتو :

لقد أصبح العمل في المستقبل واضحا . فالسيطرة الأسبانية على مالطة وصقلية ونابولي وحلق الوادي بتونس توفر قواعد هامة لمراقبة البحار الضيقة بين نهايات شرق وغرب البحر الأبيض ، واذا نجحت البحرية الأسبانية في استعادة السيطرة على طرابلس والاستيلاء على جربة فسيكون من السهل عليها احتواء أي هجوم تركي نحو الغرب ، حتى ولو استمر الأتراك مسيطرين على الجزائر . ذلك ان الجزائر لم تكن مرسى جيدا لأسطول كبير من السفن الحربية . غير أن طرابلس كانت قد وقعت بيد الأتراك وكان درغوث في الحقيقة يعمل على جعل هذا المرسى الجزائر الثانية ، أي عشا بحريا وقاعدة للأسطول العثماني .

كان المعتقد في صقلية أن البحرية التركية لن تغامر بالتقدم الى ما هو أبعد من حدود المياه الشرقية الا في فصل الصيف حين يكون الطقس ملائما . وأخذا بهذا المعتقد في الاعتبار ، قرر الأسبان القيام بهجوم على طرابلس في نهاية فصل صيف سنة 1559 . وكانوا متفائلين بالنتائج: فالتحصينات في طرابلس ما تزال ضعيفة ، ورجال القبائل في داخل البلاد كانوا مستعدين للتعاون ما داموا قد أصبحوا يكرهون الأتراك . ولكن هذا الهجوم على طرابلس كان ، مثل هجوم شارل (الخامس)

على الجزائر سنة 1541 ، في حاجة الى تعاون كل الضباط البحريين والعسكريين الأسبان لامبراطورية اسبانيا في البحر الأبيض ، وكان هؤلاء الضباط منتشرين من برشلونة الى جنوا ، ومن صقلية الى وهران . لقد كان من الصعب جمعهم في عملية مشتركة في هذا العهد حين كانت المواصلات بطيئة جدا ، بل ثقيلة ، فكان يجب توفير الطعام للرجال والخيل ، والبارود والرصاص للبنادق ، والذخيرة البحرية لابقاء السفن في البحر ، وكلها يجب أن تتجمع في المرسى في نفس الوقت الذي كان فيه الجنود الألمان والطليان والأسبان المحتاج اليهم للعملية مستعدين لركوب سفن النقل . ومن الطبيعي أن يحدث التأخير . وساء الطقس في نفس الوقت الذي كانت فيه الأرمادة تستعد للتحرك ، وكان على السفن أن تتوقف في مالطة لتفادي عاصفة خطرة ، ولم تستطع السفن أن تغادر مراسي مالطة الا في شتاء سنة 1560 . وفي نفس الوقت انتشر المرض في عدد كبير من الجنود ، بحيث تخلف عشرة في المائة من الرجال عن مرافقة الأسطول عند مغادرته مالطة . وحينئذ قرر الأسبان التوجه لا الى طرابلس مباشرة حيث كان درغوث يسلح نفسه استعدادا لمواجهتهم ولكن الى جربة للاستيلاء على « عش القراصنة » هناك . ولكن البحارة كانوا قد غادروا الجزيرة قبل وصول الأسبان اليها وكانوا قد بعثوا بسفينة الى اسطانبول طالبين النجدة .

وقد بذل القائد الأسباني مدينا سيلي Madina Celi وقتا في اقامة حكومة عملية في جربة وبناء حصن صغير لحامية كانت ستقام هناك لتأمين السيطرة الأسبانية على الجزيرة . وكان متأكدا أن الأتراك لن يتدخلوا بسرعة في هذا الفصل من السنة . ولكنه كان مخطئا . فقد وصل الى جربة بيالي باشا Piali على رأس قطعة قوية من الأسطول التركي بطريقة غير منتظرة . وكانت المخابرات الأسبانية مخطئة في تقديرها ، وكانت الاستعدادات الأسبانية للحرب أقل فعالية من تقدير المخابرات . فقد كان جزء من الأسطول (الأسباني) بعيدا عن الساحل ، طليق السراح . ولم تكن بقيته مستعدة للحرب . ولذلك فان ثمانية وعشرين سفينة من مجموع الثماني والأربعين سفينة وغلياطة اما احتجزت واما حطمت . أما البقية فقد لاذت بالفرار ولكن بعد أن وقعت فيها

عسكر معتبرة • ومن جهة أخرى نزل البحارة الأتراك جربة واستولوا على معظم المؤن الأسبانية ثم حاصروا الحصن الذي بناه الأسبان حديثا • وقد استماتت الحامية الأسبانية بشجاعة مؤملة في وصول النجدة ، ولكنها أخيرا استسلمت ، بعد أن نفد عنها الماء والطعام ، وذلك في شهر يوليو (سنة 1560) • لقد كان ذلك نسفا مريعا للسمعة الأسبانية ، بل ليس لسمعتها فقط ولكن لأمنها أيضا • ذلك أن الانتصار قد قوى من عزائم البحارة (الأتراك) في غرب البحر الأبيض ، وشجع الموريسكيين على الاعتقاد بأنهم في النهاية يمكنهم الاعتماد على المساعدة من الشرق في نزاعهم مع مضطهديهم الأسبانيين • وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ انطلقت أخطر ثورة للموريسكيين في القرن السادس عشر من ذلك الاعتقاد •

والواقع أن مشاكل فيليب البحرية في البحر الأبيض لم تنته بالهزيمة في جربة • فقد فاجأه درغوث وأغرق عددا من سفنه (فيليب) خارج الساحل الجنوبي لصقلية ، كما أن عاصفة حطمت خمسا وعشرين سفينة له ، وأودت بحياة كل عدته تقريبا من الرجال والبحارة • ولذلك فان البحرية الأسبانية لم تستطع أن تقوم مرة ثانية باستعراض قوتها بشكل جدي في وسط البحر الأبيض الا سنة 1564 • غير ا ن الترك لم يكونوا قادرين على اغتنام فرصة هذا الضعف • فالنظام العثماني كان من الثقل بحيث لا يعمل الا اذا كان السلطان نفسه مع جيشه • وهذا يعني أنه عندما كان سليمان في حالة حرب في الشرق مع الايرانيين ضد ابنه الثائر عليه ، فان قوته في الغرب كانت بدون حركة • حقا ان السلاح البحري بقي قويا ولكنه لم يغادر المياه الشرقية الا بعد عودة السلطان الى اسطانبول •

* * *

وبينما كانت السفن الحربية للدولتين متوقفة عن الحركة ، كان البحارة ـ مسلمون ومسيحيون ـ قد اندفعوا في البحر يبحثون عن صيد • فقد غطت البحار الغربية بالبحارة المنطلقين من مدينة الجزائر وبجاية وطرابلس وبعض المراسي الصغيرة مثل شرشال وبونة • أما البحار

الشرقية فقد خرج اليها البحارة من مينورقة ، وصقلية ومالطة وغيرها من الموانيء الايطالية باحثين عن الغنائم في الشرق . ان حكومتي جنوا والبندقية لم تشجعا هذا النشاط ، ومع ذلك فان رجالهم الرسميين الحاكمين في الجزر التابعة لجنوا والبندقية ، مثل كريت وقبرص وشيوس ، وغيرها كانوا يغضون النظر عن البحارة المسيحيين الذين يأتون الى موانيهم طلبا للخشب والماء والطعام ، بل انهم غالبا ما سمحوا لهم ببيع جزء من حمولات غنائمهم . ان هؤلاء البحارة المسيحيين كانوا شوكة في جسم الدولة العثمانية كما كان البحارة المسلمون شوكة في جسم الدولة الاسبانية . ففي احدى المناسبات استولى خمسة من البحارة المالطيين على غلياطة لكيزلار آغا كانت تحمل عددا من السيدات البارزات من حريم السلطان بالاضافة الى رئيس خصيان السلطان السود . واستولى بحارة مسيحيون آخرون على بعض الأعيان الذاهبين للزيارة او العمل الرسمي أو الحج الى مكة . وكان أخطر هؤلاء البحارة وأشدهم اقداما هم فرسان يعودون الى نظامين من نظم الرهبان الصليبيين : أحدهما نظام توسكاني Tuscany المعروف باسم نظام القديس ستيفان ، والثاني والأهم وهم فرسان القديس يوحنا العاملين في جزيرة مالطة .

ولم يؤسس نظام القديس ستيفان الا سنة 1562 ، وكان أدواق (حكام) توسكانيا يدعمونه ، وكان بحارته ينطلقون من مراسي توسكانيا . ولكن هذا النظام لم يكن ذا أهمية نسبيا : فعدد فرسانه كان قليلا وكانوا في الجملة يعملون كساعد أيمن لخدمة الأدواق . أما فرسان القديس يوحنا فكانوا يعملون بانتظام على رأس ستة الى عشرة سفن حربية من الدرجة الأولى ، وكان زعيمهم يبعث بأسراب من البحارة الخواص لكي يهاجموا انطلاقا من مالطة .

ويرجع تاريخ النظام الديني الصليبي لفرسان القديس يوحنا الى الحقبة الصليبية . وكان في الأصل قد تأسس ليقوم بالخدمات الصحية للصليبيين في الأراضي المقدسة . وبمرور الزمن أصبح أعضاؤه فرسانا محاربين . ولما حل القرن الخامس عشر تطوروا الى نظام من البحارة

الصليبين . وكانت لهم قاعدة حصينة في جزيرة رودس ، بالاضافة الى « فروع » أقاموها في فرنسا وبروفانس واسبانيا وانكلترا وايطاليا والمانيا . وكانت بعض هذه الفروع غنية جدا ، وهذا يعود الى أنه كان من عادة النبلاء المسيحيين المحسنين أن يتركوا جزءا من أراضيهم الى هؤلاء الرهبان المحاربين . وكانت النتيجة أن أصبح فرسان القديس يوحنا يملكون ويتصرفون في أملاك عريضة من الأراضي الزراعية ويحتفظون بقصور تمتد على طول أرياف أوروبا الرومانية الكاثوليكية .

وكان فرسان القديس يوحنا يجندون من أبناء النبلاء ، ولا يمكن لأحد ليس له أربعة جدود من النبلاء أن يصبح فارسا . ولكن هناك بعض الاستثناءات . فالنظام كان في الجملة مؤلفا من حفداء الجيل الثاني أو الثالث للعائلات النبيلة الذين كانوا مهيئين لخدمة الكنيسة ويرغبون أيضا في احتراف العمل العسكري . ولعل هؤلاء الفرسان كانوا أرقي ثقافيا من اليولداش او الخواص الذين يتألف منهم جيش الانكشارية ، ولكن من المؤكد أنهم كانوا أكثر استعدادا لحمل السلاح من سائقي الثيران ورعاة الابل وشباب الفلاحين من أناضوليا . ومع ذلك فانه في الامكان وضع مقارنات محددة : فمن المتوقع أن كلا من الفارس واليولداش أعزب . وكلاهما ملتزم بالانضباط في النظام المنتمي اليه . وعندما ينضم شاب الى فرسان القديس يوحنا كان يرسل الى البحر في احدى السفن الحربية التابعة للنظام بشكل « قافلة » ضد العدو . وبعد مدة معينة في البحر يمكن أن يعاد الى أوروبا ليسهر على الأراضي أو غيرها من الأعمال التابعة للنظام . واذا تعرضت تحصينات الجزيرة الى خطر فانه يمكن دعوة الفرسان للمساعدة في الدفاع عنها . ويجب أن تذكر هنا أن هذا النظام كان غنيا جدا نظرا للأملاك التي يتصرف فيها ؛ ولذلك فان عيون أمراء أوروبا طالما نظرت اليه نظرة حسد . ومن ثمة كان من أوائل الأعمال التي قام بها هنري الثامن في اصلاحه للكنيسة الانكليزية هو مصادرة أملاك فرسان القديس يوحنا .

وكان الفرسان في مالطة ، كما كانوا في رودس في القرن السابق ، يعيشون في منازل تنتمي الى « لغات » النظام : فالفرنسيون كانوا أكثر

أهمية من حيث العدد ، ولكن منازل الانكليز والبروفانساليين والأسبان، والألمان والطليان كانت ايضا أماكن لأولئك المغامرين الذين جمعوا بين الحرب والنشاط الديني • وكان بعضهم يعيشون عيشة مثالية ، ولكن بعضهم الآخر كانوا مثيرين للاضطراب مغازلين للنساء ، رغم انه لا احد يشك في اقدامهم وشجاعتهم • ففي سنة 1465 ثبتوا في وجه هجوم تركي حين هاجم السلطان معقلهم في رودس ، ولم يستسلموا سنة 1521 الا عندما أصبح واضحا أن جيوش سليمان ستستولي على حصونهم • وكان الفرسان منظمين سياسيا كجمهورية ارستقراطية من الرهبان الجنود • وكانوا ينتخبون زعيمهم ويعطونه سلطات شبيهة بتلك السلطات التى كان يمارسها باشوات وآغوات ودايات الجزائر • ولكن ما دام عدد أعضاء النظام أصغر من عدد فرقة الانكشارية ، وما دام عدد كبير من الفرسان كانوا يعيشون فى أوروبا في القيادات التابعة للنظام ، فان التحزب الخطير الذي اشتهر فى الجزائر لم يتطور (لدى النظام) بنفس السهولة ، وكذلك لم تحدث هناك الثورة ولا العنف اللذان اشتهرت بهما في الأخير الايالة المغربية (الجزائر) •

* * *

لاحظنا أن السلطان سليمان فى بداية عهده قد نجح في طرد فرسان القديس يوحنا من رودس بعد حصار طويل وثمن باهظ • ولم يسمح لهم بالمغادرة « بشرف الحرب » الا لأن قواته كانت غير قادرة حقا على تحقيق انتصار قاهر • وقد فهم الأتراك أن أحد شروط السلام موافقة الفرسان على عدم مهاجمة التجارة العثمانية • ولكن عندما وطنهم شارل على جزيرة مالطة (سنة 1529) وعلى ساحل مدينة طرابلس ، استأنفت « سفن الدين » ، كما كانوا يسمونها ، مهاجمتها للسفن التجارية التركية ونزلت على الأرض التركية لأخذ الأرقاء • وهكذا كانت مالطة فى أعين الأتراك عبارة عن عش للنسور تماما كما كانت الجزائر في أعين الأسبان• وكما قرر شارل عدة مرات أن عليه الاستيلاء على الجزائر معقل القراصنة ، كذلك اعترف سليمان ومستشاروه بضرورة الاستيلاء على معاقل فرسان القديس يوحنا • وقد كان الاستيلاء على طرابلس فيبداية

السنوات الخمسين من القرن السادس عشر عبارة عن الخطوة الأولى نحو تصفية المراكز المسيحية الخطرة جدا على الدولة العثمانية . ومن الواضح أن تكون طرابلس ومالطة وتونس ومعها حلق الوادي هي الأهداف الطبيعية التالية للأسطول التركي والجيش .

وكان القرار بمهاجمة مالطة قد اتخذ سنة 1564 . وفي شهر مايو التالي وصلت قوة عثمانية عظيمة أمام الجزيرة وانزلت الجيش والمؤونة اللازمة لضرب الحصار . ان قوة عسكرية كالقوة العثمانية المذكورة لا يمكنها أن تجتمع في القرن السادس عشر دون أن تعلن عن حقيقة وجودها . لقد كان الغرب المسيحي يعرف ان هجوما كان على الأبواب ، ولكن هل يكون هدفه هو مالطة أو تونس وحلق الوادي ، أو كريت أو حتى قبرص ؟ لم يكن أحد يعرف ما الذي سيكون الهدف .

أما جان دولافاليت باريزو de la Valette Parisot (1) عظيم فرسان القديس يوحنا ، فقد كان متأكدا أن جزيرته ستكون هدف الهجوم ، وقد بذل كل ما في وسعه في الاعداد لمواجهة الخطر . فنادى على كل من يستطيع مناداته من فرسانه الذين كانوا متواجدين في مراكزهم الأوروبية ، واستأجر جنودا اضافيين من ايطاليا ، ودعم حصونه ، ووفر المؤونة للحصار . ولكنه لم يقدر على اقناع أي أمير من أمراء أوروبا بإرسال مساعدة آلية . فالأسبان الذين كانوا مهتمين بحلق الوادي وصقلية ، لم يرغبوا في كشف أنفسهم أمام هجوم خاطف . أما أمراء شمال أوروبا فقد كانوا منهمكين في مشاكلهم الخاصة المتعلقة خصوصا بالانقسام الديني . وهكذا استعد عظيم الفرسان وفرسانه ومعهم حوالى تسعة آلاف جندي في عملهم ليحاربوا وحدهم . وكانوا سيظهرون

---

1 ـ انضم هذا الرجل العظيم ، الذي كان ابنا لبيت فرنسي نبيل ، الى فرسان القديس يوحنا واختطفه الأتراك وعمل عبدا بحارا على سفينة الرايس عبد الرحمن كاستاقلي Castagli (الماصد علي !!) ؛ وبعد افتدائه انتقل هو نفسه ، في دورة من دورات القدر ، سيده التركي السابق وجعله عبدا عند المجاديف . ان قصته اثناء تبادله للفرسان المحاصرين هي قصة رجل يتمتع بارادة حديدية وذكاء حاد وعدوه أعصاب ، بالاضافة الى عقيدة راسخة في الله ، ولذلك أطلق الفرسان اسمه « فاليت » على عاصمتهم .

للعالم أنهم خلفاء جديرون بتقاليد عظيم جزيرة آدم (ايل آدم) ورجاله التي أظهروها حوالي أربعين سنة خلت حين دافعوا عن حصن جزيرة رودس .

لقد أنزلت القوة العثمانية المعتدية حوالي أربعين ألف رجل وكمية كبيرة من أجهزة الحصار ، ولكن قيادتهم كانت موزعة بين الأميرال بيالي باشا ومصطفى باشا قائد القوات البرية . يضاف الى ذلك أن درغوث حين وصل بفرقته من طرابلس كان يحمل أيضا تعليمات من السلطان تعطيه حق القيادة . أما الفرسان فقد كانوا تحت قيادة عظيمهم الوحيد ، دي لافاليت ، ومخلصين لأوامره ، وكان دي لافاليت قد استعد للدفاع بمهارة . وسيكون من الحمق أن يحاول المرء قص قصة حصار دام خمسة أشهر : فكل من المهاجمين والمدافعين قد أظهروا بطولة عظيمة ، وكل منهما عانوا من الخيبة والخوف والخسائر الفظيعة . ان قصة الحصار قد انتقلت الى أوروبا في كثير من الخرائط والكتيبات التي وزعت بطريقة شعبية ما تزال تشهد على ذلك الاهتمام الـذي أثاره الدفاع البطولي . (2)

ورغم أن وسائل الدفاع قد تحطمت وأن المدافعـين قد أوهنتهم الخسائر لدرجة أن استمرار المقاومة كان يبدو مستحيلا تقريبا ، فان الفرسان وجنودهم قد استمروا في النضال مؤملين في وصول النجدة . وقد خرج عدد من المدينة مبعوثين مهربين تهريبا حاملين دعوات مستعجلة للنجدة ، ولكن نائب صقلية كان ما يزال يخشى أن الأرمادة التركية ستتحول ضد جزيرته اذا هو كشف تحصيناته . وفي الأخير قرر ارسال قوة نجدة صغيرة . وفي الأول من سبتمبر قام الأتراك بهجوم عظيم . ان على المعركة التي استمرت عدة شهور أن تنتهي بطريقة ما . ومرة أخرى ردوا على أعقابهم ، ومرة أخرى بخسائر جديدة أدت الى توهين

---

2 - تحتوي مكتبة نيوبيري على مجموعة ممتازة من هذه الخرائط التي تشير الى تقدم الحصار ، ويعتبر كتاب ارنل برادفورد (الحصار الكبير) ، نيويورك ، 1961 ، أفضل مرجع شعبي باللغة الانكليزية .

واحباط معنويات الجنود الأتراك . « فهل أن الله هو الذي حكم بعدم سقوط مالطة ؟ » ان هناك حوادث كانت تدل على أن الأمر هو ذلك . ثم أنه في الأسبوع الثاني من شهر سبتمبر ، نزلت قوة النجدة المسيحية الصغيرة على الساحل المقابل لمسرح المعركة وتحركت بحذر نحو خطوط الحصار التركية . ولم ينتظر القائد التركي ليعرف ما اذا كانت هذه القوة هي دعم ضخم للمدافعين او هي كما هو الحال ، عبارة عن قطعة رمزية لتساعد على ابقاء الروح المعنوية المسيحية . لقد فقد اعصابه وأمر بانسحاب ضمن به ركوب الجيش ، ولكنه ترك وراءه كثيرا من تجهيزاته ومؤونته قبل أن تقوم نجدة صقلية بأكثر من مناوشة لحراسه من الخلف . لقد كان ذلك هزيمة نكراء للقوات العثمانية العسكرية وانتصارا لفرسان القديس يوحنا ، وهو الأمر الذي جعل عبارة «الحصار الكبير » مرادفة لحصار مالطة . لقد كان انتصارا لـ 600—700 فارس و 8000 — 9000 جندي على قوة محاصرة كان عددها يتراوح بين الثلاثين ألفا والأربعين ألف رجل.ولا عجب بعد ذلك أن يعتبر دولا فاليت عظيم مالطة ، بطلا في العالم المسيحي كله ، سواء منه البروتيستانتيون والكاثوليكيون . ومن جهة أخرى فان الأتراك يمكن أن يعتبروا موت درغوث واحدا من مآسي هذا النزاع . لقد كان درغوث قد جرح أثناء الحرب ولكنه لم يبرأ من جرحه . وكان قد برهن على انه كان أفضل ضباطهم . وكان موته نسفا خطيرا يعادل آلاف الجنود الأتراك الذين قتلوا أثناء حصارهم لأسوار حصنين مالطيين .

وبعد مغادرة الأتراك ، شكر الفرسان الله وأخذوا في اعادة بناء الأسوار . ولكن كل أحد كان خائفا من أن الأتراك سيعودون خلال السنة التالية وينجزون بسهولة العمل الذي عجزوا عن انجازه سنة 1565 . لقد كانت التحصينات مخربة ومؤونة الطعام والحرب نفدت أو كادت ، وأصاب المدافعين الضعف من جراء الخسائر التي لم يكونوا قادرين على تعويضها . غير أن الدولة العثمانية كانت في الواقع «حيوانا بريا » ولم يقنع النجاح البحري لخير الدين وخلفائه السلطان سليمان بأن البحر كان ميدانا مناسبا لعملياته هو العسكرية . وهكذا قرر أن يعوض السمعة التركية التي ضاعت في مالطة بهجوم على وسط أوربا

عبر الدانوب . وكان موت الامبراطور فيرديناند (سنة 1564) قد أعطاه العذر في المطالبة بدفع عوائد مالية متخلفة كاتاوة ، وقد أعطاه الامبراطور الجديد ، ماكسيليان ، عذرا آخر لاعلان الحرب بتدخله في شؤون ترنسلفانيا . وهكذا غادرت قوة تركية عظيمة القرن الذهبي ، سنة 1566 ، في اتجاه بلغراد وبودابست (اوفن Ofen) ، ولكن هذه القوة لم تتوغل لكي تدخل في نزاع مع الدولة الألمانية ، لأن سليمان توفي في الطريق وتشتت القوة المهاجمة . وقد نجح خليفته سليم الثاني (الذي لقب في الأخير بلقب السكير) في جعل نفسه سلطانا ، ولكنه لم ينضم الى القوات التركية المتواجدة على نهر الدانوب . وكان الجيش غير قادر على الحركة بدون السلطان على رأسه . ان المؤرخين غالبا ما أرخوا بداية تدهور الدولة العثمانية من وفاة سليمان . وقد يكون هذا صحيحا ، ولكن بعض الوزراء القادرين الذين تدربوا في الحقبة البطولية للدولة العثمانية ، قد استمروا بعض الوقت بعد سنة 1566 ، في توجيه مصير الدولة ، لدرجة أن الغرب المسيحي لم يكن قادرا على معرفة ما اذا كان هذا الخصم الخطير كان حقا في حالة تدهور .

والواقع أنه خلال السنوات الموالية لوفاة سليمان ، حكم الدولة العثمانية الصدر الأعظم محمد سقوللي (وسكوللي) ، الذي كان رجل دولة من نوع وزراء سليمان المتازين . وكانت المجاعة التي وقعت سنة 1567 — 1568 قد عطلت نشاطه ولعلها ساهمت في جعله ينشد السلام مع ماكسيليان ، ولكن ذلك لم يمنعه من الشروع في بناء حصن مقابل جزيرة قبرص يمكن استعماله للاستيلاء على هذه الجزيرة الواقعة في حوزة البندقية . وقد اضطر سقوللي سنة 1569 م للدخول في حروب صغيرة على الضفاف الجنوبية للبحر الأسود ، وعلى الحدود الايرانية ، وضد العرب على ضفاف البحر الأحمر ، ولكن هذه « المناوشات » لم تثنه عن هدفه الحقيقي وهو قبرص . ففي سنة 1569 وقع انفجار في مخزن الذخيرة بالبندقية ، ولعله كان من عمل عميل عثماني ، بينما كانت مراسي بناء السفن قرب اسطانبول على قدم وساق . ان استعدادات سقوللي لمهاجمة بعض القلاع المسيحية في الشرق قد بعث القشعريرة في قلوب

رجال دولة البندقية فقد فهموا في الحال أن قبرص ستكون الضحية القادمة للاعتداء التركي .

فتحت الدبلوماسية المسيحية امكانية تحالف يجمع بين اسبانيا والبندقية ، ولكن فيليب الثاني ملك اسبانيا كان خلال السنوات التالية لحصار مالطة ، يواجه مشاكل أخرى اكثر حدة من مشاكل البحر الأبيض . حاول الملك الأسباني اولا أن يشارك في السلام الذي وقعه ماكسيمليان مع الدولة العثمانية ، ولكن سقوللي أصر على ضرورة ارسال سفير اسباني ليفاوض باسم ملك اسبانيا . ثم تلا ذلك اقتراحات « غير مرئية » بالمفاوضات ولكنها فشلت في الوصول الى اتفاق . ان الحرب مع الدولة العثمانية قد هدأت . واسترجع الأسطول الأسباني في البحر الأبيض قوته بما فيه الكفاية لضمان السيطرة الأسبانية على الطرق بين اسبانيا وايطاليا وتوقيف أنشطة البحارة المسلمين بجدية في غرب ووسط البحر الأبيض . ان السلام مع الأتراك قد يكون مرغوبا فيه ولكنه لم يكن ضروريا . وبالاضافة الى ذلك فانه (السلام) قد يؤدي الى قطع التعويضات التي يمنحها البابا للملك فيليب لمحاربة الكفار . غير أن أخطر مشكل كان يواجه الملك الأسباني في هذه السنوات كان في الأراضي المنخفضة حيث كان أتباع كالفن Calvin المتعصبون قد دنسوا الكنائس وعصوا نائبه . وخلال شهور وتذبذبت السياسة الأسبانية حول الرد المناسب . وأخيرا فاز الحزب المنادي باجراءات عسكرية حاسمة في الشمال ، وتوجه دوق آلبا (Alba) الى الأراضي المنخفضة على رأس خيرة الشباب الأسباني والايطالي الذين جاؤوا من أقاليم الملك في البحر الأبيض . ولم يمر وقت طويل حتى تهاطلت على مكتب فيليب البرقيات تخبر عن حرب « نشطة » في الأراضي المنخفضة وعن هجومات البحارة الأنكليز والهولنديين في بحر المانش وفي خطوط الملاحة بالمحيط الأطلسي . وهكذا في الوقت الذي أخذت فيه القوة البحرية العثمانية في النمو من جديد وكانت تضع الخطط للهجوم على قبرص ، كان فيليب متورطا تورطا كبيرا في الأراضي المنخفضة (هولندا) .

ومع ذلك فان التوتر في عالم البحر الأبيض ، بعد سنة 1569 ، بدأ يتصاعد ، وذلك لأن الغرب (المسيحي) قد أنذر بأن سليم الثاني قد

يحاول أن يباهي سلفه بتحقيق انتصار عسكري ساحق يوفر به غنائم لزخرفة المساجد واقامة موكب تاريخي لمهرجان الانتصار في اسطانبول ؟ ان التحصينات التي اقيمت في مواجهة قبرص تدل على أن البندقية هي التي ستدفع الثمن لانتصار « سهل » . ولكن عندما تكشفت مراسي بناء السفن في القرن الذهبي على نشاط غير عادي لتدعيم الأسطول العثماني الفخم لم يستبعد الأسبان ، من جهتهم ، امكانية ان تكون حلق الوادي او مالطة او صقلية او حتى اسبانيا نفسها هي هدف هذه الأرمادة . وهذا الاحتمال الأخير قد تأكد بأن أحد الموريسكيين المتعصبين قد حرض مواطنيه ، في يوم عيد الميلاد سنة 1568 ، على الثورة في غرناطة . فهل كان ذلك الموريسكي عيلا للسلطان ؟ لقد بدأت الثورة ببطء ، ثم وصلت المؤونة والمتطوعون من شمال افريقية ، واستطاع الثوار الموريسكيون ان يخرجوا من الجبال ويهاجموا المدن والقرى على السهول . ولما اصبح معروفا بأن العملاء العثمانيين قد اقترحوا على الملك الفرنسي بأن عليه أن يعيد اليهم ميناء طولون ، بدت الثورة الموريسكية على درجة كبيرة من الخطورة حقا . ذلك انه لا يوجد في موانىء شمال افريقية ما هو كبير الحجم او محميا بما فيه الكفاية ليسمح لقوة بحرية عثمانية كبيرة باستعماله ، ولكن ميناء طولون سيكون مناسبا لمثل هذه القوة .

وقد تبين أن تلك القوة البحرية التركية كانت ستستعمل لاحتلال قبرص ، في صورة ما اذا رفض البنادقة تسليم معقلهم هناك بدون حرب . ومع ذلك فان الموريسكيين ـ الذين تشجعوا بالمتطوعين من شمال افريقية وبوابل من المؤونة التي جمعت عن طريق التبرعات الشعبية في الجزائر ، تلك التبرعات التي فاقت رغبات البيلارباي ، علج علي ـ قد أصبحوا أعداء خطيرين قبل نهاية سنة 1569 . فكان فيليب الثاني ، الذي كانت جيوشه بقيادة دوق ألبا متورطة في الأراضي المنخفضة ، متحرجا كثيرا من هذه الثورة .

وبينما عبر جماعة البحارة بالجزائر عن تعاطفهم مع اخوانهم في الدين باسبانيا ، وبعثوا اليهم ببعض الرجال وبكمية كبيرة من الذخيرة الحربية فان علج علي ورجال الديوان قد اعترفوا بأن الأندلس لا يمكن استعادتها

بدون اسطول عثماني وقوة برية عثمانية كبيرة . ولكن ثورة الموريسكيين في اسبانيا كانت مفيدة لبيلارباي شمال افريقية لأنها جمدت القوات البحرية الأسبانية بالاضافة الى تجميدها الجيش الأسباني الذي كان قد بقي في حوض البحر الأبيض . كما أنها أعطت لعلج علي فرصة ذهبية لمحاولة مد سيطرة الجزائر من جديد على ساحل الشمال الأفريقي كله . فقد آلت جهود خير الدين في جعل تونس جزءا من الايالة الى حملة شارل الخامس واستيلائه على تونس . وكان الحصن الأسباني في حلق الوادي بالاضافة الى الحكومة العميلة التي انشأها شارل ، ما يزال كلاهما موجودا سنة 1569 . وكان الأمير الذي فرضه شارل على التونسيين قد عزل (وفقئت عيناه) من طرف ابنه قبل هذا التاريخ بسنوات ، ولكن هذا الابن قد عقد السلام مع الأسبان وأساء حكم تونس كما فعل والده . وكان هناك سنة 1569 عدد كبير من الناس في تونس يرغبون في التخلص من حاكمهم ، وقد اتصل عدد منهم بعلج علي طالبين منه مساعدتهم في القضاء على هذا المستبد . وان ثورة الموريسكيين ، بشلها لحركة الجيش الأسباني ، قد أعطت فرصة ذهبية لدعم السلطة الجزائرية في شمال افريقية . وان الاستيلاء على تونس سيكون بديلا لأمر آخر هو ان وهران وسلطنة فاس في المغرب قد برهنتا على انهما أقوى من جيش الانكشارية الجزائري في توسعه نحو الغرب .

ولعل ثورة الموريسكيين قد دخلت ايضا في حسابات الباب العالي فيما يتعلق بقبرص . وان مناوشة سفن البندقية وتجارها سنة 1570 قد أنذرت بأنه سيكون من الخطر مقاومة الضغط العثماني . وقد ظهر في البندقية ، وسط شهر مارس ، مبعوث تركي ليطلب اعادة قبرص الى السلطان باعتباره صاحب السيادة الشرعي على الجزيرة . ولكن مجلس شيوخ البندقية رفض ذلك بأغلبية ساحقة ، وهكذا استعدت البندقية للحرب . ولكن البندقية لم تكن جديا في حالة حرب منذ أكثر من ثلاثين سنة ، فكانت سفنها ورجالها وتحصيناتها ضعيفة الاستعداد للصراع القادم . واذا لم يكن للبندقية حلفاء فانها ستنهزم لا محالة .

وفي هذا المنعطف ، ظهرت شخصية قوية ، غيرت مجرى الأحداث . ومن السذاجة نسبة تكوين الجامعة المقدسة الجديدة الى البابا بيوس

الخامس فقط ، ومع ذلك فان هذا الرجل المسن ذا الأصل المتواضع والايمان القوي قد أصبح مركزا لما رآه هو انه حرب صليبية جديدة ، وتمطي كلماته هو مفتاح مشاعره الفياضة حين قال :

« ايها القرن المثقل بالشرود ، ان الأتراك ... سيهدمون المسيحية جزءا بعد جزء . انظر الى أصولهم المتواضعة ، ولدوا مع السثيين Sythians في قوقاز الهند ، وعاشوا كقطاع طرق على هامش العالم .... وشيئا فشيئا نمت قوتهم ، وكانت لهم الجراة على الاعتداء على الأراضي المسيحية ، واحتلوا سيليسيا ، واستعبدوا الأرمن ، وحاربوا الاثراسيين Thraces بآسيا ، وسيليي كابادوسيا ... وتقدموا كالسيل نحو حدود الفرات ودجله ، واحتلوا جبل طوروس وجبل أمانوس . فأين سينتهي الشره التركي ؟ اننا نرى الجيوش العثمانية تصل الى طانيس Tanais والفولقا والبرويشيم وبحر الهرياني . وبعد أن ابتلعوا آسيا كلها تقريبا . استولوا على القسطنطينية واحتلوا اليونان ، وقلبوا نظام الحكم في القاهرة فسقطت مصر وسوريا في أيديهم . واحتل سليمان جزءا من المجر واستولى على رودس وحاصر مالطة ، واحتل جزيرة شيو عن طريق الغش ، وافتك زيغه من المجريين . وها هو سليم (الثاني) اليوم بعد أن انتهك Szigeth قوانين الأمم انتهك عقيدته هو . ان شرهه في مد طغيانه قد جعله يهاجم مملكة قبرص ! »

ولكن البابا لم يكن مجرد شعلة ثورية يدعو الى العمل ، بل كان أيضا دبلوماسيا ، وبرهن على نفسه انه قادر على اقناع فيليب الثاني بأن المصالح الأسبانية تتطلب حربا بحرية جدية ضد الدولة العثمانية . وكانت المفاوضات على المعاهدة صعبة وطويلة ومؤلمة . وقد انعقدت أول جلسة في رومة في الثاني من يوليو سنة 1570 . وأخيرا كانت المعاهدة منتهية وجاهزة لتبادل التوقيع الذي تم في الخامس والعشرين من شهر مايو سنة 1571 . وكان سبب التأخير يعود جزئيا الى كون البنادقة أرادوا أن ينظروا ما اذا كان في امكانهم أن يتوصلوا الى اتفاق مرضي مع الأتراك قبل ربط أنفسهم ببرنامج عمل سيكون له بدون شك أثر سيء على تجارتهم الشرقية . وكان في مجلس شيوخ البندقية « حزب سلام » قوي لا يرغب في وقف النشاط التجاري للبندقية . ولم يقرر مجلس شيوخ البندقية

الدخول في الحلف المقدس والحرب الا عندما اقتنع بانه لا يمكن التوصل الى اتفاق يمكن ان ينقذ قبرص والتجارة . وكانت أعلى مرحلة لهذا التحالف هي معركة ليبانتو Lepanto .

وقد كتب الكثير عن هذه المعركة . فاعتبرها البعض نقطة حاسمة في تاريخ البحر الأبيض — والعمل الحاسم الذي حطم قوة البحرية التركية . ومع ذلك فان كون الأرمادة التركية قد نقلت ، بعد ثلاث سنوات من معركة ليبانتو ، جيشا واستولت على تونس وحلق الوادي من الأسبان هو أمر يلقي بعض الأضواء من الشك على هذا التفسير . ومهما كانت النتائج التي يمكن استخلاصها بشأن الطابع الحاسم في تاريخ حوض البحر الأبيض أو بالنسبة لأوروبا كلها ، فان الانتصار المسيحي في ليبانتو كان نسفا قويا للسمعة العثمانية ، وكان فرصة لقراءة تسبيحة الشكر لله في كنائس ايطاليا واسبانيا ، بالاضافة الى كنائس أوروبا الشمالية . وكان قائد البحرية المسيحية ، دون جوان النمساوي ، قد برهن على انه شبل شارل الخامس الحقيقي ، وبطل جيل من النبلاء الشباب الذين كانوا يطمحون الى السمعة والمال . وبينما تذهب التقاليد ، عن حق ، بأن دون جوان هو بطل ليبانتو ، فان الواقع ان اخاه غير الشقيق وهو فيليب الثاني ملك اسبانيا ، وكذلك قداسة البابا بيوس الخامس ، بالاضافة الى عدد آخر كثير ممن ساعدوا على تحضير وقيادة الأرمادة المسيحية — كلهم كانوا يشتركون في مجد ذلك الانتصار .

كان أسطول الجامعة المقدسة بطيئا في تجمعه لأنه جاء من سلطات سياسية متعددة ، ولكنه اجتمع على كل حال ، وتحرك بثقله نحو البحر الأيوني حيث كان على موعد مع القدر . وكذلك عاني الأسطول العثماني من مشاكل التموين والايواء ولكن وجوده تحت قيادة موحدة جعل من السهل السيطرة عليه . ان لقاء الأسطولين قد أفاض فيه الواصفون خلال القرن السادس عشر وبعده ، ولكن أكثر الأوصاف أثرا ما جاء في مجموعة الوثائق الأسبانية المستخرجة من المخطوطات المقدمة للملك . انها كتابات جمعت بين النصاعة والمباشرة ، وبالرغم من أن كل كاتب في معظم الأحيان لم يشهد في الواقع سوى جزء صغير من المعركة . وكان

رجال الأسطولين قد استعانوا بالله وأكد لهم زعماء دينهم بأن الموت في هذه المعركة سيضمن لهم دخول الجنة . وعندما التقت السفن وجها لوجه لم يبق الا الانتصار أو الموت ، وكل رجل في أرمادة الجامعة كان عليه أن يتذكر تصريح دون خوان من أنهم اذا انتصروا سيمجدون كمنقذين لدينهم وحضارتهم بينما الهزيمة تعني الفضيحة والمذلة . واذا صدقنا روايات الأسرى الذين أسروا خلال الحرب فان الضباط الأتراك كانوا واثقين من أنفسهم أكثر من اللازم . ان قادة الأسطول التركي قد التقوا بالمسيحيين وهزموهم في عدة معارك منذ معركة بريفيسا أكثر من ثلاثين سنة خلت ، وكانوا يتوقعون أن يكرروا نفس المسرحية . وهذه الثقة الزائدة عن اللزوم هي التي يمكن أن تكون السبب في أن كثيرا من السفن العثمانية قد اصطدمت ببعضها قبل الوصول الى الخطوط المسيحية .

لقد تقدم الأسطولان نحو بعضهما بكل أبهة . وكان دون خوان قد وضع سفن البندقية العظيمة الست في مقدمة خطه المتكون من نصف دائرة كبيرة . ان هذه السفن الجبارة التي تحمل كل منها ستين مدفعا كانت قادرة على اختراق جانب أية سفينة ، لقد كانت هي مدرعات البحر . حقا انها كانت تجر جرا لوضعها في المكان المناسب ، ولكن عندما تبدأ المعركة فان نيرانها تكون نكبة على الأتراك . كذلك كان الأسطول التركي قد نظم في شكل نصف دائرة عظيمة الجانب الداخلي لخليج ليبانتو ، وكان طرفا نصف الدائرة يكادان من تباعدهما ، يلامسان الشاطىء بصفة تعرض الأسطول للخطر . واقترب الأسطولان من بعضهما ببطء ومهابة تدفعهما قصدا مجاديف قصيرة . وقد بدأ يتبادلان الطلقات عندما أصبحت السفن داخل مجال نار المدفعية . ثم اشتبك الأسطولان ، وتصارعا سفينة لسفينة ، بينما كان الرجال يندفعون نحو جوانب السفن . ان كل رواية شخصية تركت لنا تتحدث عن مأساة القرن السادس عشر في الحرب البحرية . فقد كانت الأرمادة التركية مؤلفة من حوالي مائتي سفينة حربية وستين غلياطة وأسطوانة ، محملة بخمسة وعشرين ألف جندي وعدد لا يحصى من الملاحين وعبيد السفن ، والجدافين الأحرار . أما قوة

الجامعة المقدسة البحرية فتتألف من السفن الست العظيمة التي ذكرناها ومن ثلاثمائة سفينة قديمة محملة بخمسة وعشرين ألف رجل و أكثر ، أسبان وطليان ، وألمان ، بالاضافة الى الزيادة المعتادة من العبيد والجدافين الأحرار والملاحين الذين كانت مهمتهم المناورات بالسفن . واذا حكمنا من قائمة الموتى والجرحى التي قدمت الى ملك اسبانيا بعد المعركة ، فانه من الواضح أن الأسطولين كان يقودهما بعض من خيرة رجال أمتهما . فهناك عدد هام من النبلاء وسامي الضباط من الادارة المدنية والعسكرية لكل الدول المشاركة في النزاع — كانوا من بين المصابين . ومن العجيب أن عددا كبيرا من الباشوات الأتراك والقواد الأسبان كانوا قد قتلوا .

وهناك عدد من الآراء حول عوامل الانتصار . ومن الواضح أن وجود السفن الست العظيمة كان عاملا هاما . ولكن جزءا كبيرا من المعركة خاصة رجال في شكل يكاد يكون بل هو في الواقع كان كذلك . صراع البدن للبدن ، لدرجة جعلت دون خوان يصر على وضع جنوده الأسبان والألمان والطليان على السفن البابوية والبندقية ، بالاضافة الى سفن الملك الأسباني والسفن الايطالية أن هذه الحقيقة هي التي أعطت للمسيحيين فرصة أفضل قليلا عندما دخلت السفن في الصراع . يضاف الى ذلك حقيقة ، وهي أن اغلبية الجنود المسيحيين والبحارة كانت لهم بعض الدروع الشخصية ، بينما لا يكاد الأتراك يتوفرون على شيء من ذلك ، وهذا أيضا كان عاملا في صالح المسيحيين . ومن جهة أخرى كان جل الجنود المسيحيين مسلحين بالأسلحة النارية ، بينما الأتراك ، باستثناء عدد قليل ، لا يملكون سوى الأقواس والسهام ، والرماح والسيوف المحدبة . وليس هناك من شك في أن الرجال من الجانبين قد حاربوا بشجاعة . وكان يمكن للويس الرابع عشر أن يقول ، انه لا يدري ما اذا كان الرجل شجاعا أو غير شجاع عندما يحارب سفينة ، ما دام كل من الشجاع والجبان يمكن أن يغرق ، ولكن الكتابات التي كتبت عن ليبانتو تفيض بالحديث عن الشجاعة الشخصية للمحاربين .

ان الكتابات الكثيرة التي قدمت الى فيليب الثاني تشهد على فظاعة المعركة . فقد حاول المسيحيون أن يوقفوا تقدم الأتراك بنيران المدفعية .

ولكن القتال البحري فى القرن السادس عشر لا يمكن أبدا أن ينتهي عن طريق المدفعية ، بل ان العمل الحاسم فيه غالبا ما ينتهي الى المقاتلة جسما لجسم . ان سفينة دون خوان (ريال) وسفينة الراية للأسطول التركي قد اقتربتا من بعضهما فى شكل تجاوز مجرد المبارزة الرمزية بين الأميرالين (القائدين) . ذلك ان المقاتلة بينهما لم تنته الا بعد ان غرزت رأس القائد التركي على رمح كعلامة على الانتصار ، وأصبحت الراية الكبرى للأسطول العثماني — وهي الراية التي جيء بها من مكة — بين يدي الأميرال المسيحي . وقد أرسل دون خوان تلك الراية الى الاسكوريال كشهادة على انتصاره . وفى جناح الأرمادة التركية كان علج علي ، بيلاربباي شمال افريقية ، يقود الأسطول الجزائري . انه الوحيد من القواد الأتراك الذي نجا من المعركة لكي يجني ثمار انتصار شخصي أمام الهزيمة العامة . فهو لم يهاجم ويستولي فقط على سفينة الراية لفرسان القديس يوحنا ويحمل رايتهم الكبيرة الى اسطانبول كشهادة على شجاعة هذا البحار ، بل انه استطاع ان يبتعد عن سفن جنوا التي كانت بقيادة دوريا ، وأن يقود جناحه من الأسطول (العثماني) خارج النزاع ويعود به الى اسطانبول دون اصابته بأذى تقريبا . ولا يحتاج المرء الى جميع الكتابات عن ليبانتو لكي يعرف انه من السذاجة اعطاء تفسير عقلاني كامل للمعركة . فعندما تلاحمت السفن أصبح تفسير تولستوي Tolstoi للحرب فى عهد كان فيه صراع البدن بالبدن ممكنا ، هو أفضل طريقة تقريبا لتفسير النتيجة .

وبعد المعركة ، انسحب الأسطولان من المسرح بدون عمليات أخرى . وهناك من يعتقد بأنه كان على دون جوان أن يتبع انتصاره بالهجوم على (اسطانبول) قلب الدولة العثمانية ، ولكن مثل هذا النقد قائم على الجهل . ذلك أن الأسطول المسيحي كان قد تضرر كثيرا من الحرب . وقد انسحبت فرقة البندقية نحو الشمال لتضمد جراحها وتسد النقص فى مؤونتها — أما السفن الايطالية والأسبانية التي كان كثير منها يكاد يغرق ، لم تصل الى موانيء نابولي وصقلية الا بصعوبة . فأي حديث عن هجوم على اسطانبول انما يعبر عن جهل صاحبه تماما بأن ليبانتو كانت حربا فظيعة ، وأن أساطيل القرن السادس عشر كانت هشة لا يمكن للمرء

أن يغامر بها الى أبعد الحدود بدون تعريضها لخطر عظيم . فالذي كان يحتاج الراحة والاصلاح ليس هو الأسطول العثماني وحده .

وخلال السنة الموالية (سنة 1572) ظهر أمل في أوروبا وهو أن ثورة يونانية في المورية ستعطي فرصة لتدخل عسكري ضد الدولة العثمانية . أما الثورة فلم تحدث ، ولكن كان هناك تدخل بحري آخر في المياه التركية قامت به أرمادة مسيحية . ان هذه القوة البحرية قد وصلت الى الجزر اليونانية ، ولكن الخصم الذي واجهته هو علج علي الذي جعلته مواهبه الادارية ومهارته في القيادة جديرا بخلافة خير الدين . فقد أعاد علج علي بناء الأسطول التركي خلال شتاء 1571 — 1572 . وأصبحت السفن الجديدة على غرار سفن البحارة الجزائريين ، فكانت أخف وأكثر تسطيحا من السفن المسيحية أو العثمانية القديمة ، وبذلك اصبحت هذه السفن أكثر قابلية للمناورة . ثم سلحها بمدافع أثقل من السابق وعبأها بجنود مسلحين بالأسلحة النارية . وهكذا أصبحت السفن التركية الجديدة أسرع وأفضل تسليحا من تلك التي فقدت في ليبانتو . ولكن علج علي لم يستطع أن يلحق بالاسطول المسيحي في عدده وفي قوته النارية ، ولذلك رفض التورط في معركة متكافئة . فقد انسحب على الأقل مرتين خلف ستار من الدخان أطلقته أسلحته تاركا المسيحيين بدون هدف ، ثم ظهر لمضايقتهم وتهديد مؤخرتهم . وهكذا لم تسفر العملية البحرية سنة 1572 على أية نتيجة .

ولكن سنة 1572 كانت سنة أزمة ، فقد مات البابا بيوس الخامس ولم يستطع خليفته في الواقع أن يملأ مكانه كروح محرك للتحالف المقدس ، خصوصا أن البنادقة كانوا قد بدأوا يفاوضون الأتراك على انهاء المنازعات . ومن جهة أخرى فان مذبحة البروتستانت في يوم القديس برتولوميو بفرنسا قد غيرت فجأة مجرى العلاقات الفرنسية — الأسبانية وذلك بانهاء خطة التدخل الفرنسي في الحرب الأهلية بالأراضي المنخفضة .

وكان البنادقة في السنة الموالية (1573) في سلام مع الدولة العثمانية ، وكان دون جوان مستوليا على تونس ، لقد كان هجومه

على تونس سنة 1573 تكرارا لهجوم والده عليها • ولكن انتصار دون جوان هذا كان قصير الامد • ذلك أن الاسبان كانوا مترددين في مهاجمة تونس او الجزائر • وكانوا أكثر اضطرابا حول ما يفعلون بغنيمتهم بعد أن استلمت تونس دون مقاتلة هامة • فدار الحديث عن جعل دون جوان ملكا على تونس • ولكن هذا كان يبدو مجرد فكرة أكثر منه منهاج عمل • وقبل أن نجد هذه المسألة حلها جعلها الاتراك مسألة اكاديمية • ففي يوليو سنة 1574 ظهر علج علي وسنان باشا في تونس على رأس حوالي مائتين وثلاثين سفينة وأربعين ألف رجل • ولم يحل سبتمبر حتى احتلوا (الاتراك) تونس وحلق الوادي • ان هذه الحملة كانت دليلا قاطعا على أنه بالرغم من أن معركة ليبانتو قد كوت ذقن السلطان التركي فانها لم تشل دولته •

كان انتصار علج علي في تونس وحلق الوادي باهظ الثمن في الرجال والنقود بالنسبة للدولتين العثمانية والاسبانية • وقد ألح فيرناند بروديل على أن النتيجة كانت انسحاب هذين « الوحشين السياسيين » ، الدولة الاسبانية والدولة العثمانية ، من النزاع على أساس سلام غير رسمي قبل عدة سنوات من توصلهما الى تلك الهدنة التي أنهت في الواقع مجابهتهما • كما أنه يعتقد أن الجمود الناتج عن هذا الانسحاب هو الذي كان مسؤولا على تدهور البحرية التركية • ذلك أنه بعد سنة 1580 بدأت الدولة العثمانية كلها في ذلك التدهور الذي امتص القوات المسلحة وحيوية السياسة التركية • وقد استمر شمال افريقية من الناحية الفنية اقليما تابعا للسلطان العثماني ، ولكن سلطة الباب العالي ورغبته في السيطرة على نشاط جماعة البحارة الاتراك هناك قد اتبعتا نمط التدهور في الدولة نفسها • ولم يعين بيلارباي على شمال افريقيا بعد وفاة علج علي ، وقد توقف الباشوات ، الذين كانوا يرسلون كحكام في مهمة تدوم ثلاث سنوات ، عن كونهم شخصيات سياسية وعسكرية • فقد أصبحوا يذهبون الى شمال افريقية لجمع المال الذي كان عليهم أن يدفعوه الى ضباطهم • وهكذا كان للهدنة غير الرسمية التي جاءت أخيرا بالسلام بين الدولتين في طرفي البحر الابيض عواقب هامة في تطور جماعة البحارة الاتراك في الجزائر • وسنرى

ان الباشوات المعينين لمدة ثلاث سنوات كانوا غير قادرين او لا يريدون تاكيد سلطة السلطان الأعظم فسمحوا للسلطة الحقيقية في الايالة أن تفلت من أيديهم . وبالاضافة الى ذلك ، فانه ما دامت جماعة البحارة (في الجزائر) لم توافق على الهدنة بين الدولتين العثمانية والاسبانية ، فان التدهور السريع للتجارة الأسبانية الذي بدأ في نهاية القرن السادس عشر قد أجبر البحارة على أن ينشدوا الغنائم بعيداً عن السفن والسواحل الايطالية والأسبانية . وكانت النتيجة هي أن الحرب المقدسة التي كانت ظاهرة القرن السادس عشر قد أخذت في القرن التالي الى صبغة القرصنة .

الفصل الرابع

حكومة إيالة الجزائر، حكم البيلاربايات في القرن السادس عشر

ليس من السهل اعادة بناء الطرق التي على أساسها نشأت حكومة إيالة الجزائر . وما دام الممثلون الرئيسيون لم يتركوا لنا سجلات تعتمد عليها ، فيجب أن نكون مقتنعين بما نجده من مذكرات ورحلات جغرافية والتواريخ المعاصرة ، وهي المصادر التي تزيد في الواقع من خيبة آمالنا أكثر مما ترشدنا عما حدث . ويكاد يكون من المستحيل ، بدون الكتابين الفهما ف . دياقودي هايدو ، أن نحصل على صورة واضحة عن الذين التطور الذي عرفته النظم التي قامت عليها الايالة . أما بالنسبة لتونس وطرابلس اللتين لا وجود لمثل هذه المصادر عنهما ، فالمشكل يكاد يكون بدون حل . ويبدو أنه توجد سجلات في مصلحة الوثائق (الأرشيفات) باسطانبول ، ولكن هذه السجلات كانت بالنسبة للقرن السادس عشر ، تكاد تكون منحصرة في بعض الضرائب وحسابات الأتاوات Tribute التي لا تقدم لنا سوى الحد الأدنى من فهم أحوال جماعة القراصنة التركية التي أصبحت هي ايالة الجزائر . وهكذا لم يبق لدينا سوى مرمول وغيره من الجغرافيين ، وكذلك الكتاب الأتراك من أمثال مؤلف كتاب (الغزوات) (*) وكتاب (تاريخ الأتراك البحري) (**) ، بالاضافة الى عدد كبير من المؤرخين المسيحيين الذين تركوا لنا كتابات عن الملوك

(*) — كتاب (غزوات عروج وخير الدين) ، وقد نشره بالعربية المرحوم نور الدين عبد القادر في بداية الخمسينات . انظر بيبلوغرافية هذا الكتاب فقد رجع المؤلف الى ترجمته الفرنسية . (المترجم) .

(**) يقصد به كتاب (تحفة الكبار في أسفار البحار) لحاجي خليفة . (المترجم) .

العصاة الذين سرعان ما قطع رؤوسهم • وأخيرا توصل الى اغتيال الشيخ (*) الذي كان يحكم مدينة الجزائر ووضع نفسه على العرش • وكانت مدافعه ما تزال لا تقوى على ضرب حصون المركز الاسباني (المقيمية) في مرسى مدينة الجزائر ، ولكنه كان يملك القوة الكافية لتوسيع دولته (امبراطوريته) الصغيرة غربا نحو مدينة وهران • ونحن لا نعلم الا القليل عن حكومته لهذه الدولة (الامبراطورية) العضوية • ولكن بعد مقتله (أي عروج) أثناء حرب ضد الأسبان ، قام أخوه خيرالدين بالحاق هذه الدولة النواة بالدولة العثمانية وأعطاها هيكلها السياسي •

وكان الوضع السياسى فى المدن المغربية قد ساعد على نجاح عروج • ذلك أن المدن كانت محكومة من قبل «سلاطين» محليين الى جانب كثير من الأقارب ، ومن ثمة كانت هناك حظوظ كثيرة للمنازعات من أجل «العروش» • وهكذا كانت دعوات التدخل محل ترحيب من قبل عروج رئيس القرصان • ومن جهة أخرى فان هذه المدن الصغيرة كانت أيضا مهددة أو أنها كانت جزئيا مراقبة من قبل الحكام الأسبانيين فى وهران وبجاية • ولذلك كان من السهل اثارة شعب البربر المتعصبين ضد أعداء الههم عندما يكون للقراصنة الرغبة فى نجدتهم • وبعد مقتل عروج أصبحت جماعته المشرقية الصغيرة فى خطر كبير ، لأنه كان واضحا أن الأسبان سيهاجمون مدينة الجزائر وأن حكومة القراصنة هناك ، التى كانت غير محبوبة من جانب البلدية (الحضر) فى المدينة وأيضا من جانب رجال القبائل البدو (**) فى الريف ، ستكون هدف هجوم الحميع • وبالاضافة الى ذلك فان السلطان الحفصى بتونس قد ادعى أنه هو صاحب السيادة على معظم أرض وشعب شرق الجزائر (***) وهدد بأنه سينضم الى القبائل لطرد (القراصنة) المشارقة من البلاد • وهكذا كانت

(*) – نقصد به سليم التومي الذى تذهب الأخبار الى انه كان شيخ الثعالبة التى كانت تحكم مدينة الجزائر . (المترجم) .

(**) – لا يفرق المؤلف فى مواضع كثيرة بين القبائل اهل زواوة وبين القبائل البدوية حتى انه يكتب فى احيان كثيرة هكذا : Kabylie Tribesmen – ولذلك ترجمنا عبارة Kabylie باهل زواوة وعبارة : Tribesmen بالقبائل البدوية او اهل الريف .

(***) – يستعمل المؤلف الجزائر Algiers (العاصمة) وللقطر كما هنا حيث يقول : east of Algiers . (المترجم) .

جماعة القراصنة تواجه خطرا كبيرا حتى مع المساعدة التي كانوا يتلقونها من الموريسكيين الأندلسيين . وما دام عروج وجيشه قد رحل عن الساحة فانه كان على خير الدين أن يجد دعما جديدا أو يواجه النهاية .

وقد رأينا أن خير الدين قد وضع دولته (امبراطوريته) الصغيرة تحت حماية السلطان العثماني — ويخبرنا كاتب سيرته أن خير الدين قد شرح قراره المذكور لأعيان مدينة الجزائر (وهناك سؤال لطيف يمكن أن يطرح وهو : من هم هؤلاء الأعيان ؟) (*) وذلك فى خطبة عظيمة جاء فيها : « انني لا أرى أمامي سوى اختيار واحد . ان هذه المدينة يجب أن تكون تحت رعاية الله ، وبعده تحت رعاية سيدي ومولاي ، سلطان العثمانيين الأعظم الجبار الذي يسير النصر فى ركابه حيثما سار . » ومن المؤكد أن هذه الخطبة كانت مخترعة ، ذلك أن السلطان العثماني لم يكن بعد قد أصبح «سيد ومولى» خير الدين . فقد عرفنا أن عروج واخوته قد بدأوا مغامرتهم نحو الغرب برعاية وتكليف من أمير مصري . وقد أثبت الزمن أنهم أخطأوا فى اختيار الحاكم ، ذلك أن سليم (الأول) قد استولى على سورية جميعا ومصر منذ غادروا هم المشرق . ولكن خير الدين زعيم القراصنة كان فعلا سياسيا ورجل دولة يتمتع بمهارة فائقة وذكاء عميق . وكان يعرف أن السلطان العثماني سيكون مسرورا باضافة المغرب (شمال افريقية) أو جزء منه ، الى دولته ولا سيما اذا كان ذلك لا يكلفه سوى القليل . وقد رأينا أن خير الدين لم يذهب بنفسه الى المشرق ، بل أرسل الحاج حسن الذي كان مساعده ومحل ثقته ، والذي وجد السلطان في سورية وعرض عليه وضع الجزائر تحت حماية حكومته فى مقابل مساعدة عسكرية تقدمها له ضد الأسبان . وهذا العرض سيعطى الدولة العثمانية سنجقا (لواء أو أقليما) غربيا يمكنها من مد نفوذها فى عمق الحوض الغربي للبحر الأبيض .

ونظم أن سليم الأول (ويلقب بالبشع أو المخيف معا) الذى كان ما يزال منتشيا بالاستيلاء على مصر ، قد اتفق مع خير الدين بأن اقليما فى الغرب سيكون مفيدا ولا سيما انه لم يكلف كثيرا لا من الدم ولا من

(*) واضح أن ما بين القوسين هو هنا تساؤل من المؤلف نفسه (المترجم) .

السياسي في غربي البحر الأبيض ولكن من المحتمل ان الموريسكيين الأندلسيين كانوا قد سبقوا الى بلاطه حاملين شكاواهم من الاستبداد الأسباني وذلك قبل وصول مبعوث خير الدين بمدة طويلة • وعلى أية حال ، فان السلطان قد أرسل الى خير الدين ألفين من الجنود الانكشارية كما سمح للجزائريين بتجنيد أربعة آلاف جندي آخر من أناضوليا • كذلك أرسل الى خير الدين مدافع وأسلحة وعتادا حربيا ، بالاضافة الى لقبي الباشا وحاكم الاقليم الغربي (البيلارباي؟) ان هذا الدعم العسكري والسياسي هو الذي ساعد خير الدين على ايقاع الهزيمة بالمعتدين الأسبان سنة 1519 • ولو لم يتأخر نائب ملك صقلية في ارسال حملته لكان من المحتمل تحطيم جماعة قراصنة الجزائر قبل أن تترعرع ، ولكننا قد لاحظنا أن الجيش الانكشاري والعاصفة الهوجاء قد أنقذا (مدينة) الجزائر وأغرق سوق الرقيق بآلاف الجنود الأسبان الذين لم يستطيعوا العودة الى سفنهم •

ان وصول الانكشارية مع لقب الباشا لخير الدين قد برهن على انه حقيقة حاسمة لمستقبل تاريخ الجزائر • ومن المحتمل أن يكون الألفان الأولان من رجال فرقة الانكشارية المشهورة هم أبناء المسيحيين البلقانيين الذين وقع أخذهم من منازلهم عن طريق « ضريبة الأولاد » التي كانت عن طريقها تجند القوة البشرية لجيش السلطان ونظامه السياسي • أما الأربعة آلاف الآخرون المجندون فمن المؤكد أنهم كانوا أناضوليين الذين كانت حظوظهم في بلدهم نفسها ضئيلة ، والذين كانوا، من ثمة ، مستعدين للاصغاء لوكلاء التجنيد الجزائريين • ولما كانت ميليشيا الانكشارية الجزائرية قد استمرت في النمو عن طريق التجنيد من أناضوليا ومن غيرها من الدولة العثمانية ، فان هذه الفرقة الجزائرية لم تعد هيئة لنخبة Elite من عبيد السلطان الداخلين في الاسلام ، بل أصبحت فرقة من المرتزقة مجندة من السكان المسلمين بالمشرق • وفي آخر القرن (السادس عشر) ، عندما سمح للانكشارية بالانضمام الى سفن القرصنة وتجند « المشارقة » ، الذين كانوا الى ذلك الحين يحاربون تلك السفن ، في فرقة الانكشارية ـ سمح أيضا لعدد

كثير من المسيحيين الداخلين في الاسلام renegades وهم الذين « أصبحوا أتراكا » بأن يصبحوا أعضاء في المليشيا • وسواء كانت الفرقة من الأتراك المشارقة أو من المسيحيين الذين تحولوا « أتراكا » فانها قاومت جميع جهود أهالي الجزائر الشمال الأفريقيين في الانضمام اليها • وهكذا فانه من البداية الى النهاية أصر الكتشارية الجزائر على أن شركتهم Company يجب أن تكون عبارة عن « جيش احتلال » أجنبي ، أي فاتحين وليسوا قوة أهلية • (*)

ان الصورة التي نملكها عن المليشيا الجزائرية آتية من الأرقاء المسيحيين ، والقساوسة الذين كانوا يقومون بمهمات ، والقناصل الأوروبيين ، والتجار • أما رجال المليشيا أنفسهم فلم يساهموا أبدا في مدنا بالوثائق • ونتيجة لذلك فانه من المؤكد ان الصورة التي حصلنا عليها قد تكون مجحفة ، ومع ذلك فان معظم الشهادات تتناسب مع بعضها ولها نكهة كبيرة من الصحة • ان النقاد يؤكدون أن المليشيا كانت مجندة من المجرمين والمتسولين والمتسكعين من سناجق اناضوليا وسورية والبلقان • وكل هذا يمكن أن يكون حقيقيا ، ولكن أعضاء المليشيا كانوا أيضا يجندون من الفلاحين الشبان الذين لم يجدوا لهم مكانا في قراهم • وان المشرق ، مثل أوربا من القرن السادس عشر الى الثامن عشر ، قد أنتج فائضا من الرجال الذين ليس لهم مكان جيد في الاقتصاد • فهناك احصائية تشير الى وجود مائة مولود ، وصل حوالي نصفهم الى سن العشرين ، وكانوا موزعين بالتساوي تقريبا بين بنين وبنات • ولكن خلال العشرية التالية كانت الوفيات أعلى بكثير بين الفتيات منها بين الفتيان • فكانت النتيجة في أوربا الغربية ان الرجال الذين لهم أرض وحيوانات أو غيرها من الثروات يمكنهم التزوج عدة مرات وأن يأتوا بزوجات جديدات في محل الزوجات المتوفيات • أما في البلاد الاسلامية حيث كان تعدد الزوجات ممكنا فان هذا الوضع

(*) – سكرر المؤلف هذا الرأي لانه يعتبر كما قال ان الاوجاق التركية ما هي الا جيش احتلال • ويصف أتراك الجزائر بأنهم جماعة Comunity ، وهنا هو هنا يستعمل شركتهم Company • (المترجم) •

أصبح أكثر خطورة بالنسبة للشبان الذين ليس لهم أرض أو ثروة أو مقام اجتماعي . ذلك أنهم وجدوا أنفسهم مبعدين بحكم القوى الديموغرافية . ومن الواضح أن هؤلاء الشبان قد سمعوا دقات الطبول وخطب التجنيد التي كان يلقيها عليهم ضباط التجنيد الجزائريين الذين أعلنوا لهم ضمان مكانة واضحة ووضعا اجتماعيا لائقا . وعندما انضموا الى الفرقة الانكشارية أصبحوا هم « أسياد الجزائر الأقوياء والمشاهير » الذين كان على بقية السكان أن تقف بعيدة عنهم . ويبدو أنه لم يكن من الصعب إيجاد رجال مستعدين للانضمام الى هذه الملّيشيا الانكشارية .

ومن الواضح ان معظم المجندين قد جاؤوا من طبقات المجتمع السفلى وهناك قصص تروي عن الكرم واللطف بل حتى بعض الثقافة بين أولئك الرجال ، ولكن يبدو أن معظم الانكشارية كانوا أميين وجهلة وغلاظا وغير منضبطين وطائشين ، كما كانوا دينيا متعصبين . وكان بعضهم أيضا قساة وعنيفين . وقد نشأوا كغيرهم من رجال عهدهم في أوربا ، في مجتمع حيث المشنقة أو الثور كان قد أنهى حياة أكثر من انسان ، وحيث القانون والسلوك كانا عنيفين وغير عادلين وكثيرا ما كانا قاسيين : فكيف يمكن أن نتوقع أكثر من ذلك منهم ؟

في الربع الأخير من القرن السادس عشر أضيفت فرص جديدة لمليشيا الانكشارية الجزائرية . ذلك أن الجنود طالما قاوموا الحقيقة القائلة بأنه لا يسمح لهم بالتوجه الى البحر في سفن القرصنة والمشاركة في الغنائم . وكان الرياس في العادة هم الذين يركبون سفنهم مع « البحارة » القراصنة المجندين من المراسي المشرقية ومن المسيحيين الداخلين في الاسلام . ولما كان كثير من الرياس هم أنفسهم من المسيحيين الداخلين في الاسلام (الاعلاج) فان هؤلاء الجماعة كانوا يشكلون عددا كبيرا من ربابنتهم . وقد بذل محمد باشا سنة 1568 جهدا لتخفيف الخصومة التي تطورت بين «البحارة» القراصنة والمليشيا الانكشارية ، فاصدر مرسوما يمكن الانكشاريين من التوجه الى البحر مع القراصنة ، كما ينص على أن «البحارة» المشارقة والداخلين الجدد

في الاسلام بسكنهم الانضمام الى الانكشارية • ولكن هذا الاجراء لم يضع حدا للحقيقة وهي أن الانكشارية الجزائرية كانت جميعها من « الأجانب » وليست من البلدية « الحضر » الجزائريين أو من رجال القبائل البدو ، كما أن ذلك الاجراء لم ينه النزاع بين الانكشارية والرياس ، ولكنه أدخل عددا لا يستهان به من المسيحيين السابقين في فرقة المليشيا ، ولا يوجد دليل على أن المرتدين عن المسيحية (الأعلاج) قد رفعوا أو خفضوا من مستوى الفرقة الثقافي ، غير أنهم مع ذلك قدموا بعض الرجال الذين كان بامكانهم التحدث بلغات أروبية بل والكتابة بها ايضا •

كانت المليشيا عبارة عن فرقة عسكرية منظمة في شكل جيش • والمجند الجديد يصبح فيها يولداشا أو جنديا خاصا حين يصل الى الجزائر • وهذا الاجراء هو الذي جعل منه « سيد الجزائر القوي والمشهور » فهو لا يمكن القبض عليه الا من قبل رؤسائه هو كما لا تمكن محاكمته الا من قبل محكمة الآغا • واذا حكم عليه بالموت فلا يمكن أن يعاني من الاهانة بتنفيذ الحكم فيه أمام الناس • واذا مر بشوارع مدينة الجزائر فانه يجب على الجميع افساح الطريق له ، وأي انسان يجرؤ على ضرب أو اهانة اليولداش تصبح حياته في خطر • ان هؤلاء هم رجال « جيش الاحتلال » الذين بامكانهم أن يأمروا وأن يحصلوا على الاحترام من جميع الواقعين تحت هذا الاحتلال ، وليس من الواضح كيف كان الأعضاء الأولون من هذه الفرقة يسكنون • ولكن على عهد هايدو كان بمدينة الجزائر ثلاث ثكنات على الأقل ، كل منها تضم حوالي ستمائة رجل • وقد قام الباشوات في السنوات اللاحقة ببناء ثكنات جديدة لهذه الفرقة (1) ويبدو أن هنـاك بعض الرجال الـذين كانوا

---

1 – هذه هي أقدم التواريخ التي تشير الى المواد المتوفرة في الارشيف وهي :
أولا : ثكنة المكرون (نهج المكرون) ، أقدم اشارة اليها في الارشيف هي سنة 1603 وقد بنيت حوالي 1571–1572 من قبل علي القرطاس •
ثانيا : ثكنة باب عزون الموجودة في باب عزون ، وقد بنيت قبل حوالي 1599
ثالثا : ثكنة الخراطين (نهج باب عزون) ، بنيت حوالي 1599–1600 •

يتمتعون بمنازل يحتوي كل منها على ما بين ستة الى عشرين رجلا كانوا يعيشون معا • وكان عدد قليل منهم متزوجين وكانوا يسكنون في منازل خاصة بالمدينة • وكل رجل كان يتلقى نصيبه المحدد من الخبز يوميا ، وهو اجراء ينطبق على اليولداش كما ينطبق على الآغا نفسه • وكان طعامهم يحضر في مطابخ جماعية ، وهو طعام بسيط وكان غالبا بغير لحم مهما كان نوعه • وكان لباس الانكشاري متميزا عن غيره رغم أنه ليس لباسا رشيقا ولا غالي الثمن • «ان سادة الجزائر الأقوياء والمشاهير » كانوا في الواقع يعيشون عيشة تشبه أكثر عيشة الرهبان لا عيشة النبلاء ، كما كانت أوروبا تفهم هذه الأشياء ، ولكنهم كانوا يتمتعون بالاحترام والخوف من قبل الناس الذين حولهم ، كما كانوا آمنين الى حد ما من الناحية الاقتصادية • وكانوا لا يحسون بالخطر الاقتصادي الا اذا ضربت المجاعة كامل المدينة ، وهم في هذه الحالة كانوا يدافعون عن أنفسهم ، كما حدث سنة 1579 ، ضد الجوع وذلك بالمظاهرات والهجوم على مخازن الغذاء في المدينة ، بل حتى على منزل الباشا ومنزل القياد • (*)

لقد كانت فرقة الانكشارية منظمة تنظيما ديموقراطيا • فمن الناحية النظرية كان كل يولداش يحمل عصا الآغا معه عندما يصبح انكشاريا • وكانوا من المفروض أن يصعدوا من صف اليولداش الى صف أوده باشي (السرجان) الى صف بولكباشي (الكبتان) ، الى صف الآغا (الكوماندر)• ويبدو أن هناك عددا من الرتب والأماكن التي لم تملأ بالأقدمية وحدها، بل لقد وقع فعلا أن « الديمقراطية من خلال الأقدمية » وقع تجاوزها أحيانا لاستبعاد مرشح غير محبوب • وفي زمن لاحق هناك رجل لم يصعد الى رتبة الآغا لأن لغته التركية كانت ضعيفة ، وآخر لأن سمعة زوجته

رابعا : نكبة الاسطى موسى ، سنة 1674-1675 (!) •
خامسا : نكبة الفروج ، 1694-1695 (!) • النكبة القديمة Vieille 1660-1661 ولعلها اقدم مما سبق بكثير • من (المجلة الافريقية) ، عدد 3 ص 130 وما بعدها •

(*) ـ ترجمنا كلمة caid بقايد (جمع قياد) • اما مفرد قائد الذي يعني المسؤول على العموم فقد جمعناه على القادة • (المترجم) •

لم تكن فوق الشبهات قبل الزواج به . ان الرتب التصاعدية كانت مضمونة لأن الرجل الذي يتولى وظيفة الآغا لا يبقى بها سوى وقت قصير .

ويبدو انه كان يوجد في القرن السادس عشر ثلاثة او أربعة أغوات كل سنة ، ولكن هذه الوظيفة في وقت لاحق اصبحت محدودة بشهرين فقط ، (قمرين) . وبعد ان يمر الانكشاري برتبة الآغا « يتقاعد » . ويمكنه أن يصبح « صبائجيا » ، أو فارسا ، وقد يعطي وظيفة سياسية . وسنعرف أن الوضع في القرن السابع عشر قد تغير بسرعة كبيرة عندما وسعت فرقة الانكشارية دورها داخل جماعة القراصنة (البحارة) .

وكانت القضايا العادية للمليشيا ومسائل المنازعات — داخل الفرقة وكذلك الأمور الجنائية — كلها يسيرها ديوان الانكشارية الذي كان لكل عضو فيه ، من الناحية النظرية على الأقل ، صوت متساو مع الآخرين . أما من الناحية العملية فان زعماء الفرقة كانوا غالبا ما يتقدمون بقراراتهم للموافقة . ان « الديمقراطية » كانت ثقيلة وكانت في الغالب تؤدي الى الصياح والفوضى الصوتية . وكانت المسائل ذات المصلحة العامة للايالة ، بالاضافة الى مصالح المليشيا الخاصة ، يحلها خلال القرن السادس عشر ، البايلرباي أو خليفته في اجتماع يضم رايس البحر وربما آغا العسكر أيضا . فقد كان هؤلاء يحتفظون بكل القرارات الخطيرة لأنفسهم : ذلك أنهم يحكمون حكما مطلقا باسم السلطان ، ومع ذلك فهم أيضا كانوا بالطبع يتشاورون مع كبارهم ومع الرياس في المسائل الهامة . وفي آخر عهد البيلاربايات أظهر ديوان الانكشارية علامات التعدي على سلطة الباشوات الذين كانوا يعينون من اسطانبول . وخلال القرن التالي ، عندما توسعت سلطة الديوان فشملت كبار المسؤولين بالاضافة الى أعضاء المليشيا ، حل (الديوان) في الواقع محل الباشوات الذين كانوا يعينون كل ثلاث سنوات كمركز للسلطة في الايالة الجزائرية .

وكان بعض الانكشارية قد تزوجوا من النساء الجزائريات وانجبوا اطفالا أصبحوا هم كراغلة الجزائر الذين كانت منزلتهم بين الانكشارية وحضر البلاد (البلدية) . وكان من الطبيعي ان يطمح الكراغلة الى التمتع بمكانة آبائهم وامتيازاتهم ، ولكن أغلبية الانكشارية . الذين كانوا عزابا ومعادين للحضر ، وكانوا عازمين على استبعاد اي انسان مولود في شمال افريقية من فرقتهم . وسنرى أن هذا الموقف قد أدى الى ثورة كرغلية في أوائل القرن السابع عشر كما أدى الى اتخاذ اجراءات أكثر تشددا فيما يخص الكراغلة .

ووجود كثرة من الرجال غير المتزوجين ادى بالضرورة الى خلق مشاكل أخلاقية . ويخبرنا الأب هايدو الذي كان حسن الاطلاع ان الانكشارية (باستثناء أولئك الذين ارتدوا عن المسيحية) لم يمارسوا السباب ولا لعبة الورق ولا شرب الخمر . ولم يتحاربوا فيما بينهم ولكنهم عملوا معنويا على اشاعة حياة الفوضى والفضائح . وكانت ذنوبهم تتمثل في الشذوذ الجنسي والدعارة . فكانوا من الناحية الجنسية ماجنين يدخلون بيوت النساء ذوات السمعة المشبوهة كما شاع عنهم أنهم يعملون على اغراء الصبيان المسيحيين واليهود . وكانوا متهمين بايجاد الطرق التي توصلهم الى أسر أو شراء أرقاء الصبيان المسيحيين لاشباع شهواتهم الجنسية . ومن الواضح أن القسيس المذكور (هايدو) قد هزته هذه الأمور ، ولكن شهادته قد أكدها في عدد من المرات ملاحظون آخرون في مدينة الجزائر خلال القرون التالية ، مما يجعل شهادته نسبيا قد تكون صحيحة .

ولم يكن دفع الأجور لفرقة الانكشارية قضية حادة أثناء العهد الذي كانت حكومة الجزائر في يد البايلربايات وخلفائهم . ذلك أن البايلربايات أنفسهم كانوا من أغنياء القراصنة الذين كانوا يملكون باسمهم الخاص أسطولا صغيرا من السفن التي كانت تمخر عباب البحر الأبيض وضفافه المسيحية بحثا عن الأرقاء والغنائم .

وبالاضافة الى الضرائب التي يجبونها من أهل البربر والعرب الذين كانوا من رعيتهم ، فان هؤلاء الحكام لم يكونوا يجدون صعوبة في ايجاد المداخيل الضرورية لدفع أجور تبدو ضئيلة لعدد من الانكشارية يتراوح بين تسعة واثنى عشر ألف جندي كانوا تحت أمرتهم .

أما الصعوبة في دفع الأجور للانكشارية فقد ظهرت فيما بعد ، عندما أصبح الباشوات المعينون كل ثلاث سنوات ينظرون الى منصبهم كوسيلة لجمع ثمن شراء المكانة والألقاب . عندئذ فقط كان دفع الأجور مشكلا هز حكومة الجزائر . وقد كان معظم هؤلاء الباشوات لا يملكون شخصيا أي جزء من أسطول القرصنة . وكانت دخولهم متوقفة على سهمهم في الغنائم الذي يمنح لهم حسب حظوظهم الشخصية وليس حسب الحاجة العامة . وهكذا أصبح الكثير من أجور الانكشارية في العهود اللاحقة يأتي من الضرائب المفروضة كنوع من الجزية على سكان الأرياف . وكان الجنود اليولداش أنفسهم «يكنسون» الأرض داخل البلاد كمسؤولين على جمع الضرائب من رجال القبائل . وكانت هذه الجولات لا تختلف عن الغارات الأسبانية التي كانت تشن من وهران الا أنها كانت أقل منها نظاما وانتظاما ، ومع ذلك فانها كانت مثل تلك الغارات لأنها كانت حقيقة غارات وحشية تهدف الى اجبار العاصين من رجال القبائل الرحالة وشبه الرحالة على الدفع لخزينة الحكومة . ويكفي في بعض الأحيان حضور فرقة من 600 الى 800 انكشاري مرفوقين بفرسان الصبايحية وخيالة من القبائل التابعة لهم لاقناع « الضحايا » بوجوب دفع الضريبة . والواقع أنه قبل أن يتعلم رجال القبائل البربرية والعربية استعمال الأسلحة النارية ، كان من البساطة أن تتسلط فرقة صغيرة من الانكشارية على السكان الأهالي رغم تفوق هؤلاء عليهم في العدد بكثير .

وبالاضافة الى فرق الانكشارية كان لحكام الجزائر فى القرن السادس عشر بحارة يحاربون فى سفن القراصنة وكانوا تقريبا تحت تصرفهم . وقبل أن يضع خير الدين جماعة القراصنة تحت حماية الباب العالي ، كان

المجدون الشرقيون والأندلسيون وسكان المغرب العربي الذين تولوا الحروب البحرية هم الذين يشكلون حقا العمود الفقري لقوة سفن القرصنة • ولكن بحلول منتصف القرن السادس عشر ، عندما كان عدد كبير من رياس البحر هم أنفسهم من المرتدين عن المسيحية ، كان البحارة أيضا يضمون عددا كبيرا من خليط المسيحيين السابقين • غير أن هؤلاء « البحارة » لم يكونوا منتظمين في فرق عسكرية ولا يتمتعون برواتب ثابتة ، لقد كانوا في الواقع مخلوقات تابعة للرايس الذي يبحرون معه : وكان سهمهم في الغنائم التي يحصلون عليها أثناء الابحار هو كل جزائهم • وقد كانت هذه الغنائم من الوفرة والضخامة بحيث جلبت حسد اليولداش لهم • ولعل ذلك هو الذي كان السبب ، ولو جزئيا ، في وجود الخصومة بين الفريقين (الانكشارية والبحارة) • ونحن لا ندري ما عدد الرجال الذين كانوا عندئذ في البحر ، ولكن المعلومات تدل على أنه عند منتصف القرن السادس عشر كان هناك على الأقل ثمان وثلاثون غليوطة ، وخمسة وعشرون سفينة ابريقية ، بالاضافة الى عدد كبير من المراكب الصغيرة ، كلها كانت عاملة خارج المياه الجزائرية • وهذا يؤدي الى الاستنتاج بأنه كان يوجد على الأقل خمسة عشر ألف رجل يمارسون عمل القرصنة باسم الله •

ان هؤلاء البحارة الشرقيين والأعلاج كانوا في الغالب في نزاع مع فرق الانكشارية•وأشهر مواجهة حدثت بينهم هي التي رفضت فيها المليشيا (الانكشارية) السماح لمعين السلطان ، محمد كرد وغلى المعروف (بطاكالرى) (*) بالنزول على الأرض الجزائرية ، كبديل للباشا الذي اختاره الانكشارية بأنفسهم • فنحن سنرى أن البحارة الذين كانوا مؤيدين من قبل الجنود والحراس الذين يحملهم كرد وغلى باشا على سفينته ، قد تسربوا الى مدينة الجزائر في جنح الظلام وتغلبوا على حراس الانكشارية وأسروا ثم أعدموا زعماء التمرد •

وفي مناسبات أخرى نجد النزاع بين الانكشارية والبحارة الشرقيين قد تسبب فقط في اضطرابات في الشوارع أو في الحانات • وكان هذا

(*) – كذا يكتبه (طاكالرى) والشائع هو طاكارلي • (المترجم) •

النزاع في آخر القرن السادس عشر قد أخمد عندما أمر محمد باشا رياس البحر بقبول الانكشارية كجنود على متن سفن القرصنة على قدم المساواة مع البحارة ، وفي نفس الوقت اتخذ اجراء آخر وهو امكان انضمام البحارة الشرقيين والأعلاج الى صفوف الميليشيا الانكشارية والتمتع بنفس الحقوق والامتيازات التي كانت لدى هذه الفرقة . وقد اعتقد السيد هـ.د.دي غرامون De Grammont بأن النزاع بين الطرفين قد استمر كعامل هام في تطور الايالة الجزائرية ، ولكن رأيه في الواقع لا تؤيده الحقائق . ان المشكل المستمر مع فرقة الانكشارية كان يتمثل في ضرورة البحث عن النقود لكي تدفع الى أعضائها كلما تضخم عددها — وقد يكون تضاعف في السنوات التالية . أما شارل أندري جوليان فيشرح ذلك بأن دخول الشرقيين والأعلاج كان عاملا في تدهور القرصنة ، غير أن هذا الرأي لا يثبت أيضا أمام الحقائق الصارخة ، ما دمنا نعرف أن أعظم أيام القرصنة الجزائرية كانت خلال النصف الأول من القرن السابع عشر وذلك عندما كان عدد الاعلاج بالمقارنة الى عدد الأتراك والشرقيين أكبر من أي وقت مضى .

ان قراصنة الرياس كانوا منتظمين في منظمة غير محكمة تسمى (الطائفة) وما دام كبار البيلاربايات وخلفائهم كانوا هم أنفسهم قراصنة رياس، ويملكون الغليوطات والابريقيات المغيرة ، فان الطائفة كانت تمارس عملها بتعاون وثيق مع الحكومة التي تدير شؤون الجماعة العثمانية في الجزائر . لقد كان الرياس محبوبين من الشعب ، فهم الذين يوفرون الثروة والشهرة للجزائر ، وهم الذين يؤمنون القوت للمدينة عندما تضرب المجاعة ضربتها في مكان آخر ، وكان سخاؤهم قد منح نغمة خاصة الى المجتمع كله . غير أننا لا نجد دراسة جادة عن هذه الطائفة ، كما لا نجد سجلات وثائقية عن تطورها . ومن الواضح أنه خلال معظم المرحلة الأولى من القرن السادس عشر كانت الطائفة بدون شك تحت سيطرة البيلارباي ، أو خليفته ، الذي يحكم الجزائر باسم السلطان . فخلال هذا العهد كانت الطائفة حقا واقعة تحت رقابة تامة حتى أن واحدا منها كان قد وقع اعدامه لأنه عصى أوامر السلطان في عدم التعرض لسفينة فرنسية . أما أثناء القرن الموالي فان الباشوات لم يكونوا قادرين على ممارسة هذه الرقابة .

وخلال القرن السادس عشر كان هناك أيضا جنود آخرون أو رجال مسلحون ، تحت تصرف الباشا في الجزائر ، وكان بعضهم يجندون بطريقة نظامية وبعضهم كانوا يجندون لعملية بعينها . وكان هناك بضع مئات من الفرسان (أو الصبايحية) الذين كانوا في ظاهر الأمر اما من كبار السن من جنود الانكشارية واما من المجندين من المشرق . لقد كان عددهم صغيرا ولم يلعبوا دورا هاما في النظم العسكرية للإيالة . وكان لخير الدين فرقة مسلحة من الأندلسيين تحت تصرفه . وكان هؤلاء اللاجئون من الأندلس متجندين أيضا في جيش سلطان فاس . وهم بخلاف أهل شمال افريقية كانوا يعرفون استعمال الأسلحة النارية ، بل الواقع أن كثيرا من هؤلاء اللاجئين كانوا صانعي أسلحة فأنشأوا مصانع للسلاح في مدينة الجزائر وغيرها من المدن الافريقية . ولعل خير الدين قد استعملهم على أسطوله للقرصنة بالاضافة الى حاجاته العسكرية في الجزائر .

ومن جهة أخرى نجد فرسانا من البربر أو من العرب الأصليين اما في خدمة البيلارباي أو كحلفاء في الحملات الكثيرة الداخلية أو أثناء الغارات الأسبانية على السواحل الجزائرية . ويبدو أن هؤلاء الفرسان كان يحركهم الطمع في النهب ، وليس من الواضح أن البيلاربايات أو خلفاؤهم كانوا يدفعون لهم أي راتب منتظم . في السنوات التالية للقرن السادس عشر كان الباشوات وقيادهم (أي القادة العسكريين) يستعملون بصفة منتظمة الفرسان من الأهالي كجنود احتياطيين سواء كان ذلك أثناء « غزواتهم » لجمع الضرائب ومعاقبة الثوار ، أو في منازعاتهم مع الأسبان والتونسيين والمراكشيين .

وهناك أيضا أنواع أخرى من الفرق العسكرية غير الرسمية الى حد ما . ذلك أننا نجد مثلا فرقة كاملة من الجنود الأسبان الذين أسروا عندما حاول الأسبان احتلال مستغانم ، قد طلب منهم أن يتخلوا عن دينهم وأن يحاربوا لصالح الباشا في مقابل حريتهم . غير أن كل هذه المحاولات (من توظيف الفرق العسكرية المختلفة) لم تحرر الباشوات من الاعتماد على فرقة الانكشارية .

ومن الصعب أن نورد حقيقة العلاقة التي وجدت بين حكومة السلطان في استانبول والبايلربايات الذين حكموا الجزائر . وليس هناك شك في اعتماد هؤلاء على موافقة حكومة السلطان ولكن ذلك لا يفسر لنا القاعدة التي تتم بها التعيينات في الوظيفة السامية وهي وظيفة بايلرباي شمال افريقية ، ولا تعيينات الباشوات الخلفاء الذين يمثلون البايلرباي في الجزائر . وهذا تعيين خير الدين نفسه يقدم لنا صورة جلية على ذلك . فقد تقدم الى السلطان بالسنجق العربي لشمال افريقية ، ولم تأت سنة 1533 حتى أصبح في نفس الوقت بايلرباي شمال افريقيـة والباشا ادميرال (أمير البحر) للبحرية التركية ، كما كان الشخص المفضل للسلطان نفسه . وكانت سمعته من العظمة بحيث سمحت له أن ينقل لقبه كباشا وبايلرباي شمال افريقية الى ابنه حسن . ومع ذلك فقد أمكن عزل حسن من منصبه عندما طلب السفير الفرنسي ذلك بالحاح . ومن التناقض أن حسن بن خير الدين قد رجع الى منصبه المذكور مرتين عندما كان الوضع في الجزائر يستدعي حاكما قويا . وبالاضافة الى ذلك كان تعيين البايلربايات الآخرين ، مثل صالح رايس وابنه محمد ، تعيينا طبيعيا أيضا . ذلك أن صالح رايس كان معاون خير الدين المتمتع بثقته الكبيرة ، وقد أصبح هو أيضا الأميرال باشا في البحرية العثمانية ، كما أن سمعته العالية سمحت له بتمرير منصبه الى ابنه أيضا . أما آخر البايلربايات ، وهو عليج علي ، فقد كان معاونا لدرغوث (باشا) ، وقد أصبح (أي عليج علي) أميرال باشا في خدمة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو . فكل هؤلاء الرجال كان تعيينهم في وظائفهم تعيينا طبيعيا ، ومع ذلك فاننا نسمع بالرشوة والهدايا الى الوزراء كعامل هام في تأمين النفوذ لدى ذوي السلطة للحصول حتى على هذه التعيينات .

واذا كانت هذه التعيينات لوظيفة البايلرباي تبدو قد تمت لأسباب واضحة ، فان معرفة القاعدة التي كانت تتم بها تعيينات الباشوات الخلفاء تبدو أكثر صعوبة . ذلك أن معظم هؤلاء كانوا ضباطا قراصنة ، وكان حوالي نصفهم من الأعلاج (المرتدين عن المسيحية) ، أما باقيهم فقد كانوا من الاغريق أو العرب أو الألبان أو الأتراك . فهذا أول خليفة ، وهو المخصي حسن ، كان من صنائع خير الدين وقد كان في خدمته منذ عهد

الشباب . والثاني ، وهو حسن ابن خير الدين ، لم يكن تعيينه يشكل اي صعوبة ايضا . ولكن في السنوات اللاحقة كان هناك خلفاء ، مثل مامي باشا الذي كان انكشاريا البانيا والذي جاء لخدمة السلطان عن طريق ضريبة الأطفال والذي صعد الى السلطة والنفوذ في البلاط السلطاني باسطانبول . وهناك آخرون ، أمثال حسن فنزيانو ، أو عرب أحمد ، أو رمضان باشا ، كانوا من صنائع ومعاوني البايلارباي علج علي . ويبدو انه قد جرت العادة أن السلطان يوافق على تعيين مسمى البايلارباي ، ومع ذلك فاننا نعلم أن مبالغ كبيرة من النقود كانت تدفع لتأمين هذه التعيينات .

وقد ظهرت بعض المشاكل كنتيجة لجهود الانكشارية في التدخل في طريقة تعيين الباشا . وان نماذج الفوضى التي ستطبع سلوك هذه الفرقة خلال القرن السابع عشر قد ظهرت أول مرة بعد وفاة صالح رايس بالطاعون أمام وهران وأمر السلطان برفع الحصار عنها . فقد انتخب فرقة الانكشارية خليفته القائد ، حسن قورصو ، ليكون الباشا الجديد . ومن خلال كل الوثائق التي لدينا نعرف أن حسن قورصو كان شخصا مفضلا جدا عند الجنود ، وكان رجلا يتمتع بالطموح والجاذبية ، ولكن السلطان رفض أن يخبره الآخرون بالمرشح لباشوية الجزائر . ومن جهة أخرى من حسن قورصو بايات الاقليمين الشرقي والغربي في الجزائر برفض السماح لمعين السلطان ، محمد كردوغلي أن ينزل في المراسي التابعة لهما . وفي هذا الظرف تدخلت طائفة الرياس بالاتصال بمحمد كردوغلي وعملت على ادخاله الى الجزائر ليلا بتأييد من القراصنة الشرقيين والبحارة الأتراك الذين كانوا على متن سفينته .

وهكذا ، فان الانكشارية قد فوجئوا تماما وكانوا غير قادرين على المقاومة . وقد حاول حسن قورصو أن يدعي بأنه ليس هو الملام على ما حدث ، ولكنه لم يستطع أن يهرب من حكم الاعدام (بطريقة الرمي على الصنانير الحديدية المثبتة في أسوار مدينة الجزائر ، وهو موت فظيع حتى بمقاييس القرن السادس عشر) . ومن سوء حظ محمد كردوغلي ، فان حسن قورصو كان له أصدقاء كثيرون استطاعوا الفرار

من انتقام الباشا الجديد . وقد استطاع احدهم ان يصطاد كردوغلي ويقتله في احدى الزوايا الدينية التي هرب اليها . وانتخب القائل في الحال من قبل الانكشارية غير انه توفي قبل ان يأتيه العزل من السلطان . واستولى آغا حسن من الانكشارية على السلطة الى ان يأتي باشا جديد معيا من استانبول .

وفي سنوات لاحقة حاولت الانكشارية ان تراقب منصب الباشا من جديد . فقد رجع حسن بن خير الدين الى الحكم وكان من الواضح انه جاء بخطط لتنظيم الوضع العسكري في المدينة . وكان حسن هذا من أم جزائرية كما كان متزوجا من اميرة قبائلية (زواوية) ، ومن ثمة سمح لأهل زواوة أن يدخلوا مدينة الجزائر وأن يشتروا السلاح . وبحلول سبتمبر 1561 أصبح منهم في هذه المدينة ستمائة رجل مسلحين الى اذقانهم وكان واضحا أنهم يتمتعون بثقة البايلارباي . ولذلك أصبح زعماء الانكشارية متوجسين خيفة منهم : فقد ذهب الآغا بوشناق حسن والباي كوسه محمد ، وبتأييد من ديوان الانكشارية ، ذهبا الى القصر وأوقفا بيع الأسلحة الى قبائل زواوة وأمرا كل الرجال المسلحين بمغادرة المدينة ، واعتقلا حسن بن خير الدين وابن أخيه (أو ابن أخته ؟) ووضعاهما في الحديد وأرسلا بهما الى اسطانبول مع وفد كانت مهمته توضيح الموقف للسلطان ، وهو أن حسن كان يحاول أن ينصب نفسه حاكما مستقلا في شمال افريقية .

ولكن حسن كان قادرا على اقناع الباب العالي ببراءته . فكانت النتيجة اعتقال واعدام الوفد الذي جاء معه وتوجه باشا جديد الى الجزائر لاعتقال زعماء الثورة هناك . وقد اعتقلوا فعلا وأرسلوا الى اسطانبول وقطعت رؤوسهم . ثم رجع حسن بن خير الدين بعد ذلك بقليل الى الجزائر بلقب بايلارباي ، وكانت تعززه عشرون سفينة تركية من نوع الغاليات (سفن حربية) ، وهي الطريقة التي اكدت قبوله من قبل كل الناس في المدينة . ونحن لا نملك الأدلة التي تؤكد الادعاء القائل بأن حسن كان قد خطط ، خلال عهده الأخير كبايلارباي ، لانشاء دولة مستقلة تقوم على تأييد اهل البربر الأصليين ، ولكن هناك ما يؤكد الاعتقاد بأن

حسن قد انتقم لنفسه من الانكشارية عندما استأنف حصار مدينة وهران .
ذلك أن كثيرا منهم كانوا قد قتلوا في هذا الهجوم على المواقع الاسبانية
حتى أن الذين نجوا منهم كانوا مقتنعين من أن حسن قد تعمد وضع
فرقتهم في مقدمة جبهة الهجوم لكي يدفعوا ثمن اهاناتهم له . وكان هذا
الهجوم قد فشل لأن فيليب الثاني ، ملك اسبانيا ، قد عرف كيف يحضر
قوة بحرية متفوقة لرد المهاجمين .

ولم يقم ديوان الانكشارية بعد ذلك بثورة أخرى ضد سلطة البايلارباي،
ولكن في أواخر القرن عندما أصبح أحد خلفاء علج علي طاغية جشعا ،
استطاع الانكشارية توصيل شكواهم الى ديوان السلطان والحصول
على طرد هذا الباشا المغضوب عليه . ويبدو من كلام هايدو ، انه كان
على علج علي أن يدفع رشوة كبيرة لانقاذ صنيعته من مصير أكثر سوءا
من الطرد . ومع ذلك فنحن نجد هذا الرجل قد أصبح فيما بعد خليفة علج
علي في طرابلس . ان كل ما نحن متأكدين منه هو أن ديوان الانكشارية
خلال ذلك العهد كان قادرا على الحصول على مطالبهم من الباب العالي
وذلك بعزل الباشا غير المرغوب فيه ، رغم أنه لم يكن قادرا على أخذ
الأمور بين يديه . على أننا نلاحظ أنه في آخر القرن عندما لم يعد السلطان
يمنح منصب البايلارباي الى أمراء البحر القراصنة الذين كانوا أيضا
باشوات في مؤسسته البحرية ، بل أصبح يمنحه الى رجال سياسيين
انتهازيين أو الى المحظيين في البلاط ـ فاننا نجد سلطة الديوان بالجزائر
قد نمت بينما سلطة الباشا والباب العالي قد تدهورت . وهكذا فان
الجزائر في آخر القرن السادس عشر جاءت لتعكس مرض التدهور الذي
بدأ يدب في أوصال الدولة العثمانية نفسها .

ان هناك فرقا كبيرا بين استيلاء الاتراك المشارقة على شمال افريقية
على يد عروج واخوته والتدخل الأسباني أثناء عهد فيرديناند وايزابيلا ،
وهو أن الأسبان قد اكتفوا بانشاء مقيمات أو حصون على الموانئ الرئيسية
بينما حاول الأتراك حكم الأهالي في داخل البلاد بالاضافة الى المدن
الداخلية وجعلها تحت نفوذهم أو على الأقل تحت سيادتهم . واذا حكمنا
من الوثائق المتوفرة فان جميعها تثبت أن الأتراك كانوا مكروهين من

الأهالي سواء كانوا من أصحاب المدن أو من القبائل الداخلية بنفس الدرجة تقريبا التي كان الأهالي يكرهون بها الأسبان . غير أن هناك فرقا أساسيا بينهما : فالأتراك كانوا أيضا مسلمين ، واذا وصل نزاع بين الأتراك والأسبان الى حد التأزم فان أهالي شمال افريقية كانوا يؤيدون الأتراك . ولم يكن من السهل على حاكم الجزائر أن يمد سلطانه — حتى بعد المساعدة التركية — الى مراكش وتونس ، ذلك أن الحكام المسلمين هناك ؛ وفي كلا البلدين ، قد قاوموا التدخل .

وقد كانت الحدود التونسية هي الأكثر صعوبة في القرن السادس عشر لأن حكام تونس الحفصيين كان يمكنهم ، بناء على السوابق التاريخية ادعاء السيادة على معظم المدن والقبائل الواقعة بين مدينتي تونس والجزائر . وكانت أول حملة لخير الدين بمساعدة الأتراك هي الاستيلاء على مدينة تونس سنة 1534 . وفي السنة الموالية كان انتصار شارل الخامس في تونس قد اتبع الخطة الأسبانية المتبعة وهي انشاء مقيمية في حلق الوادي تستطيع مراقبة الميناء وتكون قاعدة للعمليات . ثم أعاد الى العرش (الأمير) حميدة المغضوب عليه . وبعد عدة سنوات قام ابن حميدة بعزل والده ، ولكن كان عليه أن يقبل هو أيضا بالحماية الأسبانية نظرا لوجود القاعدة في حلق الوادي . وفي نفس الوقت استولى باشوات الجزائر على بونة (عنابة) وبجاية من الأسبان ، كما افتكت البحرية التركية طرابلس من حكم فرسان القديس يوحنا ، ولكن قاعدة حلق الوادي بقيت حجر عثرة في وجه السلطة التركية . ولم يكن درغوث قادرا على السيطرة على الوضع في المهدية (التي كانت تسمى أيضا افريقية) الواقعة جنوب حلق الوادي ، والسبب في ذلك يعود الى أن ذلك الحصن (حلق الوادي) ، بالاضافة الى مالطة وصقلية ، كان يمنح للأسبان موقعا حصينا في وسط البحر الأبيض . وقد بقي الوضع على ذلك النحو الى سنوات السبعين من ذلك القرن حين استولى علج علي على تونس باستدعاء من المسؤولين والقبائل الذين كانوا ساخطين على حاكمهم الحفصي . ولكن دون جوان استطاع أن يستعيد مدينة تونس بعد ذلك لأن حلق الوادي كانت ما تزال في الأيدي الأسبانية . وبعد سنتين من معركة ليبانتو استطاع علج علي ، باعتباره أميرال البحرية العثمانية وبايلرباي شمال افريقية ،

ان يستولي من جديد على مدينة تونس وأن يستولي أيضا على حلق الوادي • ومنذ ذلك الحين بقيت تونس فى الأيدي العثمانية ، ولكن فتحها لم يحل مشاكل الباشا فى الجزائر ، وذلك لأن علج علي قد توفي ، وعين الباب العالي باشوات الجزائر وتونس وطرابلس ، كل على حدة ، وبذلك جرت هذه الايالات الثلاث ، فى السنوات التالية ، تطورات سياسية مختلفة وهي التطورات التي أدت فى أحيان كثيرة الى نزاعات مسلحة فيما بينهما •

ان الفتح العثماني للمشيخات والممالك البربرية والعربية فى وسط بلاد المغرب كان أمرا هاما فى تطور الايالة الجزائرية • فهذا حسن بن خير الدين هو الذي يبدو أنه كان مسؤولا على تقسيم هذه الفتوحات الى ثلاثة أقاليم ، وهي الاقاليم التي بقيت النموذج المتبع فى حكم دواخل البلاد من قبل ايالة القراصنة التركية • ففي المقاطعة الشرقية كان بايليك قسنطينة الذي يضم المدن ذات المراسي فى الشرق الجزائري بالاضافة الى القبيلتين الكبيرتين من بلاد زواوة ، وهما بنو عباس وكوكو • وكانت « الحدود » القائمة بين السلطتين الجزائرية والتونسية غامضة وكان تعديلها يقع من حين لآخر عن طريق عمل عسكري • وكان باي الشرق الذي استقر فى قسنطينة يدير شؤون اقليمية بمساعدة حامية من الانكشارية والقياد الذين كانوا يحكمون باسمه • وكان الباي وقياده مسؤولين على تقديم مدفوعات منتظمة الى السلطة المركزية فى الجزائر ، وهي المدفوعات المالية (الضريبة) التي يجمعونها من الاقليم • وكانوا فى الغالب قادرين على جمع أموال كبيرة تكفيهم لتأمين ثروة خاصة بهم كما تكفي لدفع مستحقات الباشا والديوان فى الجزائر • وكما هو الشأن فى كل حكومات المجتمعات فيما قبل عصر الصناعة فان الطريق الى الثروة والغنى كان يمر بتولي المناصب السياسية والعسكرية •

وكان ولاء السكان الخاضعين فى مختلف الاقاليم (البايليكات) غير مؤكد • وفعلا فان السيدين لانفريدوشي Lanfreducci وبوسي Bossi عندما اقترحا على الأسبان الاستيلاء على الجزائر ، قد أكد للملك أن أهل القبائل يكرهون الأتراك بدرجة كبيرة حتى أنهم سينضمون الى المهاجمين ، وأن الضمانات التي قدماها من أن هؤلاء البدو يمكنهم توفير ثلاثة آلاف

من الرجال المسلحين بالقربينات بالاضافة الى عدد كبير من الفرسان ، كان أيضا اقتراحا يدل على أن الاختلاف العسكري خلال مجرى القرن بين أولئك البدو والانكشارية قد انقلب لصالح الأخيرين . (*) وهذا التحول بدون شك كان صحيحا ، ذلك ان البايات في وقت متأخر كانوا مجبرين على اقامة مراكز قوية او تحصينات على طول الطرق الهامة ليستطيعوا الابقاء على نفوذهم ولكي يكون في امكانهم جمع الضرائب . ان القبائل كانت تثور في مناسبات كثيرة . ولكن هل كان كرههم للأتراك أكبر من كرههم للنصارى ؟ ان هذه مسألة أخرى . ومهما كان الأمر فان الملك الاسباني لم يحاول ان يشتري مساعدتهم (الأهالي) ببضع قطع من الملابس وغيرها من الأمور التافهة ، كما اقترح لانفريدوشي .

ولما كانت الحدود بين الايالتين الجزائرية والتونسية غير مضبوطة الخط الذي لا تحدده القوى العسكرية ، فكذلك كانت الحدود الغربية التي لم يثبتها سوى النزاعات بين الجزائريين والاسبان في وهران والسلطة المراكشية في فاس . وفي كلتا الحالتين واجهت الانكشارية الجزائرية جنودا مسلحين أيضا بالبنادق والمدافع . فقد كان للاسبان جنود أوروبيون بينما كان في جيش سلطان فاس موريسكيون أندلسيون لاجئون من اسبانيا . وهكذا كانت المشاكل العسكرية في الغرب تقتضي مواجهة التجهيز العسكري والاسلحة النارية لأعداء يقرأ لهم حساب كبير . ان القواعد الأساسية كانت تتمثل في مدينة مستغانم على البحر حيث يمكن للامدادات العسكرية أن تصل بسهولة ، ثم تلمسان التي هي موقع داخلي محصن عن كل من وهران وفاس . وان الحدود في الواقع كانت تتغير ، أماما وخلفا ، حسب قوة المسؤولين وحسب أنواع التحالف أو الولاء الذي يبديه سكان الأرياف والمدن . (**) وكان باي اقليم الغرب قد وضع محل اقامته في أول الأمر في مدينة مازونة بحيث يكون آمنا من الغارات

(*) – سبق للمؤلف ان لاحظ ان الانكشارية كانوا في الاول متفوقين لوجود الاسلحة النارية لديهم ، والمعنى يقتضي ان العكس هنا ، ولكنه استعمل عبارة « لصالح الأخيرين » The Latter الذين هم الانكشارية ، وهو عكس ما يقصده ، فنكتفي هنا بالتنبيه . (المترجم) .

(**) لاحظ ان المؤلف يستعمل كلمة « قبائل » Tribes لكل ما عدا الاتراك والحضر . (المترجم) .

الأسبانية ويكون أيضا فى استطاعته أن يأتي لمساعدة مستغانم أو سكان القلعة أو تلمسان ، وفى زمن لاحق ، عندما ضعفت القوة الأسبانية نقل البايات مقر حكمهم الى مدينة معسكر حيث يكون فى امكانهم تهديد وهران . وقد اتبع هؤلاء البايات ما اتبعه زملاؤهم بايات الاقليم الشرقي ، فقد عهدوا هم أيضا بعلاقتهم بالسكان الى قياد يكونون تحت مراقبتهم . وكان هؤلاء القياد يرأسون الجنود فى المدن التي لها حاميات ، كما كانوا يسهرون على أمن الطرق وعلى جمع الضرائب .

وكان أفقر اقليم فى الايالة وأكثرها صعوبة فى الحكم هو اقليم (بايليك) التيطري الواقع فى الجنوب ، على الحدود مع الصحراء . وكان سكان هذا الاقليم فى معظمهم من البدو كما كانوا كثيرا ما يرفضون دفع الضريبة . ولكي يسيطر الباي عليهم جعل عاصمته هي مدينة المدية كما أنشأ عدة حصون وجعل فيها حاميات عسكرية موزعة على ست أو سبع نقط من الاقليم . وكان تحت يده فرقة صغيرة نسبيا من الانكشارية (لا تتجاوز سبعمائة رجل) . بالاضافة الى كتيبة من الصبايحية ، وعدد غير محدد من فرسان الأهالي الذين كانوا ملتزمين بخدمة الايالة أو كانوا مأجورين للقيام بمشروع معين .

وهناك اقليم رابع من الايالة يحكمه الباشا وحكومته بطريقة مباشرة . لقد كان اسمه اقليم متيجة أو دار السلطان ، وهو يشتمل على المدن الساحلية الممتدة بين دلس شرقا وشرشال وتنس غربا ، ليضاف الى ذلك شريط داخلي ضيق يمتد خلف الساحل . وكان الباشا قد وضع حاميات انكشارية وعين قيادا فى المدن لكي يضمن ولاءها للنظام الحاكم . وما دام هذا الاقليم فى أغلبه يمكن الوصول اليه من البحر بسهولة فان السلطة التركية كانت نسبيا فى وضع آمن . ومع ذلك فان القبائل الواقعة خلف المدن كانت ، مثل تلك القبائل فى الأقاليم الأخرى ، تخضع لرؤساء من أنفسها وكانت غالبا لا تخضع لسيطرة حكومة الباشا . وخلال القرن التالي سيكون على حاكم الجزائر أن يعترف بأنه لا يستطيع أن يجبر شيخ قبيلة على تسليم الأسرى الذين وقعوا فى قبضته نتيجة تحطم سفينة .

ان سلطته كانت محدودة بعدد القوة العسكرية التي كان عليه ان يحضرها لردع زعيم قبيلة معاند .

ان طرق الحكم في هذا الهيكل المحير المؤلف من الباشا ، والدواوين ، والبايات والقياد ، والمدن ، والوحدات القبلية ، كانت طرقا في نهاية التعقيد حقا . ان القوانين المطبقة كانت في الأساس مستمدة من القرآن ، ولكن كان هناك مذهبان اسلاميان (المالكي والحنفي) ولكل منهما قضاة ومفتيون ، من جهة للنظر في قضايا الأتراك ، ومن جهة أخرى للنظر في قضايا بقية السكان المسلمين . وكان اليهود والنصارى يخضعون لنظر الباشا والديوان في القضايا التي تهم المسلمين . أما بخصوص المنازعات المدنية والمسائل التجارية والسلوك الجنائي الذي يهم اليهود والنصارى فان اليهود كانت لهم محاكمهم الخاصة بينما كانت للنصارى محاكم قناصلهم . ان الحكام المسلمين قد اعترفوا بأن شريعة القرآن لا تطبق على غير المسلمين .

ولكي يستطيع الباشا ـ بايلارباي أو خليفته ـ أن يطبق هذه السلطات المعقدة ، فانه كان الى جانبه عدد من المساعدين البالغين حوالي ستة ، وهم : أميرال تنتخبه طائفة الرياس ، وآغا من الانكشارية يصعد الى هذه الوظيفة عن طريق الأقدمية ، وآغا من الجنود الاحتياطيين ، يعينه الباشا نفسه . وكان لكل باشا مساعد (خليفة) يعاونه على عمله . وبالاضافة الى ذلك كان هناك أيضا كتبة وتراجمة ومبعوثون لحمل الأوامر ونقل السلطة ، وأمين مال (خزناجي) يسهر على الأموال . وكان على رأس كل اقليم (بايليك) باي يعينه الباشا ويساعده في الحكم قياد يتمتعون بوضع مدني وعسكري معا . وكان هؤلاء الرجال مسؤولين على نظام الحكم في الأقاليم . وكان لكل مدينة حكومتها التقليدية التي يرأسها في العادة شيخ البلاد أو رئيس البلدية ، وديوان للمدينة يتكون في العادة من أعيان الأغنياء من المواطنين والرسميين . وفي المدن الرئيسية كانت هناك حامية انكشارية لحراسة المدينة وضمان ولائها لنظام الحكم . وقد جرت العادة أن وجود عدد من الانكشارية من ثلاثين الى مائة رجل تحت امرة قايد يمكنه ضمان الطاعة . وكان « القانون » غالبا ما يتوقف عند جدران المدينة ، وذلك لأن أهل البادية الرحالة أو شبه الرحالة كانوا

يعيشون بأعرافهم الخاصة . لقد كانوا تحت سلطة شيخ أو أمير يستمد حق سلطته غالبا بطريق الوراثة . وهكذافاننا بالنسبة لنوع الحكم في حالة الوحدة الصغيرة نجده حكما أبويا . أما الجماعات الأكبر من ذلك – مثل العرش المتآلف من عدد من الدواوير – فانه يكون خاضعا لحكومة أمير أو سلطان أو «ملك» . لقد كان القرآن هو المصدر المكتوب للقانون، ولكن العرف الذي هو في الغالب أقدم من القرآن ، كان أيضا ينظم حياة الانسان .

فلا عجب حينئذ أن الباشا الخليفة أو حتى البايلارباي المجرب كان يجد صعوبة في فهم عقد هذا المجتمع . ولكن بنهاية القرن السادس عشر ، حين عزم السلطان على حكم السناجق الغربية عن طريق تعيين باشوات للجزائر وتونس وطرابلس لمدة ثلاث سنوات ، لم يكن منتظرا من هؤلاء الباشوات أن يحلوا مشاكل حكومته . وهكذا فان هؤلاء الباشوات قد وجدوا أنفسهم في مواجهة وضع لا يمكنهم فهمه ، وقد اقتنعوا بجمع ما يمكن جمعه من ثروة لدفع ثمن المنصب الذي اشتروه ، آملين في عودة مبكرة الى اسطانبول حيث تتوفر الحياة المتمدنة . (*)

(*) – واضح أن المؤلف يسير في نفس التيار الذي يصر على «غربة» الأتراك في الجزائر وبعدهم عن فهم نفسية المجتمع الجزائري ، ولذلك جعلوا همهم هو جمع المال في أسرع وقت ممكن . (المترجم) .

الفصل الخامس

حكومة الأيالة، تجربة القرن السابع عشر

ان المذكرة التي قدمت الى نابليون في السابع من سبتمبر 1802 قد أعلمت القنصل الأول بأن « شمال افريقية من حدود مصر الى مضيق جبل طارق محكوم بأناس غير عالمين بالقانون العام الأروبي ... » ان مثل هذه المعلومات لا يمكنها أن تفاجىء أي انسان أروبي كان على صلة بالدول الأروبية في القرون السابقة . فحكام شمال افريقية ، ولا سيما أولئك الذين كانوا على رأس الأيالة (*) الجزائرية ، قد جلبوا لأنفسهم منذ أمد طويل سمعة مشبوهة . ان القناصل الأروبيين الذين تعاملوا معهم كانوا دائما يشيرون اليهم بهذه الأوصاف : « هؤلاء الوحوش » و « هؤلاء الأوباش » و « هؤلاء البرابرة » و « هؤلاء الطغاة » وغيرها من التعابير التي لا تقل شناعة . وقد كتب ذات مرة أحد رجال السلطان عنهم : « انهم ليسوا بشرا — انهم أسوأ من الشياطين . انني لم أر في حياتي شبيها لهم ... » وهناك ملاحظون آخرون كتبوا عن حكومة الجزائر بأنها « جمهورية من قطاع الطرق » وأن مسؤوليها كانوا « أناسا غلاظا وبرابرة . » وقد أسر الداي للقنصل الانجليزي سنة 1732 بأن « الجزائريين (**) عبارة عن جماعة من المتشردين وأنا قبطانهم . »

ومن السهل أن نستمر في توسيع هذه الصورة بايراد النصوص من الرسائل والكتيبات والكتب التي كتبها المعاصرون الذين عاشوا أولئك

(*) — الأيالة ترجمة لكلمة Regency وقد سبق للمؤلف أن استعمل أيضا عبارة سنجق واقليم الخ ، وقد فضلنا استعمال اللفظ الاول . (المترجم) .

(**) — واضح أن الداي يقصد هنا «البحارة العثمانيين» وليس أهل الجزائر الأصلاء . (المترجم) .

الحكام • ولكن قبل أن نقبل بالفكرة القائلة بأن جميع حكام شمال افريقية كانوا قد تشكلوا بقالب واحد ، يجب علينا أن نتذكر بأن مخبرينا كانوا أناسا موتورين من تجاربهم مع حكومة كانت غالبا ما تبدو حكومة فوضوية ، أو أناسا كانوا أرقاء ، أو رحالة جاؤوا الى شمال افريقية بأفكارهم المسيحية المسبقة • والواقع أن القليل فقط من الكتاب المسيحيين كان لهم أي تعاطف مع ثقافة العالم الاسلامي ، ومن سوء الحظ أن الكتاب المسلمين الذين كان يمكنهم تصحيح انطباعنا لم يشعروا بفعل ذلك • وهكذا فاننا بقينا مع الانطباع المتميز ، وهو أن النظام السياسي في ايالات شمال افريقية غالبا ما جاء بأناس غلاظ الى مواقع السلطة • (1)

ولعل الواجب علينا أن نتوقع من حكام الايالة الجزائرية أن ينالوا هذه السمعة غير الطيبة فقد انحدروا من صفوف الانكشارية ، ومن رياس القراصنة ومساعديهم ، ومن الأعلاج الذين رموا بحظوظ مع جماعة القراصنة • فقد رأينا أن خير الدين حصل على حق تجنيد جنوده من أراضي السلطان ، وقد استمر ذلك الى نهاية القرن الثامن عشر حين كان حكام الجزائر يرسلون بوكلاء عنهم للتجنيد من الشرق وحيث يقومون بترغيب الشبان ليصبحوا سادة « سامين وأقوياء » كأعضاء في فرقة الانكشارية • فكان أولئك الوكلاء يجندون رعاة البقر واللصوص والمنبوذين من أهاليهم ، بالاضافة الى صبيان ريفيين خيرين وأبرياء ليس لهم مستقبل في بلادهم • ولم تكن ثقافة أهل الجزائر لتؤثر على هؤلاء الشبان • ومن ثمة فانه اذا كان الحظ ، أو الأقدمية ، أو الحظوة ، أو الشطارة السياسية أو مجرد انقلاب يجعل أحدهم يصعد الى وظيفة الآغا أو الداي _ الباشا ، أو حتى الوظائف الأقل شأنا في الدولة ،

---

1 - ان جهود فيشر Ficher في تصحيحه هذا الانطباع نتج عنه نوع من التعمية المتداخلة التي اصبحت مثارا للسخرية في وجه الادلة الكثيرة . فقد استبعد كل التعاليق الناقدة على أساس انها أحكام مسبقة ، بينما تمسك بأي نص فيه مدح وحاول ان يجعل منه قاعدة عامة . فكانت النتيجة ان كتابه جاء لا يقل صبابة من اكثر نقاد الجزائر مقتا (*) . (انظر كتاب فيشر : أسطورة بربارية _ اكسفورد ، 1957) .

(*) _ رغم ان المؤلف يؤاخذ فيشر على دفاعه عن العثمانيين في الجزائر فانه لم يسلم هو ايضا مما انتقد عليه زميله . (المترجم) .

فان ثقافتهم الشرقية كانت تأتي معهم . وكان الأعلاج (المرتدون عن المسيحية) في فرقة الانكشارية لا يختلفون كثيرا في المستوى الثقافي عن المجندين من الاناضول ، او سورية ، أو دلماشيا . ذلك ان الكثير من كانوا قد وقعوا أسرى في أيدي القراصنة ، وكانوا من شباب الفلاحين الإيطاليين أو الاسبان الذين انسلخوا بسهولة عن دينهم المسيحي واعتنقوا دين أسيادهم ، وهناك آخرون منهم كانوا لاجئين من بلدانهم لأسباب مختلفة ، ولكن القليل منهم فقط حملوا معهم بعض التعليم او التراث الذي يرفق من عادات الأرض التي تبنوها . ويبدو ان معظم الاعلاج كانوا يشاركون اخوانهم المسلمين في عدم محبة ، او حتى في كره ، المسيحية ، ولكن قليلا منهم كانوا قد احتفظوا ببعض الاتصال بعائلاتهم في ايطاليا أو غيرها على السواحل الشمالية للبحر الأبيض . وهناك حالة مثيرة في هذا الصدد ، وهي أن أحد الأعلاج التونسيين جعل عائلته تصبح ثرية عن طريق تنشيط العلاقات التجارية في ايطاليا بينها وبين السوق التونسية .

ان اليولداش الذي وصل الى الجزائر باعتباره مجندا جديدا في القرن السابع عشر قد يكون « السيد العالي المقام والقوي » الذي يمكنه أن يفرض الاحترام من البلدية (الحضر) والمسيحيين واليهود ، ولكن يمكن لنا أن نسميه « العزيز المدلل . » فقد كان قد أعطى ملابس لا تختلف في نوعها عن تلك التي أعطيت للرقيق ، بالاضافة الى بندقية وطقان ومسدسين ، ولكن كان متوقعا منه أن يدفع ثمن الأسلحة من أجرته ، أو يجب عليه ، اذا رغب في شراء غيرها من الأنواع الأكثر جودة ، أن يعيد تلك التي أعطيت اليه ، وكان اليولداش في مدينة الجزائر يعطي حصة يومية من الخبز المصنوع من القمح ودقيق نبات كالشعير Rye ، أما اذا خرج في خيام للقيام بغزوة لجمع الضرائب فانه كان يطعم الأرز والكسرة والمرق وطبق البلاف pilaw ، وأي طعام اضافي يرغب فيه كان عليه أن يدفع ثمنه من جيبه . واذا كان غير متزوج فانه يجد المبيت المجاني في احدى الثكنات ، أما اذا كان متزوجا فالمتوقع منه أن يرعى مصالح بيته الخاص . وماذا عن أجرة الوليداش ؟ انه من الصعب ترجمتها الى عبارات حديثة ما دامت الأشياء التي قد يرغب في شرائها أو دفع ثمنها كانت مختلفة

تماما عن البضائع المرغوب فيها لدى المستهلكين اليوم . ان اليولداش كان يبدأ بأربع عشرة موزونة كل شهرين قمريين . وكانت أجرته تزداد بالاقدمية حتى تصل عندما يكون آغا أو حتى داي الى أكثر من مائتي موزونة كل شهرين قمريين . ومن الصعب أن تقدر قيمة الموزونة بقيمة العملة الحديثة ، ولكن اذا أخذنا فى الاعتبار كل الوثائق والأدلة الممكنة فان ميزان الأجور كان منخفضا . فحتى بالمقاييس الجزائرية كان من الواضح أن اليولداش يجد أجرته غالبا غير كافية . ورغم أن الطعام كان رخيصا فى الجزائر ، فان شراء اليولداش لأغذية اضافية كان يكلفه ثمنا ، كما أن تسلياته فى المقهى والحانة والشارع وكانت تكلفه الكثير من دخله . ولذلك كان اليولداش يجد غالبا من الضرورة أن ينضم الى حملة بحرية للقرصنة كجندي من أجل الحصول على سهم فى الغنائم ، بل كان يضطر الى ادارة حانة أو العمل كصاحب حرفة لسد حاجاته .

وليس هناك طريقة مؤكدة لضبط عدد الرجال فى الفرقة الانكشارية الجزائرية قبل منتصف الثامن عشر . وان سجلات هذه الفرقة فى المكتبة الوطنية الجزائرية لا تقدم لنا سوى معلومات ضئيلة عن القرن السابع عشر ، ولكنها تقدم لنا معلومات دقيقة عن سنة 1745 . أما بالنسبة للعهود السابقة فليس لدينا سوى تخمينات مطلقة من قبل أناس عاشوا فى مدينة الجزائر ، وهم حين يتفقون يكون الرقم قريبا من الصحة فى الغالب . فجيش خير الدين الأول من المشرق لم يضم أكثر من ستة آلاف رجل ، ولكن بحلول نهاية القرن السادس عشر ارتفع ذا لك العدد الى حوالي اثنين وعشرين ألف رجل . ونحن لا نعلم نسبة الأعلاج ولا الأتراك الشرقيين ولا الكراغلة فى ذلك الحين ولكن المجندين الشرقيين فيه كانوا ، بدون شك ، هم الأغلبية . وبنهاية القرن السابع عشر وجدنا أرقاما تدل على أن تلك الفرقة قد انخفضت الى حوالي اثنى عشر ألفا ، ولكن هناك من المصادر ، التي قد تكون أكثر صحة ، ما يضع العدد بين أربعة عشر وثمانية عشر ألفا . وان اول رقم صحيح عندنا ، وهو مبني على قائمة دفع الأجور لسنة 1745 ، يعطينا عدد 9322 من أعضاء عاملين و 2575 أعضاء متقاعدين . ويتفق برادي Paradis مع هذا الرقم بالنسبة للربع الثالث من القرن (أي حوالي اثني عشر ألف رجل) . وفى أوائل القرن التاسع

عشر ، عندما لم يعد التجنيد من المشرق ممكنا انخفضت الأعداد بسرعة . وهذا الدكتور الدرهيل Underhill قد وضع الرقم في ثمانية آلاف . أما حين وصل الفرنسيون الى الجزائر سنة 1830 فقد كان الرقم حوالي 2500 فقط ممن كانوا صالحين لأي عمل . وكان الدايات بحلول ذلك الوقت ، قد أصبحوا معتمدين بطريقة متزايدة على مجندين للقوة « الاحتياطية » من صفوف البربر الأصليين .

وكانت فرقة الانكشارية ، منذ أوائل القرن السابع عشر ، على العموم مؤسسة ديموقراطية . فكل يولداش وصل الى الجزائر كمجند جديد كان يمكنه أن يطمح ليصبح آغا القمرين اذا عاش طويلا حتى يصل الى هذه الوظيفة ، وكان الجندي البسيط الذي يسمى عندهم (بيكلار) يترقى الى رتبة كوربورال (عريف) التي يعبرون عنها بـ (أودباشي) الذي يقود فرقة من ستة الى عشرة رجال . وكان الاودباشي ينتخب القباطنة (الكابيتانات) الذين يسمون عندهم (البولوشاردية) وكان بامكان هؤلاء قيادة الفرق أو القيام بغير ذلك من الواجبات . وكان الآغا باشي متخرجا من صف البولوشاردية . وكانت هذه الرتبة (الآغاباشي) مخصصة لعدد محدود لا يتجاوز الأربعة والعشرين رجلا ، ولكن ما دام آغا القمرين متخرجا من صف الآغاباشية ، فان مدة الخدمة المعينة للآغا قد قصرت حتى كان هناك على الأقل ستة تعيينات لها كل سنة . وكثير من الكتاب يصرون على أن الحركة داخل هذه الرتب ، من بيكلار الى الآغا كانت تقوم فقط على الأقدمية . ولكن هذا غير صحيح تماما ، لأننا نعلم أن هناك حالات وقع فيها تجاوز الآغا باشي من قبل أقرانه ، كما وجدنا حالة وقع فيها انتخاب الآغا . وان الأسباب التي قدمت لذلك التصرف قد لا تبدو حقيقية لأنها أحيانا تبدو مزيفة . غير أن القول بأن المجند الانكشاري كان يحمل رتبة الآغا في طيات ثيابه عندما يصل الى الجزائر هو قول يكاد يكون صحيحا . وكان المشكل الذي يواجهه هو أن يعيش طويلا حتى يصل الى سن التقاعد اذ يسمى عندئذ (معزول آغا) ، ومن ثمة يصبح صبائحيا ، أو جنديا متقاعدا ، أو ربما يكون حتى مستشارا للسلطة التي تحكم الايالة .

ان مدد الخدمة لليولداش كانت معقدة . وليس لدينا في الحديث عنها سوى ما يصور شكلها فقط . ففي أوائل القرن الثامن عشر (وهو العهد الذي تملك فيه أفضل الأدلة) كان اليولداش يقوم بالخدمة خلال سنة واحدة اما في المعسكر واما في الخيام (المحلة ـ الامحال) التي كانت تجمع الضرائب ، ثم يعطي سنة تفرغ (حرة) اذا استطاع ان يؤجر احد زملائه لحل محله . وكانت الخدمة العادية شاقة جدا . ففي مدينة الجزائر كان الجنود العزاب يعيشون في الثكنات . ولم يكونوا يمارسون أي نوع خاص من التدرب أو التمرين ، فهم كانوا مستعدين فقط لخدمة الآغا او الداي . اما في معسكرات الأقاليم (البايليكات) فان الانكشارية الذين يتراوح عددهم بين المائة والثلاثمائة كانوا يوزعون على مدن مختلفة بينما عدد صغير منهم يوزعون على الحصون الموجودة عبر الطرق الرئيسية . وكان المنتظر من هؤلاء الجنود الانضمام الى حملات جمع الضرائب . واذا كانت الظروف عادية فان حياة « الأخبية » تعد حياة ممتعة في جملتها . فليس لليولداش أن يهتم بشيء سوى أسلحته البندقية والسيف (اليقطان) والمدسان ، ذلك أن رعاية خبائه موكولة للرقيق وأهالي البلاد فهم الذين يعتنون بصيانة الخباء والحقائب والتموين . واذا رفض العرب أو البربر دفع الضرائب فانه كان على الجندي أن يحارب ، ولكن حتى عندئذ فانه ما دام الانكشارية يحملون معهم في العادة مدافع صغيرة قابلة للحمل فان ذلك كان يعطيهم فرصة عظيمة للتغلب على أعدائهم . وكثيرا ما دعيت فرقة الانكشارية للحرب على الحدود ضد تونس أو فاس أو وهران (اسبانيا) ، أو لردع ثورة خطيرة قامت بها احدى القبائل . وكان استدعاؤهم الى تلك المهمات متوقفا على رغبة الداي في الغنيمة أو الضريبة أو في اقليم جديد . وكانت الانكشارية في قيامها بمثل هذه المغامرات مرفوقة بفرقة احتياطية من الفرسان الأهالي . وقد انتهت بعض هذه المغامرات نهاية سيئة بالنسبة للانكشارية . فهؤلاء أهل كوكو قد حصلوا فيما بعد على الأسلحة النارية وتعلموا الحرب في المعارك المفتوحة بالاضافة الى وضع الكمائن للفرق المنتشرة . وقد أصبح شائعا أن الجنود الانكشارية كانوا يلجأون الى تنحية الداي عن عرشه على اثر هذه الهزائم . وهكذا تعلم الدايات في

القرن الثامن عشر أن يكونوا في العادة حذرين من الزج بأنفسهم في نزاع مع هؤلاء الرعايا الخطرين .

ان فرقة الانكشارية كانت منظمة من المشاة ، ولكنها لم تكن منضبطة على النموذج السائد في الجيوش الأروبية النامية في القرن السابع عشر . ذلك أن هؤلاء المشاة كانوا يحاربون على الجملة بدون أي طريقة جد منظمة ، فالجنود اليولداش كانوا يصطفون بطريقة تكاد تكون عشوائية ويطلقون النار من بنادقهم كما يشاؤون . وكانوا بمساعدة المدافع الصغيرة القليلة التي لديهم ، يتفوقون غالبا على جموع الفرسان الأهلية . ونحن نعرف أنه خلال القرن الثامن عشر كان هناك بين عشرة وخمسة عشر في المائة من هذه الفرقة يستعملون الخيل كصبايحية بقيادة آغا خاصا بهم ، وكان هؤلاء أيضا عموما غير منضبطين . فبينما كان القراصنة في البحر قد تعلموا خوض المعارك البحرية على الطريقة التي كانت تتطور في أروبا ، نجد المشاة لم يطبقوا النظم العسكرية التي تنسبها نحن الى لوتيلييه Le tellier ، ولوفوا Louvois ، ومارتنيه Martinet وأخيرا فريديريك الكبير .

ورغم عدم الانضباط الذي تعلمنا أن نتوقعه من المشاة ، فان فرقة الانكشارية كانت وبقيت أهم قوة عسكرية في الايالة الى العقد الثاني من القرن التاسع عشر . كما أنها لعبت دورا خطيرا في التطور السياسي للجماعة الحاكمة . وقد عرفنا من دراستنا لفترة البيلاربايات أن فرقة الانكشارية حاولت عدة مرات فرض ارادتها على الايالة ، مرة حين أصرت على ترقية واحد من ضباطها المحبوبين الى منصب الباشا ، ومرة أخرى حين طلبت أن البايلارباي (رغم أنه كان ابن خير الدين العظيم) يجب عليه أن لا يسلح الأهالي كقوة عسكرية منافسة لهم . وان هذه المحاولات الأولى للسيطرة على الحكومة قد فشلت لأن السلطان كان قويا ولأن رياس البحر رفضوا تأييد الانكشارية . ولكن خلال القرن السابع عشر ، عندما ملأ منصب الباشا رجال أقل فعالية وتدهورت سلطة سلطان حتى في السناجق الشرقية من الدولة ، فان فرقة الانكشارية الجزائرية كانت قادرة على بسط سيطرتها بشكل واسع جدا . وكانت أداة هذه السيطرة

هو الديوان او المجلس العمومي • وكان يجلس في الديوان كبار مسؤولي الانكشارية والباشا والمفتي والقاضي والكواهي (جمع كاهية = أي الكاتب) الأربعة ، بالاضافة الى الأعوان السابقين • وكان رئيسه في فاتح القرن السابع عشر هو الباشا وآغا القصرين • وسنرى ان تدهور سمعة الباشا خلال النصف الثاني من القرن قد أعطى الفرصة الى الديوان في السيطرة على الحكم ، وقد استطاع أخيرا أن يجرد الباشا من كل وظائفه ما عدا الدور الرسمي الشكلي •

وكانت القواعد التي تسير عليها اجتماعات الديوان بسيطة جدا • فليس هناك عضو يسمح له بحمل السلاح مهما كان نوعه ، وكان هناك حراس مسلحون لابقاء النظام • ولا يسمح ايضا لأي عضو أن يستعمل قبضة يده في أي غرض هجومي وكان العقاب على ذلك بالموت ، ولكن كان مسموحا له أن يعبر عن شعوره باستعمال اقدامه اما بالخبط او بالركل • وقد كاد احد الفرنسيين يقتل عندما ركله أحدهم في الديوان • وكانت المناقشات كلها تجري باللغة التركية ، وكان المترجمون ينقلون ذلك الى البربرية أو العربية والى اللغات الأروبية عند الضرورة • وكانت الكلمة تعطى للمتكلمين حسب الأقدمية او المكانة رغم أن الممارسة الغالبة تبدو في أن المتكلم يقود الى ضجة من الصراخ من قبل المجلس • وكانت هذه الجلسات تبدو فوضوية للغاية نتيجة هذا الاجراء • وكان الأجانب الذين حضروا الجلسات غالبا ما اقتنعوا بأنهم كانوا يتعاملون مع أناس متوحشين وعنيفين وعاطفيين • وتدل الشواهد على أن الزعماء كانوا يستعملون ذلك الاجراء لاظهار أهمية برامجهم واسكات أي نوع من الاعتراض • وكان هذا الاجراء يبدو للرجل الانكليزي اجراء غير معقول • فهذا مثلا فرانسيس نايت F. Knight الذي قضى عدة سنوات بالجزائر في الربع الثالث من القرن السابع عشر كمملوك : كان قادرا فيما يظهر على شاهدة اجتماعات الديوان • وان النص الذي أورده عن الاجراءات التي يسير بمقتضاها جدير بالذكر هنا :

« كانوا يقفون في صفوف • وكانت الكلمة تمر عن طريق شاوش ، وكانوا يتقاذفون بالأذرع أو المناكب ، ويتصايحون كما في حالة الغضب

او كالقدرة التي تغلي كلما زادها لهيب النار ... وكان لهم طريقة حكيمة في تفادي وقوع ما لا يحمد عقباه . فهم ممنوعون منعا باتا ، وتحت طائلة اقصى العقوبات ، من شرب الخمر او أي مشروب قوي قبل حضور الجلسة ... وكذلك كانوا ممنوعين من حمل خنجر الى هناك ... ان هذه الحكومة لا يوجد لها مثيل في مكان آخر من العالم ... (أنظر فرانسيس نايت ، ص 403) . »

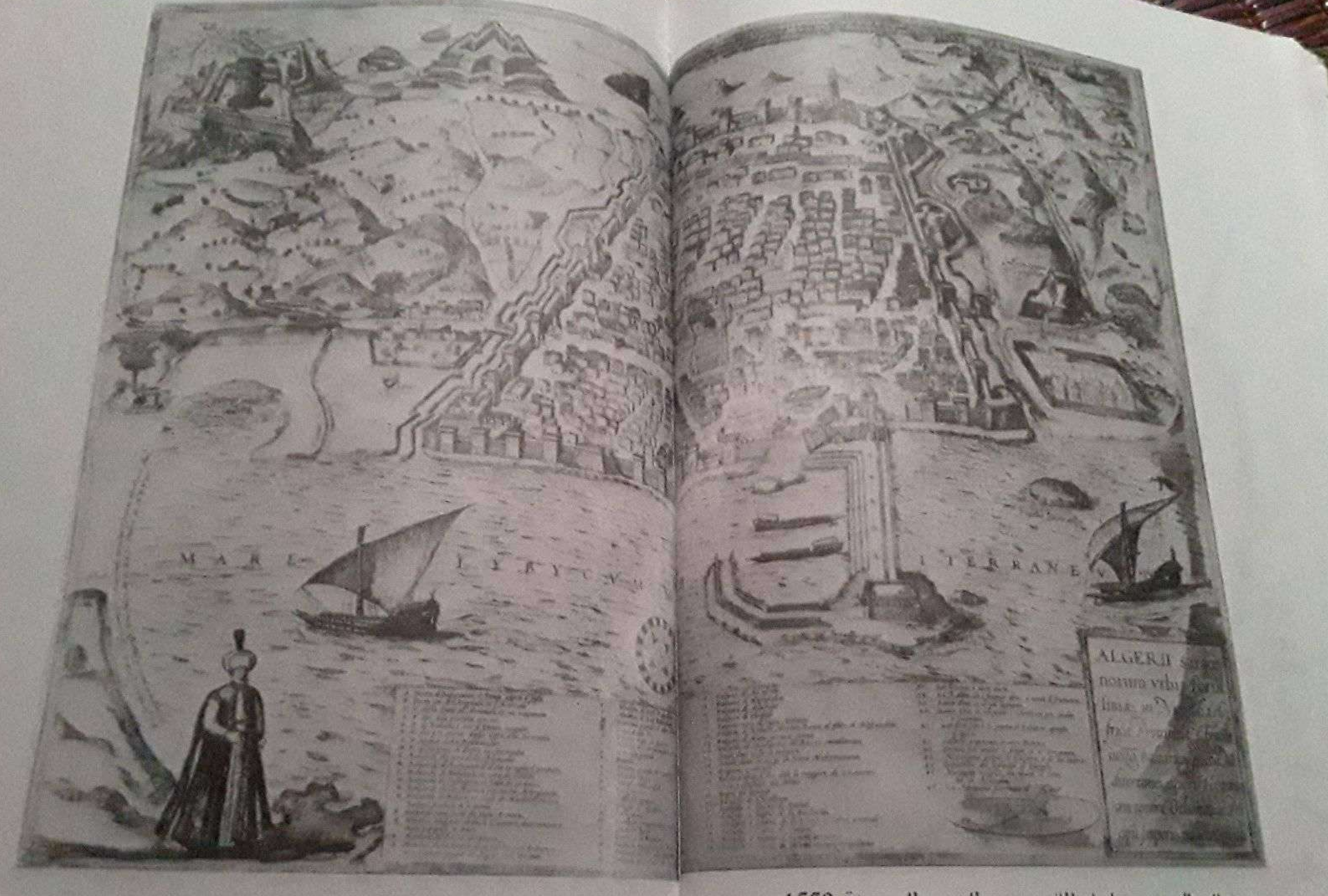
غير انا لا نعلم الا قليلا ، خارج كتابات الأرقاء والرحالة والقناصل الذين ليس لهم سوى منفذ محدود لاجتماعات الديوان ، عن اعمال هذا المجلس الداخلية . وهناك ما يؤيد بشدة الراي الذي يقول بأن اغنياء رياس البحر وملاك سفن القرصنة كان لهم تأثير كبير على اتخاذ القرارات، ولا سيما تلك التي تتعلق بالحرب والسلم . كما انا نعرف أن داخل الفرق نفسها كان هناك جماعات (كليك) بزعامة رجال أقوياء ، وكان هؤلاء هم المسؤولين في الغالب على اغتيال أحد الأغوات أو أحد الوزراء ولعلهم كانوا يلعبون دورا بارزا في توجيه قرارات المجلس .

وكانت المتطلبات الحقيقية للجنود والتي يفرضونها على حكامهم . متطلبات بسيطة نسبيا . ان مطلبهم الأول والأكثر اهمية بدون شك هو ان يدفعوا لهم أجورهم فورا كل شهرين . فاذا لم تدفع لهم اجورهم يصبحون خطرين . وكان ذلك هو ما حدث للباشوات الذين أرسلوا من اسطانبول لمدة ثلاث سنوات . فهؤلاء الرجال كانوا في الغالب مهتمين فقط بجني الأرباح من بقائهم في الجزائر لكي يواجهوا بها مستقبل حياتهم في الشرق الأكثر حضارة . ولم يكن يعنيهم دفع أجور الجنود ، ونتيجة لذلك تسرب الجنود تدريجيا الى السلطة ، باستعمال الديوان كأداة الى النفوذ ، وهي السلطة التي كان البايلاربايات قد خصوا بها خلفاءهم الباشوات . وهكذا استولى الجنود ، من باشوات الثلاث سنوات ، على مراقبة الخزينة العامة وأعطوا ذلك الى الأغوات تحت اشراف الديوان . وسنرى أن هذا التطور لم ينجح ايضا . فالباشوات أصبحوا عبارة عن مسؤولين « شرفيين » ، ولكن الأغوات هم الذين



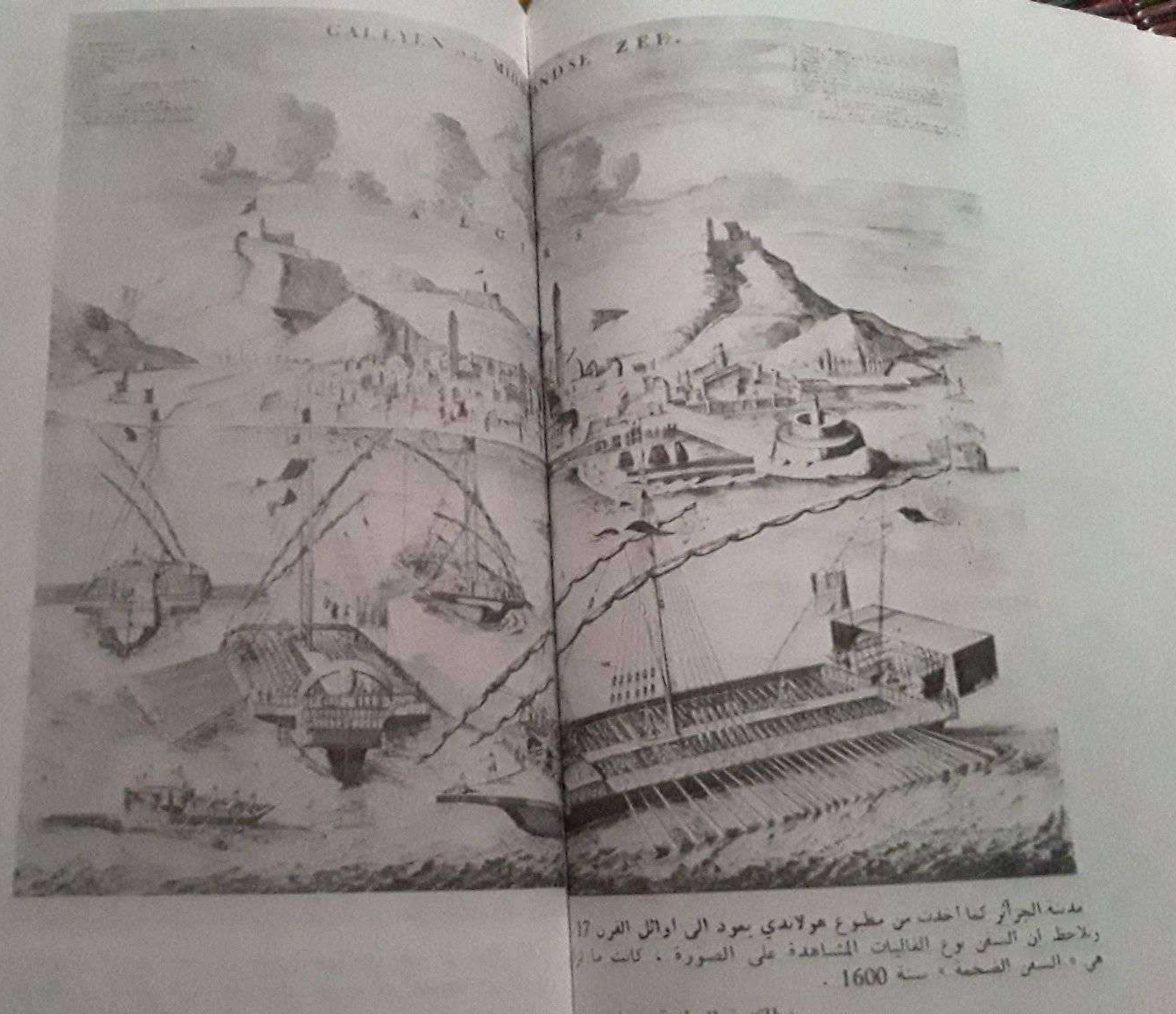
مدينة الجزائر والخليج الممتد من البرج البحري الى الريس حميدو

(مكتبة بيل - جامعة منيسوتا)



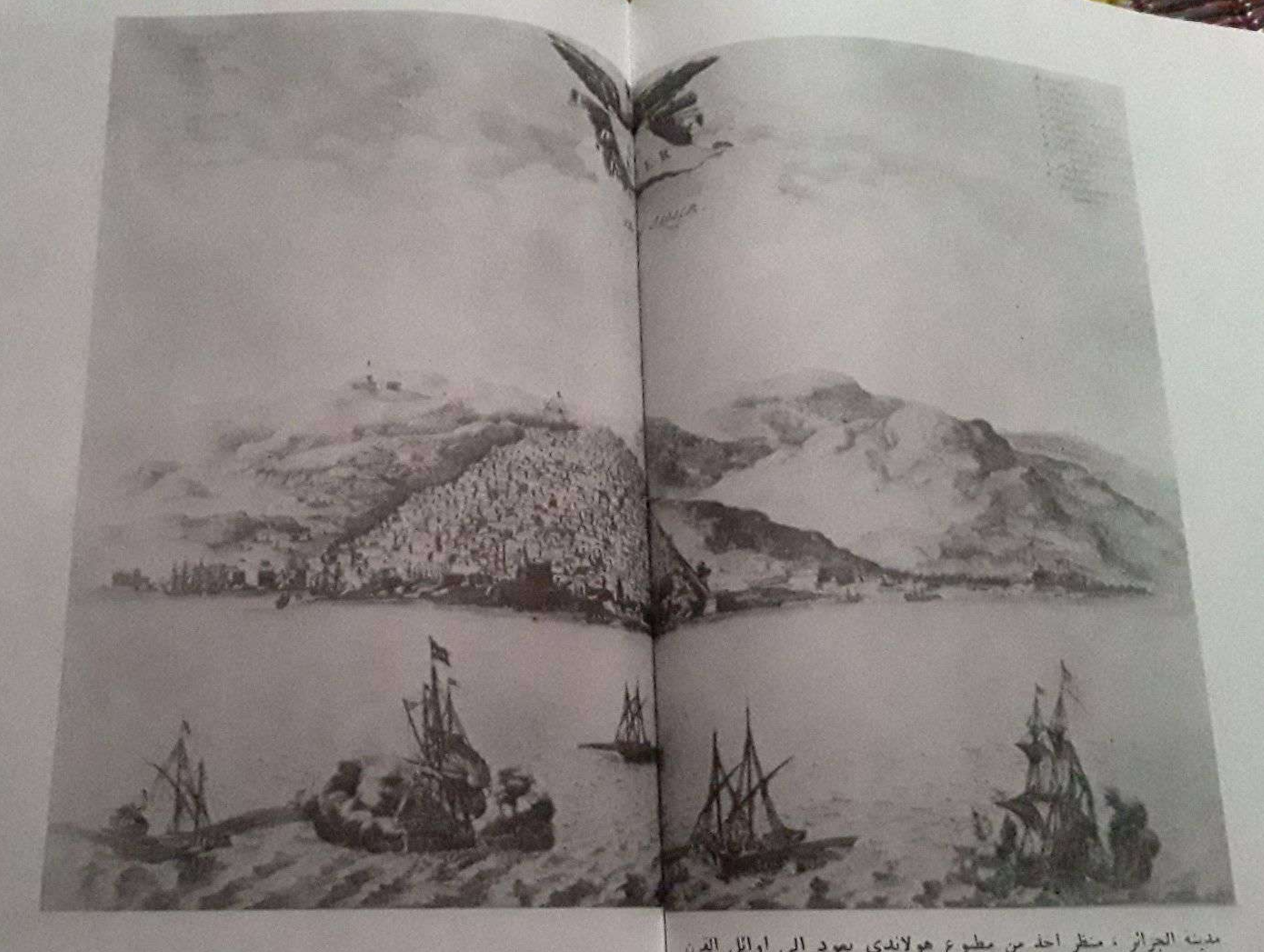
مدينة الجزائر من مخطوط الماني يرجع الى حوالي سنة 1550

(مجموعة فيوليت ـ باريس)



مدينة الجزائر كما أخذت من مطبوع هولاندي يعود الى اوائل القرن 17
ويلاحظ ان السفن نوع الغاليات المشاهدة على الصورة ، كانت ما ز
هي « السفن الضخمة » سنة 1600 .

(المكتبة الوطنية ـ باريس



مدينة الجزائر ، منظر اخذ من مطبوع هولاندي يعود الى اوائل القرن 18 . ويلاحظ ان السفن ذات الصواري الطويلة قد اصبحت هي السفن الحربية المهيمنة في هذا العهد .
(مكتبة بيل – جامعة منيسوتا)



اندريا دوريا



بيدرو نافارو

مكتبة نيو بيري – صور شيكاغو

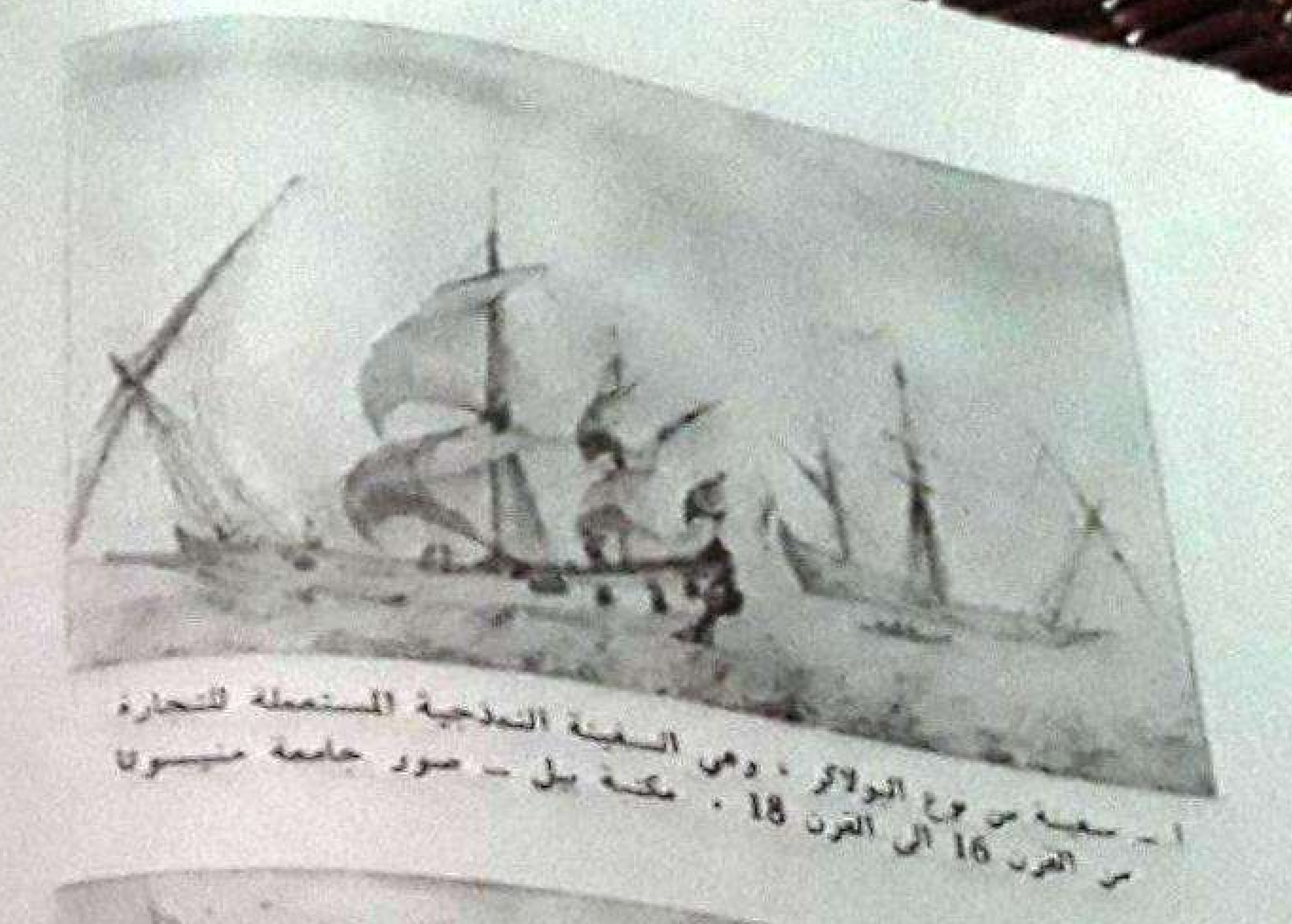


الداي حسين ميزو مورتو

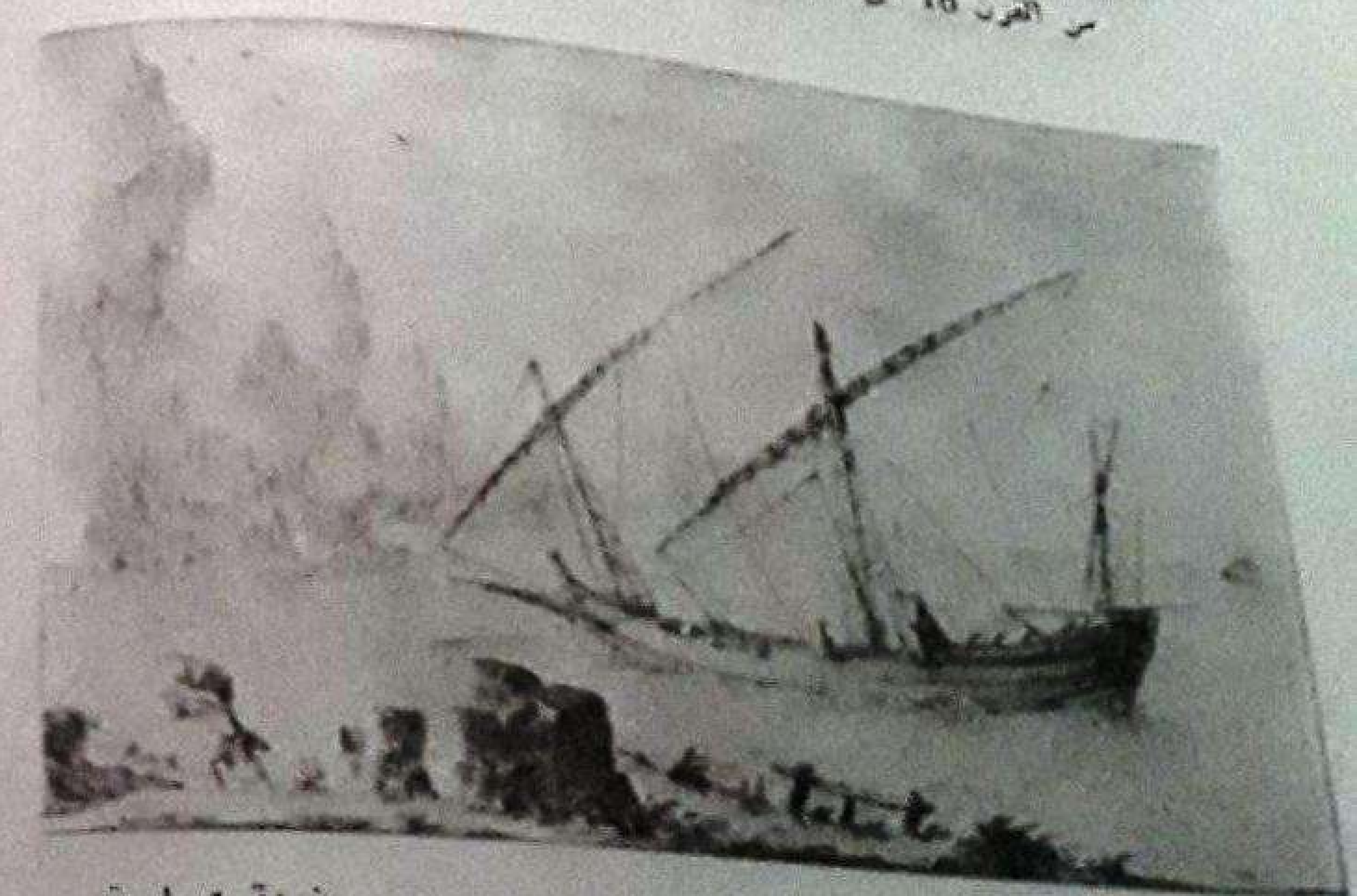


خير الدين بربروس

مجموعة فيوليت – باريس



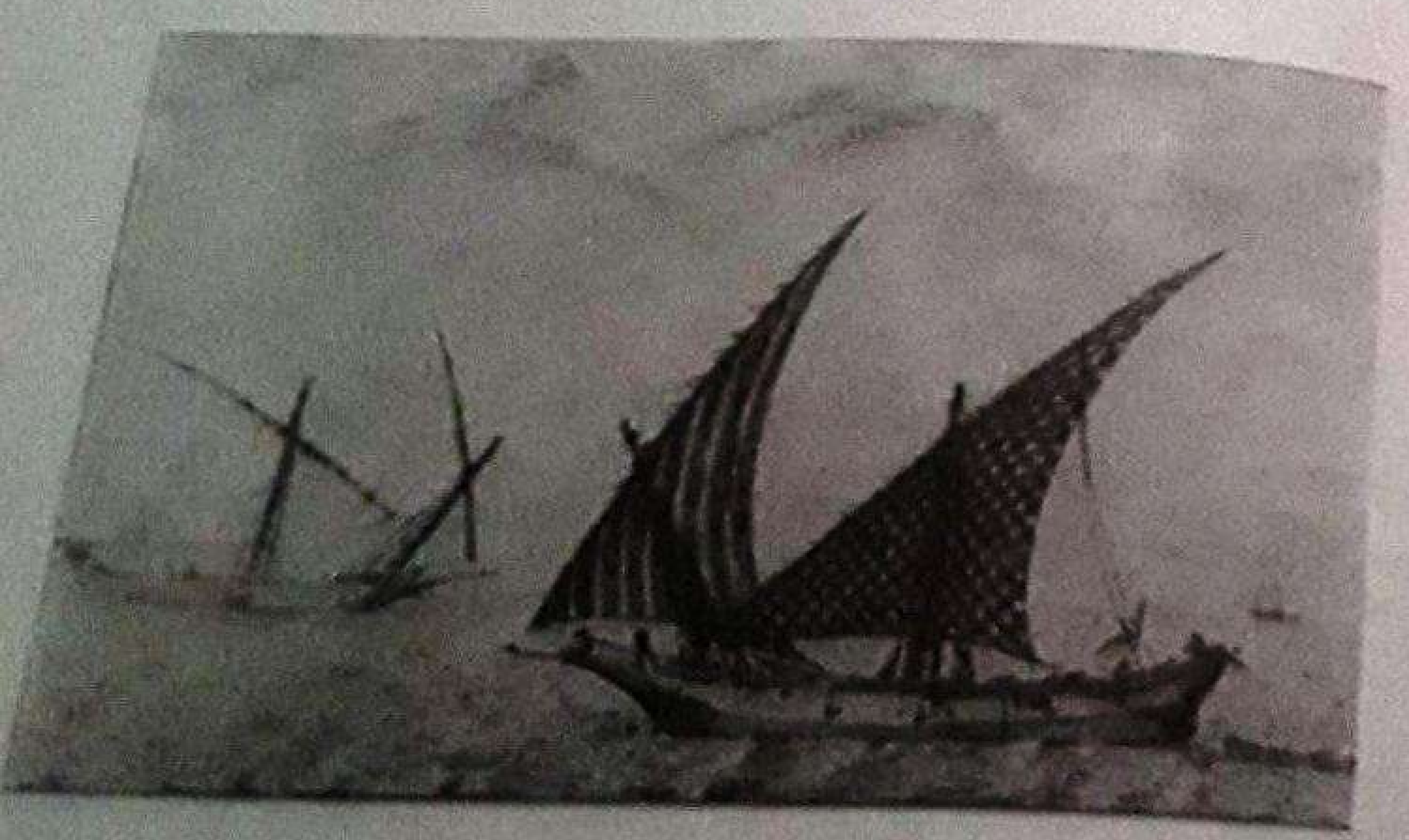
أ ـ سفينة من نوع الولاكر ، وهي السفينة الهلاجية المستعملة للتجارة من القرن 16 الى القرن 18 . مكتبة بيل ـ صور جامعة منيسوتا



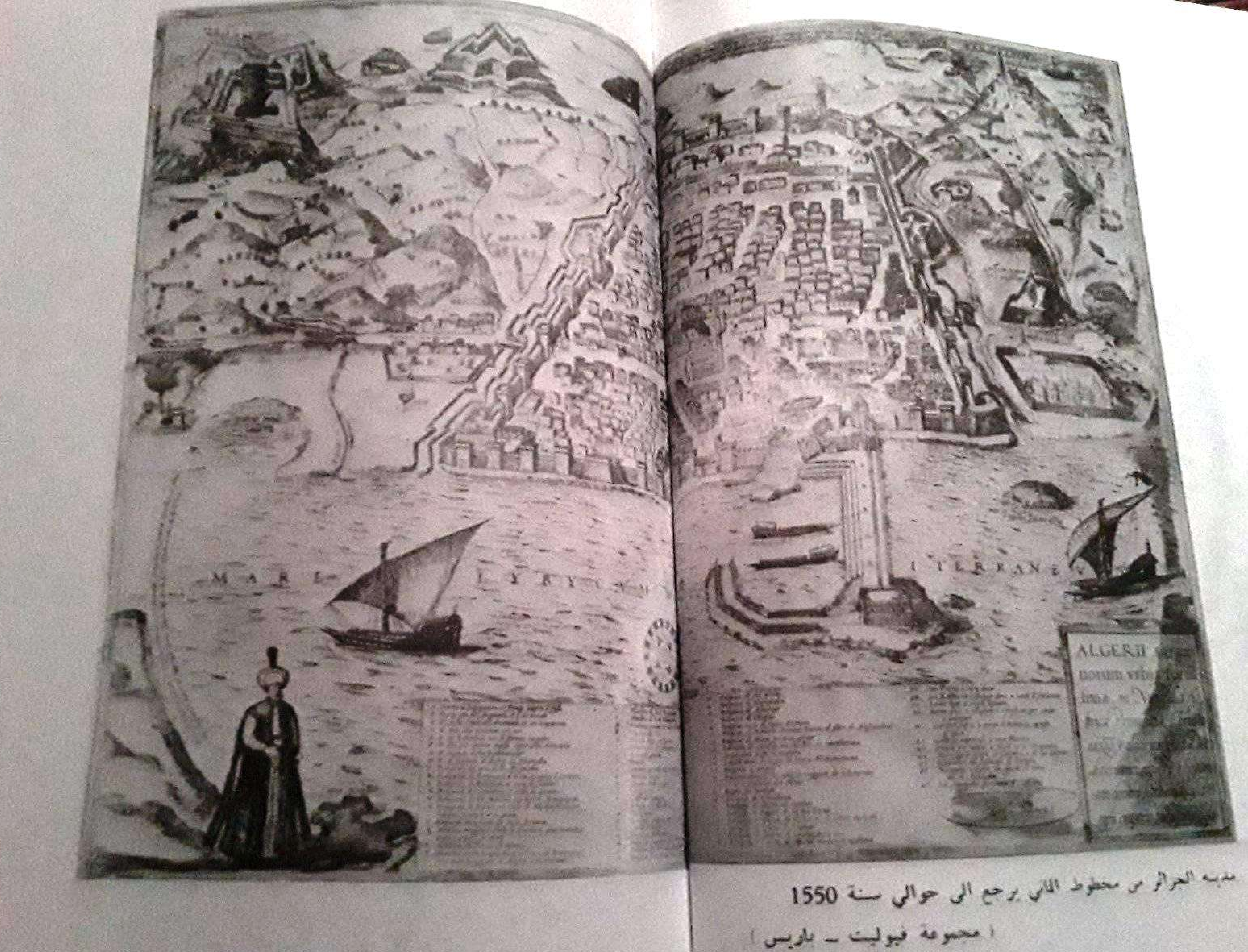
ب ـ سفينة من نوع البينك Pinque وهي سفينة تجارية تعمل في البحر وكانت تستعمل من وقت لآخر في الأنشطة القرصانية ، سواء من قبل المسيحيين او المسلمين .
مكتبة بيل ـ صور جامعة منيسوتا



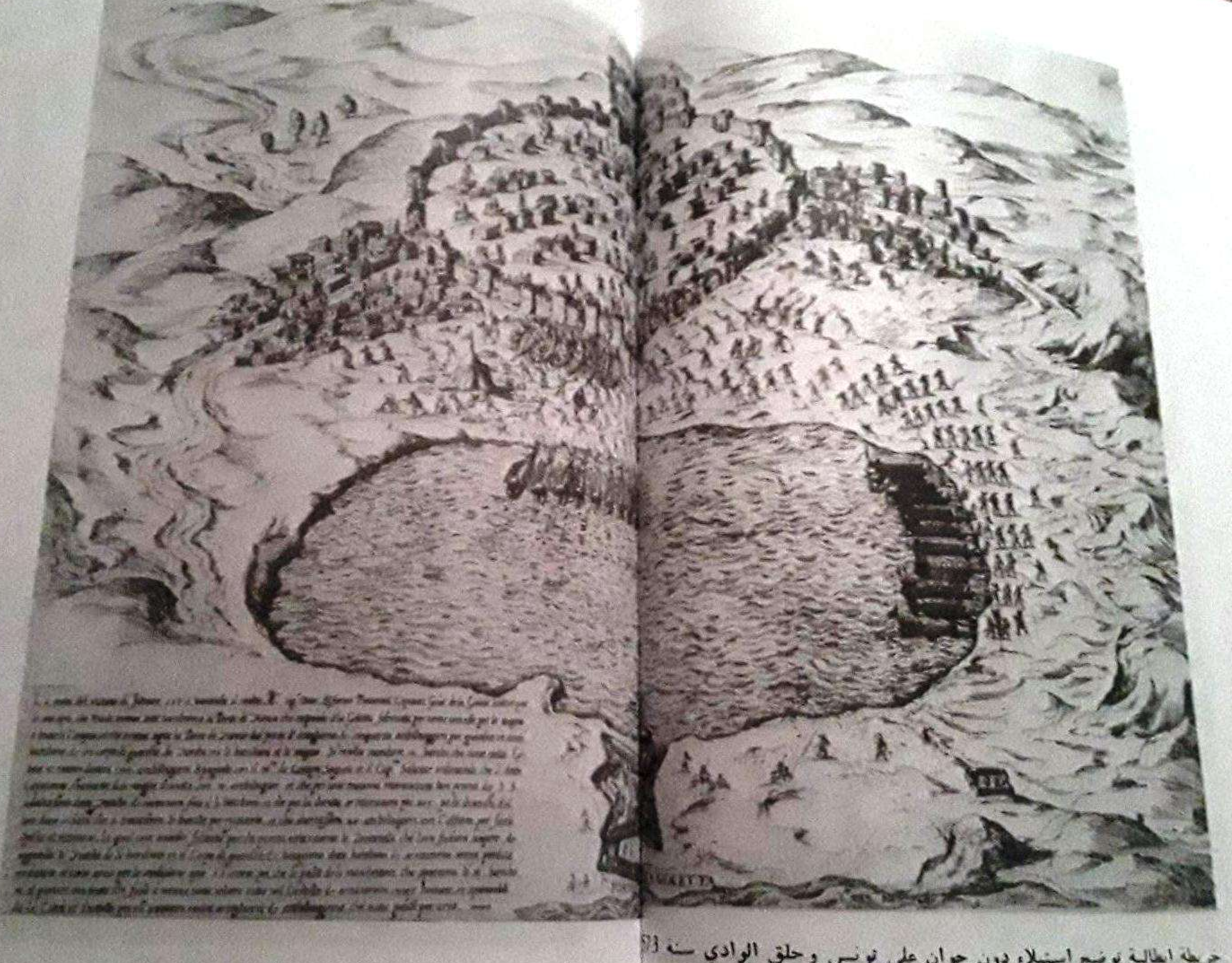
أ ـ سفن حربية من الدرجة الاولى ، اوائل القرن 18 .
(مكتبة بيل ـ صور جامعة منيسوتا)



ب ـ سفينة من نوع تارتان (مطاردة) ، كانت مستعملة بكثرة كسفينة تجارية من قبل كل العملاء التجاريين في البحر الابيض .
(مكتبة بيل ـ صور جامعة منيسوتا)

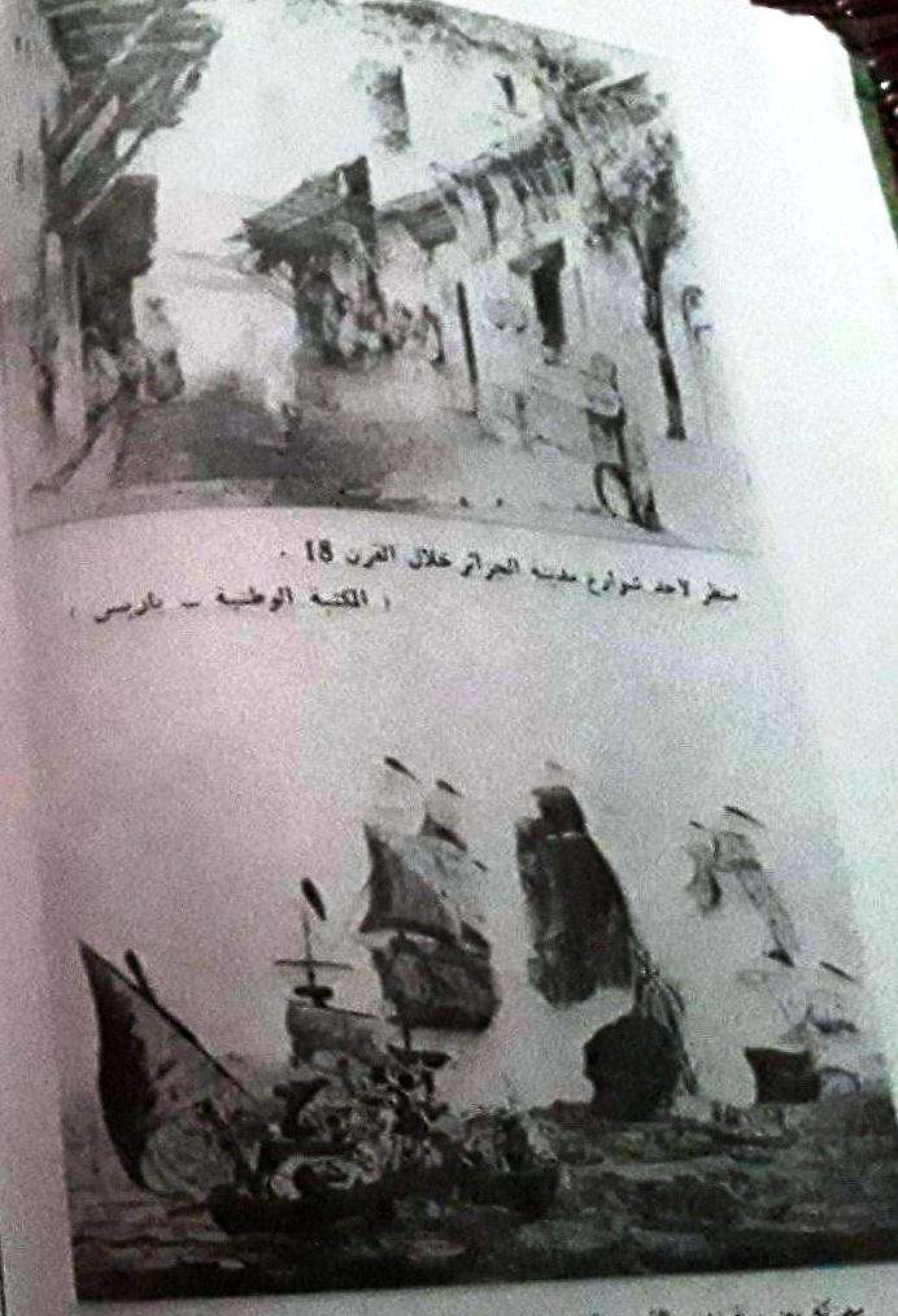


مدينه الجزائر من مخطوط الماني يرجع الى حوالي سنة 1550
(مجموعة فيوليت – باريس)



خريطة ايطالية توضح استيلاء دون جوان على تونس وحلق الوادي سنة 573

(مكتبة نيوبيري – شيكاغو)



منظر لأحد شوارع مدينة الجزائر خلال القرن 18 .
(المكتبة الوطنية ـ باريس)

معركة بين سفينتين للقرصنة وسفينة تجارية انكليزية .
(مجموعة فيرليت ـ باريس)

اصبحوا هدفا للجماعات (كليك) في الفرقة ، وحل الاغتيال محـل الطريقة النظامية .

والى جانب طلبهم وجوب دفع الأجور ، فان الانكشارية كانوا يطلبون شيئين آخرين ويفرضونهما أيضا على حكامهم . أولهما أن فرقتهم يجب أن تكون القوة العسكرية الوحيدة ذات الأهمية والمسلحة في الإيالة . ويمكن وجود فرق أخرى احتياطية ولكن يجب أن تكون رواتبها أقـل ودرجتها ثانوية . ولم يحدث أي تغيير في هذا المبدأ الا في السنوات الأخيرة من عمر الإيالة في القرن التاسع عشر عندما استطاع أحد حكام الجزائر أن يحرر نفسه من استبداد الجنود وذلك بانشاء قوة عسكرية خارج اطار الفرقة الانكشارية .

اما المطلب الثاني للانكشارية فهو أن الجنود المجندين يجب أن يكونوا من غير سكان الإيالة . وقد رحبوا بالجنود من الجزء الشرقي من الدولة العثمانية كما رحبوا بالمرتدين عن المسيحية (أو الأعلاج) ، أما غيرهم فقد استبعدوهم . ان هذا المطلب جعل جيش الاحتلال غير متصل بالشعب الذي يحتله . ولكننا رأينا أن هناك مشكلا حول هذا الموضوع . فقد تزوج بعض الانكشارية من نساء أهليات وأنجبوا منهن أطفالا . وهؤلاء هم الكراغلة ، أي أبناء الانكشارية . ومن الطبيعي أن يطمح هؤلاء الى مهنة آبائهم . ولكن غير المتزوجين من الانكشارية نظروا الى هؤلاء الأبناء على أنهم خطر عليهم . فاذا وقع أي نزاع مع السكان الأصليين فان أولئك الأبناء قد ينضمون الى جانب شعب أمهاتهم بدل الانضمام الى الفرقة الانكشارية . وهكذا عمل الجنود الانكشاريون فى البداية الى الحد من عدد الكراغلة المسموح لهم بالتسجيل فى فرقتهم ، ثم استصدروا قوانين تمنع صعودهم الى مراكز القوة أو المسؤولية فى الفرقة . وأخيرا قاد الاهتمام بمشكل الكراغلة والجهود المتعاقبة الرامية الى مراقبتهم ، قاد الى الثورة التى حدثت فى أوائل الثلاثينات من القرن السابع عشر (1630) . ورغم أن زعماء الكراغلة كانوا يتوقعون المساعدة من بلاد زواوة أو من الحضر الجزائريين ، فان هذه المساعدة لم تتحقق . وقد استمرت المعركة في شوارع الجزائر

حتى انفجرت القلعة الكبيرة التي احتمى بها الكراغلة . ان هذا الحادث الذي وقع في غرفة البارود قد أدى الى مقتل عـدة الاف من الناس وتخريب قسم من المدينة وانهاء آمال الكـراغلة في الحصـول على المساواة . ولم يسمح لهم بالتسجيل في الانكشارية الا بعـد الوباء الكبير سنة 1648ـــ1650 الذي أهلك الفرقة كثيرا لدرجة أن الحاجة الى القوة البشرية كانت ملحة ، وحتى عندئذ لم يسمح للكراغلة بالصعود الى السلطة كمسؤولين . غير أننا وجدنا بعض الكراغلة خلال القرن الثامن عشر قد نجحوا في الوصول الى مسؤوليات هامة ، فكان منهم البايات والقضاة . أما رتبة الآغا فلم يصلوها أبدا . (2)

اما النظام الآخر الموروث أيضا عن القرن السادس عشر فهـو نظام طائفة الرياس . لقد كان للرياس كلمة في شؤون الايالة وكانت مصالحهم مرعية طالما كان البايلارباي وخلفاؤه من رجال البحر او ملاكين لسفـن القرصنة أو قباطنة بحريين من حيث المهنة . ولكن عندما أصبح السلطان يعين الباشوات كل ثلاث سنوات كان هؤلاء في العادة من رجال البلاط أكثر مما كانوا من رجال البحر . ومن ثمة فانه كان على الرياس ، مثل جنود الانكشارية ، أن يهتموا وحدهم بمصالحهم الخاصة . وان تطور هذه الطائفة (الرياس) متداخل في ضباب الزمن . فهذه الطائفة لم تترك مذكرات عن خدماتها ولا رسائل من أعضائها لشرح تاريخهـا . ولذلك فنحن لا نملك سوى انطباعات الأجانب عن الموضوع وشواهد على البصمات الواضحة التي خلفتها على مجرى الحوادث .

ان طاقم السفن الذي أحضره عروج واخوته من جزيرتهم الأصلية كان واضحا أنه طاقم يتألف من الشرقيين الذين من المحتمل فيهم أنهم كانوا أيضا من أهل الجزر . وقد استمروا في قيادة أسطول القرصنة الى أن وقع أسر الايطاليين وغيرهم الذي نتج عنه ظهور الأعلاج الذين برهنوا ،

---

2 ـ توجد عدة كتابات عن ثورة الكراغلة ، منها مقالة غرامون (العلاقات بين فرنسا وايالة الجزائر في القرن 17) في المجلة الافريقية عدد 23 ، ص 414 وما بعدها ، وهي تقدم خلاصة جيدة ، ومجلة غازيت فرنسا سنة 1633 ، وكذلك (تاريخ) الاب دان ، وكتاب (علاقات) لفرنسيس نايت . فهذه المصادر تقدم شواهد معاشة .

مثل علج علي ، على أنهم ، على الأقل ، ليسوا أقل فاعلية من التركيين . وفي نهاية القرن انضم اليهم « كلاب البحر » الأوروبيون الذين كانوا فيما يبدو اعلاجا قراصنة أكثر منهم رجال ورع ودين ، وهم الذين علموا الرياس الجزائريين كيف يبحرون (*) بالسفن الطويلة المجهزة بالبراكر (جمع بركار) وبالبواصل . ويبدو أن عروج لم خير الدين قد استعملا قباطنة السفن كنوع من الديوان للقراصنة . وفي منتصف القرن السادس عشر أصبح ذلك الديوان هو طائفة الرياس ، وهي عبارة عن جماعة تعاونية تشبه نظام الجماعة في اوربا خلال العصور الوسطى أكثر مما تشبه « اتحاد الموظفين » (بالكسر) في العصر الحديث . فقد كانت طائفة الرياس هي التي تنتخب أميرال أسطول القرصنة الذي كان في الغالب أغنى أعضاء الجماعة والذي كانت سفنه التي يملكها شخصيا تشكل مساهمة كبيرة في أسطول القراصنة . وأثناء القرن السابع عشر كان الكثير من سفن القراصنة يملكها ويجهزها الأفراد ، وهم بناة السفن الذين يسلمونها الى قباطنة أكفاء لقيادتها في الغزوات البحرية . وكانت بعض هذه السفن حتى في ملكية جماعات من «المشتركين» أو «حملة الأسهم» الذين كانوا في الواقع أصحاب مشاريع رأسمالية . ومما يلاحظ أن الرايس الذي يقود السفينة يوظف عبيده هو أو «يؤجر» عبيدا يملكهم آخرون ، كما كان يجند بحارته الخاصين به . وعندما يصبح الرايس مستعدا للاقلاع يرفع رايته كعلامة «للمتطوعين» الذين ينضمون الى بحارته بدون اتفاق على أجرة محددة ما عدا وعدا بأنهم سيحصلون على سهم من الغنيمة . وكان الرايس المحبوب يجد بسهولة كل الرجال الذين يحتاجهم . وهكذا فان الرياس الذين يمارسون مهنة البحارة هم ، وليس ملاك السفن الرأسماليين ، الذين ينتمون الى طائفة الرياس .

ويصر غرامون ، وهو أبرز مؤرخي القرن التاسع عشر الذين كتبوا عن الجزائر ، على أن طائفة الرياس كانت في تنافس مع الديوان الذي كان تحت سيطرة الانكشارية . ولا شك أن هناك عهودا كانت فيها طائفة الرياس والانكشارية في سوء تفاهم مع بعضهما . ومع ذلك فان

(*) - هذه دعوى لم يقدم لها المؤلف دليلا ، وقد تكرر منه ذلك بالنسبة الى اشياء أخرى زعم أن الاوروبيين «علموها» للجزائريين . (المترجم)

قراءة متأنية للشواهد تؤكد أيضا أن الرياس كانوا في أغلب الأحيان قادرين على التأثير على جنود الانكشارية كلما كانت مصالحهم معنية بالأمر • وحتى الثورة التي جاءت بالمنصب الجديد المسمى بمنصب الداي خطط له بحيث وافقت الانكشارية على البرنامج الذي اقترحه قباطنة البحر •

كان الرياس شخصيا مهتمين بقضايا الحرب والسلم • كانوا يريدون الحرب التي يجنون منها غنائم وفيرة • وكانوا يريدون السلم عندما تظهر سفن الدول البحرية الكبرى في البحر الأبيض لتضرب وتغرق سفنهم في المرسى وتحاربهم في عرض البحر • (*) وبحلول القرن الثامن عشر عندما كانت السفن عموما مملوكة من قبل أعضاء حكومة الايالة ، كان الرياس مستعدين لمنح السلم للدول الصغيرة اذا كانت الاتاوة التي تنجم عنها (عن السلم) تقارب قيمة الغنائم التي كانت ممكنة لو أن الرأي كان مع الحرب •

وحتى بدون ذلك النوع من الشواهد التي يحب المؤرخ أن تكون لديه ، فنحن نستطيع أن نفهم بسهولة أن قباطنة القراصنة الأغنياء — الرياس — الذين كانوا يملكون العبيد والسفن وفنادق المدن والفيلات والمزارع خارج المدينة ، بالاضافة الى الذهب والفضة والجواهر والأشياء الثمينة الأخرى ، كانوا أصحاب تأثير على المدينة التي كانت معتمدة على شجاعتهم في كثير من موادها الاقتصادية الأولى • ويضاف الى ذلك أن كثيرا من أولئك الرياس كانوا فيما يبدو أفضل تعليما وأكثر انسانية من يولداش الانكشارية • وهناك قصص كثيرة تؤكد هذا • فحتى في بدايات القرن التاسع عشر عندما كانت السيدة اليزابيت بروتون Broughton في مدينة الجزائر ، كان الرياس أكثر مقبولية من الجنود لأن تجربتهم الواسعة تعطيهم أفقا أوسع • ففي كل مجتمع تقريبا

(*) — لاحظ أن المؤلف يبدي ميوله نحو الرياس أكثر من الانكشارية ، لماذا ؟ لأن الأولين مزيج من الاوروبيين والشرقيين بينما الآخرين (الانكشارية) كلهم شرقيون • وهذا ينسحب على رأيه فيهم عبر الكتاب كله • (المترجم) •

يمكن للرجال ذوي الثروة والمعرفة الأرقى من معارف رعاياهم ، ان يؤثروا في مجرى الحوادث السياسية .

وكانت العلاقات بين ايالات شمال افريقية والباب العالي في اسطنبول مشكلة مستمرة من القرن السادس عشر الى الثامن عشر . فقد وضع خير الدين جماعة القرصنة التي أنشأها تحت حماية السلطان الأعظم . وقد عرفنا أن جميع خلفائه المباشرين في ذلك المنصب العالي كانوا جميعا من الرياس القراصنة ، الذين يملكون أسطولا من السفن من نوع الغاليات والغليوطات ضاربين في البحر طولا وعرضا بحثا عن الغنائم والعبيد ، وفي بعض الأحيان كانوا ينضمون الى اسطول السلطان الأعظم ليدخلوا في معركة مع الدولة الأسبانية . ولا يتسرب الشك حول سيطرة السلطان في تلك الأثناء . فأي رايس او ضابط من الانكشارية يعصى التعليمات تقطع رأسه بأمر السلطان . وهذا خير الدين وحسن ابن خير الدين وصالح رايس وعلج علي جميعهم وصلوا الى قيادة الأسطول التركي كله حاملين لقب الباشا القبطان بالاضافة الى لقب البايلارباي . ان هؤلاء الرجال كانوا قوة في الدولة العثمانية وفي اقليم شمال افريقية . ولكن عندما توفي علج علي سنة 1587 قرر السلطان ، الذي كان خائفا من أن مسؤولا قويا بعيدا جدا من اسطانبول قد يصبح مستقلا عنه ، قرر الغاء منصب البايلارباي ، وبدلا منه أنشأ ثلاث ايالات هي الجزائر وتونس وطرابلس ، على رأس كل منها باشا . وقد تمتع هؤلاء الباشوات ، باعتبارهم ممثلين لسلطة السلطان ، بكثير من الامتيازات : سهم من الغنائم ، والعبيد الذين يقعون في أسر القراصنة ، وحق تقبل « الهدايا » في مقابل الخدمات ، ومراقبة المدخولات المالية التي تجمع من الرعايا المحكومين من قبل البايات الثلاثة وباشا الجزائر . وبذلك يتضح أن هذا المنصب كان ثمرة ناضجة يسيل لها لعاب أصحاب البلاط والسياسيين الطموحين أو الشرهين من حاشية السلطان .

ان قصر مدة التعيين (ثلاث سنوات) جعلت من المستحيل تقريبا على الباشا الجديد أن يفهم تعقيدات الحياة السياسية المعقدة في مدينة الجزائر ونظام حكم البايات في أقاليمهم وعلاقتهم بالشيوخ و «الملوك»

التابعين لهم ، قبل أن يحين الوقت لقدوم الباشا الجديد الذي يحل محله . وكان هؤلاء الباشوات المعينين كل ثلاث سنوات ليسوا في العادة من البحارة أو الجنود بل كانوا من المحظيين السياسيين الذين حصلوا على مناصبهم بأثمان غالية . فقد كانت الرشوة هي سلوك الحياة في اسطانبول بعد أن انتهى عهد السلاطين الكبار خلال القرن السادس عشر وحل محلهم سلاطين ضعاف غالبا ما كانوا تحت سيطرة السلطانة الأم والحريم . ولذلك كان الباشا الجديد حريصا على ملء جيبه بالذهب والعودة الى اسطانبول . وكان هذا السلوك المتميز بالشراهة قد أثار حسد وغضب الانكشارية والرياس معا . واذا كان ممكنا لهؤلاء (الرياس) ، أن يكون لديهم نوع من « اتحاد العمال » المتمثل في طائفتهم التي كان دورها هو تنسيق حركاتهم والتأثير على سلوك الديوان ، فان الديوان كان حقا هو أداة النفوذ بالنسبة للانكشارية التي هي في الواقع جيش احتلال الايالة . وهكذا أصبح الديوان هو نقطة الارتكاز للحركة التي جردت الباشوات في النهاية من كل سلطاتهم تاركة لهم مجرد منصب شكلي .

ولقد كانت الطريقة التي جرت بها هذه العملية بطيئة ، ولكن بحلول الثلاثينات من القرن السابع عشر حدث حادث وصفه الأب دان ، القسيس الفرنسي الذي ذهب الى الجزائر لتحرير (فدية) الأرقاء ومكث حتى التاريخ المذكور . وهذا الحادث يوضح تقلص سلطات باشا الجزائر وسلطان اسطانبول معا . فقد أسر قراصنة الجزائر سفينة للبندقية وباعوا طاقمها وبضائعها . وبعد أن احتجت البندقية لدى اسطانبول أرسل السلطان مبعوثا الى الجزائر يأمر باعادة الطاقم والبضائع . فقرأ باشا الجزائر أمر السلطان على الديوان وأصر على أنه لا خيار سوى طاعة الأمر . ولكن المتكلم بعد الباشا صرخ قائلا بأن السلطان لم يعرف كل الحقيقة ، ثم أخذ الديوان كله يردد : « ان أمر (السلطان) غير عادل » ، و « السلطان ، كانوا أخبروه خطأ » . وبذلك لم يتحقق شيء من طلب السلطان . ولو حدث ذلك قبل نصف قرن فقط لأطاح الباشا برأس الرايس المذنب والجندي المعاند وأعاد سفينة حكومة البندقية .

وقد صدق الأب دان في ملاحظته عندما قال « رغم أن (السلطان) كان يعرف طبيعة هؤلاء البرابرة ... فقد كان يكتفي فقط بارسال باشا ليمثله شخصيا » . لقد كان الباشا في الجزائر خائفا من الجنود أكثر مما كان خائفا من سلطانه البعيد .

وتدهورت سلطة الباشا في السنوات الموالية بسرعة كبيرة . فكانت الأوامر القادمة من اسطانبول لا تطاع الا اذا وافق عليها الديوان . وقد لاحظ الأب دان في وسط عقد الثلاثينات من القرن السابع عشر ، « ان الدولة كانت ملكية بالاسم فقط لأنهم في الحقيقة حولوها الى جمهورية . » كما أن فرانسيس نايت وكذلك القنصل الانكليزي والقنصل الفرنسي الذين عاشوا في الجزائر في النصف الأول من القرن (السابع عشر) كلهم رددوا ذلك الرأي . وقد أسرعت طريقة التدهور بالهزيمة التي حلت بالأسطول الجزائري عندما فاجأه البندقيون في فالونـا Valona في آخر العقد الثالث . فقد قرر الرياس أن لا يذهبوا ثانية لنجدة السلطان دون معونة مقدما . وهكذا فانه عندما أمر الباب العالي من جديد الأسطول الجزائري بالانضمام الى الأسطول العثماني ، رفضت طائفة الرياس الاجابة . فكان رد فعل اسطانبول الأول هو أمر الباشا بقطع رأس الأميرال علي بتشنين . ولكن هذا كان أغنى رجل في الجزائر وكان أميرال الأسطول ، وبذلك بقي رأسه سليما ! وقد كان أمر السلطان غلطة فادحة كان يمكنها أن تؤدي الى نهاية العلاقات بين الجزائر والدولة العثمانية ، لأنه يبدو أن بتشنين كان قد تآمر للاستيلاء على السلطة وجعل الجزائر مستقلة ، ولكن الموت المفاجيء لهذا الأميرال القرصان فقط (وقد يكون مات مسموما) هو الذي وضع حدا للمؤامرة .

وجاء الوقت الذي احتاج فيه السلطان الى الجزائريين ، وقد أرسل المعونة مقدما ، ولكن هذه المعونة تحولت الى زيادة في الخلاف . فقد أعلن ابراهيم باشا انه اذا انضم القراصنة الى المؤسسة البحرية للسلطان ، فمن الطبيعي الا يكونوا قادرين على الاستيلاء على الغنائم في غرب البحر الأبيض ، ومن ثمة فانه هو شخصيا سيكون محروما من سهمه

في الخاتم . ولذلك اقترح أن نسبة عشرة في المائة من المعونة السلطانية تعطى له هو شخصيا ، وكان ذلك سنة 1659 . وقد أدى هذا الى حدوث ثورة قضت على سلطة الباشا في الجزائر . اذ ظهر رجل برتبة بولكباشي ، يدعى خليل ، ودعا الديوان الى التمرد « لاعادة العمل بالنظم القديمة » والمفروض أن هذه « النظم القديمة » كانت عبارة عن دستور يضع كل صلاحيات السلطة في أيدي آغا الانكشارية والديوان . وهذا طبعا كان مجرد أسطورة ، ولكن الديوان الجزائري أصر ، ومثله في ذلك مثل الثوريين في انكلترا وفرنسا وبرشلونة ونابولي وغيرها خلال منتصف القرن السابع عشر ، أصر على أنه لا يرغب في أكثر من العودة الى التقاليد القديمة . ذلك أنه لا أحد في ذلك العهد يعترف بأنه كان « ثوريا » حقا ، ومع ذلك فان النتيجة كانت ثورية . وقد كتب دارندا D'Aranda بعد عدة سنوات من ذلك الحادث يقول : « ان الباشا كان ... يعترف بنوع من الخضوع الشكلي للسلطان الأعظم ، ولكنه لا يعير أوامره أي اهتمام ... لقد كان الجنود يخيفونه أكثر من السلطان الأعظم . » ان الجنود أصبحوا هم فعلا حكام الجزائر تاركين للباشا الوظيفة الرسمية فقط وكان يتقاضى مرتبا منتظما ولكنه كان بدون سلطة .

وهذا الوضع الجديد قد اعترفت به اسطانبول نفسها ، ذلك أن السلطان توقف عن تعيين باشوات جدد كل ثلاث سنوات . وهكذا لم يعد المنصب غنيمة طائلة لأن الباشا المتولي فعلا كان يتقاضى راتبا قارا ، وكان له نصيبه الثابت من الخبز واللحم . ولم يعد في استطاعته ادعاء نسبة مائوية من غنائم النقود لنفسه ومن ثمة لم يعد منصب الباشا منصبا لحاشية السلطان من صيادي الكراسي المربحة .

وقد استمرت الرسائل الصادرة من الجزائر الى الحكام الأجانب ، خلال بقية القرن (السابع عشر) تحمل توقيع الباشا والآغا ، ثم (بعد 1672) توقيع داي الجزائر . ولكن دور الباشا كان دورا سلبيا كلية في جميع القرارات المتعلقة بالسياسة . وهناك مرة واحدة حاول خلالها أحد الباشوات أن يعيد الى المنصب سمعته القديمة . فعندما وقع اعدام

علي آغا وأصدقائه ، سنة 1671 ، ولم يظهر أحد ليتولى مكانه ، فاغتنم الباشا الفرصة وحث الانكشارية على الالتفاف حوله باعتباره الحاكم التقليدي للإيالة . وسنرى أن الرياس كانت لهم أفكارهم الخاصة واستطاعوا بسرعة أن يؤثروا على الجنود (الانكشارية) لينادوا على واحد منهم (الرياس) ويقبلوا السلطة بشروطه هو الخاصة . وقد أصبح هذا الجندي دايا مدى الحياة بينما قبل الباشا هذه الهزيمة بدون النطق ببنت شفة .

ولكن منصب الباشا لم يلغ برغم أن القائم به أصبح بدون سلطة . فهذا السير هيز Hays يكتب من الجزائر سنة 1681 الى السيد كولبير Colbert قائلا له : « ان الباشا لم يعد يتدخل في أية مسألة ، وكان فقط يوقع على أية وثيقة تقدم اليه » . ومن جهة أخرى يقدم لنا السيد دولاكروا (الابن) de la Croix السبب الحقيقي الذي جعل الجزائريين يرضون بالاحتفاظ بالباشا ويدفعون اليه راتبا . فهو يقول : « لقد كان تجنيد الجنود من الشرق ضروريا ... وكانوا (أي الجزائريين) مجبرين على الرجوع الى السلطان العثماني الذي لا يمنحهم ذلك الحق الا اذا اعترفوا به وبالباشا ... ولكنهم كانوا يقيدون راتب الباشا ولا يعطونه أي صوت في شؤون الدولة . » (3) وقد خطرت فكرة الجمع بين المنصبين : منصب الباشا ومنصب الداي ، لبابا حسن ، خلال الثمانينات من القرن السابع عشر ، وهو المشروع الذي أصبح مطبقا رسميا في آخر القرن الثامن عشر عندما قبل السلطان بالأمر الواقع ووحد المنصبين بدل اللجوء الى المواجهة . ولقد استمرت العلاقة التي يعكسها منصب الباشا بالنسبة للباب العالي باسطانبول والحكام الفعليين للجزائر ، استمرت هذه العلاقة هامة طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر . ذلك أن فرقة الانكشارية قد استمرت في جلب رجالها من الشرق ، كما كان مسؤولو التجنيد الجزائريين قادرين على جلب الرجال من سورية وأناضوليا والبلقان كل سنتين أو أربع سنوات ، وكل ذلك كان يتم بالموافقة الكاملة من حكومة السلطان .

---

(3) A.E.E. Algiers XII, fols. 275-76.

وكانت الثورة التي قام بها ابراهيم باشا عندما حاول اخذ عشرة بالمائة من معونة السلطان ، كانت في الواقع من وحي الرياس وكذلك كبار فرقة الانكشارية . فالتمرد قاده المسمى خليل في مجلس الديوان ، وكان خليل هذا ضابطا انكشاريا ، ولكن الباشا كان في الحقيقة يحاول أن يفرض على الرياس اعطاءه جزءا من المعونة . غير أنه ما دامت ثورة 1559 قد نتج عنها الاستيلاء على السلطة من قبل الأغوات بالتعاون مع الديوان ، فمن الواضح أن الانكشارية في الديوان قد أعدوا الثورة عن طريق الادعاء التدريجي للسلطة خلال العقود السابقة ، واستعملوا تصرف ابراهيم (باشا) وسيلة لتدعيم موقعهم . ذلك أن خليل قد أعدم على اثر الثورة مباشرة ، ولكن مع ذلك فانه خلال الاثني عشر سنة التالية كانت ايالة الجزائر يحكمها ، أو يسيء حكمها ، الآغا والديوان ، وكان ابراهيم قد نجا بحياته عندما تراجع وقبل بدور شكلي فقط ، كما أن خلفاءه لم يكونوا أحسن منه . ولكن الانكشارية لم يكونوا في الواقع مستعدين للحكم ، وكان زعماؤهم غير مؤهلين سياسيا ، وكان مبدأ « العودة الى العرف القديم » لم يأت بنظام حكم مرن يسمح بممارسة السلطة بطريقة منظمة . وكان الآغا الجديد على السلطة يجد نفسه مقيدا بنظمة الانكشارية « الديمقراطية » وبالفوضى السائدة في الديوان . فقد كان مهددا بالاغتيال منذ أول وهلة ، وذلك لأن « الكليك » الذي تطور من حوله لم يكن له طريق نظامي آخر للتعبير عن المعارضة . وهكذا شهدت السنوات الواقعة بين 1559 و 1571 أعمال الاغتيال الواحد تلو الآخر ، ولم يمت أي آغا من الأغوات الذين تولوا الحكم موتا طبيعيا . لقد كانت حكومة الايالة تقترب من حكم الفوضى المطلقة .

ولكي نكون منصفين فى الحكم على الجهود التي بذلها الأغوات لاقامة حكم منظم يجب علينا أن نلاحظ بأن هناك قوات خارجية كان لها تأثير على جماعة القرصنة ، وهي القوات التي ساهمت أيضا فى نشر الفوضى . لقد ظهر نظام الأغوات الجديد فى نفس الوقت الذي انتهت فيه الحرب الطويلة بين عائلتي الهابسبورغ والبوربون نتيجة توقيع سلام البيريني Pyrenees سنة 1659 ، وبذلك تحللت القوات البحرية الفرنسية والأسبانية للدفاع عن الشواطيء والقيام بواجبات المراقبة فى البحر الأبيض . وبعد

ذلك بقليل استدعي شارل الثاني سنة 1661 الى عرش أنكلترا ثم ان زواجه الذي تلا ذلك من أميرة برتغالية قد أعطاه مرسى طنجة كمهر لها. وقد أعطى هذا الوضع للبحرية الانكليزية مرسى للاستعمال بالقرب من مضيق جبل طارق . ومن جهة أخرى فانه بعد وفاة الكاردينال مازاران Mazarin سنة 1661 ، تولى لويس الرابع عشر السيطرة على دولته وسرعان ما أصبح كولبير Colbert شخصية قوية فى الحكومة الفرنسية.

وسنرى فى فصل لاحق أن هذه الحوادث قد غيرت بسرعة من توازن القوات البحرية فى كل من البحر الأبيض والمحيط الأطلسي ، وكان ذلك لغير صالح الرياس الجزائريين . ذلك أن القطع البحرية الانكليزية والهولاندية والفرنسية أخذت ليس فقط فى قنبلة الموانيء الجزائرية بل أنها استولت وأغرقت أيضا سفن القرصنة الجزائرية . وكان للرياس الذين أهمل مصالحهم جنود الانكشارية بعد استيلاء هؤلاء على السلطة سنة 1659 ، سبب وجيه حينئذ فى الاستيلاء على السلطة فى الايالة لحماية أنفسهم .

وبالاضافة الى ما ذكرنا هناك قوات أخرى كانت فى الميدان . فقد شهد منتصف القرن السابع عشر بأوروبا استمرار تطور البرنامج الحكومي « الثوري » الذي شرع فيه الكاردينال ريشيليو فى فرنسا ، وغاسبارد غوزمان G. Guzman دوق أوليفاريس Olivares فى اسبانيا) وفريدريك ويليام فى بروسيا ـ برندنبورغ ، والوزراء الكاميراليون Kammeralists فى النمسا ، ثم الأمراء الأقل أهمية والوزراء فى أماكن أخرى بأروبا . ذلك أن الفوضى الموروثة عن التراث الماضي للنظام السياسي المتعدد الذي انتقل عبر ماضي أوروبا لم تعد تقليدا مقبولا عند الحضارة الأروبية الصاعدة . فقد بدأت عملية تجميع كبار النبلاء وكذلك المدن المستقلة تحت كيان سياسي أوسع بواسطة السلطة الملكية . وكان الجنود المسؤولون لدى الحاكم ، وليس المسؤولين أمام ضابطهم أو بعض المارشلات أو الجنرالات شبه المستقلين ، هم الذين كانوا فى طريقهم الى فرض السلام والهدوء الداخلي على العناصر الفوضوية فى المجتمع الأروبي . ولم يأت الربع الثالث من القرن السابع عشر حتى كان كبار

القوم في أوروبا أمثال والنشتاين Wallenstein ، أو برنار فان ساكس ـ ويمار Bernard Von Sax-Weimar ، أو « عظماء » القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر بفرنسا الذين تمكنوا من تحدي الملك ـ كانوا جميعا أقل امكانية من حكومة مدنية كتلك التي كانت في لاروشيل La Rochelle التي وقفت ضد جيش لويس الثالث عشر خلال سنة كاملة . ان هذه الطريقة في تركيز السلطة قد سميت « بالحكم المطلق » ربما لأن لويس الثالث عشر تكلم عن سلطته المطلقة Pouvoir absolu ولم يكن ذلك قد حدث لأن الملوك قد تمكنوا من تركيز كل السلطة في أيديهم كما تدل عبارة « الحكم المطلق » ولكن ذلك وقع لأن الحكام امتصوا السلطات السياسية والعسكرية التي كانت للنبلاء الكبار والمدن المستقلة . ومن الطبيعي أنهم لم يمسكوا بزمام جميع السلطات التي أصبحت معروفة لحكام القرون التي تلت الثورة الفرنسية .

غير أن ثورة 1659 بالجزائر لم تكن تشبه الطريقة التي كانت جارية في أوروبا عندئذ . فبينما كان الحكام الأوروبيون يؤكدون حقوقهم في حكم النبلاء الكبار والمدن التجارية في ممالكهم ، كانت البنيات المعقدة للمدن شبه المستقلة ، وشيوخ القبائل والأمراء ، والمصالح المختلفة للجماعات (الأمناء) في الايالة الجزائرية ـ كلها كانت تذوب في حالة تقرب من الفوضى . ذلك أن سنوات الستينات من القرن السابع عشر شهدت انتفاضات وتمردات ضد دفع الضرائب ، كما شهدت عجز زعماء الفرقة الانكشارية عن التوصل الى حل سياسي بعد أن تبينوا أن الاستيلاء على السلطة قد عرقل امكانية الاستجابة الفعالة من قبل الآغا والديوان . ذلك أن الاغتيال والفوضى المدنية هما البديل الضعيف للسلطة « المطلقة » التي كانت تتطور في أوروبا . وكان رياس القراصنة مهددين تهديدا خطيرا بهذه الفوضى . فقد كانوا أغنى الناس في الجماعة المتنفذة ، وكانوا يملكون الفيلات في ضواحي الجزائر والمنازل بالمدينة ، وكانوا يملكون الرقيق بالاضافة الى الثروة من البضائع والدراهم ، كما كانوا متعودين على القيادة . وبذلك كانت الفوضى المشار اليها تهدد ثروتهم كما كانت تهددها الأساطيل الأجنبية عندما تتدخل في مهنتهم كقراصنة . وكان الرياس

يجدون حلفاء لهم في صفوف أغنياء الحضر (البلدية) واليهود الذين كانوا من جهة يديرون تجارة الجزائر ومن جهة أخرى كانوا يملكون الكثير من السفن في أسطول القرصنة . فهؤلاء كانوا أيضا مهتمين باستتباب النظام ولكنهم لم يكونوا يملكون ، سواء في ذلك البلدية واليهود ، أية قاعدة عسكرية أو سياسية يتحركون منها لحسابهم . وهكذا فانه عندما اقتصر الجنود في التطور السياسي على الزمرات « الكليكات » والاغتيال ، لم يبق للتجار الأغنياء وبناة السفن سوى اللجوء الى الثورة بقيادة الرياس .

ان الأزمة التي أدت الى ثورة 1671 كانت في الحقيقة نتيجة للوضع في أروبا أكثر مما كانت نتيجة للمشاكل في الجزائر . فعندما انتهت الحرب المسماة « حرب الانتقال Devolution » سنة 1668 كانت الدول البحرية في وضع يسمح لها باستعمال سفنها لتأمين تجارتها في البحر الأبيض . ومن سوء حظ الأغوات أن نهاية تلك الحرب قد توافقت أيضا مع هزيمة بحرية خطيرة عاناها الرياس الجزائريون الذين جاءوا لمساعدة السلطان في الحرب الكريتية . ولكي يسترد الرياس بعض خسائرهم لجأوا الى أسر أية سفينة يجدونها ، ولو كانت محمية بمقتضى معاهدة . ولكن الرد على ذلك كان فوريا : فقد طلبا وضع الأنكليزي والفرنسي أمام الجزائر وطلبا التعويض كما طالبا وضع حد لهذه القرصنة . وقد وافق الأغوات على ذلك ، ولكن الرياس استمروا في نهبهم . وفي السنة الموالية (أي سنة 1669) وصل فيفون Vivonne مع أسطول فرنسي وطلب من الآغا خنق ثلاثة من الرياس الذين استولوا على غنائم فرنسية بطريقة غير شرعية . وفي سنة 1670 كانت الأساطيل الأنكليزية والهولاندية والسويدية والمالطية والفرنسية تراقب البحر الأبيض مجبرة الجزائريين على البقاء في الميناء . وأمام هذا الوضع الذي تعذرت فيه الغنائم أصبح الرياس وملاك السفن الأغنياء أكثر فأكثر لا يستطيعون صبرا ، ولكن الضربة القاضية حدثت عندما فاجأ الأميرال سبراغ Spragg حوالي ثلث الأسطول الجزائري في ميناء بجاية واستطاع أن يحطم الحواجز التي كانت تحميه وأن يحرق أغلبية سفن القرصنة (انظر الفصل الثاني عشر) .

وعندما وصلت أنباء هذا الحادث الى الجزائر حدثت ثورة . وقد استطاع الآغا علي أن يوقف الموجة الاولى وأن يقطع رؤوس بعض الزعماء المتآمرين ، ولكن موجة جديدة من العنف جرفته هو وأصدقاءه الى خارج السلطة ، ثم قضت عليهم بالموت . وقد ظهرت الثورة في وقت قصير مترددة ، ذلك أنه لم يوجد من يريد المنصب الشاغر الذي تركه الآغا علي . ولم يكن الآغا علي سوى الأخير في سلسلة من الأغوات الذين انتهى حكمهم بالاغتيال . وقد سارع الباشا ، الذي لعله كان يأمل في ملء الفراغ ، الى رفع علم والمناداة على الانكشارية ليتبعوه ويعيدوا العمل بالنظام القديم للايالة ، ذلك النظام الذي يعترف بحكم السلطان . ولكن الطائفة كانت لها أفكار أخرى . وهنا اقترح بعضهم أن يكون الحاج محمد ، الذي هو رجل متقاعد وغني جدا ، والذي كان محل احترام الجميع باعتباره رجلا نزيها ، والذي من الممكن أن يوفر دراهم يدفع بها أجور الانكشارية — هو الذي يجب أن يطلب منه تولي السلطة . وقد توجه الجسم الحاشد الى محل اقامة الحاج محمد . ولم يكن هو يعرف ، أو على الأقل ادعى أنه لم يكن يعرف ، ما اذا كانوا يهاجمون منزله أو كانوا قادمين لتكريمه . ولما عرضت عليه مهمة السلطة رفض في أول الأمر ، ثم أعاد النظر على أساس صلاحياته ستكون مطلقة . ولم يرغب هذا الرايس الحاج في حمل لقب الآغا ، ولذلك أصبح « دايا » وهو اللقب الذي يعني في نفس الوقت « الخال » و « البطل المغوار » وقد ادعى الرياس أنهم سيعودون الى العمل « بالنظام القديم » الذي أسسه خير الدين ، وأصر هو (الحاج محمد) وأتباعه أنه عندما كان خير الدين واخوته يغادرون بلادهم ويبحرون الى غربي البحر الأبيض أوصاهم أبوهم بوجوب طاعة خير الدين لأنه هو « دايكم » .

ولم يكن الحاج محمد ينوي الوقوع في نفس الفخ الذي وقع فيه الأغوات الواحد تلو الآخر في السنوات السابقة . ولذلك أصر على حق تأليف حكومة لها صلاحيات الدفاع عن نفسها ضد الزمرات (الكليكات) التي تتسرب بسهولة الى صفوف فرقة الانكشارية . ان الرياس هم الذين سيحكمون الجزائر ابتداء من اليوم . ومن حسن حظ الحاج محمد أن الدول البحرية الأوروبية كانت أثناء بقية عشرية السبعينات ، مشتبكة في

حرب باهظة الثمن ، تلك الحرب التي بدأت عندما حاول لويس الرابع عشر أن يجعل نيذرلاندا المتحدة تدفع الثمن لرفضها قبول الملك الفرنسي كصاحب سيادة على نيذرلاندا الكاثوليكية (الأسبانية) . ولم يكن في استطاعة الدول البحرية (الأروبية) أن تعاود الالتفات نحو الجزائر قبل حوالي عشر سنوات أخرى .

ولم يحاول الحاج محمد أن يستقل بالحكم . فقد أصبح صهره ، زوج ابنته : بابا حسن ، هو الحاكم الفعلي للجزائر ، وهو الذي أدخل تعديلات جديدة على حكومة الايالة ، تلك التعديلات التي أصبحت من ميزات حكم الدايات . فبدل حكومة معتمدة على الديوان ، أسس الدايات نظاما يلعب فيه الوزراء ــ وهم مراكز السلطة ــ دورا في تسيير شؤون الدولة . وهكذا أخذ عدد من الموظفين أماكنهم في الحكم ، وهم : أمين الخزينة (الخزناجي) ، واغوات يمثلون الانكشارية والجنود الاحتياطيين ، والأميرال ، ووزير الشؤون الخارجية ، وجماعة من الكتبة ، والسفراء ، وغيرهم من المعاونين . وقد انحصر دور الديوان ، بعد هذا التغيير في المصادقة على القرارات .

وقد حكم الحاج محمد و بابا حسن الجزائر أكثر من عشر سنوات دون مواجهة أي نزاع خطير على السلطة . كان الحاج محمد رجلا طاعنا في السن ، وكان بابا حسن رجلا ذكيا وسياسيا ماهرا . وقد أيدا أعمال الرياس وراقبا عن كثب تطور الزمرات (الكليكات) في صفوف الانكشارية . غير أن الأوضاع الأروبية رجعت في النهاية ضدهما . ففي السنوات الأولى من حكمهما كانت الحرب الهولاندية تشغل شغلا كاملا الدول البحرية الأروبية ولكن بعد صلح نوموينغن Numwegen سنة 1679 ، أصبحت الأساطيل الانكليزية والهولاندية والفرنسية مستعدة لردع أي تدخل في قضايا تجارتها من الجزائر . وسنرى في فصل لاحق أن الأسطول الأنكليزي أولا ثم الأسطول الفرنسي قد قصف الجزائر وهاجم أسطول القرصنة . وكان الهجوم الفرنسي الثاني بصفة خاصة مدمرا لدرجة أن بابا حسن كان مستعدا للتفاوض . فقد أطلق سراح أغلب الأرقاء الفرنسيين في الجزائر وكان سيمضي قدما فيتقرب من لويس الرابع عشر ، ولكن الأميرال الفرنسي ، دوكيسن Duquesne ، غرته الوعود فأطلق سراح

رعيته ، (حسين) ميزومورتو ، آملا في الحصول على نتائج أفضل . غير أن ميزومورتو ، الذي هو أيضا من الرياس القراصنة ، استطاع فورا أن يغتال بابا حسن ، أما الحاج محمد فقد نجح في الفرار الى تونس . وهكذا أصبح ميزومورتو دايا ورفض التفاوض مع دوكين . ولكنه (ميزومورتو) ، توصل ، بعد سنة واحدة ، الى اتفاق مع عميل فرنسي ، ثم أقنع السلطان في الجمع بين منصبي الباشا والداي . وكان يأمل في اقامة حكم مستقر ، ولكن الأيام برهنت على أن أمله كان مستحيل التحقيق . فقد استطاع ميزومورتو أن يعزل الجنود الانكشاريين وذلك بتوجيههم الى حرب غير ناجحة ضد تونس . وكان عليه أن ينجو بحياته ، بينما انتخب الجنود سنة 1689 واحدا منهم لمنصب الداي . وبذلك لم يبق الرياس في الحكم سوى عقدين من الزمان قبل أن يعود الجنود لتثبيت أولوية الانكشارية في ادارة حكومة الجزائر .

وبتدخل من السفير الفرنسي الذي كان يأمل في استعمال الجزائر في حرب فرنسا ضد أنكلترا سنة 1689 ، عين الباب العالي باشا جديدا من اسطانبول . ولكن الديوان رفض السماح له بالنزول في الجزائر . وكان رد الديوان هو : « عد الى المكان الذي قدمت منه ... فلسنا في حاجة الى باشا ... واذا لم ترجع من حيث أتيت فسترى ما يحدث لك . » (4) وليست هذه هي المرة الاولى التي يواجه فيها مبعوث السلطان هذا الموقف ، فبعد حوالي ربع قرن ، أرسل وزراء السلطان معينا جديدا من اسطانبول ليكون باشا الجزائر . غير أن هذا الباشا واجه أيضا التهديد بالموت اذا حاول النزول بالجزائر . ان ثورة 1671 قد خلقت وضعا سياسيا كان فيه الداي قادرا على الاستيلاء على السلطة سواء من اسطانبول أو من ديوان الجزائر . وبعد ربع قرن آخر عادت السلطة بشكل ثابت الى أيدي الدايات ، ولكن آفاق العودة الى نظام الحكم السابق المتميز « بالفوضى » و « الاغتيال » قد تراجعت كثيرا .

---

4 ـ اسماعيل باشا الى لويس الرابع عشر ، المجلة الافريقية CLXIII ، ص 70 .

ولم يكن من الصعب على الدايات أن يصالحوا الدول الأوربية بمجرد اشتباك أوربا بالحربين الكبيرتين اللتين امتدتا من سنة 1689 الى سنة 1714 • وكانت مشكلتهم الوحيدة هي المحافظة على حكومتهم خارج النزاع الأوربي • ولكن حتى ولو لم يكن الدايات قلقين من الهجومات البحرية ، فانهم أصبحوا متورطين في منازعات عند حدودهم • وسنرى في فصل لاحق أنهم تمكنوا من الاستيلاء على وهران ، ولكن حروبهم ضد تونس والمغرب لم تصادف نفس النجاح ، وكانت التصرفات غير الحكيمة والهزائم في ميدان المعارك قد وضعت حياة الدايات في موضع الخطر • لقد كان من المستحيل على حكام الجزائر أن يحكموا بدون الخوف من أن الاغتيال قد ينهي مهماتهم وحيواتهم ، ولكن الدايات ، مع ذلك ، ابعدوا الى حد ما ذلك الخطر حتى أنه لم يعد شيئا غير مشاع أن يموت الداي موتا طبيعيا •

الفصل السادس

الجزائر: الوضع العام، والسكان، والمجتمع

عندما أخذ رجال الأدب فى القرن الثامن عشر يكتبون عن شمال افريقية كانت كتاباتهم تتميز بالرومانتيكية والخيال . وقد لاحظ احد الباحثين الفرنسيين قائلا : « ان قرن الاستنارة هذا قد أنتج مآت من الكتب عن الدين والطب والنحو والموسيقى والزراعة والاقتصاد والسياسة والمعادن والانثولوجية الغريبة والجغرافية ، ولكن شمال افريقية لم يكن وحشيا بما فيه الكفاية ولا غريبا بما فيه الكفاية حتى يستحق الاهتمام من جماعة المفكرين ــ الفيلوزوف ــ » ففي كثير من كتب فقه اللغة والقواميس والتقاويم والموسوعات كان سكان شمال افريقية يوصفون بأوصاف غير دقيقة قائمة على أدلة غير وثيقة . وليس معنى ذلك أنه لا وجود لأدلة يعتد بها ولكن معناه أن رجال الأدب (من الأوروبيين) قد اختاروا رؤية أهل شمال افريقية اما فى شكل « جلادي المسيحية » واما فى شكل الانسان التركي الذي اختاره موليير فى عمله المسمى (البرجوازي المهذب) . ومهما كان الأمرفان الاعتبارين لا يعطياننا الوصف الحقيقي لتركيبة الحياة عند أهل شمال افريقية .

وعلى أية حال فهناك ثروة طائلة من الوثائق التي كان يمكن لرجال الأدب أن يستمدوا منها صورة مدينة الجزائر وشعبها . فخلال القرون الثلاثة والربع التي مرت بين الوقت الذي قاد فيه عروج أسطوله الصغير نحو وسط البحر الأبيض وبين نزول الفرنسيين فى مدينة الجزائر سنة 1830 ، زار مدينة الجزائر عدد من التجار والجنود والبحارة وقدماء الأرقاء والرحالة والقناصل والعملاء الدبلوماسيون والأدباء ، وكانت

زياراتهم لها تعود الى أغراض مختلفة ، ولكنهم جميعا تركوا وراءهم حديثا عنها وأوصافا لها تعبر عن تجاربهم هناك • وكان أولئك الرجال قد جاءوا من مختلف الطبقات الاجتماعية الأروبية : فبعضهم ، مثل هايدو ودان ، كانوا قساوسة يعملون على افتداء الأرقاء المسيحيين ، وبعضهم ، مثل سانسون نابلون Napollon ، ودنيس دوسولت Dusault وكول Cole ، كانوا رجال أعمال • وكان مرمول Marmol ودوكين Duquesne من الجنود ، بينما كان مورقان Morgan وشو Shaw من الأدباء والرحالة ، وكان دولاكروا De la Croix عالما ، بينما كانت السيدة بروتون Broughton زوجة أديبة لأحد القناصل ، وكان دابر Dapper جغرافيا هولنديا ، بينما كان بناتي Panati (كذا) وهيز Hayes يتجسسان لمعرفة أماكن الضعف في الايالة • أما فرانسيس نايت F. Knight والدكتور اندرهيل Underhill ودي روكفيل de Rocqueville فقد كانوا من الأرقاء • وان هذه القائمة أبعد ما تكون نهائية • (*) فهذه مكتبة نيوبيري Newberry بمدينة شيكاغو تحتوي على أربعين كتابا أو أكثر من الكتب المعاصرة التي ألفها أرقاء تحرروا ورحالة وصحافيون • وفي كل من المكتبة الوطنية الفرنسية والمتحف البريطاني أكثر من مائة عنوان ، كما أن البيبلوغرافية التي وصفها بليفير Playfair تضم 293 كتابا أو كتيبا نشرت قبل سنة 1789 ، ألفها أناس ليسوا بالضرورة قد زاروا الجزائر فعلا ، ولكنهم جميعا حاولوا أن يصوروا الأوضاع الجزائرية • ومن المتوقع أن كثيرا من هذه الأعمال لا فائدة فيه ، ولكن هناك ما يكفي من التجارب الصالحة التي تقدم معلومات جديرة بالثقة اذا ما جمعت الى بعضها البعض •

وبينما كان الناس الذين زاروا الجزائر يختلفون من حيث تكوينهم وتجاربهم فانهم كانوا يشتركون في الأحكام المسبقة ، ما داموا جميعا كانوا مسيحيين • ومن سوء الحظ أن المسلمين ، سواء منهم الرسميون والجنود والتجار ، الذين عاشوا في الجزائر أو زاروها لم يتركوا لنا

(*) — من بين الأدباء الذين لم يذكرهم المؤلف سيرفنتيس الاسباني ، فقد كان من الأرقاء (الأسرى) ، وهو مؤلف العمل المشهور : دون كيشوت • (المترجم) •

الا القليل من الوثائق التي يمكن لعلماء الغرب الاطلاع عليها ، حتى أولئك العلماء الذين يعرفون العربية والتركية • وبذلك تكون الصورة التي لدينا عن حياة وعادات سكان شمال افريقية صورة ، بدون شك ، مشوهة • فاذا نحن تذكرنا هذا ، الا يمكننا أن تستخرج من الكتب والكتيبات ورسائل القناصل والدبلوماسيين والبحارة وتقاريرهم مادة كافية تسمح لنا باستنباط معلومات مقبولة الى حد ما ؟ ولكن يجب علينا أن نكون حذرين فلا نذهب الى ما ذهب اليه فيشر Fisher من استبعاد جميع المعلومات غير الودية أو المعادية والاعتماد فقط على المعلومات الودية • ذلك أن الأحكام المسبقة تعتبر سلاحا ذا حدين • (*)

* * *

ان أسهل طريق لزيارة الجزائر هو الطريق البحري ، وجميع الرحالة متفقون على أن المدينة تبدو فى منظر جميل وعظيم من المكان الواقع خارج الرصيف البحري (المول) الذي شيده خير الدين لجعل أسطوله فى مرفاء آمن • ان هذا الرصيف البحري كان قطعة من الأرض تقطع مياه المرسى وتمتد من الجزيرة التي كانت مقرا للمقيمية الأسبانية القديمة الى الشاطيء • ولم يحن منتصف القرن السابع عشر حتى أصبح ذلك الرصيف حصنا مدججا بالمدافع كما كان جدارا يرد الأمواج العالية • ووراء هذا الرصيف البحري تقف أسوار المدينة الغاصة أيضا بالمدافع بالاضافة الى وجود قلاع هنا وهناك لتعاون فى الدفاع ضد المغيرين • ولدينا عدد من التقارير التي كتبها جواسيس أو جنود يحللون فيها صعوبات الاستيلاء على مدينة الجزائر • فهذا تقرير دارفيو D'Arvieux الذي قدمه الى أمير البرتغال ، وكذلك التقرير الذي كتبه مجهول وقدمه الى كولبير Colbert كلاهما يقدم وصفا دقيقا لهذه التحصينات خلال الربع الثالث من القرن السابع عشر • (1) وكلاهما لا يرى المدينة

(*) ـ يبدو المؤلف محايدا عندما ينتقد المصادر ويصنفها ، ولكنه يقع في نفس التيار الذي وقع فيه غيره حين ياخذ في الكتابة • فاذا كان يؤاخذ فيشر على تبرئة حكام الجزائر من كل شيء فان المؤلف يكاد يبرر كل شيء ضدهم • (المترجم) •

1 ـ انظر تقريرا الى كولبير ، 1664 ، A.A.E. ، مدينة الجزائر ، 12 ، 148 ، وكذلك تقريرا الى امير البرتغال ، دارفيو ، المجلة الافريقية (R.A.) 5، 363 ـ 372 •

منيعة ، بالعكس فان كليهما متفائل بحظوظ سقوطها عند هجوم ناجح ، وكانت أسوار المدينة تحتوي على حوالي مائة مدفع معظمها في مواجهة البحر . وكلا الكاتبين لم يدر أن بعض تلك المدافع يعود تاريخها الى أيام هجوم شارل الخامس . والواقع أنه بعد الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة 1830 اكتشف الأوروبيون أن كثيرا من تلك المدافع التي « تدافع » عن المدينة لم يعد يمكن اطلاقها دون أن تكون خطرا على حياة مطلقيها . وكان هناك خمسة أبواب في الأسوار ، اثنان منها يواجهان البحر ، وهناك أربع قلاع متفرقة ، واحدة منها تقع على مسافة نصف طلقة مدفع من المدينة والكتابات التي تعود الى سنوات الستين والسبعين من القرن السابع عشر ، وكذلك الكتابات السابقة لها واللاحقة تتفق على أن المدينة يمكن الاستيلاء عليها اذا توفر من خمسة وعشرين الى ثلاثين ألف رجل مسلحين تسليحا مناسبا بأجهزة الحصار . غير أنه يمكننا أن نضيف « هامشا » الى هذه التقارير المتفائلة ، وهو أن جميع المحاولات للاستيلاء على مدينة الجزائر ، من أيام خير الدين الى فاتح القرن التاسع عشر ، كلها قد باءت بالفشل ، ومع ذلك فان الحملة الفرنسية سنة 1830 لم تلق الا مقاومة ضعيفة .

ان المدينة تعطي انطباعا يثير الاعجاب اذا نظر اليها المرء من جهة البحر . فأمام الرائي يتراءى الرصيف البحري (المول) والمرسى تحوط بهما أسوار المدينة ، وتبدو المنازل متصاعدة على سفح الجبل وهي تشكل مدرجا . وتظهر الأسوار والمنازل ناصعة البياض وسط أشعة الشمس الافريقية . وكان هناك بعض الدخان الذي يلوث الجو قليلا ويسود الحيطان ، وكان المواطنون يستعملون التبييض آملين بذلك السيطرة على الطاعون . ولكن عندما يدخل المرء الى الشوارع الضيقة فانه يبدو واضحا أن مدينة الجزائر تعد ناظرها اذا شاهدها من بعيد أكثر مما تعده اذا كان قريبا منها .

أما داخل الأسوار فان كثيرا من « الجمال الأبيض » يترك المجال للشوارع القذرة ، فبعضها لا يتسع حتى لا ثنين من المارة للمرور بسهولة وفي الشوارع الأكثر اتساعا كان الرجل يزاحم الجمال والخيول والحمير

وحتى الفئران الوافرة ، وكان أنفه يصعق بروائح الدمن والزبالة والقاذورات • ومن الأكيد أن هذا لم يكن أمرا غير عادي بالنسبة لأية مدينة فى أوائل العصور الحديثة • فقد قيل ان المرء كان يمكنه أن يشم الروائح الكريهة لمدينة باريس على مسافة خمسة أميال اذا كانت الريح فى اتجاهه • ثم أن الزوار الذين عرفوا مدن نابولي وبرشلونة ومرسيليا ، وغيرها من مدن البحر الأبيض الشمالية كثيرا ما تحدثوا عن الجزائر حديثا يجعلها ، بالمقارنة ، تفضل تلك المدن المسيحية المرفئية • وما زلنا نجد اليوم الشوارع الضيقة فى الأحياء الشعبية والأسواق فى كل من تونس والجزائر والرباط وغيرها من مدن افريقية الشمالية ، وبعضها ما يزال يحتفظ بالحيطان العالية من الجانبين ـ وهي الحيطان التي تستر الحياة الخاصة لعائلات الأغنياء الذين تجعل الحدائق ذات المسابح والأزهار ، تجعل المعيشة الفاخرة والخاصة ممكنة • وهناك شوارع أخرى تظهر فيها دكاكين التجار والحرفيين بل تزاحم فيها الممرات حتى تكاد توقف حركة المرور تماما ، بينما يلح أصحاب تلك الدكاكين على المارة لشراء أمتعتهم أو المشاركة فى الملاهي البهيجة من الخمارات أو المقاهي •

وفى تلك القرون الأولى كان الحرفيون عادة من الحضر (البلدية) ، والموريسكيين والثغريين (التغاريين) اللاجئين من الأندلس ، والكراغلة ، واليهود • وكثير من الكتاب يسرون على أن اللاجئين من الأندلس قد أغنوا مدينة الجزائر كثيرا بمهاراتهم ، بينما يخبرنا آخرون بأن الموريسكيين لم يستقبلوا استقبالا حسنا فى مدينة الجزائر ، على عكس ما حدث لهم فى تونس حيث كان الاقتصاد أكثر ملاءمة لقدراتهم وحيث الحكومة أكثر استعدادا لاستقبالهم •

ان الحانات والمقاهي فى مدينة الجزائر كانت كلها تقريبا فى ملك وادارة المسلمين الجدد (المرتدين عن المسيحية = الاعلاج) أو الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يدفعون لأسيادهم جزءا من الفائدة ، وكثيرا ما أصبحوا هم أنفسهم من الأغنياء • والواقع أن هناك قصصا عديدة عن الأرقاء الذين رفضوا عروض تحريرهم أو فديتهم خوفا من فقدان أرباحهم التجارية •

وخلال القرن الثامن عشر نقرأ أن هناك انكشارية كانوا يديرون الدكاكين من هذا النوع أو ذاك ، وكان بعضهم قد هرم وتقاعد عن العمل ، بينما آخرون وجدوا الفائدة أكبر في ادارة دكان واكتراء بديل عنهم للقيام بالعمليات العسكرية أكثر مما لو قاموا هم أنفسهم بدورهم العسكري كجنـود .

وهناك نظام في مدينة الجزائر اتفق جميع الزوار على مدحه وهـو الحمامات العمومية . ومن الواضح أن هذه الحمامات كانت منحدرة من تلك التي خدمت الرومان منذ قرون خلت . وأكثر تلك الحمامات فخامة لها غرف بخارية ، وفيها الماء البارد والساخن ، وخدم من الزنوج مهرة في الدلك ، بالاضافة الى تقديم القهوة والشربات من قبل الوصيفات . وهناك ساعات خاصة بالنساء يكون فيها الحمام تحت ادارة النساء . كما أنه كان بامكان النصارى واليهود والأرقاء ادارة الحمامات . ويخبرنا الدكتور اندرهيل Underhill في أواخر القرن الثامن عشر عن الاضاءة والماء البارد والساخن وبيوت التجميل والفوط ومحكات الجلد ، وخدم الحمامات ، والقهوة والشربات ، والدخان وحتى عن امكانية تعاطـي المخدرات . وتنسجم أخباره مع أخبار من سبقوه من الزوار . ومعظم الكتاب المسيحيين يعترفون باهتمام المسلمين بقضية النظافة داخل هذا النظام الممتاز وهو نظام الحمامات . وقد يكون كلامهم صحيحا ، ولكن الحمامات قد تكون متصلة أيضا بالتقاليد الكلاسيكية (الرومانيـة) القديمة .

ولا توجد فنادق للمسيحيين خلال القرن السادس عشر وبداية السابع عشر ، وكان على المسافر أن يجد ملجأه في الحي اليهودي . ولكن خلال القرن السابع عشر أنشأ القناصل الأروبيون نوعا من المنازل أو الفنادق لتخزين البضائع وادارة الأعمال القنصلية ، والقيام بالوظائف الدينية ، ثم محلات يمكن للزائر أن يقيم فيها . وبحلول القرن الثامن عشر ، حين وجد بين خمسة الى سبعة من القناصل (الأروبيين) في الجزائر ، أصبحت هذه الخدمات منظمة بشكل مناسب .

وكانت المستشفيات الأسبانية التي يقوم عليها قساوسة (الثالوث المقدس) و (نظام افتداء الأسرى) — أو المثلثون ، قد وجدت لتعتني بالأرقاء المسيحيين ، بإبقائهم ، فيما يبدو ، على عقيدتهم الدينية . ولكن المستشفى كان مفتوحا أيضا لرجال التجارة البحرية المسيحيين وحتى لبعض السكان المسلمين . ويبدو أن المستشفى كان نظاما « نموذجيا » لذلك العهد . ولكن الرهبان لم يكونوا دائما اداريين جيدين . فقد كان المستشفى في السنوات الأولى من القرن السابع عشر يواجه مشاكل خطيرة . وكان مدير أحد المستشفيات قد اقترض مالا من مسيحيين وأتراك وبلدية (حضر) ويهود بربا عال . ولم تكف سفينة من الصوف جاءت من اسبانيا لتسديد ديون المقرضين . وقرر القنصل الفرنسي بطريقة تعسفية تحمل بعض المسؤولية في ذلك . وبحلول القرن الثامن عشر ، عندما كان هناك حوالي ستة من هذه المستشفيات واقعة في أحياء العبيد أو ما يسمى « بالبانيوس » ، (2) أصبح مسموحا للقساوسة أن يفرضوا ضريبة صغيرة على البضائع الواردة الى الجزائر لمساعدة المستشفيات . وقد قدمت هذه المستشفيات خدمات للمسيحيين لم يكن في مقدور المسلمين المقيمين في المدينة توفيرها لهم .

وسنعالج في فصل لاحق الأحياء الخاصة بالأرقاء ومشاكل الأرقاء في الجزائر . وقد قدر الأب (بير) دان عدد المساجد بمائة ، معظمها من الحجم الصغير ، وكانت الزوايا الصغيرة التي يقيم فيها مرابط أو اثنان . أما المساجد الفخمة بالجزائر فقد بنيت بعد الأب دان ، بناها عدد من الرياس البحارة الذين حققوا نجاحا هائلا ، ومن ثمة كانوا أثرياء . فهذا طاسي (Tassy) يخبرنا ، ويتفق معه معظم الملاحظين عندئذ ، بأنه كان يوجد في أوائل القرن الثامن عشر ، عشرة مساجد كبرى وحوالي خمسين

---

2 — كانت «البانيوس» عبارة عن مجمعات يسكنها الأرقاء ، وبعضها كانت محلات أمنية مضيقة ، وبعضها كانت مفتوحة طول النهار ولكنها كانت تغلق ليلا على خلاف العادة ، وكانت البانيوس هي محلات اقامة القداس الكاثوليكي ، والخمارات والبقالات ، وسوقا للبضائع المسروقة ، بالاضافة الى تسكين الأرقاء ، وساحة البانيوس كانت مزدحمة ، قذرة ، مختلفة الالوان ، مثيرة ، وحقيرة ان استعمال احدى هذه الكلمات دون غيرها يتوقف على شعور الكاتب الذي استعملها ، وان منظر البانيو قد يكون هو الصورة الحقيقية للبانيوس في آخر حياة الايالة الجزائرية .

مسجدا صغيرا . وكانت هذه المساجد تحت اشراف كثير من الموظفين ، بالاضافة الى المذاهب الاسلامية الثلاثة البارزة وهي: Cabalists, Santors: وأهل السنة Sunnaquistes . وهناك مذهبان ونظرتان مختلفتان ، فالأتراك ومعهم الداخلون الجدد في الاسلام (الأعلاج) ينتمون عادة لمساجد المذهب الحنفي الذي كان أكثر ليبرالية (أو تحررا) في وجهة نظره بالنسبة للأخلاق الشخصية ، بينما المهاجرون من الأندلس والحضر كانوا في الغالب على المذهب المالكي الذي يقف من الأخلاق والأعراف موقفا أكثر صلابة . أما في الزوايا والمساجد الصغرى فهناك تنوع في المذاهب . وخلافا للمسيحيين الذين كانوا في نفس العهد يشنون الحرب ضد بعضهم باسم السلفية (الأرثوذكسية) ، فان جميع هذه الفرق (الاسلامية) كانت متسامحة مع بعضها . فالمرابطون ذوو النظرات الشزراء الذين كانوا يفسرون الدين بطريقتهم الخاصة كانوا مقبولين على قدم المساواة مع معلمي القرآن في المدارس .

وبحلول القرن الثامن عشر كان يوجد ثلاث مدارس عليا (كوليج Colleges) حيث يتعلم الأولاد القرآن وبعض الثقافة الأدبية وبما بنفس النمط الذي ما يزال الأولاد المسلمون يتعاملون به ، اذ يجلسون في حلقة حول معلم ويحفظون القرآن عن ظهر قلب . وبالاضافة الى ذلك كان يوجد عدد من المدارس الأصغر حجما خاصة بالأولاد حيث يمكن للطفل أن يتعلم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب .

غير أن التعليم ، سواء كان دينيا أو دنيويا ، كان هابط المستوى جدا خلال هذا العهد كله . ولا شك أن أغلبية الجزائريين ، بلدية أو أتراكا أو ثغريين (أندلسيين) - يشتركون في العجب مع أحد مواطنيهم الريفيين الذي كان مندهشا عندما ما سمع أن أروبي آخر القرن السابع عشر كانوا يضيعون وقتهم في محاولة تعلم حركات النجوم (الفلك « الحساب الذي لا فائدة فيه » والفلسفة الطبيعية . وقد كان شو (Shaw) الذي كتب حوالي سنة 1720 ، من أدق الملاحظين ، وكان يحسن لغات الشرق الأدنى والأوسط . وقد اجتمع مع جزائريين من فئات اجتماعية مختلفة المستوى ، وترك لنا الرأي التالي :

« ان الفلسفة والحساب ومعرفة الفيزياء والطب ، التي كانت منذ بضعة قرون فقط تكاد تكون حكرا عليهم ، (يعني العرب المسلمين) أصبحت غير معروفة أو مدروسة الا قليلا (بالجزائر) في الوقت الحاضر . ان حياة العرب البدوية وغير المستقرة والمظالم التي لا نهاية لها التي يرتكبها الأتراك ضد الحضر (السكان) ، لن تسمح لأبهم بالتمتع بالحرية والهدؤ والأمن التي أنجبت المعرفة في كل الأزمنة وشجعت عليها . ففي ما يتعلق بالأتراك هم عموما ذوو طبيعة مضطربة وغير مستقرة ، أوانهم غارقون في التجارة واصلاح أحوالهم المادية لدرجة أنهم لا يجدون وقتا للمعرفة ، حتى أنهم كانوا يبدون اندهاشهم ، وكانوا يسألونني غالبا : كيف يجد المسيحيون لذة أو يضيعون وقتهم ونقودهم في مثل هذه الممارسات الفارغة مثل الدراسة والتفكير . » (من رحلات الدكتور شو ، ج 1 ، ص 353) .

ويؤكد دولاكروا الابن ، الذي كتب خلال الستينات من القرن الثامن عشر ، هذا الانطباع الذي تركه شو فهو يقول : « ان شعب المغرب العربي جهلة ، وليس لهم ذوق في العلم أو الفن ، وهم بخلاء ، وغلاظ ، ومزدرون وشكاكون ، وحقودون . وليس لهم سوى مقدرة محدودة على التجارة ، رغم أنهم يقومون بأعمال تجارية عديدة ... انهم لا يعيشون الا بالقرصنة . » (من الجغرافية الحديثة ، ص 294 — 295) .

وكان أهل الجزائر خلال القرن السادس عشر ، يعتمدون في المياه على الصهاريج وعلى الأمطار . ولكن في أوائل القرن السابع عشر وجد أحد اللاجئين من الأندلس نبعا غزير المياه وعذبا عند سفح جبل ، وعرف كيف يبني القنوات الضرورية لاحضار الماء الى المدينة . ونتيجة لذلك كان هناك أكثر من مائة عين بمدينة الجزائر ، بعضها كانت في السجون (البانيوس) للأرقاء ، وبعضها في ثكنات الانكشارية ، وبعضها في الشوارع حيث يتمكن السكان من ملء جرارهم .

وكانت المباني العامة في حاجة الى ذوق معماري متميز . فلا المكاتب الادارية ولا المستودعات بالميناء تبدي شكلا خاصا سوى أنها مباني وظيفية عادية . وكان « القصر » نفسه عبارة عن مبني مربع بدون ذوق

خاص . وكان الديوان يجتمع في مبني واسع حيث يجلس الباشا والداي على مصطبة ولم يكن متميزا بأي ميزة معمارية . ولم يثر ذلك « القصر » دهشة الفرنسيين حتى أنهم هدموه بعد سنوات قليلة من احتلالهم للمدينة . (*)

وكل المؤلفين يذكرون لنا أن سكان مدينة الجزائر كانوا يتألفون من البلدية (وهم سكان الجزائر الأصليون من الحضر) ، والأتراك (سواء منهم الأعلاج والمشارقة) ، والثغريين والأندلسيين (وهم اللاجئون من الأندلس) ، ومن اليهود ، ومن البربر « الأشداء » ومن العرب الوافدين من الضواحي القريبة من المدينة ، ومن الأرقاء المسيحيين وبعض العبيد السود . وخلال القرون السابقة للعصور الحديثة لم يقم أحد باجراء احصاء للسكان ، ولذلك فان تقديرات عدد كل جماعة من الجماعات المذكورة ، وكذلك بالنسبة لمجموع عدد السكان ، انما هي في أحسن الأحوال اجتهادات علمية وفي أسوئها مجرد تخمينات وظنون . وأفضل الاحصاءات فيما يبدو ، هي تلك التي تعتمد على عدد البيوت في المدينة مضروبا في عدد الأفراد الذين يفترض وجودهم في كل بيت . وعلى كل فان أي رقم قد يكون مجموعا من اضافة أعداد الناس في حي من أحياء المدينة أو في احدى القرى ، الى رقم تقريبي يصل الآلاف . وان الأرقام الخاصة بالقرن السابع عشر يجب أن تصنف في أرقام أصغر منها بكثير بالنسبة لكل من أول القرن السادس عشر وآخر القرن الثامن عشر : ولكن كم كان الفرق بينهما ؟ انه من الصعب الوصول الى رأي في ذلك .

والأرقام التي أعطاها الأب دان (حوالي سنة 1630) ودارندا D'Aranda (حوالي 1657) ، ودارفيو d'Arvieux (حوالي 1675) ثم طاسي ومورقان (حوالي 1730) تدل ، فيما يبدو ، على أن مدينة

(*) — غريب أن يحكم المؤلف هذا الحكم على قيمة قصر الداي ، وكأنه يبرر هدم الفرنسيين له من أجل ذلك ، ولكن هذا الهدم لم يكن حجة على النقص في قيمة العمارة كما هو معروف ، فقد هدم الفرنسيون جامع السيدة بعيد الاحتلال ، ومع ذلك فان علماءهم قالوا بأنه كان تحفة رائعة . (المترجم) .

الجزائر خلال القرن السابع عشر قد أبقت على سكانها فى رقم معقول مستقر وهو من مائة ألف الى مائة وخمسة وعشرين ألف نسمة بين أحرار وأرقاء . لقد كان هذا العهد هو أعظم عهود قراصنة البحر رخاء . وقد تهاطلت البضائع والأرقاء على مدينة الجزائر بسرعة أكثر فى النصف الأول من القرن المذكور (17 م) ، ولكن الرياس كانوا قادرين خلال كل القرن على الاسهام فى ازدهار ورخاء سكان المدينة . فقد كان الطعام رخيصا ووفيرا ، وكان عدد السكان يتجدد باستمرار سواء من المشرق أو من النواحي القريبة من المدينة . ولا نملك أرقاما يمكن الاعتماد عليها بالنسبة للمواليد والوفيات . ولكن يجب أن لا ندعي بأن الأرقام التي توصل اليها الديمغرافيون بالنسبة لأجزاء من فرنسا وأنكلترا يمكن تطبيقها بالنسبة للجزائر أيضا . وربما يكون صحيحا أنه بدون التجديد المستمر للسكان من المشرق ومن القبائل البدوية وشبه البدوية سينخفض سكان مدينة الجزائر بصورة خطيرة خلال القرن السابع عشر الذي نتحدث عنه .

وهل توجد طريقة لاكتشاف أصول السكان خلال هذا العهد ؟ ان هذا السؤال لا يمكن الاجابة عليه بأية درجة من الدقة . فالكتاب ، الذين ربما كان بعضهم ينقلون حرفيا آراء سابقيهم ، يخبروننا أن مدينة الجزائر كانت تضم مائة ألف من الأحرار وخمسة وعشرين ألفا من العبيد . ولكن تجزئة السكان الى طبقات والى جماعات سلالية يؤدي الى الحيرة . مثلا ، لدينا رقم يقول بوجود ما بين عشرين ألفا وثمانية وعشرين ألف دار من الأحرار ، وهم سكان المدينة الأصليون الذين كانوا معفون من الضرائب بقرار من خير الدين . يضاف الى ذلك اليهود الذين كان عددهم عادة حوالى عشرة آلاف فرد ، ثم الثغريون والأندلسيون الذين جاؤوا فى عائلات لاجئة من الأندلس ، وهم فى العادة يبلغون سبعة آلاف دار ، ثم عائلات الكراغلة التي تتراوح ما بين ستة وسبعة آلاف فرد ، ثم الانكشارية والأعلاج وهم بين خمسة عشر وعشرين ألف رجل ، وأخيرا حوالى خمسة وعشرين ألف من الأرقاء المسيحيين . ان هذه التجزئة التى تأخذ فى الاعتبار أربعة أفراد فقط للدار الواحدة ـ سينتج عنها ان السكان كانوا حوالي مائتي ألف (200) نسمة . ولكن لا يوجد

كاتب من الكتاب يدعي هذا العدد الضخم . ولذلك فان التجزئة السابقة للسكان يجب أن تكون خاطئة .

وبالاضافة الى ذلك فانه من المحتمل جدا أن الرقم المذكور ، وهو مائة وخمسة وعشرون ألف نسمة ، يجب أن يكون غير مسلم به أيضا اذا كنا سنحاول تقدير السكان فى نهاية القرن السابع عشر اثر سلسلة الهجمات المريعة التي قام بها الطاعون . ذلك أن السكان فى أروبا خلال هذه الفترة كانوا تحت سيطرة أمراض مزمنة : الجدري ، والدفتيريا ، وأنواع مختلفة من الحمى والأمراض الراجعة الى التنفس وغيرها ، يضاف الى ذلك حوادث ميلاد الأطفال . لقد كانت هذه الأمراض جميعا موجودة فى الجزائر أيضا ، يضاف اليها الهجمات المتكررة والمروعة للطاعون الذي أودى بحياة أناس كثيرين مما يجعل من الصعب أن ندرك كيف استطاعت المدينة (الجزائر) أن تبقى على قيد الحياة بعده . فمثلا يخبرنا الكتاب أنه فى سنة 1647 وسنة 1648 كان عشرة فى المائة من السكان يموتون كل سنة . ثم حدث « الطاعون الكبير » سنة 1654 الذي أودى بحياة ثلث السكان . وبعد ذلك بثماني سنوات (1662) مات (منه) عشرة آلاف من الأرقاء من مجموع الخمسة والعشرين ألفا ، ولكن لا يوجد رقم لوفيات بقية السكان . ثم حدث « طاعون كبير » آخر بعد ثلاث سنوات ولكن لا وجود لنسبة الوفيات التي تسبب فيها .وخلال السنوات الخمس اللاحقة كان الطاعون المزمن ، ثم كانت سنة 1671 التي كانت سنة أخرى من الشر . واذا حكمنا من الأخبار السابقة واللاحقة نعرف أن « سنة الشر » تعني الوفيات التي تتراوح بين عشرة وعشرين فى المائة من مجموع السكان . وفى سنوات الثمانين (من القرن السابع عشر) أضيف الى الطاعون المجاعة وقصف الأسطول الفرنسي رغم أن هذا الأخير كان غير فعال بالنسبة للضرر بالسكان . وخلال سنوات الشر 1687 و 1688 كانت نسبة الوفيات حسبما روى ، تتراوح بين مائتين وأربعين شخصا يوميا (وهو رقم غير صحيح « لأنه قد يعني أن حوالي خمسة وسبعين ألفا من مجموع مائة وخمسة وعشرين ألفا قد ماتوا خلال سنة) . وتجب الملاحظة أن حدوث الطاعون والمجاعة

خلال سنوات الثمانين (من القرن السابع عشر) يمكن أن يكون عاملا مساعدا في الفوضى السياسية التي شهدها ذلك العهد . (3) فما الذي علينا أن نعتقده ؟ ان مدينة الجزائر خلال السنوات الأولى من القرن الثامن عشر كانت ما تزال تحتضن عددا كبيرا من السكان ، لعله أقل من العدد الذي كان فيها منذ نصف قرن مضى ، ولكن من المؤكد أن المدينة لم تكن خالية من السكان . اذ من الأكيد أن الطواعين والمجاعات قد أهلكت عددا كبيرا ، غير أن حركة الهجرة وجلب الأسرى قد ساعد على استقرار السكان .

ولبعض الأسباب ، كانت هجمات الطاعون خلال القرن الثامن عشر أقل من سابقتها ، ومع ذلك فلدينا شواهد أكثر موضوعية تدل على أن الطاعون ، كاد في احدى المناسبات ، يقضي على نصف الفرقة الانكشارية في الجزء الأخير من هذا القرن . وقد يكون ادعاء معقولا أن نقول ان الطاعون كان مسؤولا جزئيا فقط على انخفاض عدد السكان الذي بدأ حوالي سنة 1720 . فنحن نعلم أن تدهور نشاط الأسطول البحري الذي كان السبب في قلة الغنائم وضعف الازدهار ، يجب أن يؤخذ أيضا في الاعتبار ، ومع النقص في الأرقاء ، والنقص في الانكشارية ، وربما النقص أيضا في الهجرة من داخل البلاد الى المدينة ، فان مجموع السكان كان عليه أن يتضاءل .

لقد عرف شمال افريقية تاريخيا ، ورود كثير من السلالات : الفينيقيون ، والرومان ، والبرابر الجرمان ، وغزاة العرب والفرس . وجميع هؤلاء قد تقاطعوا ، تاركين وراءهم آثارا من دمائهم مع السكان الذين وجدوهم بقطع النظر عن أصلهم (*) ومن الصعب جدا معرفة

---

3 ـ ان افضل الشواهد على تأثير الطاعون ربما توجد في الرسائل القنصلية ، غير ان جميع التقارير حول الجزائر ، بما في ذلك (غازيت فرنسا Gazette de France) تتحدث عن الطاعون .

(*) ـ لا يختلف المؤلف عن المدرسة الفرنسية الاستعمارية في البحث والحكم عن أصل السكان الجزائريين ، وكان المفروض ان يتفطن الى أهداف هذه المدرسة ويستقل برأيه ، (المترجم) .

كمية قطرات الدم التي خلق منها البلدي (الحضري) والقبائلي والعربي • ان الدكتور شو قد قرر ، عندما وجد فى أهل البلاد (Moors) من كان أزرق العينين وأشقر الشعر ، انهم منحدرون من القوط ، ومن يقول له أنت مخطيء فى ذلك ؟ وخلال القرن السادس عشر أضاف الجيش الأسباني والأرقاء الأسبان وأتراك المشرق زيجات جديدة الى العناصر القديمة ، كما أن السنوات التي تلت ذلك شهدت أرقاء من جميع أنحاء أروبا من روسيا الى أنكلترا ومن اسكنديناڤيا الى صقلية ، مما زاد فى تعقيد خليط السلالات • ولعل عدم وجود الزنوج الا بأعداد قليلة فى الجزائر يثبت الواقع وهو أن لون بشرة الأهالي اليوم أقل سمرة من لون بشرة المغرب الأقصى حيث استعمل حكامه خلال القرن السادس عشر فرقة من الجنود المجلوبين من الجانب الجنوبي من الصحراء • ومهما كان الأمر فان الزائر لشمال افريقية اليوم سرعان ما يندهش من أن ملامح الوجوه واستدارة الرؤوس وغيرها من علامات الأصول السلالية التي يراها الانسان فى الشوارع وفى القاطرات ـ كلها تدل على أن السكان هناك لهم صلة بكل عرق فى المعمورة •

وفى مدينة الجزائر كان الأتراك هم الطبقة الحاكمة هم أعضاء فى جيش الاحتلال • فكل راعي بقر من أناضوليا أو من أهل جبال ألبانيا أصبح « أرفع وأقوى سيد » بمجرد وصوله الى الجزائر • ان هؤلاء الرجال الغلاظ وغير المهذبين ، بالاضافة الى الأعلاج الذين أصبحوا أيضا جزءا من فرقة الانكشارية ، هم الذين كانوا حكام المدينة • وهم وحدهم الذين يمكنهم الصعود الى مراتب السلطة فى الهيكل العسكري والسياسي للمجتمع • وقد وقفوا خارج النظام العادي للعدالة والعقاب المطبق على بقية السكان • وان أكثر الأوصاف التي نعت بها « الأتراك » ليست أوصاف مدح • غير أن بعضهم يبدو أنه قد تيقن أن حظوظ « أرفع وأقوى السادة » لم تكن حظوظا وردية كما ظهرت فى باديء الأمر • فهذا فرانسيس نايت (F. Knight) كتب فى أوائل القرن السابع عشر يقول :

« ان الانسان التركي هو الذي يحارب من أجل الجميع ، سواء في البر أو البحر ، ونظرا لسلطته كمحتل ، فانه كان يبقى على جميع السكان الآخرين تابعين له ، باعتبارهم أصحاب البضائع بطريق التصور ، أما الآخرون من الأهالي فباعتبارهم ملاكين للضروريات ، ذلك أن الأهالي (المور) والثغريين هم ملاكو الأرض والسفن وصانعوا الأسلحة الوحيدون منهم ... الذين أستطيع مقارنتهم بالبحر الأساسي ، أما الأتراك فكانوا عبارة عن سواق أو جداول صغيرة تصب في المحيط العظيم ، ذلك أنهم (أي الأتراك) الى جانب أجورهم وأسهمهم من الغنائم التي يحصلون عليها في البحر ، لا يتمتعون ... الا قليلا ، اذ لا تجلبهم في أحسن الأحوال الا الحانات والبغايا وأسافل الرذائل . ففي الصيف تجدهم عبيدا Toyles ودورة الحظ ... وليس لهم حق الاستعفاء الى أن يبلغوا سن التقاعد فيصيرون بولكباشية (أو كبار الميليشيا ــ الانكشارية) ... وهناك بعض الأتراك الأغنياء جدا ولكنهم قليلون . »

وبينما يعترف السيد تايت بأن اليولداش العادي كان هو نفسه عبارة عن عبد ، لا يجازي على خدماته ، بل يفترسه أولئك الذين يتصيدون رذائله ، نجد السيد دارفيو (D'Arvieux) الذي قد يكون تأذى من تعاليهم وجهلهم ، يخبر أن الميليشيا كانت تتألف من « صعاليك ، وعصاة ، وهاربين من دفع الديون أو من جرائم ارتكبوها ، ومن شبان رعناء يئس آباؤهم من اصلاحهم فأرادوا التخلص منهم ، وباختصار فهم حثالة أرض الله . » ان هذه الصورة بدون شك صورة غير مشرفة لأولئك الرجال الذين كانوا على رأس الحكم في الجزائر .

وان هذه الصورة يمكن تكبيرها أضعافا مضاعفة . وسيكون من غير الصحيح الا تضيف بأن هناك دلائل تدل أيضا على أن بعض أعضاء الانكشارية قد يكونون كرماء ولطفاء وجديرين بالاعتبار . وكان الأرقاء الذين يعملون في الثكنات غالبا ما يعاملون معاملة الزملاء أو الاخوة الصغار أكثر مما يعاملون كخدم .ولكن نفس الأعضاء قد يجبرون مسيحيا أو يهوديا على المشي في الوحل ، أو ينتظر الأسوأ عندما يقابلهم في

الشوارع • واذا حدث وضرب مسيحي أو يهودي أحد اليولداش ، بقطع النظر عن كون الأخير ما يزال واصلا الى الجزائر لتوه ، فان العقوبة هي الموت • ومعظم اليولداش ظلوا غير متزوجين وعاشوا عيشة جماعية في الثكنات التي لم تكن أكثر قابلية للسكن والراحة من الأحياء التي كان يسكنها الرهبان المسيحيون (في أروبا) • فطعام اليولداش كان يعده الأرقاء (المسيحيون) الذين كان عليهم أيضا أن يبقوا على المساكن نظيفة • وكان على أعضاء المليشيا الذين يتزوجون أن يجدوا منازل لهم في غير هذا المكان ، ولكنهم كانوا يحصلون على نفس كمية الخبز اليومية مثلهم في ذلك مثل اخوانهم في الثكنات •

وكثير من الكتاب ركزوا على وصف الناحية الاخلاقيـة لأعضـاء الانكشارية الذين كانوا يعيشون ، كما سبق ، عيشة جماعية • ومن المتوقع أن قوما غير متزوجين يعيشون في جماعة ، ومفصولين عن النساء قد يمارسون بعض الانحراف الجنسي • لقد كانوا متهمين بالاحتفاظ خفية بخليلات وبالتردد على المعاهر ، وفوق ذلك بممارسة الشذوذ الجنسي • ولكن بعض الكتاب تأثروا بسلوكهم الجيد • فهذا السيد طاسي مثلا يقول عنهم « ان لعبتهم الوحيدة كانت مع المرأة أو الشطرنج ، ولا يلعبون القمار مقابل الدراهم أبدا • » وكان طاسي يعتقد أنه بذلك يمدحهم • وعلق كل من هايدو ودان قائلا بأن أعضاء الانكشارية لم يكونوا يتفوهون بعبارات السباب ، رغم أن المرء يتساءل ما اذا كانت لغة هذين القسيسين (هايدو ودان) التركية جيدة بما فيه الكفاية بحيث تسمح لهم بفهم حديث اليولداش • فل كان هؤلاء شياطين عن حقيقة أو كانوا فقط شياطين عند الباب حيث أوقعهم مصيرهم ؟ ان هذا السؤال لا يمكن الاجابة عليـه الآن ، ولكننا نعرف أن معظمهم عاشوا في نفس الوقت عيشة خطرة وبسيطة وماتوا بدون ثروة غزيرة • ولم يكونوا يحصلون على أي زيادة مالية الا اذا ساعفهم الحظ ، وغنموا سهما من احدى الغنائم الكبرى وبقوا على قيد الحياة بعد التعرض لأخطار حملة قرصانية ، وفي هذه الحالة فقط يمكنهم أن يصرفوا تلك الدراهم على المتع التي جلبت عليهم نقمة الكتاب المسيحيين •

وبالاضافة الى المجندين من أراضي السلطان ، كان هناك مصدران لتنمية مليشيا الانكشارية : الأعلاج الذين يمكنهم أن يصبحوا أعضاء كاملين فى فرقة الانكشارية ويتقاسمون سوية كل شيء مع المجندين من أناضوليا وسورية ودلماشيا ، ثم الكراغلة الذين لم يكن مسموحا لهم بتولي المسؤوليات العليا سواء فى فرقة الانكشارية أو فى حكومة الايالة .

وكما لاحظنا فان الكراغلة كانوا هم أولاد الانكشارية من النساء الأهليات . وقد رحب الأهالي بهذا التحالف لأنهم بذلك يحصلون على « حامي » يحميهم من رجال المليشيا . وكان رجال الانكشارية يصاهرون لنفس الأسباب المختلفة التي كانت تدفع الناس دائما فى كل مكان : بعضهم من أجل المال ، وبعضهم من أجل الجنس ، ولعل بعضهم فعل ذلك أيضا من أجل العشرة والحصول على منزل . ولكن الكراغلة كانوا فى حد ذاتهم مشكلة . فمن الطبيعي أنهم كانوا يرغبون فى التمتع بامتيازات آبائهم ، غير أن الذين ولدوا بالاصالة أتراكا وكذلك الأعلاج المنضمين اليهم لم يسمحوا لهم بالعضوية الكاملة فى جماعتهم . وقد لاحظنا انه خلال النصف الأول من القرن (السابع عشر) ، أدت محاولات الحد من دور الكراغلة فى النهاية الى ثورة حاول خلالها بضعة آلاف من الكراغلة المؤيدين تأييدا ضعيفا من أهل زواوة وأصدقاء آخرين ، أن يستولوا على مقاليد السلطة فى الايالة . ولكن أغلبية الحضر (البلدية) بقوا محايدين ، ثم أن انفجارا فى مخزن البارود الموجود بالقلعة التي كانت فى أيدي الثوار ، قد وضع حدا للثورة . ومنذئذ لم يسمح للكراغلة سوى بالخدمة فى القوات المسلحة .

وقد لعب الأعلاج دورا أكثر أهمية من دور الكراغلة فى منظمة المليشيا (الانكشارية) وفى حكومة الايالة . لقد كانوا معا مصدر ثروة بشرية ومهارة كان المجندون من الشرق فى حاجة اليهما . ويجب التميز بين نوعين من الأعلاج . فمن ناحية هناك الأطفال المسيحيون الذين أسروا أثناء الغارات ثم بيعوا فى الغالب الى أحد الأعيان (السادة) الذي كان يربيهم فى منزله الخاص كما لو كانوا أولاده من صلبة . وكان هؤلاء الصبيان يجدون من السهل عليهم التخلي عن دين آبائهم ويعتنقون دين

سيدهم الذي كان يجعلهم فى كثير من الأحيان ورثة له • وهناك آخرون بالغون أصبحوا أعلاجا عندما يئسوا من الفداء وكانوا يأملون فى تحسين أوضاعهم بالتخلي عن عقيدتهم المسيحية • ومن بين هؤلاء كان هناك عدد من القساوسة الذين كانت معرفتهم باللاتينية وقدرتهم على الكتابة قد أهلتهم لمكانة رفيعة فى الحكومة • وهناك آخرون كانوا أرقاء وتخلوا عن عقيدتهم وانضموا الى الفرقة الانكشارية • وكان سيدهم له بعض الحقوق على مدخولهم الى أن يكون فى قدرة الرقيق شراء حريته • والنوع الآخر من الأعلاج يمثل الأروبيون المتسكعون الذين حضروا بأنفسهم الى مدينة الجزائر وتخلوا عن دينهم لأسباب واضحة وهي الأمن الشخصي • غير أن كثير منهم جاؤوا أيضا بمهارات الى الايالة وهي المهارات التي كانت غير موجودة فى المشرق • ففي أوائل القرن السابع عشر كان الأعلاج هم الذين علموا الجزائريين صنع السفن الطويلة والابحار بها والمغامرة بها حتى فى المحيط الأطلسي • ان أولئك الرجال لم يكونوا رجالا أتقياء ورعين يحاربون جهادا فى سبيل الله ، بل كانوا فى الواقع لا أكثر ولا أقل من قراصنة يجرون وراء حظوظهم تحت الراية الخضراء للجزائر ذات النجم اللامع بدل الجري وراءها تحت علم القرصنة (*) (Jolly Roger) وكانوا فى البداية يثيرون اضطرابات فى المدينة لأنهم لم يتخلوا بعد عن سلوكهم العاصف واللاأخلاقي • واذا صدقنا السيد مورقان فان أولئك الرجال كانوا حتى فى القرن الثامن عشر يشاهدون جالسين على الزرابي الغالية أو على الحصر يلعبون النرد والورق (الكارطة) ، أو يعزفون على القيثار ويغنون كالمسيحيين ، ولكنهم كانوا سكارى ثملين « مثل الخنازير » وكثير من الأتراك كانوا يسمون الأعلاج « أناسا بدون عقيدة » — فهم لم يكونوا مسيحيين ولا يهودا ولا مسلمين • ومع ذلك فان هؤلاء الرجال كانوا مفيدين • فقد كانوا يعرفون اللغات الأروبية ، وطرق الحياة الأروبية ، والمهارات الأروبية • ان صورة العلج كرجل مخمور مدمن على القمار ،

(*) — جاء فى القاموس أن هذا العلم كان أسود اللون تتوسطه جمجمة بيضاء مع عظام متقاطعة . (المترجم) .

غير مرغوب فيه في بلاده الأم قد تكون صورة حقيقية بالنسبة للبعض ولكنها صورة لا تمثل سوى شعارات فارغة بالنسبة للبعض الآخر .

ومهما كان الأمر فان حالة الأعلاج لم تكن بدون أخطار . فاذا ما أراد أن يعود الى عقيدته المسيحية فانه يكون قد غامر بأن يواجه موتا زؤاما على يد الجزار الجزائري . واذا ما أسره ربان سفينة أروبية وظهر عليه أنه علج فانه كان غالبا ما يواجه الشنق بدون محاكمة . ولذلك فانه لم يكن ليجرؤ ، حتى ولو كان هو ربان السفينة ، على التوقف في ميناء مسيحي خوفا من أسره و اعدامه . ان عبارة « علج » (أي مرتد) أخذت معنى العار في كل اللغات الأروبية ، ذلك أن المسيحيين لم يكونوا يفرقون بين مختلف المستويات في سلوك الرجل العلج .

ان سكان الجزائر من البربر أو من الحضر كانوا في أول الأمر هم البلدية (الحضر) الأهالي ، ونعني بهم سكان الجزائر الذين كانوا فيها عندما وصلها الأتراك ، ثم انضم اليهم مهاجروا الأندلس ، وأخيرا انضاف اليهم أهل الريف ، وخصوصا أهل زواوة ، وغيرهم ممن تسربوا اليها من المناطق الداخلية . ويخبرنا السيد دابر Dapper بأنه كان في مدينة الجزائر خمسة وعشرون ألف عائلة من الأهالي (*) فاذا قدرنا أربعة أشخاص على الأقل لكل عائلة فاننا نلاحظ أن الرقم المذكور (وهو خمسة وعشرون ألفا) قد يكون مبالغا فيه . ومع ذلك فان العائلات الأهلية كانت تمثل أغلبية السكان . وكان الأتراك ينظرون اليهم نظرة احتقار خفيف . ذلك أنهم كانوا لا يصلحون للجندية ، وغير قادرين حتى على الدفاع عن مصالحهم الخاصة . ونتيجة لحكاية تدور حول كوكبة من الحرس المؤلف من البلدية الذين أفزعوا ، دون شعور منهم ، مجموعة من الكلاب فأخذت في النباح فما كان منهم الا أن هربوا لا يلوون على شيء — فان الأتراك جعلوا من هذه الحكاية مثلا يقول : « اذا نبحت الكلاب هرب البلدية . »

(*) – يعني أهل الحضر أو (Moors) بدليل ما سيأتي .

والواقع أن المهاجرين من الأندلس ، سواء كانوا ثغريين أو أندلسيين ، كانوا أناسا أشداء ، حسبما علم المهاجمون الأسبان الذين كانوا غالبا ما يضربون القرى الساحلية الآهلة بهذه العائلات المهاجرة • ورغم أن هؤلاء المهاجرين كانوا قلة فى الجزائر فانهم مع ذلك كانوا أغنياء جدا ، فى أغلبهم ، وذلك ببيعهم الأرقاء الى عائلاتهم المسيحية فى أوروبا واستثمار النقود فى سفن قرصنة جديدة لأسر أرقاء آخرين • وكما هو متوقع فان السكان الأهالي كانوا متألفين من مختلف الفصائل الاجتماعية • فبعضهم كانوا تجارا أثرياء يملكون سفنا للقرصنة أو كانوا باعة الأجهزة اللازمة لهذه السفن • وبعضهم كانوا أصحاب حرف أو تجارا صغارا ، وبعضهم كانوا أصحاب مهن ، كما أن منهم من كان فقيرا جدا من حملة الأثقال ومن عمال الحقول الذين كانوا لا يكادون يفضلون الأرقاء بشيء • والملاحظ أن الكتاب المسيحيين لم يظفروا الا نادرا بالفرصة التي تجعلهم يتصلون اجتماعيا بالسكان الأهالي ، ولذلك فان معلوماتنا عنهم ليست سوى معلومات جافة ، معظمها غير جدير بالثقة •

وبالمقارنة فان العائلات المهاجرة من الأندلس لفتت اليها أنظار الرحالة والكتاب أكثر • فنحن نعلم من كتابات هؤلاء أن أولئك المهاجرين كانوا يخرجون الى البحر فى أساطيل قرصانية مهاجمة صغيرة ويغيرون على بلاد أجدادهم القديمة (الأندلس) بمهارة ودراية لا تأتي الا من معرفتهم بالبلاد • وجاء بعضهم الى المغرب العربي (شمال افريقية) بمهارات مختلفة الأوصاف ، مثل نسيج أقمشة الحرير والصوف ، وصنع الأسلحة ، وخدمة الجلود ، وتجارة المعادن ، وفى تونس قامت بعض المجموعات الموريسكية فى الواقع ببناء قرى كاملة على النمط الذي تركوه فى الأندلس ، وحافظوا فى ذلك حتى على أسماء الشوارع • واستمروا على استعمال اللغة الأسبانية فى بيوتهم • ونال الثغريون شهرة بدفاعهم المستميت والقوى ضد محاولات الانزال الأسبانية • فخلافا لعادة السكان الأهالي الذين كانوا يخرجون الى الجبال بمجرد ظهور العدو المغير ، فان الثغريين حاربوا بشدة وصمدوا حتى أرجعوا المغيرين القهقرى بعد خسائر فادحة من الطرفين •

وكان أهل زواوة وغيرهم من البربر الذين هاجروا الى مدينة الجزائر دائما يشكلون أقلية . ويقول (داير) عنهم أنه كان بالجزائر فى آخر القرن السابع عشر حوالي ستمائة عائلة زواوية فى المدينة . ولم يلعبوا سوى دور ضئيل فى الاقتصاد الأهلي ، وأقل من ذلك دورهم فى النشاط البحري (القرصنة) . وقد أخبر (مورقان) أن الأتراك كانوا يزدرون هؤلاء الجبليين ، ولكن هذا بدون شك وبكل بساطة هو رأي جيش الاحتلال نحو كل الرعايا فى الايالة .

واذا كان أحد اليهود الجزائريين قد كتب مذكرات أو تاريخا لقومه فى مدينة الجزائر ، فان كتاباته لم تصل الينا . ونتيجة لذلك فان يهود مدينة الجزائر غ يرمعروفين لنا الا من خلال كتابات المسيحيين عنهم ، وأغلبيتهم الساحقة كانوا معادين لليهود . ويخبرنا القنصل الأنكليزي سنة 1675 أنه كان بمدينة الجزائر عندئذ حوالي ثلاثة عشر ألف يهودي . وأغلب هؤلاء كانوا أهليين لأن أجدادهم كانوا بمدينة الجزائر منذ أمد بعيد . وكانوا فى الأغلب من أصحاب الحرف يعيشون فى أحياء قذرة Ghetto ويرتدون بدون تمييز الثياب السوداء ومن السهولة التعرف عليهم على أنهم يهود . أما بقيتهم فكانوا « يهودا مسيحيين أو أوروبيين » جاؤوا من اسبانيا أو البرتغال أو ايطاليا وكانوا يلبسون ثيابا « على الطريقة الأروبية » ومندمجين فى المجموعة الأروبية . وهذا الصنف من اليهود كانوا على صلة باخوانهم فى الدين فى فلورنس ومرسيليا ، وامستردام ، ولندن ، وغيرها . وقد كانت لهم سمعة سيئة لدى معظم الملاحظين الأروبيين ، ولعل سبب ذلك أنهم كانوا فى منافسة اقتصادية معهم . ويخبرنا أولئك الملاحظون أن اليهود كانوا خبثاء وحيالين وغشاشين وغير أمناء . وكان الفرنسيون متأكدين بأن هؤلاء اليهود كانوا على صلة قوية مع الأمير وليام أوف أورانج (W. of Orange) قبل وبعد صعوده على العرش الأنكليزي . وحتى ولو كان هذا صحيحا فان الملاحظين الأنكليز والهولانديين لم يكونوا أقل عداوة لهم من الفرنسيين .

ومن أسباب هذه العداوة أن اليهود استفادوا من نشاط القرصنة . فبعض الدراهم التي كانت ضرورية لتجهيز واصلاح سفن القرصنة جاءت

من التجار اليهود • وبعض البضائع التي غنمها قراصنة الجزائر يبعث لرجال الأعمال اليهود الذين كانوا يعيدون تصديرها الى ايطاليا ، والى فرنسا ، وحتى الى بعض الجزر الواقعة فى المحيط الأطلسي • وأخيرا فان هؤلاء اليهود كانوا مندمجين بعمق فى عمليات نقل دراهم الفداء من أوربا الى الجزائر وهي الدراهم الموجهة لتحرير الأرقاء وكانت هذه العملية الأخيرة عملية غريبة داخلا فيها دوق توسكانيا الذي كان يوفر « السجون » من أجل المحافظة على أمن الأرقاء الى أن تصل دراهم الفداء فعلا الى هدفها •

وهناك شكوى أخرى لأوربيي القرن الثامن عشر ضد هؤلاء التجار اليهود ، وهي أن حكومة الجزائر أصبحت عندئذ معتمدة على كثير منهم من أجل استقرارها المالي ، ونتيجة لذلك أصبح « المستشارون اليهود » يتمتعون تقريبا بحالة الوزارة السرية ، وهي الحالة التي كانت موضع حسد القناصل والتجار الأوربيين •

ولا شك أن هناك بعض الأسس الحقيقية لهذه العداوة التي نجدها مبثوثة ضد اليهود الجزائريين • فهذا الدكتور (اندرهيل) الذي ساعدته مهارته الطبية على توفير الدراهم الضرورية لفداء نفسه ، قد استعمل (فى الجزائر) خدمات أحد رجال البنوك اليهود الذي كان مدينا له مقابل العناية الطبية • ولسوء الحظ أن الرجل مات قبل المفاوضة على هذا العقد ، فما كان من ابنه الا أن رفض الاعتراف بالدين الذي كان على أبيه • وبعد ذلك بقليل سقط ذلك الابن مريضا ودعا الدكتور اندرهيل للعناية به • وقد تجددت المفاوضات من أجل دفع الفداء • ولكن التاجر اليهودي الذي دبر خروج الدكتور اندرهيل من الجزائر باعة خلسة الى سيد تونسي ! ولحسن حظ الدكتور اندرهيل أن السفينة وقعت فى أسر رجل حرب برتغالي وحصل على حريته • وقد عمم الدكتور اندرهيل ، كغيره الكثيرين ، تجربته السابقة ووجه لومه « للطابع اليهودي » فى كل ما وقع له من نكاد •

وهناك من عمم أيضا حول « الطابع اليهودي » ولكنه كان مهتما أكثر بمنافستهم . فهذا لومير (Le Maire) قد حث فى (10 أبريل 1734) الغرفة التجارية بمرسيليا على منع التجار اليهود من شحن البضائع الفرنسية فى أرصفة مرسى هذه المدينة ، فالنشاط التجاري هناك ، حسب رأيه ، يرجع الى الفرنسيين . وقبل ذلك التاريخ بقليل حث القنصل بوم Baume ، (5 أغسطس 1718) ، الملك على معاقبة اليهود الفرنسيين على النشاط « غير الشرعي » مع اليهود الجزائريين . وهناك آخرون يتفقون ، ببساطة ، مع الأتراك الذين كانوا يعتبرون اليهود « أقل من الكلاب » ان الآراء المضادة لليهود وسلوكهم لها جذور عميقة فى كل من الثقافتين المسيحية والاسلامية .

ومع ذلك فان الجالية اليهودية كان مسموحا لها أن تسير شؤونها الخاصة وأن تنظم قضاءها ومحاكمها ، باستثناء الحالات التي للمسلمين دخل فيها . فاذا حكمت محكمة اسلامية على أحد اليهود بالموت فانه يموت دائما حرقا عند عنود . وكانت الجماعة المسلمة تشترك مع المسيحيين فى العواطف المضادة لليهود حتى انه اذا رغب أحد اليهود فى أن يتخلى عن دينه ويصبح مسلما ، فانه يجب عليه أولا أن يعتنق المسيحية ، وبعد ذلك يمكنه أن يصير علجا (مسلما) .

وكل الكتاب تقريبا يتحدثون عن النساء فى مدينة الجزائر . وبعض من كان منهم رقيقا يؤكد لنا أنه يعرف عن كثب الموضوع الذي يصفه . أما الآخرون فيبدو أنهم يكررون أساطير مبتذلة أو خيالية . ويبدو أن أكثرهم كان يصف انطباعات تبدو للناظر أنها كانت انطباعات « خارجية » فقط . فالمفترض أن النساء البربريات الحضريات تبدو جميلات ، رغم أن معظم الملاحظين لم يروا سوى عيونهن . ويخبرنا أحد الفرنسيين بأنهن يظهرن بدينات ، وجاهلات ، وتحت تصرف أزواجهن . ويخبرنا الأرقاء من الرجال حكايات عن حالات الاغراء بهتك الأعراض فى البيوت ، وهو الاغراء الذي كان خطرا على حياة الرقيق الذي ، اذا قبض عليه متلبسا ، فانه يعاني موتا زؤاما حيث يعلق من صنارة حديدية يترك متدليا على

جدار المدينة . وتتحجب النساء « المحترمات » (الحرائر) في الشوارع ، ويبدو أنه من الصحيح أنهن ،كمثل حفيداتهن اليوم ، كن يصبغن شعورهن بالحناء ويكحلن عيونهن ويضعن المساحيق على خدودهن . وكانت الفقيرات منهن يلبسن أسمالا بالية ، بينما الغنيات منهن يرتدين الفساتين الفخمة . وربما يرى الزائر اليوم للقرى الريفية في الجزائر ، وتونس ، أو تلك القرى الواقعة في أعالي النيل ، نفس نوع المجتمع الذي شاهده أروبيو القرن السابع عشر والثامن عشر في ايالات المغرب العربي (شمال افريقية) . ولكن النفط والسيارة والكهرباء قد تحدث تغييرا في هذه الأنماط القديمة بسرعة .

وقد روى أحدهم ، بطريقة تنبيء عن الحسد ، أن رباط الزوجية يمكن حله بسهولة اذا قرر الزوج أو الزوجة أنه لم يعد رباطا مفيدا . فالرجل يمكنه بسهولة التخلص من امرأة « سيئة » (4) وهناك من يروي ببساطة أنه لم يكن هناك محبة بين الزوج والزوجة ــ فقط هناك العلاقة الجنسية والعائلة . ويصر طاسي على أنه لم يكن هناك من يهتم بما اذا كانت الزوجة لها انتماء ديني ، أو ما اذا كانت تملك أملاكا : فالرجل يمكنه أن يتزوج أي امرأة يرغب فيها . ويقص طاسي بأن الطقس قد أفسد النساء ، فأصبحن كسولات وبدينات ، وأن حديثهن لا يتعدى لذات الجنس ووسائل ادخال السرور على الرجل . ويخبرنا أيضا أن الأطفال يحترمون آباءهم ويحتقرون أمهاتهم . وقد أعاد طاسي ، الذي هو فرنسي ، الى الأذهان الحكاية القديمة من أن عروج قتل « ملك » مدينة الجزائر لأنه رغب في زوجته ، وقال بأنها حكاية صحيحة . ولعل شواهده الأخرى التي جاء بها حول النساء الأهليات مصنوعة من نفس القماش . ومن الغريب أنه بينما يخبرنا طاسي عن اغراءات النساء للرجال يخبرنا نايت Knight عن « طمعهن ووقاحتهن » وأنه لم يكن لهن أي تردد ضد القتل . ويخبرنا رجل فرنسي آخر بأن التركي في الجزائر لا يمكنه أن يتزوج من فتاة أهلية الا بعد الموافقة على دفع المبلغ الذي طلبه أبوها ،

(4) B.N., Mss. Franc. N. A., 4294.

وهو عكس ما يجري فى فرنسا تماما . وختم كلامه بقوله بأن المرأة فى الجزائر أكثر قيمة منها فى فرنسا . (5) وجميع الكتاب متفقون على أنه كان للأتراك مشكل خاص مع النساء . ذلك أنه لم يكن هناك تركيات فى الجزائر . واذا تزوج أحد الأتراك من امرأة بلدية فان هناك مشكل السكن ، كما أن الأطفال يصبحون كراغلة . غير أن الأطفال الذكور من امرأة خليلة يصبحون أهليين مثل أهل البلاد ، أما اذا تزوج التركي من رفيقة مسيحية فان أبناءهما الذكور يصبحون « أتراكا » وبناتهما يصبحن أهليات .

ويشكل الأرقاء فى الجزائر قطاعا كبيرا من السكان . ورغم أن الأغلبية منهم كانوا أسبانيين أو ايطاليين فان هناك أيضا أرقاء من كل أنحاء أوروبا . وأغلبهم كانوا من الرجال ، غير أن الغارات على المراسي وأسر القراصنة للنساء المسافرات أحيانا أدى الى وجود عدد من النساء الأوروبيات فى الجزائر ، ولو كان قليلا . وما دمنا سنخصص فصلا كاملا من هذا الكتاب لمشكل الأرقاء ، فانه يكفي الآن أن نلاحظ أن وضعهم كان مختلفا كثيرا . فبعضهم كان يعمل جدافا فى البحر ، وبعضهم عملوا فى مقالع الحجارة ، وفى المزارع ، وشق الطرق ، أو عمليات البناء . غير أن هناك من كانوا خدما مترفين ، عاملين فى البيوت كأفراد من العائلة ، مرتدين ثيابا فاخرة وكان عملهم خفيفا ، وقد يكون أيضا عملا هاما . وكان آخرون يديرون الخمارات ، أو كانوا أصحاب حرف ، وحتى نظارا وصناعا مهرة فى أحواض صناعة السفن . وكان فى مدينة الجزائر من هؤلاء الأرقاء حوالي خمسة وعشرين ألف فى منتصف القرن السابع عشر ، جاؤوا من مختلف قطاعات الحياة ، من النبيل الى الفلاح ، ومن الطبيب الى السقاء . فليس من الغريب اذن أن يكون حالهم فى الجزائر مختلفا كاختلاف أصولهم .

ومع وجود كل هذه الفئات المتنوعة كان هناك حتما مشكل اللغة . فالانكشارية وكبار الرسميين كانوا يستعملون اللغة التركية ، لقد كانت

(5) B.N., Mss. Franc. N.A., 4294 Fol. 118.

هذه اللغة هي اللغة الرسمية في الديوان وفي كل الاتصالات الحكومية (باستثناء الحالات التي قد تحتم فيها كتابة رسالة بلغة اروبية) • وكان أعضاء الانكشارية الذين لم يتعلموا التركية وهم أطفال (مثل الأعلاج وأهل دلماشيا) عليهم أن يتعلموا منها ما يجعلهم قادرين على العمل بها ، ولكن المتكلمين بغير التركية ، الذين كان عليهم أن يظهروا أمام الديوان لأي سبب ، يجدون المترجمين متوفرين • وبناء على روايات شو ودان ومورقان وغيرهم فقد كان هناك عدد من اللهجات البربرية ، بالاضافة الى اللهجات العربية التي تتحدث بها القبائل في المناطق الداخلية • واللغة العربية في الجزائر ، بالمقارنة الى تلك التي يتحدث بها أهل تونس حيث السكان العرب أكثر تحضرا ، تبدو مبتذلة بالنسبة للاروبيين الذين يعرفون اللغة العربية المستعملة في المشرق • ويبدو أن اليهود كانوا يستعملون فيما بينهم العبرية ، بينما يستعملون خليطا لغويا (لانقا فرانكا) Lingua franca عندما يتحدثون مع الآخرين • وهذا الخليط اللغوي يكاد يكون لهجة عامة • فقد كان مزيجا من الأسبانية والبرتغالية والايطالية والفرنسية ، وتشكل الأسبانية فيه الجزء الأكبر • وما دام هناك الكثير من الأرقاء الذين لا يجدون صعوبة مع هذه اللهجة ، وما دام كثير من سكان الجزائر عليهم أن يتعاملوا مع هؤلاء الأرقاء بطريقة أو بأخرى ، فانه يمكن القول بأن هذه اللهجة (لانقا فرانكا) كانت هي لغة الجزائر • (*) وهناك أيضا أرقاء أنكليز وألمان وصقالبة ويونان وغيرهم من سكان أنحاء أروبا ، ولكنهم لم يستطيعوا فرض لغاتهم على مدينة الجزائر •

ومعظم الملاحظين ، من هايدو الى بارادي Paradis ، امتدحوا القضاة الذين يحكمون في القضايا المدنية • وكانت الشريعة الاسلامية هي دليلهم في ذلك ، ولكن القضاة اجتهدوا فيما يبدو ، رأيهم أيضا واستعملوا في أحكامهم معايير أساسية للعدالة • وكان الشرع يطبق بسرعة وبانصاف وبتكاليف قليلة • ويقول دراقيو : « انه من العجب

(*) ــ لا شك ان المؤلف يقصد بذلك اللغة الشائعة في مدينة الجزائر • اما الجزائر القطر فلغته الشائعة والمشتركة هي اللغة المستمدة من لغة القرآن • (المترجم) •

أن شعبا فى تلك الحالة من القساوة والغلظة يحافظون على النظام والعدالة فى لصوصيتهم ... وبينما هم غير عادلين مع أي كان ، فانهم يمارسون العدالة مع أنفسهم ، » ونفس هؤلاء الكتاب يخبروننا أيضا كم كان القانون الجنائي قاسيا . ذلك أن مائة جلدة أو أكثر على قدم الانسان اما تؤدي به الى الموت واما الى فقد القدم مرة واحدة . ويعتبر من الأمور الشائعة الحكم بالحرق حيا ، والتدلي من مخطاف فى جدار المدينة ، وقطع الرأس والخنق . وكان الانكشاري الذي ارتكب جريمة يحاكم من قبل محكمة خاصة ، واذا وجد مذنبا فانه يحكم بخنقه أو قطع رأسه فى هدؤ بعيدا عن أعين الناس . أما الآخرون فجميعهم ينفذ فيهم الحكم أمام الملأ . (*)

وهناك اختلاف بين الكتاب عن عدد الجرائم بالمدينة . ويقول درافيو ، الذي يبدو أن شهادته تتفق مع أفضل شواهد الكتاب الآخرين ، بأن « الأهالى هم لصوص بالطبيعة ، وأن الأرقاء المسيحيين يقلدونهم بدقة — بل قد يفوقونهم فى ذلك . ذلك أن جميع الأرقاء لا تغلق عليهم الأبواب بالليل . وبعضهم كانوا يسكنون مع مالكيهم ويمكنهم الخروج حسب ارادتهم . وهم يمشون فى جماعات ، ويدهمون الدكاكين ، ويفرغون ما فيها خلال ساعات قليلة ... واذا ما قبض عليهم فانهم قلما يعانون أكثر من ضربات بالعصا » ونحن نعلم أن السرقة بالنسبة للرقيق لا تعتبر كبيرة من الكبائر مثل محاولة الهرب . ويعتقد بعض الملاحظين أن بعض أسياد أولئك الرقيق كانوا يشتركون معهم فى الغنيمة المسروقة . (**)

فاذا غادر المسافر مدينة الجزائر متوجها الى المناطق الداخلية فانه يجد نفسه فى بلاد بكر آهلة بأناس ما يزالون يعيشون عيشة بدائية . وهناك عدد كبير من القبائل البربرية والعربية كانت تعيش تحت حكم شيوخ

(*) — ان القانون الجنائي الاروبي ، ولا سيما البريطاني ، كان عندئذ معروفا بالغلظة واللاانسانية ، وأي مقارنة بينه وبين الشريعة الاسلامية اذا طبقت تطبيقا عادلا ؟ ولا شك أن بعض الأحكام التي ذكرها المؤلف ليست من الشريعة في شيء . (المترجم) .

(**) — هذا غمز واضح من شرف المجتمع الجزائري ، ولكن المؤلف لم يقدم دليلا على ذلك ، وكأنه يريد أن يقول ان الارقاء كانوا مدفوعين الى السرقة من أسيادهم . (المترجم) .

أو « ملوك » منها هي . وبعض هذه القبائل كان يعيش عيشة شبه رحالة . فكانوا يقيمون فى قرى خشنة مدة لا تتجاوز فترة حصادهم لمحصول ضئيل من الحبوب ؛ ثم يلتحقون بقطعانهم فى الموسم غير المناسب للزراعة . وكان بعض هذه القبائل يعيش فى المناطق الجبلية حيث التحصن بها قد ضمن لهم درجة كبيرة من الاستقلال . وهناك قبائل أخرى ، مثل ما كان الحال فى بلاد زواوة تكاد تكون مستقرة فى قرى متباعدة عن بعضها تسمى (دشرات) (*) ذات بيوت مبنية بالطين أو الحجر وكانت زراعتهم تقدم لهم بعض الفائض من الحبوب والشمع والجلود والألياف التي كان بامكانهم بيعها الى الفرنسيين فى الحصن المعروف بحصن فرنسا ، أو الى التجار العرب فى مراسي المدن الصغيرة ، وذلك للحصول على الدراهم لشراء الاسلحة والبارود وغيرها من الكماليات التي لا يمكنهم انتاجها بأنفسهم . وهناك أنواع وأشكال من الناس فى هذه الدشور (القرى) : فبعضهم كانوا غارقين فى البدائية ، بينما كان آخرون ، مثل أولئك الذين يعيشون من نسخ القرآن للقراء المسلمين ، كانوا متقدمين نسبيا فى نموهم الثقافي . وفى المناطق الداخلية ، وكذلك على الحدود الصحراوية ، كان الرحالة من العرب والبربر يجوبون الأرض بقطعانهم ويعشون فى خيام مصنوعة من الشعر . ويخبرنا شو أن هذه القرى المنكودة المسماة (دواوير) تنقل من مكان الى آخر فى وضع شبيبة بما كان يفعل بنو اسرائيل فى عهد يعقوب ثم فى عهد موسى .

وكان الأب دان من أوائل الأوروبيين الذين تعرفوا على الفرق بين الأعراب والحضر (Moors) . وهو يسمي الأولين « الرحالة الدائمين » الذين كانوا يعيشون فى الخيام وينتقلون من مكان الى آخر . وكان الحضر يبغضونهم ، وقد فشلوا فى القضاء عليهم ، وكانت عاداتهم ولغتهم وملامحهم مختلفة اختلافا كبيرا . ويبدو أن دان قد زار فعلا عددا من هذه الدواوير الأعرابية ، كما يبدو أنه كان قد أعجب بافتقار الأعراب الى الطموح الأمر الذي جعلهم يعزفون عن الحياة الدنيا . وبعد مرور حوالي مائة سنة على حديث دان ، يخبرنا شو ، الذي كانت معرفته

(*) ــ كتبها المؤلف دسكرات (daskarats) (المترجم) .

اللغوية وتجاربه فى الرحلات كرحالة تجعله مصدرا جيدا ومناسبا ، بأن الأعراب كانوا قوما كسلاء ، فالأعرابي كما يقول ، « لا يتبع تجارة أو وظيفة منتظمة • وتعتبر حياته دورة لا نهاية لها من الفراغ واللهو ••• فهو فى البيت متكاسل ، مدخنا غليونه ، ومسترخيا ••• وليس له رغبة فى المسليات المنزلية ، وكان نادرا ما يتحادث مع زوجته أو يلعب مع أطفاله • » ويصر شو على أن النساء الأعرابيات كن سمراوات وملازمات لبيوتهن ، بينما كان البربر ذوي بشرة خفيفة ، وكانت نساؤهم جميلات ، « على الأقل الى سن الثلاثين • » ويقترح شو بأن البربر (وهو يعني قبائل زواوة فى هذه الحالة) لابد أن يكونوا منحدرين من الافريقيين القدماء » ، ولم تكن لغتهم هي اللغة العربية ، بل انهم كانوا يستعملون لهجة أخرى صعبة لابد أنها كانت تعود الى ماض بعيد • ان رحلات شو فى شمال افريقية وكذلك فى المشرق تقدم مصدرا مكتوبا هاما لكل من ينشد فهم أحوال تلك البلاد فى أوائل القرن الثامن عشر •

وماذا كانت العلاقة بين هؤلاء الناس وأسيادهم الأتراك فى الجزائر ؟ انه بنهاية القرن السادس عشر بسطت حكومة الايالة سيطرتها على المدن الساحلية ، بالاضافة الى المدن الداخلية الهامة • وكان البايات بتأييد من حاميات انكشارية ، قد نصبوا القياد (الحكام) فى المدن الرئيسية لتأكيد سلطتهم ، ولكن حكم داخل البلاد بقي مشكلة قائمة • فهذا لانفريدوشي Lanfreducci ، الذي كان يكتب فى العشرية الثمانين من القرن السادس عشر ، يوضح ذلك بقوله : « ان الأتراك ليس لهم سيادة على داخل بلاد شمال افريقية باستثناء بعض الرؤساء العرب والبربر الذين هم على اتفاق معهم والذين كانوا يدفعون اليهم ضريبة ثمنا للسلام ••• وتؤكد معلوماتنا أنهم غاضبون منهم جدا ••• ان الرجل التركي قد نصب نفسه حملا ثقيلا على أكتافهم من أجل ابتزازات كثيرة • » (6) وبعد قرنين ، يخبرنا بارادي بأن بلاد زواوة لم تكن فى يوم من الأيام تحت حكم الأتراك الفعلي ، وهم الآن أكثر استقلالا ما داموا يملكون الأسلحة النارية •

6 ـ المجلة الافريقية ، LXVI ، ص 549 •

والطريقة الوحيدة التي كان التركي قادرا بها على فرض حكمه هي فيما يظهر ، تفضيل عنصر على آخر أو قبيلة ضد أخرى • (7) وفي سنة 1830 عندما وقع الداي حسين السلام مع الفرنسيين « لم يسلم المنتصرين الا المدينة (الجزائر) والقصبة والحصون • وباعتباره صاحب سيادة منتخبا من قبل جنود أجانب فرضوا اختيارهم على ساحل شمال افريقية ، فانه لم يكن له السلطة للتصرف في المملكة التي لم تكن ملكا اقطاعيا ينتقل بالوراثة الى عائلته ••• » (8) لقد كان السكان البربر سنة 1830 على يقين من أن الاتفاق العسكري يوم 5 يوليو لا يعنيهم في أي حال من الأحوال •

لقد كان ذلك هو نمط العلاقة خلال تاريخ الايالة كله • وأن قصة هذه العلاقة مليئة بالثورات ضد الحكم التركي ، وبالحروب مع أهل زواوة ، وغيرهم من القبائل ، وغزوات فرق الانكشارية لفرض الانضباط • ومع ذلك ، فان القنصل الفرنسي أمكنه الكتابة سنة 1700 ، قائلا : « من الممكن أن لا تعرف أن سكان الجزائر (Moors) — وقبائل البربر هم المور عند الفرنسيين — من بجاية الى جيجل ، لا يعترفون بأي حكم ، ولا يدفعون ضرائب لحكومة الجزائر ، وأن الأتراك لا يجرؤون على وضع أقدامهم بمعسكراتهم هناك • وعندما تصطدم سفينة جزائرية على ذلك الساحل ، فانهم (أي الأهالي) يحطمونها قطعة قطعة ويقتلون طاقمها ! » ويقص دارفيو قصة شبيهة بهذه : ففي بجاية هناك مائة وخمسون انكشاريا ، ولكن هؤلاء لا يجرؤون على مغادرة المدينة في أعداد صغيرة لأن الأهالي (المور) سيمزقونهم اربا اربا ، ولا يرحمونهم • ولا وجود للسلام الا أيام السوق • ان السوق الذي ينعقد عند باب المدينة كان مكانا للهدنة ، على الأقل حتى الظهر ، عندما ينتهي السوق • وكثير من المراسلات القنصلية تقص نفس القصة : فالباشا ، ثم بعده الداي ، لا يمكن

---

7 — المجلة الافريقية ، XLI ، ص 76–77 .

8 — لويس رين L. Rinn ، المملكة الجزائرية في عهد الداي الاخير ، المجلة الافريقية ، XLI ، ص 121–122 .

يبدي حقا سلطة فعالة على القبائل العديدة . ففي كل سنة تخرج فرقة الانكشارية وتقوم « بغزوة » ف المناطق الداخلية لجمع الضرائب . وكانت هذه العملية دائما تقريبا عملية يكثر فيها الاضطراب ، وغالبا ما يرافقها عنف شديد . وبحلول القرن الثامن عشر أنشأت الايالة الجزائرية قلاعا ، أو ابراجا على طول كثير من الطرق الرئيسية . ورغم هذا النوع من الضغط العسكري فان السلطة التركية غالبا ما تجاهلها الناس ، وقد يصح القول بانهم كانوا ف معظم الأحوال يتجاهلونها ، الا اذا كانت مؤيدة من قبل فرق عسكرية قوية .

ولكن كان للأتراك امتياز عسكري . ففي القرن السادس عشر لم يكن للقبائل البربرية والعربية معرفة بالأسلحة النارية . وكان الرمح والسيف لا يقفان ف وجه السلاح الناري الأكثر انضباطا عند الانكشارية ، وكثيرا من تجمعات الفرسان يمكن تشتيتها بسهولة ، كما وقع فعلا ، بالطلقات المركزة من بنادق الانكشارية . وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حصلت القبائل العديدة على الأسلحة : ولكنهم كانوا ما يزالون يحاربون على ظهور خيولهم وكانوا كذلك يعتمدون على هجومات جماعية غير منضبطة . وكان الأتراك يجابهونهم بالنار من المدفعية الخفيفة ويجبرونهم ف العادة على التراجع بخسائر فادحة . ان هذا التفوق ف السلاح الناري ، وانشاء الأبراج على الطرقات الرئيسية ، والابقاء على الحاميات ف البايليك (أو الأقاليم) جعلت ف امكان حكومة الايالة ان تجمع الضرائب بشكل يكاد يكون منتظما ، من كل البلاد ، ولكن بدون تدخل جدي ف حياة السكان ومعيشتهم .

ان هذا التحليل القصير للنظام الاجتماعي الذي كانت عليه الايالة لا يمكن الا أن يعطي صورة عن السطح فقط من هذه القصة المعقدة ، ولكن يمكن أن يقدم صورة لمجتمع جعلت أنماطه الاجتماعية التقليدية العريقة ذات التنوع الكبير ــ جعلت من الصعب ، ان لم يكن من

المستحيل ، على اي حاكم ان يؤسس مجموعة متناسقة ومتماسكة .(*)
وحتى الطرق الدينية الاسلامية التقليدية لم تكن كافية لخلق وحدة من مجتمع تجمعت فيه روافد كثيرة ومتنوعة من الدم والثقافة ، بالاضافة الى الوسائل البدائية من وسائل النقل والاتصالات ، وكلها متضافرة جاءت عوامل نافية للمحاولات غير المجدية التي قام بها الحكام الاتراك لاعطاء وحدة سياسية للمجتمع . لقد بدأت الايالة الجزائرية في صورة قوة مفروضة لجيش احتلال بسط نفسه على قطر له خلفية سياسية واجتماعية متنوعة تنوعا عجيبا . وما دامت هذه الطبقة الحاكمة من المشارقة والأعلاج لم تستطع ابدا أن تدمج السكان البربر والعرب المنتشرين في الجبال والسهول والصحراء في وحدة مترابطة ومتناسقة ، يتحدثون لغة مشتركة في السراء والضراء ، ولهم تصور مشترك للنظام الاجتماعي ، فان حكم الايالة احتفظ خلال كل تاريخه بطابع جيش احتلال لا طابع دولة .

(*) – يدل تحليل المؤلف هنا على انه يساق مع التحليل الفرنسي الاستعماري الذي كان يهدف الى نفي وجود وحدة سياسية وتماسك اجتماعي للجزائريين قبل الاحتلال الفرنسي ، وهو التحليل الذي كان منظروا الفرنسيين يهدفون من ورائه الى طرح نظرية الاندماج من جهة ومقاومة تيار الحركة الوطنية من جهة أخرى . (المترجم) .

الفصل السابع
رياس البحر

البحارة أو القراصنة : ما الفرق الذي كان بينهما ؟ ان القرصان هو الشخص الذي كان حرا فى النهب ، ولا يعترف بأي سلطة فوق ارادته الخاصة . فقد كان يهاجم ، بدون تمييز ، سفن أية دولة . وكان هدفه الوحيد هو النهب ، ولكن رياس البحر ، كانوا أشخاصا موكلين من غيرهم للقيام بهذه المهنة . ولم يشنوا حربا الا على أعداء أميرهم أو ربهم . وكانت مهمة سفينة رياس البحر ، مثل مهمة سفينة القرصان ، عبارة عن القيام بعملية مغامرة ، أكثر مما هي مهمة للصالح العام ، غير أن رايس البحر كان يقوم بمهمة تعطي طابع الشرعية لنشاطه ، ثم أنه كان يتصرف فى غنائمه بطريقة ينظمها الأمير التابع له . وفى القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، حين كان الهلال يقف فى وجه الصليب فى البحر الأبيض وأحواض نهر الدانوب ، كان البحارة يحاربون اما باسم الصليب واما باسم الجهاد . فهؤلاء فرسان القديس يوحنا نصبوا أنفسهم فى جزيرة مالطة ، وفرسان القديس ستيفان فى توسكانيا ، بينما كان البحارة الخواص من المسيحيين قد تجندوا من قبل خلفاء الملك الأسباني وكذلك أمير مالطة ، وانطلقوا الى شرقي البحر الأبيض للاستيلا ءعلى السفن التجارية وركابها وربانيها . وقد جعلوا البحر غير آمن على الحجاج المسلمين بالاضافة الى التجار الذين يعبرون مياه المشرق ، وكانوا على يقين من أن الله كان يبارك أعمالهم . ونفس الشيء يقال عن البحارة الذين انطلقوا من شمال افريقية والبلقان ، والمشرق والذين كانوا يفترسون التجارة

المسيحية ويتلفون مظاهر الحياة على السواحل المسيحية ... وكل من الانجيل والقرآن يحرم القرصنة ، وكلاهما يبارك الحرب المقدسة . ويبدو أن اله المسيحيين واله المسلمين يوافقان على أعمال البحارة — القراصنة لأن الثروة قد انهالت عليهم كالمطر فى هذه الدنيا ، بالاضافة الى حصولهم على وعود الخلاص فى الآخرة . وفى آخر القرن السادس عشر ، عندما دخلت السفن المسماة بالمدورة ذات الأشرعة الطويلة — (وهي (Bertones) من الشمال — عندما دخلت تلك السفن البحر ، أضيف تعصب وشره أوربا البروتيستانية الى تعصب وشره الشعوب الكاثوليكية والاسلامية فى حوض البحر الأبيض ، وأصبح أحيانا من الصعب عندئذ أن تميز ما اذا كان المهاجمون يقومون بمهمة البحارة أو يلعبون دور القرصان . ورغم أنهم قد يخفون نشاطهم تحت راية الدين أو راية أميرهم ، فان كثيرا منهم ، فى الواقع ، كانوا مجرد قراصنة رافضين لأي قانون غير ارادتهم الخاصة . ونحن فى هذا المجال لا يهمنا سوى نشاط وسلوك أولئك الرجال الذين رفعوا راية الجزائر المؤلفة من علم أخضر مرصع بالنجوم ، ولكن يجب علينا ان لا تنسى انهم لم يكونوا سوى جزء من حروب القرصنة التي جعلت البحر الأبيض محفوفا بالأخطار على كل من المسيحيين والمسلمين على حد سواء .

وعندما نفكر فى البداية فى أوائل البحارة المسلمين تقفز الى أذهاننا صورة عروج رايس ، أو خير الدين بربروس ، أو درغوث ، أولئك الذين قادوا أساطيل مؤلفة من عشرة الى خمسة وعشرين سفينة من نوع الغلياطة ، والأبريق ، والزوارق (fusts) والغاليات ، حتى أن موكبهم البحري كان يغطي جزءا عريضا من البحر وكان يمكنهم أن يعترضوا طريق أية سفينة قد تحاول الهروب من شباكهم . غير أن البحارة الأوائل الذين نعنيهم بالدراسة الآن كانوا رجالا لا تعني أسماؤهم سوى القليل بالنسبة لمسيرة التاريخ وحتى بالنسبة لتواريخ جماعتهم الخاصة . انهم أولئك المهاجرون من الأندلس الذين رفضوا اعتناق المسيحية . وقد عرفنا أنهم عندما وصلوا الى مراسي شمال افريقية أول مرة لم يجدوا الكثير مما يمكنهم عمله لمعاشهم . وكان بعضهم قد وجد مكانا فى دورة الحياة الاقتصادية المحدودة على الساحل : فقد كان بامكانهم أن ينشئوا ورشات

لصناعة الأسلحة ، والأقمشة ، والمصنوعات الجلدية ، أو غيرها من المواد التي كانوا يصنعونها بالأندلس • وكان بعضهم قد أصبحوا مرتزقة فى خدمة سلاطين مراكش أو فاس ، وبعضهم انطلق الى البحر كبحارة راغبين فى الثأر لأنفسهم من مضطهديهم السابقين • وفى القرن السادس عشر كان هؤلاء يبحرون بسفن (1) من نوع الفرقاطة تشبه تلك التي كانوا يعرفونها فى الأندلس ، وهي سفن مسلحة بستة الى عشرة مقاعد تجديف ، وبمجاديف يجدف بها نفس الرجال الذين يحاربون • وكانت ضحاياهم هي مراكب الصيد الصغيرة ، والزوارق الساحلية الصغيرة ، والسفن التجارية غير الهامة التي تحمل الحبوب ، والخمور ، والفواكه ، والأقمشة من مرسى ساحلي الى آخر •

وقد رأينا أن غاراتهم لم تتسبب فى ردود فعل قوية من جانب الملوك الكاثوليكيين الى العقد الأول من القرن السادس عشر حين استولت الأساطيل الأسبانية على موانيء ساحل الشمال الأفريقي وأنشأت مقيميات أو بينيون Peñons فى الموانيء الهامة من فاليز Valez (بادس) الى طرابلس لكي تراقب « القراصنة » • ان هذه المقيميات ربما منعت البحارة الصغار من الحاق أضرار كبيرة بالتجارة الأسبانية لأن المدافع الأسبانية منعتهم من استعمال أحسن الموانيء على الساحل • وربما كان بامكانهم أسر صياد سمك أو الاستيلاء على زورق صغير أو حتى الاغارة على احدى القرى ، ولكنهم قد لا يشكلون خطرا كبيرا على المصالح التجاريـة الأسبانية الهامة • وحتى بعد أن انضم البحارة المشرقيون الى الجهاد على رأس سفن أقوى من السابقة ، فان هذه الفرقاطات الصغيرة لم تكن سوى مزعجات لحكام الممالك الأسبانية • ويخبرنا هايدو أنه عندما أصبح هؤلاء البحارة الذين لا أهمية لهم ، أغنياء ، انتقلوا من فرقاطاتهم الصغيرة الى السفن من نوع الابريق ، وحتى الى نوع الغلياطات ، لكن قائمته هو الخاصة بالرياس الذين كانوا موجودين أثناء زمانه ، تكذب هذا الادعاء ،

---

1 ـ انه يجب عدم الخلط بين سفينة الفرقاطة المدفوعة بالمجاديف ، وفرقاطة القرن الثامن عشر التي كانت تحمل من عشرين الى اربعين مدفعا وكانت مجهزة بالشراع ، ويبدو أن النوع الاول كان هو النموذج لهيكل النوع الأخير •

ذلك انه لم يكن هناك سوى عدد قليل من الثغريين أو المدجريس mudejares (وهم ال Moors المغاربة (*) من اندلوسيا ، وبلنسية ، وكتالانيا) بين الرياس الذين قادوا السفن الحربية العامة للجزائر .

ولكن عندما ظهر البحارة المشارقة فى وسط وغرب البحر ، حدثت تطورات جديدة . ذلك أن هؤلاء الرجال قد جاؤوا بسفن أكبر حجما وكذلك ابرنقيات وزوارق ذات عشرة الى ستة عشر مقعدا للتجديف ، وكانت أكثر تسليحا ، كما كانوا هم أفضل تدربيا على فنون الحرب البحرية . فكانوا يفهمون استعمال المدفعية والقربينات بالاضافة الى استعمال القوس والنشاب والصلب سريع والانكسار . ومن جهة أخرى فانه كان لهؤلاء قائد مثل عروج الذي اجتمعت فيه الشجاعة والمهارة كما اظهر ذلك فى مهنته مبكرا حين أسر سفينتين كبيرتين من سفن البابوية . وحين ازداد عروج ثروة ، أضاف هو واخوته سفنا أكبر حجما الى أسطولهم : غليوطات ذات العشرين والاثنتين والعشرين مجدافا التي لها من القوة بحيث تضاهي كبريات سفن أسطول جنوا أو صقلية . وقد سبق لنا أن لاحظنا أنه كلما انتشرت سمعته نحو المشرق ، جلبت رجالا آخرين جسورين أيضا للانضمام اليه . وكثير من هؤلاء كانوا مثل عروج نفسه ، قد عملوا بعض الوقت فى مجاديف السفن المسيحية (فرسان القديس يوحنا) حيث تعلموا عن الحرب البحرية ، وهناك آخرون منهم كانوا قد تدربوا كنواب لعروج واخوته . ولعل بعض الرياس الأوائل كانوا من الأعلاج ، فنحن لا نملك شواهد يعتد بها حول معظم الرجال الذين رافقوا عروج ، أو حتى خير الدين فى البداية . ومن يستطيع أن يعرف من أين جاء هؤلاء البحارة أوائل القرن السادس عشر ؟ ان حياة المشاهير منهم محفوفة بضباب الأسطورة ، وعبادة البطل ، أو الكراهية ، وذلك حسب المصدر الذي ترجع اليه ، ولذلك فانه لا يمكن ايجاد تقدير حقيقي عن أصولهم . غير أنه بأواخر القرن

(*) — ترجمنا كلمة Moors هنا بالمغاربة وليس بالحضر ، لأن المؤلف يتحدث عن بعض أصل سكان الاندلس ، ونلاحظ أن المؤلف يستعمل كلمة (الاندلس) للجزء وليس للكل كما هو الشائع عندنا نحن العرب المسلمين (المترجم) .

السادس عشر ، عندما كان هايدو في مدينة الجزائر ، كان الأعلاج يشكلون حوالي ثلثي الشخصيات القيادية في أسطول البحارة ــ القراصنة فمن جملة ستة وثلاثين رايسا يقودون السفن بأكثر من خمسة عشر مجدافا ، كان اثنان وعشرون منهم من الأعلاج . وان نظرة فاحصة اليهم تؤكد أن كثيرا منهم قد أصبحوا أعلاجا وهم أطفال . (*) وهذا يبرهن على وجود بعض الرياس الأعلاج . غير أن آخرين كانوا مثل علج علي الشهير ، الذي كان مسترقا في سفينة وأصبح مسلما أثناء نضجه الجسماني ، لكي يكون قادرا على الثأر لنفسه من تركي كان قد أهانه . غير أن معظم الرجال الذين شاهدهم هايدو ، ودان في مدينة الجزائر كانوا خليطا دوليا ترجع أصولهم الى الأسطورة والخرافة . ونحن نعلم أن الأعلاج ، بينما انحدروا من جميع أنحاء أوروبا الغربية ، كانوا في الغالب من حوض البحر الأبيض المتوسط . ومن جهة أخرى فان أولئك الرياس الذين ولدوا مسلمين كانوا قد جاؤوا من مصر ، وألبانيا ، وأناضوليا ، ومن جزر شرقي البحر الأبيض . وقليل منهم فقط كانوا منحدرين من الأصل العرقي التركي .

اننا لا نعلم كم من السفن كان يضم أسطول البحارة ــ القراصنة خلال القرن السادس عشر في فترة معينة من الزمن . فهذا عروج بدأ بثلاثة أو أربعة زوارق صغار . وبحلول سنة 1510 وجدنا عنده من تسعة الى أحد عشر زورقا وسفينتين من نوع الابريق له ولاخوته ، بالاضافة الى عدد آخر بين ستة وثمانية سفن تعود الى الرياس الذين جاؤوا لوضع أنفسهم تحت قيادته . وكان له أيضا بعض المدفعية ولكنها كانت مدفعية ضئيلة الفاعلية ولذلك لم تستطع أن تطيح بجدران مقيمية بجاية ولا مدينة الجزائر . ولكن بعد حوالي عشرين سنة ، وبالضبط سنة 1529 حين كان خير الدين يملك مدفعية ثقيلة استطاعت أن تستولي على مقيمية مدينة الجزائر ، ذهبت التقاليد تقول بأن خير الدين كان

(*) ــ سبق ان نبهنا الى ان المؤلف يميل ، مع هايدو ، الى ان أصول الرياس اوربية ــ مسيحية ، ولعل المؤلف يشير بالأطفال الى ما كان يأخذه العثمانيون من أطفال المسيحيين في البلقان لتربيتهم تربية اسلامية .

يقود ثماني عشرة غليوطة قوية بالاضافة الى عدد من السفن الأصغر حجما . وخلال الأربعة عقود الموالية ، عندما كان الأسطول الجزائري عاملا كجزء من الأسطول العثماني (أي بين 1535 — 1578) كان شق البحارة — القراصنة من الأسطول يتألف من حوالي خمس عشرة غليوطة ، ومن عدد آخر من الغاليات الصغيرة ، ولكن خلال نفس الفترة كانت هناك أيضا موجة من المغيرين على التجارة يعملون خارج مدينة الجزائر وغيرها من المراسي الخاضعة لحاكم (بايلارباي) شمال افريقية . وما دام بعض هذه السفن يملكه البايلارباي نفسه ، وبعضها لغيره من الرياس ، وليس لحكومة الايالة ولا للسلطان — فانه ليس من الواضح لنا كيف كان مالكو هذه السفن يحصلون على تعويضاتهم ما داموا يبحرون مع المؤسسة البحرية العثمانية نفسها . وهذا علج علي الذي قاد شق البحارة — القراصنة من الأسطول العثماني ف معركة ليبانتو ، لم ينج فقط من رعب المعركة وف يده علم المعركة الأكبر لفرسان القديس يوحنا (مالطة) ولكن أجيز أيضا بأعلى رتبة ف البحرية العثمانية . ومن المحتمل أنه هو ورياسه قد دفعت لهم أيضا أجور جيدة على خدماتهم .

وبعد وفاة علج علي لم تتدهور قطعة أسطول البحارة — القراصنة . فهذا هايدو يخبرنا أنها كانت ، سنة 1581 ، تحتوي على ستة وثلاثين غليوطة وسفينة ابريق بالاضافة الى عدد كبير من السفن الصغيرة . ولكن هذه الأرقام ليست غير قابلة للطعن ، ذلك أن كثيرا من السفن الصغيرة وأيضا السفن الكبيرة أحيانا ، كانت تختطفها السفن الحربية الأسبانية أو المالطية ، وجميعها كانت تعاني من معاكسة الرياح ، ورداءة الطقس ، والتدهور الطبيعي .

ان أسطول البحارة — القرصان خلال القرن السادس عشر كان يتألف من غليوطات مدفوعة بالمجاديف ومن سفن ابريقية ومن فرقاطات ومن أخرى تسمي الشبكات أو الزبكات أو غيرها من السفن الأصغر

حجما (2) . وقد استمر استعمال هذه السفن التي تقودها المجاديف ، الى نهاية القرن الثامن عشر ، ولكن بنهاية القرن السابع عشر أصبحت لا تشكل الاجزاء قليلا من الأسطول الجزائري ، ذلك ان الأروبيين الشماليين بدأوا ، منذ سنة 1600 ، يدربون الجزائريين على استعمال نوع السفن المسماة بالبرتون (Bertone) وغيرها من أنواع السفن المعروفة بالمستديرة التي أخذت أروبا في تطويرها .

وهكذا ، فان الأب دان لم يذكر ، في العقد الرابع من القرن السابع عشر ، سوى غليوطتين (رأبع وعشرون واثنان وعشرون مجدافا) وابريقية واحدة ذات خمسة عشر مجدافا وثماني فرقاطات صغيرة (ذات خمسة أو ستة مجاديف) . ولكن حسابه كان خطأ ، لأن البندقيين (أهل البندقية) عندما فاجأوا ، بعد سنوات قليلة ، الأسطول الجزائري والتونسي عند فالونا Valona على الساحل الأسباني ، اسروا أربعا وأغرقوا اثنى عشر بين غليوطات وابريقيات . ونحن لا ندري كم من هذه كان للجزائر ، ولكن القطعة التونسية من الأسطول كانت صغيرة ، ويقال ان الخسائر التي تكبدها القائد الجزائري كانت كبيرة . ان البحارة ــ القراصنة الجزائريين استمروا في استعمال الغليوطات والسفن الصغيرة التي تدفعها المجاديف ، ولكن عددها وحجمها أخذ في التناقص . ففي القرن الثامن عشر كان أكبرها الغليوطة ذات الثماني عشر مجدافا بينما معظمها لم يكن عنده سوى عشرة مجاديف . ويبدو من الواضح أن هذه السفن كان يقودها ورثة التقاليد المبكرة لجماعة البحارة ــ القراصنة الجزائريين ، ونعني بهم نسل أولئك اللاجئين من الأندلس الذين ركبوا البحر لأخذ الثأر . فقد كانوا يتصيدون الزوارق الصغيرة ومراكب الصيد التي لا تستطيع الوقوف أمام سفنهم ذات المدفع الواحد وحتى الثلاثة مدافع

---

2 ــ ان اسماء انواع السفن كثيرا ما تؤدي الى سوء الفهم ، ذلك ان بعضها ، مثل الشكاك ، والكرافال ، والفرقاطة ، كانت في الأصل سفنا صغيرة تدفع بالمجاديف ، ولكن في القرنين السابع عشر والثامن عشر أصبح هيكلها نموذجا للسفن الشراعية ذات الحجم الأضخم ، ولذلك فان الأنواع الثلاثة المذكورة سابقا حولت الى سفن حاملة للثلاثين مدفعا او اكثر ، واثنين او ثلاثة من الصواري الطويلة ، والاشرعة المربعة .

او تمنع الانكشارية من الطلوع لظهر المراكب حين يحيط البحارة ـ القراصنة بضحيتهم . أما الرياس الخطرون فهم أولئك الذين كانوا يقودون السفن ذات الاشرعة والتي كانت تحمل من عشرين الى أربعين مدفعا .

ان ذلك القسيس الطيب (دان) قد يكون أخطأ فى عدد السفن التي تقودها المجاديف ، ولكن تقديره لوجود حوالي سبعين سفينة مسلحة تسليحا قويا تقودها المجاديف يتفق تماما مع الارقام التي ذكرها قنصلا أنكلترا وفرنسا (فى الجزائر) والسفير الأنكليزي فى اسبانيا . وخلال العقد التالي ، أي عشرية الأربعين من القرن السابع عشر ، ربما يكون أسطول البحارة ـ القراصنة قد وصل الى أقصى تطوره ، فقد كان الجزائريون عندئذ يجوبون البحر الأبيض ، من البحر الادرياتيكي الى مضائق جبل طارق ، بل أنهم اجتازوه الى المحيط الأطلسي واتخذوا من جزر الكناري منطلقا فى اتجاه شواطيء الصيد لنيوفاوندلاند Newfoundland . وقد نزلوا أراضي ايرلاندا وانكلترا والدنمارك والبرتغال واسبانيا وأخذوا منها الأسرى والغنائم . لقد أصبح الأسطول الجزائري عندئذ بعيدا كل البعد فى حجمه عن تلك القطعة الصغيرة من السفن التي أحضرها عروج فى فاتح القرن السابق .

ونحن نملك معلومات طيبة أكثر عن هذا الأسطول الجزائري ، بعد 1660 ، عندما أمر حكام بريطانيا وفرنسا قناصلهم بتقديم تجريدة عن الأعداء المحتملين حينما فكروا فى ارسال أسطول بحري ضد الجزائر . ولكن هذه التجريدات القنصلية تواجه بعض المشاكل . فالفرنسيون كانوا دائما تقريبا يقدرون عدد الرجال على ظهر أية سفينة بشكل أضخم مما فعل الانكليز ، كما أنهم والأنكليز لا يتفقون دائما على عدد المدافع التي تحملها كل سفينة ، وهناك مشكل آخر جاء من كون الأروبيين يصرون على تسمية السفن الجزائرية بالصورة التي على الجزء الخلفي من ظهرها . وهذه الطريقة تولدت عنها قائمة من الأسماء البراقة : الأسد ، الرئمتان ، شجرة البرتقال ، النجوم السبعة ، شجرة الصنوبر ، الوردة الحمراء ، الشمس الذهبية ، وما شابهها . ان هذه الأسماء لم تكن هي التي كان الجزائريون يستعملونها ، وهناك بعض الدلائل على أن السفينة الواحدة

قد تحمل صورا مختلفة وفي أوقات مختلفة ، وهناك مشكل آخر جاء من تعيين السفن بعدد المدافع التي تحملها ولكن عادة بدون الاشارة الى قوة هذه المدافع . وهكذا فانه من الصعب الحكم على قوة الطلقات النارية لهذه السفن التي كانت على هذا الترتيب : عشرون ، ثلاثون ، أو ستون مدفعا . ونحن نعلم أن الربانية الانكليز كانوا يملكون معلومات أدق ، ذلك ان الحملات الانكليزية ضد الجزائر كانت في العادة لا تشمل سفنا اكبر من السفن المسماة درجة ثالثة . وهذا يساعد على القول بأن معظم المدافع كانت من نوع الخمسة أو الستة مهاريس . ولدينا احصاء يعود الى سنة 1663 يقول بأن الأسطول كان يحتوي على أكثر من خمسمائة مدفع ، ولكن ليس فيه أكثر من عشرين من نوع التسعة مهاريس أو اثقل . ومن جهة أخرى فاننا لا نعلم ما نسبة المدافع الجزائرية التي كانت من نوع البرونز وما نسبة نوع الحديد (Fonte) فيها ، وعلى كل حال فان النوع الأول كان هو المفضل . كما أن تقارير القناصل قبل 1737 لا تذكر دائما قوائم عدد البيريات (3) على السفن . ولكن توجد دلائل جيدة على أن عدد هذه الأسلحة الخفيفة كان الى منتصف القرن الثامن عشر على الأقل ، يفوق عدد المدافع .

ان قوائم القناصل الفرنسيين عن الحمولة الفعلية للسفن البحرية (الجزائرية) خلال السنوات التالية لتاريخ 1737 تقدم لنا معلومات ثمينة حول حجم السفن وكذلك حول تسليحها . ذلك أن معظم السفن كانت عند الانطلاق تحمل أقل من ستة عشر مدفعا . ولا نجد سفنا تحمل أكثر من ثلاثين مدفعا الا حوالي منتصف القرن . وبالاضافة الى ذلك فان السفن التي كانت تحمل بين الستة عشر والثلاثين مدفعا كانت دائما تقريبا من نوع السفن الشراعية الكبيرة (الكرافيل) والشبيكات ، وبعد ذلك كانت من نوع الفرقاطة : وكل السفن كانت ذات هيكل مسطح وأملس ، ومن اثنين الى ثلاثة صواري لكي تقوم بالحد الأقصى من

---

3 – يدل الاسم على ان البيريه يقذف صخرة موجهة ، والبيريه البحري كان عادة يرفع على قضبان السفينة وكان يستعمل لرد المهاجمين الصاعدين الى ظهر السفينة او سيح ما على ظهر سفينة العدو . وبحلول القرن السابع عشر حل البيريه من النوع الحديدي محل النوع الصخري .

ثم خلال الحروب العظمى الأوروبية » بين 1792 – 1815 ، حصلت ايالة الجزائر على سفن قليلة حمولتها من خمسين الى ستين مدفعا . ومن الواضح أن واحدة من هذه ، وهي (الدانزيك Dantzik) ذات الثماني والخمسين مدفعا ، كانت اما وقع الاستيلاء عليها واما جاءت كهدية ، ولكن سفينة (الغزال) ذات الخمسين مدفعا وكذلك (القصر) ذات الخمسين مدفعا أيضا قد صنعتا في الجزائر نفسها ... ومن الغريب أن هذه السفن كانت اما ضاعت أو تقاعدت بعد سنوات قليلة فقط من الخدمة ، بينما بقيت الشبيكات ذات الستة عشر الى الثلاثين مدفعا في حالة استعمال لسنوات طويلة . وهناك حقيقة أخرى تظهر من هذه التقارير القنصلية ، وهي أن السفن الصغيرة والمدفوعة بالمجاديف – ومعظمها لا يتجاوز اثنى عشر مقعدا للتجديف – قد بقيت أيضا في الاستعمال خلال كل القرن الثامن عشر . وغالبا لا نجد سوى غليطتين لهما ستة عشر أو ثمانية عشر مقعدا للتجديف ، ومن أربعة الى ستة سفن أصغر حجما ، وبعضها لا يوجد فيه سوى عدد قليل من مقاعد التجديف لا يتجاوز الستة . وكانت قوة طلقتها النارية ضعيفة ، ومن الواضح أن الهدف منها لم يكن مواجهة السفن الحربية أو سفن تجارية مسلحة تسليحا جيدا ، لقد كانت فقط هي السفن الكلاسيكية « للقراصنة » و « البحارة » التي شهدها البحر الأبيض خلال مئات السنين . (4)

واذا كان تسليح سفن البحارة – القراصنة ضعيفا نسبيا ، فان عدد الرجال الذين كانوا عليها كان دائما كبيرا . وقد جرت العادة أن السفينة ذات الطاقة من عشرين الى أربعين مدفعا تحمل عليها من ثلاثمائة الى أربعمائة وخمسين رجلا – وأحيانا أكثر من ذلك . وكان « البحارة »

---

4 – تحتوي الارشيفات القنصلية الفرنسية بمدينة الجزائر على قوائم السفن البحرية – القرصانية التي طلبت الترخيص ونسخا من جوازات السفر التي كان من المفروض أن يحملها التجار الفرنسيون ليتفادوا الأسر ، وان توثيق سنوات 1737 – 1827 تبدو عليه الضحالة نوعا ما ، ولكنه مع ذلك يحتوي على عدد السفن المقلعة كل سنة ، وعادة ما يذكر أيضا نوع السفينة وعدد المدافع التي تحملها ، ولذلك فان بعض المعلومات القيمة يمكن استخراجها منه ، انظر السير ديفوكس « بحرية الايالة الجزائرية » في المجلة الافريقية ، عدد 77 ، ص 384–420 .

على سهم نقدي من الغنيمة . كما كانت السفن تحمل عادة عددا من الرجال القادرين على قيادة سفينة مأسورة والرجوع بها الى الجزائر ، بالاضافة الى بحارة آخرين للمساعدة على ادارة مثل هذه السفينة . وهناك عدة مناسبات ، لم يكن فيها لدى البحارة العدد الكافي من الرجال للعودة بسفينة مأسورة ، وكان البحارة المسيحيون فيها قد أجبروا على المساعدة في ادارة السفينة ثم تغلب هؤلاء الأرقاء المسيحيون على آسريهم و « انقذوا » انفسهم وكذلك سفينتهم . وان مثل هذه « الحوادث » علمت دروسا في الحذر وأظهرت الحاجة الى طاقم كبير . ولكن أكبر عدد على أية سفينة بحرية كان يتألف من الانكشارية الذين كانوا يحملون سيفا قصيرا أو مسدسا ، ويساعدهم زملاؤهم بالبنادق أو مقاذف الحجارة ، وكانوا على استعداد للصعود على أية سفينة يمكن أن تقاومهم . ومعظم التجار « الأوربيين » الذين لا يمكنهم الهروب من البحارة ـ القراصنة كانوا من الحكمة بحيث لا يسمحون لهذه الحالة (أي المقاومة) أن تحدث ، ذلك أنها اذا حدثت تكون المحاربة بشعة قاسية . ان أولئك الذين عاشوا بعد صعود البحارة ـ القراصنة الجزائريين الى سفنهم لم ينسوا أبدا تجربتهم معهم .

وكل ما قلناه يقود الى هذا الاستنتاج الذي من الطبيعي أن نتوقعه : وهو أن الأسطول الجزائري كان قد بني من أجل الغارة على السفن التجارية وليس من أجل مواجهة السفن الحربية الأخرى . ولا نجد الا سنوات قليلة بين 1600 و 1830 كان فيها لدى الجزائريين سفن تحمل أكثر من أربعين مدفعا . أما السفن الجزائرية التقليدية فقد كانت هي السفن الشراعية الكبيرة (الكرافيل) أو الشبكات ذات الثماني عشر الى الثلاثين مدفعا . ان هذه السفن كانت أكثر قابلية للحركة والعمل من نوع الفرقاطة التي كانت هي النوع التقليدي خلال القرن الثامن عشر للبحارة الخواص الأوروبيين العاملين في موانىء «الهافرودانكيرك» ، وليفربول ، أوبوسطن . وعندما استعملت هذه السفن المغيرة (الكرافيل أو الشبكة) ، كسفن حربية ، تكبد منها الجزائريون في الغالب خسائر فادحة . وهناك أمثلة على ذلك . ففي عشرية الثمانينات من القرن السابع عشر ، عندما

أجبر الأتراك على التقهقر من فيينا ، تألف تحالف مقدس جديد لمواجهة العثمانيين فى الدانوب وموريا ، وكان الحلف يتألف من الأمبراطور الروماني المقدس ، ومن البندقية ، وبولندا ، وروسيا . وقد طلب الباب العالي المساعدة ، وأجاب الجزائريون بارسالهم كل سفنهم الحربية تقريبا مع صنعهم لخمس سفن أخرى ، اثنتان ذواتا أربعين مدفعا ، وواحدة ذات ثلاثين مدفعا ، وواحدة ذات أربعة وعشرين ، وأخيرا واحدة ذات ستة عشر مدفعا . وعندما دخلوا (الجزائريون) فى معركة مع البنادقة (الفينيشيين) ، كانت خسائرهم كبيرة جدا ، بما فى ذلك أضخم سفنهم . وقد رأى القنصل الانكليزي فى ذلك « النهاية المعروفة لكل المقتنيات غير الشرعية ! » . وهناك مثال آخر حدث فى أوائل القرن التاسع عشر عندما حدثت ثورة اليونانيين ضد الباب العالي فان الوحدات الجزائرية قد أرسلت الى البحر الايجي ، ولكنها خسرت أيضا خسارة معتبرة .

ولقد سبقت الاشارة الى أن البحرية الجزائرية كانت عبارة عن « مشروع خاص » فى معظم تاريخها . ذلك أن السفن كانت مملوكة من قبل الرياس أو الأغنياء الذين يملكون النقود بالمدينة اما باعتبارهم أفرادا واما باعتبارهم منظمة من ملاكي السفن ، وهم الذين كانوا يستثمرون نقودهم . وربما يكون الداي أو الباشا من الملاك أيضا ، على أنه فى هذه الحالة يصبح مالكا باسمه الخاص كفرد يستثمر أمواله وليس باسمه كممثل للدولة . وكان لكل من الباشا والآغا والداي والديوان وسائل معينة للسيطرة على البحرية ، وتتمثل فى تنظيم المشاركة فى الفوائد ، ومنح الرخص ، ومحاولة اجبار الرياس على احترام المعاهدات ، ومطالبة ملاك السفن بتعويض أية سفينة قد تكون فقدت لسبب من الأسباب . وقد يفرض هؤلاء المسؤولون على الرياس أن يذهبوا لنجدة السلطان ــ بعد 1650 ــ على أساس أن يدفع الباب العالي معونة . كما أن الرياس تعتبرهم حكومة الايالة مسؤولين على السفن فى البحر . واذا فشل الرايس فى الحصول على غنيمة بسبب الجبن أو بسبب سوء التصرف ، فان الداي أو الباشا يمكنه أن يأمر بعقوبته ، عقوبة قد تشمل الجلد . واذا فقد سفينة من السفن كان عليه أن يتقدم بتفسير مرضي لذلك ، ولا

يعفى من ذلك أحد ، حتى أن رايسا مشهورا مثل الرايس حميدو ، كان قد واجه المحاكمة ولم ينج الا بعد أن جاء بخريطة تبين أن الموقع الذي فقد فيه سفينته بسبب عاصفة كبيرة كان حقا موقعا مناسبا للرسو . ولو لم يتقدم بذلك البيان لكان من المحتمل أن يواجه عقوبة صارمة . وقد تغير هذا النوع من التملك خلال القرن الثامن عشر . ذلك أن حكومة الداي أصبحت أكثر استقرارا ، وتدريجيا كان الدايليك (أي الداي ووزراؤه) قد تولى ملكية معظم سفن البحارة ــ القراصنة وضعها في يد وزير للبحرية . وخلال سنة 1717 لم تكن الجمهورية (ايالة الجزائر) تملك سوى سفينة واحدة من مجموع تسع عشرة سفينة كانت في الخدمة (باستثناء السفن الصغيرة ذات الدفع بالمجاديف) ، ولكن بنهاية هذا القرن (الثامن عشر) أصبح كل الأسطول تقريبا مملوكا للدايليك ، أي الداي « ووزراءه » لقد كان الأسطول كله تحت سيطرة وزير البحرية .

وهناك أسباب كثيرة لهذا التحول ، ولكن أكثرها أهمية هو تدهور الأرباح من الحملات البحرية . ذلك أنه بعد حرب الخلافة الاسبانية ، وبعد أن أصبح الانكليز متمركزين بقوة في البحر الأبيض : جبل طارق ، وخليج فيكو Vico ، وجزيرة ماهون ، وبعد أن حصن الفرنسيون قواعدهم في طولون ومرسيلية ــ بعد ذلك كله أصبح الهجوم على التجارة الانكليزية أو الفرنسية غير آمن ، بينما اشترى الهولانديون والدول الأروبية الأخرى التجارية حصانتهم من الهجوم بدفع اتاوة في شكل نقود أو معدات حربية . بل حتى جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية الشابة وقعت معاهدة سنة 1795 تنص على دفع اتاوة خاصة للجزائر . ان هذه الأمور لم تترك للرياس القراصنة الفرصة لأسر السفن . وبدون شك فانه كنتيجة مباشرة لذلك ، ومع تدهور كبير في نوعية الرجال الذين يحسنون القيادة ، ولم يعد يظهر أمام الجزائر الا عدد قليل من الاعلاج القادرين على قيادة السفن البحرية ، وما دام الأتراك لم يطوروا بحرية تجارية ذات أهمية ، فان عددا قليلا فقط من أهالي الايالة قد دربوا على القيادة . ومن الطبيعي أنه أمام هذا الوضع فان رأس المال الخاص لم يجد الاستثمار في الحملات البحرية عملية مربحة بشكل مغر .

ويبدو أن الداي وحكومته لم يجدوا صعوبة كبيرة في السيطرة التامة على الأسطول . ولكن دعنا نرجع الى الحديث عن مشاكل البحارة ـ القراصنة في العهود البطولية من نشاطهم .

فمن أين جاء البحارة ـ القراصنة بسفنهم ؟ ان عروج واخوته ومن المحتمل أيضا أغلب مساعديه ، قد أبحروا على سفن مصنوعة في المشرق ، ونفس الشيء قد يكون صحيحا أيضا بالنسبة لمعظم السفن التي كانت في حوزة خير الدين عندما استولى على المقيمية الاسبانية في مرسى الجزائر . غير أنه بحلول منتصف القرن السادس عشر أصبح في مدينة الجزائـر أحواض لصنع السفن يمكنها صنع الغلياطة ذات الاثنين والعشرين مقعدا للتجديف . وبمرور سنوات قليلة أصبحت المراكب والزوارق وغيرها من السفن الصغيرة تصنع أيضا في المراسي الجزائرية الأخرى . ومثل السفن الحربية في عصر من العصور فان السفن الضخمة تعكس أفضل ما توصل اليه المجتمع من تقدم تقني ، غير أننا في هذه الحالة نلاحظ أن « المجتمع » كان أروبيا أكثر منه جزائريا . ان نظرة فاحصة الى واقع بناء السفن تدلنا على أن كبار الصناع ، والعمال ، وربما حتى مهندسي السفن كانوا اما أعلاجا أو أرقاء قد تعلموا صناعتهم على الضفة الشمالية من البحـر الأبيض . وليس هذا في الحقيقة محل عجب . ذلك أن الأتراك وسكان شمال افريقية لم يكونوا عادة شعوبا جوابة للبحر ، وكان الانكشارية يجندون غالبا من عائلات الفلاحين لا من عائلات الصيادين ، ولكن الرجال الذين كانوا يقعون في الأسر اثر الغارات على الأراضي وعلى التجارة المسيحية كانوا تقريبا جميعا أبناء لأباء يعملون في البحر . اننا نعلم أنه كان للرايس دور في طريقة بناء السفن لأنه كان يعلم ما تحتاجه سفينة البحار ـ القرصان . وفي هذه الحالة أيضا تبدو أهمية الأعلاج من جديد ، لأننا قد عرفنا ما يثير العجب وهو أن نسبة كبيرة من الرياس كانوا من الأعلاج .

ان جزءا من الخشب الذي كانت تصنع منه السفن كان يجلب الى مدينة الجزائر من بجاية وشرشال وغيرها من الموانيء الصغيرة في شمال افريقيـة حيث يتوفر الخشب . وكان الباقي « ينقذ » من السفن التي تؤخذ كغنائم

والتي ليست صالحة للاستعمال في الغارات (الغزوات) ، ولكن كان لها من اللوح ما هو جاهز لبناء السفن . أما الأشرعة والحبال والطلاء والقطران وغيرها من الضروريات فقد كانت تأتي من أماكن عديدة . وقد جاء لاجئو الاندلس بمهارات كثيرة كانت نافعة ، وكذلك استمر المشرق في تقديم الحاجات البحرية والعسكرية . وبعد التقارب الفرنسي ـ العثماني خلال القرن السادس عشر ، كان التجار الفرنسيون يهربون ، بل حتى يوردون تلك الأجهزة الى مراسي شمال افريقية في تحد مكشوف لأوامر البابا التي تحرم ذلك ، كما أن التجار الانكليز والهولانديين كانوا يتنافسون ، خلال القرن السابع عشر ، في ممارسة هذه التجارة (مع شمال افريقية) وبعد منتصف القرن السابع عشر عقدت معاهدات مع الهولانديين وكثير من الامارات الصغيرة أو الدويلات ـ المدن ، تنص على تقديم « هدايا » من نوع الصواري والأشرعة وكور المدافع ، والمدافع ، والحبال وغيرها ، كالبضائع ، في مقابل الحماية من الهجوم . واذا صحت تقارير القناصل ، فان الصواري كانت تشكل أكبر مشكلة : ذلك انه لم يكن يوجد مساحات كبيرة من الغابات في شمال افريقية يمكنها أن تقدم تموينات مناسبة من الصواري، ولذلك فانه كان على المعتنين أن يستوردوها من المشرق أو من جهات أروبية . وقد جاءت المدافع في البداية من المشرق ثم وردها الفرنسيون والهولانديون ، وأخيرا فانه بمساعدة الفرنسيين ، أنشئت في مدينة الجزائر مصاهر لصب المدافع مما وفر هذا النوع من السلاح .

ومن القرن السادس عشر الى الثامن عشر هناك ملاحظة مشتركة حول سفن البحارة ـ القراصنة الجزائرية وهي أن الغليطات وكذلك السفن ذات الأشرعة الطويلة انما صنعت لتكون سريعة وسهلة القيادة وذات مرونة في توجيهها . وبذلك يمكنها أن تلحق بالتجار المسيحيين أو يمكنها الهروب من السفن الحربية المسيحية . (5) وأن الطريقة الوحيدة السهلة لضرب سفن

5 ـ لقد كتب المتصرف في طولون الى كولبير قائلا : « ان الخطأ ليس في سفننا لأنها لا تبحر بالجودة التي تبحر بها سفن القرصنة التركية ، ولكن الفرق أن سفننا محملة بالمدافع والميرة والأمتعة ، وبدلا من ذلك فان هؤلاء البرابرة يستعملون المدفعية الخفيفة ، ولا يحملون سوى مؤونة ستة أو ثمانية أسابيع ، وليس لهم أمتعة .

البحارة ــ القراصنة (الجزائريين) هو ضبطها في المراسي وتحطيمها هناك . لقد كانت هذه السفن دائما تصنع بطريقة تجعل هيكلها مسطحا وغير غائر قدر الامكان وأملس ، وبدون زخارف غير ضرورية ، وبناء على نماذج السفن ذات المرونة والسلاسة في القيادة . وكان جوف هذه السفن غالبا ممسوحا ، وكانت دائما في أحسن حالة تليق بالسفن . وكانت السفن الشراعية الكبيرة التي صممت على نموذج سفينة الشباك Chabbak العربية ، والفرقاطة التي أصبحت تقريبا هي وحدها « المقياس » كسفينة للخواص خلال القرن الثامن عشر والتي كانت قد شكلت على طراز الفريقاطة (Fregata) الايطالية ، وغيرهما مثل السفن الابريقية ــ كلها كانت قد صممت من نماذج السفن الصغيرة التي تطورت خلال عهود سابقة ، بعضها من سفن ذات مجاديف وبعضها من سفن ذات أشرعة . وكانت السفن التي لها أشرعة طويلة مسلحة في العادة بثمانية عشر الى أربعين مدفعا ذات طاقة ضعيفة نسبيا ولكن أثناء عهود كثيرة وجدنا عندما كانت الحرب العامة في أوربا قائمة : 1688 — 1715 ، 1744 — 1763 ، 1793 — 1814 — وجدنا الجزائريين يملكون سفنا حربية ذات خمسين وستين مدفعا . وبعض هذه السفن صنعت في الجزائر نفسها ، ولكن عددا منها كان قد احتجز من البرتغاليين والبولانديين (دانزيق Danzig) ، والبنادقة . (6) ولكن هذه السفن لم تكن كلها مفيدة للغارة على التجارة كفائدة السفن الصغيرة ذات المرونة في القيادة مثل الشبكات أو الشراعية الكبيرة . وهناك خاصية أخرى لهذه السفن ، وهي تتعلق بالمساحة المخصصة للبضائع . ذلك أن البحارة ــ القراصنة كانوا لا يحملون الا الحد الأدنى من المؤونة ، وبالمقارنة مع السفن الحربية الأوربية ، لا وجود فيها لمساحة يمكن للربان أن يهرب

ولذلك فان الضباط الفرنسيين ، رغم انهم على أحسن ما يرام ، لا يستطيعون المنافسة مع هؤلاء اللصوص ، انظر ديلاربر Delarbre (التورفيل Tourville) ص 13 .

6 — وهناك سفينة جزائرية من نوع الفرقاطة كانت هدية (اتاوة) من جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية الناشئة ، وكان الجزائريون يرغبون في شراء واحدة أخرى على الأقل ، ولكن الرئيس جيفرسون أوقف الصفقة .

فيها بضاعة للبيع . فليس من العجب أن هؤلاء الهاجين نالوا سمعة تجارة ممتازين حتى ولو كانت قدرتهم على « تفادي » معركة مع طرف آخر ف الدرجة الثالثة أو الرابعة الى حد ما أقل فعالية .

وعندما تكون السفينة جاهزة للخروج من أحواض بناء السفن الجزائرية يقام لها احتفال : فكل فرد ، من كبير المهندسين الى أدنى عامل من الأرقاء ، يشارك ف مأدبة من الكسكسي ولحم الخروف وهو الطعام المعتاد ف ذلك الوقت ، ويرافق ذلك دقات الطبول وعزف المزامير والقاء الخطب . وعندما تكون السفينة مستعدة للابحار ، يرفع رئيسها علمه ويبدأ كاتبه ف تسجيل أسماء المتطوعين الذين سيبحرون معه وكذلك أسماء الطاقم . فاذا كانت السفينة من نوع الغليوطة فان الأرقاء يكونون من نصيب الرياس ، وبناة السفينة ، والداي ، بل حتى لكبار الخاصة الذين « أجروهم » للرحلة . وهناك طقوس خاصة تتصل بمغادرة وعودة البحارة ــ القراصنة . وما دام القرآن لا يبيح القرصنة ، فان كل مظهر ممكن من مظاهر التقوى كان ضروريا وخصوصا بعد أن أصبحت « قداسة » الغزوات البحرية ، منذ وقت بعيد ، مظهرا ضعيفا من النشاط العام . وكان الرايس يشاور ف العادة مرابطه المفضل ، ليخبره ما اذا كانت البشائر تدل على الخير والبركة وليطلب منه المساعدة الروحية . وكان دم الخروف يراق على مقدمة السفينة للتذكير بأن الغزوة انما كانت باسم الجهاد لقتال المسيحيين . وعندما تبحر السفينة خارج الميناء مارة بزاوية أو قبر أشهر المرابطين ، تخفض الأعلام ويطلب الرايس منه الدعاء الصالح . وحينما تعود السفينة منتصرة وهي تجر السفن المحتجزة أو تقودها بالأشرعة وعليها أعلامها منكسة ، تنطلق المدافع بالطلقات ، سواء من السفينة المنتصرة نفسها أو من المرسى أو الرصيف البحري (المول) ، تحية لها . ثم يمر المنتصرون ف استعراض عبر المدينة وسط ضجيج الطبول والمزامير ، مع أسراهم الجدد وغنائمهم ، وذلك لتقديم أقسهم للباشا أو الداي . ويخبرنا المسيحيون الذين كتبوا حول هذه الأنشطة عن الخرافات الغليظة التي كان يمارسها هؤلاء الرياس الشبيهين بالقراصنة . ولقد كانوا بالتأكيد على حق ف ذلك لأن البحر ف تلك

وكانت سفنهم ضعيفة أمام رعب البحر الذي كان ما يزال عموما غير مفهوم ، ولذلك كان المسيحيون والمسلمون على السواء يطلبون من الههم ومن أوليائه الحماية ويرسلون بدعائهم وبخورهم نحو السماء شكرا له على نعمائه .

واذا دخل الرايس البحر فانه هو الذي يقود . ولا يهم ما اذا كان من الزنوج أو من سكان الجزائر الأصليين فان كلمته هي العليا . والآغا ، الذي هو في مرتبة عليا في نظام الانكشارية أو الرقيق ، الذي هو في أسفل درجات السلم الاجتماعي ، كلاهما سواء في وجوب احترام سلطة الرايس . ويتضمن ترتيب المسؤوليات على ظهر السفينة : القائد الثاني (أو نائب الرايس) ، والربان ، والملاح ، والجراح ، والكاتب الذي يحفظ دفتر السفينة ويجرد الغنائم ، ثم قيم الباب ، ومجموعة من البحارة لادارة الأشرعة ، بما في ذلك واحد برتبة آغا ونائب له لقيادة المتطوعين ، وكبير المدفعين ومساعديه للاشراف على المدافع . وعندما أصبحت السفن ذات الأشرعة الطويلة تحمل عشرين أو أكثر من المدافع ،كان الرجال المسؤولون على اطلاقها قد لعبوا دورا أكبر بين طاقمها . وهناك أخبار كثيرة تروي لنا أن البحارة كانوا من الأعلاج أو الأرقاء ، بل أن عددا من المعاهدات مع الدول البحرية كانت تحتوي على بند يمنع اجبار الرقيق الفرنسي أو الانكليزي من تولي دور البحار ، وهو الأمر الذي يدل على أن ذلك لم يكن غير معمول به . وربما كان الأعلاج والأرقاء أكثر تجربة في البحر من أبناء الفلاحين بأناضوليا أو سورية الذين كانوا ضمن الانكشارية . لقد كان هؤلاء (جنود المشرق) متطوعين : يسجلون أنفسهم في الغزوة متوقعين الحصول على سهم من غنيمة النقود الى جانب الأشخاص الآخرين في السفينة . (7)

7 – ان سلم تقسيم الغنائم بعد الحملة يوضح لنا عددا من المسائل . ففي سنوات الثلاثين من القرن السابع عشر كان الباشا يأخذ 12 في المائة بمدينة الجزائر ، وعشرة بالمائة بتونس ، وواحد في المائة لاصلاح الرصيف البحري (المول) ، وواحد في المائة للمرابط ، والباقي ، وهو من 88 الى 86 في المائة يذهب نصفه الى ملاك السفن والنصف الآخر الى طاقم السفينة وجنودها ، ويأخذ الرايس من هذا النصف الثاني ، بين عشرة واثنى عشر سهما ، والآغا ثلاثة أسهم ، والانكشارية سهمين لكل منهم ، ورئيس المدفعين ثلاثة أسهم ، وغيره من المدفعين سهمين ، والربان ثلاثة

وكانت سفن البحارة ـ القرصان لا تحمل من المؤونة سوى الشيء الضروري للغاية • وكان الأرقاء والمتطوعون على ظهر السفن من نوع القادس (الغاليات Galleys يطعمون البسكوت والخل والزيت ، ولكن كان يسمح للمتطوعين بتزكية ذلك باحضارهم زادا خاصا بهم فى حقائبهم مثل الفواكه المجففة والجبن وغيرها • وكان طاقم السفن الشراعية يطعم أيضا تقريبا نفس الطعام الذي يعطي للأرقاء فى السفن (الغاليات) ، ولكن يسمح لهم أيضا ، كما هو الحال مع المتطوعين ، باحضار طعام خاص بهم معهم • وكان المتطوعون فى (الغاليات) ينامون على نفس الدكات (الأبناك) التي ينام عليها الأرقاء ، ولكن كان مسموحا لهم بالتحرك بحرية أكثر عندما تكون السفينة فى الابحار أو فى حالة رسو • وكان الانكشارية فى كل من السفن الغالية والشراعية ، مسلحين بالسيوف الحدباء والخناجر ، أما الرماح والأسلحة النارية والسهام والأقواس فقد كانت محفوظة فى غرفة خاصة مغلقة ولا تعطى الا عندما يضيق البحار ـ القرصان الخناق على ضحيته أو كان عليه أن يحارب عدوا مسلحا •

وكان الرياس يتفادون ، عن حكمة وبقدر الامكان ، الدخول فى المعارك التي قد تؤدي الى تحطيم سفنهم أو تخفض من عدد طاقمهم • (8)

اسهم ، والملاح ثلاثة أسهم ، ورقيب الاشرعة ثلاثة أسهم ، وقيم الباب سهمين ، والجراح ثلاثة أسهم ، والبحارة سهمين ، واذا كان على ظهر السفينة رجال من أهل البلاد (الجزائريين) فلا يعطون سوى سهم واحد ؛ لأنهم أناس لا يمكن الاعتماد عليهم كثيرا » ، واذا كان بين هؤلاء الناس أرقاء فان السيد مالك الرقيق هو الذي يأخذ أسهمهم ، وأحيانا يعطي جزءا للرقيق . (انظر الأب دان ، ص 265 ـ 266) . ويتفق هذا التقسيم الذي جاء به مع ما أورده الكتاب الآخرون تقريبا ، انظر أيضا ألبير ديفوكس (سجل الغنائم البحرية) في المجلة الافريقية ، عدد XV (15) ، ص70–77 وعدد XVI (16) ، ص 146–159 .

8 ـ ولكنهم لم يكونوا دائما حكماء في ذلك ؛ لقد كتب القنصل الانكليزي مارتن في نوفمبر 1675 ، بأن ولد الداي قد رقي الى رتبة أمير البحر (أميرال) وأعطى قيادة سفينة جديدة ، اسمها (الحصان الذهبي) ، ولما خرج في غزوته رفقة خمسة آخرين من البحارة ـ القرصان مع سفنهم ، التقى برجل حرب برتغالي وضيق عليه الخناق طلبا للحرب . وقد استطاع البرتغالي أن يفر من الأسر ولكن خلال المعركة قتل حوالي أربعمائة رجل من الأتراك والجزائريين وسبب اضرارا كبيرة للسفن ولذلك عزل ولد الداي من منصبه وسمي مكانه الرايس كنارى (canary) برتبة أمير البحر . انظر : PRO. SP. 71-1 Fol. 89

وكانوا كثيرا ما يرفعون أعلام الدول الشمالية (الاسكندنافية) الى أن يبلغوا مرحلة التضييق الكافي على ضحيتهم بحيث لا يمكنها المقاومة • وعندما يكون عليهم أن يدخلوا فى معركة فانهم يقتربون من الهدف على أصوات المزامير ، وضجيج الأسلحة ، وصعيق المدافع ونيران مقاذف الحجارة ، وصيحات : « استسلموا أيها الكلاب ، استسلموا ! » ومعظم المعارك لا تدوم طويلا • وفى كثير من الأحيان ، عندما تكون الضحية مبحرة بالقرب من الشاطيء ــ كما كان الحال فى معظم السير البحري فى البحر الأبيض ــ فان طاقم السفينة كان ، بكل بساطة ، يغطس فى البحر ، لينقذ نفسه من الأسر • وتمتليء تقارير القناصل الفرنسيين بحكايات السفن التي جيء بها الى الميناء بدون طاقم : واذا ما احتجزت السفينة فى المحيط الأطلسي ، فان المظنون هو أن الطاقم كان قد أعدم ، أما اذا حدث ذلك فى البحر الأبيض فان الاعتقاد القريب من اليقين هو أن الطاقم قد فر بواسطة السباحة الى شاطيء النجاة • ومهما كان ما حدث ، فان جميع الأخبار التي عرفنا تؤكد ، بدون أي مكان للعجب ، أن الشعوب العاملة فى البحر خلال تلك القرون الأولى ، كانت تخشى البحارة ــ القراصنة كما كانت تخشى الشيطان ، بل لعلها تخشاهم أكثر منه ما دام بعضهم قد رأوا البحارة ــ القراصنة فى ميدان العمل ، وآخرون منهم حملوا كأرقاء الى المغرب العربي (The Maghrib) ، بينما عدد قليل فقط تمكنوا من رؤية ملك جهنم (الشيطان) •

ولكن ظهور القوة البحرية للانكليز والفرنسيين ، وحتى الهولانديين جعلت أسر المواطنين من هذه الشعوب أمرا محفوفا بالخطر ، ولذلك فان المعاهدات مع ادارة الجزائر نصت على حمل جوازات سفر من هذا النوع أو ذاك • وهذا يعني وجود جماعة تصعد على ظهر السفينة للمراقبة وفحص قائمة المسافرين وبضاعة السفينة الموقوفة فى عرض البحر • وما دام كثير من البحارة ــ القراصنة ، بل معظمهم ، لا يقدرون على قراءة اللغات الأروبية ، فان الطريقة المعتادة هي مقارنة عدد الخطوط ، وطول الخطوط فى جواز السفر بناء على النسخة التي يعطيها لهم القنصل فى الجزائر • ولكن هذه الطريقة لا ترضي دائما البحارة ــ القراصنة : فقد كان من

حقهم أن يأخذوا المسافرين الذين هم مواطنون لأعدائهم كأرقاء كما يأخذون بضاعتهم على أنها مهربة اذا استطاعوا أن يثبتوا أنهم فعلا كانوا أعداء وأن بضاعتهم بضاعة عدو • والشرط الوحيد هو أن البحار ـ القرصان عليه أن يدفع ثمن شحن البضاعة التي صادرها ، وقد كان هناك نتائج سيئة لهذا : فالبحار ـ القرصان قد يحاول اجبار الطاقم على تعيين المسافرين الأعداء ، وسيبذل البحارة ـ القراصنة قصارى جهدهم ، بما فى ذلك استعمال العنف ، للبرهنة على أن الحمولة كانت فى الواقع حمولة يملكها العدو • وكل من البحارة ـ القراصنة والقناصل الأوروبيين فى الجزائر عانوا كثيرا من هذا الصراع • ذلك أن رجال البحر كانوا كثيرا ما يتهمون البحارة ـ القراصنة بالعنف واستعمال التعذيب ، والضرب وما شابه ذلك • بينما كان البحارة ـ القراصنة يصرون على أن قباطنة السفن (الأوروبية) كانوا يخفون الحقيقة • وكان الحكام الأنكليز والفرنسيون يشعرون أن شرف أعلامهم كان محل اهانة ، ولكن الحل لم يكن سهلا • وهناك مشكلة أخرى : ذلك أن البحارة ـ القراصنة كانوا غالبا ما يرفعون أعلاما ليست لهم ، وقد كان الأمر كذلك أيضا بالنسبة لقراصنة مدينة سالا (9) • وأن القبطان العنيد لم يكن يرغب فى الانتظار الى أن يكون الأوان قد فات ليقرر ما اذا كانت السفينة المقتربة منه من الجزائر أو من سالا ، وغالبا ما يحدث أنه عندما يأمل القبطان فى تحقيق النجاح يطلق النار على البحار القرصان وكان هذا التصرف ممنوعا طبقا للمعاهدة ، ولو لم يبعد التاجر باطلاق النار على البحار ـ القرصان ، لكلفت عملية الدفاع القبطان وطاقمه حريتهم وسفينتهم •

ولقد سبق لنا الحديث عن بعض أشهر رياس القرن السادس عشر البطوليين ، مثل عروج ، وخير الدين ، ودرغوث ، وعلج علي • ان هؤلاء

---

9 ـ كانت سالا (جمهورية قرصنة) تقع على الساحل المراكشي ، كانت تحكم من قبل جماعة من اربعة عشر قبطانا ، ولها رئيس برتبة أمير البحر (أميرال) ، وكانت الجماعة فيها مؤلفة من رجال البحر الهولانديين والانكليز فقط تقريبا ، وكانت سفنها عاملة في كل من البحر الأبيض وشمال المحيط الأطلسي خلال كل القرن السابع عشر وجزء من الثامن عشر ، انظر انطونيو ر . دي ارماس De Armas (القراصنة والهجومات) الجزء الثالث ، ص 1 و ص 59 وغيرها ، وهناك كتابات اخرى عن جماعة سالا ، وكثير من المراجع المعاصرة من انشطتها •

الرجال وأصدقاءهم ومساعديهم هم الذين انشأوا ايالات الجزائر وتونس وطرابلس كجماعات من البحارة ـ القراصنة ، وأعطوها اشكالها السياسية والعسكرية الخاصة بها . ولكن القيادة الحقيقية لأسراب سفن البحارة ـ القراصنة ، كانت في العادة في أيدي رجال أقل شهرة من أولئك الذين أصبحوا بايلاربايات والباشوات أمراء البحر في خدمة السلطان . وأشهر هؤلاء جميعا هو مراد رايس (المعروف باسم Morato Arraes) وهو علج ألباني كان في البداية قد خدم في البحر تحت قيادة قارة علي ، ثم ترقى الى قيادة قطعة من الأسطول تحت قيادة علج علي أثناء حصار مالطة . وكان أسره لسفينة صقلية وعليها دوق تيرانوفا Terranova ؛ القائد العسكري العام لصقلية ، ثم أسره ، بعيد ذلك بقليل ، لسفينة بابوية ـ جعلته بطلا بين أنداده . ولكن مغامرته الأكثر جرأة كانت قيادته لقطعة من الأسطول تتكون من أربعة غليوطات والعبور بها مضيق جبل طارق والذهاب الى سالا . وهناك انضم اليه ثلاثة من الضباط القراصنة ثم توجه الى جزر الكناري . وقد نهب البحارة القراصنة لانزروت Lanzarote وأسروا زوجة وابنة الحاكم ، كما أسروا مئات الأفراد الأقل أهمية . وبعد جولة حول تلك الجزر ، وبعد عدد من الانزالات على الشاطيء لجمع غنائم أكثر وكذلك جمع الأسرى ـ قاموا برفع علم للدخول في المحادثات وسمحوا بتقديم الغذاء لأسراهم الأكثر أهمية . أما بقية الأسرى فقد حملوهم الى الجزائر أو سالا كأرقاء . وقد حاول الأسبان ، الذين علموا مقدما بعودتهم ، ان يكمنوا لهم في مضيق جبل طارق ، ولكن مراد رايس استطاع بنجاح أن يتفادى أسطول دان مرتان دي باديلا de Padilla أثناء عاصفة ، وعاد بقطعة أسطوله الى الجزائر . لقد كانت غزوة جريئة حقا ، وتتضح جرأتها أكثر من كون سفينة الغليوطة لم تكن في الحقيقة صالحة لمياه المحيط الأطلسي . ان المسيحيين يحبون الاعتقاد في أن الله عاقب مراد رايس بوفاة ابنه قبيل عودته منتصرا ، ولكن القصة كما جاءت في الشهادات التي قدمت عن تلك الغزوة أمام محاكم التفتيش (الأسبانية) قد لا تكون كلها صحيحة .

وهناك رياس آخرون كانوا أقل حظا . ذلك أن البحار ـ القرصان ، اذا أسر من قبل الأسبان ، لا أمل له في الفداء . فهو اذا كان علجا سيشنق

او يحرق ، كما جرت العادة • وأحيانا فان رايسا مثل مصطفى أرمود (Armaud) ، الذي كان في أحد سجون نابولي مدة عشرين سنة ، استطاع الرياس الذين كانوا معه ، وعددهم اربعة عشر رايسا ، أن يحرروا أنفسهم (سنة 1591) ربما بمساعدة زملاء لهم تسربوا الى نابولي متخفين في زي بحارة مسيحيين • فقد استطاعوا الهروب من السجن وسرقوا سفينة صغيرة واستولوا على أخرى أكبر منها ، وأبحروا متوجهين الى بنزرت • لقد كان عملهم الباهر نادرا جدا لدرجة أنه دخل التقاليد الشعبية •

وكثير من ضباط البحرية الأعلاج كانت لهم مهن معينة • وسوف نرى أن سيمون دانسر Danser لم يعد آمنا الى البلاد المسيحية الا ليخلق مشاكل جديدة بهديته الى دوق دي غيز de Guise، وهي الهدية المتمثلة في المدفعين اللذين تملكهما الايالة الجزائرية • وقد وجد سليمان رايس ، الذي كان من لاروشيل La Rochelle ، الخلاص والفرصة لمواصلة مهنته بأن أصبح فارسا من فرسان القديس يوحنا (مالطا) • وحصل القراصنة الانكليز : وارد Ward ، وسامسون Samson ، وادوارد Edward على حق العيش في بذخ بالجزائر بغنائمهم وبتعليم الرياس الآخرين قيادة السفن الطويلة التي تستطيع بسهولة أن تتجاسر على دخول المحيط الأطلسي • (10)

---

10 ـ لقد رأينا أن كثيرا من الرياس ومساعديهم كانوا من الاعلاج ، وان مصيرهم كان مظلما اذا ما ألقي عليهم القبض ، ففي البحر كانوا عادة يشاركون مصير العلج الانكليزي قائد السفينة المسماة (هانمون : نصف القمر = قمر 14) التي أسرتها السفينة الانكليزية (سفير) = الياقوتة الزرقاء ، في صيف 1681 ، فقد كان قد شنق على الفور . (أنظر كلاوز Clowes : البحرية الملكية ، ج 2 ، ص 457) • وكانت محاكم التفتيش في كل من ايطاليا واسبانيا تحرق الأعلاج حرقا ، ولا تستطيع اية معاهدة ان توقف هذا لانها « لا تطيع الملك ، ولا يمكن لحدوده ان تتقيد ... بمعاهدة » (أنظر مارسيل ايمريت M. Emirit : تجارة بحرية شمال افريقية في القرن الثامن عشر في الكراسات التونسية ـ رقم 3 ، ص 364) • فلا غرابة اذن ان الرياس الأعلاج كانوا لا يرغبون في ان يصبحوا ضباطا لسفن تجارية قد ترسو بهم في ميناء اوربي •

ان أكثر البحارة ــ القراصنة ثروة وشهرة ، ذلك الذي ذرع طولا وعرضا أكبر عهود الأنشطة الجزائرية (حوالي 1630 ــ 1660) هو ، بدون شك ، علي بتشنين . لقد التقينا به في فصول أخرى من هذا الكتاب ولكنه يستحق اهتماما أكثر مما يمكننا اعطاؤه . كان بتشنين من ايطاليا ، وبعضهم قال : انه كان بندقيا (من البندقية) ، اسمه بتشينيو Piccinio وصل الى الجزائر يقود سفينة قرصنة كان قد أبحر بهـا من البحر الادرياتيكي . وقد اعتنق الاسلام وسرعان ما صعد الى المصاف العليا من طائفة الرياس لجرأته وشجاعته . وقد جعلته غنائمه غنيا ، واستثمر أمواله في سفن أخرى للقرصنة حتى أن أسطوله هو الخاص اورثه لقب أمير البحر في الجزائـر . كان علي بتشنين يملك قصرين في مدينة الجزائر ، وفيللا (حوشا) في الضواحي ، وعدة آلاف من الأرقـاء ، والجواهر ، وأواني من الذهب والفضة ، وثروة طائلة من البضائع المختلفة . وقد بنى حماما عاما عظيم الضخامة كما بنى مسجدا كبيرا في الجزائر هدية لهذه المدينة . وكان له حرسه الشخصي مؤلفا من المشاة والخيالة وكان جنده في أغلبه من رجال قبيلة كوكو الذين أصبح سلطانهم والدا لزوجته . وخلال الثلاثينات من القرن السابع عشر كان القناوسة العاملون على فدية الأسرى يتعاملون معه هو ، كما تشير كتاباتهم من الجزائر ، أكثر مما كانوا يتعاملون مع الباشا ، باعتباره هو الحاكم الحقيقي للمدينة . وقد أطلق عليه فرانسيس نايت F. Knight كان أحد أرقائه ، لقب « الطاغية » الأعظم الذي لا يحترم أحدا حتى ولو كان السلطان نفسه . ولكن ليس كل أرقائه قد نظروا الى حالهم على انه حال « بائس للغاية » أو الى سيدهم على أنه طاغية . فهناك قصة تقول ان أحد المتعصبين المسلمين أراد دخول الجنة بقتل أحد المسيحيين ، فتوسل الى بتشنين ليمنحه هذه المزية بقتل أحد أرقائه . وقد وافق البحار القرصان (بتشنين) ولكنه أعطى لشاب قوي العضلات سيفا ثم استدعى الرجل الذي توسل اليه ، لمبارزته في الحقل ، وعندما هرب ذلك الرجل المتوسل ضحك منه علي بتشنين الى حد القهقهة . وهناك رفيق آخر أعاد جوهرة كان قد « وجدها » ولكن علي بتشنين لاحظ غباوته في انه لم يغتنم فرصة الحصول على حريته بها !

ولعله كان لعلي بتشنين طموح ف الاستيلاء على الايالة • فتحالفه مع سلطان كوكو ، وحراسه البالغون مآت من الجنود وبحريته الخاصة ، وعلاقته مع زعماء الكراغلة ــ كلها تشير الى طموحه السياسي • وكان قد هزم هزيمة كبيرة ف فالونا Valona حيث خسر ثماني سفن من نوع الغاليات (وقد حصل نايت على حريته منه أثناء هذه المعركة ، لأنه كان مسترقا على أحد السفن التي أسرت) وألفين من الأرقاء • وبعد سنوات قليلة عندما خطط السلطان هجوما على مالطة ، رفض علي بتشنين السماح للقوات البحرية الجزائرية بالمشاركة الا بعد دفع السلطان للمعونة مقدما • وقد أرسل السلطان شاوشا (أي مبعوثا عنه) الى مدينة الجزائر لجلب رأس بتشنين • ولكن كان على الشاوش نفسه والباشا أن يهربا الى أحد المساجد فرارا من أتباع أمير البحر ــ القرصان (يقصد بتشنين) • وأمام هذا الوضع رفض الباشا دفع أجور الانكشارية فطلب هؤلاء من علي بتشنين أن يدفع هو أجورهم • ويبدو أن بتشنين لم يكن قد أعد بعد رجاله للانقلاب • ففر الى بلاد صهره ، سلطان كوكو ، بينما الانكشارية نهبت منازله التي ف المدينة بالاضافة الى الحي اليهودي • فماذا حدث بعد ذلك ؟ من الواضح أن الباب العالي خشي من عودة علي بتشنين الى الجزائر على رأس جيش من رجال زواوة ، ولذلك أرسل اليه النقود ، والعفو ، والتشريفات التي كادت تجعله هو الباشا • ولكنه عندما رجع الى الجزائر رفقة شاوش السلطان سرعان ما مرض ومات • وكادت جنازته لفخامتها أن تكون جنازة ملكية ، ومع ذلك فان الكثير شكوا ف أنه قد يكون مات مسموما بأمر السلطان •

وهناك رايس آخر وهو بكير باشا ، الذي ظهر ف الأوراق القانونية للقديس فانسان دي بول de Paul والذي اشتهر بشراهته وبادمانه على الخمر ، وبقسوته وسلوكه الانتقامي ، وبسوء معاملته لأرقائه ، وبتعذيب وضرب أولئك الذين لا يعجبونه • أو على الأقل ذلك هو السجل الذي تركه الآخرون عنه ووصل الينا • وأن الكاتب الذي روى لنا أخباره يبدو مسرورا باعلانه أن سفينة بكير باشا قد تحطمت ، وأنه ف تلك اللحظة التي اعتقد فيها أنه قد نجا ، ضربته موجة بقطعة من الخشب وفيها حديدة

والماء لقتل المسيحين ،
قاطعة ملوية : « لقد استعمل الخشب والحديد والماء لقتله هو • وعندما مات ارتمت على
واستعمل الله الخشب والحديد والماء لقتله هو • وعندما مات ارتمت على
جثته جماعة من الغربان _ ولعلها كانت جماعة من الشياطين المتخفية _
ولكنها لم تمس الجثث الأخرى التي كانت موجودة بأعداد كبيرة على
الشاطيء • » ومن الواضح أن كثيرا من الرياس القراصنة كان لهم سمعة
سيئة فى العالم المسيحي _ ولعل بعض ذلك كان عن جدارة • (11)

وربما كان آخر الضباط العظام للبحارة القراصنة هو الرايس حميدو
الذي استغرق نشاطه عهد الثورة الفرنسية ونابليون • وهو خلافا لمعظم
البحارة _ القراصنة الناجحين ، لم يكن علجا ولا تركيا • لقد كان ابنا
لخياط جزائري ، وتوجه الى البحر كشاب عامل فى غرفة السفينة • ثم أنه
عن طريق الذكاء والشجاعة كون نفسه حتى وصل الى رتبة ضابط وأخيرا
حصل على رتبة أمير البحر على جميع الأسطول الجزائري • وكان له فى
مهنته أيام له وأيام عليه • فقد خسر مرة سفينة من نوع الشبيكة يملكها
الداي نفسه ، ووقف ذات مرة على الجانب الخاسر فى محاولة سياسية
فاشلة • ولكن الحظ كان معه فى كل مرة ، ولذلك استطاع أن يخرج
سالما من كل اختبار • وكانت أكبر عملية اسمها بعد ذلك (البرتغالية) _
فيها على الفرقاطة البرتغالية التي أصبح اسمها بعد ذلك (البرتغالية) _
البرتغيزا _ وعندما انضمت اليها السفينة المسماة (الأمريكيـة) _
الميريكانا _ (12) ، وكذلك سفينته هو الخاصة ، أصبح لديه قطعة من
الأسطول تتألف من ثلاث سفن من نوع الفرقاطة ذات أربع وأربعين مدفعا ،
وكانت هذه القطعة فى الواقع من أخطر قطع الأسطول البحري الجزائري
منذ أكثر من نصف قرن • وكانت غنائمه وأسراه الذين حصل عليهم بعد
انزاله البحارة على سواحل البرتغال ، وصقلية ، ونابولي ، وجزر البحر
الأبيض ، قد جعلته يملك ثروة طائلة ويصبح محل احترام وتقدير • ويجمع
الكتاب على أن الرايس حميدو كان يتمتع بالوسامة وكذلك بالذكـاء
والشجاعة • وكان محظوظا لأن نشاطه تصادف مع الفوضى التي عرفتها

---

(11) A.N., K 1334, N° 6.

12 _ كانت هذه السفينة « هدية » من جمهورية الولايات المتحدة الشابة .

فترة الثورة الفرنسية وحروب نابليون حين كان من الصعب على الدول البحرية أن تحافظ على النظام ، ولكن يبدو أنه كان رجلا يتمتع بعبقرية عظيمة وأنه كان سيترك بصماته (على الأحداث) مهما كانت الأحوال . ولكن نهايته كانت سريعة ،سنة 1815 . ذلك أن جمهورية الولايات المتحدة الوليدة كانت لها معاهدة مع الجزائر موقعه سنة 1795 تدفع بمقتضاها الولايات المتحدة اتاوة في مقابل سلامة سفنها ، ولكن عندما رفض توماس جيفرسون الاستمرار في دفع الاتاوة أصبحت التجارة الأمريكية تمثل غنائم سمينة . وما دامت الولايات المتحدة ليس لها عندئذ بحرية جاهزة ، فان الجزائريين لم يحافظوا الا جزئيا على المفاوضة . وهكذا فانه بمجرد ما أنهت معاهدة غانت Ghent الحرب المبيدة مع بريطانيا ، سارع الرئيس جيمس ماديسون بارسال قطعة من الأسطول تحت قيادة الضابط (الكومودور) ستيفان ديكاتور S. Decatur الى البحر الأبيض لمعاقبة « القراصنة » . وقد التقى الأمريكيون قرب رأس غات Cape de Gatt بقاطة جزائرية تحمل العلم الأنكليزي . وكان الأمريكيون يحملون أيضا العلم الأنكليزي الى أن أصبحوا قاب قوسين من ضحيتهم . وخلال المعركة التي نشبت أجبرت السفينة الجزائرية على الضرب : ولكن الرايس حميدو الذي كان عليها أصيب بقذيفة مدفع قوية فشطرته شطرين . ولم يحدث بعد ذلك أبدا أن ظهر بحار ــ قرصان بطل . ففي السنة الموالية (1816) أدى هجوم اللورد اكسموث Exmouth على مدينة الجزائر الى ضرب المؤسسة البحرية الجزائرية ضربة قاضية .

الفصل الثامن
الأرقاء

ما دام احصاء السكان لم يستعمل قط ، فان أي تقدير لعدد الأرقاء ، أو الأحرار فى شمال افريقية خلال هذه القرون التي ندرسها هو ، فى أحسن الأحوال ، مجرد تخمين • ويخبرنا الراهب الأب دان أنه كان هناك حوالي خمسة وعشرين ألفا من الأرقاء الذكور وألفا من الاناث فى الجزائر خلال الثلاثينات من القرن السابع عشر • ويبدو أن رقم خمسة وعشرين ألفا هو الرقم الذي يمكن أن يتفق عليه معظم ملاحظي نصف القرن السابع عشر ، ولكن هذا الرقم لم يقل شيئا عن الأرقاء الكثيرين الذين كان يملكهم سكان المدن الأخرى من الايالة أو الذين يملكهم السكان بداخل البلاد أو القبائل المتنقلة • ولعل رقم الخمسة والعشرين ألفا رقم مرتفع جدا بالنسبة لمدينة الجزائر وحدها وهو أيضا رقم منخفض جدا بالنسبة لعدد الأرقاء جميعا •

ويخبرنا أحد الملاحظين ، وهو أكثر ثقة من غيره ، بأن عدد الأرقـاء المسيحيين الذين كانوا يباعون فى أسواق مدينة الجزائر بين 1520 و 1660 كان يتراوح بين خمسمائة ألف وستمائة ألف نسمة • غير أن هذا الرقم قد يبدو عاليا جدا ، لأنه يتطلب أسر حوالي أربعة آلاف رقيق فى السنة ، ومع ذلك فانه من المحتمل أن حوالي أربعمائة ألف رقيق كانوا قد بيعوا خلال هذا العهد • ومهما كانت الأرقام للسنوات الواقعة بـين 1660 والاحتلال الفرنسي سنة 1830 ، فانه يجب أن تتذكر بأن عدد الأرقاء قد انخفض بشكل حاد فى القرن الثامن عشر ، ومع ذلك فمن المحتمل أن وقما يقع بين مائتي ألف ومائتين وخمسين ألف رقيق قد أسر خلال هذا العهد الأخير (القرن 18) • وبينما يبدو واضحا أن هذه الأرقام مطاطة فانها أيضا تعكس حجم المشكلة • وتدل الشواهد التي لدينا بوضوح على

ان عدد الأسرى كان فى بعض السنوات أكثر منه فى سنوات أخرى • ومع ذلك فانه من الممكن أن نقدر بأن معدل الرقم هو حوالي ثلاثة آلاف أسير فى السنة خلال العهد الأول (1520 — 1660) ، وقد يكون الرقم أقل من ألفين فى السنة فى العهد الثاني (1660 — 1830) ، وما دام معظم الأرقاء من الرجال فانه من الصعب أن نقدر أثر هذا الأسر على البنيات الديموغرافية فى البلدان التى ينتمي اليها الأرقاء • ومن الواضح أن أكبر النقص كان من نصيب السكان الأسبان والايطاليين ، ومن المحتمل أن يكون ذلك أحد العوامل فى الأزمة الديموغرافية التي عاشها شعب ايطاليا وأسبانيا فى آخر القرن السابع عشر • ذلك أن كليهما فقد بين ثلاثمائة ألف وخمسمائة ألف نسمة • لكن تجب الملاحظة بأن هذا النقص قد أثر فى الأغلب على الاطارات البحرية أكثر من تأثيره على مجموع السكان •

ومن يكون هؤلاء الناس الذين كانوا يباعون فى المزاد كما تباع الأمتعة؟ لقد كانوا أناسا يتكلمون كل اللغات الأروبية • معظمهم جاؤوا من شواطىء البحر الأبيض أو من المناطق القريبة من هذا البحر من جهة المحيط الأطلسي ، ومع ذلك فانه كان فيهم من جاء من روسيا ، وألمانيا ، والجزر البريطانية ، والبلاد الاسكندنافية ،والأراضى المنخفضة (هولاندا) وشمال فرنسا • ولعل معظمهم كانوا بحارة أسروا وهم فى البحر ، ولكن كان هناك آلاف من القرويين الذين أسروا أثناء الغارات ، ومآت من أهل المدن وغيرهم ، أولئك الذين كانوا مسافرين على ظهر سفن والذين اعتقلوا كغنائم • وهكذا فانهم كانوا على أنواع : فيهم أعلى النبلاء ، وكبار الملكيين ، وضباط السفن ، والتجار ، والمسافرون البرجوازيون ، بالاضافة الى رجال البحر العاديين والفلاحين الفقراء • وكان الأغنياء وأصحاب الوجاهة يفتدون ،أما البقية فمعظمهم يبقى مسترقا مدة السنوات الباقية من حياته ، وبالنسبة لهذا القسم الأخير فان مصيرهم قد يكون تجربة قاسية وقد يكون مصيرا رغدا نسبيا أفضل مما كانوا يأملون فيه فى أروبا • أما بالنسبة للجزائريين ومدينتهم ، التي هي مركز الحروب فان الأرقاء ، سواء كانوا من النوع العالي أو من النوع الأدنى ، كانوا يمثلون مظهرا هاما من مظاهر ازدهارهم الاقتصادي

الفصل الثامن

الأرقاء

ما دام احصاء السكان لم يستعمل قط ، فان أي تقدير لعدد الأرقاء ، أو الأحرار فى شمال افريقية خلال هذه القرون التي ندرسها هو ، فى أحسن الأحوال ، مجرد تخمين • ويخبرنا الراهب الأب دان أنه كان هناك حوالي خمسة وعشرين ألفا من الأرقاء الذكور وألفا من الاناث فى الجزائر خلال الثلاثينات من القرن السابع عشر • ويبدو أن رقم خمسة وعشرين ألفا هو الرقم الذي يمكن أن يتفق عليه معظم ملاحظي نصف القرن السابع عشر ، ولكن هذا الرقم لم يقل شيئا عن الأرقاء الكثيرين الذين كان يملكهم سكان المدن الأخرى من الايالة أو الذين يملكهم السكان بداخل البلاد أو القبائل المتنقلة • ولعل رقم الخمسة والعشرين ألفا رقم مرتفع جدا بالنسبة لمدينة الجزائر وحدها وهو أيضا رقم منخفض جدا بالنسبة لعدد الأرقاء جميعا •

ويخبرنا أحد الملاحظين ، وهو أكثر ثقة من غيره ، بأن عدد الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يباعون فى أسواق مدينة الجزائر بين 1520 و 1660 كان يتراوح بين خمسمائة ألف وستمائة ألف نسمة • غير أن هذا الرقم قد يبدو عاليا جدا ، لأنه يتطلب أسر حوالي أربعة آلاف رقيق فى السنة ، ومع ذلك فانه من المحتمل أن حوالى أربعمائة ألف رقيق كانوا قد بيعوا خلال هذا العهد • ومهما كانت الأرقام للسنوات الواقعة بين 1660 والاحتلال الفرنسي سنة 1830 ، فانه يجب أن تتذكر بأن عدد الأرقاء قد انخفض بشكل حاد فى القرن الثامن عشر ، ومع ذلك فمن المحتمل أن رقما يقع بين مائتي ألف ومائتين وخمسين ألف رقيق قد أسر خلال هذا العهد الأخير (القرن 18) • وبينما يبدو واضحا أن هذه الأرقام مطاطة فانها أيضا تعكس حجم المشكلة • وتدل الشواهد التي لدينا بوضوح على

وإذا وقعت السفينة في الأسر فان أول شيء يجري هو احصاء حمولتها ووضع قائمة بطاقمها ومسافريها • وكان الأسرى يسألون عدة أسئلة لمعرفة أهميتهم واحتمال الثروات التي لهم • والذي يعطي فكرة عن حالة الانسان هو عدم وجود كلكلة في يديه ، وطريقة حديثه ، وفصاحة لسانه ، ولطافة كلماته • ومن الطبيعي أن يرغب كل مسافر في اظهار تواضع حالته لكي يتفادى مطالب الفداء العالية • ولكن البحارة — القراصنة كانوا يسألون الطاقم وكان الاعلاج الموجودون بين البحارة القراصنة يحاولون الحصول على المعلومات من الأسرى باظهار اللطف وعرض الخدمات البسيطة • وأحيانا يصبح العنف هو القانون • وكان أعضاء الطاقم يضربون ضربا اذا رفضوا اعطاء المعلومات أو تقدموا بأجوبة غير مرضية على الأسئلة •

وعندما تصل السفينة الأسيرة الى الميناء ، يقاد الأسرى الى قصر الجنينة أو « دار الامارة » ، حتى يقدر الباشا أو الداي حقه الذي هو بين العشرة والاثني عشر في المائة من مجموع الأسرى • وبعد أن يختار هو سهمه ، فان الباشا — الداي يحتفظ أيضا بحق شراء أي رقيق بالسعر الذي وصل اليه في المزاد من أول مشتر • ثم يقاد بقية الأسرى الى البانيو Bagño (السجن) • وفي صباح اليوم التالي يعرضون للبيع في المكان المسمى البيزستان Bezestan أو السوق الرئيسي • ويخبرنا الدكتور اندرهيل بأنه كان قد جرد من ملابسه الا ما يستر عورته وعرض للبيع رفقة « الابل ، والبغال ، والماعز ، والأرانب ، والمهاري ، والنساء والرجال ، وغير ذلك من المخلوقات ، اما لاشباع الشهية واما للاستعمال ••• » وكان الصباح مخصصا لفحص الأسرى : أيديهم ، وأسنانهم ، وصحتهم العامة ، واحتمال السن ، وامكان القيمة بالنسبة لنقود الفداء • أما البيع فيجري بعد صلاة الظهر ، حيث يستعرض الحارس الأسرى الواحد اثر الآخر الى المنصة ، وهو يعطي الحاضرين فكرة عن قيمة كل أسير الحقيقية أو المحتملة في الفداء ، وعندئذ يباع الأسير الى المشتري الذي يدفع أعلى ثمن • ان كل من مرة بهذه التجربة ثم كتب عنها لا يترك لنا مجالا للشك حول الهلع الذي يصادفه والوضع المزري الذي يشهده •

وبينما رؤية المرء لنفسه يباع فى المزاد يجب أن يكون لها أثر مريع على الشخص ، فان على أهل القرن العشرين أن يتذكروا بأن الرق فى الجزائر لم يكن هو نفس الرق الذي كان فى أمريكا بشارلستون ، ونيوأورليانز ، وكنغستون ، أو هفانا • ان رق البحر الأبيض كان ، منذ أقدم العصور ، يتعلق دائما بأناس من نفس لون المالك ، وأحيانا حتى من نفس سلالته وثقافته • ان الرقيق كان مخلوقا سيء الحظ وقع فى حالته تلك عن طريق الصدفة بالحرب ، أو الفقر ، أو الميلاد • وكان مالكه يعلم أن دورة عجلة القدر قد تضعه أحيانا فى نفس الحالة • وهكذا ، فانه بينما يوجد مالكون قساة ، وطلاب ثأر أمثال الموريسكيين اللاجئين من أسبانيا ، وعمل شاق لأدائه ، فانه لم يكن وضع الأرقاء فى شمال افريقية هو نفس وضع الزنوج فى احدى المزارع الامريكية • وأن الدين الاسلامي حاول أن يلطف من حالة الرقيق : فقد نص على أن جميع الناس اخوة ، وأن الاختلاف فى العقيدة واللون والأصل لا يقلل من قيمة الانسان • بينما كان الرهبان العاملون على فداء الأسرى ، والذين كانوا يجوبون البلدان قرية قرية طالبين الصدقات لدراهم الفدية ، قد قدموا لسامعيهم حكايات مريعة حول حياة وأوضاع الرقيق فى شمال افريقية — فان الحقائق لا تؤيد كل التأييد هذه القصص ، ما عدا فى الحالات غير العادية حينما يصبح الرقيق ملكا لمالك قاس ، وقد يكون حتى مختل العقل ، أو يجد نفسه مربوطا الى مقعد التجديف فى احدى السفن •

ورغم أن حكايات الرهبان قد يكون مبالغا فيها ، فان الرق كما سنرى ، كان تجربة محطمة للنفس ، وأحيانا مرعبة لأغلب الرجال والنساء الذين حملوا الى ساحل شما لافريقية ضد ارادتهم • وأكبر فاجعة مروا بها ، فيما يبدو ، هي فصلهم عن أصدقائهم وعائلاتهم وكونهم وجدوا أنفسهم فى أرض حيث اللغة والعادات والدين غريبة عنهم • ورغم أن كثيرا منهم كانوا معتادين على العيش فى أسفل درجات السلم الاجتماعى فى مجتمعاتهم الخاصة ، فان حالتهم كأرقاء أضافت الاهانة الى تعاستهم العامة •

وكانت الحالة الاجتماعية التي يتمتع بها الأسير فى بلاده هى أكبر عامل فى تحديد نوع المعاملة التي سيحظى بها فى شمال افريقية • وقد تواترت

الأخبار بأن أهل الثقافة ورجال المهارات كانوا يعطون عملا منحطا . ان الأرقاء الذين كانوا يحملون الأثقال ، أو يفلحون الأرض ، أو يجدفون فى السفن ، كانوا دائما تقريبا هم الناس الذين كان عملهم فى أوروبا أيضا عملا شاقا . ومن الأكيد أن هناك استثناءات ، ولا سيما فى أوائل القرن السادس عشر ، حين كان مشاهير الضباط يجبرون على التجديف ، ولكن بحلول القرن السابع عشر ، أصبح مثل هؤلاء الرجال ذوي قيمة كبيرة كمصدر للفداء بالدراهم لانقاذ حياتهم ، بدلا من المغامرة بهم فى التجديف . كما أن الرجال الذين يمكنهم تقديم المهارات التقنية التي يحتاجها أهل شمال افريقية كانوا أيضا ذوي قيمة كبيرة بحيث لا يغامر بحياتهم . وبينما توجد قصص ، لا شك أنها حقيقية ، عن سوء معاملة القساوسة من قبل اللاجئين الموريسكيين من الأندلس ، فانه يبدو أيضا أن القساوسة كانوا — فى معظم الأحيان — قد سمح لهم بالاستمرار فى مهمتهم — على الأقل بالنسبة لأولئك الذين كانوا قد تولوا هذه المهمة بجدية . ذلك أن أهل الخير من المسلمين يعترفون ويحترمون الأعمال الخيرية والاحسان حيثما وجدوها . ولدينا شواهد كثيرة تؤيد الادعاء بأن القساوسة كانوا فى العادة يعاملون بالاحترام الواجب لمهنتهم . وهناك حالات نادرة ولكنها مروعة ، تشير الى قسوة المعاملة أو حتى الاغتيال من قبل اللاجئين الموريسكيين للقساوسة أخذا بالثأر من المعاملة المماثلة التي كان يتلقاها الموريسكيون فى الأندلس .

ان الأرقاء الذين تنبيء أحوالهم عن امكان الحصول منهم على نقود الفداء ، كانوا هم بالدرجة الأولى المفضلين عند الشراة . وما دام من مصلحة الضحية التقليل من قيمته واحتمال مبلغ الفداء الذي يتوقعه ، فان المفاوضات بين الأسير والمالك تتميز بنفس الاثارة التي نجدها اليوم فى سوق البضائع .

وكان الداي — الباشا ، الذي له الحق فى الاختيار الأول من الأرقاء ، وكذلك حق شراء آخرين منهم بثمن السوق ، قادرا بالطبع على الحصول على « أجود بضاعة » ، ولكن أغنياء الرياس والتجار ، بالاضافة الى أكثر أعضاء الجالية اليهودية تأثيرا — كلهم جمعوا نقودا عظيمة من هذه

التجارة • وعلى المستوى الأدنى نجد المالكين الأقل أهمية والأقل ثراء يشترون أيضا الأرقاء على أساس أن ملوكهم ، أو أقاربهم ، أو أصدقاءهم ، أو قساوستهم المتحملين بمسؤولية الفداء ، سيجدون النقود لفدائهم • وكان الاعتقاد السائد هو أن البحارة كانوا ذوي قيمة خاصة فى الجزء الأخير من القرن السابع عشر ، لأن الملوك الشماليين (*) كانوا يحتاجون الى افتدائهم لاستعمالهم فى أساطيلهم الجديدة التي أخذوا فى انشائها •

وكانت المفاوضات المتعلقة بتحديد المبلغ الذي يجب دفعه طويلة وصعبة بالنسبة للعائلات والأصدقاء الذين يمكنهم تقديم نقود الفداء • وكان الرقيق فى ذلك العهد فى العادة محروسا حراسة دقيقة ، بل أحيانا كان موقفا بالحديد لاقناعه بوجوب التوصل الى اتفاق مرضي مع مالكه • وقد جرت العادة أنه بعد الاتفاق على مبلغ الفداء تترك للرقيق حرية الحركة أكثر من السابق ولا يلزم بالعمل • وليس من الصعب على الرقيق أن يعطي كلمته بأنه لن يحاول الهرب ، لأن الهرب كان من الخطر بحيث يستحق المجازفة اذا كان الفداء قد اتفق عليه • ولكن كم هي النقود التى كان يجري بها العمل ؟ ان المبالغ أحيانا كانت ضخمة • فهذا مثلا دون مارتن القرطبي de Cordova ، ماركيز كورتيز de Cortez ، دفع الى حسن باشا 23 000 ايكو Ecus ذهبا (**) • وهذا نبيل من كاتلان Catalan ، اسمه غلاسيران دي بينوس de Pines وافق على دفع مائة قطعة حرير ، ومائة ألف دوبلات (doubles) ذهبا ، ومائة حصان ، ونفس المبلغ من البقر • وهذا أسقف غوفيا Govea دفع 16 000 دوكا • وهذا ابن أخ حاكم البرازيل دفع 4 000 دوكا ، وحاكم مازغان Mazagan 10 000 دوكا • وهذا الأب أنطوان دي لاكروا de la Croix دفع 5 000 ليفر Livres • أما صاحب الحرفة أو البحار العادي فقد يدفع لفدائه حوالي 500 ليفر • ولكن ما قيمة هذه العملات ؟ انه لا أحد يستطيع أن يخبرنا سوى صاحب قروض مالية من تلك العصور عن هذه

(*) ــ يقصد المؤلف بـ «الشماليين» سكان الدانمارك وهولاندا والسويد وغيرها من البلدان غير اللاتينية • (المترجم) •

(**) ــ جاء فى القاموس أن الـ (ايكو) كانت عملة فرنسية فضية او ذهبية ، وكانت فضية على الخصوص في القرنين 17و18 • (المترجم) •

« الدوبلات » و « الدوكات » و « والليفرات » و « القطع الثماني »
وما قيمتها في مصطلحات النقود التي يفهمها انسان القرن العشرين ؟ ونلاحظ
أن كثيرا من هذه الافتداءات الضخمة كانت بدراهم معدنية كانت متداولة
في حوض البحر الأبيض بقيم متنوعة . وبآخر القرن السابع عشر وصلت
قراضة العملات الذهبية والفضية درجة لم تعد فيها الدراهم تقدر بالوزن
بدلا من القطعة . وكان لبعض العملات حواش مسكوكة لتضمن قيمة
العملة . والشيء الذي نعلمه هو أن الباشوات والرياس وأغنياء التجار ،
واليهود ، واللاجئين الموريسكيين ، وأبناءهم — كانوا يعملون في تجارة
الفداء ، وأن هذه التجارة كانت مظهرا هاما من مظاهر مجموع اقتصاد
ايالات شمال افريقية ، ولا سيما ايالة الجزائر ، ما دامت هذه المدينة ليس
لها الا القليل من التجارات الأخرى التي تولد المبادلات سواء في المدينة
نفسها أو في داخل البلاد .

وتوجد عدة طرق لدفع الفداء . كان التجار اليهود ، بما لديهم من
مراسلين في ايطاليا ، وفرنسا ، وامستردام ، هم في الغالب وكلاء الدفع .
كما أن وكلاء التجار الانكليز والفرنسيين في لندن ومرسيليا كانوا يقومون
بنفس المهمة . وكذلك كان يقوم عدد من القناصل الأوروبيين الذين لهم
وكلاء مبعوثين من بلدانهم ، يضاف الى ذلك طبعا القساوسة الذين كانوا
منتدبين للفداء والذين كانوا يقومون بالوساطة للافراد وكذلك كانوا
يشرفون على الأموال التي جمعها الرهبان في البلدان المسيحية . ونقل
الحالة من الرق الى الحرية يمكن أن يتم في القنصليات بمدينة الجزائر
عندما تكون هناك سفينة في الميناء يمكن اقناعها بحمل الرقيق المحرر الى
بلده ، أو يمكن ارسال الرقيق الى مدينة ليفورنيا حيث كان دوق
توسكانيا ، الذي أوجد آباؤه النظام الصليبي المسمى سان ستيفان ،
يبقى على « سجن الرقيق » الذي يمكن الاحتفاظ فيه بالرقيق الى أن
تتم جميع الاجراءات لتحريره . وكان الدوق المذكور يتقاضى بالطبع نسبة
مائوية من هذه الخدمات . وهناك « سجن للرقيق » مشابه للأول في
مدينة سبتة عبر مضيق جبل طارق من أسبانيا وهو يخضع لشروط مشابهة .

ومن الواضح أن الأغنياء والنبلاء كانوا يتوقعون دفع الفداء عنهم ، اللهم الا اذا كانت هناك أسباب تؤثر على حالة استقرار الدولة أو على ملاكهم قد تمنع من تحريرهم • ورغم ذلك فقد يحتاج الأمر على الأقل الى سنة كاملة قبل أن يستطيع هؤلاء المحظوظون مغادرة شمال افريقية أحرارا • ولكن ما مصير أولئك الناس الذين ليس لهم دراهم ولا عائلة ولا أصدقاء لهم دراهم ؟ ان الأنكليزي والفرنسي والهولاندي ، بعد منتصف القرن السابع عشر على الأقل ، قد يتوقع تحريره بطريق معاهدة بين حاكمه وايالة الجزائر • وهناك صعوبات في ايجاد الدراهم واجراء التبادل ، وقد يقضي عليه طاعون أو حادث ما قبل تحريره ، ولكن مع ذلك فان الأنكليزي والفرنسي والهولاندي لهم فرصة في نيل الحرية • ولكن ما مصير الرقيق البائس اذا كان اسبانيا أو برتغاليا أو ايطاليا ؟ انها لحقيقة مرة أن نقول بأن معظم هذا النوع من الرقيق بقي مستعبدا طول حياته • وبينما كانت الايالات غالبا ما تتطلع الى عقد الصلح مع الدول التجارية القوية ، فليس هناك سلام مع ملك الدولة الاسبانية ، ولم يكن هناك قناصل يسهرون على مصالح رعايا الملك الاسباني ، غير أن قساوسة (التنظيم التثليثي المقدس وافتداء الأسرى ـ أو المثلثون) و (تنظيم سيدة الرحمة ـ أو آباء الرحمة) حاولوا ملء الفراغ الذي خلفته الحروب الطويلة بين الدولة (الأمبراطورية) الأسبانية وايالات شمال افريقية ، ولكن هذا « الفراغ » بقي عريضا حقا •

وكان لهذين التنظيمين تاريخ طويل ومشرف يعود الى ما قبل نشاطهم على سواحل شمال افريقية في القرون التي نتحدث عنها أي منذ 1520 • فالتنظيم التثليثي كان قد تأسس سنة 1198 ، وتنظيم الرحمة تأسس سنة 1232 • وكان الأول تنظيما فرنسيا بالدرجة الأولى ، رغم أن جميع أروبا الغربية كان في منظوره • وكاد الأخير أن يكون كله تنظيما ايطاليا ـ اسبانيا الى القرن السابع عشر ، حين أدخلته ماري دي مديشي de Medici الى فرنسا • وكلا التنظيمين كان له تاريخ طويل في الافتداء عبر العالم الاسلامي ، وكان كلاهما في القرن السابع عشر يعملان في كل من المشرق وشمال افريقيا•ويمكن اعطاء فكرة عن حجم وثروة التنظيم التثليثي وحده وهي أنه في سنة 1789 ، كان له حوالي مائتين وخمسين فرعا منتشرة من

البرتغال واسبانيا الى فرنسا وايطاليا ، مع ملاحظة أن حوالي نصف هذا العدد كان فى فرنسا وحدها . وكانت هذه الفروع عبارة عن مؤسسات أديرة على درجة من الاختلاف فى الثروة . ولا شك أن التنظيمين كانا يراقبان الأملاك العريضة من الأرض والمنازل التي تدعم نشاط تلك الفروع . ومن الطبيعي أن يوجد تنافس بين الفروع ، وعندما دخل تنظيم الرحمة الى فرنسا فى الربع الثاني من القرن السابع عشر تدخل العرش وقسم الأقاليم بينهما بهدف جمع المداخيل لكي يخفض من حدة النزاع الذي تطور بينهم .

وكان أعضاء التنظيمين ينتقلون من قرية الى أخرى ، ومن مدينة الى مدينة ، يجمعون المال للفداء ، ويصر السيد طاسي ، وكذلك غيره من الملاحظين ، على أن أولئك الأعضاء كانوا يخبرون بحكايات مبالغا فيها ، ويستعرضون الأرقاء السابقين فى « محفل مهيب ... بلحاهم غير المحلقة ... وبوجوه تعسة ... وهم مثقلون بالسلاسل التي لم يوثقوا بها أبدا ... » وبذلك سيطروا على عواطف الناس الذين كانوا « يرمون بالذهب والفضة فى الأواني ... » وقد يكون الرهبان مذنبين بفعلهم ذلك ، كما يؤكده طاسي ، ولكن هناك شواهد مؤكدة بأن هناك أيضا دجالين متخفين فى زي الرهبان ، وليسوا فى الواقع أعضاء فى تنظيم الفداء ولا فى أي تنظيم آخر ، وانما كانوا يستغلون سذاجة الناس . وكان « الأرقاء السابقون » الذين يستعرضهم هؤلاء الدجالون يحملون سلاسل أكثر ثقلا ويقصون حكايات أكثر فظاعة من أولئك الذين يرافقون أعضاء التنظيمات « الشرعية » وكم من الدراهم المجموعة يصرف فى الفداء ؟ لقد كان للتنظيم التثليثي وتنظيم الرحمة بيوتهم فى الفرع الذي ينتمون اليه وكان عليهم الابقاء على ذلك ، بالاضافة الى فداء الأرقاء . أما الدجالون فقد كان لهم فقط أنفسهم و « الأرقاء السابقون . » وما دامت تنظيمات « الخير » و « الرحمة » فى القرن العشرين تجمع الدراهم « لهذا الغرض أو ذاك من الأغراض الخيرية » وتستعمل منها غالبا أكثر من خمسين فى المائة « للادارة » فيجب أن لا نعجب من أن نجد الرهبان لم يستعملوا كل النقود التي جمعوها لتحرير الأرقاء .

وكان قساوسة الفداء دائما محل ترحيب في الجزائر • وكان الداي ـ الباشا يستقبلهم حالما يصلون ، لكي يكتشف ، فيما يبدو ، كم أحضروا معهم من نقود للفداء • وأول أمر يصدر هو دائما معاملة القساوسة الأخيار بالنزاهة والحسنى وعدم الاعتداء عليهم • وكانت الايالة في حاجة الى الدراهم التي أحضروها ، فمن عدم الحكمة افساد مستقبل دفع مبالغ الفداء بسوء معاملة القساوسة أو من هم معهم • وأول الأرقاء الذين يحررون هم أولئك الذين يملكهم الباشا وغيره من الأعيان ، وهم في العادة الأرقاء الكبار في السن والعجزة الذين لم يعودوا مفيدين لمالكيهم • ولا يقع تحرير أي رقيق آخر الا اذا تمت الاجراءات بشأن هذا الصنف منهم • وطبيعي أن هذه الطريقة في العمل لم تكن معلنة صراحة ولكن القساوسة كانوا يفهمونها • وعندما يغادر القساوسة قصر الباشا يحيطهم الأرقاء من كل جانب سائليهم أن يكونوا أول الطلقاء • لقد كان ذلك منظرا مؤلما حقا • فهم جميعا كانوا يبدون جديرين بالفداء ، ولكن الدراهم التي كانت لدى القساوسة كانت محدودة جدا • وكان الفداء الفعلي يستغرق في العادة عدة أسابيع ، وعندما يتحقق ذلك كله ، تعطى هدايا للباشا ، والآغا ، وأبرز أعضاء الديوان ، ومسؤولي الميناء • وكانت هذه الهدايا تتراوح بين مبلغ زهيد لمسؤول بالميناء الى مبلغ هام للباشا والآغا • وكان القنصل الفرنسي ، الذي هو الحامي « غير الرسمي » للقساوسة ، يعد في بعض الأحيان « مائدة مفتوحة » من أجل الرياس وضباط الانكشارية الذين كانوا بالمدينة • وكثير منهم كانوا من الأعلاج الذين يقدرون الخمر الفرنسي حق قدره •

وكان القساوسة يعملون أيضا كوكلاء للفداء الخاص بالمساجين البارزين • وكانت هذه الخدمات محل ترحيب خاص ما دام القساوسة يجيئون بالنقود العينية الى الجزائر دون التعرض لخطر الأسر الذي قد يحصل للسفن الأخرى ، كما أن باستطاعتهم « تصدير » الأرقاء الأحرار آمنين الى ميناء مسيحي • ولا يوجد دليل على أن القساوسة كانوا ينالون مقابلا ماليا على هذه الخدمات ، ومع ذلك فالظاهر أنهم كانوا ينالون مقابلا ما دام القناصل والتجار الذين يعيشون بالجزائر كانوا دائما يتقاضون مقابلا على عملهم كوكلاء •

وكان الجود الملكي أيضا بطيئا ف تدخله لانقاذ الأسرى • فملوك انكلترا الاستوارتيين الأولين لم يقوموا بفداء رعاياهم ، وقد برروا ذلك من انقاذهم للرعايا الأنكليز سيقنع البحارة ــ القراصنة بأن أسر بحجة أن انقاذهم للرعايا الأنكليز سيقنع البحارة ــ القراصنة بأن أسر الأنكليز كان مغامرة تجارية رابحة • وبعبارة أخرى فان الفداء لا يشجع سوى النهب • وبذلك كان احسان القساوسة الأنكليز ، ف باديء الأمر ، أو احسان الأفراد الأغنياء هو المصدر الوحيد للأسرى الفقراء الذين ليس لهم أصدقاء معهم نقود • ولكن خلال الأربعينات من القرن السابع عشر فرض البرلمان الأنكليزي ضريبة قدرت بواحد ف المائة ــ وسرعان ما خفضت الى ربع ف المائة ــ على التجارة لفداء الأرقاء الأنكليز • ولكن بنهاية ذلك التاريخ (الأربعينات من القرن السابع عشر) لم تذهب الى الجزائر الا بعثة واحدة لانقاذ أسرى الأنكليز ، وف العقد التالى خصصت تلك الدراهم لاستعمال الأسطول البحري • ومن جهة أخرى كان الملوك الفرنسيون أيضا بطيئين ف تخصيص المال للفداء • فقد أعطي الملك لويس الثالث عشر مبلغا زهيدا الى سانسون نابولون Napollon وأمر المدن الفرنسية أن تدفع قيمة فداء زملائهم سكان المدن • ولكن خلال الفترة من 1635 والعشرة الستين من هذا القرن كانت مصاريف الحرب والمشاكل المنجرة عن ثورات الفلاحين ضد الضرائب قد انهت هذا الكرم الملكي • وقد كان برلمان الأراضي المنخفضة (هولاندا) هو أول سلطة أروبية تقوم بتنظيم الفداء والحماية من الغارات ، وذلك بعقد معاهدة تنص على دفع « اتاوة » ، وهو عمل اعتبره القناصل الفرنسيون والأنكليز مهانة ومدعاة للخجل من كل الوجوه ، ولكن الهولانديين قرروا أن « شراء » الحماية أرخص من فرضها بواسطة السفن الحربية •

كان كروموبل Cromwell هو أول من استعمل القوة البحرية بفعالية لحماية التجارة وفداء الأسرى معا • ومع ذلك فان كلا من أنكلترا وفرنسا لم يرسلا قطعا قوية من الأسطول البحري لفرض احترام تجارتهم على الايالات وتحرير رعاياهم المسترقين الا بعد سنة 1660 • وسنرى أن هذه الحملات كانت ناجحة طالما أمكن الابقاء على الضغط البحري ، لأن الايالات (الشمال افريقية) ليس لها قوة بحرية بالمقارنة • غير أن الدول الأروبية كانت أيضا غالبا ف حروب ضد بعضها ، وكانت مضطرة لاستعمال

قواتها البحرية ضد بعضها ، تاركة « معاقبة » الايالات الشمال افريقية الى فترات السلام فى المنازعات الأروبية • وقد كانت هناك مشاكل حتى مع تحقيق النجاح • فالأرقاء الذين لم ينجز بيعهم بعد كان يمكن اطلاق سراحهم ، ولكن الأرقاء الذين اشتراهم الأفراد قد أصبحوا « ملكية خاصة » • وكان ملوك الأنكليز والفرنسيين يحترمون « الملكية الخاصة » رغم أنها تعني أن المملوك هو أحد الأنكليز أو أحد الفرنسيين • ولذلك فان المعاهدات التي جاءت عقب حملات بحرية ناجحة ضد البحارة — القراصنة لايالات شمال افريقية كانت تنص على « اعادة شراء » الأسرى وقد جرت العادة أن يكون ذلك بثمن محدد • وكانت هذه المادة فى المعاهدات غالبا ما تسبب مشاكل للقنصل ، لأن الملوك كانوا غير قادرين على توفير الدراهم اللازمة لفداء جميع رعاياهم • وفى حالة الأسير الفرنسي ظهر مشكل آخر من المعاهدات التي تنص على تبادل الفرنسيين بأتراك أو أهالي شمال افريقية (Moors) الذين كانوا مربوطين فى السفن بفرنسا • وسنرى أن الفرنسيين ، الذين كانوا لا يريدون التخلي عن أرقاء مفيدين ، اكتفوا بارسال المسنين والمرضى والعجزة فقط ، بل كان يحدث أن يرسلوا بأناس لم يدخلوا الجزائر قط ولم يكونوا يقومون بأي عمل جزائري •

وهناك اضافة أخرى تضاف الى الصعوبات التي كان يواجهها الأرقاء الأنكليز فى شمال افريقية • ذلك أن بعضهم كان يطلق سراحه بفضل جهود التجار الذين كانوا يشترطون على الرقيق أن يوافق على دفع جزء من مبلغ نقود الفداء أو كله عندما يعود الى أنكلترا • وفى هذه الحالة فان التاجر المزود بالنقود من الأساقفة أو من الملك ، كان بامكانه أن يحرر عدد أكبر من الرقيق ، ما دامت نقود الفداء ستتضاعف عندما يعد الرقيق أيضا بدفع جزء منها • ولكن ما يحدث غالبا هو أن الفقراء لا يستطيعون توفير النقود عندما يعودون الى أنكلترا ، فكان حالهم وهم فى سجن أحد الدائنين (بأنكلترا) ربما أسوأ من حالهم وهم فى الجزائر حيث كانوا يتمتعون على الأقل بحرية الحركة حول المدينة •

وما مدى فعالية جهود الفداء ؟ لقد حاول غرامون Grammont أن يقدر عدد الأرقاء الذين تم فداؤهم بواسطة المنظمات الخيرية ، وبالكرم الملكي ،

وبالدفع الفوري ؛ ثم حاول أن يحصي عدد الأرقاء الذين تم تحريرهم عن طريق جهود البحرية الأوروبية . ان سفن مالطة والبندقية قد أسرت وحررت الآلاف من أرقاء السفن المسيحية . وأضافت بحرية انكلترا والأراضي المنخفضة أيضا آلافا أخرى الى هذه القائمة ، وبالاضافة الى ذلك فان البحارة ــ القراصنة المالطيين والأسبان والايطاليين أسروا ، أثناء غاراتهم على سواحل شمال افريقية ، أرقاء مسيحيين ومسلمين أيضا ليبعهم في أسواق الرقيق بالبلاد المسيحية . وقد استنتج غرامون من ذلك أن العمليات البحرية قد حررت من الأرقاء عددا أكبر مما قامت بـه المنظمات المسيحية الخيرية .

ولكن انصافا للرهبان وغيرهم الذين خدموا قضية الفداء ، بالاضافة الى العدد الخيري منهم الذين قدموا حريتهم وحياتهم كشهداء لهـذه القضية ــ يجب علينا أن نشير الى أن السنوات الواقعة بين 1550 و 1750 لم تكن سنوات جيدة لجمع النقود . ففي السنوات الأربعين الأخيرة من القرن السادس عشر كان الاقتصاد الفرنسي قد اختل كثيرا نتيجـة الحـروب الأهلية والدينيـة ، بينما كانت حركـة اصلاح الكنيسـة (البروتستانتية) قد فصلت كثيرا من أجـزاء أروبا عن المجموعـة الكاثوليكية ، ومن ثمة أوقفت جمع النقود من بعض الأقاليم الأكثر ثروة التي كانت الى ذلك الحين مرتعا للرهبان . وفى نفس تلك السنوات كانت كاستيل وأجزاء من ايطاليا قد نخرت عظامها الضرائب التي فرضها عليها فيليب الثانى من أجل حروبه فى البحـر الأبيض وفى الأراضى المنخفضة ، والقنال الأنكليزي (بحر المانش) والمناطق الأطلسية القريبة من شبه جزيرة ايبريا . بل كان القرن السابع عشر أقل مواتاة لجمع النقود . فقد كانت أسبانيا والبرتغال تعاني تدهورا اقتصاديا وديموغرافيا خطيرا بينما كانت حاجات الملك تزداد توسعا . وأكثر من ذلك أهمية فان أحوال الطقس المخربـة التى أدت الى الجفـاف ، والصقيـع ، والفيضانات ، ومع هذه حدثت أيضا المجاعة والطاعون ــ قد أثرت على أروبا كلها . فالجماعة الزراعية التى كانت تعانى المجاعـات كل عشر سنوات تقريبا لم تكن لها نقود كثيرة تخصصها لعمل خـيري بعيد عنها . وأضيف الى سوء المحاصيل عامل آخر لا يقل خطورة ، وهو

الحرب • فالحرب الألمانية الكبيرة التي أصبحت صراعا غطى كل أروبا الغربية والتي تسمى اليوم حرب الثلاثين سنة ، قد شغلت النصف الأول من القرن ، بينما الحروب التي تعرف الآن عادة بحروب لويس الرابع عشر ، قد استغرقت النصف الثاني منه • ومن الحق أن نقول ان أروبا لم تعرف بين 1618 و 1713 الا سنوات قليلة من السلام • ان الضرائب وابتزاز الجنود غير المنضبطين نسبيا ، كانت تنافس جهود قساوسة الفداء وغيرهم من المؤسسات الخيرية في جمع الفائض الممكن من النقود عبر أروبا الكاثوليكية • وقد عانت أيضا الأراضي المنخفضة البروتيستاتية وأراضي العرش الأنكليزي من نفس الأزمات الزراعية الناتجة عن سوء أحوال الطقس ، بينما الحروب الأهلية والعالمية كانت تستنفد النقود والقوى البشرية التي كان جزء منها سيستعمل ، لو لم تحدث ، في فداء الأرقاء •

وليس كل الأسرى يمكن فداؤهم • فكل من قد يكون مفيدا في أحواض بناء السفن ، أو في مرحلة أخيرة ، مفيدا في مصاهر المدافع ، كان عظيم القيمة بحيث لا يفرط فيه بالفداء • ونفس الشيء يقال عن ضباط السفن البحرية العاملة الذين يمكن اقناعهم بأن يصبحوا أعلاجا ، أو الذين يمكن أن يكونوا مفيدين على ظهر السفن ولو كأرقاء • وكان مثل هؤلاء يخبرون مقدما بأن لا يطمعوا في الانقاذ أو الفداء ، وانه لا يمكن أن يعودوا الى أروبا المسيحية ، ولكن اذا تخلوا فقط عن دينهم ، فان لهم مكانة مشرفة وعيشة رغدة مضمونة لهم في مجتمع الايالة • فاذا رفضوا فان كبار النجارين منهم ، وبناة السفن ، وصهار الحديد ، وغيرهم يكلفون بالعمل في متاجرهم كأرقاء ـ أرقاء ولكن كانوا يعاملون معاملة حسنة حقا ، بل كانوا مدللين • وهناك فئة أخرى من الأسرى لا يمكن اجراء الفداء عليها ، فكما أن ضباط السفن البحرية الأروبيين يشنقون كل رايس علج وجدوه ، ويسجنون مدى الحياة كل رايس مسلم يمكنهم أسره لكي يخفضوا من عدد الضباط أصحاب الكفاءات العاملين في الأسطول البحري ، فكذلك كان بعض الضباط الأسبان لا يمكن فداؤهم (في الجزائر) خوفا من أن يعودوا للثأر ، أو لأن سلوكهم قد أغضب سلطات الايالة • ان خير الدين قد رفض حتى أن

وهو زعيم de Portomendo، يسمح بجثة دون جوان دي بورتوموندو
تمرد فاشل قام به الأرقاء، رفض أن يقبض عنه الفداء لدفنه • وهناك من الضباط من احتفظ به في الجزائر لأسباب شخصية • فقد احتفظ، الرايس علي بتشنين، مثلا بفارسين من فرسان مالطا كسجينين « شرفيين » ضمانا احتياطيا لفدائه هو في حالة ما اذا اعتقل هو أثناء معركة بحرية • غير أن هذه الحالات كانت غير معتادة، لأن أسر وفداء المسيحيين، ولا سيما في القرن السابع عشر، كان نشاطا تجاريا هاما الجماعة (بالجزائر) بحيث ليس لها الا القليل من التجارة الأخرى مع العالم الخارجي •

وقد كان الهروب طريقا آخر للحرية، ولكنه طريق صعب • ففي أوائل القرن السادس عشر عندما كان الأسبان ما يزالون يحتلون بجاية، تمكن عدد قليل من الفرار اليهم عبر الطرق البرية، ولكن ذلك كان عملية خطيرة: فعداوة الأهالي، والحيوانات الوحشية (وهي الأسود، والنمور، والفهود الموجودة بكثرة)، وقلة الزاد من الأكل والشرب — كل ذلك جعل الهروب كابوسا لأولئك الذين حاولوه • وهناك آخرون هربوا بطريق البحر • ذلك أن المغامرين البحارة من أسبانيا أو ميورقة كانوا يتفقون على مواعيد مع الأرقاء على الساحل، ولكن هذا أيضا كان خطيرا لأن الجزائريين كانوا يراقبون الوضع بشدة • وهناك على الأقل مرة أو مرتين من الهروب الناجح الذي وقع على ظهر زوارق بنيت سريا في الجزائر وانطلقت ليلا • وقد وصل الهاربون الى ميورقا نصف ميتين من سوء الأحوال الجوية • وخلال أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر كانت أنجح طريقة للفرار هي السباحة نحو سفينة حربية راسية • ولكن هذا الطريق كان غير ممكن مع سفينة تجارية لأن الجزائريين عندئذ يجبرون القباطنة على انزال آلة الارساء وذلك حتى لا تغادر السفينة الميناء بدون رخصة • أما السفن الحربية فلا تتعرض لمثل هذه الاهانة، ولكن كان مشروطا على هذه السفن الارساء في الميناء بعيدا، وذلك لكي لا يتمكن من الوصول اليها أقوى السباحين • واذا لم يستطع زورق المراقبة القبض على الهارب فان المالكين الغاضبين يذهبون الى الداي ويطالبونه القيام بالتدخل • وفي هذه الحالة يواجه القنصل صعوبة : وليس القنصل وحده بل كل أفراد المجموعة التي تنتمي الى دولة السفينة المتحدية • وتتيجة

لذلك فان الضباط البحريين كانوا ممنوعين بشدة من تهريب الأرقاء . فكانوا أحيانا يخضعون للأمر الواقع ، وأحيانا يجمع ربابنة السفن النقود ليدفعوا فداء أولئك المساكين التعساء ، وأحيانا كان الأرقاء يهربون الى الحرية رغم الاحتجاجات .

لقد كان الفرار عملية محفوفة بالاخطار . فاذا فشل الرقيق في الهرب فانه يضرب وأحيانا يمثل به ، وأحيانا يقتل قتلا غليظا حتى يكون مثلا للآخرين . وبينما نجح عدد قليل في الفرار ، فان الأغلبية الساحقة من الأرقاء اعتبروا ، فيما يبدو ، الفرار طريقة غير مؤكدة العواقب وغير جديرة بالمحاولــة .

وهناك سؤال آخر من المحتم طرحه ، وهو لماذا لم يثر الأرقاء ويستولوا على المدينة ؟ فخلال الصيف كان عدد كبير من الانكشارية اما في البحر مع البحارة ـ القراصنة واما كانوا يقومون « بحملات » داخل البلاد لجمع الضرائب . وغالبا ما لا يكون في المدينة اكثر من 5000 أو 7000 لاحتمال الدفاع عنها . بينما كان بها خمسة وعشرون ألفا من الأرقاء . فلماذا لم يقوموا بالتغلب على المدافعين بطريق الثورة ؟ والواقع انه قد حدثت تمردات ، بعضها كان قريبا من النجاح ، وبعضهـا ، مثل ذلك الذي حدث في أوائل العهد والذي كان من وحي ابن أمير بحر اسباني ، سنة 1531 ، كان قد اكتشف وهو في المهد نتيجة الخيانة . ولكن حدثت ثورات سنوات 1559 ، 1662 ، 1753 ثم 1763 أدت الى كثير من اراقة الدماء والتحارب في المدينة ، ولكن المدافعين استطاعوا في جميع المحاولات أن يقمعوا الثورة وأن يعاقبوا بغلظة أولئك الأشخاص البؤساء الذين حاولوا قيادتها . وكما حدث في ثورات الرقيق المشابهة في جزيرة مالطة ، فان الفرصة كانت تواتي المدافعين الذين كانوا مسلحين بأسلحة أفضل وكانوا معتادين على المحاربة جماعيا في وحدات بدلا من المحاربة أفرادا . وكان هناك في الجزائر اضافة أخرى لمواتاة الفرصة الى جانب المدافعين . ذلك أن المسيحين لم يكونوا فقط ينتمون الى مذاهب دينية مختلفة ، ومن ثمة كانوا لا يثقون في بعضهم البعض ، بل كانوا يتكلمون لغات كثيرة مختلفة ويرتبطون بكثير من العادات والتقاليد

المختلفة . وبالاضافة الى ذلك ، فانه ليس كلهم كانوا غير راضين بحالهم حتى يعرضون انفسهم الى الموت المرعب الذي قد يتلو الفشل . ومهما كان الأمر فانه لا الأرقاء المسلمون في جزيرة مالطة حيث كانوا يفوقون الفرسان (فرسان مالطة) ومرتزقتهم عددا ، ولا الأرقاء المسيحيون في الايالات ، كانوا قادرين على القيام بثورة ناجحة خلال جميع القرون الثلاثة التي كانوا فيها مسترقين في تلك البلدان .

وماذا عن حياة ومصير أولئك الذين لم يهربوا والذين لم يات بشأنهم فداء ؟ ان الرهبان الذين كانوا يجوبون أوروبا سائلين الصدقات لفداء هؤلاء المنكودين ، وأيضا كتاب العرائض الذين حرروها الى ملوكهم يترجون منهم الرأفة بهم ، كلهم قدموا صورة موحشة ويائسة عن حياة الأرقاء غير المفتدين . فهم موثوقون بالحديد ، وهم يضربون ويعملون أكثر مما تتحمله الطاقة البشرية ، وهم جياع في غالب الأحيان ، وفي أسمال بالية ، كما أن الذين أسروهم يعملون على سرقة أرواحهم الخالدة منهم وذلك بحثهم على التخلي عن الهم ! لقد كان هدف هذه القصص هو اسالة دموع السامعين ، وكان المأمول هو جعلهم يتبرعون بالمال من جيوبهم لدعم العمل الخيري وهو فداء أولئك المنكودين . ولكن الواقع هو أن الأوضاع بشمال افريقية كانت أكثر تعقيدا مما تقدمه لنا هذه الصورة البسيطة عنها . وقد عرفنا أن بعض الأرقاء كانوا يباعون ويشترون كمغامرة تجارية رابحة ، وهناك آخرون من المحتمل أنه تم شراؤهم للقيام بأنواع كثيرة من الخدمات التي بامكانهم القيام بها في الحقول ، أو في الدكاكين ، أو في البيوت ، أو في السفن ، أو أحواض بناء السفن ، والأشغال العامة بشمال أفريقية .

وقليل فقط من هذه الخدمات يمكن القيام بها بفعالية أكبر لو أن المسيحي المكنود تخلى عن دينه ، بل ان بعض تلك الخدمات قد يصبح مستحيلا لو أنه فعل . ان ريشليو Richelieu ، وسان فانسان دي بول ، والأب دان ، وكثير غيرهم قد رددوا قصص الرهبان القائلة باجبار الأرقاء على الاسلام . والواقع أن اهتمامات ريشليو بانقاذ الأرواح من جهنم قد ظهرت بشكل واضح في كتاباته حتى أنها تكاد تبدو أكثر أهمية

من عودة البحارة الفرنسيين الى أعمالهم المناسبة فى السفن الفرنسية ٠
ان هناك حالات حث فيها الملاكون أرقاءهم ، ربما بدافع الحب والحنان
على التخلي عن دينهم ، ولكن بالنسبة للأرقاء من الرجال البالغين كانت
هذه الطريقة فيما يبدو هي الاستثناء وليس القاعدة ٠ ان المالك المسلم ،
المتسامح مع الدين المسيحي كان غالبا ما يلاحظ أن « مسيحيا سيئا
سيكون أيضا مسلما سيئا » ومن الحق أن نقول ان سلوك الكثير من
الأعلاج فى الجزائر كان يؤيد هذا الرأي ٠ وبالاضافة الى ذلك ، فان
الرقيق اذا اعتنق الاسلام فقد أصبح فى طريقه الى الحرية : فلا يرسل
الى العمل بالسفن ولا يقوم بعمل شاق ، كما أنه من السهل عليه التخلي
عن التزاماته فى الخدمة (العبودية) ٠ ومشكلته الوحيدة هي أن موتا
زؤاما مرعبا ينتظره اذا حاول العودة الى دينه المسيحي ٠ ان هناك بعض
الملاكين الذين لم يحاولوا فقط ادخال أرقائهم فى الدين الاسلامي ، بل
أنهم أجبروهم على البقاء مسيحيين حتى ولو رغبوا فى الاسلام ٠ وأشهر
مثل على ذلك ما قام به علي بتشنين الذي لجأ حتى الى استعمال العنف
لمنع ممارسة ذلك ٠ (*) ومن الواضح أن المالك لا ينال منه فرصا اقتصادية،
ولذلك فاننا نجد معظم الملاكين لا يشجعون ـ بل حتى يحرمون ـ التخلي
عن المسيحية واعتناق الاسلام ٠

ومع ذلك فقد كان فى الجزائر خلال هذه القرون آلاف الأعلاج ، وكثير
منهم كانوا بدون شك قد وصلوها كأرقاء ٠ فمن هم ؟ ان أوضح ما نجده
فى مدار القرن السابع عشر هو أن أولئك كانوا ضباط السفن الخاصة
الذين انتهى عملهم المهني عندما توصل أولا ملوك فرنسا وأنكلترا ، ثم
ثانيا سلطات الأراضي المنخفضة المتحدة ، اما الى توقيع الصلح أو الى
الهدنة مع ملك الدولة الأسبانية ٠ ذلك أن المسافة كانت قصيرة بالنسبة
لكثير من الأعلاج بين ضابط فى سفينة خاصة وقرصان ، ثم رايس بحري
وأخيرا التخلي عن الدين ٠ ولكن القصص التي لدينا تثبت أن تغيير الدين
لم يكن من الواضح دائما أنه كان يعود الى تجارب دينية ٠ انه ببساطة كان
أسهل على القرصان أن يتصرف فى بضاعته ، اذا ما استطاع أسر سفينة
ومعها حمولتها ، كغنائم فى الحرب من أن يقدم على بيعها ٠ وهناك ضباط
بحريون فى المؤسسة البحرية الجزائرية كانوا قد أسروا ثم تخلوا عن

(*) ـ يقصد المؤلف ان علي بتشنين منع اعتناق الاسلام مستعملا لذلك وسائل العنف ،
من اجل اغراض اقتصادية ٠ (المترجم)

دينهم فى مقابل المعاملة الحسنة والثروة فى المجتمع الجديد • وبعض هؤلاء وصلوا الى أعلى المراتب فى البحرية الجزائرية ، ثم فى عهد لاحق وصلوا تلك المراتب حتى فى المؤسسة البحرية العثمانية نفسها • لقد كان المحظيون عند مالكيهم قد تخلوا عن دينهم المسيحي وصعدوا الى السلطة من خلال النفوذ ، أو العمل الجدي ، أو القدرة العظيمة ، أو مجرد مساعدة الحظ • وغالبا ما كان أكثر من نصف أسطول الجزائر البحري خلال القرن السابع عشر تحت قيادة أعلاج • أما خلال القرن الثامن عشر ، عندما انخفضت الأرباح من الأنشطة البحرية وأصبحت الدولة أو الداي يملك معظم السفن قد أصبحت النسبة المائوية من الأعلاج ونعني بذلك عدد الضباط الجيدين منهم ، ضعيفة جدا •

وكان هناك أيضا أعلاج فى الفرقة الانكشارية • وبحلول القرن الثامن عشر كان عددهم ملفتا للنظر • فمن أين جاؤوا ؟ فاذا كان علينا أن نصدق الملاحظين المسيحيين الذين ربما لم يكونوا كرماء جدا فى أحكامهم ، فان كثيرا من هؤلاء الرجال كانوا هاربين من ماضيهم الخاص • اننا لا نعلم كم منهم وصلوا الجزائر كرجال أحرار ، كما أننا غير متأكدين من أن كلهم أو جلهم كانوا « خرافا سوداء » مجرمين أو نفايات • ومن الأكيد أن بعضهم كان فقط ساخطا على الفرص الموجودة فى بلدانهم • أما بالنسبة للانكشارية الذين جاؤوا الجزائر كأسرى ، وتخلوا عن دينهم ، ثم أصبحوا مقبولين فى الفرقة الانكشارية فنحن لا نملك عنهم الا معلومات ضئيلة • ففى القرن الثامن عشر ، عندما انخفض عدد المجندين من المشرق ، قد يكون هناك بعض المجندين (الأروبيين) الذين تم اغراؤهم على التخلى عن دينهم لكى يحصلوا على أوضاع حسنة فى الفرقة • ان هناك على الأقل شاهدا واحدا على أن أحد الانكشارية كان من قبل مسترقا ، وكان ملزما بمنح جزء من دخله الى مالكه •

وهناك أيضا أعلاج فى نواحى أخرى من المجتمع الجزائري • فقد لاحظنا من قبل ان معظم الارقاء البالغين لم يقع عليهم التأثير بتغيير دينهم • ومع ذلك فان كبار النجارين ، وبناة السفن ، وصاهري الحديد وأمثالهم كانوا فى الغالب يغرون بفعل ذلك • ونفس الشيء يقال عن الضباط الذين وجدوا على ظهر سفينة مأسورة ، لأن مهاراتهم كانت تحتاجها

البحرية الجزائرية • وكذلك كان الحال مع الجنود الأسبان والايطاليين المأسورين ، بل حتى كبار المسؤولين • وهناك مناسبة وقع أثناءها اغراء فرقة كاملة باعتناق الاسلام والاشتراك مع الجزائريين ضد التونسيين • ولكن مصادرنا المسيحية كانت عادة سعيدة أن تعلن أنه لم يقع تحت تأثير اغراء المسلمين الا عدد قليل من الجنود والبحارة •

وهناك عوامل أخرى لتغيير الديانة : الأطفال ، والأصدقاء ، والنساء ، وليس أمرا غير معروف أن يعامل طفل ما ، بعد أسره وبيعه ، معاملة أحد أطفال مالكه في عائلته الخاصة • فقد كان البلدية (أهل الحضر) مهذبين ، بل ولهم عاطفة حنان قوية نحو أطفالهم ، حسبما بلغنا ، وكان من الشائع أن تتطور علاقة الطفل مع ذويه ، ويصبح من السهل على الطفل أن ينسى بيته الخاص ودينه • وهناك حالات كثيرة أصبح فيها مثل هؤلاء الأطفال هم ورثة مالكيهم • أما العامل الثاني فهو الصداقة • ففي المنزل الاسلامي حيث عدة زوجات ، كان على الزوج غالبا أن يدافع عن نفسه ضد مؤامرات عائلته الخاصة • ذلك أن أبناءه يمكن أن يستفيدوا من وفاته بينما سيفيد الرقيق كثيرا من بقائه حيا ، ومن ثمة يمكن لرقيق جذاب أن يصبح صديقا • وتوجد حالات عديدة من هذه العلاقة مما يجعلنا نقول بأن كثيرا من الأعلاج قد مروا بهذا الاطار ، بعضهم أصبحوا ضباط سفن ، وبعضهم تجارا ، وبعضهم ورثة لثروات مالكيهم •

وان الزواج بين الأرقاء المحررين ومالكيهم قد نتج عنه أيضا تغيير الديانة • ذلك أن الزوج أو الزوجات ، ف البيوت المسلمة قد احتفظ بها وراء الحجب الكثيرة ، فكانت غالبا تتمتع بالفضول الطبيعي للتعرف على العالم الخارجي الذي من حولها • بل أننا نجد ذلك حتى اليوم في قرى أعالي النيل حيث تحاول النساء أن تسرق النظر الى « الأجنبي » بينما أزواجهن ينهرونهن لكي يعدن الى بيوتهن — بل يرمونهن بالحجارة ليجبروهن على ذلك • ويخبرنا عدد من كتاب المذكرات عن اهتمام النساء بالأرقاء وتطوير علاقات متينة معهم • وطالما كان الزوج حيا فان على هذه العلاقات أن تكون مناسبة والا فان الرقيق سيعرض نفسه لموت مهول ، ولكن هناك حالات ثبت فيها أنه بعد وفاة الزوج أصبح الرقيق مسلما وزوجا للأرملة بعد تخليه عن الديانة المسيحية •

وهذه العلاقة وجدت أيضا بطريقة معكوسة . ذلك أن معظم النساء اللائي يؤسرن أثناء الغارات على السواحل كن نسوة فلاحات ، بينما المسافرات الأسيرات في البحر كن نساء من طبقة راقية . وهناك آراء مختلفة حول مصيرهن . فهذا فولتير في عمله (المرأة العجوز) يريدنا أن نعتقد بأن النساء الأسيرات كن قد اغتصبن من كل الرجال بلا استثناء، ولكن موليير Molière يقدم المرأة على أنها ، بعد عشر سنوات من الأسر في شمال افريقية ، ما تزال صالحة كطرف في الزواج في أسرة برجوازية راقية . ومن الواضح أنها لم تتعرض للاهانة . والشواهد الموجودة تدل على أن هناك بعض المبررات لرأي فولتير ، ولكن شهودا جديرين بكل ثقة يؤيدون الرأي القائل بأن النساء كن يعاملن معاملة جيدة ، حتى بعد أن يصبحن رقيقات . ومما نعرفه عن الرجال والنساء لا نستغرب أن نجد أن كثيرا من النساء قد تخلين عن دينهن وتزوجن مالكيهن . ومن الأكيد أن الكثير منهن لم يتزوجن الرايس البحار الذي أسرهن ، كما فعلت الشابة الايطالية النبيلة مارية دي غايتانو de Gaërano ، التي تزوجت خير الدين (حين كان قريبا من الخمسين من عمره) ، ولكن هناك من هذا الزواج المختلط ما يكفي للفت النظر لامكانته ، مثلا ، كانت زوجة أحد الدايات علجة انكليزية . والظاهر أنه لم يكن من الصعب جدا على امرأة شابة أن تنتهي الى الحكم بأن زواجا في الجزائر قد لا يكون مختلفا كثيرا عن زواج في أوروبا ، ومن الأكيد أن مثل هذا الزواج كان أفضل من وضعية وصيفة في البيت مدى الحياة .

ولا نستطيع أن نعرف كم من الأعلاج والأرقاء أسهموا في تكوين العوامل الوراثية للمجتمع الجزائري . فهناك كاتب اقترح علينا أنه كان بالجزائر على الأقل خمسة وعشرون ألف علج خلال القرون الثلاثة التي يتناولها هذا الكتاب وقد يكون الرقم أقل من ذلك . ولكن من الواضح أنه كان هناك عدد كاف من الأوروبيين الذين أنجبوا الأطفال في مجتمعات شمال افريقية مما جعلهم يؤثرون في البنية الوراثية للمجتمع . وقد لاحظنا أنه في امكاننا أن نعرف اليوم في الجزائر وتونس والمغرب على كثير من السلالات التي أسهمت في تكوين هذه المجتمعات من خلال الملامح الخاصة كالعين ، والشعر ، واللون ، وشكل الجسم .

وماذا كان مصير الأغلبية الساحقة من الأرقاء المسيحيين ؟ من الواضح أنه ليس هناك جواب بسيط يمكنه أن يتناول جميع الأوضاع المتنوعة التي كان عليها هـؤلاء النـاس . فقـد كتب سيرفانتـس Cervantes , الذي كان هو نفسه رقيقا ، «أن حالتهم كانت محزنة وبائسة ... انها كانت عبودية قاسية وخشنة تطول أثناءها الشقاوة وتقصر فيها السعادة وتتمنع ... انها برزخ الحياة وجهنم هذا العالم ... » ومع ذلك فان سيرفنتس تكلم في مكان آخر عن كرم ولطف المالكين (السادة) . ويقول طاسي ، الذي لم يكن أبدا رقيقا ، ومع ذلك كان يعرف الجزائر ، بأن جميع الصور التي تصور القسوة مبالغ فيها ، ولكنه لا يستطيع أيضا أن يخفي الحقيقة وهي أنه كان هناك أعمال صعبة يجب القيام بها ، وهناك مالكون غلاظ كان يجب تحملهم . فاذا نظرنا الى الأرقاء في بيوت أغنياء الرياس ، وبرجوازي التجار ، وملاك السفن ، وكبار المسؤولين ، فاننا نجد رجالا لابسين ثيابا حسنة ، ويطعمون طعاما جيدا ، ويسكنون سكنا مريحا ، ولا يقومون الا بأعمال غير شاقة ، بل أن بعضهم كانوا أصدقاء مدللين ومحل ثقة لمالكيهم . وكان بعضهم يعتق ويصبح وارثا لتركة مالكه . وكان على أرقاء الانكشارية أن يحافظوا على البضاعة القليلة لمالكيهم في شكل منتظم ، وأن يحضروا له المائدة ، ولكنهم كانوا يرتدون نفس الثياب التي يرتديها مالكوهم ، ويأكلون من نفس الأطباق ، وكانوا عادة أصدقاء مقربين اليهم . وقد لاحظ أحد الانكشارية لرقيقه بأنه كان من الصعب معرفة « ما اذا كنت أنت عبدا لي أو أنا هو عبدك . » وليس هناك حاجة بنا الى اعطاء هذه العلاقة طابعا رومانتيكيا ، ومع ذلك فان الملاحظين يؤكدون على فكرة ، وهي أن الانكشارية كانوا كرماء مع أرقائهم ، ان الرقيق قد انتهى به الأمر الى أن أصبح واحدا من العائلة . وهناك أيضا اشارات الى أن علاقة الشذوذ الجنسي لم تكن غريبة . ذلك أن معظم الانكشارية لم يكونوا متزوجين .

وقد يكون حال أرقاء الداي والرياس حالا مختلفا كثيرا : فقد كان بعضهم يوثق بالحديد في مقاعد التجذيف باحدى السفن ، وكان آخرون يجبرون على العمل الشاق في المحاجر وحمل الحجارة الى الرصيف البحري (المول) وغيره من مشاريع البنائين ، وكان البعض يعملون في الحدائق والبساتين التي تحيط بأحواش الطبقة الغنية والواقعة خارج

يحملون الماء وغيره من الأحمال :
مدينة الجزائر ، وكان آخرون منهم أناسا مدللين في البيوت ، أو حراسا
اذن فليس جميع الأرقاء كانوا سواء . وأسوأ الجميع حالا ، ف نظر كل
شخصين لأسيادهم (المالكين) . وأسوأ الجميع حالا ، في نظر كل
الكتاب ، هم أولئك المساكين الذين اشتراهم المزارعون الذين كانوا
يمدون مدينة الجزائر بالحبوب والخضر . فقد كانوا كثيرا ما عملوا فوق
الطاقة ، وبقوا بدون غذاء كاف ، وسكنوا مساكن سيئة ، بالاضافة
الى قيامهم بالأعمال الشاقة من طلوع الشمس الى غروبها — وهو عمل
الحيوانات حقا . أما أحسنهم حالا فهم أولئك الذين اشتراهم أغنياء
البلدية أو الكراغلة ، الذين كانوا يتميزون بالرأفة . فحياتهم مع هؤلاء
كانت في الغالب أحسن بكثير من حياتهم لو كانوا في أوروبا .

وهناك جماعة أخرى من الرقيق كانت حالهم أيضا مختلفة ، ولكنها
لا تشبه حال الأرقاء الذين سبق ذكرهم . ذلك أن كثيرا من المالكين
كانوا يشترون الأرقاء للاستثمار . فكان هؤلاء المالكون يسكنون
أرقاءهم في محلات (بانيو (Bagño)) عامة — أو خاصة — ، ثم
هم اما يؤجرونهم كعمال لأي شخص يحتاج العملة ، واما يتركونهم
يدبرون عملهم بأنفسهم ويدفعون لمالكيهم نسبة من دخلهم أسبوعيا .
فكان هؤلاء الرجال عبارة عن « اتفاقية مضاربة » متوفرة اذا احتاج الأمر
الى دعوة الجدافين في السفن ، أو ظهرت الحاجة الى عمال لتفريغ
السفن ، أو أي عمل آخر . وكان بعض الأرقاء أصحاب الحرف ، اما
يعملون مع مالك هو نفسه من أصحاب الحرف ، واما يقومون هم بالسهر
على ورشتهم حيث يصنعون الثياب ، والأحذية ، والبراميل ، أو غيرها
من البضائع المصنعة . وكان مالكهم ، في هذه الحالة ، يأخذ منهم
نسبة من مدخولهم ، ويتوقع منهم أن يدبروا بأنفسهم أمر مأكلهم
وملبسهم . وأكثر هذا القسم الأخير نجاحا كانوا يفتحون خمارات
يبيعون فيها الخمور التي يستولي عليها البحارة القراصنة .

وقد لاحظنا أن هؤلاء الأرقاء كانوا يسكنون في البانيوات ، وكان
بعض هذه المحلات من ملك الايالة أو الباشا ، وبعضها في ملك الرياس
الأغنياء الذين يبنون البانيوات لأنفسهم ، وكذلك لغيرهم من المالكين
للأرقاء . وكان هناك عدد من هذه البانيوات التي كانت تختلف حجما

وشكلا ، ومع ذلك فقد كانت متشابهة ، ولذلك سنتحدث عنها مجتمعة .
لقد كان البانيو مركبا (مجمعا) من البناء يمكن غلقه ليلا . وخلال منتصف القرن السابع عشر لم يكن يوجد من ذلك سوى بانيو واحد يعتبر سجنا بمعنى الكلمة ، وكان مقفلا في جميع الأوقات . كان يستعمل مسكنا للأسرى الذين لم يجر التفاوض بشأن فدائهم بعد ، أو أولئك الذين يجب الاحتفاظ بهم منهم تحت رقابة شديدة . وكانت البانيوات تستعمل للارقاء من الرجال فقط ، أما النساء والأطفال فقد كان يحتفظ بهم ، اذا لم يسكنوا عند مالكيهم ، في مؤسسات أخرى منفصلة عن الرجال . وكل بانيو كان يتألف من ساحة محاطة بطابقين من البناء الذي له شرفات تطل على الساحة . وكانت الغرف مستطيلة وكانت اضاءتها تعتمد في العادة على النور المتصل بالفتحات الخارجية ، وكل غرفة كان يسكنها بين العشرة والعشرين رجلا ، ينامون على الحصر ، وباغطية يوفرها اما مالكوهم واما يدبرونها بأنفسهم . ومعظم الجلسات كانت ، كما هو الحال اليوم في كثير من المنازل الافريقية ، تتم في الساحة الواسعة حيث يجري اعداد الطعام ، واكله ، ولعب الورق ، والتشاجر أو المناقشات ، وتحكي القصص الطويلة ، وتجري المعاملات العامة . وكل الكتابات تشير الى ما كان يحدث هناك من فوضى صارخة ، ومن صخب ، ومن أوساخ ، ومن زحام . وتوجد في البانيوات الكبيرة دكاكين لبيع الخمر يديرها الأرقاء ، وموردو الأطعمة (مثل الكسرة ـ الخبز المسطح ـ والكسكسي ، وغير ذلك من الأطعمة سهلة التحضير) . وبمجرد ما تغلق الأبواب يفتح سوق اللصوص حيث كل أنواع البضائع كانت متوفرة بأثمان زهيدة .

وكان حاكم (أو حارس) البانيو مسؤولا على الأمن ، وعلى جزء على الأقل ، من طعام النزلاء ، وعلى الابقاء على النظام في البناية . وكان هذا المسؤول في العادة من الأعلاج . واذا كانت الكتابات حتى قريبة من الصدق ، فانه كان شخصا يغلب عليه الحرص على ملء جيوبه الخاصة بالغش في الأطعمة واشتراط « هدايا » صغيرة أكثر من قيامه باي عمل آخر داخل في مسؤوليته . وكذلك كان مساعدوه غشاشين أيضا . فقد كانوا ، مثل حارس البانيو ، يعتدون على الرجال الذين تحت

اشرافهم . والمشكل الخطير الوحيد في هذه البانيوات هو انفجار العنف من وقت الى آخر . واشهر حالة من ذلك وردت في الكتابات هي ماحدث من نزاع بين الأرقاء الموسكوبين (الروس) والأسبان ، وهو النزاع الذي يبدو انه يعود الى الاختلاف في الدين واللغة والعادات بين المجموعتين . وكان العنف قد بدأ خلال النهار ولم يتوقف الا بتدخل الحاكم (الحارس)، ولكن عندما أغلقت الأبواب بحلول الليل ، شهد البانيو مظاهرة كلاسيكية مات فيها عدد من الناس وجرح آخرون قبل استعادة النظام .

وهناك مجالات أخرى للعنف ظهرت من الخمارات التي كان يديرها الأرقاء في البانيو ، كما ظهرت في بعض شوارع المدينة . ذلك انه كان بامكان مالكي الخمارات شراء الخمور التي استولى عليها البحارة ــ القراصنة بأثمان معقولة حتى يتمكن زبائنهم من شرب أجود الخمور بثمن زهيد (المعروف ان أجود الخمور هي التي كانت تصدر الى الخارج وان أجود الخمور هي التي يتم الاستيلاء عليها) . وكثير من الأرقاء ادمنوا على الخمر ليخففوا من عذابهم ، وبينما المفروض في المسلمين الحقيقيين عدم شربهم للمواد الكحولية ، فان عددا منهم كان يشربها . ولدينا أخبار تقول ان عددا هاما من الأعلاج ، الذين لم يكن ايمانهم الديني كاملا ، كانوا يظلون أحلاس الخمارات من بعد الظهر الى ساعة متأخرة من المساء . ومن المحتم حدوث المنازعات والمشاجرات الشخصية عندما يصب الخمر بحرية . وكان مالك الخمارة « مسؤولا » على السلام والابقاء على النظام الكامل ، سواء كان في البانيو أو في الشارع ، ولكن ماذا يمكنه ان يفعل اذا كان المهاجم نفسه رجلا من الانكشارية ؟ ان الرقيق اذا رفع يده ضد جندي ، قد يضرب ــ وحتى يقتل ــ على فعله . لقد كان مالكو الخمارات يحلون المشكل باعطاء « مساعديهم » سلما ، فاذا أصبح أحد الزبائن مهاجما يقومون هم بادخاله بين درجتي السلم الوسطيين واخراجه من الدكان الى الشارع . ان هذا النظام يبدو أسهل في كتابات الأرقاء السابقين من تنفيذه فعلا في الخمارات نفسها ، ولكن حدا أدنى من النظام كان محتفظا به على كل حال .

والمصدر الآخر للترفيه في البانيوات هو قص حكايات ملفقة حول

العالم الموجود خارج الجزائر . ان اكثر اولئك الرجال كانوا بحارة : ولا توجد الا أجزاء قليلة من العالم لم يرها اي واحد منهم . ففي المساء تهاطل الحكايات عن النساء ، وعن الأماكن الغريبة ، وعن العادات الغريبة الموجودة في العالم الجديد من شواطيء الصيد في الشمال الى مضائق ماجلان Magellan ، وفي آسيا من اليابان الى الهند ، وفي العالم الافريقي ــ الأوروبي من اقصى الشمال الى رأس الرجاء الصالح . وهكذا يصبح العالم كله ، بطريقة او بأخرى ، موضوع الحكايات والقضايا التي جمعت على صفة ما باللغة الخليط (لاننا قرأنا) الغريبة للأرقاء الجزائريين . لقد كان حقا مجتمعا عالميا ــ على الأقل مجتمع « ميناء » عالمي .

ان سوق اللصوص في البانيوات كان يقدم « الكماليات » بالاضافة الى الضروريات ، كما كان يعرض أنواعا مختلفة من البضائع التي كان الأرقاء او غيرهم يرغبون في شرائها . وكانت السرقة طريقا من طرق الحياة عند كثير من الأرقاء . ففي بعض الأحيان كان مالكوهم لايوفرون لهم ما يحتاجون اليه من الغذاء . وفي بعض الأحيان أصبحت السرقة « تجارة » تتولى حاجات كثيرة . ويبدو أن الجزائريين قد استقروا على رأي وهو أن الأرقاء قد يسرقون ، وربما كانت السرقة محتمة عليهم . وما دام أكثر النهب كان موجها ضد الجالية اليهودية فان السرقة كان مسموحا بها الى درجة تثير الدهشة . لقد كان بعض السرقة عبارة عن سلب للدكاكين ، او قطع لحقائب النقود ، أو تسلل الى البيوت ، وكان بعضها عبارة عن لعبة « ثقة » بين مبدلي العملة النقدية . ان هذه العملية الأخيرة قد أشار اليها الكتاب كثيرا لدرجة أنها تعني فيما يبدو ، اما أنها كانت شائعة جدا ، واما أنها أصبحت ــ عندما كان أحد الأرقاء يستطيع ان يغش مقرض النقود ــ حادثا جديرا بالحديث عنه . ومهما كان الأمر فان سوق اللصوص الذي كان يفتح بمجرد ما يغلق الحاكم (الحارس) الأبواب عند حلول الظلام ، كان مؤسسة مشهورة في البانيوات .

ولعل الخمارات والمناقشات والقصص في الساحات قد ساعدت على الترفيه وتقديم بعض العزاء لكثير من الأرقاء . غير أن أرقاء آخرين

وجدوا راحتهم في دينهم . ذلك أنه بنهاية القرن السابع عشر كان لكل بانيو معبد (أول معبد كان قد أسســه الأب ديبــور Duport سنة 1551 في البانيو الذي كان يملكه أحد الكراغلة ، وهو الذي كان الأتراك يسميه حانة الشارب) وكان القداس يقام كل يوم في أكثر هذه المعابد اما يؤديه القساوسة الذين كانوا هم أيضا أرقاء ، أو يؤديه أناس ينتمون الى أنظمة الفداء الذين أبوا الا أن يشاركوا الأرقاء حالهم من أجل خلاص الآخرة . وكان بعض هؤلاء القساوسة محبوبين للغاية ، ذلك أن مواعظهم وارادتهم في الانصات الى الشاكين ، بالاضافة الى عزائهم للمحتارين واليائسين — كلها قد جلبت اليهم رضى البروتيستانتيين والاغريق الأرثوذكس ، والكاثوليك الرومان على حد سواء . وكان الأتراك أيضا يحترمون هؤلاء الرجال من أجل تقواهم ومن أجل عملهم الخيري ، وكذلك من أجل تأثيرهم على سلوك الأرقاء (ولا توجد الا حالات نادرة كان فيها الحاكم الجشع يشترط رسما قليلا لحضور القداس) وليس هناك سوى قليل من القساوسة ، الذين كانوا بدورهم أرقاء مثل جميع سكان البانيو ، والذين تسببوا ، بسيرتهم الذاتية ، في اهانة واحتقار دينهم . ولم يكن يوجد الا عدد قليل من رجال الدين البروتيستانت بين الأرقاء لسبب واضح وهو أن القرى البروتيستانتية لم تكن غالبا موضع غارة ، غير أن الأرقاء البروتيستانت كان يمكنهم حضور الصلوات في بنايات القنصليات الانكليزية والهولاندية ، وفي وقت لاحق السويدية والأمريكية ، دون تدخل من قبل سادتهم الأتراك .

وكان قساوسة الفداء يقوون أيضا على مستشفيات ، وحتى صيدليات ، في البانيوات أو قريبا منها حيث يجد الرقيق المريض رعاية أفضل مما كان متوفرا عند مالكه . وكانت هذه المستشفيات مدعمة جزئيا بضريبة صغيرة تطوعية على البضائع المباعة من قبل التجار الأروبيين في الجزائر ، وهي الضريبة التي أصبحت اجبارية بمرسوم من الداي شعبان سنة 1794 . (*) وكثيرا ما كان العرف في الجزائر يتحول الى قانون . وكانت هذه المستشفيات قضية غير هامة في أول الأمر ، ففي فاتح القرن السابع عشر وجدنا واحدا منها يحتوي على ثمانية أسرة — أي أربعة

(*) — سيأتي الحديث مطولا عن الداي شعبان . انظر الفصل الثاني عشر وهناك خطأ في التاريخ المذكور (وهو 1794) لأن شعبان باشا حكم أواخر القرن السابع عشر وليس الثامن عشر ، فالتاريخ المقصود اذن هو 1694 . (المترجم) .

أسرة (أبناك) في كل جانب من الغرفة — مع هيكل ديني صغير عند نهاية الحائط بين الأسرة • وكان يعمل في هذا المستشفى حلاق — جراح وممرض (مساعد) • ان هذا قد لا يبدو شيئا كبيرا في نظر رجال القرن العشرين ، ولكن في جزائر ذلك العهد كانت هذه المستشفيات شيئا له قيمة • ولقد صدق الأب مونروي Manroy عندما كتب سنة 1612 قائلا : « ان الأتراك والجزائريين (الحضر) كانوا غالبا ما يأتون الى هنا (أي المستشفى) ••• لقد كان أمرا عجيبا بالنسبة اليهم أن يروا الأرقاء المسيحيين لهم مثل هذه المؤسسة في مدينة الجزائر ••• فلم يوجد لديهم مؤسسة مماثلة لمرضاهم ••• » وفي القرن الثامن عشر، عندما أصبحت هذه المستشفيات أوسع بكثير مما كانت عليه ، لم يعد أمرا غير شائع أن يطلب المسلمون أنفسهم العلاج فيها •

وقد أبقى قساوسة الفداء أيضا على مقبرة مسيحية خارج أحد أبواب الجزائر ، وهو باب الواد حيث يمكن دفن الرقيق في أرض مقدسة رغم أنهم قد يموتون خارج أوطانهم • وكان توفير قبر لكل ميت على حدة مستحيلا في بعض الأحيان نظرا لكثرة الوفيات • مثلا ، أن هناك من أخبر أن طاعون سنة 1740 قد أودى بحياة حوالي ثلاثمائة رقيق في اليوم الواحد مدة ثلاثة أشهر ! ورغم أن هذا الرقم واضح المبالغة ، فليس هناك شك في مدى حجم الأزمة • وفي آخر القرن الثامن عشر قتل الطاعون آلافا أخرى من الأرقاء خلال سبع سنوات أخرى على الأقل ، وهو الأمر الذي يفسر انخفاض عدد الأرقاء ، ربما بنفس النسبة التي انخفضت فيها على الأقل أنشطة الأسطول البحري (الجزائري) خلال النصف الثاني من هذا القرن (الثامن عشر) • ولا يمكننا الآن تقدير عدد المدافن في المقبرة المسيحية ، لأن ميناء الجزائر كان قد وسع حتى شمل تلك القطعة من الأرض •

* * *

وبينما لا يدخل ، في الحقيقة ، مشكل الأرقاء المسلمين في مالطة وايطاليا وفرنسا وأسبانيا ضمن مجال هذا الكتاب ، فانه يبدو مهما أن تشير الى أن المسيحيين ليسوا وحدهم في هذا العهد الذين أدى بهم سوء الحظ الى الوقوع في الرق • وربما كان أغلب المسلمين الذين

وقعوا في الرق كانوا قد أسروا في البحر أثناء الحرب أو باعتبارهم ربابنة ومسافرين على سفن اسلامية أسرها بحارة ـ قراصنة مسيحيون • فقد كان البحارة ـ القراصنة من المالطيين والايطاليين يجوبون مياه المشرق ، وكان سوق الرقيق في مالطة لا يقل نشاطا عن سوق الجزائر • كما أن السفن الحربية الغربية قد أسرت أيضا المسلمين وباعتهم عندما وقعت الحرب بينها وبين دول شمال افريقية • وهناك مصدر آخر للأرقاء المسلمين وهو الآتي من الغارات التي كان يقوم بها البحارة ـ القراصنة المسيحيون على القرى الاسلامية • وقد كانت سواحل شمال افريقية ، مثل السواحل الأسبانية والايطالية للبحر الأبيض ، تكاد تكون مهجورة أيضا من السكان ، ما عدا في الموانيء المحصنة ، لأن العيش قريبا من البحر كان غير آمن • وهناك مصدر آخر للرق يعتبر أكثر وقعا وكان قد ظهر في فترات منتظمة في المراسلات الصادرة من الجزائر : وهو أن الضباط المسيحيين كانوا يحملون على سفنهم المسافرين المسلمين ، ربما كانوا حجاجا في طريقهم الى مكة أو مجرد مسافرين الى احدى موانيء المشرق ، وبدلا من أن ينزلوهم في الاسكندرية يأخذونهم الى سيراكيوس أو مسينيا أو غيرها من الموانىء المسيحية ، لبيعهم في السوق • وهناك حالات أخرى تتحدث عن أن السفن المسيحية قد يوقفها بحار ـ قرصان مالطي أو أسباني ويصادر الجزائريين والأتراك المنكودين كغنائهم شرعية ، بينما يسمح للسفينة المسيحية بالاستمرار في رحلتها • وكان الجزائريون مقتنعين بأن ضابط السفينة والبحار ـ القرصان كانا على اتفاق مع بعضهما • وهناك جزائريون وأتراك آخرون أصبحوا أرقاء نتيجة الحوادث في البحر • ففي عدد من المناسبات كانت السفينة التي تحمل الحجاج يؤدي بها سوء الطالع الى أن تتحطم على الساحل الصقلي ، وسرعان ما يباع ربانوها كأرقاء من قبل أولئك الذين « أنقذوهم » وتتيجة لهذه الطرق العديدة للرق ، وجد عدد كبير من الناس ـ نساء ورجالا ـ كانوا أما من كبار جماعة البحارة والانكشارية واما من المجتمع الحضري الغني ، وجدوا أنفسهم في الرق • وكان أصدقاؤهم وعائلاتهم قد قاموا بالضغط على الداي ـ الباشا لاطلاق سراحهم •

وكما كان هناك أسرى مسيحيون لا يرضى المسلمون باطلاق سراحهم، كذلك هناك أسرى مسلمون لا يقبل فيهم المسيحيون أي فداء • ولاحظنا أن العادة جرت بأن يشنق ضباط البحرية المسيحية أي علج يمكن أن يقع بين أيديهم ، ولا سيما اذا كان هذا العلج قد صادف أن أصله أحد رعايا ملكهم • وكانت السلطات المالطية والاسبانية والايطالية تسجن « مدى الحياة » أي رايس بحري مسلم يقع بين أيديهم • وسبب ذلك بسيط : فقد كانوا يفهمون أن أساطيل شمال افريقية لم يكن لها عدد كبير من القادة الأكفاء ، ولذلك فان أي واحد يمكنهم أسره وسجنه سيكون نقصا في ضابط كفء في الأسطول البحري • وقد وجدت ، في القرن السادس عشر ، حالات صارخة (مثل حالة درغوث) حيث افتدى ضابط بحري هام بثمن عال جدا ، وكان الغالب أن أعمال الرايس البحري الذي أطلق سراحه تعطي آسره الحق في الندم على اطلاق سراحه • وخلال القرن السابع عشر كان ضباط البحر الهامون قد يقبضون على أحد النبلاء الكبار أو فرسان مالطة ويبقونهم أسرى ليتمكنوا من المبادلة بهم في صورة ما اذا وقعوا هم في الأسر • ان هذه المبادلة كانت تأخذ نفس القيمة التي تأخذها مبادلات كبار الجواسيس وغيرهم من الموظفين السامين عند الدول الأعظم في عصرنا الحاضر •

وكان القليل فقط من الأرقاء المسلمين في أسبانيا أو ايطاليا قد خضعوا للفداء أو المبادلة • ذلك أنه لا وجود لمنظمة اسلامية للفداء ، ولا وجود لقناصل من شمال افريقية في أراضي ملك أسبانيا ، كما لا وجود لوسائل منظمة لتسهيل عملية الفداء أو المبادلة • ومن آن لآخر يطلق سراح رقيق مسلم مبادلة مع اطلاق سراح رقيق مسيحي اما في سبتة واما في ليفورنيا ، حين تتوصل العائلتان الى اتفاق اما بواسطة المساعي الحميدة للقنصل الفرنسي أو لأحد التجار اليهود ، ولكن هذا لم يكن شائعا أو عاديا •

ويصر بعض الكتاب على أن الأرقاء المسلمين في البلاد المسيحية لم يكونوا يتمتعون بنفس المعاملة الحسنة التي يجدها الأرقاء المسيحيون في الايالات الافريقية ، ولكن الشواهد المتوفرة لا يمكنها أن تقطع في ذلك • فمن غير المحتمل أن يصنف مالكو الأرقاء المسيحيون على أنهم

أكثر رحمة من مالكي الأرقاء في إيالات شمال افريقية ، ومن الواضح أن حياة الأرقاء كانت صعبة ، وأن حياة أولئك الذين يوثقون في المجاديف كانت أصعب جدا ، وما دمنا نعرف أكثر عن أرقاء السفن الاسلامية من معرفتنا للأرقاء المسلمين في البيوت المسيحية أو المزارع المسيحية ، فمن الممكن أن نفترض أن الرق في الجانب الجنوبي من البحر الأبيض كان أخف وطأة من الرق على الجانب الشمالي منه . ولكن هذا الافتراض يجب أن يبقى محل شك .

ان بعض المعلومات التاريخية ذات الفائدة الكبيرة عن أحوال شمال افريقية جاءتنا من كتابات الأرقاء السابقين : بعضهم مثل سيرفانتس ، قد جرى افتداؤه ، وبعضهم ، مثل توماس نايت ، (*) قد أطلق سراحه عندما أسرت وحدات بحرية مسيحية سفنا جزائرية . وكقاعدة عامة ، فاننا نجد أن الرقيق السابق له قصة يريد أن يقصها عن أسره تبرر الدعوى ، وهي أن الرق على ساحل شمال افريقية كان ، على أفضل تقدير ، تجربة حزينة ، وعلى الأسوأ تجربة مرعبة . ومع ذلك فاننا من هذه المعلومات نتمكن أيضا من التوصل الى الحكم بأن كثيرا من المالكين كانوا رجالا معقولين وانسانيين وكانوا يتعاطفون مع أرقائهم ويعاملونهم معاملة حسنة ، بينما آخرون اما أهملوهم واما أساؤوا اليهم . ان رسائل الأرقاء المسيحيين المرسلة من شمال افريقية ، وكذلك رسائل الأرقاء المسلمين ، فيما يبدو ، (1) المرسلة من أوروبا المسيحية ــ كلها تشير الى شيء واحد مشترك : الرغبة في الحرية والعودة الى الأوطان والأهل .

(*) – هكذا ذكره المؤلف (توماس نايت) ، وهو في الحقيقة فرنسيس نايت ، صاحب الرحلة التي يشير اليها المؤلف نفسه في البيبلغرافية ، وقد استفدنا نحن من رحلته في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) وغيره . (المترجم) .

1 – لا نملك رسائل من الارقاء المسلمين الى عائلاتهم واصدقائهم ، ولكن هناك شواهد كثيرة في مراسلات الدايات مع وزراء ملوك فرنسا ، تدل على وجود مثل هذه الرسائل وعلى انها كانت جميعا تحث الاصدقاء والعائلات على فعل كل شيء ممكن لاطلاق سراحهم .

الفصل التاسع

الأيالة الجزائرية واروبا ، المرحلة الأولى

1600 - 1630

ان الحرب الطويلة المزمنة بين حكام الدولتين الأسبانية والعثمانية قد انطفأت فى الثمانينات من القرن السادس عشر ، ولكن الهدنة التي وقعت بين الكبار لم تمتد الى تابعيهم • ففرسان القديس يوحنا بمالطة ، وفرسان القديس ستيفان فى توسكانيا ، والبحارة الخواص العاملين فى موانيء ايطاليا وصقلية وغيرها من الجزر فى غربى البحر الأبيض ، قد استمروا فى مهاجمة التجارة الاسلامية وفى التعرض للحجاج المتوجهين الى الحرمين الشريفين مكة والمدينة ، بالاضافة الى غيرهم من المسافرين الأبرياء فى المياه المشرقية • وفى نفس الوقت كان رياس البحر العاملين خارج موانيء ايالات طرابلس وتونس ، وفوق ذلك كله ميناء الجزائر ، يقومون بحرب لا هوادة فيها ضد التجارة والسواحل الأسبانية والايطالية والبرتغالية • لقد كان الأمر ، بالنسبة للطرفين المسيحي والاسلامي ، أمر جهاد وحربا مقدسة • ففرسان مالطة كانت لهم نذورهم وكذلك تاريخهم الطويلة فى النزاع مع الدولة الاسلامية ، وكان البحارة الخواص من الأسبان والايطاليين يعلمون أن حركتهم كانت تجلب اليهم الثروة والغفران معا • ومن جهة أخرى كان أهل شمال افريقية جميعا يعرفون أن هذه الحرب كانت ثأرا كما كانت تمجيدا لله ، ذلك أن الذكريات كانت ماتزال ماثلة للعيان فى جميع أنحاء شمال أفريقية عن الهجومات الوحشية التي قام بها الغزاة الأسبان Conquiestadors الذين هاجموا الموانيء الرئيسية من وهران الى طرابلس ، مذبحين السكان ، وناهبين أمتعتهم ، وفارضين رسوما ثقيلة على الدويلات « التابعة » لهم والتي سمح لها

بالاستمرار في الوجود . ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد . فقد رأينا
شمال افريقية قد أصبح أيضا دارا لعشرات الآلاف من الرجال والنساء
الذين طردهم من بيوتهم « التعصب العرقي والديني » الأسباني ، والذين
كان أقاربهم ما يزالون يعانون (الى سنة 1610) تحت الحكم الأسباني
المتعصب . لقد كان من السهل أن تجند طاقما لحملة بحرية ضد « العدو »
الذي كانت سفنه ما تزال تغير على قرى شمال افريقية لتأسر الأرقاء
وتأخذ المتاع ، والذي كانت جنوده المعسكرين في وهران والمرسى الكبير
يقومون بغزوات يصلون بها الى دواخل البلاد ووراء موانىء المدن التي
يحتلها الأسبان . وهكذا فانه لا التابعون المسيحيون لملوك اسبانيا ولا
التابعون المسلمون لسلاطين الدولة العثمانية قد تخلوا عن أعمال العداء
عندما انتهت الحرب بين أسيادهم .

فماذا كان موقف الأمراء الأروبيين أمام هذا الوضع الشائك في البحر
الأبيض ؟ خلال معظم القرن السادس عشر كان ملوك فرنسا حلفاء ، أو
على الأقل شركاء ، للسلطان العثماني . لقد كان من السهل عليهم ، أمام
العدو المشترك ، وهو اسبانيا ، أن يتوصلوا الى اتفاق حول بعض العمل
المشترك . حقا ان هذا التعاون لم يكن وثيقا وثوق التعاون الذي حصل بين
خير الدين وفرنسوا الأول والذي جعل البحرية العثمانية تقضي شتاء
في الموانىء الفرنسية ، ولكن الأشرعة الفرنسية ، والبارود ، والطلقات
النارية ، وجميع المؤن البحرية بقيت مدة طويلة تحت تصرف البحارة
المسلمين في سواحل شمال افريقية . وكل من الرياس المسلمين والباب
العالي باسطانبول كانوا ينظرون نظرة الشك الى وجود كثير من النبلاء
الفرنسيين في خدمة فرسان القديس يوحنا بمالطة . ولكن هذا لم يمنع
السفير الفرنسي في القرن الذهبي (اسطانبول) من ممارسة كل يرمي
النفوذ على وزراء السلطان . حقا ، ان السفير الفرنسي كان قادرا على
الحصول على عزل باشا الجزائر الذي وقف موقفا غير ودي نحو فرنسا ،
كما حصل على قطع رأس أحد الرياس الذي نهب سفينة تجارية فرنسية .
ولكن بنهاية القرن السادس عشر بدأ تأثير السفير الفرنسي على الحوادث
في شمال افريقية ، مثل تأثير الباب العالي نفسه ، يتدهور . ومع ذلك ،

فان رجال البحر الفرنسيين كانوا ما يزالون آمنين الى حد معقول من هجومات رياس شمال افريقية ، كما كانوا مقبولين في موانىء الايالة (الجزائر) . وبالاضافة الى ذلك فقد كان يوجد قنصل فرنسي في الجزائر وتونس وطرابلس ، وكذلك حصلت شركة فرنسية تجارية على امتياز تبني بمقتضاه مركزا تجاريا محصنا ، وهو المسمى (حصن فرنسا) الواقع على جزيرة خارج السواحل بين حدود تونس والجزائر . لقد كان هذا الحصن يمول صيد المرجان ويتاجر مع القبائل البربرية بمبادلة البضائع الأروبية مع ما عندها من الشمع والجلود والحبوب والخيول وكثير من البضائع الأقل قيمة . وطالما كان ملوك فرنسا ما يزالون يشنون حربا مزمنة ضد الدولة الأسبانية ، كان هذا الوفاق الفرنسي ـ الشمال افريقي يضمن بطريقة أو باخرى الابقاء على السلام بين فرنسا ومسلمي شمال افريقية . ولم تصبح التجارة الفرنسية هدفا لرياس شمال افريقية ، ولاسيما من الجزائريين ، الا بعد أن وقع هنري الرابع السلام مع اسبانيا في نهاية القرن السادس عشر .

جاء الأنكليز الى البحر الأبيض كتجار ، وكبحارة خواص ، وكقراصنة ابتداء من أواخر القرن السادس عشر . وقد حصلت الملكة اليزابيت على معاهدة مع السلطان العثماني أعطت للتجار والبحارة الانكليز امتيازات مشابهة لتلك التي يتمتع بها الفرنسيون ، بالرغم من أن المعاهدات الفرنسية ـ العثمانية جعلت الملك الفرنسي هو حامي التجار المسيحيين في المشرق ، كما منحت القناصل الفرنسيين صلاحيات واسعة من السلطة الشرعية على جميع المسيحيين في الموانىء العثمانية . وقد وجد بحارة السفن الخاصة والقراصنة الانكليز ملجأ آمنا لهم في موانىء الايالة الجزائرية والتونسية منذ وقت مبكر . لقد كانت حربهم مع الدولة الاسبانية ، وهذا ما جعلهم حلفاء أو على الأقل شركاء لرياس شمال افريقية . وكان المفترض أن الشركة الأنكليزية التركية (شركة المشرق ـ الليفنت (Levant)) هي المسؤولة في عهد الملكة اليزابيت ، على تعيين القناصل الانكليز في مدن الموانيء العثمانية ، وكان من الصعب تعيين قنصل في الجزائر عندئذ لعدم وجود نشاط تجاري هام في هذه المدينة « مدينة الحرب » التى كانت تكرس كل جهدها تقريبا لهجومات رياسها البحريين .

وبعد وفاة اليزابيت أعلن خليفتها ، جيمس الأول أن زمن الحرب قد انتهى ، ولم يكتف بتوقيع السلام مع اسبانيا بل أنه أيضا أعطى نفوذا كبيرا وسمعة الى السفير الأسباني في البلاط الانكليزي • ومن الطبيعي أن هذا التحول سرعان ما لوحظ في كل من الجزائر وتونس • ومع ذلك فان القراصنة الأنكليز كانوا ما يزالون محل ترحيب في الموانيء الجزائرية والتونسية حيث كانوا هم ونظراؤهم الفلاندريون Flanders والهولانديون يعلمون الرياس المسلمين كيفية بناء وسير السفن الطويلة التي تعتمد في سيرتها على الرياح • ولكن التجار الأنكليز لم يعودوا آمنين كما كانوا من قبل اذا ما أبحروا عبر البحر الأبيض في اتجاههم الى المشرق للتجارة • وان السفير الانكليزي في اسطانبول ، مثله مثل نظيره الفرنسي بعد أن وقع هنري الرابع السلام مع اسبانيا ، قد وجد نفسه لا يستطيع الضغط كثيرا على (السلطات العثمانية) لوقف النهب « غير الشرعي » للسفن الانكليزية من قبل رياس شمال افريقية • ذلك أن سلطة السلطان لم تعد تحمي بسهولة سفن الدول التي يفترض أنها صديقة لنظامه والتي هي في نفس الوقت في سلام مع اسبانيا •

أما الدولة الشمالية (*) الأروبية التاجرة الأخرى ، وهي نيذرلاندا (الاراضي المنخفضة ـ هولاندا) المتحدة ، فانها لا ترسل بكثير من السفن الى البحر الأبيض قبل نهاية القرن السادس عشر ، بالرغم من أن أولئك البحارة الهولانديين والفليشيين ، الذين اجتازوا مضيق جبل طارق كانوا في العادة موضع ترحيب في الموانيء الشمال افريقية كلحفاء ضد ملك اسبانيا • ولكن هؤلاء البحارة الذين يطلق عليهم « شحاذة البحر » كانوا في معظم الأوقات محملين برسائل الحماية من أمير أورانج of Orange أو من البرلمان وكانوا يختارون محطات في خطوط المحيط الأطلسي تقود الى اسبانيا والبرتغال • وعندما بعث التجار الهولانديون سفنهم للتجارة مع العالم الواسع كانت أهدافهم الأولى أمريكا الجنوبية والشرق (**)

(*) ـ يطلق المؤلف عبارة الدول الشمالية في العادة ، على بريطانيا ، السويد ، الدنمارك ، هولاندا • (المترجم) •

(**) ـ عبر الكتاب ترجمنا كلمة Orient بالشرق وكلمة Levant بالمشرق • (المترجم) •

وليس البحر الأبيض . ولذلك فان أول « الرجال الهولانديين » الذين علموا في البحر الأبيض كانوا أناسا بين بحارة السفن الخاصة والقراصنة . ويبدو أنهم كانوا يفترسون ، بدون تمييز ، تجارة رعايا ملك أسبانيا وجمهورية البندقية . وكثير منهم أصبحوا أعلاجا عاملين من خارج تونس أو الجزائر ، وكانوا هم والانكليز وبعض ضباط البحر الفرنسيين قد علموا الجزائريين والتونسيين طريقة ابحار السفن التي يمكنها اختراق المحيط الأطلسي ، ومن ثمة توسع مجال أنشطة البحارة (المغاربة) بصفة كبيرة . ولم يظهر التجار الهولانديون بعدد معتبر في البحر الأبيض الا بعد سنة 1600 ، وخصوصا بعد توقيع معاهدة هدنة الاثنى عشر (سنة 1609) بين أسبانيا ونيذرلاندا المتحدة (الاراضي المنخفضة) ، وعندئذ أصبحوا سريعا فريسة لبحارة شمال افريقية .

وهكذا نرى أن أنكلترا وفرنسا ونيذرلاندا المتحدة لم تكن تجد صعوبة مع البحارة العاملين مع الايالات المغربية (كذا) طالما كانت هذه الدول أيضا في حرب أو في عداء مع الممالك الأسبانية ، ولكن عندما وقعت هذه الدول الثلاث السلام مع « العدو » فان بحارة شمال افريقية توقفوا عن النظر اليهم كحلفاء ، وسرعان ما استولوا على السفن التجارية التي تعود الى أصدقائهم السابقين واسترقوا طواقمها . وسنرى أن تدخل اسطانبول قد يغير القرارات في العقد الأول من القرن الجديد (17) ولكن سرعان ما توقفت سلطة السلطان عن توفير الأمن لأي سفينة تعبر البحر الأبيض .

غير أن الممالك الاسبانية كانت ، الى العقد الأول من القرن السابع عشر ، ما تزال هي العدو الرئيسي لايالات شمال افريقية . وكان الهاربون من التعصب الاسباني يغذون هذه العداوة . وكثير منهم أصبحوا أغنياء وأصحاب نفوذ ، بينما آخرون منهم اشتركوا بغبطة في الجهاد . وحتى بعد أن أصبحت اسبانيا أكثر عقلانية في نظرتها نحو الاسلام وشمال افريقية ، بقيت عائلات أولئك الهاربين (اللاجئين) والسكان الجزائريون الذين يتذكرون جيدا وحشية الجنود والبحارة الاسبان الذين

نزلوا على ساحلهم ، بقي هؤلاء اذن يقنعون ، بدون أية صعوبة ، جيرانهم بأن اسبانيا ما تزال هي العدو .

وهناك صعوبات أخرى واجهت اسبانيا ف نهاية القرن السادس عشر فاتح السابع عشر ذات طابع مأساوي . فقد حكم شارل الخامس (شارلكان) وابنه فيليب الثاني مجموعة من الأراضي الشاسعة التي تعرف باسم الدولة (الامبراطورية) الاسبانية حوالي قرن من الزمان . وكانا يشرفان على تنظيم سياسي معقد وممتد من الفيليبين على السواحل الاسيوية الى الأمريكيتين (الجنوبية والشمالية) ثم الى شبه جزيرة ايبيريا وايطاليا . وخلال مدة طويلة كانت هذه الدولة الكبيرة تبدو مدعومة من كميات الذهب والفضة الآتية من العالم الجديد . ولكن الواقع هو أن هذه الكنوز لم تكن تكفي لسد حاجاتها لولا أن شارل الخامس وخليفته فيليب الثاني استطاعا أيضا أن يجلبا الثروة والقوة من مملكة كاستيل . وكان الاعتماد على كاستيل ف المال والجنود للدفاع عن تلك الأراضي المترامية الأطراف هو ، من عدة وجوه ، الحقيقة المصيرية لهذه الدولة الاسبانية ، ذلك أنه لا شارل الخامس ولا أي أحد من خلفائه من عائلة الهابسبورغ ، كانوا قادرين على اجبار أو اغراء المملكة الاسبانية الأخرى ، وهي أراغون والولايات التابعة لها ف البحر الأبيض على أن تتحمل جزءا معتبرا من مصاريف الحروب التي استغرقت القرن السادس عشر كله . كانت كاستيل غنية وكانت تتبعها تلك الامبراطورية (الدولة) واسعة الأرجاء الممتدة الى ما وراء البحار التي وفرت هي أيضا الثروة للخزانة الملكية ، ولكن حروب شارل ضد فرنسا والدولة العثمانية وحروب فيليب ضد فرنسا وانكلترا والدولة العثمانية وضد رعاياه هو ف الأراضي المنخفضة (نيذرلاندا) ، كل ذلك امتص تلك الثروة امتصاصا مريعا . والى سنة 1600 كانت اسبانيا ما تزال تبدو ذلك العملاق السياسي العسكري الذي مشى ف تاريخ القرن السادس عشر مشية المختال . ولكن نظرة دقيقة الى ديوان الملك الأسباني والى الوضع الديموغرافي والاقتصادي لكاستيل ، والى وضع المناجم ف العالم الجديد حيث سينخفض قريبا سيلان المعادن الثمينة — كل ذلك يدل على أن ذلك العملاق كان يمر بمرحلة خطيرة . وعندما تولى فيليب الثالث

العرش كانت الدولة الاسبانية فى محنة حقيقية . ذلك أن الملك الجديد كان معدا لأن يكون راهبا أفضل من حاكم ، بينما الصعوبات التي كانت تواجه حكومته لا يمكن أن يتغلب عليها رجال عجزة كأولئك الذين كانوا يحكمون دولته . لقد كان يمكنهم أن يضربوا ضربة لانهاء الحرب فى الأراضي المنخفضة أو يسحقوا « عش النسر » فى الجزائر ، ولكنهم لم يفعلوا لاهذا ولا ذاك . ان المائة سنة من التدهور والانحلال التي انتهت بعد قرن من الزمان بالحرب المعروفة بحرب الخلافة الاسبانية قد بدأت ، وحتى رجال دولة أقوياء أمثال غاسبردي غوزمان de Guzman دوق أوليفاريس Olivarès (1521 — 1543) ، لم يستطيعوا وقف ذلك التدهور والانحلال .

ان الانحلال الذي كان قد أصبح وشيكا فى الدولة الاسبانية ينعكس فى هبوط التجارة الاسبانية . وهناك عدة عوامل لعبت دورا فى ذلك الهبوط . وبدون شك لم تكن أنشطة بحارة شمال افريقية الا واحدة منها ، ولكن تسلل نظرائهم ، « كلاب البحر » الانكليز و « شحاذة البحر » الهولانديين ، والتصاعد المدهش للقرصنة الانكليزية والهولاندية فى حوض البحر الأبيض ــ كان لها أيضا عواقب وخيمة على التجارة البحرية الاسبانية . وكان هؤلاء القراصنة وبحارة السفن الخواص من الانكليز والهولانديين محل ترحيب فى موانيء شمال افريقية حيث كانوا يبيعون غنائمهم ، ويريحون طواقمهم ، وأحيانا يشاركون ضيوفهم كرياس أعلاج . ان هؤلاء الرجال لم يكن لهم ولاء للسلطان العثماني ومن ثمة كانوا لا يتورعون عن مهاجمة سفن حلفاء الدولة العثمانية مثل الفرنسيين أو أصدقاء هذه الدولة (العثمانية) مثل أنكلترا والبندقية . لقد كانت سفنهم القوية ذات الأشرعة والمسلحة بالمدافع عاملا مهما فى تدهور البندقية (1) وكذلك تدهور الولايات التابعة لاسبانيا فى البحر الأبيض . وكان الأسبان قد فكروا فى الانتقام العنيف من النهب الذي حصل لهم من القراصنة المذكورين (الانكليز والهولانديين) ومن الرياس الجزائريين . ولكن خطط الهجوم على الجزائر فى مدار القرن لم تأت

---

1 ـ انظر البر تيناتي A. Tenenti (القرصنة وتدهور البندقية) ، 1580 - 1615 .

الفصل الحادي عشر

الايالة الجزائرية واروبا، 1660-1688

انتج ربع القرن الذي جاء بعد سنة 1660 تغييرات جذرية في المؤسسات السياسية والعسكرية الأروبية، وهي التغييرات التي سيكون لها على المدى البعيد تأثيرات هامة على جماعات البحارة في شمال افريقية. فنظام الملك الشاب، لويس الرابع عشر الذي تولى سلطة مملكته عند وفاة مازاران، كان في الحقيقة استمرارا للأعمال التي قام بها الوزيران العظيمان (الكاردينال ريشيليو والكاردينال مازاران) اللذان حكما فرنسا أثناء العقود الماضية. فقد كانت وزارة الحربية، ومعها الجيش النظامي الذي يتلقى أوامره من الملك والذي كان ريشيليو قد تصوره عندما أدمج مصلحة أمير البحر وشرطة فرنسا في وزارته، قد ظهرت هي الساعد القوى للحكومة الملكية. ثم ان ظهور البحرية الفرنسية القوية قد وازته صناعة بحرية في كل من انكلترا والأراضي المنخفضة، ونعني بذلك السباق البحري الذي تولدت عنه أساطيل بحرية لم يكن في مقدور ايالات شمال افريقية أن تسابق معها. ومن جهة أخرى فان حكام شمال افريقية لم يستطيعوا أيضا أن يطوروا بيروقراطية «عصرية»، شأنهم في ذلك شأن عجزهم عن بناء سفن حربية في حجم وقدرة القوات البحرية الأروبية. وهذا يعني أن تجارة أهم الدول الأروبية الثلاث (فرنسا - انكلترا - هولندا) ستصبح «لعبة» خطرة بالنسبة للرياس، ما عدا اذا كانت هذه الدول في حرب ضد بعضها البعض.

اصبحت حماية السلطان لهم أقل فعالية . وبالاضافة الى ذلك فانه ما دامت السفن التجارية الفرنسية قد نالت أرباحا طائلة من حمل البضائع والمسافرين من اسبانيا وايطاليا ، فان سؤالا أصبح مطروحا وهو هل يمكن للعلم الفرنسي أن يحمي حقا الأجانب الموجودين على السفن الفرنسية . لقد كان هذا الأمر مجلبة لثروة كبيرة لكل السفن التجارية والقناصل الفرنسيين فى المشرق الذين كانوا يطلبون اثنين فى المائة كضريبة قنصلية عن كل البضائع التي اشتراها أو باعها التجار المسيحيون (ما عدا الانكليز) فى موانيء المشرق العثماني . فهل كانت تلك السفن تحمل بضائع « العدو » وهل كانت تلك التجارة تجارة مهربة ؟ لقد كان من الطبيعي أن يبرر الرياس المسلمون الاستيلاء عليها بأنها كانت كذلك . فكان القراصنة العاملون فى معظم الأحيان من تونس ، يغيرون على أية حمولة تجارية بدون تمييز . ولم يكن لاحتجاج الفرنسيين الا أثر ضئيل .

× وقد حدثت أزمة خطيرة سنة 1604 . ذلك أن شمال افريقية ، مثل كثير من أجزاء أوروبا الغربية ، وقع فريسة للمجاعة ، وعندما علم أن أصحاب الامتيازات الفرنسيين فى حصن فرنسا (بالجزائر) كانوا يصدرون الى فرنسا الحبوب التي كان يجب أن تطعم الجزائريين ، حدث هيجان كبير . ذلك أن الانكشارية الجزائرية مدعمة بسفن الرايس مراد ، ذلك الأمير البحري الشهير ، هاجموا الحصن وأخلوه . ولما احتج هنري الرابع لدى اسطانبول أجاب الجزائريون بالعنف ضد شخص القنصل الفرنسي . ولكن مملكة فرنسا ما يزال لها نفوذ فى اسطانبول ، كما أن السلطان ما تزال له القوة الرادعة بحيث حكم بعزل وشنق الباشا الذي فشل فى وقف الهجوم على الحصن الفرنسي . ثم وقع السلطان أحمد وهنري الرابع اتفاقا جديدا نص بصراحة على منع بحارة شمال افريقية من استرقاق الفرنسيين أو مصادرة بضائعهم وسفنهم . وفى مقابل ذلك ضمن الاتفاق لرياس شمال افريقية حق اصلاح سفنهم فى الموانيء الفرنسية وشراء المؤونة من الأسواق الفرنسية .

ولكن القراصنة العاملين في الموانيء الشمال افريقية والذين لم يتقيدوا بهذا الاتفاق ، استمروا في هجوماتهم على التجارة الفرنسية . ولم يكن لهنري الرابع قوة بحرية فعالة ، ولذلك منح رخصة لدى بوليو de Beaulieu لقيادة قطعة بحرية خاصة ومهاجمة القراصنة في تونس . وقد نجح دي بوليو نجاحا باهرا عندما اشترك بقواته مع الأسطول الاسباني ـ الصقلي في البحر الأبيض في الهجوم على الميناء التونسي ، حلق الوادي . فقد اغرقوا أو احرقوا ست عشرة سفينة حربية كانت تحمل أكثر من اربعمائة قطعة من المدفعية . ولذلك بقي القراصنة مدة قصيرة لا يسببون مشاكل . أما الجزائر فلم تتأثر بذلك .

ان القطيعة الكبيرة التي حدثت بين فرنسا وايالة الجزائر قد جاءت بعد ذلك بقليل حول حادث مدافع الضابط سيمون دانزر S. Danser وقد كان الفرنسيون هذه المرة ، وليس ايالة الجزائر ، هم الذين سلكوا مسلكا يعتبر محل شك . وكانت القضية هي نتيجة العفو الذي منحه هنري الرابع للضابط دانزر ، الذي هو رايس قرصان اكسبته جرائه في البحر لقب « الرايس الشيطان » بين الجزائريين . ويبدو أنه كان من الأراضي المنخفضة (فلبيني) ، ولكن كانت له زوجة تعيش في مرسيلية ، وكان يتطلع الى التخلي عن دوره النشيط في الجماعة البحرية الجزائرية ، والى التفرغ لحياة أكثر متعة بثرواته الهائلة (2) . وقد حصل دانزر على العفو الفرنسي بتوسط جماعة الجزويت الذين أنقذ لهم ستة منهم من الرق . وقد استطاع أن يحمل أكثر ثروته على سفينة وبحر نحو مرسيليا . وكان أكثر حظا من قرصان شمالي آخر يسمى بونيل Bonel ، كان قد جيء به أيضا الى مرسيليا في نفس الوقت قطع رأسه . واعترافا من دانزر بالمعاملة الكريمة للحكومة الفرنسية ، قدم الى الدوق دي غيز de Guise ، حاكم الاقليم ، مدفعين من

2 – لم يكن دانزر سوى واحد من كثير من هؤلاء المغامرين : وارد ، بيشب ، جونسون ، غلانفيلد ، فريفس ، بيني اراس ، سامسون ، ديتبال ، وغيرهم ممن لهم أسماء انكليزية ، وهولاندية وفليمية Flemish الذين كانوا زملاء له ، وكان بعضهم قد أصبحوا أعلاجا ، ولكن آخرين ، مثل دانزر ، بقوا « مسيحيين » بقطع النظر من طريقة العيش التي عاشوها .

النحاس كانا ، لسوء حظ الحوادث اللاحقة ، معارين له من الحكومة الجزائرية . ومن الطبيعي أن يطالب الجزائريون الذين هزتهم « خيانة » دانزر باعادة المدفعين .

وقد تطورت الأزمة السياسية ببطء ولكن بثبات . فقد رفض (غيز) تسليم المدفعين ، ولكن الحوادث في فرنسا التي لم تكن متصلة بقضية دانزر ، هي التي أخرت رد الفعل . فقد قتل هنري الرابع ، وكانت الوصية على العرش ، ماري دي مديشي ، تعاني من الاضطرابات التي تزعجها في كل من منطقة الراين وباريس . ولكن شيئا لم يقع . ان هذا هو نوع الأزمة التي كان الرياس الجزائريون ينتظرونها . فقد كانت التجارة الفرنسية في البحر الأبيض كثيرة وغنية ومغرية ، ومع رفض الملك الفرنسي الاستجابة لطلب الحكومة الجزائرية ، حانت فرصة ذهبية للبحارة . وكان الباشا ، الذي كان يجب عليه حماية حليف السلطان (فرنسا) ، يعاني هو الآخر من الصعوبات : المجاعة ، وحدوث زلزال ، وتمرد أو التهديد بالتمرد من قبل منطقة القبائل والكراغلة . وهكذا سرعان ما ظهر رجال فرنسيون في سوق الرقيق ، وكذلك كانت السفن الفرنسية تباع بحمولاتها في الجزائر كغنائم . وسرعان ما كانت خسائر مرسيليا تتصاعد الى الآلاف من الفرنكات (Livres) ، وكان الأرقاء الفرنسيون يطلبون النجدة من ملكهم ، أما الجزائر فقد دخلت عهدا جديدا من الرخاء .

وقد تعالت الاحتجاجات من اسطانبول ، ولكن الجزائريين أصبحوا الآن قادرين على تأخير أو رفض الاجابة . وقام تجار مرسيليا بشراء وتسليح خمس سفن شراعية مصنوعة في هولاندا للانتقام من معذبيهم . وتتحدث الأخبار بأن قائد تلك السفن هو دي فينشغير de Vincheguerre الذي كان أقل نجاحا من بوليو ، ومع ذلك ففي سنة 1617 كان في السفن الفرنسية عدة مئات من « الأتراك الجزائريين » يعملون كأرقاء . ونتيجة لذلك ، وسواء أراد ذلك الفرنسيون أم لم يريدوا ، فان فرنسا كانت في حرب مع الجزائر ، وكان التجار والبحارة الفرنسيون غنائم تباع في المزاد بهذه المدينة .

وكانت التجربة الانكليزية في مطلع القرن السابع عشر تشبه التجربة الفرنسية • فقد كانت السفن الانكليزية نادرة في البحر الأبيض قبل الثمانينات من القرن السادس عشر • ولكن اليزابيت حصلت على معاهدة مع الباب العالي سمحت للشركة المعروفة باسم شركة المشرق (أو تركيا)(*) بارسال قناصل واجراء المعاملات الاقتصادية في مدن الموانيء بالدولة العثمانية • وكان الرياس الجزائريون قد اعتبروا في البداية هذه السفن الانكليزية هدفا لنشاطهم ، كما أن باشا الجزائر رفض منح السفن الانكليزية رسائل المرور الآمن ، بل أنه أخبر ممثل شركة المشرق أنه يتوقع أن بحارته يستولون على بعض الغنائم الانكليزية • ولكن هذه الغنائم كانت قليلة ، لأن السفن الانكليزية كانت مسلحة جيدا وكانت قادرة في العادة على أن تحمي نفسها بنفسها ، والواقع أنه بعد أن نجح خمسة تجار من الانكليز في توقيع الهزيمة بقطعة من أسطول دوريا Doria سنة 1586 ، أظهر باشا الجزائر « سروره العظيم بهم وأبدى استعداده للترحيب بهم ، ووعدهم بتوفير جميع حاجاتهم ، معلنا على الملأ فى المدينة (الجزائر) بأن لا يتعرض اليهم أحد بسوء فى أعمالهم أو في أشخاصهم أو في بضائعهم ••• ومن يفعل ذلك فقد عرض نفسه لعقوبة الموت • » (3) ورغم ذلك فان قنصل الشركة المشرقية المسمى السيد تيبتون Tipton كان عليه أن يقطن ، سنة 1600 ، في الحي اليهودي ، وكانت له من الأسباب ما جعله يحتج الى الباشا حول نشاط الرياس نحو السفن والبحارة الانكليز ، لقد أصبح البحارة الانكليز أرقاء عندما أسر البحارة الجزائريون أو أغرقوا سفنهم •

ولكن الحذاء كان أيضا ، سنة 1600 ، في القدم الأخرى • فقد جاء ضابطان انكليزيان (قرصانان ؟) (**) بسفينة لبيعها على أنها غنيمة ، مدعين أنها كانت أسبانية الأصل • وبعد ذلك بقليل ظهر في الجزائر الضابط الحقيقي للسفينة المحتجزة وأخبر الباشا أن السفينة كانت

(*) – هذا التوضيح من المؤلف نفسه ، وقد كرر ذلك لانه يعتبر منطقة المشرق هي تركيا (الدولة العثمانية !) • (المترجم) •

3 – أنظر فيليب جونز Jones (القصة الحقيقية) ، 1586 •

(**) – سيذكر المؤلف اسم هذين الضابطين بعد قليل • (المترجم) •

مسجلة تحت اسم البندقية وطالبه بالعدل . لقد كان الاحتجاز عملية قرصنة واضحة . وقبل أن يتحرك الجزائريون عمد الانكليزيان الى احراق السفينة وكادت النار تأتي على كل السفن الأخرى في الميناء . وقد كتب سليمان باي (*) الى اليزابيت محتجا على أن هذا العمل غير الشرعي قد هدد الميناء وعرقل العدالة الجزائرية ويمكن ان يؤدي الى الانتقام من البندقية . ان هذه الحادثة وقعت في نهاية عهد اليزابيت ولم يقم خليفتها باي اجراء حول الموضوع بدعوى أن الانكليزيين المعنيين ليسا تحت سلطته . وسرعان ما أصبح السلوك الشيطاني للقراصنة الانكليز الآخرين أصحاب السفن الخاصة ، أصبح فضيحة شائعة . ذلك أن الضابطين بنت Bent وبوكولي Buccolli اللذين أثارا الاحتجاج السابق لم يكونا سوى رائدين للمغامرين الانكليز ، أولئك القراصنة الذين لا يعرفون حدودا لكسب الغنائم والذين كانوا يعملون في موانيء شمال افريقية بعد توقيع جيمس الأول السلام مع اسبانيا . فهؤلاء، وكذلك الهولانديون ، أصبحوا أحيانا أعلاجا وبقوا أحيانا أخرى على المسيحية ، ولكن سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين فان نماذج حياتهم وأنماط سلوكهم جعلت المسلمين الأتقياء متأكدين بأن المسيحيين كانوا شياطين وأناسا لا سلطان عليهم . وبالرغم من أن سلوك هؤلاء ، المتميز بالخنا والخمر والقمار قد هز كثيرا من المسلمين ، فان رياس شمال افريقية رحبوا بهم لأنهم علموهم كيف يجتازون مضيق جبل طارق الى المحيط الأطلسي حيث استولوا على السفن الانكليزية .

ولم ينتظر الانكليز الى توقيع ملكهم السلام مع اسبانيا ليعرفوا أن سفنهم قد أغار عليها البحارة من الجزائر . ففي سبتمبر سنة 1602 كتب كبير أمراء البحر الانكليز الى القنصل بالجزائر والى السفير في اسطانبول يحتج على احتجاز السفينة (ماريغولد Marigold) في عرض المحيط الأطلسي وفقد حوالي 1730 جنيه استرليني . وبينما كان الفرنسيون في هذه الأثناء تمكنوا بنفوذهم من حمل السلطان على عزل وشنق أحد الباشوات ، فان الانكليز لم يكن لهم مثل هذا التأثير .

(*) ـ كذا ذكره : سليمان باي ، والظاهر انه يقصد الداي . (المترجم) .

ان صلح جيمس الأول مع أسبانيا قد أنهى ما بقي من حصانة للسفن الانكليزية ضد المغيرين الجزائريين ، وذلك في نفس الوقت الذي افتتح فيه الرياس ، بمساعدة الأعلاج والمغامرين الشماليين ، أعظم عهودهم في النشاط البحري . وقد رأينا أن البحارة الجزائريين كانوا يصرون على أن البضائع الأسبانية والمسافرين الأسبان كانوا عرضة للانتقاد ، ولكن ذلك كان مبررا كافيا اذا ما حاولت راية صديقة (فرنسا) أن تحمي بضائع وأشخاص العدو . وعندما سمحت لهم الحوادث بالنظر الى السفن الانكليزية والهولاندية والفرنسية على أنها سفن أعداء الجزائر لم يعودوا في حاجة الى مبرر . وحالما أصبحت سفن هؤلاء البحارة عاملة على الجانبين من مضيق جبل طارق ، بل أصبحوا يجوبون المنطقة الواقعة بين جزر الكناري وايسلاندا ، والى أبعد من ذلك عند ضفاف الصيد من أمريكا الشمالية ، وجد البحارة الجزائريون السفن الانكليزية وأسروها بسهولة . واذا كانت شرعية الاحتجاز محل تساؤل ، فان مجرد تجربة نهب السفينة واسترقاق طاقمها وارسال السفينة الى قاع البحر قد حطم معظم الأدلة . وقد أكد السفير الانكليزي في أسبانيا ، بعد السبع السنوات الأولى من حكم جيمس ، ان أربعمائة وستة وستين انكليزي أسرهم الجزائريون واسترقوهم ، بينما لم تفعل الحكومة الانكليزية أي شيء نحوهم . وكل ما فعلته هذه الحكومة هو منحها الترخيصات للضباط البحارة الانكليز ليخرجوا فى حملات ضد القراصنة، وهي التراخيص التي أعطت لهؤلاء الضباط حق الاحتفاظ لأنفسهم بأي شيء قد يقع في قبضتهم ودون دفع أي مبلغ الى السلطات البحرية .

وقد استطاعت شركة المشرق ، من جهتها ، أن تبعد معظم البحارة (الجزائريين) وذلك بارسالها قافلة من السفن التجارية المسلحة تسليحا جيدا . وكانت هذه السفن الضخمة أكبر مما تستطيع غليوطات البحارة أن تتحمل . والواقع أن واحدة من تلك السفن كانت مسلحة بتسعة عشر مدفعا قد قاومت خمس غليوطات « تركية » بقيادة علج أنكليزي اسمه والسينهام Walsynham وأجبرتها على التراجع . ولكن القضية وقعت أيضا معكوسة . ففي احدى المعارك سقط نصف أسطول الصيد المتألف من ثلاثين سفينة فريسة في أيدي البحارة

الجزائريين خارج شواطيء نيوفاوندلاند . وهكذا فانه ابتداء من العقد الثاني للقرن السابع عشر أصبح أسطول البحارة المنطلق من الجزائر يشكل تهديدا خطيرا لحركة السفن البريطانية وسفن الدول الشمالية الأخرى . ولم يكن يظهر أن هناك طريقة سهلة للتوصل الى حل . فقد كتب السيد فرانسيس كوتنغهام Cottingham السفير الانكليزي في اسبانيا ، سنة 1617 قائلا : « ان قوة وجرأة قراصنة شمال افريقية هما الآن على هذا النحو من الضخامة ، سواء في البحر الأبيض أو في المحيط الأطلسي . وأشهد أنني لم أعرف في حياتي شيئا قد جلب الى هذا البلاط (الأسباني) الأسى العميق والخراب الكبير غير هؤلاء القراصنة . » وكانت هناك اقتراحات في كل من مدريد ولندن للقيام بحملة بحرية انكليزية - اسبانية مشتركة ضد الجزائر . ولكن عندما أصبحت هذه العملية ممكنة ، تراجع الأسبان عن العمل المشترك مع الانكليز أعدائهم السابقين .

علم جيمس الأول ووزراؤه عن هذه القضية من رعاياهم المنكودين . وقبل نهاية العقد الثاني من القرن السابع عشر طالبت عدة عرائض من الأرقاء الانكليز بالجزائر بتدخل الملك ، كما طالب عدد من التجار الانكليز من القيادة البحرية العليا بالحماية . وقد أعد السيد وليام مونسون Monson ، وهو بحار قديم يجر وراءه خمسين سنة من الخدمة كما أن له خبرة عميقة بأحوال البحر الأبيض - أعد مذكرة لحكومة الملك . وكان محتواها الرئيسي يقوم على أنه لا يمكن السيطرة على الرياس البحارة الا بتعاون جميع الدول المسيحية الأوروبية ، سواء كانت بروتيستانتية أو كاثوليكية . وقد لاحظ أن الجزائر كانت محروسة « بأعلاج ومشردين يائسين ... كانوا قد تخلوا عن الله وعن الفضيلة ... » وان كل المحاولات للاستيلاء على هذه المدينة قد فشلت. والأمل الوحيد في أي نوع من النجاح يحتاج الى التعاون بين جميع الدول الأوروبية . ان هذه الملاحظة مهمة لأن جميع من قدموا المذكرات حول الموضوع خلال القرنين التاليين قد كرروها . وقد ذهب مونسون الى اقتراح خطة ملء فراغ شبيهة بالمقترح الذي تقدم به تاجر من بريستول Bristol ، وهو يقوم على أن التجار من المدن الساحلية

الأودية يجب أن يرخص لهم في مهاجمة المدن والقرى الشمال افريقية وأسر الرجال والنساء والأطفال ويبيعهم في أسواق أسبانيا ومالطة . كما طالب الاقتراح بأن يضمن لهؤلاء المحاربين الخواص أن يمتلكوا أي شيء يمكن أن يقع في أيديهم . وأصر مونسون أيضا على أن أي رايس علج يؤسر يجب شنقه في الحال ، وأن أي رايس مسلم لا يطلق سراحه ليعود الى بلاده . ومما يلاحظ أن هذه الخطة تجعل الرياس البحارة ليسوا هم فقط المحتكرين للسلوك الخشن .

ولم يتحقق شيء من مقترحات مونسون ، ولكن المعارك الدموية في البحر واسترقاق المزيد من الانكليز (في الجزائر) أقنع قصر باكنهام Buckingham والملك بأنه لا بد من فعل شيء ما في الموضوع . ولكنهم كانوا قد استبعدوا العمل المشترك مع الهولانديين نظرا لمعاملة هؤلاء الوحشية للبحارة الانكليز في الشرق الأقصى . وكان الحل هو حملة كلها انكليزية متعاونة مع الأسطول الأسباني . ويبدو أن الشركة الشرقية قد وقع التأثير عليها لتضمن دفع التكاليف وهي حوالي عشرين ألف جنيه ، بينما حصل السفير الانكليزي في مدريد على وعود مضمونة بالمساعدة الاسبانية . وغادرت الأرمادة الانكليزية متوجهة الى البحر الأبيض مكونة من ست سفن حربية عادية وعليها مائتان وثلاثون مدفعا نحاسيا واثنا عشر سفينة تجارية وعليها مائتان وثلاثة وأربعون مدفعا حديديا من العيار الصغير . (4) وكان السيد روبير مانسيل Mansel هو قائد هذا الأسطول من سفينته المسماة (ليون = الأسد) ، وهي سفينة حربية ذات حمولة ستمائة طن ، وأربعين مدفعا وطاقم من مائتين وخمسين رجلا . وكانت سفن مانسيل أكثر تفوقا في قوة الطلقات النارية في مقابل أي نوع يمكن أن يقابلها به بحارة الجزائر ، ولكن سفن

---

4 — بحلول سنة 1620 كانت الصناعة الحديدية الانكليزية تصنع المدافع الحديدية بكميات كبيرة ، وكانت انكلترا اكبر البلدان المنتجة للمدافع الحديدية في اوروبا ، غير ان المدفع الحديدي كان خطرا على الطاقم الذي يطلقه لانه كان كثير الانفجار . ان اوروبا حتى ذلك الحين لم تتعلم بعد كيف تصنع الحديد دون التعرض لاخطار كبيرة . ولكن مدفع النحاس (او مدفع الفونت (Fonte كان افضل من ذلك بكثير ، فهو لا يصدأ كما يصدأ الحديد ، كما ان انفجاره كان نادرا .

هؤلاء كانت أسرع وأكثر سهولة في القيادة . ولذلك فان أي تفوق للطلقات النارية الانكليزية كاد يصبح معدوما .

وصل مانسيل أمام الجزائر في آخر شهر نوفمبر سنة 1620 ، ولكن هذه الحملة كانت بدون نتيجة . فقد سارع الباشا بارسال كلمات معسولة حول « تعليمات رئيسه (السلطان) بمعاملة الانكليز بكل صداقة واحترام » ؛ وحتى عندئذ ورغم وجود السفن الانكليزية راسية أمام مدينة الجزائر ، فان أحد الرياس الجزائريين جاء بسفينتين انكليزيتين على أنهما من الغنائم . وقد أعلن الباشا في الحال بأن السفينتين ستطلقان . وفي الثالث من ديسمبر وصل أسطول أسباني يتألف من ست سفن حربية وأطلق أربعا وسبعين قنبلة على المدينة . وردت عليه مدفعية الميناء ، ولم يصب أي طرف بخسارة ، كما أن الانكليز لم يقدموا أي مساعدة للأسبان . وبعد عدة أيام أبحر مانسيل مبتعدا حين أنذر الطقس باقتراب عاصفة . وقد نجح في تحرير حوالي أربعين من الأرقاء الانجليز ، جميعهم كانوا مسنين ، بينما بقي المات الآخرون من الانكليز في الجزائر .

ذهب مانسيل الى أسبانيا للتموين وليضع خطة يستعمل بمقتضاها السفن الأسبانية لسحب الزوارق النارية ووضعها في شكل يتم به احراق الأسطول الجزائري . ولكن حدثت مسرحية من سوء التفاهم فقد ظهر أسطول هولاندي أمام الساحل على أساس أنه ينتظر انتهاء هدنة الاثني عشر سنة مع أسبانيا . واقترح قائد هذا الأسطول عملية مشتركة مع مانسيل ضد الجزائريين . ولكن الأسبان فهموا عندئذ أن الخطة تعني عملا مشتركا للهجوم عليهم هم حالما تنتهي الهدنة . وفي النهاية لم يتقدم لا الأسبان ولا الهولانديون بأية مساعدة لخطط مانسيل . وقد حاول أن يحرق الأسطول الجزائري بنفسه ولكن الرياح كانت معاكسة له ، ولم تكن مراكبه المدفوعة بالمجاديف قوية بما فيه الكفاية لوضع الزوارق النارية في الشكل المناسب . وأخيرا انسحب . وتذهب جميع الآراء الى أن حملة مانسيل كانت فاشلة فشلا ذريعا ، ويظهر ذلك من جميع الكتابات التي كتبت عن هذه الحملة ما عدا ما كتبه

جوليان كوربيت J. Corbett الذي يرد ما قام به مانسيل ، مع ذكره لملاحظة كانت في الواقع أكثر دلالة على كوربيت لا على الحكومة الانكليزية سنة 1621 ، فقد كتب قائلا : « أن الحكومة الانكليزية لم يكن لها نية للمغامرة بأسطول ومهاجمة أكثر أعداء أسبانيا قوة بطريقة مستعجلة » • فاذا كان هذا الراي صحيحا فلماذا أرسلت الحكومة الانكليزية حملة مانسيل الى الجزائر منذ البداية ؟

ان الرد الانكليزي على استرقاق الانكليز ونهب السفن الانكليزية يبدو ضعيفا حقا ، ولكن البحرية الانكليزية سنتي 1620 — 1621 كانت ضعيفة وكانت الخزينة الانكليزية غير مستعدة للقيام بعملية طويلة المدى وغالية الثمن وبعيدة عن الشواطيء الانكليزية ، ولا سيما اذا كانت عملية موجهة ضد عدو من الصعب الحصول عليه • وبالاضافة الى ذلك فان جيمس الأول كان عندئذ أكثر اهتماما بمصير ابنته التي طرد زوجها المسمى « ملك الشتاء » وهو فريدريك البلاتيناتي Palatinate من بوهيميا في نفس تلك السنة (1620—1621) • كما كان يشرئب الى تزويج ابنه شارل من أميرة اسبانية من عائلة الهابسبورغ • ان الرياس البحارة كانوا حقا يشكلون تهديدا ، ولكن في تلك اللحظة كانت الأحداث في أوروبا (حرب الثلاثين سنة) أكثر خطورة على ملك كان يريد قبل كل شيء الاحتفاظ بالسلام لمملكته والأمن لعائلته وعرشه • وقد أجاب الرياس البحارة على هذا الضعف الانكليزي • لقد كتب كاتب الدولة بورشيل يقول : « انه ما كاد السيد ريتشارد (*) مانسيل يدير ظهره عائدا حتى أسر هؤلاء البحارة أربعين سفينة كاملة تعود الى رعايا سيده ، كما شنوا الغارات على السواحل الأسبانية بحدة لم يمارسوها من قبل • »

وهناك حادث حدث أثناء حملة مانسيل يعتبر هامشا مهما يعكس الوضع في كل من انكلترا والجزائر • فقد طلب الباشا عندئذ أن على مانسيل أن يعين قنصلا • ولكن أمير البحر (مانسيل) لم يكن لديه

(*) — سبق أن اسمه روبير ولبس ريتشارد مانسل • (المترجم) •

شخصية « مناسبة » لهذا المنصب . ولذلك ألبس « رجلا عاديا » لباس رجل مهذب ووضعه على الشاطيء وأعطاه مائة جنيه في جيبه . ونحن لا نعلم ماذا حدث فعلا للسيد ريتشارد فورد Foorde (القنصل المعين) . ان مكتب السجلات العامة (P.R.O.) بريطانيا يحتوي على رسائل منه تخبر عن الأحوال السيئة للأرقاء الانكليز وعن صرفه للمائة جنيه في محاولة انقاذ بعضهم ، وعن وضعه الشاذ وهو بدون نقود ولا أصدقاء . فقد كان يواجه عداء الباشا ، والجوع ، ومعيشة « لا تكاد تكون أفضل من معيشة الأرقاء » . وليس هناك دليل على أن الحكومة الانكليزية قامت نحوه بأي شيء . ومن الواضح أن « رجلا عاديا » ، يمكن الاستغناء عنه ، ولكن في السنة الموالية قررت الحكومة الانكليزية فعلا ضرورة عقد معاهدة مع الجزائر ، وتعين قنصل انكليزي ليسهر على التجارة الانكليزية ، وليحاول الحصول على حرية الأرقاء ، ويمنع الانكليز من أن يصبحوا أعلاجا ، وأخيرا يحافظ على الجـزائر حتى لا تنضم الى أعداء انكلترا في حالة وقوع حرب .

قام السيد توماس روي Roe ، السفير الانكليزي لدى الباب العالي بعقد معاهدة مع « أولئك في الجزائر » خلال مارس سنة 1622 ، وهي المعاهدة التي يفترض فيها أنها حققت السلام بين الدولتين على دعائم ثابتة . فقد نصت على تعيين قنصل انكليزي في الجزائر ، وعلى أن التجار الانكليز سيأتون بالأقمشة وغيرها من البضائع (المعدات الحربية) الى الجزائر لبيعها . ووافق الملك الانكليزي على اعادة شراء سبعة عشر « تركيا » كان مانسيل قد باعهم في أسبانيا مبادلة مع عدد مشابه من الأرقاء الانكليز في الجزائر . وكذلك يمكن تحرير أرقاء آخرين انكليز عن طريق الشراء . وقد وافق الملك جيمس الأول على المعاهدة ، وعين جيمس فريزل Frizell ليكون قنصلا . وكان راتبه ، الذي كان تحت مسؤولية شركة المشرق ، قد دفع له مدة سنتين فقط . وتدل رسائل فريزل التي بعث بها أكثر من عشر سنوات بعد سنة 1626 على أن الشركة لم تدفع له ، وأن الملك لم يفعل شيئا لجعلها تدفع له راتبه . كما أن طلبات فريزل بتعيين قنصل آخر مكانه لم تصادف نجاحا . ويبدو أن سبب اهمال الشركة له يعود الى أن تجارا آخرين لا صلة لهم بالشركة

التركية (*) قد تسربوا الى التجارة بالجزائر ، ولذلك ترك القنصل وشأنه ليجد دعما لنفسه من الرسوم القنصلية .

ولم يكن طريق فريزل طريقا سهلا . ذلك أن الجزائريين قد عقدوا السلام مع انكلترا ، حسبما شرح ذلك الباشا في رسالة منه الى جيمس الأول ، لأن السلطان أمر بذلك ، وأنهم كانوا مجبورين على « طاعة أوامر الله ورسوله وسيدهم السلطان » ولكن سرعان ما تقدم الجزائريون بشكواهم . فخلافا لنصوص المعاهدة كان التجار الانكليز ينقلون بضائع العدو ومسافريه من مرسى الى آخر وقد رفضوا تسليم الجميع عندما طلب البحارة الجزائريون منهم ذلك . وكان ضباط (**) البحر الانكليز يأسرون ويبيعون الأتراك والجزائريين كأرقاء ، كما أن الأتراك الجزائريين السبعة عشر الذين باعهم مانسيل في أسبانيا لم يرجعوا الى الجزائر . ان وثائق مكتب السجلات العامة لم تجب على هذه القضية . فهل أن أولئك الرجال لم يقع شراؤهم أبدا من جديد ؟ اننا لا نعرف ذلك . لقد كتب الباشا الى جيمس يقول : « لولا ذكاء وحكمة خادمكم المخلص جيمس فريزل ... لكان لذلك نهاية أكثر تعقيدا . » ورغم ذلك فان حكومة الملك لم تقدم لفريزل أي تعريض عن خدماته بالرغم من أن هذه الخدمات ستستمر مدة طويلة بعد ذلك .

ان معاهدة السيد توماس روي التي أنهت الحرب الأولى بين أنكلترا والايالة الجزائرية ستصبح القاعدة التي قامت عليها كل الاتفاقات المقبلة بين البلدين . ويبدو أن السيد روي ، كان خجولا كثيرا من التعامل مع الجزائريين الذين كانت ثقافتهم وطرقهم السياسية أدنى بكثير من الثقافة والطرق السياسية لوزراء الباب العالي باسطانبول ، ولكنه تحقيقا للسلام كان عليه أن يتعامل مع « أولئك في الجزائر » ، وأن يوافق

(*) – هكذا يسمى المؤلف شركة الليفانت (المشرق) احيانا . (المترجم) .

(**) – اذا ذكر المؤلف رؤساء البحر الاوربيين فانه يسميهم (ضباطا) : امير البحر = ادميرال الخ ، بينما اذا ذكر رؤساء البحر المسلمين فانه يسميهم البحارة ، وفي احسن الأحوال يسميهم «الرياس» . (المترجم) .

على تعيين قنصل كان في الواقع ممثلا لملكه كما كان ممثلا لمصالح الشركة التجارية العاملة في المشرق . ان معاهدته كانت أول اعتراف من قبل الحكومة الانكليزية بأن الجزائر كانت من حيث الواقع ، ان لم تكن بالمعنى الشرعي المعاصر ، مجتمعا شبه مستقل ، وعلى رجال الدول الأروبية أن يتعاملوا مع هذا المجتمع حتى ولو كانوا ينظرون الى المفاوضات مع « مثل هؤلاء الناس » أقل درجة من كرامة أمير أروبي . وهناك دول أخرى ذات تجارة في البحر الأبيض ستضطر أيضا قريبا الى الاعتراف بالوضع الحقيقي في الايالة الجزائرية ، وأن تتفاوض مباشرة مع الباشا ، والآغا ، والديوان بدل الباب العالي باسطانبول .

ولم يصبح الهولانديون متدخلين بعمق في تجارة البحر الأبيض الا في السنوات الأولى من القرن السابع عشر ، ولذلك لم يكتشفوا الصعوبات التي يضعها بحارة شمال افريقية أمام الحكام الأروبيين الا بعد الفرنسيين والانكليز . وكانت ثورة نيذرلاندا المتحدة ضد حاكمها ، الذي صادف أن كان هو ملك أسبانيا والبرتغال ، قد جعلت تجارة شبه جزيرة ايبيريا هدفا طبيعيا للبحارة الهولانديين الخواص . لقد كان هؤلاء مزودين برسائل الاعتماد . وكانوا يغطون المنطقة الواقعة بين القنال الانكليزي (بحر المانش) والجهات المحاذية لأروبا سواء من جهة العالم الجديد أو افريقية ، وأخيرا أبحروا بسفنهم حول افريقية الى الهند وما وراءها . وبدخول السنوات الأولى من القرن السابع عشر كان التجار وأصحاب البنوك الهولانديون قد أقاموا في عالم التجارة والاقتصاد نظاما واسعا متشابكا جعل من مدينة امستردام مركزا لكل تجارة أروبا الشمالية . فقد تهاطلت عليها البضائع من البلطيق ، والشرق، وبحر روسيا البيضاء ، والموانىء الفرنسية على المحيط الأطلسي وخليج بيسكي ، ومن ألمانيا ، ومن انكلترا ، وكانت هذه البضائع كلها تصنف وأحيانا تدخل عليها تعديلات (كانت الخمر تمزج بالماء !) ثم يعاد تصديرها ـ وكل ذلك في السفن الهولاندية . ان هذه الامبراطورية التجارية أجبرت الانكليز على التوجه الى امستردام لشراء البضائع السويدية والألمانية والروسية والفرنسية والشرقية . ومن جهة أخرى فان

الفرنسيين والألمان والروس والسويديين وغيرهم لم يتاجروا مع بعضهم ، لقد كانوا يرسلون بضائعهم الى أمستردام (في السفن الهولاندية) ويشترون بضائع العالم من أمستردام . وكانت أسعار النحاس والزنك والصوف والرصاص والبارود والخمر والجبن ، ومئات من أنواع البضائع ، كلها كانت تقرر في أمستردام ، كما كان ضباط البحر الهولانديون يحملون هذه البضائع من العالم واليه . فاذا أخذنا في الاعتبار هذه الامبراطورية الواسعة فانه ليس من الغريب أن يظهر الهولانديون في حوض البحر الأبيض حالما سمحت لهم قوتهم العسكرية باجتياز مضيق جبل طارق لمهاجمة عدوهم ، أسبانيا ، من الخلف . وكان أولئك البحارة الهولانديون الأوائل ، مثلهم مثل البحارة الانكليز ، جميعهم كانوا بحارة من النوع الخاص الذين غالبا ما وجدوا من السهل عليهم أن يصبحوا قراصنة . وقد عانت السفن الفرنسية والبندقية ، كما عانى رعايا الدولة الاسبانية من برشلونة الى نابولي ، من هؤلاء الغزاة الذين كانت سفنهم عالية الجوانب . وكان كثير من هؤلاء المغامرين الهولانديين قد اكتشفوا ، كقراصنة ، أنه بامكانهم أن يعملوا من موانيء شمال افريقية بالتعاون مع البحارة المسلمين .

وبعد سنة 1609 جاء الهولانديون أيضا عبر مضيق جبل طارق ليشتروا ويبيعوا بدل محاربة عدوهم السابق ، أسبانيا ، كما أن الهولانديين سرعان ما أصبحوا يباعون في أسواق الرقيق بتونس والجزائر ، ومن ثمة كانت البضائع والسفن الهولاندية تؤخذ كغنائم . وقد حاول حكام نيذرلاندا المتحدة في البداية أن يحيدوا بحارة شمال افريقية بمعاهدة مع السلطان شبيهة بالمعاهدتين اللتين وقعهما مع الفرنسيين والانكليز . فمعاهدة سنة 1612 تعهدت لرجال السفن الهولاندية بعدم أسرهم من قبل بحارة شمال افريقية (طالما أن الهولانديين لم يلجأوا الى أعمال القرصنة) ، كما تعهدت بأن يجد أهل شمال أفريقية ملجأ في الموانيء الهولاندية وفرصة لشراء المؤن البحرية والحربية . وقد نصت المعاهدة بالخصوص على منع بيع الهولانديين في اليونان أو آسيا الصغرى . وكونها لم تشر الى شمال افريقية يدل ، فيما يبدو ، على

ان الباب العالي قد اعترف بأن سلطته كانت هناك أقل من المناطق القريبة من عاصمة السلطان • ان هذه المعاهدة مع السلطان لم تمنع • ولم تستطع أن تمنع حصول الصعوبات بين المصالح التجارية الهولاندية والمجموعات البحرية المغربية • (*)

ان الهولانديين لم يعودوا « حلفاء » الجزائر ضد عدو مشترك (اسبانيا) ، بل أصبحوا يتطلعون الى المتاجرة مع الموانيء الأسبانية • وكان ضباط البحر الهولانديون مستعدين لشحن البضائع الاسبانيـة وحمل المسافرين الأسبان من مرسى الى آخر • ولم يكن يوجد قانون دولي معترف به يحل هذا المشكل ، ومع ذلك فان الهولانديين كانوا دائما يصرون على عدم تدخل الحرب فى المصالح التجارية • وما داموا مستعدين للتجارة سواء مع العدو أو الصديق في اي وقت فانهم كانوا يريدون أن يحمي علمهم كل البضائع وكل المسافرين في سفنهم هم (5). أما الرياس الجزائريون فقد أصروا على حقهم في مصادرة بضائع عدوهم واسترقاق رعاياه حيث يوجدون مهما كانت السفن التي كانوا عليها • ولم يكن ذلك هو المشكل الوحيد : فالجزائريون لم يقبلوا ، عن رضى ، الحصانة التي أعطتها معاهدة السلطان للسفن والبحارة الهولانديين • ذلك أن السفن الهولاندية كانت هدفا مغريا لأنها ، خلافا للسفن الانكليزية التي كانت كبارها محملة بأسلحة ثقيلة ـ كانت في العادة سفنا صغيرة مسلحة تسليحا خفيفا مما يجعلها هدفا سهلا للرياس البحارة • وهكذا ، فانه رغم المعاهدة المذكورة ، فان الجزائريين قد استولوا بين سنوات 1613 و 1622 على أربعمائة وسبعة وأربعين سفينة هولاندية كغنائم • حقا أنها كانت في معظمها سفنا صغيرة ولا تشكل سوى نسبة ضئيلة من مجموع السفن الهولاندية العاملة في البحر ، ومع ذلك فقد

(*) ـ هكذا يذكرها المؤلف «المغربية» • (المترجم) •

5 ـ كانت قوانين الحرب البحرية في القرن السابع عشر غير محددة جدا • فقد كان الهولانديون يرغبون دائما في التمسك بالقاعدة وهي ان السفن المحايدة تحمي كل البضائع • أما الجزائريون ، والانكليز فيما بعد ، فقد اصروا على حق مصادرة البضائع المهربة ، ـ وحق تعريف ما هو الشيء المهرب ! •

كان الاستيلاء عليها يشكل خسارة وكان التجار بأمستردام يريدون جعل حد لذلك .

وفي سنة 1622 تجاوز الهولانديون السلطان وعقدوا معاهـدة مع « مدينة ومملكة الجزائر » ، ولكن البحارة الجزائريين ، الذين كانوا غير مستعدين لتفويت الفرصة على الغنائم الضخمة ، استمروا في الاستيلاء على السفن الهولاندية . ولذلك ظهر سنة 1624 أسطول هولاندي في البحر الأبيض واستولى على عدد من السفن الجزائرية ثم أرسى أمام الجزائر . وقد طلب قائده ، أمير البحر لامبير Lambert ، اطلاق سراح جميع الأرقاء الهولانديين واحترام المعاهدة المتفق عليها . وهدد بأنه في حالة الرفض سيشنق جميع من كان معه من الأسرى . وقد قرر الباشا والآغا والديوان بأن ذلك منه كان خديعة ورفضوا التهديد . وعند رفضهم سارع لامبير بشنق الأتراك الجزائريين الذين كان قد أسرهم ، على سواري سفنه – ثم أبحر مبتعدا . وحالما أسر جماعة أخرى من الأتراك (الجزائريين) والجزائريين (*) رجع وقام بنفس التهديد . في هذه الأثناء قام أهل مدينة الجزائر بالاحتجاج بقوة حتى أن الحكومة بادرت الى اطلاق سراح الأرقاء الهولانديين والسفن الهولاندية التي كانت ما تزال محتجزة وأعلنت أنها مستعدة لعقد معاهدة جديدة . ان معاهدة يناير سنة 1626 قد أكدت على ما جاء في المعاهدة السابقة مع اضافة بعض البنود القليلة .

ان المعاهدات الهولاندية مع الجزائر تعتبر وثائق هامة لأنها تصور بشكل صارخ المشاكل التي كان أمراء أروبا الشمالية يواجهونها مع البحارة الجزائريين . وأول مشكل كان مطروحا « للحل » هو حق السفن المحايدة في حمل بضائع وأشخاص عدو الايالة الجزائرية . وقد نصت المعاهدة على أن البحارة الجزائريين يحيون السفينة الهولاندية ، وعندما

(*) – كلمة « الجزائريين» الأولى استعملها المؤلف ، وكلمة «الجزائريين» الثانية ترجمنا بها كلمة Moors التي استعملها المؤلف . لأن تفريق المؤلف هو بين العثمانيين والجزائريين . (المترجم) .

تخفض السفينة علمها يرسل البحارة عددا قليلا من الاشخاص فيصعدونها ويفحصون حمولتها وركابها • فاذا وجدت بضاعة للعدو مهربة على السفينة يمكن مصادرتها بعد دفع أجرة النقل الى البلد الموجهة اليـه • واذا وجد ركاب هم من رعايا العدو على ظهرها فانه يمكن أسرهم • غير أنه لا يمكن أسر الطاقم ولا الركاب غير الأعداء أو حجز اي بضاعة تعود الى بلدان محايدة • ونصت المعاهدة صراحة أيضا على منع أي معاملة خشنة أو قاسية لأي عضو من الطاقم لاجباره على « الاعتراف » بوجود بضاعة او أشخاص « أعداء » على ظهر السفينة • ذلك أنه كان شائعا أن البحارة الجزائريين يلجأون الى ضرب أعضاء الطاقم للحصول منهم على اعترافات تؤدي الى المصادرة أو الاحتجاز • كذلك نصت المعاهدة على اقامة منصب « قنصل سفير » فى الجزائر مع اعتبارات خاصة بوضعه • وقد سبق أن رأينا أن الجزائريين كانوا يحملون غالبا القنصل مسؤولية ما يرتكبه مواطنو بلاده سواء كان العمل صادرا من رسميين أو من أشخاص عاديين • فكان القنصل أحيانا يوثق بالحديد ويسجن ، وفى حالة قطع العلاقات فعلا مع بلاده ، تصبح حياته نفسها فى خطر • وفى هذه الحالة كان يعتبر نوعا من « الرهينة » ولا يسمح له حتى بالصعود الى سفينة حربية دون المبادلة مع « رهينة » أخرى • أما فى المعاهدة الهولاندية فقد اتفق على السماح للقنصل بمغادرة المدينة بحرية ، وانه لا يتحمل مسؤولية أعمال مواطنيه أو تصرفات ضباط البحر الهولانديين الخاصين• (*) كما نص على السماح له بامتلاك الخيول ، والسفر بحرية خارج المدينة (الجزائر) ، وأخيرا فانه فى حالة وقوع حرب بين الأقاليم المتحدة (هولاندا) والجزائر ، يسمح للقنصل بمغادرة البلاد فى سلام • ان كل هذه الامتيازات كان قد منحها ــ وان لم تكن دائما محترمة ــ السلطان العثماني الى السفراء الأروبيين • وها هي المعاهدة الجزائرية ــ الهولاندية الآن تجعلها تشمل القنصل فى الجزائر • وهكذا فان الهولانديين فى الواقع كانوا بذلـك يعترفون « بالدولة » فى الجزائر على أنها ، على الأقل ، شبه دولة ذات سيادة •

(*) ــ البحارة الخواص ــ القراصنة غير الرسميين أو الاحرار • المترجم •

وهناك بنود أخرى في المعاهدة تتعلق بحقوق وامتيازات التجار العاملين في الجزائر . وقبل كل شيء، تخلى الجزائريون عن ممارستهم المعتادة في اجبار السفينة التجارية على ارسال اشرعتها وحبالها الى أرصفة الميناء « للاحتفاظ بها في مأمن » الى أن تمنح رخصة المغادرة . وقد أصبح التجار الهولانديون غير مطالبين « بقرض » الدراهم الى المسؤولين الجزائريين ، ولا باجبارهم على دفع الضريبة الجمركية الا على البضائع التي اشتريت أو بيعت فعلا . وقد نصت المعاهدة صراحة على السماح لهؤلاء التجار بمبادلة بضائعهم بالمنتوجات المحلية ، وفي صورة ما اذا لم تف البضائع المشتراة بثمن البضائع المبيعة ، يسمح لهؤلاء التجار بقبول الدراهم نقدا وحملها معهم . كما نص صراحة على السماح لهم باستيراد « المواد الممنوعة » وهي : البارود ، وصفائح الرصاص والعيارات النارية ، والحديد الأبيض والرمادي والزنك والرصاص ، والمدافع ، والمجاديف ، والأشرعة والحبال ، والأسلاك . ان هذه المواد كانت بالطبع « ممنوعة » على التصدير ولكنها كانت محل ترحيب كبير بالنسبة للاستيراد . وكان التجار الهولانديون مسموحا لهم أن يتعاملوا في السمك المعروف بسمك الرنكة Hersinq ، والجبن ، والزبدة ، ومشروب البيرا ، وغيرها من أنواع الأغذية ، كما لا تساء معاملة التجار والطواقم من قبل أي شخص ما داموا في الجزائر .

وهناك مشكل آخر تناولته هذه المعاهدات وهو يتعلق بحالة وامكانية استعمال الأرقاء الهولانديين . فقد منعت المعاهدة تحرير أحد الأرقاء اذا كان مشروطا بالخروج في حملة مع رايس جزائري ؛ ما عدا اذا أعلن الرقيق في نفس الوقت تخليه عن دينه . ومن الواضح أن رجال البحر الهولانديين كانوا أكثر مهارة في معالجة السفن ذات الصواري الطويلة والأشرعة الكبيرة ، وهذه المهارات كان بحارة الجزائر في أشد الحاجة اليها . وفي نفس الوقت منعت المعاهدة انزال الأرقاء الهولانديين أو الأعلاج الهولانديين في حالة ما اذا لجأت احدى سفن البحارة الجزائريين الى مرسى يقع تحت السلطة الشرعية لأمير اورنج of Orange . ان هذا الاجراء يعتبر حماية للملاكين الذين يملكون الأرقاء، ومحافظة أيضا على حياة الأعلاج الذين قد يقتلون اذا وقعوا تحت السلطة المسيحية .

ان معاهدة سنة 1626 قد أكدت ما جاء فى معاهدة سنة 1623 التي وقعت مع الباب العالي ، مع وجود معادلة هامة لضمان المحافظة عليها • فقد صرح الباشا وكبار المسؤولين فى الايالة الجزائرية على أنهم قبلوا هذه المعاهدة بدون « خيانة ولا خداع فى قلوبهم » وأن أي اخلال بها سيكونون هم المسؤولين عنه • وكان من المتوقع أن « يقسم » رعايا أمير أورنج ، من جهتهم ، « أمام الهمم » على أنهم لا يحملون بضائع ولا ركابا أسبانا • لقد كان هذا أمرا سهلا على الهولانديين فى ذلك الوقت لأنهم كانوا منهمكين من جديد فى صراع آخر يائس مع أمراء الهابسبورغ ، وهو الصراع الذي سيدوم الى منتصف القرن • (6)

وقد اكتشف الهولانديون ، كالانكليز ، أنه لا يمكنهم نيل أي مظلمة من مظالمهم فى اسطانبول • فقد أصبحت الايالة الجزائرية تسيطر على سياستها الخارجية الخاصة ، ومن ثمة فان أي مفاوضات ناجحة يجب أن تتم فى الجزائر نفسها •

وقد لاحظنا سابقا أنه فى نفس الوقت الذي اكتشف فيه الملك الانكليزي والأوصياء الهولانديون أن معاهداتهم مع السلطان العثماني لم تضمن سلامة سفنهم ولا سلامة رجالهم البحريين من غارات بحارة شمال افريقية ــ وقع الفرنسيون أيضا فى مشاكل مع الجزائر حول المدفعين النحاسيين اللذين أهداهما الضابط دانزر الى الدوق غيز • لقد كان لتجار مرسيليا مشاكلهم مع قراصنة الطرق الداخلية وبحارة الجزائر حتى قبل وصول دانزر الى مينائهم ، ولكن حين رفض الدوق دي غيز اعادة المدفعين ، تحول الوضع الى حرب مكشوفة بين المملكة الفرنسية والجزائر • ان هذا الوضع كان مرضيا جدا للرياس الجزائريين • فالسفن الفرنسية العاملة بين مرسيليا والمشرق كانت غنائم سائغة ، وكانت سهلة الأسر نسبيا لأن السفن الفرنسية كانت صغيرة وقلما كانت تتحرك فى قافلة • وكانت صيحات النجدة مرسيليا قد سمعت فى باريس ، ولكن ماري دي مديشي كان لها كثير من المشاكل الأخرى التي تهز ايالتها (وصايتها) مما جعلها لا تعطي اهتماما كبيرا للجزائر ، (بعد اغتيال هنري الرابع سنة

---

6 ـ ان هذه المعاهدات موجودة في ديمون Dumont ج2/5 ، ص 413 ـ 415 ، 485-487 .

1610 ، أصبحت ماري دي مديتشي هي الوصية على العرش عن ابنها اليافع ، لويس الثالث عشر) .

ولكن حكومة دي مديتشي لم تكن الوحيدة التي تعاني من المشاكل ، فباشا الجزائر الذي كان عليه أن يحمي الفرنسيين من تسرب الرياس ، بات يستمع الى ضباط بحريته بدل وزراء اسطانبول ، لأن الجزائر كانت تعاني من المجاعة والزلزال وتمرد القبائل ، وكان على الباشا أن يركز بسالة كل جهوده في الابقاء على سلطته المتلاشية . وهكذا رخص للرياس في الاستيلاء على الغنائم الفرنسية وأن يبيعوا الفرنسيين في سوق الرقيق بالجزائر رغم أن للفرنسيين معاهدة صداقة مع السلطان .

وفجأة أصبح مشكل تحرير الأرقاء الفرنسيين في الجزائر أكثر اتساعا وأكثر تعقيدا . فدفعنا دانزر جعلا فرنسا في حرب مع الجزائر رغم أن فرنسا كانت دولة ذات افضلية في اسطانبول . لقد كان الأمر خطيرا حقا ، لأن الرياس البحارة أخذوا في الاستيلاء على السفن التجارية الفرنسية على نطاق واسع . وعندما تصاعدت خسائر تجار مرسيليا ، فقدوا ثقتهم في قوة الأسطول الصغير الذي يقوده جان دي فينشيغير وطالبوا بوجوب المساعدة من حكومة الملك . ولم يجد المسؤولون في باريس طريقا غير طريق طلب المساعدة من السلطان . وقد ترجى السفير الفرنسي باسطانبول الحصول على المساعدة ضد تدخلات أولئك الرعايا العثمانيين المتمردين في ساحل شمال افريقية . ويبدو أن السلطان كان مستعدا للاستماع ، وكان ما يزال له ، كما برهنت الحوادث ، بعض التأثير في الجزائر ، لأنه عندما حمل مبعوث تركي الأوامر بضرورة مفاوضة باشا الجزائر مع الفرنسيين من أجل السلام ، وافق الباشا والديوان على ذلك . وكانت سلطات الباشا ، سنة 1617 ، ما تزال قوية بما فيه الكفاية بحيث تسمح له بمناقشة عبارات السلام مع ممثل ملك فرنسا . ولكن الحكومة الملكية بباريس ، التي حصلت على تدخل اسطانبول ، لا ترغب في التعامل مباشرة مع الباشا والآغا والديوان في الجزائر . ان هذه « السلطات » بمدينة البحارة (الجزائر) لا تمثل سوى حكومة اقليمية ، وهكذا فانه لا يجوز أن تتفاوض معها سوى سلطات اقليمية فرنسية بدون الشعور باراقة ماء

الوجه . لذلك أرسل الدوق دي غيز ، باعتباره حاكم اقليم بروفنس وصاحب الالتزام ف حصن فرنسا (بالقالة) — أرسل الدوق دالمان d'Allemagne ليفاوض على معاهدة ف الجزائر . والواقع أن هذا يعني الاعتراف الصريح بأن الجزائر كانت لها سياسة وسلطات قد لا تكون هي نفس سياسة وسلطات الباب العالي باسطانبول ، ولكن ملك فرنسا لم يعترف بذلك وبأن ايالة البحارة هي ف درجة مساوية معه . وسارت المفاوضات ف بطء ولم تأت بنتائج مرضية تماما . بالاضافة الى ذلك فان أول علامة لعودة الأرقاء الأتراك قد أساء قائد البحرية الفرنسية التصرف معها . فقد فشل ف المحافظة على الأسرى تحت نظره لأنهم ، ببساطة ، اختفوا ف الزحام بمدينة الجزائر . ولم تأت الاحتجاجات الفرنسية بنتيجة . وكلا الطرفين تمسك بسوء النية . ولكن بحلول سنة 1619 أكد الجزائريون للملك الفرنسي بأنهم مستعدون للتفاوض ، بعد أن حرضهم السلطان على ذلك ، وأن « لهم الرغبة ف عدم المساس بمواد التنازلات ... » ولكن الدوق دي غيز كان اقل تأكدا من ذلك . فقد كتب يقول : « ان الملك قد وجد من الصعب عليه أن يثق ف كلمتهم .. فقد أساؤوا استعمال أوامر سلطانهم . ومع ذلك فانه ما دام لابد من ايجاد طريقة ما لجعل البحر آمنا للتجارة الفرنسية ، فان الملك الفرنسي سيجد طريقا لانهاء المشاكل المعلقة بينهم . » (7)

وأخيرا صيغت معاهدة وتوجه وفد جزائري الى فرنسا لوضع الختم الأخير على السلام ، ولكن حادثا انفعاليا قاد من جديد الى المنازعات . فقد أوقف رايس جزائري مشهور بالعنف سفينة فرنسية تسمى بولاكر Polacre محملة بالبضائع الغنية جدا . لقد كانت أوراقها سليمة وأعلنت السلام ، ولكن الرايس لم يستطع مقاومة حظوظ الثروة الطائلة . فنهب السفينة وقتل جميع طاقمها ما عدا بحارين شابين استطاعا أن يختفيا بطريقة خاصة ، وبعد معاناة شديدة وصلا مرسيليا وقصا قصتهما . لقد كان لربان السفينة ، دريفي Drivet وحوالى ثلاثين شخصا من أعضاء الطاقم المقتولين ، أصدقاء وأقارب ف مرسيليا أخذوا يطالبون بالثأر . ومن سوء

(7) B.N.M.S. Franc. 16141. fols. 256 ff.

الحظ انه كان بمرسيليا أيضا في تلك اللحظة كينان (كنعان ؟) آغا Caynan وحوالي أربعين جزائريا آخرين كانوا قد جاؤوا في مهمة السلام . فهاجمت جماهير غاضبة الفندق الذي كان يقيم فيه الجزائريون ، وفي الحال ذبحت البعثة الجزائرية بأكملها ، رغم جهود بعض المهدئين لانقاذهم . ان مدن القرن السابع عشر ليس لها قوات شرطة قادرة على السيطرة على الجماهير . وما الكتيب المسمى (التاريخ الجديد لمذبحة الأتراك في مدينة مرسيليا ببروفنس) ـ 15 صفحة ، مدينة ليون سنة 1620 ـ الا واحد فقط من بين عدة كتابات معاصرة صارخة عن هذا الحادث المنحوس .

وعندما لم يسمع المسؤولون في الجزائر من مبعوثهم في فرنسا ، تساءل الباشا والديوان : « ماذا حدث لكاينان آغا ؟ » لقد كان رجلا محبوبا وقويا في الفرقة الانكشارية . ولما ظهرت الحقيقة ، أصبح الفرنسيون في الجزائر يواجهون تقريبا نفس الخطر الذي واجهه كاينان آغا : فقد رمي بالقنصل وجميع الجالية الفرنسية في السجن وهددوا بتنفيذ القتل فيهم بينما كان الرياس ، الذين لم يعجبهم السلام مع فرنسا ، قد انطلقوا مغتبطين في البحر ليجعلوا الفرنسيين يدفعون ثمن جريمتهم . وخلال ستة أشهر بلغ عدد السفن الفرنسية المستولى عليها واحد وعشرين وبيعت بضائعها جميعا في الجزائر ، وقد كان خمس منها يحمل بضاعة تقدر بين العشرين والخمسة والعشرين ألف فرنك ، ولا يوجد منها سوى ثمان تقدر قيمة حمولتها بأقل من سبعة آلاف فرنك . وقد قدر القنصل الفرنسي الخسائر بمائتين وأحد عشر ألف وتسعمائة فرنك (211 900) . ولكن لم يقع في الأسر من البحارة الفرنسيين الا مائة وثمانية وعشرون بحارا لأن كثيرا من أعضاء الطواقم انقذوا أنفسهم بالقفز الى البحر والسباحة الى الشاطيء .

وقد أنذر السيد كاي Caix القنصل الفرنسي بالجزائر ، سلطات مرسيليا بأن على فرنسا اما أن توقع سلاما حقيقيا مع الجزائر أو تعلن ضدها « حربا جيدة » . ولكن الحكومة الفرنسية عندئذ لم تفعل لا هذا ولا ذاك . فقد كان لويس الثالث عشر ومحظيه شارل دالبيردي لويـن

de Luynes متورطين في منازعات بائسة مع الهوغونوتات Hoguenots والنبلاء الكبار الذين أيدوا الملكة الأم ، ولم يكونوا قادرين على القيام بأي شيء فعال حول قضايا الجزائر ومرسيليا . وخلال يناير سنة 1621 كتب القنصل كاي يقول أن هناك سفنا جديدة بصدد الاعداد للغارات ضد التجارة الفرنسية ، وقد أضاف بأن حياته الخاصة لم تنقذ الا لأنه كان مسرفا في منح الهدايا . وخلال شهر مارس ، أعلن أن ثلاثمائة من الانكشارية وأربع عشرة سفينة حربية هاجموا حصن فرنسا وقتلوا أو استرقوا جميع سكانه ، بما في ذلك ممثل دي غيز ، البارون دالمان . وأضاف بأن في الجزائر ألف فرنسي رقيق ، وقدر الخسائر الفرنسية في ذلك الوقت بـ 1ر2 مليون ومائتين من الفرنكات .

ان حكومة الملك خلال السنوات الأولى من عقد العشرينات من القرن السادس عشر كانت شبه مشلولة بالمشاكل الداخلية التي طغت في باريس على نهب البحارة الجزائريين . ولم تحقق أصوات الشكوى من الخسائر وطلب المساعدة أي شيء . ولم يستطع السفير الفرنسي في اسطانبول سوى أن يقنع الباب العالي بارسال رسائل الى الجزائر آمرا فيها باتهاء النزاع . ولكن الديوان الذي كان تحت ضغط الرياس وأيضا كان مقتنعا بأن الحرب مع فرنسا كانت نزاعا عادلا بالاضافة الا أنه نزاع مربح ، استطاع أن يتجاهل أوامر السلطان . وبحلول سنة 1624 ، عندما استتب الأمر الى حد ما للكاردينال ريشليو كوزير مكلف بالشؤون الخارجية ، أصبح الوضع يشكل أزمة على نطاق واسع . فقد وسع بحارة الجزائر من نشاطهم حتى شمل المحيط الأطلسي وسواحل فرنسا ـ بل حتى بيكاردي الواقعة على القنال (بحر المانش) ، بالاضافة الى التجارة الأطلنطية ـ كلها أصبحت معرضة لنفس الأخطار التى كانت تهدد أقاليم فرنسا الواقعة على البحر الأبيض . أمام ذلك ، اعترف ريشليو بأن هناك شيئا يجب فعله .

غير أن القضية ما تزال معقدة بالنواحي الاجرائية . ذلك أن ملك فرنسا طالما تفاوض مع سلطان الدولة العثمانية على قدم المساواة ، وكانت كل القضايا التي تخص حكومة الملك والجزائر تناقش دائما في اسطانبول .

وكيلا الملك ، لأنه انما كان وكيلا القنصل في الجزائر لايبعث بتقاريره الى الملك ، لأنه انما كان وكيلا لسلطات مرسيليا . ولكن المفاوضات في اسطانبول أصبحت غير قادرة على التأثير على سلوك الايالة الجزائرية . وكان الانكليز والهولانديون قد واجهوا المشكل بالتفاوض مباشرة مع الجزائر . فالسيد توماس روي (*) تعامل مع « أولئك في الجزائر » ، وأبحر أمير البحر الهولندي لاميير الى المرسى بالجزائر وتعامل مباشرة ، ولو بطريقة خشنــة ، مع الباشا والآغا والديوان بالايالة . وكان التحرك الأول لرشيليو هو أيضا جعل الدوق دي غيز ، حاكم اقليم بروفنس ، مسؤولا على المفاوضات ، ولكنه خلال فبراير سنة 1626 ، قرر أن المفاوضات تكون أكثر فاعلية اذا جرت على يد مبعوث من الملك يعمل بتوجيهات ملكية . وقد يكون ريشليو رأى ذلك خطورة أخرى في طريق جعل شؤون المملكة الفرنسية شيئا فشيئا تحت سيطرته . وواقع الأمر هو أن نقد أهل مرسيليا فيما بعد ومعارضتهم أعمال هذا المبعوث الملكي ، وهو سانسون نابلون Napollon قد يدل على معارضتهم لتدخل السلطات الملكية في مجال كان الى ذلك العهد هو مجال اهتمامهم الخاص . (8)

كان نابلون مبعوث ريشيليو ، من جزيرة كورسكا ، وكان يتمتع بتجربة واسعة في شؤون المشرق حيث عمل كقنصل ، وكعميل سري (جاسوس) ، وكتاجر ، وكان يتكلم التركية بطلاقة ، ويفهم التقاليد الاسلامية ، وكانت له مهارة فائقة كمفاوض . ذهب أولا الى اسطانبول وحصل على رسالة من الصدر الأعظم ترخص له بالمفاوضة مع باشا وآغا وديوان الجزائر . وعندما وصل الى هذه المدينة كان استقباله فيها مشوبا ، ولكن توزيع الهدايا بسخاء ، وشخصيته الجذابة قضت على كثير من المعارضة لشخصه وللمعاهدة ، ولكن ليس قبل أن يرسل الديوان بدوره مبعوثه الخاص الى اسطانبول للتأكد من أصالة رسالة نبلون من

(*) ـ توماس روي Roe هو السفير الانكليزي في اسطانبول . (المترجم) .

8 ـ ان الوثائق المتعلقة بتدخل ريشليو تقدم قراءة جيدة ، ولكنها مع ذلك تترك عدة نقاط بدون جواب . انظر B.N. ; AAE Alger, Mem. et doc. XII, fols. 14-21 ; R.A. XXIII pp. 96-112 M.S. Franc. 16164, Fols. 76-81 et passim. Grammont, Négociations, XVII siècle, pp. 28 ff.

الصدر الأعظم • وتخبرنا كتابات نابلون نفسه عن أن المفاوضات كانت عبارة عن مناقشات لا نهاية لها ، ومداولات معقدة ، وخطب طويلة فضفاضة ، ومحادثات سرية : انها نفس القصة التي سيتحدث عنها الدبلوماسيون وضباط البحرية خلال القرنين التاليين : فالمفاوضات مع الجزائر كانت دائما طويلة ، ومتشابكة ومدعومة بالهدايا • (9)

ان السلام الذي تحقق سنة 1628 كان باهظا ، وكان على مرسيليا ان تدفع الثمن غاليا • فقد « أعيد » مدفعا دانزر (الى الجزائر) عن طريق شرائهما من الدوق دي غيز ، كما أن هدايا نابلون الى أعضاء الديوان وكبار الرياس دفعت مدينة مرسيليا ثمنها • وماذا عن الاملاك الأرقاء الذين استولى عليهم الجزائريون ؟ ان البضاعة كانت قد بيعت وأكلت أو استعملت ولا مجال لاستعادتها • وكانت السفن قد بيعت أو كسرت والأرقاء ؟ لقد كان يوجد « أتراك وجزائريون » ف الرق بفرنسا ، كما كان يوجد فرنسيون أرقاء ف الجزائر • ولكن الأتراك والجزائريون كانوا جميعا تقريبا ف ملكية ملك فرنسا ، موثقين بالحديد عند مجاديف السفن ، بينما كان معظم الفرنسيين ف الجزائر ف ملكية لأفراد الخاصين ، والملكية الخاصة ، خلافا لملكية الدولة ، كانت مقدسة • فاذا كان من الضروري اطلاق سراح هؤلاء الفرنسيين فان مالكيهم يجب تعويضهم مع « قليل » من الربح • وأخيرا وافق نابلون على ثمن الفداء : وذلك يدفع مائتي فرنك عن كل رقيق مملوك للأفراد • أما الأتراك والجزائريون الأرقاء ف السفن الفرنسية فتقع مبادلتهم بالأرقاء الفرنسيين المملوكين للحكومة الجزائرية •

ويجب أن نلاحظ أن هذه المادة المتعلقة باعادة الشراء سرعان ما أصبحت مشكلا خطيرا • ذلك أن الأرقاء الفرنسيين لم يعودوا قابلين للبيع ف الجزائر ما دام الثمن قد حدد واعادة الشراء من المتوقع انها ستحقق ف الحال ، ولكن حكومة الملك لم يكن لها هذا المبلغ من المال جاهزا لاعادة

(9) B.N. Ms. Franc. 16141, Fols. 284 and 294-304.

أن الفداء تدفعه الجماعات التي ولد فيها الأرقاء

الشراء . لقد قرر ريشليو أن تعويض هذه الجماعات . ان هذا الاجراء
بينما عائلات الارقاء تجبر على تعويض هذه الجماعات . ان هذا الاجراء
يخفف من العبء على مرسيليا وغيرها من مدن البحر الأبيض ، ولكن هذه
الطريقة لم تنجح بالطبع . وعندما لم تأت الدراهم بالسرعة المطلوبة لارضاء
المالكين فى الجزائر ، صدرت الكلمات الغاضبة والتهديدات بانتقام جديد :
وهنا امتحنت مهارات نابلون الى أقصى حد . ولكنه كان قادرا ، طالما بقي
على قيد الحياة ، على منع قطيعة جديدة بين فرنسا والايالة الجزائرية .

ويبدو أن ريشليو كان غير سعيد من أنه كان عليه أن يتفاوض مع « الأوباش » الذين يسيطرون على الجزائر ، ولكن قواته البحرية كانت بكل بساطة عاجزة عن فرض الارادة الفرنسية ، ومن ثمة كانت المفاوضات هى وسيلته الوحيدة . وقد كتب ريشليو عن نفسه قائلا : « انه لا يمكن للكاردينال أن يصلح أخطاء قرن كامل . » وأضاف بأن البحرية التي قد « تزيد فى سمعة الملك وتطهر البحار من القراصنة ... الذين طالما افترسوا رعايا الأمراء المسيحيين ، سارقين موادهم الأساسية وجاعلين رعاياهم أرقاء ، لا يمكن تأسيسها فى ظرف زمنى قصير ، ولكنه مجهود جدير بالتحقيق . » ذلك انه اذا أسس الملك أسطولا بحريا « فانه سيجبر القراصنة على الاختفاء . » والى أن يتحقق تأسيس هذا الأسطول ، فانه حتى على ملك فرنسا المسيحي أن يتعامل مباشرة مع باشا وآغا وديوان الجزائر .

وبحلول الثلاثينات من القرن السابع عشر ، كانت المعاهدات الثلاث التي فاوضت بشأنها السلطات الجزائرية مع الدول الأروبية الثلاث ، التي لها أنشطة تجارية هامة فى البحر الأبيض ، قد أشارت الى فتح عهد جديد بالنسبة للايالة الجزائرية . فالى ذلك الحين كان السلطان باسطانبول هو الذي يوافق على الاتفاقات مع الأمراء الأروبيين ويأمر باشواته فى الجزائر بالسهر على احترام هذه الاتفاقات . وحتى سنة 1604 كان الباشا الذي فشل فى تنفيذ مثل هذه الأوامر قد فقد وظيفته وحياته . ولكن بحلول العشرينات من القرن السابع عشر ، أصبح الرياس والانكشارية الجزائريون أقوياء جدا بحيث كانوا يتجاهلون أو يرفضون الأوامر من الباب العالي . وهكذا ، فانه ، اذا رغب الحكام الأروبيون

في الاتفاق مع البحارة الجزائريين والجماعة البحرية بالجزائر ، عليهم ان يتفاوضوا مباشرة مع الجزائر . لقد كان هذا تطورا مشحونا بكثير من المشاكل والأخطار ، لأن الايالة الجزائرية لم تكن جماعة سياسية مستقرة حقيقة ، وكان الحكام الذين يتفاوضون معها ليس لهم الا احترام قليل لهذا المجتمع الذي اعتبروه « جمهورية من قطاع الرقاب واللصوص » . وهكذا فان أي اتفاق بين الايالة والحاكم الاوروبي ، كان دائما يواجه خطر الانتقاض من هذا الجانب أو الآخر ، ولم يعد السلطان في اسطانبول قادرا على اعادة الأمور الى نصابها .

الفصل العاشر

الأيالة الجزائرية واروبا، 1630 - 1660

ان السنوات الواقعة بين أزمة بوهيميا (1618) وسلام البيريني (1659) كانت سنوات مليئة بالحروب والثورات التي أثرت على جميع أروبا الغربية من المحيط الأطلسي الى حدود بولندا وروسيا . ويسمى المؤرخون الألمان ذلك العهد باسم حرب الثلاثين سنة . ويعرف المؤرخون الفرنسيون بأن الحروب لم تنتهي بالنسبة لفرنسا الا بعد عشر سنوات أخرى من حلول السلام فى المانيا . ويهتم المؤرخون الانكليز بذلك العهد أيضا باعتباره عهد الحروب الأهلية والكومنولث . ومن جهة أخرى يمكن تسمية تلك الفترة بفترة ثورات الفلاحين ضد جباة الضرائب ، وثورة الفروند Fronde بفرنسا ، والتمردات فى برشلونة ونابولي وغيرهما . لقد كانت هذه الأحداث فى الغالب قصيرة المدى ولكنها كانت انفجارات الغضب ضد تدخلات السلطة الملكية . وكأن هذه الأحداث لم تكن كافية لاختبار أسلوب الحياة عند الانسان ، فساهمت الطبيعة نفسها فى خلق الفوضى ، ذلك أن هذه السنوات كانت سنوات الخصاصة فى المحصول الزراعي وسنوات مضاعفة أسعار الخبز غالبا بأربعة أمثالها ، مما ترتب عليه المجاعة والأمراض المتصلة بالنقص فى الغذاء . وقد يسمى اختصاصيو أحوال الطقس ذلك « بالعصر الجليدي الصغير » ، ولكن المعاصرين كانوا يعرفون انه عصر المأساة . فلا غرابة اذن ان الصور المحفورة فى الخشب والتي تمثل (الفرسان الأربعة لسفر الرؤيا) كانت محبوبة بين الناس الذين حاصرتهم الحرب والجوع والطاعون والموت .

وكانت تلك السنوات كذلك تمثل العهد الذي قام فيه الامراء ووزراؤهم بالتمطي الكبير في فرض السلطة الملكية على السلطات الاقطاعية والبلدية . ان « الحكم المطلق » الذي وصفه لويس الثالث عشر بأنه حكم، كان عبارة عن سلطة سياسية لا يشارك في صلاحياتها النبلاء الكبار والمجالس المدنية (من المدن) او غيرها من الجماعات . وقد حاول رشليو وملكه ان يؤسسا هذه السلطة في فرنسا ، كما كان الامراء الآخرون يتبعون برنامجا مشابها في نواحي أوربا الأخرى من نجاح قد يكون أقل او اكثر . ان الدولة البيروقراطية ـ العسكرية لم تنتصر فعلا الا أثناء الجيل اللاحق عندما كان في امكان الامراء التصرف في السلطة العسكرية بطريقة أعظم بكثير مما كان موجودا عند رعاياهم الذين قد يتنازعون معهم ، ولكن جهود هؤلاء « الامراء الثوريين » أضيفت الى اضطرابات ذلك العهد حين كان أعيان النبلاء ، او جماعات المدن ، او الدين ، أو غيرها من الجماعات تنشد الحد من التطور الناجح « للحكم المطلق » .

اسبانيا ، 1630 – 1660 :

كان الحكام الأسبان بالخصوص متورطين في كثير من الاضطرابات الأوروبية صعبة الحلول : فالثورة في الأراضي المنخفضة ، والخصومة مع فرنسا التي أدت في الأخير الى الحرب المكشوفة سنة 1635 ، ثم الثورات والمنازعات المدنية في ايطاليا وبرشلونة ـ كلها ، مضافة الى دخل متناقص من مناجم العالم الجديد ومن ضرائب المحاصيل في كاستيل ، اجتمعت لتهز ، من الأساس ، تلك الدولة (الامبراطورية) التي تركها شارل الخامس (شارلكان) وفيليب الثاني واحفادهما الأقل منهما كفاءة . فمن أوائل عقد العشرينات (من القرن السابع عشر) الى سلام البيرنيو ، سنة 1659 ، كانت مطالب الجنود الذين كانوا يحاربون على جبهات كثيرة قد أفقرت الخزينة وأرصدة الممالك الاسبانية . وقد أضيف الى هذه المصاعب ذلك النزاع المزمن مع ايالات شمال افريقية ، فالحراسة البحرية من اليكانتي وبرشلونة ، ومن نابولي وبليرمو ومسينا، ونظام ابراج المراقبة وحراس الشواطيء ـ جميعا قد أعطت نوعا من

الحماية ضد قراصنة البحر . ولعل التدهور الكبير الذي أصاب التجارة الاسبانية ، وخصوصا حركة السفن الاسبانية ، قد جعل بحارة شمال افريقية أقل خطرا ما دام لم يعد يوجد غنائم اسبانية كثيرة تطمعهم . ولكن طالما بقيت القضايا الأوروبية العامة على درجة كبيرة من الأهمية ، فان أسبانيا لم تستطع لا أن تمنع البحارة من عبور مضيق جبل طارق ولا أن تبعد أسطولهم الذي كان يراقب المسارات المائية ، سواء في المحيط الأطلسي أو البحر الأبيض .

ورغم ذلك فان الأسبان لم يستسلموا . ويخبرنا أحد المؤرخين الأسبان ، بعد أن تعرض لشرح الصعوبات الكثيرة التي حدثت من نشاط البحرية الاسبانية ، بأنهم فعلا حاربوا البحارة (الجزائريين) قائلا : « اليوم كان فياردو Fajardo الذي حارب السفن الجزائرية في راس سان فانسان ، وغدا سيكون كيسيد Queside على الشاطيء البرتغالي ، أو جون دي كاناس Jaun de Canas هو الذي يضربهم ضربة قوية . وفي نفس الوقت كان الماركيز دي فيلافرنكا de Villafranca وسانتاكروز Cruz يحاربانهم في البحر الأبيض . » ولكنه يقر بأن هذه المعارك كانت غير حاسمة . لقد تمكن الأسبان من الاستيلاء على سفينة لأمير بحر جزائري ، ونجحوا في تحطيم عدد كبير من سفن البحارة (الجزائريين) ، ومع ذلك فان النتيجة العامة كانت ضئيلة . ويعود ذلك الى أن أعظم التزامات أسبانيا البحرية أهمية بين سنة 1521 وسلام وستفاليا سنة 1648 ، هو حراسة الطريق الحيوي من أسبانيا الى جنوة ، الذي هو الخطوة الأولى في الطريق الصعب الذي يربط أسبانيا بكل من أرض الراين والنمسا . لقد كانت عملا شاقا غالبا ما كلف الكثير للقوات البحرية الاسبانية التي كانت آخذة في التدهور .

واذا كانت ارمادة ملك أسبانيا لم تستطع أن توقف نشاط بحارة شمال افريقية ، فكذلك لم تستطع ارمادة سلطان الدولة العثمانية أن توقف من نهب فرسان القديس يوحنا بمالطة . فبالرغم من أن الفرسان كانوا تابعين لمملكة صقلية ، فان التزاماتهم للدولة الاسبانية كانت اسمية

وكان للتناظم الهام هو « الحرب المقدسة » ضد الاسلام . وذلك يشمل الحرب ضد بحارة شمال افريقية ، ولكن أكثر من ذلك أهمية هو الحرب ضد التجارة الاسلامية والحجاج في شرقي البحر الأبيض . لقد كانت مالطة أكثر ملاءمة كقاعدة لجماعة البحارة (القراصنة) من الجزائر . فهذه ليس لها سوى رصيف بحري (مول) من صنع الانسان لحماية السفن الراسية من أمواج البحر ، بينما كان لمالطة عدة موانيء جيدة ، بما في ذلك الموقع الممتاز في لافاليت ، حيث يوجد مرساوان عميقان جنبا الى جنب ومحروسان بسهولة بتحصينات مدهشة . وبالاضافة الى ذلك فان مالطة كانت تقع في وسط البحر الأبيض ، وكان في امكان السفن أن تنطلق من مراسيها وتصل الى المشرق التركي (العثماني) والبونت Ponant الاسباني .

ان المرسى العميق في لافاليت جعل مالطة محطة طبيعية للسفن التجارية الفرنسية عندما تكون في طريقها الى المشرق . فقد كان الخشب والماء وغيرهما من المؤن متوفرة هناك ، ولا سيما بعد أن أسست دور تجارية فرنسية مراكز لها (مستودعات لتخزين البضائع) لتسهيل عمليات تجارتها المشرقية . كما أن هذا المرسى كان منذ أمد طويل قاعدة للبحارة المسيحيين الذين يحملون رسائل الاعتماد من (السيد الأعظم Grand Master) (*) ويرفعون العلم المالطي . وفي أوائل القرن السابع عشر كان عدد سفن البحارة (القراصنة) من مختلف الأحجام العاملة ، انطلاقا من مالطة ، يتراوح بين الستين والثمانين سفينة . وكون معظم هؤلاء الضباط البحريين فرنسيين ، جعل السلطان وحكام ايالة شمال افريقية (الجزائر) يفكرون في ما اذا كانت فرنسا هي عدوتهم الحقيقية ، بالرغم من أن السفير الفرنسي في اسطانبول أكد لهم أن البحارة (المسيحيين) لا علاقة لهم بملك فرنسا بأية حال .

(*) - سيوضح المؤلف المقصود بهذا التعبير ، وهو على كل حال ، يقصد به كبير فرسان القديس يوحنا . (المترجم) .

وقد تطورت جزيرة مالطـة ، بحـكم استعمـال التجار والبحارة لموانيها ، فأصبحت سوقا هامة للرقيق ، بالاضافة الى فرص التخلص من السفن والبضائع المحتجزة • وبنهاية القرن السادس عشر أصبحت هذه المشاريع ، مضافا اليها أنشطة البحارة ، تتطلب بعض التنظيم • ولذلك فان (السيد الأعظم) أنشأ سنة 1605 مجلسا Tribunale degli Armamenti كهيئة ذات سلطة لتنظيم البحارة الذين يرفعون العلم المالطي • وقد أقسم كل ضابط بحري على احترام هذه التنظيمات•

ومن بين هذه التنظيمات مادة تنص على منع الاساءة الى التجـارة المسيحية بالاضافة الى عدم الاساءة الى أي سفينة للكفار (المسلمين) تحمل جواز مرور من حاكم مسيحي • ولكن هذه المادة خلقت مشكلة • ان ضباط هذه السفن البحرية قد أقسموا على عدم الاساءة الى حركة تنقل السفن المسيحية أو السفن الاسلامية التي تحمل جواز مرور من حاكم مسيحي • ولكن ما هي في الواقع « حركة النقل المسيحي ؟ » ان محاكم مالطة قد ملئت بحالات نتجت عن كون الاغريق الأرثوذكس وغيرهم من الكنائس المسيحية الأخرى في المشرق كـانوا من جهـة مسيحيين ومن جهة أخرى رعايا للسلطان العثماني • فهل يصبحون ، عندما يتوجهون الى البحر ضحايا لطلاب الغنائم ؟ وهل كانوا منشقين أو ملحدين ؟ لقد كانوا سببا في وجع الرأس بالنسبة للمحكمة التي تنظر في قضيتهم وبالنسبة للبحارة الذين يصطادون في المشرق من أجـل الغنائم ، لأنهم كانوا يأتون الى مالطة ويرفعون الدعاوي ضد مزعجيهم في محاكم السيد الأعظم • غير أن هؤلاء المسيحيين الشرقيين لم يكونوا هم فقط الذين وقع عليهم معظم الضغط من الفرسان (فرسان القديس يوحنا) والبحارة المالطيين • فقد عانت أيضا منهم قرى شمال افريقية نفس المعاناة التي لقيتها على أيديهم القرى الواقعة على سواحل أسبانيا وايطاليا • والجزر (جزر البحر الأبيض ــ الباليار ــ سردينيا الخ •) ذلك أن مالطة كانت هي الجزائر المسيحية في أكثر من وجه ، فقد كان سكانها من الأرقاء يعادلون تقريبا أولئك الذين كانوا في الجزائر ، كما

كانت الثورات وأخطار الثورات هنالك حقيقة ، كما كان الحال في الجزائر . (*)

ولكن بحلول منتصف القرن السابع عشر كانت القوة البحرية المتوفرة للملوك الاسبان في اسبانيا وفي ممتلكاتهم الايطالية حتى بعد أن عاونها الاسطول « الديني » بمالطة ـ كانت غير قوية بما فيه الكفاية لمنع بحارة شمال افريقية من التسلل الى سواحلهم والاستيلاء على سفنهم التجارية . وكل ما كان يمكن أن تحققه البحرية الاسبانية عندئذ هو المحافظة على المسار البحري الواقع بين برشلونة وجنوة ، آمنا الى حد ما لنقل الجنود والمؤونة الموجهة الى ميادين المعارك بأوروبا الوسطى .

وحتى بعد سنة 1648 ، حين أنهى سلام ويستفاليا Westphalia النزاع الاسباني مع الأراضي المنخفضة ، كان خط الاتصالات المشار اليه ما يزال هاما للابقاء على الجيوش الاسبانية التي كانت تحارب الفرنسيين في جنوب الأراضي المنخفضة . ولا يمكن محاصرة الرياس البحارة المسلمين طالما كان ما ذكرناه هو المسؤولية الاسبانية الأولى . أما بعد انتهاء الحرب مع فرنسا سنة 1659 (سلام البيريني) فان الانحلال السريع الذي أصاب القوة العسكرية الاسبانية قد منع أي تحرك بحري هام ضد المزعجين من شمال افريقية .

فرنسا ، 1630 ـ 1660 :

وكان الملك الفرنسي أيضا ، مثل الاسبان في الثلاثينات من القرن السابع عشر ، لا يملك قوة بحرية قادرة على السيطرة على البحارة الجزائريين سنة 1620 . ورغم أننا رأينا أن ريشيليو كان غير سعيد تماما بالمعاهدة التي تفاوض بشأنها سانسون نابولون مع باشا وآغا وديوان الجزائر فانه رضي بالمصادقة عليها . وتعكس المذكرة التي كتبها بنفسه أفكاره عن الوضع بفرنسا . لقد اعترف ريشيليو أن المملكة

(*) ـ يقارن المؤلف بين دور الجزائر المسلمة ومالطة المسيحية ، وهو يريد أن يقول أن مالطة كانت تقوم للمسيحيين بنفس الدور الذي كانت تقوم به الجزائر للمسلمين ، فهذه قلعة المسيحيين وتلك قلعة المسلمين . (المترجم)

الصدر الأعظم • وتخبرنا كتابات نابلون نفسه عن أن المفاوضات كانت عبارة عن مناقشات لا نهاية لها ، ومداولات معقدة ، وخطب طويلة فضفاضة ، ومحادثات سرية : انها نفس القصة التي سيتحدث عنها الدبلوماسيون وضباط البحرية خلال القرنين التاليين : فالمفاوضات مع الجزائر كانت دائما طويلة ، ومتشابكة ومدهونة بالهدايا • (9)

ان السلام الذي تحقق سنة 1628 كان باهظا ؛ وكان على مرسيليا ان تدفع الثمن غاليا • فقد « أعيد » مدفعا دانزر (الى الجزائر) عن طريق شرائهما من الدوق دي غيز ، كما أن هدايا نابلون الى أعضاء الديوان وكبار الرياس دفعت مدينة مرسيليا ثمنها • وماذا عن الاملاك الأرقاء الذين استولى عليهم الجزائريون ؟ ان البضاعة كانت قد بيعت واكلت أو استعملت ولا مجال لاستعادتها • وكانت السفن قد بيعت أو كسرت والأرقاء ؟ لقد كان يوجد « أتراك وجزائريون » فى الرق بفرنسا ، كما كان يوجد فرنسيون أرقاء فى الجزائر • ولكن الأتراك والجزائريون كانوا جميعا تقريبا فى ملكية ملك فرنسا ، موثقين بالحديد عند مجاديف السفن ، بينما كان معظم الفرنسيين فى الجزائر فى ملكية لأفراد الخاصين والملكية الخاصة ، خلافا لملكية الدولة ؛ كانت مقدسة • فاذا كان من الضروري اطلاق سراح هؤلاء الفرنسيين فان مالكيهم يجب تعويضهم مع « قليل » من الربح • وأخيرا وافق نابلون على ثمن الفداء : وذلك بدفع مائتي فرنك عن كل رقيق مملوك للأفراد • أما الأتراك والجزائريون الأرقاء فى السفن الفرنسية فتقع مبادلتهم بالأرقاء الفرنسيين المملوكين للحكومة الجزائرية •

ويجب أن نلاحظ أن هذه المادة المتعلقة باعادة الشراء سرعان ما أصبحت مشكلا خطيرا • ذلك ان الأرقاء الفرنسيين لم يعودوا قابلين للبيع فى الجزائر ما دام الثمن قد حدد واعادة الشراء من المتوقع انها ستتحقق فى الحال ، ولكن حكومة الملك لم يكن لها هذا المبلغ من المال جاهزا لاعادة

(9) B.N. Ms. Franc. 16141, Fols. 284 and 294-304.

ويخافون وجودنا بدل استخفافهم الحاضر بنا » • وكان أحد قواده اول من أسر واسترق طاقم سفينة جزائرية بعد سلام 1626 ، وبنهاية الثلاثينات من القرن السابع عشر أصبح الأسطول الفرنسي في البحر الأبيض ، الذي كان غالبا يعمل بطاقة « الأتراك والجزائريين » (المربوطين) في مقاعد المجاديف ، أصبح قوة مهابة •

وما دام ريشيليو غير قادر عندئذ على انشاء بحرية (1) قادرة على مراقبة بحارة شمال افريقية ، فانه كان متطلعا الى الابقاء على الفرص التي ضمنتها معاهدة نابولون (مع الجزائر) سنـة 1628 للمملكة الفرنسية • ولكن كانت هناك مشاكل ، ذلك ان القنصل الفرنسي الذي رجع الى الجزائر لم يكن معينا من قبل الملك ، فهذه الوظيفة (القنصل) كانت ترجع الى عائلة فياس Vias التي كانت تقوم بتعيين الشخص الذي يؤدي تلك الوظيفة • وكان القنصل المقيم في الجزائر لا يكتب مباشرة الى الملك ولكن الى مرسيليا • وكانت معاهدة سنة 1628 تنص ايضا على اعادة فتح حصن فرنسا الذي كان مركزا مربحا (قلعة ، ومكاتب ، ومخازن ، وغيرها) لصيد المرجان ، بالاضافة الى التجارة في القمح والجلود والشمع والخيول وغيرها من البضائع المتوفرة على

---

1 – قام ريشيليو فعلا ببناء أسطول ، ومن نافلة القول أن نشير الى أن دافعه لذلك القرار ليس فقط نشاط البحارة الجزائريين . ذلك أن هيمنة البحرية الانكليزية خلال حصار (الروشيل) وتفوق البحرية الاسبانية التي كانت تحرس الطريق بين برشلونة وجنوة ربما كانا أكثر سيطرة على تفكيره عندما قرر ذلك ، ولكن قراره ببناء الأسطول أعطى الاشارة الى سباق يجري بين المملكتين الفرنسية والانكليزية ، وبحلول سنة 1631 كان للفرنسيين اربعون سفينة تتراوح بين 200 و 900 طن ، وفي نفس هذه السنة بنى الانكليز اربع سفن ذات 800 طن ، وسفينتين ذات 500 طن (كانت السفينة ذات 800 تحمل بين 34 و 40 مدفعا) ، وفي السنة الموالية بنى ريشيليو سفينة ذات 1،400 طن ، ولكن الانكليز بنوا سفينة من ثلاثة طوابق ذات 1،500 طن ، وهي المسماة (سيدة البحار) التي كانت تحمل 102 مدفعا ، فرد الفرنسيين ببناء السفينة المسماة (كورون) ذات 2000 طن ، وكان لها طابقان فقط وتحمل 72 مدفعا ، ولكن طولها كان 28 قدما اطول من السفينة الانكليزية الكبيرة ، وكان التقدم التالي في سباق بناء السفن هو تطوير نوع الفرقاطة ، وكانت الاولى من ذلك هي السفينة (دنكيرك) التي كانت ذات 300 طن فقط ، ولكنها كانت تحمل من 20 الى 30 مدفعا وكانت سهلة القيادة جدا ، وكان هذا فاتحة عهد جديد من السباق البحري لبناء السفن من نوع الفرقاطات التي لم تكن فقط مفيدة للقيام بالحراسة ، ولكنها كانت ايضا من انجع الوسائل لاستعمال أصحاب السفن الخاصة (القراصنة) ، انظر جوليان كوربيت J. Corbett ، (انكلترا في البحر الأبيض) ، الجزء الاول ، ص 180–182 .

الساحل . وقد استطاع نابولون أن يضيف مادة في المعاهدة يسمى فيها نفسه هو الوكيل factor ما دام حيا ، وهذا يعني أن كثيرا من التجارة في البضائع المحلية بالاضافة الى المعدات الحربية والأطعمة وغيرها من الأشياء الفرنسية قد أصبحت ممتنعة عن مراقبة تجار مرسيليا الذين كانوا يسمون القنصل في الجزائر . وكان لا بد لهذا الوضع أن يقود الى النزاع ، ولكن مكانة نابولون لدى حكومة ايالة الجزائر كانت محفوظة ، أولا لشعبيته الشخصية وثانيا لأنه وافق على دفع مبلغ من المال سنويا يقدمه حصن فرنسا بدلا من دفع ضريبة . وهذا المبلغ المالي أصبح مصدرا هاما لأجور فرقة الانكشارية ، لدرجة أن نابولون كان يعتقد أن الحصن سيكون دائما آمنا حتى ولو تعرضت العلاقات بين الجزائر وفرنسا الى توترات .

ومن الصعب على المرء أن يخمن ماذا كان سيحدث لو أن ريشيليو قد استمع الى نصيحة نابولون حول السياسة التي على المملكة الفرنسية اتباعها في شمال افريقية (*) . ولكن يبدو أن ريشيليو كان يشارك الرأي العام الذي يرى أن الايالة الجزائرية كانت محكومة بجماعة من الأعلاج غير جديرين بالثقة وبكفار لا أخلاق لهم . وكان يتعامل معهم للضرورة ما دام السلطان كان غير قادر على الدفاع عن المصالح الفرنسية من اسطانبول ، ولكن من الواضح أنه (ريشيليو) وجد هذه المفاوضات معهم عديمة الذوق وكان تماما لا يثق في نزاهة ووفاء أولئك الرجال في الجزائر . غير أن الأحداث أظهرت أن الجزائريين كانوا أكثر وفاء من الفرنسيين . فعلى اثر التوقيع على المعاهدة جيء بسفينة فرنسية الى الجزائر على أساس أنها رفضت التحقق من أوراقها . وكانت هناك مطالبة صارخة بمعاقبتها ما دام الضابط البحار محبوبا جدا ، وكانت سفينته مملوكة من قبل أناس أصحاب نفوذ (**) . ومع ذلك فإن

(*) – كذا ، والمؤلف يقصد الجزائر طبعا . (المترجم) .

(**) – قد يبدو في هذا الكلام بعض الغموض ، والأوضح أن الرايس الجزائري الذي أسر السفينة الفرنسية كان محبوبا وكان على رأس سفينة يملكها كبار القوم ممن لهم سلطة في الجزائر ، ومع ذلك فإن السفينة الفرنسية لم تعاقب على رفضها التأكد من الأوراق . (المترجم) .

الديوان أطلق سراح السفينة وحمولتها . وبعد أيام قليلة جيء بسفينة أخرى فرنسية (الى الجزائر) كغنيمة ، ولكن أطلق سراحها في الحال . ثم أمر الديوان الرياس بالكف عن الاساءة الى السفن الفرنسية ، مع الانذار بعقوبة الموت . وقد لفت سانسون نابولون انتباه القناصل في مرسيليا الى هذه الأحداث كدليل على التزام الجزائر بالمعاهدة . ولسنا ندري ما اذا كان ريشيليو قد أطلع على هذه الأحداث .

ومهما كان الأمر فان الفرنسيين كانوا أقل دقة في الالتزام بالمعاهدة . فهناك قضية الستة عشر بحارا جزائريا الذين انتشلوا بعد أن غرقت سفينتهم بالقرب من الساحل الفرنسي . فقد جيء بهم الى مرسيليا وذبحوا في الحال ! وبعد فترة قصيرة تمكنت السفينة الفرنسية (سان جان) الآرالية (من آرل Arles) من أسر سفينة جزائرية ذات صار واحد ، وباعت طاقمها كله الى الأسبان . وبينما كان نابولون يحاول أن يشرح هذه الأعمال الى الديوان ، هاجمت سفينة حربية فرنسية ، تحت قيادة السيد دي لاني دي رازللي de Razelly سفينة جزائرية وأسرتها وأوثقت جميع طاقمها عند المجاديف . كان رايس هذه السفينة هو محمد أوجيا (خوجة ؟) Ogia الذي كان محبوبا وصاحب نفوذ ، وكان دي رازللي ضابطا بحريا مرخصا له من قبل الملك الفرنسي. وقد تصاعد الغضب عاليا في الجزائر من جراء ذلك ، لأنه لم يكن عمل ضابط بحري خاص غير مسؤول . عرض دي رازللي أن يسمح لأسراه بالفداء بمبلغ ثلاثمائة فرنك لكل فرد — ما عدا ستة أعلاج رفض تحريرهم بأي ثمن . وقد جن جنون نابولون من ذلك . هل من الحكمة سجن ستة أعلاج « كانوا قد فقدوا أرواحهم على أية حال » (*) ومن ثمة التسبب في موت أو سجن مائة وخمسين فرنسيا ، وربما كثير غيرهم قد يقعون في الأسر في المستقبل ؟ لقد كان نابولون على يقين من أن هذا الموقف من قبل ضابط البحر التابع للملك سيشعل حربا أخرى . وسرعان ما برهنت الأحداث على انه كان على حق .

(*) — هذا تعبير استعاره المؤلف ، ويعني به ان أولئك الاعلاج قد ضيعوا أرواحهم المسيحية ما داموا قد اعتنقوا الاسلام . (المترجم) .

كانت العواطف تتقد في الجزائر مع كل «استفزاز» جديد يرتكبه الفرنسيون . وعندما كان واضحا أن سفينة بحرية فرنسية هي التي اخلت بالمعاهدة ، وضع نائب القنصل في القيود ورمى به في السجن حيث مات على ما يبدو . وقد توجه نابولون الى الجزائر ومنع الباشا والديوان بطريقة ما من اعلان الحرب على فرنسا ، ولكنه لم يستطع أن يمنع الاستيلاء على التجارة الفرنسية . وقد أبحر الرياس ليثأروا لزملائهم ، وسرعان ما أصبحت الغنائم الفرنسية والأرقاء الفرنسيون قضية شائعة في الجزائر كما كانت ، بالرغم من عدم وجود اعلان رسمي للحرب . ويخبرنا السيد لارونسير La Roncière بأن الجزائريين لم يفوا كما ينبغي بسلام سنة 1628 ، وقد نقل من احصاءات الأب دان بأنهم استولوا على أكثر من ثمانين سفينة بلغت قيمة حمولتها خمسة ملايين فرنك ، واسترقوا خلال سنوات 1629 — 1631 ألفين وثلاثمائة فرنسي . ولكن يبدو ان هذا المؤرخ الوطني للبحرية الفرنسية لم يلاحظ أن الفرنسيين هم الذين اخلوا بالمعاهدة أولا ، ثم رفضوا اطلاق سراح الأتراك والجزائريين الذين كانوا أرقاء في شيورمز Chiourmes (أي جماعات السفن) البحرية الفرنسية الملكية . وقد كانت هذه هي قصة القرن كله ، فضباط السفن الفرنسية كانوا غير مستعدين لتفريق جماعة أصبحت متمرسة على مهنتها (التجذيف) ، كما أن الضباط على الخصوص كانوا لا يريدون التخلي عن « أتراكهم » الذين كانوا أفضل الرجال المجذفين . وعندما كان الديوان يطلب الحرية للأرقاء الأتراك والجزائريين في فرنسا ، كان الضباط الفرنسيون لا يطلقون سراح الا العجزة والطاعنين في السن ، مدعين بأن هؤلاء فقط هم الذين عندهم ، وهذا بالرغم من أن الرسائل من أرقاء السفن بمرسيليا كانت تصل الى الجزائر بانتظام .

ومن جهة أخرى فان الجزائريين قد يكونون أيضا صعابا . فقد رفضوا تبادل الأرقاء واحدا بواحد ، وأصروا على أن الشخص الذي اشترى الرقيق يجب ان يكون له الحق في بيعه بأسعار السوق بدل بيعه بالثمن الأصلي ، وكانت أسعار السوق ، كما شرح ذلك فرنسيس نايت ، ترتفع

في كل وقت يقع فيه الحديث عن تبادل الأسرى • واذن فان كلا الطرفين قد يتحمل مسؤولية الاخلال بالمعاهدة الفرنسية الجزائرية لسنة 1628 •

وكون أملاك نابولون في الحصن (حصن فرنسا بالجزائر) بقيت لم تمس بسوء بينما كانت السفن الفرنسية غنائم في الجزائر ، قد أقنع تجار مرسيليا بأن نابولون كان حقا قد اعتنق الاسلام ، أو على الأقل كان علجا ، عاملا ضد مصالحهم • فهم لم يكونوا مسرورين من كونه اصبح وكيلا للحصن مدى الحياة • فالحصن كان دائما ملكا للدوق دي غيز ، باعتباره حاكم أقليم بروفنس كما أنه (أي الحصن) كان يمثل الحمى الخاص بتجار مرسيليا • أما نابولون فقد كان أجنبيا عنه في نظرهم • وقد بدأت المؤامرات ضده حالما جرى التوقيع على معاهدة سنة 1628 • فحاولوا أن يضروا بعملياته في صيد المرجان بمؤامرة مع تونس • وكتبوا رسائل ضده الى باريس • وعندما رجع الرياس الجزائريون الى الاستيلاء على الغنائم الفرنسية ، لم تستطع باريس تجاهل تلك الحملة ضده •

وفي هذه الأثناء كانت مكانة ريشيليو كوزير للملك مكانة آمنة • وكان قد بدأ فعلا في تحقيق برامجه التي تهدف الى تقوية سلطة الملك ف جميع قطاعات المملكة • ومنذ أوائل سنة 1629 وجدناه يقرر أن الحصن يجب أن لا يكون ملكا خاصا لأي فرد عادي ، بل يجب أن يكون تحت سلطة ملك فرنسا ويحكمه حاكم يعينه الملك ، وله صلاحيات تضمن الأمن لصيادي المرجان والتجار العاملين هناك • وكان ريشيليو ف ذلك الوقت يعني الدوق دي غيز ، عندما تحدث عن الفرد العادي • لقد كان الدوق ، وهو حاكم بروفنس ، يتمتع بدخل الحصن قبل الهجوم عليه في فاتح القرن • وكان يحاول مع تجار مرسيليا ، استعادة ملكيته لنفسه • بينما كان ريشيليو الذي كانت سياسته العامة تقف الى جانب توسيع السلطة الملكية ، يهدف الى منع جميع مثل هذه المشاريع الخاصة المتحكمة • فقد كان يعمل على تجريد « كبار النبلاء » والمدن امتيازاتهم الخاصة ومن سلطاتهم • ولذلك فانه عندما وصلت قضية الحصن درجة الأزمة ، أرسل ريشيليو ، آبي دي ليزل Abbé de l'Isle في جولة

تنفيذية مع صلاحيات بتقرير مصير نابولون والحصن معا . وقد قام دي ليزل بدراسة الملفات ، واستجوب المسؤولين ، وأخيرا قرر أن نابولون ، الذي كان منذ البداية قد أرسله ريشيليو نفسه الى الجزائر ، أن يبقى حيث هو (في الجزائر) . وبعد استعراض للجنود في الحصن أعلن دي ليزل عن قراره ونصب نابولون رسميا كحاكم ملكي للحصن (ابريل سنة 1632) .

وهناك ما يدل على أن تعيين نابولون كان أيضـا من وحي رغبة ريشيليو في تأمين محطة للتدخل في ساحل شمال افريقية . فقد جعل نابولون الحصن عبارة عن قلعة ومحطة جوسسة حيث يمكنه « أن يعلم ما كان يجري في شمال افريقية . » ولم يكن صيد المرجان والمركـز التجاري سوى « تعميات » عن خطة التوسع ، لأنه كان يرى الحصن عبارة عن قاعدة للجنود في جزيرة قد تستعمل لاقامة محطة على الأرض الداخلية نفسها .

ومن الواضح أن هناك أشياء أخرى لوضع نابولون كحـاكم ملكي هي أكثر من مجرد تبرير لأعماله الى ذلك الحين . ففي السنة التالية (أي 1633) بالذات أعد خطة لطرد الجنـويين من جـزيرة طبرقة Tabarque (*) حيث كانت عائلة لوميليني Lamellini تملك وكالة وتقوم بصيد المرجان ، وذلك بناء على اتفاق بين خير الدين ودوريا ، منذ قرن مضى . وقد ظن نابولون أنه حقق بطريق الرشوة انتصارا سهلا ، ولكن الرجل الذي ظن أنه اشتراه برشوته نقل القصة كاملة الى حاكم وكالة لوميليني . فكان الجنويون مستعدين لنابولون ورجاله عند نزولهم ، فقتلوا نابولون وطردوا رجاله . ولم يحدث شيء آخر بعد ذلك .

(*) ـ جاء في كتاب خلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب ص 160 ان طبرقة كانت مرسى على جبل مرتفع شمال غربي تونس ، وفي بحرها المرجان الرفيع ، وكان بها الجنويون مقيمين بقصد صيد المرجان . (المترجم) .

وبعد وفاة ابولوت في العاشر من شهر ماي سنة 1633 ، ارسل ريشيليو بعثة جديدة بقيادة سمسون لوباج Samson Le Page لاعادة النزاع ان امكن . واهم شيء قام به لوباج من وجهة نظر المؤرخين هو ايجاد الأب دان ، القسيس الذي كان يقوم بعمليات الفداء ، معه افتداء الأسرى . وقد بقي الأب دان في الجزائر مدة طويلة تكشفه لجميع المعلومات الكتابة عن تاريخ الجزائر (1) .

وليس من الغريب أن ريشيليو لم يكن قادرا على القيام بعمل شيء جديد حول النزاع الفرنسي الجزائري . ذلك أن السنوات التي تلت النقض الأول للمعاهدة (الجزائرية ـ الفرنسية) كانت مليئة ، في فرنسا وفي بقية انحاء أوروبا ، بيوم المخدوعين (*) (Day of Dupes) وفي الملكة الأم ، والنزاع المدني مع الدوق دورليان ، ومحاكمة واعدام الدوق دي مونتموراسي Montmorency ، وبغزو غوستاف أدولف G. Adolph (**) لألمانيا ثم موته وتفكك التحالف البروتستانتي من قبل الفرنسيين ، من معركة نوردلنغن Nordlingen الى سلام براغ . لقد كانت هذه الأحداث أكثر ضغطا على روزنامة ريشيليو من قضايا شمال افريقية . وأخيرا اقتنع ان على فرنسا أن تعلن الحرب (سنة 1635) على الهابسبورغ فاذا به يكتشف أن المملكة (الفرنسية) كانت غير مستعدة تماما لوقف العدوان الذي كان يتهدد باريس نفسها . فالعجب ليس لأنه لم يستطع أن يفعل الكثير حول شمال افريقية ، بل لأنه نجح

---

1 ـ كان الأب دان ، مثل الأب هايدو من قبله ، مسيحيا متطرفا ارعجه منظر مواطنيه الفرنسيين وهم في الرق ، وكان كثير العداوة للدين الاسلامي والتقاليد الاسلامية [illegible] التحرير منه ، فان تاريخه يعتبر وثيقة من أهم الوثائق التي [illegible] قبل أن يصبح لدينا تقارير [illegible] جيدة تخبرنا بكثير من التفاصيل [illegible] ، فالمؤرخون معترفون بالجميل لرجال من أمثال [illegible] وغيرهما من أولئك الذين [illegible] في الجزائر خلال هذه السنوات .

* ـ هو يوم 11 نوفمبر 1630 يسمى كذلك لأن أعداء ريشيليو ، وخصوصا [illegible] ظنوا أن الملك غاضب عليه ، بينما كان ريشيليو [illegible] (المترجم) .

** ـ [illegible] (المترجم) .

حوالي سنة 1636 في اتصاله اسطولا بالبحر الابيض يمكنه ان يرفع العلم الفرنسي في تلك المياه .

وكيف يجب استعمال هذا الأسطول الفرنسي الجديد ؟ ان تهديدات البحارة الجزائريين قادت جناحا في المجلس الملكي لتبني فكرة استعمال البحرية لغزو الجزائر وتدميرها . ومن الواضح أن هناك امورا نسيها أصحاب هذا الرأي تتعلق بالقضايا التي قد تثار . وهناك جناح آخر كان يخشى من المصاريف وفشل المحاولة ، بالاضافة الى ردود الفعل التي قد تتطور في اسطانبول ، فاقترح محاولة عقد معاهدة مع السلطان يمكنها أن تضمن وقف تهديدات بحارة شمال افريقية . وربما كان أصحاب هذا الرأي يتطلعون الى ضمان تأييد السلطان اذا ما ، أو حينما ، تدخل فرنسا في حرب ضد الهابسبورغ . وهناك جناح ثالث اقترح المفاوضات المباشرة مع الجزائر (1) . وكان الاقتراح الأخير هو الذي اقره المجلس ، ومع ذلك فانه عندما ذهب لوباج الى الجزائر اكتشف أن المعاهدة المقترحة كانت صعبة المفاوضة . ورغم أن بعثة لوباج كانت فاشلة ، فانها تدل على تصاعد نفوذ المجلس الملكي في هذه المنطقة التي كانت الى هذا الحين تعود سياسيا الى مرسيليا .

ولكن الأسطول الجديد لم يكن أكثر تأثيرا من الدبلوماسيين . ففي سنة 1636 انطلق هذا الأسطول تحت قيادة الأسقف – البحار دي سوردي de Sourdis والدوق داركور d'Harcourt وسرعان ما استولى على خمس سفن للبحارة (الجزائريين) . وكان يسود الجزائر عندئذ الخوف من الغزو . فأمر يوسف باشا (*) بضريبة خاصة لتحصين أسوار المدينة . ولكنه عندما أعاد التفكير في الأمر وضع النقود في جيبه ورجع الى اسطانبول ، تاركا وراءه مبررا آخر لتجريد الباشوات

---

1 – انظر غرامون ، فرنسا مع الجزائر ، 1633 – 1640 ، في المجلة الافريقية ، 23 ، ص 417 .

* – تولى يوسف باشا السلطة في الجزائر عدة مرات . انظر عنه كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 . انظر عنه كذلك (أربع رسائل من باشوات الجزائر وعلمائها) في كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة) ، الفرنسية .

من سلطاتهم . وفي سنة 1637 أمر ريشيليو الأسطول بالابحار الى ميناء الجزائر وطلب معاهدة ، ولكن عاصفة مزقت شمل الأسطول ولم تصل منه الى الجزائر الا سفينتان لطلب المعاهدة . غير أن الديوان سخر من التهديد الفرنسي وأضاف بأن أي نشاط حربي مشابه سيترتب عليه موت جميع الفرنسيين الذين يوجدون بالجزائر ، ورجعت السفينتان الى عرض البحر . ولكن بعد قليل ظهرت قطعة من الأسطول الفرنسي فى ميناء الجزائر ومعها السفينتان اللتان استولت عليهما للبحارة الجزائرين . وأدى ذلك الى تحرير الأرقاء المسيحيين وربط المسلمين في مقاعد التجديف . وكانت احدى السفن المأسورة من أملاك علي بتشنين ، أكبر أعضاء الطائفة (الرياس) ثروة وتأثيرا . وقد وقعت مظاهرة في مدينة الجزائر ترتب عليها وضع جميع الفرنسيين المحررين ، بما في ذلك نائب القنصل ، في السجن ووثاقهم بالحديد ، وتهديدهم بالموت . وقد طالب الديوان باحراق القنصل ، ولكن علي بتشنين أصر بأن الخطأ كان منه هو وأن سفينته قد حملت سبعة آلاف قطعة من ثمانية Pieces of eight 7,000 . ولم يطلب سوى الترخيص له بالهجوم على الحصن ليلقن الفرنسيين درسا . وقد حصل على ذلك الترخيص . وقال : « ان الخسارة كانت لي شخصيا باعتباري المالك الوحيد للسفينة ... وأنا لا أطالب بأي ثأر ... ولكنني منكم ... وانني أقترح الاستيلاء على الحصن .. » وهو الأمر الذي فعله مع حصوله على أرباح طائلة منه لنفسه .

ولكن هجوم بتشنين على الحصن كانت له نتائج غير متوقعة . فهو لم يجد أية صعوبة في مفاجأة التحصينات الفرنسية ، وأسر أو قتل 317 فرنسيا ، بما في ذلك حاكم الحصن ، ثم حمل غنائمه وانصرف . غير أنه عندما توقف الحصن عن دفع الالتزام السنوي واجهت الخزينة في الجزائر المصاعب ، ثم أنه عندما رفضت القبائل دفع الضريبة لأنها لاتملك النقود التي كانت فى العادة تحصل عليها من بيع انتاجها فى الحصن ، وصلت معاناة الخزينة في الجزائر الى حد الأزمة . وقد حاول باي قسنطينة أن يجمع الضرائب بالقوة غير أن جنوده الانكشاريين هزموا شر هزيمة . ان القبائل الآن أصبح عندها الأسلحة النارية التي اشترتها من الحصن .

ان هذه الازمة الناتجة عن هجوم علي بتشنين قد تلتها أزمة أخرى أضرت كثيرا بأمير البحر الجزائري وبكثير من ضباطه . ذلك أن السلطان أمر الأسطول الجزائري بالمشاركة في ارمادته لمهاجمة مواقع البندقية على البحر الادرياتيكي . ولكن عاصفة هوجاء أجبرت السفن الجزائرية والتونسية على اللجوء الى ميناء فالونا Valona الصغير . وهناك فاجأهم أمير بحر البندقية ، كبيللو Cabello ، وهم في وضع جعل استعمال مدفعيتهم لا يفيد شيئا . فخسروا ست عشرة سفينة ، أربع منها غرقت واثنا عشر أسرت ، وحرر ثلاثة آلاف مسترق وقتل عدد من الانكشارية الجزائرين والتونسيين . وكانت خسارة علي بتشنين من ذلك أعظم من غيره ، لأن معظم السفن كانت ملكا خاصا له . ومن الممكن أن نقول أن نكبة فالونا كانت جزئيا مسؤولة على فشله في الاستيلاء على حكومة الجزائر في هذه اللحظة الحرجة (1) . وقد حصل موته بعد هذه النكبة بقليل ، ربما نتيجة التسمم . وهناك عاقبة أخرى هامة لهذه المعركة . ذلك أن السلطان أكد للجزائريين انه سيثأر لهم ، ولكن ذهب البندقية خفف من غضبه ، ويبدو أن السلطان كان شرها للنقود شراهة الباشوات الذين يرسلهم الى الجزائر كل ثلاث سنوات . ان الرياس أصروا ، وعندما طلب السلطان مرة ثانية مساعدة الأسطول الجزائري ، على دفع معونة (مالية) مقدما .

حاول الديوان أن يسترجع السمعة التي فقدها في فالونا سنة 1638 بحملة ضد قبائل كوكو الذين كانوا قد تسببوا في هزيمة باي قسنطينة (*) ، ولكن بدل تحقيق النصر وجد الانكشارية أنفسهم محاصرين ومجبورين على الاستسلام . ان هذه الهزيمة خدمت القضية الفرنسية أيضا ، لأنه عندما وافق الآغا على السلام مع قبائل كوكو ، وافق على وقف جباية الضرائب ، ومنح العفو للكراغلة الذين فروا

---

1 ـ أنظر الفصل السابع ص ؟

(*) ـ يبدو أن المؤلف يشير هنا الى ثورة ابن الصخري . انظر عنها الجزء الاول من كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) . (المترجم) .

الى المواقع الزواوية المحصنة بعد فشل ثورتهم الذريع ، كما وافق على اعادة فتح حصن فرنسا . ومن المهم والمفيد أن نلاحظ أن النكبة في فالونا وهزيمة الانكشارية في جبال زواوة هما اللتان أقنعتا الديوان ، وليس ضغط الأسطول الفرنسي ، بالاصغاء الى المقترحات الجديدة لعقد معاهدة جديدة مع فرنسا .

وعندما أبدى الديوان استعداده للتفاوض أرسل ريشيليو السيد ج . ـ ب . دي كوكيل de Coquiel ، الى الجزائر على رأس قطعة من الأسطول ليعقد سلاما ينتج عنه تحرير الأرقاء الفرنسيين ، واعادة فتح الحصن ، وكتابة معاهدة ثابتة للسلام . ولكن قطعة الأسطول لم تكن في الواقع سوى خدعة . ذلك ان بناء ودعم بحرية البحر الأبيض قد أوقفته ضرورات الحرب فى المانيا والأراضي المنخفضة . حقا ان السيد سوردي كان أكبر المعتذرين عندما كتب الى الباشا قائلا له لم يستطع ارسال أسطوله كاملا لأنه كان محتاجا اليه فى محاصرة الأسبان . ولم يضف الى ذلك الا قوله : « اذا كنت تعتقد ان حضوري ضروري ... فاني سآتي مع بقية أسلحتنا . » وخلال المفاوضات وافق الجزائريون ، الذين كانوا تحت ضغط « أتباعهم » أهل زواوة ، على اعادة فتح الحصن ، ولكنهم كانوا أقل مرونة بالنسبة الى نقط أخرى فى معاهدة السلام .

ان المعاهدة التي وقعها السيد دي كوكيل فى السابع من يوليو سنة 1640 ، تكشف عن الكثير من خفايا القضايا المعلقة . فقد أصبح حاكم الحصن مطالبا منذ هذا التاريخ بدفع أربع وعشرين دوبلا doubles الى الباشا سنويا لصرفها فى أجور فرقة الانكشارية ، بالاضافة الى عشرة آلاف دوبل توضع كاحتياطي فى خزينة (الدولة) بالقصبة . وفى مقابل ذلك فان جميع السفن المتوجهة الى الحصن لها مطلق الحرية ولا يتعرض لها أحد ، وضمن لصيادي المرجان اللجوء الى ميناء جزائري عند حدوث العواصف . وفى مقدور حاكم أن يبني مراكز للمراقبة حول تحصيناته وأن يؤجر البناءات لاستعمالها فى التخزين من المنازل الواقعة فى مدينتي

عنابة والقالة الساحليتين (+) • ومن حق الحصن ان يخبز الخبز وأن يمنح الجنسية الفرنسية لكل فرد يعمل على أرضيته ، وأن يدفن موتاه ، وأن ينظم العقود مع التجار المحليين • كما ان المعاهدة حددت التعريفة الجمركية وشروط المتاجرة ، بل حتى حق سفن الحصن فى الاحتفاظ بأشرعتها عندما تكون فى المرسى • وأخيرا وقع الاتفاق على انه فى حالة الحرب بين فرنسا والجزائر ، فان الحصن يبقى حرا ولا يساء اليه ، كما انه سيواصل دفع المبلغ السنوي (1) • وهكذا فانه لا التجار ولا السلطات الجزائرية كانت ترغب فى تكرار تدمير هذا المركز التجاري ما دام الطرفان قد لقيا معاناة من جراء هجوم على بتشنين عليه منذ سنوات قليلة خلت •

وصياغة معاهدة عامة للسلام والصداقة تعتبر من أشق الامور • فقد كانت المناقشات تنقطع حول قضايا مثل اطلاق سراح الأرقاء الفرنسيين ، وزيارة السفن التجارية الفرنسية ، وغيرها من القضايا الأقل أهمية • وقد أجبرت أحوال الطقس السيئة السفن البحرية الفرنسية على العودة الى فرنسا ، كما توجه دي كوكيل معها ، ولكنه رجع الى الجزائر فى السنة الموالية (1641) ، واستطاع أن يصل الى اتفاق ، ولكن ريشيليو رفض المصادقة على المعاهدة • وكانت اعتراضاته هي نفسها اعتراضات الوزراء الفرنسيين بالنسبة للمعاهدات المستقبلة • فهو كان يريد بالخصوص ضمانات أكثر للاحوال البدنية الروحية للفرنسيين الذين كانوا أرقاء فى الجزائر • كما انه اعترض على الطلب الجزائري القاضي بأن طاقم أي سفينة يقاوم فرقة « الزيارة والتفتيش » بالسلاح سيؤخذ كرقيق • ان الكاردينال (ريشيليو) كان خائفا من قراصنة مدينة سلا الذين كانوا غالبا يرفعون علما جزائريا ، الى أن تحين اللحظة التي يصعدون فيها ظهر السفينة غير المتشككة فيهم • فاذا أراد الجزائريون أن يبدي الفرنسيون مقاومة ، فعليهم أن يضعوا حدا لما تمارسه قراصنة سلا • وذهب ريشليو الى الاصرار على أن مطلب « الزيارة والتفتيش » كان ضد المعاهدة

(*) ـ كتبها المؤلف Cole والظاهر انه يقصد بها القالة . (المترجم) .

(1) A.A.E. Algérie XII, fols. 101-3

ذلك فقد كان عليه أن يعترف بعدم اعتراضه الفرنسية مع السلطان ، ومع حجز الاشخاص الذين ينتمون الى أعداء الايالة على مصادرة البضائع وحجز الأشخاص ، لأن أصحاب السفن الفرنسية الخواص الجزائرية • انها نقطة طريفة ، لأن أصحاب السفن الفرنسية الخواص كانوا ايضا يطالبون بهذا الحق • وأخيرا قرر ريشيليو بأن دي كوكيل لم يتبع تعليماته ، ومن ثمة فانه لم يصادق على المعاهدة • غير ان معاهدة مشابهة وقعت المصادقة عليها بعد وفاة الكاردينال (ريشيليو) في السنة الموالية •

ان الوضع عموما كان يتطلب معاهدة • فقد كان بالجزائر حوالي خمسة آلاف من الأرقاء الفرنسيين ، كما ان الخسائر التي مني بها التجار الفرنسيون أصبح لا يمكن التسامح معهما • ثم ان قوة البحرية الفرنسية التي كان يمكن توظيفها ضد بحارة الجزائر كانت مجهودا ضعيفا ، فقد حاولت الخمس او الست سفن الحربية أن تراقب مساحة شاسعة بمبلغ بين 15,000 و 16,000 فرنك سنويا • انما استولت على بعض الغنائم ولكنها فشلت في حماية حركة السفن الفرنسية • وتشير مذكرة قدمت الى المجلس (الملكي) الى ضياع مجهود الرقابة الفرنسية ، وقد لاحظت المذكرة ان الجزائريين ، بسفنهم الحربية البالغة ستا وأربعين سفينة ، بالاضافة الى عدد آخر من السفن ، كانوا في الحقيقة عدوا خطرا لا يمكن ردعه بدون تبذير قوة أعظم بكثير من ذلك • ولاحظ المجلس أيضا انه ما دام السلطان لم يعد في استطاعته السيطرة على الايالة ، فان الفرنسيين سيتفاوضون من جديد مباشرة مع الجزائر ، تماما كما اضطر الانكليز والهولنديون الى فعل ذلك (*) • وقد ظهر أصحاب هذه الحجة ، وعليه توجهت بعثة فرنسية أخرى الى الجزائر ووقعت معاهدة تكاد تكون طبق الأصل لتلك التي تفاوض سانسون نابولون بشأنها منذ خمس عشرة سنة مضت •

أما الأسباب التي جعلت الجزائريين يوافقون على هذه المعاهدة فهي غير واضحة • فقد تكون تلك الأزمة التي كانت تواجه حكومة الايالة

(*) — لم يوضح المؤلف لماذا ، يصر الفرنسيون على عدم التفاوض مباشرة مع الجزائر ، هل المسألة مسألة بروتوكول (سمعة) او مسألة مصالح . (المترجم) .

والتي تقضي بتجريد الباشا من جميع سلطاته هي التي جعلت السلام مع فرنسا فرصة جذابة • أو قد يكون الرياس ، الذين كان لهم تأثير كبير في الحكومة ، يحتاجون الى طريقة لدخول السوق الفرنسي لشراء التموينات البحرية ، أو قد يكون الامر ببساطة هو ان الجزائريين قد اعترفوا بأن الفرنسيين الذين كانوا في حرب جديدة مع اسبانيا ، هم حلفاؤهم ضد عدوهم • ومن سوء الحظ ان الوثائق التي تحل هذا المشكل غير متوفرة •

مات ريشيليو سنة 1642 ، ولحق به لويس الثالث عشر بعد شهور قليلة ، تاركا المملكة الى طفل ، هو لويس الرابع عشر • كانت حكومته هي حكومة والدته ، آن النمساوية ، باعتبارها هي الوصية على العرش • وكان وزيرها الأول ، وهو الكاردينال مازاران Mazarin ، قد واجهته حرب خارجية باهظة مع اسبانيا كما واجهته مشاكل داخلية متولدة عن وصاية ضعيفة ، ليس لها الا قليل من الوقت لبحارة شمال افريقية • ولكن بالرغم من انه لا مازاران ولا الملكة الوصية خصص اتباها كبيرا للجزائر ، فانهما قررا قرارا خطيرا بوضعهما القنصلية الفرنسية في الجزائر وفي تونس في أيدي الآباء اللزاريين •

ان الدوافع والخلفيات التي كانت وراء هذا القرار ليست واضحة تماما • لقد كان هذا هو العهد الذي كانت فيه الثورة المضادة للاصلاح الديني قوية في فرنسا • وكان التآمر الديني كثيرا ما يتدخل في المجال السياسي ، ولكن يبدو أن الأب فانسان (وهو المعروف لنا الآن بسان فانسان دي بول) كان قد صدم عندما علم كم كانت قليلة تلك النقود المجموعة من قبل الآباء الفادين لتحرير الارقاء ــ كانت فعلا مستعملة في هذا الغرض • ولذلك قرر أن يقوم بشيء حول هذا الموضوع • كان سان فانسان مقربا الى الحاشية الملكية • فقد كان قد حضر وفاة لويس الثالث عشر ، وكان قريبا من آن (النمساوية) التي كان ورعها نموذجا لنساء البلاط • كما انه كان عضوا في مجلس الضمير الذي كونه مازاران • لقد كان سان فانسان رجلا خبرا ، وكان معاصروه يعتقدون في القصة التي تذهب الى انه كان رقيقا في تونس ومن ثمة كان يعرف الكثير عن قضايا الرق في شمال افريقية • ان هذه القصة كانت « كذبة بيضاء » ربما نسجت لتعطي

جزءا بعيدا من ماضي فانسان ، ولكنها قصة أعطت لهذا القسيس مكانة هامة في البلاط (6) .

وليس من الواضح ما اذا كان الأب فانسان هو الذي اقنع دوقة ديغيون D'Aiguillon أو هي التي أقنعته ، ولكن مهما كان الأمر فانها هي التي اشترت القنصلية في الجزائر من عائلة فياس سنة 1646 وقدمتها ، مع تلك القنصلية التي في تونس سنة 1648 ، الى الآباء اللزاريين (7) . لقد كان مجلس الملك في تلك الأثناء منهمكا في سير الأحداث التي قادت الى (لافروند) Fronde والمفاوضات بمونستر Munster للوصول الى معاهدة تنهي الحرب الالمانية . ولم يكن للقنصلية الفرنسية بالجزائر اهمية عظيمة سنوات 1646 – 1648 ولا حتى في العشر سنوات اللاحقة ، حين كرس مازاران كل جهوده ، بعد نفي قصير خلال حادثة لافروند ، لايجاد حل للحرب مع اسبانيا . وكان الأب فانسان دي بول يتمتع بثقة الملكة آن ، ومن المحتمل أن يكون مازاران سعيدا باهتمام هذا الأب بقضايا الجزائر بدل أن يصبح متورطا أكثر في المؤمرات بالبلاط . ويبدو أن اهتمام مازاران كان مقتصرا على السؤال ما اذا كان من الممكن الاستيلاء على قاعدة على ساحل شمال افريقية تسمح لفرنسا بمراقبة أنشطة بحارة هذه المنطقة ، وهو السؤال الذي قد يكون مسؤولا عن تحرك لويس الرابع عشر بعد مدة قصيرة من وفاة مازاران .

---

6 – من المسلي ان نرى كم كانت اسطورة أسر سان فانسان بتونس عالقة بالذاكرة ، فحتى السيد تابي Tapie تضمنها الطبعة الامريكية من كتابه « فرنسا في عصر لويس الثالث عشر وريشليو » ص 141 ، وذلك بعد مدة طويلة من ظهور بحث غرانشان Grandchamp الذي عنوانه : « الأسر المزعوم لسان فانسان دي بول بتونس » في كتاب « فرنسا بتونس خلال القرن السابع عشر » ج 6 ص 1–20 والذي نزع كل هذه الأسطورة من أساسها .

7 – لقد مثل السادة : شيكس Chaix وريكو Ricou وبلانشار Blanchard بيكي Picquet على التوالي كنواب قناصل في الجزائر . لقد أسسوا لحماية [illegible] ومعارة حيث الحماية بأعمال التجار الفرنسيين ، وفي مراسلات [illegible] بالدرجة الأولى بالشؤون التجارية وكانت موجهة الى السلطات في مرسيليا

ان نقل القنصلية من أيدي رجال الاعمال الى أيدي رجال الدين كان له عدة نتائج غير متوقعة . فمن جهة سيكتشف التجار ان القناصل الدينيين لا يتسامحون مع انتهاك النشرة البابوية (In Caena Domini) التي تمنع بيع أي نوع من المواد الحربية الى الكفار (المسلمين) . بينما كان قناصل الاعمال الدنيوية ينظرون الى الموضوع من زاوية أخرى ، حين جلب التجار الفرنسيون كل أنواع التموينات البحرية والعسكرية الى الحصن والى مينائي بجاية والجزائر . ان هذه التموينات قد استمر بيعها أيضا (خلال العهد الجديد) ، ولكن القناصل الدينيين جعلوا الامر صعبا مهما استطاعوا . ومن جهة أخرى فان وصول القساوسة الفرنسيين المنتمين الى النظام اللزاري لم يرحب به القساوسة الاسبان والايطاليون الذين ينتمون الى أنظمة التثليث ، والرحمة والكابوشين (capuchin) وهي الأنظمة التي كانت الى ذلك الحين تسيطر على الحياة الروحية واعادة شراء الارقاء . ولكي يجعل الأمور تزداد سوءا على هؤلاء القساوسة ، نجح الأب فانسان ودوقة ديغيون فى اقناع البابا بجعل القنصل الفرنسي أسقفا رسميا titular والوكيل الرسولي (البابوي) لكل شمال افريقية . وقد رأى أعضاء نظام التثليث الاسباني — الذين واجهوا طويلا مشكل اطلاق سراح الأرقاء ، وبنوا وأداروا مستشفى بالجزائر ، وكانوا هم المسعفين الرئيسيين لأرواح أولئك المنكودين الذين بقوا فى الأسر — رأوا ان ذلك الموقف هو اهانة لهم ورفضوا طاعة أوامر الوكيل البابوي الجديد . ان هذا المسؤول الجديد قد أعلن عنه سنة 1650 فى الوقت الذي كان فيه مازاران والملكة منهمكين فى حادثة لا فروند . ان الحكومة ليس لها أي دخل فيما جرى ، أو اذا شئت فى الصعوبات التي عمل القناصل الدينيون على توريط أنفسهم فيها من خلال سوء ادارتهم المالية وردود فعلهم الباردة نحو مشكل الارقاء (8) . لقد حاول فانسان

---

8 — من أوائل اللزاريين في تولي هذا المنصب ، هو الأب بارو Barreau ، الذي صرف كل النقود المتوفرة لديه ، لم يذهب بستدين المال وذلك سعيا لانقاذ الارقاء . ولم يكن لدى الحكومة الفرنسية نقود تقدمها اليه ، وحتى الأب فانسان لم يكن قادرا على ايجاد الدراهم الكافية لتغطية ديونه التي وصلت الى 7000 بياستر ، وقد أوثق هذا القسيس المحروس بالحديد ورمي به في السجن في الجزائر ، ولكن أحد الباشوات الكرماء أطلق سراحه لأن هذا القسيس كان قد قدم مساعدة كبيرة

ان يجد شخصا في مرسيليا يشتري منصب القنصل من القساوسة ، ولكن ما دام مصرا على ضرورة استمرار القساوسة في تثبيت « السلطة المعنوية » فانه لم يجد أحدا مستعدا لشرائه .

انكلترا ، 1630 — 1660 :

« مع أولئك بالجزائر »

رأينا أن معاهدة توماس روي Roe قد وقعت قبيل معاهدة نابولون بسنوات قليلة ، وهي المعاهدة التي حاولت أن تنظم العلاقات بين أنكلترا والايالة الجزائرية . وكما حدث مع الفرنسيين فان أول المخلين ببنود المعاهدة هم الانكليز وليس الجزائريين . لقد كان حكام أوائل القرن السابع عشر يجدون صعوبة في السيطرة على سلوك رعاياهم ولو كانوا من أولئك الضباط البحريين الذين يأتمرون بأوامرهم ويأخذون التراخيص منهم . ان الدولة البيروقراطية المنظمة التي ستظهر خلال هذا القرن كانت ما تزال في شكلها الأولي . ذلك ان البحارة الخواص المرخص لهم يصبحون بسهولة قراصنة لا يمكن مراقبة سلوكهم في البحر . ولكن الذي أزعج السلام مع الجزائر لم تكن ببساطة هي أعمال ضابط تاجر تحول الى قرصان . ذلك ان سفن الحرب الانكليزية المرخص لها بانتظام قد نقضت أيضا هذا السلام . وكان للمسؤولين الانكليز ، كما للمسؤولين في فرنسا ، امتعاض عام من جماعات الاعلاج والأوباش المتواجدين على ساحل شمال افريقية ، ومن نتيجة ذلك ان الاتصالات الرسمية بين الأوروبيين وحكومة الايالة غالبا ما جرحت هذه الأخيرة . وهناك عدة أحداث توضح المشكل . فخلال حرب باكنغهام Buckingham مع اسبانيا (سنة 1625) أجبرت سفينة أنكليزية خاصة أحد الرياس الجزائريين على تسليم السفينة الاسبانية التي كان الرايس قد استولى عليها كغنيمة . وطبيعي ان الرايس احتج على ذلك . ثم انه عندما جاء باكنغهام لمساعدة لاروشيل ضد الملك لويس الثالث عشر الفرنسي « استولى » أحد البحارة الانكليز الخواص على سفينة فرنسية كان قد

الى ضحايا الطاعون . ولكنه عاد بعد مدة قصيرة الى مشاكله المالية اذ بلغت ديونه هذه المرة 6000 بياستر ، ومع ذلك نجا من الموت المرعب مرة ثانية لان الأرقاء تقدموا بالدراهم للايفاء بالتزاماته .

استولى عليها من قبل بحار جزائري وكانت مبحرة كغنيمة تحت قيادة طاقم جزائري . وقد حكمت مكمة البحرية الانكليزية باعطاء نصف الغنيمة الى البحار الخاص الانكليزي ونصفها الى الجزائريين ، ولكن الجزائريين ، الذين كانوا غير متعودين على اللغة أو على القانون الانكليزي، كانوا قد خدعوا من قبل شخص يدعى « الدكتور هارت Hart » الذي زعم لهم انه « لورد كبير » وأقنعهم بتركه يعالج هو هذا الموضوع . ولكنهم لم يحصلوا مطلقا على أي شيء . وبالاضافة الى ذلك ، هناك البعثة الرسمية الجزائرية التي أرسلت الى لندن « لتقبيل يد الملك » (شارل الأول) ، واهدائه « خيولا وأسودا وفهودا » ، كما انها أرسلت لكي تحاول الحصول على تعويض عن الانتهاكات المقصودة للمعاهدة من قبل البحارة الانكليز . ولكن حظ هذه البعثة لم يكن أفضل مما سبق . فقد ترك الملك شارل الأول أمر الاهتمام بهم والترفيه عليهم الى شركة المشرق (أو تركيا) ، وكانت هذه الشركة حذرة حتى لا تصرف أموالا كثيرة . وكانت هدايا الملك شحيحة . وهكذا فشلت البعثة . وقد اقترح باكنغهام بأن على الملك أن يرسل « هدية » أخرى الى الجزائر ، ولكن يبدو انها لم تساعد كثيرا .

وكان هناك مشكل في الجزائر أيضا ، فالرياس البحارة وملاكو سفنهم لم يكونوا سعداء بمعاهدة تمنعهم من الاستيلاء على السفن الانكليزية . ذلك ان العلم الانكليزي كثيرا ما شوهد في البحر الأبيض خلال العشرينات من القرن السابع عشر . وكان الرياس دائما يذكرون الباشا والآغا بأن مهمة الجزائر هي الحرب وان الاستيلاء على سفن الأعداء وبحارتهم يجلب الثروة للإيالة . وقد جاءت فرصة حسنة لتبرير نقض المعاهدة واعلان الحرب على أنكلترا حين هاجمت سفينة حربية أنكليزية سفينة للبحارة الجزائريين وأحرقتها ، فكان من نتائج ذلك ان وضع جيمس فرانزيل Franzel المسكين ، القنصل الانكليزي ، في الحديد ورمى به في السجن فلا غرابة انه في رسالته التالية ، ناشد حكومة الملك من جديد أن ترسل من يعوضه وأن يسمح له بالعودة الى بلاده . وتبرهن وثائق مكتب السجلات العامة (الرسمية) على أن التصرفات الانكليزية كانت وحدها

هي المسؤولة على اعلان الجزائر الحرب ، ولكن لا يوجد دليل يدل على أن الرياس الجزائريين لم يكونوا فرحين بالفرصة التي سنحت من جديد بمهاجمة التجارة الانكليزية •

ان الحرب التي حصلت بعد ذلك بين أنكلترا والجزائر دلت على انها كانت فى صالح الجزائر ، فبالرغم من أن سفن الشركة التركية (أو شركة المشرق) كانت عادة سفنا مسلحة تسليحا جيدا وتكاد تكون محصنة ضد هجمات البحارة (الجزائريين) ، فقد كانت توجد سفن أنكليزية أخرى فى البحر الأبيض وفى المحيط الأطلسي وفى القنال الانكليزي (المانش) والبحر الارلندي وعند ضفاف نيوفاوندلاند ، وهي السفن التي كانت هدفا سهلا للرياس • وكان أجرأ هجوم هو الذي قام به العلج مراد رايس ، الذي نزل فى بلتيمور على الساحل الانكليزي نفسه ، وحمل معه مئات الرجال الانكليز والنساء والأطفال لبيعهم فى سوق الرقيق بالجزائر ، وقد كانت هناك هجومات أخرى على الساحل الانكليزي والساحل الارلندي ولكنها كانت أقل اثارة مما سبقها ، ومع ذلك تسببت فى تحريك المشاعر فى أنكلترا • ان بحرية شارل الأول كانت غير قادرة على حماية حركة السفن الانكليزية وحتى حماية المدن الساحلية من تسرب سفن البحارة الجزائريين •

ولم يمض وقت طويل حتى تهاطلت ارسائل على الملك وكبار المسؤولين فى الكنيسة من الارقاء بالجزائر أو من عائلاتهم بانكلترا تناشدهم النجدة • وكثير من هذه الرسائل لها طابع الرثاء : بؤس القساوسة وهم فى الرق ، وجوع وحزن الزوجات والأولاد • ولم يكن الملك يملك النقود التي يمكن استعمالها لفداء الارقاء حتى وان كان وزراؤه قد تأثروا بمدى الحاجة الى انقاذ البحارة الذين كانت البحرية والتجارة البحرية فى أمس الحاجة اليهم • ولم يكن فى استطاعة الملك سوى الترخيص للآخرين بجمع المال لانقاذ هؤلاء المعذبين •

ولكن الحكومة استرشدت غيرها فيما يجب أن يعمل • فقد تألفت لجنة من السيد توماس روي ومن شخص يسمى ليث Leathe ، وهو

تاجر له أعمال فى الجزائر ، ومن كيلهام ديغباي Kelhom Digbye وهو تاجر انكليزي ، ومن الدرمان غروي A. Garraway وقامت باعداد تقريرين حول المشكل • فاما ما يتعلق بالفداء ، فانه الى جانب كون الملك ليس له نقود لهذا الغرض ، فان اللجنة أبدت تخوفها من ان أي سياسة عامة للفداء ستعطي فقط فكرة للجزائريين بأن الانكليز هم بضاعة رابحة ، وهي ستطمعهم بأن يبذلوا مجهودات أخرى للاستيلاء على الأسرى من أجل الفداء • ان العائلات والأصدقاء يمكنهم اتخاذ اجراءات لتحرير بعض الأسرى ، ولكن حتى هذا الأمر يترتب عليه ضرر ما دام تحرير البعض قد يجعل الآخرين يقنطون ويفقدون الشجاعة ، بل ربما يتخلون عن دينهم • ولم تكن الدبلوماسية هي الحل أيضا لأن اللجنة اتفقت على أن كلمة حكام شمال افريقية لا يمكن الاعتماد عليها ، فهم سيظلون يعتبرون « بضائع الكفار وأشخاصهم » هدفا مشروعا لهم • (بينما لم تقل اللجنة شيئا عن الفشل الانكليزي فى احترام المعاهدات) • وهذا الموقف من اللجنة جعل استمرار الحرب هو الحل الوحيد الممكن ، ولكن حتى هذا الحل كانت تقف دونه عقبات • فاللجنة لم تتفق على عدد القوات العسكرية الضرورية لفرض الارادة الانكليزية على الايالة • وكان هناك اقتراح يقول بأن أربع سفن اثنتان منها ذات خمسمائة طن واثنتان ذات ثلاثمائة وخمسين طنا ، يمكنها أن تجبر الجزائر على نشدان السلام فى أقل من سنتين • وقد قدرت تكاليف ذلك بخمسة عشر ألف جنيه استرليني سنويا • وهناك اقتراح آخر أقل تفاؤلا من السابق قدر بأن أسطولا من ثماني سفن يقوم بالعمليات خلال ثلاث سنوات بتكاليف تقدر بخمسين ألف جنيه سنويا قد يكون ضروريا لجعل « القراصنة » يعودون الى رشدهم • ولكن قائمة المبالغ التي قدرت بمائة وخمسين ألف جنيه وحتى بثلاثين الف جنيه (+) كانت مبالغ أكثر مما يمكن لخزينة الملك أن تتحمل •

ومن الواضح انه اذا كانت الدبلوماسية أو الفداء أو الحرب جميعا غير مقبولة فان هناك بديلا آخر يجب اكتشافه • ان اللجنة رجعت الى

(+) ـ هذا هو الرقم الذي ذكره المؤلف وهو ثلاثون الف جنيه ، ولكن المعنى يقتضي ان يكون الرقم «ثلاثمائة الف جنيه» • (المترجم) •

جعل الحرب ضد شمال افريقيـة طريقة أخرى أثبت الوقت نجاحها : جعل الحرب ضد شمال افريقيـة كمشروع خاص بالبحارة المغامرين ورجال الأعمال . وهذا الاجراء قد يجعل الحرب تشمل كل الدولة العثمانية ، وعليه فان السفير الانكليزي في اسطانبول يجب أن يوضح للسلطان بأن سلوك رعاياه في شمال افريقية هو الذي أجبر الملك الانكليزي على الانتقام في صورة منح أوراق اعتماد للبحارة لخواص الانكليز تسمح لهم بمهاجمة جميع التجارة المتوجهة الى الموانىء المشرقية . ويمكن للسفير أن يعبر عن « أسفـه » بأن فشل السلطان في مراقبة رعاياه هو الذي أدى الى هذا الاجراء الشديد ويأمل في أن الحرب مع السلطان يمكن تفاديها . ولكن حتى هذا الاقتراح لم تكن التوصية به الى الملك ممكنة ، لأن تجار شركة سيعانون منه بدون شك ، سيستحوذ على أسواقهم منافسوهم الفرنسيون والهولنديون . ولكن الفكرة كانت مغرية لضباط البحر الانكليز الذين يتذكرون الثروات التي حصل عليها البحارة الخواص في الماضي . وهكذا فان تقرير اللجنة لم ينتج عنه أي شيء واستمر عدد الانكليز في الأسر يزداد بالطراد .

ويوجد كتابان هامان نشرا في بريطانيا قبيل أن يؤدي ظلام النزاع بين الملك شارل الأول والبرلمان الى مشاكل جديدة الأول هو كتاب فرنسيس نايت (رحلة ... 1640) . وقد كان نايت أسيرا في الجزائر ، وتقدم في كتابه باقتراحين : احدهما أن معاهدة مع الباشا والديـوان سيحترمها الجزائريون اذا احترمها الانكليز . وقد لاحظ أن الضباط الانكليز يجدون من السهل عليهم الانتقال من وضع التاجر الى وضع القرصان . وثاني اقتراحه هو حرب استيلاء شامل . وقد دغدغ هـذا الاقتراح السلوك الافتراسي الانكليزي ، وذلك باخبارهم عن وجـود الثروات بالجزائر : كثرة الذهب والفضة والحلي وسلاسل الذهب واطباق الفضة . واعتقد نايت انه يمكن الاستيلاء على مدينة الجزائر ونهبها بجيش من ثلاثين ألف رجل مدعوم باسطول . ومن جهة أخرى أشار الى أن التجارة قد تكون أكثر فائدة من الحرب ، وبين انه مـن الممكـن للانكليز أن يحلوا محل الفرنسيين في الحصن . وقال ان التجارة هناك

تقدر بمائتي ألف دوكا ducas (*) سنويا وانه اذا أصبح الحصن تحت ادارة انكليزية فانه يمكن أن يزداد المبلغ بسهولة . أما المؤلف الثاني فهو هنري روبنسون Robinson ، وكتابه هو (تحرير أو نجدة الأسري الانكليز ، 1642) وقد دعا فيه الى حرب شاملة ضد الجزائريين . وقال ان أي اقتراح بالحصار سيفشل لأن القضاء على أسطول البحارة الجزائريين سيستغرق سنوات بينما هجوم بري سيجبرهم على الاعتراف بحقوق انكلترا . واصر روبنسون على ضرورة موافقة السلطان على هذا الهجوم ضد اتباعه ما دام لا يملك قوة بحرية قادرة على دعمهم . فاذا اعترض السلطان فان روبنسون مستعد لاعلان الحرب ليس على الجزائر فحسب بل على الدولة العثمانية أيضا .

لقد كان عدد الانكليز في الأسر ، بعد سنة 1634 ، قد استمر في الزيادة . وقد قدر هنري روبنسون عددهم بخمسة آلاف أسير سنة 1640 ويبدو أن هذا العدد مرتفع الى حد ما ، ولكن أضعف تقدير لهم هو ثلاثة آلاف نسمة ، وهو عدد كاف لتوليد موجات متوالية من العرائض الموجهة الى الملك والى البرلمان . وانه خلال هذه السنوات نفسها قام شارل لأول بمجهود ضخم لبناء بحرية ملكية يمكنها أن تجعل العلم الانكليزي محترما في البحر ، وكان أصحاب العرائض يلحون ، الواحد بعد الآخر ، على ان أولئك الأرقاء كانوا في أغلبهم بحارة يمكنهم أن يخدموا الملك وهم على ظهور سفنه أفضل مما يخدمونه وهم في القيود الجزائرية .

وعندما أخذ البرلمان في مناقشة قضية الأرقاء الانكليز قرر المجلس ، لاسعافهم ، تخصيص المخالفات المفروضة على الأعضاء المتخلفين عن اداء الصلاة ، وهو القرار الذي لم يأت بالطبع الا بنقود قليلة . وفي يناير 1641 – 1642 تم اقتراح برنامج أكثر أهمية : فقد فرض مجلس العموم ضريبة واحد بالمائة على الواردات والصادرات لتوفير المال لفداء الأرقاء . وقد وافق مجلس اللوردات على ذلك في الخامس من شهر ماي من نفس

(*) – جاء في كتاب (خلاصة تاريخ تونس) لحسن حسني عبد الوهاب ص 132 أن «الدوكة» نوع من النقود الاسبانية الذهبية قيمة الواحدة من العشرة الى الاثني عشر فرنكا ، (المترجم) .

السنة . أن هذا هو أول اعتراف من أي حاكم أو برلمان بأن الدراهم التي تجبيها الضرائب الملكية يمكن استعمالها فى الفداء . أما فى البلدان الأخرى فان الحمل كانت تتحمله البلديات أو الكنائس ، ومعظمه كانت تتحمله المؤسسات الخيرية .

وأول محاولة لاستعمال هذه النقود للفداء وقعت سنة 1645 عندما غادر ادمون كاسن Cassen انكلترا على ظهر سفينة محملة بالبضائع والنقود لفداء الأرقاء فى الجزائر . وكان كاسن أيضا قد تم اعتماده كقنصل . واعطى صلاحيات عقد معاهدة للسلام والأمن مع الايالة الجزائرية . ولكن سفينته ارتطمت بالأرض بالقرب من اسبانيا أثناء عاصفة واحترقت . وقد نقلت بعض النقود الى سفينة أخرى هي (الماسة) التي غرقت فى الحال بالقرب من قادس ، وأمام ذلك اعتقد البعض ان تلك كانت مشيئة الله الذي يريد أن يخبرهم بشيء ما ، ولكن كاسن عاد الى انكلترا واعد نفسه لبعثة أخرى لاسعاف الأرقاء الانكليز . وقد وصل الى الجزائر سنة 1646 ومعه نقود فداء الأرقاء ولقب قنصل . واستقبله الباشا والديوان بتشريفات واضحة وأكدوا له أن الجزائر مستعدة لعقد السلام مع انكلترا ، سلام « يدوم ما دام العالم . » ان المشاكل الواقعة بين الباشا والديوان جعلت كليهما مستعدا للتفاوض مع انكلترا ، ولا يريدان اضافة مشاكل جديدة .

تمكن كاسن من عقد معاهدة جديدة لم تكن فى الحقيقة سوى تأكيد لتلك التي عقدها السيد توماس روي منذ حوالي خمسة وعشرين سنة مضت . وبناء عليها فان السفن الانكليزية فى الجزائر ستجد استقبالا حسنا ولا يساء الى طاقمها سواء « بالاساءة اللفظية أو الفعليـة . » وحددت التعريفة الجمركية بعشرة فى المائة ، ولا يمكن مصادرة أملاك الشخص الانكليزي الذي مات فى الجزائر . كما لا يجوز لأي انكليزي أن يسترق ولا لأي سفينة انكليزية أن تؤخذ كغنيمة . ومنذ هذا الحين تتبادل السفن الحربية للأمتين التحية فى البحر . كما أن السفن الجزائرية ستجد استقبالا حسنا فى الموانيء الانكليزية . ولكن مشكل الأرقاء الانكليز فى الجزائر عندئذ كان أكثر صعوبة . فقد كانوا فى ملكيـة

الخواص ، ولذلك فان حريتهم متوقفة على شراء حقوق مالكيهم • وقد اكتشف كاسن بان عدد الأرقاء كان عاليا (Came high) ، فارسل الى انكلترا أسماء مائتين وستة وأربعين انكليزيا استطاع أن يحررهم (اكتوبر 1646) ، ولكنه اقر بانه لم يستطع أن يعيد شراء أكثر من شطر من مجموع الأرقاء •

ويبدو أن كاسن (الذي ينطق أيضا كيـون Cason وكاسون Casson) قد بقي في الجزائر الى وفاته سنة 1651 أو 1652 • وكانت هذه سنوات عاصفة في انكلترا : الحروب الأهلية ، ومحـاكمة الملك واعدامه ، وأخيرا انشاء الكومنولث وعلى راسه كرومويل Cromwell صاحب السيادة عليه • وكانت حكومة الكومنولث مدعومة بقوة من تجار لندن الذين وافقوا على قوانين الملاحة البحريـة وعلى الحـرب الانكلو ـ هولندية التي كانت تهدف الى تحطيم احتكارات الأراضي المنخفضة ، كما كان أولئك التجار مهتمين بتجارة البحر الأبيض • ذلك انه من الواضح أن تأسيس تمثيل انكليزي صلب في الموانيء التجارية بالعالم بالضرورة ينمي التجارة الانكليزيـة • وهكـذا فان القنصليـة الانكليزية في الجزائر عند وفاة كاسن كانت مؤسسة على قواعد صلبة • ولم يكن القنصل الجديد ، وهو روبير براوني Browne تابعا لشركة المشرق : فقد كان له راتب ثابت يقدر باربعمائة جنية سنويا ، بالاضافة الى النقود التي يأخذها لتقديمها « هدايا » ضرورية لخلق علاقات طيبة ، وكل ذلك كانت تدفعه خزينة الدولة • كما أن التعليمات التى تلقاها كانت أيضا أكثر مباشرة وأكثر جفاء من التعليمات التي تلقاها الذين سبقوه : اذا تعرض أي شخص أو بضاعة للاستيلاء من على سفينة انكليزية ، أو أي نوع آخر من أنواع العنف المخل بالمعاهدة ضـد أي انكليزي « فسيكون عليك أن تطالب بارجاعه » (والتأكيد على هذه الجملـة بالتسيطر تحتها موجود في الوثيقة نفسها) • فاذا لم يتحقق شيء من وراء مطالبك « فانك ستكتب الى لندن وأيضا الى الأسطول الانكليزي في البحر الأبيض حتى يمكنه أن يظهر نفسه أمام المدينة المذكورة (الجزائر) ويفعل ما قد تأتيه به التعليمات لفعله ••• »

وفي تلك اللحظة لم تكن هي التي كانت تقلق كرومويل ، ذلك ان الايالة نفسها كانت لها مشاكلها الخاصة . ولما كانت الأزمة حول دور البابا تتصاعد ، فان الجزائر لم تكن ترغب في اضافة النزاع مع أنكلترا الى مشاكلها غير ان البحارة التونسيين الذين لم تكن تمنع أنشطتهم مثل هذه الموانئ ، كانوا يستولون على الغنائم الانكليزية ويسترقون البحارة الانكليز . ونتيجة لذلك أرسل كرومويل أمير البحر روبير بليك Blake الى البحر الأبيض لمعاقبة البحارة التونسيين واجبارهم على الاعتراف بالحقوق الانكليزية ، وأن يعمل على أن تعترف الجزائر أيضا بالحقوق الانكليزية . ان أوامر كرومويل تدل على توجه جديد سيتطور في العلاقات بين ايالات الشمال الافريقي وحكام أوروبا . وكان بليك قد كلف بأنه عندما يصل أمام الجزائر يأخذ القنصل عنده على ظهر السفينة ويبحث معه حقيقة الأحوال . كما نصت الأوامر اليه انه اذا اقتضى الحال فان عليه أن يطالب بارجاع أي شخص أو أي سفينة أو بضاعة احتجزت بطريقة غير شرعية . وأي أسير قد يحرره ، عليه أن يحمله على سفنه أولا ، ثم يرسله الى بلاده بواسطة أية سفينة تجارية متوفرة عندئذ . كما منح ترخيصا بالتعاقد على « بنود السلام التي تراها مناسبة وضرورية . » وفي حالة الرفض ، فانه بامكان بليك استعمال القوة « ... ومهاجمتهم اما في البر أو في البحر ، وحاربهم ، وأقتلهم وأذبح كل الأشخاص الذين يعترضون سبيلك . » وقد اشتملت الأوامر التى تلقاها أيضا على مراقبة القوات الفرنسية والاسبانية ، بالاضافة الى مساعدة أهل البندقية في حربهم في جزيرة كريت . ولكن بليك تجاوز الجزائر وتوجه مباشرة الى تونس .

ان توقفه الأول بحلق الوادي لم ينتج عنه سوى خيبة الأمل . فقد أخر التونسيون حركته بكلمات خداعة ، ثم انه قام بزيارة ثانية لهم بعيد ذلك بقليل فوجدهم فيها « أكثر تصلبا وأكثر تشددا من ذي قبل ، مضيفين الى عنادهم كثيرا من الجسارة والاحتقار ، رافضين أي تعامل بالحسنى واللياقة . » فقد رفضوا منحه الماء وأطلقوا النار على مراكبه . وكانت مؤونة بليك لا تكفيه ، ولذلك انسحب بعيدا ليراقب الوضع من البحر ، وأرسل جزءا من أسطوله الى ايطاليا للتزود بالخبز وغيره من

المؤونة ، ولكنه لم يكن ينوي ترك الأمور كما هي . فقد كتب قائلا عن التونسيين « ان سوء أدبهم قد استقر مشاعرنا لدرجة اننا رأينا انه من الضروري لشرف الأسطول والأمة والدين ... أن نجعلهم يشعرون بنا كأعداء . » وتبرهن رسائل بليك بوضوح على انه كان رجلا من القرن السابع عشر . فقد كان يعتقد أن ارادة الله كانت فى الظاهر تبارك أعماله . ولذلك فانه عندما تجمع الأسطول ابحر به الى ميناء بورتوفرينا (*) Porto Farina حيث كان قسم كبير من سفن البحارة التونسيين راسيا فى حماية مدافع القلعة . ويخبرنا بليك بأن « الله ، الذي أنعم علينا بالنسيم العليل الذي سلط عليهم الدخان ... قد سهل مهمتنا . » وأثناء تحرك قوي للاسطول الانكليزي ، كانت تسع سفن تونسية اما أغرقت واما أحرقت ، وذلك فى مقابل أربعة وعشرين قتيلا وأربعين جريحا من الانكليز .

وقد اعترف بليك بأن بعض الشكوك قد ساورته حين رأى التأثير الكلي لهجومه . فهل كانت التعليمات التى جاء بها تسمح له بمعاقبة العناد بتلك القوة ؟ لقد كتب عن ذلك قائلا « اعترف ... انني ترددت كثيرا ... ، نظرا لغموض التعليمات ، ... الى أن غير الميزان ذلك السلوك الخشن لأولئك القراصنة . » ولكن شكوكه تبخرت تماما فى اللحظة التي وصل فيها الجزائر حيث سبقته أخبار عمليته القوية والحاسمة .

أما في الجزائر فان تعليمات بليك القاضية باستعمال القوة قد جاءت بنتائج طيبة . وقد كتب هو نفسه قائلا : « ان الباشا والديوان قد رحبوا به ... بتشريف لائق وتقدير ... ووافقوا بكل استعداد على التفاوض على تحرير الأرقاء الانكليز . » ولكن حدث له مشكل صغير : ذلك انه بينما كانت سفنه راسية أمام الجزائر سبح عدد من الأرقاء الهولنديين نحوها ثم حملهم بحارتها على ظهورها . ان هذا كان مطلقا ضد المعاهدة

(*) — يقول حسن حسني عبد الوهاب في (خلاصة تاريخ تونس) ص 143 هامش 1 ان بورتوفرينا هو غار الملح الذي هو مرسى صغير قرب بنزرت .

وادى في الحال الى احتجاجات . وكان البحارة الانكليز الذين أسروا على عدم تسليم الأرقاء المعذبين واخذوا في جمع الدراهم لفدائهم — دولارا على كل بحار — واشتروا لهم حريتهم . ويبدو أن الجزائريين كانوا راضين بهذا الحل ، لأنهم اكدوا من جديد موافقتهم على المعاهدة التي كان كاسن قد فاوض عليها منذ عدة سنوات خلت .

وفي منتصف القرن السابع عشر لم يكن كرومويل أكثر نجاحا من شارل (الأول) في السيطرة على القراصنة الانكليز ، وأصحاب السفن الخاصة ، وضباط التجارة البحرية . وقد كان السلام الانكليزي مع الهولنديين سلاما هشا ، وبعد تحالفه مع ما زاران الفرنسي ، دخل كرومويل لمدة قصيرة في حرب ضد أسبانيا . ولكن كان للجزائريين بعض الشكاوى : فالسفن الانكليزية كانت تحمل بضاعة العدو ومسافريه وترفض تسليم ذلك الى الرياس الجزائريين . وهذا ضابط انكليزي حمل الحجاج المسلمين كمسافرين على سفينته ، بما في ذلك مبعوث السلطان ، ثم باعهم الى تاجر من البندقية . وقد كتب الباشا عن ذلك (الى الحكومة الانكليزية) قائلا : « اننا متأكدون من أنهم جعلوا أرقاء وأن بضاعتهم قد قسمت . اننا نرجوكم أن تقدموا الضابط الى العدالة . » وقد ذهب الباشا الى التهديد بأن الجزائريين سيلجأون الى الثأر « لأننا لا نستطيع التخلي عن مبعوث سلطاننا المفدى » وبينما كان الحق مع الجزائريين في الاعتراض على السلوك الانكليزي ، فان الرياس لم يكونوا أيضا غرباء عن الاخلال بمواد المعاهدة . فقد كتب القنصل براوني الى الوزير ثورلو Thurloe قائلا : « ان هؤلاء الناس يلحون في المطالبة بالعدالة لأنفسهم ، ولكنهم لا يفعلون هم نحوها شيئا ... » وقد أوضح ذلك بقوله أن الجزائريين كانوا قد احتجزوا الانكليز الذين استولوا عليهم في السفن الأجنبية ، وصادروا بضائع (انكليزية) من سفينة قد تحطمت ، كما أنهم « حددوا اقامة القنصل . وأضاف الى ذلك قوله : « منذ بضعة شهور لاحظت أن معاملتهم لنا مختلفة كثيرا عما كان يجب أن تكون عليه ... » ان دخول بلبك الى البحر الأبيض لم يكن في الظاهر غير اجراء مؤقت . واذا

كان الحكام الانكليز لم يستطيعوا السيطرة على بحارتهم ، فان الجزائريين لم يكونوا مستعدين للسيطرة على رياسهم ، ولعل المشاكل الداخلية في الجزائر جعلت ذلك من المستحيل • وان الحركة التالية ستقوم بها الحكومة الجديدة في انكلترا بعد عودة الأسرة الاستوارتية Stuarts الى العرش •

ان السنوات الأخيرة في عقد 1650 — 1660 شهدت حل كثير من المشاكل التي كانت تزعج حكام أروبا منذ أكثر من قرن • فالحروب الدينية التي تولدت عن حركة اصلاح الكنيسة قد انتهت • وسلام ويستفاليا (1648) قد أنهى الحرب الألمانية ، وسلام البيريني (1659) قد حل مؤقتا النزاع بين مملكتي فرنسا وأسبانيا ، ومعاهدة أوليفيا Olivia (1660) قد وفرت السلام لمنطقة البلطيق • لقد كان حلم مازاران هو أن دبلوماسيته ستهدىء البلاد المسيحية ، وعندما تولى الملك الشاب ، لويس الرابع عشر ، مسؤولية الدولة كاملة وألقى نظرة على أروبا سنة 1661 ، فان الأمور كانت تبدو وكأن مازاران قد حقق فعلا مهمته قبل وفاته • وما دام ذلك العقد من الزمن قد انتهى أيضا بحركة (العودة) في انكلترا ، وهي الحركة التي أرجعت الاستوارتيين الى عرشهم « الشرعي » ، فانه يبدو أن الأحداث التي هزت المملكة الجزيرة (انكلترا) مدة عشرين سنة كانت أيضا قد حلت في النهاية • ان الصعوبات التي رافقت ذلك العقد (1650—1660) كانت على درجة كبيرة من الالحاح جعلت الانزعاجات التي يسببها رياس شمال افريقية اما ، ببساطة ، يقع التغاضي عنها واما يسمح لها بالاستمرار ، لأنه ، فيما يبدو ، لم يكن لها جواب مناسب • ولم يقف موقفا صلبا من بحارة شمال افريقية سوى كروموبل ، لأن أنشطة أولئك البحارة قد أقضت مضاجع تجار لندن ، ولكن هذا الموقف الصلب سيعطي نمطا جديدا للعلاقات الأروبية مع شمال أفريقية • وسيكون على الجيل اللاحق ، أي جيل لويس الرابع عشر ، وشارل الثاني ، ووليام الأورانجي أن يجدوا طرقا يحتوون بها العنف الذي سببته هذه الجماعات غير المنضبطة لتجارهم ولرعاياهم •

الفصل الحادي عشر

الايالة الجزائرية واروبا، ١٦٦٠-1688

أنتج ربع القرن الذي جاء بعد سنة 1660 تغييرات جذرية في المؤسسات السياسية والعسكرية الأروبية، وهي التغييرات التي سيكون لها على المدى البعيد تأثيرات هامة على جماعات البحارة في شمال افريقية. فنظام الملك الشاب، لويس الرابع عشر الذي تولى سلطة مملكته عند وفاة مازاران، كان ف الحقيقة استمرارا للأعمال التي قام بها الوزيران العظميان (الكاردينال ريشيليو والكاردينال مازاران) اللذان حكما فرنسا أثناء العقود الماضية. فقد كانت وزارة الحربية، ومعها الجيش النظامي الذي يتلقى أوامره من الملك والذي كان ريشيليو قد تصوره عندما أدمج مصلحة أمير البحر وشرطة فرنسا ف وزارته، قد ظهرت هي الساعد القوي للحكومة الملكية. ثم ان ظهور البحرية الفرنسية القوية قد وازته صناعة بحرية في كل من انكلترا والأراضي المنخفضة، ونعني بذلك السباق البحري الذي تولدت عنه أساطيل بحرية لم يكن في مقدور ايالات شمال افريقية أن تتسابق معها. ومن جهة أخرى فان حكام شمال افريقية لم يستطيعوا أيضا أن يطوروا بيروقراطية «عصرية»، شأنهم في ذلك شأن عجزهم عن بناء سفن حربية في حجم وقدرة القوات البحرية الأروبية. وهذا يعني أن تجارة أهم الدول الأروبية الثلاث (فرنسا ـ انكلترا ـ هولندا) ستصبح «لعبة» خطرة بالنسبة للرياس، ما عدا اذا كانت هذه الدول في حرب ضد بعضها البعض.

الفصل الحادي عشر

الإيالة الجزائرية واروبا ، 1660 - 1688

انتج ربع القرن الذي جاء بعد سنة 1660 تغييرات جذرية في المؤسسات السياسية والعسكرية الأروبية ، وهي التغييرات التي سيكون لها على المدى البعيد تأثيرات هامة على جماعات البحارة في شمال افريقية . فنظام الملك الشاب ، لويس الرابع عشر الذي تولى سلطة مملكته عند وفاة مازاران ، كان في الحقيقة استمرارا للأعمال التي قام بها الوزيران العظيمان (الكاردينال ريشيليو والكاردينال مازاران) اللذان حكما فرنسا أثناء العقود الماضية . فقد كانت وزارة الحربية ، ومعها الجيش النظامي الذي يتلقى أوامره من الملك والذي كان ريشيليو قد تصوره عندما أدمج مصلحة أمير البحر وشرطة فرنسا في وزارته ، قد ظهرت هي الساعد القوى للحكومة الملكية . ثم ان ظهور البحرية الفرنسية القوية قد وازته صناعة بحرية في كل من انكلترا والأراضي المنخفضة ، ونعني بذلك السباق البحري الذي تولدت عنه أساطيل بحرية لم يكن في مقدور ايالات شمال افريقية أن تسابق معها . ومن جهة أخرى فان حكام شمال افريقية لم يستطيعوا أيضا أن يطوروا بيروقراطية « عصرية » ، شأنهم في ذلك شأن عجزهم عن بناء سفن حربية في حجم وقدرة القوات البحرية الأروبية . وهذا يعني أن تجارة أهم الدول الأروبية الثلاث (فرنسا – انكلترا – هولندا) ستصبح « لعبة » خطرة بالنسبة للرياس ، ما عدا اذا كانت هذه الدول في حرب ضد بعضها البعض .

ولكن الجزائريين ليس لهم الا مجال ضيق للمناورة • فالاقتصاد الجزائري ، خلافا للاقتصاد التونسي القائم على تجارة شرعية معتبرة وعلى مجموعة زراعية كبيرة ، كان في معظمه معتمدا على الغنائم (البحرية) • وأمام تدهور التجارة وحركة السفن الاسبانية ، كان على الجزائر أن تكون « في حالة حرب » مع دول مسيحية أخرى لكي تعيش • وكان القناصل الأوروبيون خلال القرن السابع عشر غالبا ما لاحظوا أنه بدون دخول الجزائر في حرب مع انكلترا أو فرنسا أو الأراضي المنخفضة ، فان الجماعة (الايالة الجزائرية) لا يمكن أن يكون لها وجود • وهذه الحقيقة لم تحدث أي مشاكل خطيرة أثناء العهود العظيمة للبحارة الجزائريين ، ذلك أنه كان بامكان الجزائر أن تكون في حرب مع واحدة أو اثنتين أو حتى الثلاث من هذه الدول ، مع ضمان الامن نسبيا ، لأن الحروب والثورات الداخلية منعت الدول الأروبية من رد الفعل الفعال ، ولكن المشكل ، بعد سنة 1660 ، كان أكثر صعوبة (على الجزائر) مع مرور كل عقد من الزمان •

وكانت الدول التجارية الهامة الثلاث قد سبق أن أقامت أنماطا خاصة من السلوك نحو دولة البحارة الجزائرية • فالهولنديون ، وهم أناس واقعيون عمليون كما كانوا ، اعتقدوا أن أفضل حل هو عقد معاهدة تضمن ، كلما كان ذلك ممكنا ، لسفنهم السلامة من الهجومات حتى ولو كان ذلك يعني دفع «جزية» (اتاوة) الى « القراصنة » فقد يكون شراء رضى البحارة أقل ثمنا من محاولة حربهم • وكان قناصل انكلترا وفرنسا يرون ذلك أمرا « مخجلا » و « جبنا » و « مخلا بالشرف » والواقع أن الهولنديين كانوا يمونون الجزائريين بالمواد الحربية لمهاجمة تجارة الأمم الأخرى ، لأن الصواري والمدافع والبارود والأشرعة والرصاص كانت دائما جزءا من الاتاوة • انها « طريقة مهينة » لضمان حصانة السفن الهولندية • ولكن حتى هذا النوع من الاتاوة لم يضمن تماما للهولنديين أمن تجارتهم • فقد كانت الحكومة الهولندية تشترط أن أي سفينة هولندية في البحر الأبيض يجب أن تحمل على الأقل اثنين وستين مدفعا وطاقما لا يقل عن أربعين شخصا لتتمكن من مقاومة

القرصنة . وكانت العقوبة على عدم الوفاء بهذا الشرط هي المصادرة . وكانت معظم البحرية الجزائرية تحمل مدافع أقل .

كما ان الانكليز أيضا اعتمدوا على القوة البحرية والمعاهدات لضمان السلامة لسفنهم ، ولكن هذه المعاهدات لم تتضمن دفع « اتاوة » . حقا ان القوة البحرية الضعيفة التي أرسلها جيمس الأول للتأثير على الجزائريين في أوائل العشرينات من القرن السابع عشر لم تقم الا بدور ضئيل ، ولكن خلال الخمسينات من ذلك القرن اقنعت السفن الحربية التي أرسلها كرومويل وأمير بحر (*) كان مستعدا للدخول في الحرب ، اقنعت الجزائريين بأن انكلترا يمكن أن يكون لها حقيقة بحرية خطيرة . وكانت التجارة الانكليزية في البحر الأبيض تجري اما في سفن تجارية مسلحة تسليحا جيدا تملكها شركة المشرق ، أو في مراكب صغيرة تعيش من نقل البضائع الانكليزية وكذلك البضائع والمسافرين الأجانب من ميناء الى آخر . وكانت هذه المراكب الصغيرة ، كما لاحظ السيد جون فرنش French « تسيل دائما لعاب (بحارة) شمال افريقية ... ومن ثمة كانت باهظة الثمن على الملك ، وخسارة لرعاياه ... » ثم أضاف قوله « ونحن لم نتبعهم tryall في جرائمهم ولكننا اتبعناهم في نزاهتهم » غير أن هذه النزاهة لم تظهر الا عندما اقتنعت جماعة البحارة (الجزائريين) بأنه من الخطر الدخول في حرب ضد انكلترا .

• • •

فرنسا 1660 :

وخلال أغلب القرن والنصف الذي سبق سنة 1660 كان الفرنسيون حلفاء متسترين أو حتى مكشوفين لبحارة شمال افريقية ضد عدوهم المشترك : اسبانيا . وأثناء السنوات التي تلت عقد هنري الرابع السلام مع الملك الاسباني ، وعندما وحدت ماري دي مديتشي العرشين (الفرنسي والاسباني) بعقود الزواج ، تبخرت الحصانة التي طالما

(*) ـ يشير المؤلف الى روبير بليك ، وهو امير البحر الذي ارسله كرومويل . انظر الفصل العاشر . (المترجم) .

تمتعت بها التجارة الفرنسية في مجاهل النسيان . وكان مفاوض ماهر ، مثل نابولون ، قادرا على وضع الجسور بين الخلافات التي ازدادت بين الجزائر وفرنسا ، ولكن تأثيره لم يكد يبقى بعده . وقد كانت التجارة الفرنسية بالخصوص معرضة للخطر لأن أغلبها كان يحمل في مراكب صغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها . وهناك مشكل آخر أيضا تعاني منه ، وهو أن الضباط البحريين الفرنسيين المتوجهين الى المشرق كانوا يستعملون مالطة كأول محطة لهم للتموين وتخزين البضائع ونتيجة لذلك تسلط التجار الفرنسيون على التجارة المالطية وجعلوا الجزيرة تظهر وكأنها مستعمرة فرنسية . وقد رأينا أنه عندما تذكر الجزائريون بأن أغلبية فرسان القديس يوحنا كانوا فرنسيين ، لم يبد غير معقول أن ينظروا الى الفرنسيين على أنهم كانوا حلفاء لأعظم أعدائهم خطرا . وهكذا فان الضغط النسبي لسفن الفرنسيين وارتباطهم بمالطة جعل الجزائريين « على حق » في التساؤل حول وفاء الفرنسيين للمعاهدات . ولكي تقاوم الغارات الجزائرية ، حاولت الحكومة الفرنسية عدة مرات أن تقنع التجار بارسال سفنهم الى المشرق في جماعات ، ولكن هذه الطريقة وجدت دائما مقاومة ، لأنه اذا وصلت جميع السفن في نفس الوقت ، فان أسعار الأقمشة وغيرها من البضائع ستنخفض ، بينما أسعار المتوجات المحلية التي يرغبون في حملها الى فرنسا ستكون أعلى . ومن ثمة فانه عندما يقع الاخلال بالمعاهدات أو يشعر الرياس بأنهم أحرار في الهجوم ، فان التجارة الفرنسية كانت أفضل مورد مربح للغنائم .

وكانت كل الدول التجارية الثلاث الهامة في حالة توتر مع الجزائريين سنة 1660 . فقد كان هناك بين عشرين وخمسة وعشرين ألف رقيق في الايالة ، معظمهم كانوا أسبانا أو برتغاليين أو ايطاليين ، ولكن عدد الأرقاء الانكليز والهولنديين والفرنسيين كان يقدر بالمئات ، بل لعل بالآلاف . فليس من الغريب حينئذ أنه بمجرد « تحقيق السلام » النسبي في أروبا ، بادرت الدول التجارية لانهاء الخسارة التي كانت تعاني منها سواء بالنسبة للقوى البشرية التي تحتاجها سفنهم أو بالنسبة لراس المال الذي كان يرجع الى تجارهم وملاكي السفن عندهم .

تمتعت بها التجارة الفرنسية في مجاهل النسيان • وكان مفاوض ماهر ، مثل نابولون ، قادرا على وضع الجسور بين الخلافات التي ازدادت بين الجزائر وفرنسا ، ولكن تأثيره لم يكد يبقى بعده • وقد كانت التجارة الفرنسية بالخصوص معرضة للخطر لأن أغلبها كان يحمل في مراكب صغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها • وهناك مشكل آخر أيضا تعاني منه ، وهو أن الضباط البحريين الفرنسيين المتوجهين الى المشرق كانوا يستعملون مالطة كأول محطة لهم للتموين وتخزين البضائع ونتيجة لذلك تسلط التجار الفرنسيون على التجارة المالطية وجعلوا الجزيرة تظهر وكأنها مستعمرة فرنسية • وقد رأينا أنه عندما تذكر الجزائريون بأن أغلبية فرسان القديس يوحنا كانوا فرنسيين ، لم يبد غير معقول أن ينظروا الى الفرنسيين على أنهم كانوا حلفاء لأعظم أعدائهم خطرا • وهكذا فان الضغط النسبي لسفن الفرنسيين وارتباطهم بمالطة جعل الجزائريين « على حق » في التساؤل حول وفاء الفرنسيين للمعاهدات • ولكي تقاوم الغارات الجزائرية ، حاولت الحكومة الفرنسية عدة مرات أن تقنع التجار بارسال سفنهم الى المشرق في جماعات ، ولكن هذه الطريقة وجدت دائما مقاومة ، لأنه اذا وصلت جميع السفن في نفس الوقت ، فان أسعار الأقمشة وغيرها من البضائع ستنخفض ، بينما أسعار المنتوجات المحلية التي يرغبون في حملها الى فرنسا ستكون أعلى • ومن ثمة فانه عندما يقع الاخلال بالمعاهدات أو يشعر الرياس بأنهم أحرار في الهجوم ، فان التجارة الفرنسية كانت أفضل مورد مربح للغنائم •

وكانت كل الدول التجارية الثلاث الهامة في حالة توتر مع الجزائريين سنة 1660 • فقد كان هناك بين عشرين وخمسة وعشرين ألف رقيق في الايالة ، معظمهم كانوا أسبانا أو برتغاليين أو ايطاليين ، ولكن عدد الأرقاء الانكليز والهولنديين والفرنسيين كان يقدر بالمآت ، بل لعل بالآلاف • فليس من الغريب حينئذ أنه بمجرد « تحقيق السلام » النسبي في أوروبا ، بادرت الدول التجارية لانهاء الخسارة التي كانت تعاني منها سواء بالنسبة للقوى البشرية التي تحتاجها سفنهم أو بالنسبة لرأس المال الذي كان يرجع الى تجارهم وملاكي السفن عندهم •

قد اتجه الى شمال افريقية ، ذلك أن هذا العهد قد شهد نجاح الديوان في ابعاد باشا السلطان الى حيث لا سلطة له ، كما نجح في اعدام أي آغا حاول أن يفرض حكمه على الجماعة • وكان الفرنسيون ينظرون اليهم على أنهم scelerats (اي أناس أشرار وغدارون) • وهكذا راى كولبير أنه لا شيء يحول دون طلبه من برلمان ايكس أن يجد قانونا يحكم بعقوبة الموت على سليمان رايس ، وهو علج فرنسي ، ولا أن يأمر سيده (الملك) بقصف الجزائر بغلظة اتباعا فقط لسياسة الارهاب. ونفس هذا الملك وهذا الوزير قد يفكران في الأحوال البدنية والروحية للأرقاء الفرنسيين بشمال افريقية ، ولكنهما في نفس الوقت سيرفضان بسخرية مبادلة الأتراك الجزائريين الذين كانوا أرقاء في السفن الحربية الفرنسية ما عدا اذا كانوا طاعنين جدا في السن أو مرضى لدرجة لا يستطيعون معها تحريك مجداف •

وكانت أول مغامرة لحكومة الشاب لويس الرابع عشر نكبة ، مثلها في ذلك مثل المحاولات العديدة التي لحقتها • وكان شوفاليي بول Paul وهو فرنسي من فرسان القديس يوحنا والذي قاد الأسطول الحربي الفرنسي ، قد حذر الملك بأن الجزائريين كانوا يملكون بين اربعين وخمسين سفينة حربية تحمل بين خمسة وعشرين وأربعين مدفعا ، لكل منها « وجميعها لها أشرعة جيدة • » فقد تكون هذه السفن خطيرة جدا ، ولكن كولبير كان يعلم أيضا أن الطاعون الذي ضرب الجزائر سنة 1663 تسبب في وفاة الكثير لدرجة أن الأراضي الجزائرية «الداخلية قد أصبحت فارغة • » من السكان • ومن ثمة لم يظهر الجزائريون بمظهر الخطر • وقد قرر وزراء لويس الرابع عشر تنفيذ اقتراح مازاران بأن على فرنسا أن تحصل على ميناء قابل للاستعمال على الساحل الجزائري كميناء تجاري وكقاعدة لمراقبة البحارة المسلمين • وقد فهم هؤلاء الوزراء أن السكان البربر سيرحبون بهم ، لاشتراكهم معهم في العداء للأتراك • وعلى اثر بداية خاطئة نجح كولبير في تجميع أسطول من القواعد البحرية في البحر الأبيض والمحيط الأطلسي ، وجعل منه قوة قامت بحملة على ميناء جيجل الصغير • ومن سوء حظ الجهود الفرنسية فان القيادة كانت منقسمة وغير كفأة على الاطلاق • وقد تساءل السكان ، وهم يحملون

على الهدنة ، عن سبب نزول الفرنسيين على أرضهم ، فكان الجواب « لمهاجمة الأتراك » فأجاب البربري : « انني أستغرب كيف أن أناسا أغنياء شباعا ، مكسيين جاؤوا لينزلوا (على أرض) ليس فيها أي خير ، حيث ليس لهم شيء تستفيدون منه . اننا شبه عراة ، وقلما تجد ما تأكله ، ومع ذلك فنحن رجال حرب ... اننا لن نسالمكم . اذهبوا ... توجهوا الى بلاد أخرى حيث يمكنكم أن تجعلوا الحرب أكثر فائدة لكم . » وقد كان على الفرنسيين أن يصغوا . وبدلا من ذلك ، أنزلوا المدافع والمؤن ، ولكنهم فشلوا في اقامة الخطوط الدفاعية . وهذا التصرف أعطى الوقت للانكشارية لنقل مدافعهم وأجهزتهم من الجزائر الى جيجل . وعندما وصلوا ، فضل السكان البربر أن يحاربوا الى جانب الأتراك المسلمين بدل الانضمام الى المسيحيين ضدهم . وقد رمى الجزائريون بالفرنسيين في البحر . وجعلوهم يخسرون جميع مدافعهم (خمسة وثلاثون منها نحاسية وخمسة عشر من الحديد) ؛ وجميع حقائبهم ، بالاضافة الى حوالي أربعمائة رجل وقعوا في الأسر . تحول الكثير منهم « الى أتراك » لكي يتجنبوا المصير الأسوأ وهو الرق . وقد وصف القنصل الانكليزي ، وصفا ينم عن الفرح ، الاحتفالات التي أعقبت ذلك في الجزائر . وكان الفرنسيون في تونس تلاحقهم أصوات كمواء القطط : « جيجل ! جيجل ! » (1) ان رسائل لويس الرابع عشر الى قائديه البحريين ، شوفالي بول والدوق دي بوفور de Beaufort شهادة مفصحة عن اهتمامه بالحملة ، ولكنه بصفة خاصة لم ينتقم من الرجال الذين كانوا مسؤولين على فشل الحملة .

ولم تكن جيجل هي النزاع الوحيد بين الجنود الفرنسيين والمسلمين في تلك السنة ، لأنه عندما مشى جيش عثماني عبر الدانوب وهاجم الدولة (الامبراطورية) الألمانية ، تحرك لويس الرابع عشر كأنه شريف ألماني من الالزاس وليس ملكا لفرنسا . وأسهم بحملة لعبت دورا حاسما في ايقاع الهزيمة بالأتراك في سان غاتهارت Gotthart ولم يكن

1 — بعض المدافع الفرنسية التي تركت هناك سنة 1664 وجدها الفرنسيون بعد سنة 1830 في ملكية بعض القبائل حوالي اربعين ميلا من جيجل .

السلطان قادرا على رد الفعل ، سواء للدفاع عن أتباعه في شمال افريقية أو للثأر من التدخل الفرنسي الى جانب الحاكم (الامبراطور) الألماني . ولكن الفرنسيين كانوا يريدون الثأر لهزيمتهم في جيجل ، ولذلك ظل شوفاليي بول والدوق دي بوفور خلال السنتين التاليتين ، يجوبان البحر الأبيض ضد الجزائريين ، وقد نجحا في احراق أو اغراق ثمان أو عشر من السفن الحربية للايالة . وكان يمكن أن تنتهي الحملة البحرية بنتيجة مرضية للملك (الفرنسي) لو أن الانكليز لم يهاجموا الأراضي المنخفضة سنة 1666 ، وهو الهجوم الذي أجبر لويس الرابع عشر على اعلان الحرب على انكلترا تأييدا لحلفائه الهولنديين . ولكي يشارك في هذه الحرب أمر الأسطول الفرنسي بالبحر الأبيض بالتوجه الى الموانيء الغربية الفرنسية الواقعة على المحيط بكل سرعة . حقيقة أن الأسطول لم يصل الى هناك الا متأخرا عن المشاركة مشاركة فعالة لتأييد الهولنديين، ولكن اقلاع الأسطول من البحر الأبيض جعل هجومات أخرى ضد الجزائريين غير ممكنة . وقد اعتقد الهولنديون ، الذين أساء الانكليز استعمال قوتهم البحرية ، أن لويس الرابع عشر فشل ، عن قصد ، في دعمهم ، ولكن الشواهد تقف ضد هذا الاعتقاد .

وبينما كانت الحرب الانكليزية ــ الهولندية في عنفوانها ، مات فيليب الرابع ، ملك أسبانيا ، تاركا طفلا مريضا ، هو شارل الثاني ، كوريث له . وقد اعتقد الملك الفرنسي أن ملكته ، ماري تيريز ، وهي أكبر بنات فليب الرابع ، لها حق في نصيب من تركه والدها . وكانت دعواه في « تحويل » نصيب من الأراضي المنخفضة الاسبانية ، لم تكن تبدو صحيحة لدى كثير من الناس فيأوربا ،ولكن لويس الرابع عشر كان لهجيش جيد لدعممطالبه. فلما رفض الأسبان الاعتراف بحقوق ماري تيريز ، كانت الحرب محتمة. ويمكن للجزائريين أن ينتظروا العقاب . فقد أرسل لويس الرابع عشر السيد تروبير Trubert الى الجزائر وأعطاه تعليمات بأن يعقد معاهدة جديدة تؤكد ما جاء في المعاهدات السابقة ويضيف اليها شرطا وهو أن يأتي جزائريان برتبة عالية للعيش في مرسيليا كرهائن عن

القنصل الفرنسي وغيره ممن يعيشون في الجزائر . وأكد ترويير الى حكام الايالة بأن الملك الفرنسي سيفي بالتزامات المعاهدة وانه يتوقع من الجزائريين أن يحترموها بدقة . وقد تضمنت التعليمة الملكية الترخيص له بمنح « هدايا » الى « الناس الذين لا يتبعون الا مصالحهم الذاتية » رشوة لهم على اعلان الجزائر الحرب على انكلترا . وبعد التعاقد بشأن هذه المعاهدة ، تلقى ترويير الأوامر بأن يحاول التأثير على ملك تافيلالت ، وهو حاكم مغربي على الأراضي الداخلية من طنجة (*) ، لينضم الى فرنسا في الهجوم على هذا المرسى (أي طنجة) . وباستطاعة ترويير أن يقدم الى هذا « الملك » ما قدره مائة ألف فرنك اذا رضي بالهجوم برا عندما يحاصر الفرنسيون طنجة من البحر . وقد نجح ترويير في توقيع المعاهدة مع الجزائر ولكن مقترحه بالهجوم على طنجة تبخر مع حلم سياسي آخر من أحلام ذلك العهد .

ولكن معاهدة سنة 1666 لم تقض على الصعوبات ، ان هذا هو العهد الذي كان فيه كولبير يبذل قصارى جهده في بناء بحرية فرنسية . فعندما تولى ادارة الشؤون البحرية سنة 1661 ، كانت تتألف من ثلاثين سفينة حربية من جميع الأصناف ، ولما مات بعد عشرين سنة ، كانت تتألف من ست وسبعين سفينة ، منها اثنتان وثلاثون من السفن الحربية الكبيرة (غاليات) . وهذا الأسطول الحربي هو الذي تسبب في صعوبات مع الجزائر . فقد سخر الناس المحكوم عليهم للعمل كجدافين ولكنهم كانوا ضعافا ، ذلك لأنهم كانوا يفتقرون الى القوة البدنية والى معرفة البحر . ولم يكن يوجد من الناس الأحرار الراغبين في العمل بالمجاديف الا عدد غير كاف ولذلك كان على الأسطول الحربي أن يعتمد على الأرقاء . ومنذ سنة 1662 ، وجدنا كولبير والملك يأمران قواد البحرية الفرنسية بالنزول على ساحل الشمال الافريقي واحتجاز الأرقاء (المسلمين) ، وعندما لم تأت هذه العملية بما فيه الكفاية من الرجال ، قام الفرنسيون بشراء الأرقاء من أسواق مالطة وفلورنس . ومعظم هؤلاء الرجال كانوا

(*) — هذا تعبير غامض من المؤلف لان تافيلالت تقع بعيدة من طنجة ، في الجنوب الشرقي من المغرب الاقصى . (المترجم) .

جزائريين أو أتراكا ، وكثير منهم كان لهم أصدقاء وأقارب في الجزائر أو كانوا أعضاء في الفرقة الانكشارية الجزائرية . وقد قاموا بارسال الرسائل الى بلادهم مترجين الايالة أن تجد وسيلة لخلاصهم . وكانت معاهدة سنة 1666 قد نصت على اعادة هؤلاء الجزائريين والأتراك الذين كبا بهم الحظ في مقابل المبادلة بالأرقاء الفرنسيين . ولكن ضباط الأسطول الحربي كانوا ـ كالعادة ـ غير مستعدين لرؤية الخلل في صفوف جدافيهم . فعندما تتعلم فرقة من الأرقاء كيف تجدف صفا واحدا ، فانه يصبح من المحتم المحافظة على الفرقة مكتملة . ومن نتائج ذلك أنه عندما أرجع الفرنسيون من جديد « الجزائريين والأتراك » ، فان الأمور سارت ـ كالعادة أيضا ـ وهي ارجاع الطاعنين منهم في السن والعجزة والمرضى فقط . أما الأرقاء القادرون بدنيا فكانوا ، عندما تجمع الدراهم لفدائهم ، « غير موجودين » . ان هذه الممارسة قد تسببت في صعوبات جديدة بين الجزائر وفرنسا ، ثم ان رأي الملك الامتعاضي ، وكذلك رأي وزرائه ، لم يساعد على تذليل هذه الصعوبات .

انكلترا ، 1660 ـ 1688 :

وكذلك كان المملكة الانكليزية مشاكل على ساحل شمال افريقية بعد سنة 1660 . فعندما أعيد شارل الثاني الى « عرش أجداده » كانت هناك مجموعة من القضايا التي تحتاج الى حل . كان هناك عدة مئات من البحارة الانكليز في الرق ، وكانت الدراهم التي جمعت من الواردات لفداء هؤلاء المعذبين قد صرفت في أغراض أخرى . وهناك أزمة أخرى تطورت حينما وقع اللورد انشكوين Enchequin وكل حاشيته ، بما في ذلك ولده ، في أسر الجزائريين وبيعوا بيعا . وكان انشكوين قد شارك الملك في المنفى وصعد الى رتبة عالية في الجيش الفرنسي . وما دام صديقا للملك وكان يحتاج اليه في البلاد العسكرية الانكليزية ، فان اطلاق سراحه كان هدفا ملحا . وقد أرسل شارل رسالة ودية الى حكام الجزائر قائلا فيها : « منذ أعاده الله الى منصبه الشرعي » كان يأمل في عقد معاهدة مع الجزائر . وقد رأينا أنه كان قد عين روبير

براوني كقنصل وأمر سفيره لدى الباب العالي ، اللـورد وينشيلسي Winchelsea (أو اينشيلسي Inchelsea) لكي يفاوض على معاهدة تعيد شروط المعاهدات الانكليزية السابقة مع الجزائر وتضيف عدة شروط جديدة .

ويدل وصف اللورد وينشيلسي للمفاوضات على أن التعامل مع الجزائر في ذلك الوقت لم يكن أمرا سهلا . فاجتماع الديوان مع المفاوضين الانكليز كان تجربة لا تكاد تصدق . فقد كتب عنها قائلا : « انها طريقة مضحكة في المناقشة ... لا نظير لها في جميع أنحاء العالم . ولا يمكن لهذا الشكل من المداولة أن ينتج عنه أي نتائج ناضجة أو دائمة . » « ان هؤلاء البرابرة يترنمون » بقراراتهم بأن يعلن الآغا : « هل نحن راغبون في فتح المفاوضات ؟ » فيجيبه الديوان كله : « نعم، نحن راغبون . » ولكي يحصل السفير على معاهدة شبيهة بالاتفاقات الانكليزية الجزائرية السابقة ، دفع رشوة بخمسين جنيها ، ومع ذلك فلم يكن له ثقة في هذه المعاهدة . فقد فهم الملك بأن الحرب وحدها هي التي ستجبر الجزائريين على الانضباط وهذه الحرب ، كما اعتقد السفير، ستكون سهلة ما دام أسطول الجزائريين لا يملك الا قوة نارية منخفضة وأن تحصينات المدينة كانت ضعيفة .

وكان تشاؤم السفير قائما على أساس صحيح . فقد كان الرياس يصرون على حقهم في الصعود على أية سفينة لاكتشاف أشخاص وبضائع « العدو . » وقد توسعوا في مطالبهم فأضافوا حقهم في السماح لهم باستعمال العنف ضد طاقم السفينة للحصول على المعلومات . وقد احتج القنصل براوني قائلا : ان الضباط الانكليز أشاروا الى أن عليهم أن يحملوا الأشخاص والبضائع الاسبانية ليجعلوا رحلتهم مفيدة ، واذا لم يضمنوا الامن فان السفر سيتوقف . وعندما لم تحصل أية ترضية لاحتجاج القنصل ، فان التدخل المسلح كان يبدو هو الأمل الوحيد لحل القضية . كان الأسطول الانكليزي يستعد للتوجه الى منطقة البحر الأبيض ليأتي بالأميرة البرتغالية التي ستصبح عروسة شارل الثاني . وقد توقف الأسطول بالجزائر وفشل في الحصول على أية ترضية فقصف

المدينة بالقنابل . ولكن الأسطول لم يتسبب الا في أضرار بسيطة على نقيض توقعات وبنيلسي المتفائلة . غير أنه بعد انصراف الأسطول الانكليزي بقليل حطمت عاصفة هوجاء معظم السفن الجزائرية الممتازة واضرت بالرصيف البحري (المول) . فكان أن حققت هذه العاصفة ما عجز عنه الأسطول الانكليزي . وقد أصبح الجزائريون الآن متخوفين من القوة البحرية الانكليزية فوقعوا معاهدة جديدة (سنة 1662) استجابت لمعظم الشروط الانكليزية . فقد كانوا مستعدين لاحترام المعاهدة طالما كان أسطول البحارة (الرياس) ضعيفا .

ان المعاهدة الجديدة خلقت نظام مرور وافق الجزائريون على احترامه، وهو يحدد باثنين عدد الرجال الذين يصعدون على ظهور السفن الانكليزية لتفتيش قوائم ركابها وبضائعها . كما حاولت المعاهدة أن تنظم اعادة شراء الأرقاء الانكليز . ولكن اذا صدقنا القنصل الانكليزي براوني ، فان « هؤلاء الناس » كانوا عنيدين ، وسرعان ما واجهت المعاهدة صعوبات . فقد كتب براوني قائلا : « انهم يستولون على الغنائم كما يشاؤون ، ويسيؤون معاملة قوادنا وبحارتنا ليجعلوهم يعترفون . » وهم يدعون أن هناك قانونا للشحن (بوليصة الشحن) مكتوبا بالايطالية ، معناه « بضائع العدو » ، وهم لا يحسنون قراءة جوازات السفر . « ولا يعتقدون في أي شيء آخر سوى مصالحهم . » وهو يعترف بأنه كان يوجد بعض الناس « من النوع الفاضل » الذين يخجلون من هذه « الطرق المزرية » ، وان الآغا قد يرغب في فعل شيء آخر . ولكن الآغا أصبح مريضا مرضا خطيرا ، ومات القنصل براوني بالطاعون . وقد اعتذر في احدى رسائله الأخيرة عن ملء تقاريره بالشكاوي — « فليس هناك الا القليل الذي يمكن الحديث عنه من هؤلاء الأوباش ... » .

ولم يمض وقت طويل حتى لم يكن براوني وحده هو الذي يشكو . فقد أهدت عروس شارل الجديدة ميناء طنجة على انه صداقها . ولا يمكن تموين هذا الميناء من البر ، وقد كان بعيدا عن أنكلترا . ولذلك فان معظم تموينه واحتياجاته كانت تجيئه من اسبانيا عبر مضيق جبل طارق .

وهذا النقل كان يتم فى سفن صغيرة تحمل علم الملك الانكليزي ، ولها رخصة من حاكم طنجة ، ولكن جميع البحارة كانوا يتكلمون الاسبانية ، وكانوا حقا اسبانا ، ولكنهم كانوا رعايا شارل الثاني ، مع أنكلترا . بينما البحارة الجزائريون قد نظروا الى هذه السفن على انها هدفهم المفضل وان طاقمها مرشح للرق . ومن الطبيعي أن يحتج حاكم طنجة . وكان للجزائريين على الأقل « احتجاج مضاد » واحد ، وذلك عندما أرسى ضابط بحرية أنكليزي فى طنجة ومعه جماعة من المسافرين الاتراك والجزائريين ، فاذا به يجبرهم على العمل وذلك بجعلهم يشحذون الحجارة . ولم تكن الحكومة الانكليزية مهتمة بهذا الحادث .

وحتى قبل وفاة براوني كان الانكليز قد قرروا العمل بحسم . فقد كانت المؤسسة البحرية الجزائرية ما تزال ضعيفة ، وكانت معظم فوهات مدافعها من الحجم الصغير . بل ان سفن الجزائر الحربية الثلاث لم تدخل البحر خلال صيف 1663 . وقد أرسل شارل رسالة الى الباشا يخبره فيها ان السيد جون لوسون Lawson متوجه الى الجزائر ليحصل على ترضيات نتيجة الاخلال بالمعاهدة . ولكي يطمئن شارل الرأي العام الانكليزي بأن هذه البعثة كانت فى مكانها ، أصدر اعلانا عاما قائلا بأنه مرسل قوة بحرية الى البحر الأبيض ، ذات مصاريف باهظة ، لحماية الأجانب المسافرين على السفن الانكليزية لأنه « سيكون من العار الكبير ان الاشخاص الذين يمنحهم الضابط الانكليزي حمايته ... يجب تسليمهم الى أيدي أعدائهم . »

وقد وصل أمير البحر لوسون الى الجزائر سنة 1664 ، ومعه نسخة من معاهدة سنة 1662 ، التي كان السلطان العثماني قد صادق عليها . وفى الحال أطلق الجزائريون ثماني سفن أنكليزية (كانت محتجزة) ، ولكن لوسون أصبح مقتنعا بأنه « لا أمل فى عقد السلام معهم الى أن يشاء الله بجعلهم يشعرون بنوع من الوخز ، ولكن ذلك سيكون أسوأ من الحرب نفسها . » ولم يستطع لوسون أن يبقى ليرى ماذا سيحدث ، لأن الحرب الانكليزية ـ الهولندية التي اندلعت تتطلب منه الحضور فى المياه الاطلنطية ولكن الضابط توماس ألان Allen تولى القيادة

واستمر في المفاوضات . وبعد تصادم بحري قصير وقوي مع الاسطول الانكليزي ، وقع الجزائريون على معاهدة وافقوا فيها على وقف « التدخل » مع المسافرين على السفن الانكليزية وأن يحترموا بنود معاهدة سنة 1662. وقبل أن يعود ألان الى أنكلترا ترك الضابط نيقولا باركر Parker ليتولى مكان براوني ، كقنصل . وكان ألان يعتقد ان المعاهدة ستضمن عهدا من السلام .

كانت معاهدة توماس ألان كتبت سنة 1665 ، ولكن الجزائريين جددوا معاهدتهم مع فرنسا في السنة الموالية . وقد لاحظ القنصل الانكليزي الجديد ، جون وارد Ward بأن عاصفة سنة 1662 ، والطاعون ، والخسائر التي كبدها لهم الفرنسيون منذ 1665 — كلها أضعفت البحرية الجزائرية بشدة ، وجعلت الديوان يتصرف معقولا . ومع ذلك فانهم (الجزائريين) بحلول سنة 1667 كانوا يبنون أسطولا جديدا : ست سفن من نوع الفرقاطة ذات قدرة تبلغ الى أربع وأربعين مدفعا ستكون جاهزة للاستعمال سنة 1668 . وكان القنصل وارد متأكدا من أنه عندما تخرج هذه السفن من ورشاتها ، ربما تعلن الجزائر الحرب اما على فرنسا واما على أنكلترا ، لأن الغنائم المتوفرة كانت قليلة جدا . وكان الرياس يلتقون في كل بحر بالسفن الانكليزية والفرنسية ، ولكنهم يجدونها محمية بمعاهدة . فاستولوا على بعض السفن الهولاندية ، وحتى « تلك التي كان لا خوف منها كالسفن الفليمينغية Fleming الآتية الى هذه البحار ... لتدفع حسابات سابقة . » وقد أوضح وارد بأنه اذا تحقق السلام مع الهولنديين ، فان الجزائر بالتأكيد ستعلن الحرب اما على أنكلترا واما على فرنسا . انه لا يمكنها أن تبقى في سلام مع كل الدول التجارية الثلاث الكبرى .

وكان تورط الفرنسيين في الحرب المعروفة بحرب القسمة devolution سنة 1667 — 1668 قد شل مؤقتا قدرة الفرنسيين على التحرك بفعالية في البحر الأبيض . وهذا الأمر ، بالاضافة الى النزاع حول ارجاع الاتراك والجزائريين (المسترقين) في السفن الحربية الفرنسية ، قد اقنعت القنصل الانكليزي بأن الجزائر ستعلن قريبا الحرب على فرنسا . ولكن لويس

الرابع عشر عرف كيف يخلص نفسه من الوضع الخطير الذي خلقه ما يعرف بالحلف الثلاثي (أنكلترا ـ الاراضي المنخفضة ـ السويد) ، وهو الحلف الذي عرض الوساطة ولكنه هدد بالتدخل . ذلك ان معاهدة ايكس لاشبيل قد انهت الحرب وحررت القوات الفرنسية وسمحت للويس ان يرسل بأسطول الى الجزائر ليطلب التأكيد على معاهدة سنة 1666 . ورغم ذلك فان القنصل الانكليزي كان على حق : فالجزائر لا تستطيع أن تبقى في سلام مع كل من أنكلترا وفرنسا . ومع شيء من الالحاح من قبل القنصل الفرنسي والتجار الفرنسيين في الحصن ، بدأ الرياس بالتدخل في حركة السفن الانكليزية ، ولا سيما مع تلك السفن التي تحمل الحبوب والزيت والفواكه وغيرها من المواد الغذائية من اسبانيا الى طنجة . ثم ان الانتصار في جزيرة كريت قد حرر السفن الجزائرية الجديدة التي كانت قد أرسلت الى هناك لمساعدة الأسطول العثماني ، مما أدى الى توقيف السفن الانكليزية وتفتيشها في كثير من المناسبات . وقد قررت الحكومة الانكليزية في لندن ، ان استعراضا بحريا يجب ان يكون كافيا لجعل الجزائريين يعترفون بالحقوق الانكليزية . ولكن سرعان ما تفطن الانكليز ان أنكلترا كانت بعيدة جدا عن الجزائر . لقد كان يمكن للفرنسيين ، بقطع قليلة من السفن الحربية ، أن يؤثروا على الداي والديوان ، لأن فرنسا والأسطول الفرنسي كانا يوجدان على الضفة الأخرى فقط من البحر . أما أنكلترا فكانت تحتاج الى قوة أعظم لتشكل تهديدا .

وفي آخر صيف سنة 1668 ، وصل السيد توماس آلان الى الجزائر على رأس قسم صغير من الأسطول ليطالب بالترضيات . وقد كتب عن ذلك : « انني آمل أن أكون قادرا خلال مدة قصيرة ، على اعطاء بعض الاخبار الجيدة عن هؤلاء الغدارين الذين لا يعرفون الخجل (والذين) ، بالرغم من انهم لا يوفون بالوعد ... فانهم يقرون بأن علينا أن نحتفظ نحن بوعدنا ... » ولكنه لم يكن لديه سوى قسم صغير من الأسطول لا يؤثر ، ثم ان البنادقة قد استسلموا في جزيرة كريت ، وكان أمير البحر الفرنسي ، بوفور Beaufort قد قتل ، وكانت راية الاسلام عالية .

فعندما تكلم الآن وواحد من ضباطه فى الديوان ، أصر الآغا على انهما « كانا سكرانين ، كما تدل على ذلك طريقة حديثهما • » وردد جميع أعضاء الديوان الشكاوى الجزائرية ضد أنكلترا • فلم يصغوا الى أقوال المدعي الانكليزي ، بل طلبوا تعيين قنصل أنكليزي يمكن التفاهم معه • ثم أرسلوا شخصا يدعى محمدا ، وهو علج كان سابقا قسيسا ، الى سفينة الان حاملا رسالة بلغة لاتينية جيدة ، يسردون فيها « شكاواهم • » وعندما أشار توماس الان الى أن هذه الشكاوى جميعها « مختلقة » (whole cloth) وافقه محمد على ذلك • فقد تم اعدادها فقط لمنع المطالب الانكليزيـة من الجزائر •

وحين أصبح واضحا للضباط الانكليز انهم لن يحصلوا على طائل ، عزموا على ارسال السفن النارية الى الميناء لحرق الاسطول الجزائري الذي كان راسيا هناك • وقد فشل المشروع لعدم وجود الرياح المواتية ، ولكن الجزائريين تفطنوا الى الخطة وادعوا فى الحال انهم على استعداد للمفاوضات • ووافقوا على اعادة العمل بمعاهدة سنة 1662 واضافة بعض المواد اليها • غير أنه لم يكد ألان يغادر الميناء حتـى أوقفت السفينـة الانكليزية (ويليام أوف لندن) من قبل السفينة الجزائرية (شجـرة البرتقال) : فبيع أربعون مسافرا اسبانيا رقيقا ، وصودرت جميع بضائعها ، حتى تلك التي تعود الى الطاقم • وبحلول أبريل سنة 1669 كان لدى وارد مجموعة من الانتهاكات المشابهة • ومن الواضح أن قطعة بحريـة صغيرة ليست كافية للتأثير على الجزائريين •

واذن فهي الحرب • فقد أرسلت القيادة البحرية بلندن الأوامر باحصاء القوات البحرية الجزائرية • فكان الاحصاء أن لدى الجزائر خمسا وعشرين سفينة حربية متوفرة • وهي تحمل بين ستة عشر وأربع وأربعين مدفعا ، ومجموع الطاقة النارية للقوات البحرية الجزائرية سبعمـائة وثمـان وأربعين مدفعا ، معظمها من العيار الصغير • وقد تألفت ارمادة (أسطول) توماس ألان الجديدة من ثلاث وعشرين سفينة معظمها من الدرجة الثالثة والرابعة (كانت سفن الدرجة الثالثة تحمل من أربعين الى خمسين مدفعا) مع طاقة نارية أعظم بكثير من طاقة البحرية الجزائرية مضافا اليها المدافع

الموضوعة على الرصيف البحري • (المول) • وبالاضافة الى ذلك كانت الارمادة المذكورة تضم مجموعة من السفن النارية وسفن الكتش (ketches) وسفن التموين • ومنذ أكثر بقليل من نصف قرن فقط كان جيمس الاول قد أرسل مانسيل الى الجزائر ليقوم بأول استعراض بحري انلكيزي أمام الجزائر ، ولكن نتيجة تلك الحملة كانت عملية يرثى لها ، أما هذه الارمادة فقد كانت أفضل تحضيرا من سابقتها ، لتفرض ارادتها •

وكانت تعليمات توماس الان قد كتبها جيمس ، دوق أوف يورك york • وكانت التعليمات تقوم على « التغلب بالقوة » على أي سفينة جزائرية قد تلقاها في الطريق الى الجزائر • وعندما يصل الى المدينة فعليه أن يطلب اطلاق صراح الاسبان ، بالاضافة الى الانكليز ، الذين أسروا على السفن الانكليزية ، وكذلك ارجاع جميع البضائع المصادرة • وأخيرا تجب معاقبة الرياس المذنبين • فاذا وافق الجزائريون على ذلك ، فان توماس الان يمكنه تجديد المعاهدة ، مع التأكيد لهم (للجزائريين) بأن الضباط الانكليز لن يحملوا للبيع أي جزائري وا تركي اذا كان من الأرقاء • فاذا لم يتوصل توماس الان الى أي اتفاق ، فانه بامكانه أن يهاجم ويغرق سفن الجزائريين في الرصيف البحري (المول) وأية سفن أخرى في المرسى • ان أوامر جيمس (دوق يورك) ، كانت قوية بالمقارنة مع الأوامر المحتشمة التي كان جده ، جيمس الأول ، قد أصدرها لمانسيل •

وصل توماس الان الى الجزائر في أول سبتمبر سنة 1669 ، وقد حيا المدينة ، وجاءته سفينة من الرصيف البحري (المول) ، ولكنه لم يرسل رسالته الى الرصيف ، لأنه كان يأمل أن يحرق الأسطول الجزائري تلك الليلة • فليس هناك ضابط من القرن السابع عشر يحتكر العنف • ولكن الرياح لم تكن مواتية ، ولذلك فانه أرسل في اليوم التالي مطالبه بارجاع الانكليز والاسبان الذين أسروا من على سفن انكليزية • كما أنه أخذ في ايقاف جميع السفن الداخلة الى الجزائر واحتجز طاقمها وركابها • وعندما كان الجواب الجزائري على مطالبه غير مرضي ، قام باحراق سفينة جزائرية حربية احتجزت مؤخرا ، وهي ذات أربع وعشرين مدفعا • ثم عرض تبادل

المساجين ولكن الجواب كان من جديد غير مرضي ، وهكـذا أصبحت الجزائر وأنكلترا فى حالة حرب (2) •

وقام الجزائريون هذه المرة فقط باحتجاز القنصل الانكليزي فى داره ولم يرموا به فى السجن « لأن ملكك والحاكم الرئيسي صديق لي ، » كما روى ذلك القنصل وارد نفسه ولكن الجزائريين أعلنوا انهم غير خائفين من الانكليز ، فسفنهم كانت أسرع ، كما أنهم كانوا متأكدين من أن أنكلترا غير مستعدة أن تحارب حربا غير حاسمة • وقد أبحر أسطول توماس ألان دون معاهدة ، غير أنه رجع فى الربيع التالي على رأس عشر سفن حربية • وانضم الى أمير البحر الهولندي ، فان غنت Van Ghent لمطاردة البحارة الجزائريين • ودارت الحرب ضد الجزائر : ففي شهر أغسطس أغرق الانكليز أكبر سفينة للتجارة ، وفى شهر سبتمبر استطاعت القوات البحرية الانكلو ـ هولندية أن تدخل فى معركة قرب راس سباريل Sparrel وان تغرق أو تحرق أثناءها سبعا من أكبر السفن الجزائرية ، بما فى ذلك أربع ذات أربعة وأربعين مدفعا • وخسر الجزائريون ألفين ومائتي رجل ، وعددا من أبرز قوادهم المهرة • وقد جاء توماس الان بهذه الأخبار الى الجزائر • فاقر الحكام بأن الأخبار يجب أن تكون حقيقية لأن الأسطول كان قد تأخر طويلا عن ميعاده ، ولكن الديوان أمر بعقوبة الموت لكل من يقترح انهاء الحرب • وكان هناك خمس سفن جديدة فى الورشات تكاد تكون جاهزة للابحار ، وكان الجزائريون على يقين من أن على توماس الان أن يغادر محطته لأن فصل الشتاء يقترب وهو ما فعله حقا •

ولكن الانكليز رجعوا فى السنة الموالية • ففي ربيع سنة 1671 وصل السيد ادوارد سبراغ Spragg أمام بجاية حيث وجد سبعا من أحسن

---

2 ـ احد الاسبان الذين كانوا في ايدي الجزائريين هو دوق لورنزو سانتس دي بيدرو de Pedro ، وهو شخصية هامة ونبيل من كبار الاغنياء ، وعندما افتداه اصدقاؤه بثلاثين الف قطعة من نوع ثمانية ، كان توماس الان منزعجا جدا ما دام هو كان « يقوم بالحرب دواليك ، بصفة خاصة من اجلهم » ، انظر : Pro. Ind. 13395 f. 573

السفن الجزائرية راسية خلف كتلة خشبية boom محصنة . وقد عرف ضابطان شابان كيف يشقان تلك الكتلة Cut the boom بحيث تستطيع السفن النارية (الانكليزية) الدخول الى الميناء . فكان الهجوم ناجحا كل النجاح : فقد تحطمت سبع سفن تماما ، بما في ذلك ثلاث عمرها أقل من سنة . وسبح أحد الأرقاء الهولنديين الى الأسطول ، وأخبر أن ثلاثة آلاف ومائة رجل قد قتل ، وان جميع صناديق معدات الجراحة قد أحرقت عن آخرها ، ولذلك فان كثيرا آخرين ربما يموتون ، لعدم وجود الأدوية ، من حروقهم وجروحهم (+) . وقد فقد سبراغ سبعة عشر قتيلا وواحدا وأربعين جريحا . وعندما وصلت هذه الأخبار الى الجزائر حدثت فيها ثورة . فالآغا قتل ، وبدأ نظام جديد ، تحت رعاية الرياس ، بتنصيب أول داي .

ان الثورة في الجزائر قد جاءت الى السلطة برايس غني يحمل لقب الداي مع ضمانات بأن في امكانه انتزاع واحترام وطاعة المدينة . وكان أول عمل قام به هو دعوة الانكليز للتفاوض حول معاهدة جديدة . وقد أصر سبراغ على تثبيت النصوص الواردة في المعاهدات السابقة مع اضافة مواد تؤكدة حق فداء الأرقاء الانكليز بثمن البيع الأصلي ، بالاضافة الى ضمانات أقوى بالنسبة لحركة النقل بين طنجة واسبانيا . ولكنه لم يستطع أن يبقى أمام الجزائر مدة طويلة ، لأن شارل الثاني استدعاه ليكون في مياه القنال الانكليزي (المانش) تحضيرا للهجوم الانكلو ــ فرنسي المشترك ضد الأراضي المنخفضة . وقد ترك وراءه القنصل جون وارد ، ليكمل بقية التفاصيل . وكانت هذه هي القاعدة العامة في ذلك العهد : النزاع في أروبا يأخذ دائما الأسبقية على أية حركة على الساحل المغربي (**) ، سواء كان الأمر يتعلق بمعاقبة مجموعات البحارة الأتراك أو بالتفاوض معهم .

(*) ــ من الغريب أن المؤلف يسوق هذا الخبر دون أن يعلق عليه . (المترجم) .

(**) كذا يذكره المؤلف (المغربي) ، وأحيانا يسميه ساحل الشمال الافريقي ، وأحيانا البرباري Barbary . (المترجم) .

ان معاهدة ايكس لاشابيل سنة 1688 قد انهت حـرب القسمة Devolution ، وقد رأينا أنها أعطت شارل الثاني حرية الحركة وارسال أسطوله الى البحر الأبيض لمعاقبة الجزائريين . ونفس المعاهدة أعطت للويس الرابع عشر حرية النظر في الأخذ بالثأر لهزيمة الفرنسيين بجيجل . ويكاد يكون الوقت الذي جاء فيه توماس الان بقطع الأسطول الانكليزي الى البحر الأبيض هو نفس الوقت الذي أمر فيه لـويس الرابع عشر السيد دي مارتيل Martel بالتوجه الى البحر واحراق سفن البحارة في موانيء طرابلس وتونس والجزائر . وقد كتب كولبير قائلا : « ان الملك يتوقع منك أن لا تعود الا ببعض التحرك القوي الذي سيجعل هؤلاء البرابرة يشعـرون بالعقـاب الذي استحقوه لعـدم وفائهم بالمعاهدات ... » ورغم ذلك فان الأسطول (الفرنسي) لم يبحر الا خلال الربيع التالي . وقد أضاف كولبير قائلا « انني سأكون سعيدا جدا أن أنقل الى الملك أخبارا عن بعض التحركات القوية ... مثل احراق السفن ... والنزول على الأرض ... والاستيلاء على احدى السفن في البحر ... » ولكنه لم يتصل بمثل هذه « الأخبار السارة . » وفي سنة 1671 كان جان ديستري d'Estrees هو قائد الأسطول الفرنسي . فكتب كولبير له أيضا : « ان الملك سيكون مسرورا اذا ما حاولت شيئا معتبرا ضد الجزائر . » ولكن أمير البحر الانكليزي ، سبراغ ، هو الذي أحرق الأسطول الجزائري . وقد كتب لويس الرابع عشر عن ذلك : « انني قلق من سماع الحركة البحرية الانكليزية بينما لم يقم الأسطول الفرنسي الا بالقليل . » ولكن في تلك اللحظة كانت المملكة الفرنسية مركزة ثروتها وقوتها من أجل « الحرب الخـاطفة » الضخمـة ضد الهولنديين . ولا يمكن للبحرية أن تستعمل ضد الجزائر ، لأن هناك حربا طويلة المدى ستستنفد الثروات والطاقة الفرنسية من 1672 الى 1679 .

كانت الجهود البحرية الفرنسية والانكليزية بين سلام ايكس لا شبيل واندلاع الحرب الهولندية تمثل نذور المستقبل . فبعد سنة 1665 أخذ انشاء الأساطيل البحرية المتنافسة في انكلترا وفرنسا والأراضي المنخفضة يمثل أول سباق بحري حقيقي هام في العصر الحديث . وخلال السنوات التالية نمت أساطيل الدول الثلاث بالباع والذراع ، ليس فقط من حيث

اعدادها ولكن أيضا من حيث احجامها • ففي سنة 1650 كانت السفينة ذات الأربعين مدفعا تعتبر سلاحا قويا ، ولكن سفن سنوات الثمانين (من القرن السابع عشر) ذات المائة والعشرة مدافع — وهي عبارة عن قلعة عائمة — قد جعلت سفن سنوات الخمسين فى الدرجة الثالثة • ولا يمكن لدولة صغيرة مثل ايالة الجزائر أن تطمح الى بناء مثل هذه السفن ولا أن تطمح الى الوقوف ضد هجوم مركز من قبل الدول البحرية • غير أن الوضع لم يكن فقط وضع دولة صغيرة من البحارة فى مقابل الدول البحرية (الكبيرة) ، فخلال هذه السنوات (منذ 1665) كانت الدول البحرية تتنافس ضد بعضها البعض • وقد حول الملك الانكليزي والملك الفرنسي قواتهما البحرية سنة 1672 ضد الهولنديين • ولم يكن لهما سفن فائضة يعاقبان بها البحارة الجزائريين • ولم يحن بعد اليوم الذي تستطيع فيه دولة بحرية ملكية ضمان استقرار البحار بنفس الطريقة التي كانت فيها الجيوش الملكية الصاعدة تعمل على تأمين الاستقرار داخل المملكة (1) •

لقد خلقت المعاهدة التي أبرمها أمير البحر ، سبراغ ، مشاكل • فقد نصت على فدية الأرقاء الانكليز بسعر البيع الأصلي ، ولكن فى الحقيقة لم يكن يوجد سوى d 4416ر4 من الجنيهات فى غرفة (برلمان ؟) لندن للفداء ، بينما هناك مائتان وثلاثة وثمانون رقيقا يقدرون بـ d 6 245ر369ر22 من الجنيهات ، وكانوا مستعدين للفداء ، رغم ان هذا الرقم لا يشمل جميع الأرقاء الانكليز فى الجزائر • ولكن المعاهدة « جمدت » أسعار هؤلاء الارقاء : فمالكوهم لا يستطيعون بيعهم ، ولا يوجد لدى الحكومة الانكليزية الا حظ ضئيل لتوفير الدراهم اللازمة لفدائهم • وقد حدثت مظاهرات (فى الجزائر) من قبل المحتجين ، وقتل القنصل الانكليزي وارد • وكاد خلفه ، القنصل مارتان Martin ، أن يلقى نفس المصير ولكنه بطريقة ما عرف كيف يستعطف (Shamed) الداي

---

1 — أشرت فى كتاب آخر الى ان تطور الجيوش التي تلبس المعطف الملكي ، ويمونها ملكيون ، ويقودها ضباط تحت سلطة وزير الحرب الملكي قد انهت العهد الطويل الذي كان فيه نبيل كبير او مدينة قوية تتحدى الأوامر الملكية وتنازع الملك السلطة • انظر ج • ب • وولف (ظهور الدول الكبرى ، 1685 — 1715) — 1952 •

وفي يوليو سنة 1674 كتب الداي الى شارل الثاني يحثه على ارسال النقود للفداء ، ومما قاله : « اذا لم تقدمهم سنرسل اليك قنصلك ... وسيكون ذلك فرصة لانهاء السلام معك . » وفي هذه الأثناء كان السيد جون ناربورو Narborough في طريقه الى الجزائر ومعه النقود للفداء . ولكن الأوامر التي عنده كانت تسمح له بعقد السلام أو الحرب : « حسبما تراه صالحا . »

والسيد جون هذا لم يكن له دراهم كافية لفدية جميع الارقاء ، ولكنه كان قادرا على ارضاء الملاك « ذوي المكانة » ـ أي أولئك الذين يقدرون على تحريك المظاهرات ـ باستعماله نقود الملك واقناع بعض الارقاء ، باضافة نقودهم الخاصة الى المعونة الملكية . وقد اكتشف ان بعضهم كان لا يرغب في العودة . وعن ذلك كتب الضابط هاميلتون Hamilton قائلا : « بانهم يميلون الى التخلص من ربهم في سبيل ، حب النساء التركيات اللائي هن على العموم ، جميلات جدا ... » وهو يغفر لهؤلاء المساكين ضعفهم ، لأن هؤلاء النساء « كن عريقات في فن السحر ... وأسيرهن لا يتحرر أبدا . » وقد أرسل ناربورو في شهر نوفمبر قائمة بالذين فداهم ، فكانت تضم مائة وتسعة وثلاثين شخصا ، بثمن قدره 56,248 قطعة من نوع ثمانية . ثم أضاف بريزبان Brisbane ، وهو مستشار القنصلية ، قائمة بمائة وخمسة وثلاثين ، خلال شهر ديسمبر . وكان بريزبان ، حذرا ، فلاحظ أن الملك كان « ملتزما بفداء أولئك الارقاء الذين كانوا موجودين سنة 1671 فقط . » أما الأسرى الذين أسروا بعد ذلك فليسوا داخلين في المعاهدة . وعندما انتهت هذه العملية كان الداي ومساعدوه يتوقعون شيئا آخر اضافيا : وقد كتب مارتان عن ذلك قائلا « انهم كثيرو التوقع لهدية من الملك ... ولكي يستحقوها ، أجبروا الملاكين (للرقيق) على أن يأخذوا ، في مقابل ارقائهم ، نصف الثمن معدنا والنصف الآخر نقودا فضية » وليس واضحا ما اذا كانت « رشوتهم » قد تمت كما ينبغي .

وفي سنة 1674 ــ 1675 تغير الوضع السياسي لانكلترا تغيرا كبيرا . فقد دخل شارل الثاني الحرب سنة 1672 ضد الهولنديين كحليف لابن

عمه لويس الرابع عشر ، بناء على اتفاق احتفظ به سرا على معظم مستشاريه (نعني معاهدة دوفر (Dover) • وبعد سنتين تعالى الضغط عليه بالانسحاب من الحرب حتى أصبح من الصعب عليه أن يقاومه • وكان شارل ، الذي كان يرغب فى ان يموت على فراشه كملك لانكلترا ، من الحكمة بحيث رضخ للضغط ، ولماذا لا ؟ ان هجوم لويس على الأراضي المنخفضة الهولندية قد طال بدون نهاية فى الأفق ، واصبح انسحابه الكامل من الراين الأدنى محتما • لقد أصبح لويس الآن متورطا بعمق فى حرب ضد الحاكم الهابسبورغي فى اسبانيا وضد امبراطور الهابسبورغ فى ألمانيا ، بالاضافة الى حربه ضد الأراضي المنخفضة الهولندية وعدد آخر من أبرز امراء الألمان • فهذه الحرب ليست هى الحرب التي كان شارل يريد أن يعاقب بها الهولنديين ، انها حرب أروبية شاملة ، حرب موجهة على العموم ضد فرنسا • ومن جهة أخرى فان الهولنديين قد جربوا ثورة عندما هاجمهم الفرنسيون ، وقد أصبح عندها وليام ، أمير أورنج الذي هو ابن عم لشارل الثاني ، والذي كان متزوجا من ماري ، ابنة أخ (niece) شارل ــ قد أصبح هو الحاكم الفعلي للأراضي المنخفضة • وهكذا وقعت انكلترا سلاما منفردا سنة 1674 •

لقد كان على الجيش الفرنسي أن ينسحب من موقعه المتقدم على الراين ؛ ولكن الأسطول البحري لكولبير هزم سنة 1675 ، الأسطولين الاسباني والهولندي المتحالفين عند جزيرة صقلية ، واستطاع الجيش الفرنسي أن يتمركز على هذه الجزيرة وكان الانسحاب من حرب لويس الرابع عشر فى هولندا مربحا للتجار الانكليز • فقد عرفوا كيف « يحصلون » على سهم الأسد من التجارة التي لم يعد الهولنديون يتمكنون من القيام بها مع التزامات الحرب • كما ان التجار الانكليز حصلوا على كثير من التجارة الفرنسية السابقة ما دامت فرنسا أيضا كانت غارقة فى الحرب • ولكن عندما تمركز الفرنسيون على جزيرة صقلية أصبح الانكليز غير سعداء ، لأن ذلك سيجعل القوة البحرية الفرنسية بالضبط فى منتصف خطوط اتصال انكلترا بالمشرق • وقد كانت قطع

من الأسطول الانكليزي بقيادة ناربورو في البحر الأبيض ومعها أوامر بأن تعلم الأتراك في طرابلس بأن عليهم أن يحترموا الحقوق الانكليزية . ولكن هذا الأسطول بقي في البحر الأبيض ليراقب الفرنسيين ويحمي النمو العجيب للتجارة البحرية الانكليزية .

ولم يمر وقت طويل حتى خلق هذا التوسع التجاري الانكليزي مشاكل مع الجزائر . فقد كانت السفن الانكليزية تبحر وبين طاقمها « غرباء » كانت السفن الانكليزية تبحر بجوازات سفر مزورة من القيادة البحرية نفسها ، وكان الضباط الانكليز يرفضون تسليم المسافرين الذين كانوا أعداء للايالة . والنتيجة : أصبح الرجال الانكليز أرقاء . واحتجزت السفن الانكليزية كغنائم ، وجعل القنصل الانكليزي نفسه غير محبوب في الجزائر . وفي يوليو سنة 1676 أرسل شارل الثاني من جديد ناربورو الى الجزائر ليطلب التعويض والمعاقبة بالنسبة للاعتداءات الماضية ، والضمانات بشأن المستقبل (ونصت التعليمات التي أخذها) على أن لا يكون « متصلبا جدا في هذه المطالب لأن هناك أشياء صغيرة قد يقع التغاضي عنها » ولكن عليه أن يتشاور مع القنصل . فاذا لم يحصل على أية ترضية فان من حق ناربورو أن يعلن الحرب .

ولكن ناربورو لم يبحر في الحال . ففي أكتوبر وصلته قائمة بالسفن الحربية الجزائرية : اثنتان بخمسين مدفعا ، وخمس بأربعين ، وواحدة بثمانية وثلاثين ، واثنتان بستة وثلاثين ، وثلاث بأربعة وثلاثين ، وثلاث بثلاثين ، وواحدة بأربعة وعشرين الى جانب عدد من السفن الصغيرة ، قوة كل منها من عشرة الى عشرين مدفعا . وكان القنصل طالما أنذر ، منذ عشر سنوات ، بأن الأسطول الجزائري كان أدنى بقليل مما كان عليه ، ولكنه مسلح تسليحا قويا . وكانت أحواض السفن في الجزائر قادرة على بناء السفن من نوع الفرقاطة ذات الخمسين مدفعا . ولكن الذي أبقى ناربورو في انكلترا لم يكن هو حجم البحرية الجزائرية ، وانما هو أمر آخر . ففي التاسع من أبريل سنة 1677 تزوج من الآنسة اليزابيث كولمادي Colmady . ولم يمنحه بيبيس Pepys

وزير البحرية ، الوقت لشهر عسل طويل اذ ساله ، عن قصد ، قائلا : « متى تسمح لك أحوالك الجديدة بالنظر في أحوالك القديمة وتنفيذها ؟ »

ابحر ناربورو نحو البحر الأبيض في شهر اغسطس سنة 1677 . وربما يكون زواجه الجديد قد شجعه ودفعه ، كما أنه حصل على رتبة امير البحر . وكان المفروض في أسطوله انه من القوة بحيث يفرض الاحترام ، وصل الى طنجة فوجد الميناء محاصرا من قبل المغاربة المجاورين ، وبدلا من المكوث هناك ، أعلن ناربورو عن نيته في التوجه الى الجزائر للمطالبة « بالترضيات ...عن الاساءات الكثيرة والاعتداءات التي حدثت لرعايا الملك ... » ولم يمكث حتى يحصل على «الترضيات»: ففي شهر سبتمبر ، استولى ، انطلاقا من طنجة ، على أربع سفن للبحارة الجزائريين . تحمل بين سبعة عشر واثنين وعشرين مدفعا ، كما حارب عددا آخر من السفن التي تمكنت من الهروب ، ولكن بعد أن تكبدت خسائر جسيمة . ثم انه وهو في طريقه الى الجزائر تغلب على السفينة (وردة الجزائر) التي كانت قوتها ستة وأربعين مدفعا ، وأسر ضابطها العلج الألماني (1) . وكل هذا دون اعلان الحرب . ومع ذلك فانه كان مستغربا عندما وجد الجزائريين « مصممين وعازمين ... على عدم التعامل ... ولا الانصات لأي نوع من السلام ، بل انهم أطلقوا النار على مركبي عندما اقترب من الرصيف ... » وبهذا الجواب غادر

---

1 – ان هذه المصادمات البحرية لم تكن انتصارات سهلة بالنسبة للانكليز ، فقد قتل الضابط هيرمان Herman وهو ضابط السفينة (سيفر Sapphire) اثناء المحاربة ضد السفينة (الجزائرية) – الحصان الذهبي – واثناء التصادم بين السفينة (غيرنسي (Guerencey) – 52 مدفعا – والجزائرية (الحصان الابيض) – 50 مدفعا – حاول الجزائريون عدة مرات ان يصمدوا ، ولكنهم اجبروا على التقهقر مع خسائر جسيمة للطرفين ، واحتجزت كما هي تقريبا سفينة جزائرية ذات طابقين decks وتحمل 54 مدفعا ، وقد اصبحت هي (النايتر – الفهد –) الانكليزية ذات الست والاربعين مدفعا ، وسحبت ثلاث سفن لناربورو وسفينتين جزائريتين الى الشاطىء واحدة تدعى (شجرة الليمون) – 32 مدفعا – والاخرى تدعى (كالاباش (Calabash) 46 مدفعا – وقامت باحراقهما ، ولكن طاقميهما تمكن من الهروب . انظر كلاوس Clowes (البحرية الملكية) ج 2 ، ص 451–453 ، وكذلك داير Dyer (ناربورو) ، ص 165–169 .

ناربورو الجزائر بعد اربعة أيام في الميناء ، وتوجه الى ليفورنيا ليبيع أسراه . فقد أمره (وزير البحرية) بيبيس بتحرير المسيحين وشنق الأعلاج وبيع المسلمين .

وربما يكون بعض الرياس الجزائريين قد رحب بهذا الهجوم الذي جاء دون الاعلان عن الحرب . وقد صدق القنصل مارتان عندما أشار في نهاية اكتوبر سنة 1677 قائلا : « ان البحارة الفرنسيين قد ابعدوا حركة السفن الهولندية والألمانية من البحر الأبيض ، وأصبح البحر « يعج بالسفن الانكليزية ... وعليها بضائع جميع الأمم تحت اعلامنا» وكان الرياس « قد بدأ يعتريهم اليأس من الحصول على الغنائم . » وها هم الآن اخذوا في الاستيلاء على السفن الانكليزية . وعندما حاول القنصل مارتان أن يحررها بمقتضى المعاهدة « كاد أن لا ينجو بحياته . » كان يشعر بالحزن ، ولاحظ أن الحرب قد كلفت مآت الجنيهات والأرقاء، بينما السلام ، مدعوما بالرشوة ، كان لا يكلف الا القليل . وكان له الحق أن يشعر هذا الشعور لأنه كان قد وضع في الحديد ونجا فقط « باحتجازه » بحكم صداقته مع الداي وصداقة صهر الداي . بينما شهدت السنة والنصف التالين مائة وسبعا وخمسين سفينة تجارية انكليزية احتجزت كغنائم ، وحوالي أربعة آلاف رجل أصبحوا أرقاء . وبحلول ربيع سنة 1678 كانت رسائل مارتان قد أصبحت احتجاجات تثير الشفقة : فقد كان يعامل معاملة المجرم ، وكان الطاعون يهدد كل واحد ، وكان صديقه بابا حسن ، صهر الداي الطاعن في السن ، على رأس جيش بناحية وهران ، بينما لا جواب ولا نقود من لندن تكافئه وتعزيه على اخلاصه وخدمته .

هولندا ، 1660 – 1688 :

يعود فشل ناربورو في عقد السلام ، جزئيا ، الى انتشار الطاعون في الجزائر (ويبدو أن مارتان كان أحد ضحاياه) . ولكن وصول بعثة هولندية كانت تتطلع الى عقد السلام مهما كان الثمن ، كان على درجة مساوية من الأهمية . ذلك أن التجارة الهولندية قد أبعدت تقريبا

من البحر الأبيض بعد سنة 1672 من قبل التجار الخواص الفرنسيين ، ثم ان سمعة البحرية الهولندية بعد هزيمة القوات البحرية الاسبانية ـ الهولندية عند صقلية سنة 1675 ، كانت في أخفض نقطة . واية سفينة هولندية كان يمكنها أن تفر من الفرنسيين ، كانت تقع فريسة للجزائريين . غير ان الوضع الأروبي بدأ منذ سنة 1678 يتغير : فكل أحد كان يعرف ان على الفرنسيين أن يفاوضوا لانهاء ما سمي بالحرب الهولندية أو يواجهوا احتمال التدخل الانكليزي الى جانب أعدائهم . وقد ظهرت من جديد قطع من الأسطول البحري الهولندي في البحر الأبيض واقترح المفاوضون الهولنديون ، بكلمات معسولة : السلام مع الجزائر . وفجأة وجد القنصلان الفرنسي والانكليزي نفسهما كحليفين يحاولان منع مثل هذا السلام . وحين علما أن الهولنديين كانوا مستعدين « لرشوة » الجزائريين « باتاوة » لم يعرف شعورهما بالاهانة اية حدود . فالانكليزي والفرنسي ، وكل منهما كان حريصا على سمعة ملكه ، ومسلحا بقوة بحرية أكبر ، كان يمكنهما تبني راي أكثر تهجما نحو « القراصنة ، والنباحين وغيرهم من الأوباش » في الجزائر ، ولكن التجار الهولنديين قد انتهوا الى هذه النتيجة وهي ان « شراء » الحماية سيكون أرخص من فرضها بالقوة البحرية . وكانوا أقل اعتمادا على « قانون الشرف » وأكثر قدرة على وضع توازن بين تكاليف حملة بحرية مشكوك في نجاحها وبين الفوائد التجارية التي لا يتعرض لها رياس شمال افريقية .

وخلال شهر أبريل 1679 ، وقع الهولنديون أول معاهدة واتفقوا فيها على دفع « الاتاوة » التي وصفها القنصلان الفرنسي والانكليزي بأنها « مخجلة » . كانت معاهدة سنة 1679 أكثر معاهدات السلام التي وقعت بين الجزائر ودولة أروبية تعقيدا : فقد اهتمت بنودها الواحد والعشرون بكل أنواع المشاكل ، بما في ذلك اليهود الذين يتعاملون مع أبناء جنسهم في الجزائر وأمستردام ، ولكن أساس المعاهدة كان اتفاقا على منح داي الجزائر المدافع الثقيلة cannons والصواري وكور المدافع ، والبنادق والرصاص والبارود والحبال ، والأشرعة وغيرها من المعدات البحرية ، سواء في شكل هدية لضمان المعاهدة أو في شكل

هدية سنوية مستمرة . وقد اكتملت شروط المعاهدة بين الجزائر والأراضي المنخفضة باضافة اتفاقات سنة 1680 وسنة 1681 زادت في صدمة القنصلين الانكليزي والفرنسي ، ولكن يمكن للفرنسيين أن ينظروا قليلا بعين الرضى ما دامت المعاهدة لم تسمح للهولنديين باعادة شراء مواطنيهم من الرق بثمن البيع الأصلي ، بل كان عليهم (الهولنديين) ان يتعاملوا مع كل مالك بطريقة فردية (1) .

* * *

ان المعاهدة الجزائرية مع الأراضي المنخفضة قد عقدت الأمور مع الانكليز فقد أزالت حركة السفن الهولندية من احتمال الغنائم ، ومن ثمة أعطت أهمية أكثر لفرصة الاستيلاء على الغنائم الانكليزية . كما ان المعاهدة أعطت نموذجا جديدا في التعاهد للحكام الأروبيين ، نموذجا لا يرضى الانكليز بالموافقة عليه طالما اعتقد ضباطهم البحريون بأن القوة هي التي تجعل ايالات شمال افريقية تقبل الاتفاق على الشروط الانكليزية . ومن جهة أخرى فان الداي في الجزائر كانت له مشاكله . فقد حل الطاعون بالمدينة وهلك الجنود والبحارة والبلدية (الحضر) والأرقاء بدون تمييز . وقد عانت الفرقة الانكشارية والمؤسسة البحرية على السواء من اصاباته . وكان بابا حسن الذي كان الحاكم الفعلي باسم صهره الداي ، قد وجد نفسه بين « الصقور » الذين يحتاجون الحرب ضد انكلترا للابقاء على ازدهار الايالة ، و « الحمائم » الذين كانوا يخشون عاقبة البحرية الانكليزية . وكان « الصقور » في البداية يظهرون على حق ، ولكن ذلك تغير سنة 1680 ، عندما تولى أمير البحر أرثر هيربيت Herbett ، قيادة أسطول البحر الأبيض . فقد استطاع أن يستولى على سفينتين جزائريتين صغيرتين ، وأن يجبر أخرى (ذات

---

1 – ستكون هذه المعاهدة الهولندية ، خلال القرن الثامن عشر ، نموذجا للدول الصغيرة الأخرى التي كانت ترغب في التجارة بالبحر الأبيض ، بدون تدخل من قبل البحارة (الجزائريين) . وستعلم الجمهورية الجديدة للولايات المتحدة الأمريكية ، عندما لم يعد ضباط سفنها يرفعون العلم الانكليزي الذي يضمن حمايتها ، أن ثمن سلامة التجارة في البحر الأبيض اما أن يكون في اتباع هذا النظام (الاتاوة) واما القيام بعمل بحري قوي . انظر دومون ، ج7 ، 1 ، ص 404–406 .

أربعة عشر مدفعا) على أن تلجأ الى الشاطىء ، ولكنه لم يستطع أن يجبر السفن الجزائرية الرئيسية على التوقف والدخول في معركة . فكانت أجواف السفن الانكليزية متعفنة ، بينما السفن الجزائرية كانت رشيقة . ولكن أمير البحر استولى في السنة التالية ، بعد أن نظف سفنه ، على (الحصان الذهبي) — 39 مدفعا — وعلى (وردة الجزائر) — 22 مدفعا — وعلى (جنوة الكبيرة) — 36 مدفعا (1) بالتوالي ، وكان عليها حوالي تسعمائة تركي وجزائري ومائتان من الأرقاء المسيحيين . وقد كتب أمير البحر الى لندن بأن الجنود (الجزائريين) كانوا ميالين الى السلام ولكن الرياس كانوا ضدهم . وقد اقترح بابا حسن ، الذي كان في خطر على حياته اذا عقد السلام ، معاهدة مثل تلك التي وقعت مع الهولنديين ، ولكن الانكليز لم يعيروا ذلك اهتماما .

ويعتقد هيربيت أنه كان بامكانه أن يحصل على معاهدة فورا لولا أن عددا من التجار الانكليز في الجزائر قد نصحوا الداي بأن انكلترا لا يمكنها احتمال مصاريف استعراض بحري طويل . غير أن الوضع تغير سنة 1681 ؛ وكان الداي مستعدا للمفاوضة ، ومع ذلك فان حضور البحرية الانكليزية لم يكن وحده هو الذي حقق السلام . ذلك أن نزاع الجزائريين مع فرنسا كان في الأفق ، ولم يكن الداي يريد أن يكون في حرب مع دولتين بحريتين في نفس الوقت . وأن المعاهدة الجديدة ستكون هي القطب الذي تركزت عليه العلاقات الانكلو — جزائرية مدة المائة سنة التالية . ويعود استقرارها بدون شك الى أن انكلترا قد برزت بعد عقد التسعينات (من القرن السابع عشر) كأول دولة بحرية في العالم ، ثم أن الحضور الانكليزي في البحر الأبيض قد ضمنته ، بعد معاهدة يوتريخت Utrecht القواعد البحرية

---

1 — لم تكن أسماء السفن الحربية الجزائرية كأسماء السفن البحرية المسيحية . فالاوربيون أعطوها أسماء تتلاءم مع الأشكال المرسومة على صلبها ، مثلا (جنوة الكبيرة) كانت سفينة (جنوة) استولى عليها الجزائريون ، وكان على صلبها شكل أسدين وتاج شعارا لها ؛ وهذا ما جعل اسمها كثير التعقيد ، ولذلك سماها هربيث اسما بسيطا وهو (جنوة الكبيرة) .

الانكليزية في مضيق جبل طارق وفي غربي البحر الأبيض . فلا حاجة الى المملكة الانكليزية لدفع (الاتاوة) لضمان سلامة تجارتها .

ترك أمير البحر هيربيت أحد مساعديه ، وهو الضابط جون نيفيل Neville كقنصل في الجزائر . وبعد حوالي سنة كتب نيفيل مذكرة طويلة لفائدة الوزارة بانكلترا . ان مقترحاته ، وكذلك مقترحات صموئيل دي باز de Paz ، قد رسمت الخطط الأساسية لسياسة البحر الأبيض الانكليزية نحو الجزائر . وأول مطلوب هو الابقاء على قطع بحرية من الأسطول بصفة دائمة لتجوب مضيق جبل طارق وتزور موانيء شمال افريقية . فهي التي « ستعطى سمعة ... للقوة البحرية الملكية وتمنع اخلال البحارة بالسلام . » والمطلوب الثاني هو تعيين قنصل لا يقوم بالأعمال التجارية ، ولكن يدفع له راتب جيد ويعطى « كيات قليلة من النقود » لاستعمالها في الرشوة : « ان رشوة قليلة قد تعوق دولة أخرى من عقد السلام معهم » وتمنع آخر الأمر من اهدار مصاريف أكثر من أجل الحرب . وعلى القنصل أن يختار هو مترجمه الخاص . وفي ذلك الوقت كان الداي قد وفر للقنصل الانكليزي علجا هولنديا ليقوم بهذه المهمة (الترجمة) ولكونه كان يعاون الهولنديين بدل الانكليز . وكلتا المذكرتين تحث على أن على القنصل أن يشجع الداي على الدخول في حرب مع كل من فرنسا والأراضي المنخفضة . وأخيرا فان كلتيهما تقترح أنه يجب الا يسمح للبحارة الانكليز باستلام خدمة في السفن الأجنبية ، ومن ثمة يتسببون في مشاكل للقنصل . وفي هذه الأثناء طلبت زوجة الضابط نيفيل من الملك أن يسمح لزوجها بالرجوع . فقد كان غائبا في البحر وكقنصل مدة أربع سنوات ، وهي تريده أن يعود . ويبدو أن شارل قد شعر بأن خديمه قد أدى واجبه ، لأن السيد فيليب ريكوت Rycaut قد حل محل نيفيل ، الذي كانت مقترحاته قد أخذت بعين الاعتبار عندما جددت المعاهدة الانكلو — جزائرية عند تولي جيمس الثاني عرش انكلترا (1) .

* * *

1 — لقد كتب دوق أوف غرافتون Grafton في 6 اكتوبر سنة 1687 معترفا بأن المعاهدة الانكليزية في ذلك الوقت كانت آمنة لأن الجزائريين لن ينقضوا السلام

كان الداي والديوان قد قرروا الدخول في حرب ضد فرنسا منذ كانت سفن أمير البحر هيربيت راسية في الميناء الجزائري . ولم يكن ذلك قرارا سهلا . فقد كان هناك مثل في الجزائر يقول : ان الفرنسيين يمكنهم طبخ الشربة في مرسيليا صباحا وأكلها في الجزائر في مساء نفس اليوم . ذلك أن فرنسا كانت قريبة من الجزائر بما يكفي أن يجعلها تشكل خطرا ، حتى عندما كانت قوتها البحرية ضعيفة نسبيا . ولكن قرب المسافة لم يكن وحده هو السبب : فطالما كانت فرنسا حليفا ، أو على الأقل صديقا ، ضد أسبانيا الهابسبورغية ، فهي (فرنسا) مورد « مناسب » للعتاد البحري والحربي ، وكان الجزائريون ما يزالون في حاجة الى مدخل الى الأسواق الفرنسية . وبالاضافة الى ذلك فان الحصن ، كمركز تجاري ، لم يكن فقط يستورد المؤن للرياس ، ولكنه كان أيضا عبارة عن سوق حيث رجال القبائل يمكنهم بيع انتاجهم للحصول على البضائع ، وكذلك الحصول على النقود التي يحتاجونها لدفع الضرائب لحكومة الايالة . وفي نفس الوقت كان الحصن يدفع « اتاوة » سنوية الى الايالة ، وهو المبلغ الذي تحتاجه كثيرا لدفع أجور المليشيا الانكشارية . ان كل هذه الأمور جعلت الايالة تغض النظر عن كون أغلبية فرسان مالطة كانوا فرنسيين ، وأن كثيرا منهم كانوا ضباطا في البحرية الفرنسية نفسها . وكل ذلك كان يمكن غفرانه لو أن الملك الفرنسي كان مستعدا من جديد أن يكون حليفا للبحارة (الجزائريين) ، أو حتى كان مستعدا أن يحافظ على التزاماته نحو المعاهدة التي بينهم . ولكن لويس الرابع عشر ووزراءه لم يكونوا مستعدين أن يصبحوا حلفاء ، ولا كانوا مستعدين أن يرجعوا الى الايالة أولئك الأتراك والجزائريين القادرين بدنيا والذين كانوا أرقاء في سفنهم الحربية . ان أولئك الذين أرجعوهم منهم الى الجزائر ، حسب شروط المعاهدة ، لم يكونوا فقط طاعنين في السن وعجزة ، ولكن أكثرهم لم يكن حتى عضوا في الجماعة الجزائرية . ان الفرنسيين لم يكونوا يريدون أن

مع فرنسا ، ولكن اذا ما حدث وانتقد هذا السلام ، فاني أعتقد ان حربا ضدنا ستعقب ذلك عاجلا . » انظر : (Pro. Ind. 13 396 fol. 425)

يرجعوا أي رقيق قد يخبر عن الآخرين الذين كانوا موثقين (بالحديد) الى مقاعد التجديف . وليس ذلك هو كل ما في الأمر . ذلك انه عندما اشتكى الجزائريون لم يجبهم الملك ولا وزراؤه . وعندما بعث الجزائريون بانذار تجاهله الفرنسيون . ان لويس الرابع عشر ووزراءه لم يستطيعوا اخفاء امتعاضهم من « جمهورية قطاع الطرق » و « رعاة البقر » و « الأعلاج » الذين كانوا هم « السادة العظام والأقوياء للجزائر » . ان ذلك الامتعاض هو الذي قاد الداي والديوان في النهاية الى اعلان الحرب ، وخلال شهر واحد أصبحت تسعا وعشرين سفينة فرنسية غنائم وأكثر من ثلاثمائة فرنسي أرقاء .

كان هناك كثير من الناس في فرنسا يرغبون في التوصل الى اتفاق ، غير الحرب ، فحكام الحصن كانوا دائما يعبرون عن رأيهم بأن الجزائريين كانوا محافظين بكل وفاء على شروط المعاهدة . وكانت هذه الشروط في الحقيقة مفيدة لأنها جعلت من الخطر على البحار الفرنسي أن يقبل العمل في سفينة أجنبية . وبالاضافة الى ذلك فان تلك الشروط تدخل فى تجارة المنافسين الفرنسيين . وقد اقترح أحد التجار بمرسيليا بأن العدد القليل من الأرقاء البائسين في السفن الحربية (الفرنسية) الذين يعادون (الى الجزائر) كانوا بالتأكيد أقل قيمة من السفن والبحارة والفرنسيين الذين قد يقعون في قبضة البحارة الجزائريين . ولكن هذه الأصوات الداعية الى الاعتدال والتفاهم لم تجد أذنا صاغية . فقد استفز الفرنسيون الجزائر للحرب ، عن عمد . وقد كتب كولبير الى متصرف البحرية بطولون قائلا : « انها عزيمة الملك في أن يدخل الحرب ضد البحارة الجزائريين » وأمر بارسال جاسوس ليضع تصميما للتحصينات والمراسي وغيرها من المؤسسات حول الجزائر . وتوجد عدة عوامل وراء هذه السياسة . فأهل الدين الأتقياء في البلاط كانوا يعتقدون بأن الملك المسيحي يجب أن يعيد الكفار القهقري وأن يسعف المسيحيين المقيدين . فهم لم ينسوا الأب فانسان الذي سيصبح اسمه : القديس سان فانسان دي بول . ان قساوسته ما يزالون في ساحل الشمال الافريقي . على أنه في الوقت الذي كان فيه القساوسة

في الجزائر يحثون على الاعتدال ، كان هناك قساوسة آخرون يرغبون من الملك أن يعلن الحرب على الكفار • وكانت هناك ضغوط أخرى من أجل الحرب ضد الجزائر ، ذلك أن مؤسسة كولبير البحرية النامية تحتاج الى فرصة لتجرب نفسها ، ومن ثمة تلفت نظر الملك • وأخيرا كان هناك اقتناع اشترك فيه جميع وزراء لويس ، بعد سنة 1679 ، وهو أن السمعة الفرنسية تتطلب ردود فعل عنيفة لأي اعتراض على السياسة الفرنسية أو تثبيطها • ان ذلك هو العهد الذي كانت فيه صورة الفرنسيين في أوروبا قد أصبحت « تثير السخرية » و « ممجوجة » و « مخيفة • » وقد أكد كولبير عقيدته في العنف قائلا : « ان ارهاب أسلحة الملك في المشرق وما تفعله ارادته لمعاقبة معاندة الجزائر سيضع تجارة المشرق ••• جميعا تقريبا في أيدي رعايا الملك ••• ان الارهاب سيجبر جميع الأطراف على تنفيذ المعاهدات بدقة ••• » ويبدو واضحا أنه كان يعني « جميع الأطراف ما عـدا المملكة الفرنسية » ، ولكن مهما كان الأمر فان هذا الرأي قد أبعد الأصوات الداعية الى الاعتدال • وقد قرر لويس الرابع عشر ، بناء على نصيحة وزيره ، أن يرسل أسطولا ضخما (الى الجزائر) ليحقق العمل الذي فشل في تحقيقه جده الهابسبورغي ، شارل الخامس (شارلكان) • انه سيقتلع « عش القرصنة » من الجزائر •

لقد فشل دعاة الاعتدال ، ففي سنة 1682 أبحر أمير البحر دوكين Duquesne على رأس أسطول عظيم متوجها الى الجزائر ، مع الأوامر بتخريب المدينة عن آخرها • لقد كان الفرنسيون معتمدين على سلاح جديد ، وهو مدفع الهاوون ، الذي ابتدعه س • رينو ديليكاغاري S. Renau d'Elicagaray ، وهو مدفع يطلق قذيفة ضخمة من المتفجرات على مسافة تقدر بـ 700 تواز Toises (حوالي 1350ر1 مترا) من المفروض أن تحطم أي بناية تكون في واجهة المتفجرات • ان هذا السلاح سيستعمل عما قريب في الأراضي المنخفضة وفي جنوة ، لفرض الارادة الفرنسية عن طريق الارهاب ولمعاقبة أي عصيان للملك الفرنسي • وصل أسطول دوكين الى شرشال في 25 يوليو • فقنبل هذه المدينة الصغيرة وأحرق سفينتين • وفي 29 يوليو كان أمام الجـزائر

ورفض ان يتفاوض . لقد جاء لمعاقبة الجزائر على مجازفتها في اعلان الحرب على فرنسا . واستمر قصف المدينة من 20 الى 22 أغسطس ، ثم يوم 26 أيضا ولكنه لم يتسبب الا في أضرار خفيفة . فقد سقطت القذائف دون هدفها نظرا « لرداءة البارود » ، وفى 30 من الشهر أطلقت مدافع الهاوون مائة وأربعين قذيفة أصابت المدينة . وفي الثالث من سبتمبر حاول الجزائريون الهجوم على السفن الحاملة للمدافع ، ولكنهم اجبروا على التراجع . وطلب الداي الشروط ، ولكن دوكين رفض التفاوض . وفي الثاني عشر من سبتمبر أبحر الأسطول الفرنسي بعيدا مع نية الرجوع في الربيع الموالي . ان القصف قد أودى بحياة حوالي خمسمائة شخص وهدم حوالي خمسين بناية (عمارة) . وكل من لويس الرابع عشر وكولبير كانا محزونين من أن مدافعهما لم تكن أكثر فعالية ، وأمرا أن تعطي عناية أكبر لمحاولة السنة القادمة . أما بالنسبة لدوكين فقد اعترف الملك بخدماته في الجزائر وفي جزيرة كيوس Chios حيث أحرق جزءا من أسطول بحارة طرابلس في الميناء . وقد حصل دوكين (من الملك) على هبة بمائة ألف فرنك وترقيته الى لقب ماركيز تحت اسم « دوكين «du Quesne » .

وعندما رجع الفرنسيون في السنة الموالية ، كان دوكين خشنا خشونته السابقة . فقد رفض أن يقدم كرسيا للقسيس فاشي Vacher الذي كان طاعنا في السن ومريضا ، عندما جاءه هذا القسيس المبعوث الى السفينة عارضا عليه عروض المفاوضة من الداي . بل انه اهانه بقوله : انه كان تركيا أكثر منه مسيحيا . وقد رد عليه الأب فاشي فقط بقوله : « انني قسيس . »

والقصف الذي أعقب ذلك كان أكثر فعالية من قصف السنة الفارطة : وقد عرض بابا حسن أن يقبل أي شرط . وأرسل الرهائن الى دوكين ، وأعاد مئات من الأرقاء الفرنسيين بدون دفع الفداء . ولكن عندما تصعب دوكين في الشروط بطلبه دفع أموال طائلة كتعويض (قدره سبعمائة ألف فرنك) ، احتج بابا حسن بأنه لا يستطيع أن يوفر هذا المبلغ الكبير من النقود . وأثناء « سوء التدبير » الذي حدث بعد ذلك ، عرض

ميزو مورتو (*) ، وهو أحد الرهائن لدى الفرنسيين وأكثر الرياس تأثيرا أن « يجد حلا لأي مشكل » اذا ما سمح له فقط بالنزول الى الرصيف . وقد فعل : فجمع من حوله الرياس ومعظم المليشيا (الانكشارية) ، واغتال بابا حسن (أما الداي الطاعن في السن فقد هرب الى تونس) ، وجعل نفسه دايا منتخبا . ثم أعلن أنه سيقذف من أفواه المدافع كل الفرنسيين في الجزائر اذا استمر دوكين في القصف . ولما استولى الفرنسيون على الجزائر سنة 1830 وجدوا « المدفع القنصلي » ، لقد كان من صنع أحد رجال البندقية سنة 1572 ، وكان يمكنه أن يقذف القذيفة على مسافة 2ر500 تواز Toises (حوالي 4ر800 متر) مع « دقة متناهية . » وعندما استأنف دوكين القصف ، ربط الجزائريون القسيس فاشي وغيره من القساوسة والمواطنين الفرنسيين الى هذا المدفع وقذف بهم شذر مذر .

وكان للفرنسيين أمل كبير في سلاح آخر جديد . فقد أحضروا قنبلتين عظيمتين تزن كل منهما تسعة آلاف رطل ومسلحة بأربعة وثمانين قنطارا quintals من البارود (عبارة عن قنبلة ذرية قبل تفتيت الذرة) ، وأرادوا اطلاقهما . ولكن المدافع فشلت في اطلاق هذا السلاح الوحشي. وهكذا كانت مهمتهم فاشلة . ومع ذلك فان القصف بالقنابل التي تزن كل منها بين اثني عشر وخمسة عشر رطلا قد تسببت في خسائر جسيمة للمنازل الواهية في المدينة . وقد تهدم منها أكثر من خمسمائة منزل ، بالاضافة الى عدد من المساجد وحمام . ولكن مجموع عدد الموتى كان غير مرتفع لأن جمهور السكان هربوا من المدينة وتوجهوا الى الضواحي قبل بدء القصف . والذين ماتوا من جراء قصف القنابل كانوا أقل من الذين ماتوا بالطاعون الذي ضرب ضربته خلال الصيف السابق . وأكبر الخسائر كانت في منازل البلدية (الحضر) ، أما الداي ومساعدوه ، وكذلك الرياس والانكشارية ، فلم يعانوا الا قليلا ، ولذلك لم يروا أي

(*) – يدعى الحاج حسين ميزو مورتو ، وكان من باشوات الجزائر البارزين ، وقد تقلب في وظائف أخرى بعد أن غادر الجزائر . (المترجم) .

سبب يسمح باجبارهم على قبول الشروط . وقد تحدى ميزو مورتو الاقتراح الفرنسي بأن الوقت قد حان لعقد معاهدة .

لقد كان وضع دوكين صعبا . فالداي ميزو مورتو غير مستعد للتفاوض ، واستمرار القصف أدى الى اعدامات أخرى للفرنسيين المكودين في الجزائر . وقد كتب كولبير الى دوكين يقول له : ان الملك « يطلب منك أن تجعلهم يدفعون الثمن غاليا للسلام الذي يطلبونه ... » ولكنهم لم يطلبوه ! وذهب كولبير الى القول بأن الملك « سيكون جد مسرور للنصر الذي سيحققه والفوائد التي ستجنيها جميع البلاد المسيحية بهدم تلك المدينة هدما كاملا ... » ان قنابله قد سببت أضرارا ، ولكن المدينة لم تخرب . ويقال أن دوكين ذهب الى فراشه وترك ادارة العمل الى مساعديه الذين سرعان ما فقدوا الثقة في قيادته . انه لم يستطع أن يهدم الجزائر ، اذ ليس له لا المشاة ولا المدفعية الميدانية الضرورية للنزول الى البر والهجوم . وأخيرا أبحر دوكين الى فرنسا ، تاركا الجزائر في خرائب يتصاعد منها الدخان ، ولكنها لم تركع . وقد كتب القنصل الانكليزي ، ريكوت الى اللورد دارتماوث Dartmouth : « أنظر ، كم هي قليلة المبالاة التي أعطاها هؤلاء الناس الى القنابل الفرنسية التي أحصيت عددها فكان حوالي ستة آلاف (6،000) ... وأوفق المعلومات التي حصلت عليها تقدر عدد الدكاكين والمنازل التي هدمت بثمانمائة (800) ! » . وذكر احصاء تركي أن العدد كان هدم ثلاثمائة وخمسين منزلا و « كثير من الناس قتلوا » كما أن الجامع الأعظم قد تضرر أضرارا بالغة في السنة الفارطة .

وفي هذه الأثناء كان الوضع في أروبا هو الذي يملي من جديد السياسة الفرنسية نحو جماعة البحارة في الجزائر . ذلك أن قصف دوكين المفاجىء لكيوس Chios ولسفينة البحارة في ميناء طرابلس ، قد أدى عمليا الى مقاطعة بين الباب العالي وفرساي عندما هدد الصدر الأعظم ، قارة مصطفى ، صراحة برمي السفير الفرنسي في السجن . ان حكومة السلطان كانت غير مستعدة أن تفعل الكثير لمساعدة الجزائر ، ولكن كيوس كانت أقرب بكثير الى مركز حكمه . وكان يبدو فى تلك

اللحظة كان لويس الرابع عشر سيدخل عاجلا حربا بحرية ضد كل من الجزائر والدولة العثمانية • غير أن سياسة قارة مصطفى لم تكن سياسة في اتجاه البحر ، بل كان يخطط لهجوم كبير في أعالي الدانوب ضد الأراضي النمساوية التابعة للامبراطور ليوبولد الأول • وكان هناك أكثر من مائتي ألف (200,000) رجل يتجمعون عند الدانوب الأدنى مستعدين لانهاء هدنة العشرين سنة التي اتفق عليها بعد هزيمة العثمانيين في سان غوتهارت سنة 1664 • ففي ذلك الوقت كان لويس الرابع عشر ، باعتباره ماغريف الالزاس Margrave ، قد أرسل فرقة فرنسية لمساعدة الجيش الألماني • ويشهد كل من وصف المعركة والخسائر المرعبة التي تكبدها ضباط الجيش الفرنسي على أن الفرنسيين كانوا أكثر عنادا وكذلك أكثر فعالية بين المسيحيين الذين ربحوا تلك المعركة •

ولكن عندما علم لويس الرابع عشر بخطة قارة مصطفى للثأر من الهزيمة السابقة ، كانت توجهاته السياسية مختلفة تماما عن تلك التي تبناها منذ عشرين سنة خلت • فقد أقنعه السيد دي فوبان de Vauban والماركيز دي لوفوا de Louvois بأن عليه أن يحيط مملكته بنظام من التحصينات التي تضمن الانتصار في أي حرب مقبلة مع الهولنديين والألمان والأسبان • ولكن معاهدة نيمويغن Nymwegen الأخيرة لم تعطه كل الأقاليم التي يحتاجها لاكمال النظام المذكور ، وكان في طريقه الى انجاز ذلك بالحصول على الأراضي بطريقة غير عادية تماما ، وهي طريقة الضم الشامل على أساس العلاقات الاقطاعية سواء في الماضي القريب أو البعيد • ان سياسة ما يسمى « باعادة التوحيد «reunions » والضم الشامل للبلديات والمدن ومدينة ستراسبورغ (سنة 1681) وغيرها من المقاطعات على طول الحدود الشرقية والشمالية لفرنسا ، كانت بدون أدنى شك سياسة اعتداء مكشوف ضد الأمراء الألمان وحكام الهابسبورغ لكل من أسبانيا والدولة (الامبراطورية) الألمانية • وقد أخذت الروابط والتحالفات في ألمانيا تتكون لوقف هذا الاعتداء الفرنسي ، وكان الامبراطور ليوبولد في الظاهر مستعدا للحرب • ولما علم لويس بمخطط الغزو العثماني لحوض الدانوب ، ظهرت خطة عمل عظيمة كأنها قابلة للتنفيذ ، وتكون نتيجتها هي الاعتراف بتوسعاته (لويس الرابع عشر) ،

بالاضافة الى نيل السمعة والمجد لمملكة وملك فرنسا . وتلك الخطة هي أن المملكة الفرنسية ستقف على الحياد عندما تستولى الحشود التركية على النمسا وتهدد بالاستيلاء على جميع أوروبا الوسطى . وعندئذ يمكن لملك فرنسا أن يظهر في اللحظة المناسبة على أنه الدرع والسيف للمسيحية ، فينقذ الألمان من العبودية العثمانية ويقبل لنفسه أو لابنه تاج الدولة (الامبراطورية) الرومانية المقدسة ، ومن ثمة يبعد الهابسبورغ المنافسين لعائلته وأرضه عن عرش ، اذا ما توسع مع مملكة فرنسا ، يمكنه أن يخلق من جديد أوروبا مسيحية متحدة . لقد كانت حقا فكرة عظيمة . وفجأة أوقف لويس كل خططه الحربية ضد السلطان وأمر سفيره أن يؤكد لقارة مصطفى بأن الجنود الفرنسيين لن يقفوا في طريقه الى فيينا .

ورغم انها كانت فكرة ضخمة من وجهة نظر الملك الفرنسي فانها لم تتحقق تماما بالطريقة التي توقعها . فقد وصل الجيش التركي الى فيينا ونصب الحصار حولها ، ولكن فيينا لم تسقط . لقد اشترك في الدفاع عنها ، كارل أوف لورين Lorraine على الجيش الألماني ، وجان سوبسكي Sobieski مع الجيش البولندي . ففكا الحصار على المدينة وأبعدا عنها قوات قارة مصطفى نحو النهر . ولم يشترك أي جيش فرنسي في فك الحصار على فيينا ، وليس هناك حاجة الى جيش فرنسي. ولكن لويس الرابع عشر لم يكن ليلعب بالانتصار الألماني ـ البولندي . فعندما أصبح واضحا أن فيينا لن تسقط ، غزا الجيش الفرنسي الأراضي المنخفضة الأسبانية ولوكسمبورغ ، ضاربا المدن بقذائف (مدافع الهاوون) الجديدة لارهاب السلطات الاسبانية والهابسبورغية حتى توافق على الاعتراف بشرعية الالحاقات ونقل لوكسمبورغ الى مملكة فرنسا .

ففي الوقت الذي رجع فيه دوكين من قصفه الثاني للجزائر ، كانت مملكة فرنسا في أزمة . فملك الهابسبورغ في أسبانيا قد أعلن الحرب . وكان امبراطور الهابسبورغ في ألمانيا يناقش ما اذا كان سيحارب فرنسا في الغرب أو الدولة العثمانية في الجنوب الشرقي . وسقطت مدينة

لوكسمبورغ المحصنة في أيدي الفرنسيين • ولكن المشاعر المتصاعدة في أوروبا كلها تركت باب الحرب أو السلام مفتوحا • وأمام الأوضاع قررت الحكومة الفرنسية أن تتبع سياسة معتدلة نحو جماعة البحارة في الجزائر ، ذلك أن البحرية الفرنسية قد تكون مفيدة في مكان آخر حيث الحاجة اليها قد تكون أشد • وفي الخامس من يناير سنة 1684 كتب الماركيز دي سينيلي de Seignelay ، وزير الشؤون البحرية الى أمير البحر ، تورفيل Tourville ، بأن « الوضع الحالي (أي الحرب ضد أسبانيا وربما مع الامبراطور ليوبولد) يجعل من الضرورة القصوى عقد معاهدة مع الجزائر • »

ونتيجة لذلك ، وبينما أروبا تنتظر ما اذا كانت الدولة الألمانية ستحارب على الجبهة الغربية أو جبهة الجنوب الشرقي ، وصل أمير البحر تورفيل الى الجزائر يوم الثاني من أبريل سنة 1684 مرفوقا بمبعوث (Capidji) من السلطان ، مهمته أن يوضح بأن فرنسا والدولة العثمانية على وفاق تام ، وأن السلطان يرغب في أن تكون الايالة الجزائرية أيضا صديقة مع الفرنسيين • وكان تورفيل مرنا في مفاوضاته بقدر ما كان دوكين خشنا• وخلال عشرين يوما من المفاوضات كتبت معاهدة ستدوم « مائة سنة • » وقد نصت على تبادل الأسرى وحلت القناصل من أي قروض سيئة من قبل مواطنيهم ، وحددت طريقة المرور ، وأكدت على الخصوص ما جاء في المعاهدة الفرنسية ـ الجزائرية السابقة • وقد نص أحد الشروط على زيارة شخصية جزائرية هامة للبلاط الفرنسي لعقد السلام مع الملك • وفي الرابع من يوليه سنة 1684 ، كان للحاج جعفر آغا مقابلة مع لويس الرابع عشر ، وفي الربيع الموالي جاء الحاج محمد بحصانين فارهين هدية للملك الفرنسي • وقد حاول كل من القنصل الانكليزي والهولندي منع اتمام هذه المعاهدة ، ولكن القصف كان قد أقنع الجزائريين بأن عليهم أن يلجأوا الى السلام اذا كانت جميع الشروط مرضية •

غير أن الأحداث في أروبا سرعان ما جعلت الملك الفرنسي ووزراءه أكثر ثقة في سياستهم القائمة على الارهاب • فقد قرر الامبراطور الألماني أن يعقد السلام ، أو بالأحرى الهدنة ، مع فرنسا ، وأن يذهب

الى الحرب ضد الدولة العثمانية . وحين رضي الامبراطور (الألماني) بهدنة العشرين سنة لم يبق لملك اسبانيا طريق آخر للسلام مع لويس الرابع عشر . وفي فرنسا كان يبدو أن هذه الهدنة المسماة هدنة راتيسبون Ratisbonne ، هي شاهد واضح على أن الالحاقات التي جرت خلال السنوات السابقة ، ستتأكد في المستقبل . فاروبا لا يمكنها أن تقف في وجه قوة الأسلحة الفرنسية . وقبل كل شيء كان على أهل جنوة أن يعانوا من هذه الأسلحة وذلك لمعاونتهم الأسبان أثناء حربهم الصغيرة حديثة العهد : فقد توجهت السفن حاملة مدافع الهاوون الى جنوة مرفوقة باسطول ضخم وخربت قسما كبيرا من هذه المدينة ، ثم ان دوق جنوة أجبر على اهانة نفسه في بلاط الملك الفرنسي . ان «وجه» فرنسا في أروبا ، بعد قصف الجزائر والأراضي المنخفضة وجنوة وحصار ثم الاستيلاء على كل من ستراسبورغ ولوكسمبورغ والطريقة الخشنة في فرض الارهاب على البروتيستانت في الأراضي التابعة لدوق صافوي (صافوا) ـ كان حقيقة وجها يجعل الناس يرتعدون ـ أو يجعلهم يعدون أنفسهم لمواجهة القوة الفرنسية بقوة أخرى من عندهم .

وسرعان ما اكتشف الجزائريون أن الاحتقار الذي طالما أكنه لهم الساسة الفرنسيون في الماضي لم يتغير : فالملك ووزراؤه ما يزالون ينظرون الى الحكومة الجزائرية على أنها جماعة من اللصوص والأوباش الذين لا يحتاج المرء الى التعامل معهم بجدية (*) . وهم لم يرضوا بعقد السلام معهم الا بسبب الأحوال في أروبا . وعاد نفس المشكل القديم الى الظهور ، وهو مشكل الأتراك والجزائريين المقيدين في مجاديف السفن الحربية الفرنسية . وكثير من هؤلاء كانوا من الانكشارية الذين كان أصدقاؤهم وعائلاتهم تطالب باعادتهم ، وكان آخرون منهم رياسا أو ضباطا آخرين في البحرية ولهم اتصالات قوية في الجزائر . وكان قد مضى على بعضهم وهم مقيدون عند المجاديف من خمس عشرة الى عشرين سنة.

(*) – نذكر القارئ، بما كرره المؤلف في عدة مناسبات من أن المسؤولين الفرنسيين كانوا متعطشين من حكام الجزائر ، معتبرين اياهم « حــربة من قطاع الطرق » الخ .
(المترجم) .

وبالاضافة الى هؤلاء كان يوجد آخرون في السفن الحربية الفرنسية لهم اتصالات وثيقة مع النظام الحاكم ، فبعض الجزائريين كانوا من عائلات غنية أو ذات مكانة ، فكانت لهم بعض القدرة أيضا على التعبير عن رغائبهم للداي • وهو لا يستطيع حقا أن يتجاهل المطالب الداعية الى أن هؤلاء الناس يجب أن يكونوا أحرارا • ولكن الفرنسيين بكل بساطة لا يطلقون سراحهم • ففي تعليمة للويس الرابع عشر الى مفاوض ، امره أن عليه أن يتفادى ، مهما كان ذلك ممكنا ، اي موافقة على اعادة الرجال القادرين بدنيا على العمل • وعندما لم يسع تورفيل الا الموافقة على تبادل وارجاع الأسرى ، رجع الفرنسيون الى نفس القصة القديمة : فهم لم يرجعوا الا المسنين والمرضى • وكثير منهم لم يكونوا حتى «أتراكا» من الجزائر ، بدل ارجاع الانكشارية الذين كان الداي يتوقعهم • وكانت الاحتجاجات بأن هؤلاء الأرقاء لم يكونوا أبدا في الجزائر ، وان ارجاعهم يعتبر عبئا على الجزائر ، اما يردها الفرنسيون بلطف أو لا يجيبون عنها أصلا • ولم يكن هذا هو المشكل الوحيد ، فقد قنبل اسطول فرنسي بقيادة أمير البحر ، جان ديستري d'Etrées طرابلس بقذائف مدافع الهاون ، وباستعماله التهديد باستخدام نفس السلاح ، أجبر التونسيين على التوقيع على معاهدة جديدة أعطت التجار الفرنسيين امتيازات خاصة كانت الى ذلك الحين يتمتع بها الانكليز • وقامت قطع بحرية حربية فرنسية أخرى بالاستيلاء على خمس سفن جزائرية • وقد استطاع طاقم اثنين منها أن يقفز وينجو الى الشاطىء ، ولكن طاقم الثلاث الأخرى اسروا ، ولم يستطع الداي أن يحصل على اطلاق سراحهم •

وخلال سنتين ، منذ جدد تورفيل المعاهدة ، والداي والديوان يحاولون ، بدون جدوى ، اقناع الفرنسيين باحترام التزاماتهم • لقد مات كولبير ، ولكن ابنه سينيلي Seignelay ، الذي يشارك والده في احتقار جمهورية « الذباحين » كان هو خليفته • وقد رفض الاجابة على رسائل الداي ، أو فعل أي شيء بالنسبة للاتراك والجزائريين الموثقين في السفن الفرنسية • وعند اليأس أعلن الجزائريون أخيرا

الحرب ضد فرنسا من جديد . وبدأ الرياس يجلبون الغنائم الفرنسية .
ولم تكن هذه الحركة محبوبة عند كل الناس في الجزائر . ذلك ان القصف الفرنسي قد ادى الى أضرار كثيرة في الأملاك أو في الأرواح ، ولكن أثقل الأعباء من ذلك سقط على كاهل البلدية (الحضر) الذين لا يكاد يذكر لهم تأثير على مجرى السياسة . أما طائفة الرياس فقد كانت تؤكد الحرب ، وكان لها تأثير قوي في مجالس الداي . وطالما كانت الجزائر في سلام مع انكلترا أو الأراضي المنخفضة وفرنسا فالغنائم كانت قليلة . وكان الداي ، الذي هو نفسه عضو في جماعة الرياس ، يملك على الأقل سفينة واحدة من سفن البحارة . وتدل التقارير على أنه كان لا يهمه القصف ما دام هناك غنائم وفيرة . وكان التجار الفرنسيون ، ولا سيما أولئك الذين كانوا في الحصن ، خائفين من عواقب حرب جديدة ، ولكن عندما كتب دينس دوسولت Dusault ، حاكم الحصن ، الى الداي يحثه على السلام ، أجابه الجزائريون بسخرية بأن عليه أن يعتني بتجارته ويترك السياسة للرجال الذين يحكمون . ومن الواضح أنه بالرغم من أن الحرب قد اندلعت بسبب رفض الفرنسيين احترام التزاماتهم في المعاهدة ، فانها لم تكن محل أسف كل من كان يعيش في الجزائر .

أعلن الجزائريون الحرب في أغسطس سنة 1687 ، وأخذ الرياس في احضار الغنائم الفرنسية ، وأول السفن الحربية الفرنسية وصلت أمام الجزائر في 13 يونيو سنة 1688 . وفي السادس عشر منه أصبح هناك أسطول ضخم يحتوي على سفن من نوع الغلايات galleys ، ونوع البولاكر polacres ونوع المطاردات tartans ، ونوع السفن حاملة القذائف ، والسفن الحربية . وقد أرسل أمير البحر ، ديستير ، رسالة طافية (فوق الماء) الى الرصيف موجهة الى الداي ، وطلب ميزو مورتو من ضابط انكليزي أن يجيبه بأنه « اذا كان له (أي لديستير) ما يقول فيمكنه أن يرسل علم هدنة الى الرصيف وسوف لا يصيبه أذى » وأضاف (الداي) ميزومورتو بأنه اذا وقع قصف ، فان القنصل الفرنسي والقسيس العام وغيرهما من الفرنسيين سيوضعون فى فوهات المدافع . وقد قيل ان ديستير أخبر الضابط هوبمان Hobman « لو لم تكن انكليزيا

لشنقتك على احضارك هذا الجواب • » وبدأ القصف الفرنسي يوم 22 يونيو (جوان) « مع اصابات بالغة للمنازل والدكاكين » بالجزائر • وقد وضع ثلاثة من الفرنسيين في أفواه المدافع ولكن القنصل نجا من هذا الاعدام الأول • وقد وصف أحد التجار الانكليز ذلك بقوله : « ان قنصلكم كان على استعداد ليكون ضحية ••• ولكن علي رايس أنقذ حياته ، فأعيد الى البانيو (السجن) • » ـ ولكن ذلك كان مؤقتا فقط • وعرض الجزائريون التفاوض ، ولكن ديستير رفض ، اذ ما يزالون في نظره يستحقون العقاب • وفي الثاني والعشرين بدأت القذائف «تتطاير بكثرة وقوة ••• حتى بلغ مجموعها ثلاثة آلاف ••• ولم تحدث المدافع التركية الا أضرارا طفيفة •• ولكن على الساعة الرابعة مساء قذف بالقنصل (الفرنسي) وأربعة آخرين من الفرنسيين •» فأمر ديستير بقتل ثلاثة أتراك وترك جثثهم تطفو الى الرصيف على خشبة ! • وفي يوم 25 قذف بالقسيس العام وأربعة فرنسيين آخرين من أفواه المدافع ، وفي اليوم التالي كان هناك ثلاثة جثث لأتراك آخرين تطفو نحو الرصيف على خشبة !! ثم انطلقت القذائف من جديد يوم 27 ، فأحضر سبعة عشر فرنسيا آخرين لاعدامهم ، ولكنهم أعطوا الخيار بأن يصبحوا يهودا فقبلوا الخيار بسرعة • وهناك قضية جانبية تتعلق بالنقود الى الباشا ـ الداي قبل « ارسالهم ليتعلموا شريعة موسى • » وقد رفض الجزائريون الآن أي اقترام بالتفاوض • فالداي لاحظ أن الفرنسيين سيغادرون عندما يطلقون آخر طلقة في جعبتهم • وفي أوائل أغسطس اتصل ديستير بأوامر الرجوع الى فرنسا • فقد كانت الخطط تحضر لغزو فرنسي لأرض الراين ، وقد يكون الأسطول أكثر فائدة (*) في فرنسا ، مسلحا ومجهزا، منه في هذه النقطة البعيدة حيث نفد معظم بارودة وطلقاته •

عبرت المذكرة الفرنسية التي أعدت لتقدم الى المجلس الملكي عن عدم ارتياحها لطريقة الحروب الفرنسية ضد الجزائر • فقد استطاع الانكليز

(*) ـ لا ندري لماذا لم يحكم المؤلف على مهمة الأسطول الفرنسي في الجزائر بالفشل ، وبدلا من ذلك قال عنه انه ذهب في مهمة اخرى ، ولكن السؤال يبقى : هل كان أمام هذا الأسطول اختيار آخر غير طي شراعه والاقلاع عائدا بالخيبة الى بلاده ؟ • (المترجم) •

ان يحطموا ثلاثين سفينة للبحارة خلال حرب دامت أربعة عشر شهرا ، بينما لم يستول الفرنسيون الا على خمس فقط . قام الانكليز بالحرب سريا وبهدوء ، بينما حارب الفرنسيون بضجة كبيرة . ان السفن الحربية الفرنسية لم تتمكن من ادراك السفن الجزائرية الأكثر خفة ، لأنها (أي السفن الفرنسية) « كانت سفننا من الخشب الثقيل ، محملة بالمدافع الثقيلة ... وفيها قطع الغيار مضاعفة ... انها سفن محملة للقيام برحلة الى سيام .. وبكمية كبيرة من الخمور والماء وكل أنواع الطعام . » أما الجزائريون فلا يحملون غير الزيتون والبيسكوت ، ومؤونة لا تزيد عن ثلاثة أسابيع . ويبدو أن كاتب المذكرة كان لا يعرف أن القصف كان قد سبب خسائر « أعظم مما كان متوقعا (بعد التجربة الأولى التي كانت نسبيا غير فعالة) . وكان ثلث المدينة (الجزائر) خرائب ... وسوف لن تبنى أبدا بنفس الفخامة القديمة . »

وقد لاحظ السيد كول Cole ، وهو تاجر انكليزي في الجزائر « لقد تسببوا مع ذلك ، في أضرار فعلية ... ان عشرين سنة لن تجعل مدينتكم جميلة مثل جمالها السابق ... » وما هو أيضا غير معلوم في سنة 1688 هو أن ذلك القصف قد تولد عنه خوف كبير وكره للفرنسيين حتى أن الارادة الخيرة التي نالها الفرنسيون خلال القرون السابقة لن تطبع السياسة الجزائرية مرة أخرى . فقد تركت سياسة الارهاب التي اتبعها لويس الرابع عشر في الأراضي المنخفضة والمانيا وايطاليا بالاضافة الى الجزائر ، تركت تراثا من الحقد الذي لون الآراء مدة أجيال قادمة .

ان ديستير قد استدعي الى فرنسا عشية الغزو الفرنسي لأراضي الراين، وهو الغزو الذي كان المفروض فيه أن يمنع الدولة العثمانية من انهاء حربها مع الامبراطور (ليوبولد) ، ويجبر الألمان على جعل هدنة راتيسبون معاهدة سلام دائمة . فكان أن منع محادثات السلام العثمانية، ولكن فيليبسبورغ Philippsburg صمدت أكثر مما كان متوقعا . ان الألمان لم « ينحنوا » في وجه القوة الفرنسية ، وحالما كان الجيش الفرنسي منشغلا بالراين ، استطاع أمير أورنج ، ويليام الثالث ، أن يجر

الى انكلترا لكي « يحمي الحريات الانكليزية والدين البروتيستانتي » بالاضافة الى جلب انكلترا الى الحلف ضد فرنسا أو ما يعرف (بالثورة المجيدة ، سنة 1689) • وان هذا المشروع الذي خطط له لويس الرابع عشر جاء مختلفا عما كان قد توقع منه ، مثل مشاريعه الأخرى الكثيرة • فقد كان الجزائريون هم الرابحين ، ففي أبريل سنة 1689 وصل مبعوث فرنسي سريا الى الجزائر ، وفي الثالث عشر من شهر مايو وصلت أيضا سفينة حربية فرنسية وعليها مسؤول مستعد للمفاوضة طبقا للشروط الجزائرية ••

وان المعاهدة الجديدة قامت على قواعد المعاهدات القديمة ، ولكن الفرنسيين وافقوا هذه المرة على اعادة السفن الخمس التي احتجزت قبل بداية الحرب ، وعلى دفع مبلغ مالي ضخم مقابل سفينة تعود الى أحد الرياس أصحاب النفوذ ، وهو محمد (Memet) رايس والتي كانوا قد احرقوها • كما وافقوا على مد الجزائريين بتسعة آلاف قبلة (قذيفة) ، وأربعة مدافع هاوون وقائد مدفعية لحصار وهران • وهذا الأمر يفترض فيه أن يساعد الجهود الفرنسية فى الحرب ضد اسبانيا • وكذلك اعترفوا بأنه يمكن للرياس الجزائريين أن يسترقوا « الأجانب » الذين يجدونهم فوق السفن الفرنسية ، ووافقوا على أن السفن الحربية الفرنسية لن تقوم بتحركات على ساحل الشمال الافريقي • أما الجزائريون فقد وافقوا على فداء الأرقاء الذين يحتجزهم الفرنسيون بثمن 150 ريال للاتراك و 100 ريال للجزائريين ، وأن يعيدوا البضائع التي استولوا عليها من السفن الفرنسية عندما بدأت الحرب ، وأن يسمحوا باعادة شراء الأرقاء الفرنسيين ، ولكن بأسعار يقدرها المالكون للارقاء • وكان عند الفرنسيين تسعون يوما للمصادقة على المعاهدة وأن يسلموا القنابل • انه لموقف يميز علاقات لويس الرابع عشر مع الجزائر : فالفرنسيون أولا أظهروا الاحتقار ، ثم قصفوا المدينة ، وأخيرا ، تحت ضغط الاحداث فى أروبا ، جددوا معاهداتهم مع تنازلات للبحارة (الجزائريين) • غير أن تجارب القصف الثلاث كانت لها نتائج خطيرة على مجرى الحرب البحرية الجزائرية ، ذلك ان المستقبل ما يزال سيتضبب بالحروب الأروبية ، ولكن البحارة لن يتمتعوا أبدا من جديد

بالازدهار الذي عرفوه مدة طويلة خلال القرن السابع عشر ، لأن أرو
التي برزت من هذه الحروب كانت تختلف تماما عن أنماطها القديمة .

ان الأهمية الحقيقية للحرب البحرية الانكليزية التي استطاعت ان تغل
وتغرق بفعالية الوحدات البحرية الخاصة للبحارة الجزائريين ، والقصف
الفرنسي الذي عاقب المدينة (الجزائر) عقابا عنيفا ، لم
تصبح بارزة تماما مدة ربع قرن آخر . وبين 1689 و 1714 جرت
حربان عظيمتان شملت القوات العسكرية لأوربا الغربية .
وعندما انقشعتا كان حوض البحر الأبيض والناس الذين يعيشون على
ضفافه تحت وضع سياسي - عسكري جديد ومختلف اختلافا واسعا ،
كما حدث توازن جديد للقوة كان مسؤولا على توجيه جديد لجماعات
البحارة في شمال افريقية .

الفصل الثاني عشر

الحروب العظمى، 1688 - 1714

أمر لويس الرابع عشر ابنه ، أواخر صيف سنة 1688 ، أن يقود جيشا الى الراينلاند لمحاصرة قلعة فيليبسبورغ الكبيرة . لقد كانت تلك حركة من لويس تهدف الى منع السلطان العثماني من عقد سلام منفصل مع الامبراطور ليوبولد والجمعية المقدسة (1) . ولم يكن الفرنسيون راغبين في هذا السلام . ذلك انه سيؤدي الى تحلل الجيش الالماني الذي حنكته المعارك ، ذلك الجيش الذي يمكن استعماله لفسخ الالحاقات الفرنسية — وهي المساة الاتحادات Réunions — بالراينلاند . وقد كنا رأينا انه عندما هزمت الجيوش الالمانية الرسمية والبولندية الاتراك في فيينا ، وقع امبراطور ليوبولد معاهدة مع لويس الرابع عشر لم تكن في الحقيقة سوى هدنة . فهي لم تعترف بشرعية « الاتحادات » . وهكذا ، فانه عندما ظهر أن جيوش ليوبولد يمكن تحللها من المجر ، قرر لويس الرابع عشر ان الوقت قد حان لاجبار الالمان على الاعتراف بالحاقاته . غير ان الغزوة الفرنسية لم تتم كما توقعها الفرنسيون ، ذلك أن فيليبسبورغ كانت أقوى مما اعتقدوه ، ثم ان أمطار الخريف قد حولت منطقة الحصار الى بحر من الوحل . ان القلعة قد سقطت فعلا ، ولكن الجيش الالماني ،

1 — ان الجمعية المقدسة للدولة (الامبراطورية) الالمانية والبندقية وبولندا وروسيا قد ولدت خلال 1683 — 1684 بعد فشل الحصار التركي لفيينا ، وبحلول سنة 1688 ادت انتصارات هذه الجمعية الى طرد الاتراك من المجر واصبح الجيش الالماني الرسمي يحاصر بلغراد (التي سقطت في سبتمبر 1688) ، وكان البنادقة قد استولوا تماما على البيلوبونيس (البلوبونان) واصبحوا يهددون البلقان باستيلاءات أخرى ، فكان السلطان ووزراؤه مستعدين لعقد السلام .

كان ، عند سقوطها ، ف طريقه من المجر الى المانيا • ولم يكن ف وسع الفرنسيين نأ يفكروا ف جواب أفضل من احراق وتخريب جميع المدن والقرى الواقعة على حزام عريض حول الراينلاند الالمانية • ولكن هذه الحركة الفرنسية لم تجعل الالمان ينشدون السلام ، بالعكس فان أعمال الارهاب هي التي منحت الميلاد للقومية (+) الالمانية (1) •

وعندما علم الباب العالي بالغزو الفرنسي للراينلاند لم يعقد السلام مع الجمعية المقدمة ، ولكن لويس الرابع عشر وجد نفسه بسرعة ف حرب مع تحالف من القوات التي شملت الامبراطور الالماني ، وأغلب الأمراء الألمان ، وممالك أنكلترا وأسبانيا ، وكذلك دوق صافوى • ان التحصينات التي أحاط بها فوبان Vauban مملكة فرنسا كانت ضمانا ضد أي اعتداء ، ولكن التحالف كان من القوة بحيث منع تدخلا فرنسيا خطيرا ف المانيا أو هولندا • وتتيجة لذلك ، كان لويس ف حرب لمدة تسع سنوات ، وهي حرب الاستنزاف التي كانت عبئا ثقيلا على مملكته وشعبه •

وليس هناك حرب بهذه الضخامة يمكن خوضها دون أن تترك أثرا على الجزائر • فقد رأينا انه ف الصيف السابق لغزوه للراينلاند ، أرسل لويس الرابع عشر قنابل سفنه Ketches مدعومة بقوة بحرية عظيمة لضرب الجزائر ، حتى الاستسلام • وان آثار هذا القصف كانت مهلكة بالنسبة للمنازل والأسواق والمساجد ، رغم ان الخسائر ف الأرواح منها كانت طفيفة • وقد غادر الفرنسيون متوجهين الى بلادهم تاركين ف الجزائر كرها عميقا ضد فرنسا وضد ملكها • ومع ذلك فانه عندما أصبح الفرنسيون

(*) – نحن نؤيد ما ذهب اليه المؤلف هنا من أن الارهاب الفرنسي ايقظ القومية الالمانية . ولكن لماذا لم يقل ذلك عن نفس الارهاب الفرنسي (حملة دوكين ، الفصل الحادي عشر) بالنسبة للجزائر ؟ (المترجم) .

1 – لقد كان للاعتداء الفرنسي على الراينلاند نتيجة اخرى خطيرة جدا ، ذلك انه عندما اصبح الجيش الفرنسي متورطا في محاصرة فيليبسبورغ منح برلمان الاراضي المنخفضة الاذن الى ويليام اوف اورانج لنقل جيشه الى انكلترا للدفاع عن القضية « البروتستانية » وقد فر الملك جيمس الثاني وملكته وابنه الذي لم يمض على ميلاده وقت طويل ، فروا الى خارج المملكة ، ونتيجة لما يسمى بالثورة المجيدة اصبح ويليام وزوجته ماري (وهي البنت الكبرى لجيمس الثاني) ملكا وملكة لانكلترا .

متورطين فى حرب بأوروبا ، فانهم كانوا مستعدين فى شمال افريقية لتطبيق المثل الذي يقول : ما فات مات . لقد كان ذلك هو النموذج المتبع دائما ، فكلما كان لويس الرابع عشر متورطا فى حرب بالقارة الأروبية ، لجأ وزراؤه الى نشدان السلام مع جماعة شمال افريقية . فهم لا يريدون نزاعا صغيرا على جانبهم اذا كانوا منهمكين فى حرب حقيقية فى مكان آخر . وهكذا نجح السفير الفرنسي باسطانبول فى تعيين اسماعيل باشا ليكون باشا الجزائر ، وليعقد السلام . ولكن اسماعيل ، الذي كان دعيا وصنيعة من صنائع لويس الرابع عشر ، لم يسمح له بالنزول فى الجزائر ، بل قيل له ان حياته ستكون فى خطر اذا حاول ذلك . ان رسائله الى لويس الرابع عشر تقدم لنا صورة كئيبة لرجل مرفوض ، بالاضافة الى انها مرآة لذلك الكره الذي أثارته القنابل الفرنسية .

ولا يمكن عقد السلام خلال خريف سنة 1688 ، ومع ذلك فانه فى أوائل السنة الموالية ، كانت للداي (حسين) ميزو مورتو اقتناعات واضحة للوصول الى اتفاق مع فرنسا . فقد كان رجع الى الجزائر من حملة تأديبية على حدوده الغربية ، بالضبط عندما كانت القوات البحرية الفرنسية تنهي قصفها . واكتشف فى يناير الموالي انه كان يواجه حلفا من سلطان مراكش وباي تونس سيستنفد قواته فى نزاع يائس . وهذا الوضع جعل عقد السلام مع فرنسا يظهر مقترحا معقولا . ولكنه عندما تلقى رسالة من الملك الفرنسي يقترح فيها السلام ، كان جواب الديوان هو الصمت الرهيب . وقد يكون الداي ووزراؤه مستعدين لعقد السلام ، ولكن الديوان كان ما يزال معارضا . غير ان ميزو مورتو استمر فى المفاوضات سريا ، وأخيرا وافق على معاهدة كانت فى الأساس هي نفس المعاهدة السابقة . لقد وقعت يوم 24 سبتمبر 1689 ، قبيل اليوم الذي انطلق فيه ميزومورتو على رأس جيشه متوجهين نحو الحدود الشرقية لمحاربة باي تونس .

ولكن الحملة كانت فاشلة فشلا ذريعا ، وقد طالب الانكشارية برأس الداي ، وهو الأمر الذي غالبا ما كان يحدث فى مثل هذه الأحوال . غير انه هرب ، وانتهى فى خدمته بأن أصبح باشا وأمير أسطول السلطان فى

وقد أصبح الحاج شعبان ، وهو جندي صلب المراس ، هو داي الجزائر . لقد كان أول حلقة في سلسلة طويلة من الدايات الجنود الذين حكموا الجماعة (بالجزائر) خلال القرن الثامن عشر . ان عهد الدايات المنحدرين من الرياس قد انتهى . وقد واجه الداي (+) نفس المشكل الذي واجه سلفه ، وهو الحدود التونسية . ذلك ان باي تونس قد أصبح من جديد متحالفا مع عدد من أهالي القبائل الجزائرية . وكان من نتيجة ذلك أن أولئك الأهالي رفضوا دفع الضرائب الى حكومة الجزائر . وما دامت هذه الضرائب النقدية كانت ضرورية جدا لدفع أجور الانكشارية ، فانه كان على الداي أن يركز اهتمامه المطلق على استعادة سلطته على أهالي القبائل ومعاقبة باي تونس . وكان على الحاج شعبان أن يقنع الديوان بأن عقد معاهدة مع فرنسا كان أمرا ضروريا وقد شرع في ارسال رسائل منفصلة كل من لويس الرابع عشر وسينيولي Seigneley تقول بأن المعاهدة كانت غير محبوبة لأن قسما كبيرا من الديوان يعتقد أن ميزومورتو قد ملأ جيبه الخاص عند الموافقة عليها . على انه من الواضح ان المعاهدة يجب عقدها . وبعد ايجاد عدد من التعديلات الطفيفة المقبولة ، أعلن (أي الحاج شعبان) ان فرنسا وايالة الجزائر قد عقدتا معاهدة ستدوم مائة سنة . ان هذا النوع من الأسلوب البلاغي كان شائع الاستعمال ، ولكنه في هذه الحالة برهن بدهشة على انه كان صادقا ذلك ان المعاهدة قد دامت فعلا الى عهد الثورة الفرنسية .

ان عقد معاهدة بين فرنسا والجزائر قد خلق مشكلا لملك أنكلترا الجديد ، ويليام الثالث ، الذي كان في نفس الوقت حاكما (Stadtholder) للأراضي المنخفضة المتحدة . ان الجزائر لا يمكنها أن تكون في سلام مع أكثر من اثنتين من الدول التجارية الثلاث الهامة ، وقد كان الرياس يشعرون بالغبطة عندما كانت الجزائر في حرب مع اثنتين على الأقل من الدول الثلاث . وما دامت أنكلترا والجزائر في سلام — في الوقت الراهن ،

(+) — يعني شعبان باشا ، انظر عنه بعد قليل من هذا الفصل وانظر عنه ايضا مقالتنا (من أخبار شعبان باشا ، داي الجزائر) كما جاءت في كتاب (الشهب المحرقة) لأحمد بربار ، في مجلة التاريخ ، عدد النصف الثاني من سنة 1984 ، عدد خاصا بالمرحوم احمد توفيق المدني . (المترجم) .

على كل حال ـ وها هي فرنسا قد استطاعت أن تعقد معاهدة معها (الجزائر) ، فان ويليام الثالث قد فهم انه من غير المحتمل ان تستطيع الأراضي المنخفضة أن تعقد أيضا السلام مع الجزائر . ولم يكن مصير مواطنيه الهولنديين هو القضية الوحيدة ، ذلك ان الجزائريين كانوا قد عقدوا معاهدة مع ملك أنكلترا ، جيمس الثاني ، وكانت الجوازات المعترف بها من قبل الرياس موقعة باسم جيمس الثاني . وقد كان من نتيجة « الثورة المجيدة » صعود ويليام وماري على العرش الانكليزي ، ونفي جيمس الى فرنسا . وقد سارع الملك جيمس الثاني بالكتابة الى سلطان الدولة العثمانية وداي الجزائر (1) ، مشيرا لهما بأن ويليام كان قد اغتصب منه الملك ، وانه كان حليفا للامبراطور الالماني الذي احتلت جيوشه بلغراد ، بالاضافة الى أنه حليف مجلس شيوخ البندقية الذي احتلت جيوشه وأسطوله البحري جزا من اليونان ، وكانوا يضطهدون جميع تجار المسلمين بالمشرق . وقد حث جيمس بأن لا يعترف رياس الجزائر بأي جوازات موقعة من قبل ويليام الثالث . ولذلك كان القنصل الانكليزي بالجزائر فى وضع غريب . فبالنسبة لقضية السلام بين الجزائر والأراضي المنخفضة المتحدة ، كان يعلم ان السلام مع الاراضي المنخفضة قد يعني الحرب مع انكلترا . وبالاضافة الى ذلك ، فان مشاكل القنصل قد تضاعفت من جراء انه بينما كان ملك أنكلترا فى دوره كحاكم (Stadtholder) للأراضي المنخفضة المتحدة يحث على السلام بين الجزائر وهولندا ، فان السياسة الانكليزية فى الماضي كانت تقوم على تشجيع الجزائريين على أن يكونوا فى حرب مع هولندا ، وانه حتى بعد أن أصبح ويليام ملكا على أنكلترا ، فان كثيرا من الناس فى أنكلترا كان يسعدهم أن يروا الجزائر تدخل فى حرب مع أكبر منافس تجاري لهم (أي هولندا) .

ومنذ وقت بعيد كان الانكليز والهولنديون قد قرروا اتباع سياسة حازمة ، مدهونة بالرشوة ، وفى حالة هولندا اتباع سياسة الهبة التي تعني

---

1 ـ اخبر القنصل الانكليزي حكومته بأن رسالة الملك جيمس يمكن شراؤها بخمسين دولارا .

على الارهاب • ذلك أن العمل البحري ضد عدو كثير المداورة يقتضي الابقاء على أسطول كبير في البحر لمدة طويلة ، كما أن القصف البحري الذي يبدو فعالا جزئيا فقط ، كان عملية باهظة الثمن • والواقع ان كلا من قنصل أنكلترا وفرنسا في الجزائر كان يحث على استعمال الرشوة باعتبارها البديل المناسب للعمل البحري • فقد كتب القنصل جون نيفل Neville الى من هو أعلى منه ، سنة 1683 ، على اثر القصف الفرنسي الوحشي لمدينة الجزائر فقال : « سيدي ، ان هؤلاء الناس سيفعلون أي شيء تطلبه منهم من أجل النقود ... والداي سيقطع أي رأس حسب الطلب ... من أجل الدراهم • حقا ، ان الداي قد سأل فعلا كم كلف القصف الفرنسي ، وبعد أن سمع رقم التكاليف لاحظ انه « يمكنه هو هدم مدينة الجزائر كلها من أجل ذلك المبلغ • » غير ان سياسة قائمة على الرشوة قد تكون أيضا سياسة صعبة • ان « الهدايا » التي قدمها القنصل ريكولت Rycault سنة 1684 والبالغة 442 دولارا هولنديا نقدا ، متراوحة ما بين ستين دولارا للمستشارين الرئيسيين للداي وبعض الدريهمات (بياسترز) للآخرين الأدنين ، قد أصبحت « سابقة » • لأن اعطاءها مرة جعلها « متوقعة » في كل مرة • وقد وجد القناصل اللاحقون صعوبة في توضيح ان تلك الهدايا لم تكن اجراء منتظما • وحدث وضع مماثل بعد سنوات قلائل عندما وصلت حمولة من البارود والرصاص الى الجزائر على ظهر سفينة حربية • فقد اعتقد الانكليز انها للبيع ، ولكن الداي أكد لهم بأنها حتما كانت « هدية » ، أتباعا للسابقة التي أنشأها أمير البحر هيربرت Herbert عدة سنوات خلت • ولما احتج القنصل ، لاحظ له الداي ، بمكر ، بأنه سيكون من السهل عقد سلام مع الأراضي المنخفضة اذا كانت أنكلترا راغبة فيه • ان هذا التقليد جعل القناصل قلقين ، ولكن اذا ما تطورت الحرب في أروبا ، فان جميعهم كانوا حريصين على أتباع سياسة الرشوة أو الاتاوة ـ سمها بما تشاء ـ لتجنيد الجزائريين ضد عدوهم •

وعندما تحثهما حكوماتهما على تأمين دخول البحارة الجزائريين ضد العدو القوي ، كان القنصل الانكليزي والفرنسي يصران ، في حديثهما

الخاص أو المنفصل ، على ان النقود هي العامل الحاسم في هذا المجهود . وبعد سنة 1690 أكد القنصل الانكليزي لحكومته بأن حوالي عشرة آلاف دولار هولندي ستكون كافية للحصول على قطيعة جديدة بين الجزائر وفرنسا . لقد كان هذا مبلغا ضخما ، وليس من السهل نقله نقدا ، لأن البحر الأبيض كان غاصا بالسفن الفرنسية الخاصة والسفن الحربية . ومع ذلك فان تلك النقود استطاعت أن تصل أخيرا الى هدفها عبر ليفورنيا . وفي نفس الوقت كان القنصل الفرنسي يشتكي بمرارة من شح حركة حكومته بالمقارنة مع الكرم الذي يناله منافسه الانكليزي . ولكن عندما انكشفت جميع الأوراق ، فشل الطرفان (الانكليزي والفرنسي) في الحصول على التدخل الجزائري في الحرب ، وقد شرح القنصل الانكليزي بأنه في اللحظة التي حصل فيها على النقود الضرورية لكسب الموقف ، وصل المهندسون الفرنسيون ومعهم أجهزة جرف قادرة على جرف الرمال من المرسى الجزائري الى ما وراء الرصيف البحري (المول) . ان الجزائريين ، مثل السياسيين في أماكن وأوقات أخرى ، أخذوا الرشوة ولكنهم فشلوا في تقديم البديل . وقد كان للحاج شعبان ، سنة 1691 ، مبررات في أخذ النقود من أنكلترا وفرنسا ، ولكنه تفادى التورط في الصعوبات مع كلتيهما .

ان أكبر مشاكل الداي هي نزاعه المستمر مع جيرانه التونسيين والمراكشيين . لقد حاول ميزومورتو اقامة أمير تابع له على عرش تونس . ولكن جهوده فشلت . وفي الأخير ضيع هو عرشه عندما ثارت جنوده ضده . وسرعان ما أصبح الحاج شعبان متورطا في نفس النزاع . كانت أول جهوده العسكرية موجهة ضد سلطان مراكش الذي اعتدت جيوشه على البايليك الغربي . وقد هزمه شعبان وحصل على معلومات تفيد أن هناك مشروعا لتقسيم الايالة الجزائرية بين مراكش وتونس . ثم أسرع شعبان بالتوجه الى تونس متحالفا في ذلك مع طرابلس . وقد تكبد محمد ، باي تونس ، الهزيمة واختار المنفى ، بينما وضع الجزائريون المنتصرون حاكما جديدا تابعا لهم على عرش تونس . ولكن عندما رجع الحاج شعبان الى الجزائر ، وجد المدينة ثائرة ضد حكومته ومهددة بعدوى أخرى خطيرة من الطاعون . واستطاعت الانكشارية أن تضع

جدا للتمرد ، ولكن الطاعون أودى بحياة الكثير من الناس في المدينة .
والواقع انه من الممكن القول أن الزيارات المزمنة للطاعون الدملي هي التي كانت السبب الرئيسي لتدهور الجزائر في القرن الثامن عشر .

ولكن الانتصار على محمد ، باي تونس ، قد برهن على أنه قصير الأمد . ذلك ان الساحة السياسية والعسكرية في شمال افريقية كانت متارجحة وغير عقلانية . وكان جزء من ذلك يعود الى التقنيات العسكرية الصالحة ، التي كانت لدى هؤلاء الناس . ولم تكن ميليشيا الانكشارية قوة منضبطة ومنظمة بأية حال . ولم يكن لاعضائها الا قليل أو لا شيء من التدريب . وكان تكتيكها في المعارك معتمدا على مربعات أو صفوف متقاربة وضعيفة التشكيل من رجال البنادق الذين يطلقون النار عشوائيا ، تساعدهم مدفعية ذات فوهات صغيرة جدا تحتاج الى حماية المشاة . ونفس التكتيك كانت تستعمله المليشيا التونسية التركية ، ولكنها كانت على درجة أقل بكثير مما كان مستعملا في الجزائر . أما بالنسبة للباقي ، فان جماعات الفرسان من البربر والعرب كانت تعتمد في أغلب الأحيان على الجلبة الصوتية أكثر مما كانت تعتمد على الرماح والبنادق التي تحملها . ويبدو أن هذه الجماعات كانت غير منضبطة ، وسرعان ما تضعف معنوياتها بنيران المدافع والبنادق . فالمعركة غالبا ما كانت تتميز بمنظر مأساوي طالما تميزت به أيضا هجومات الفرسان الاقطاعيين الفرنسيين ضد النشابة الانكليز أو الرماحة الفلامانش ، وذلك أواخر العصور الوسطى . ولعل الفرق هو أن الفرسان البربر والعرب كانوا أسرع بالهرب من الفرسان الاقطاعيين ان هذا الاتجاه الى الهرب من معركة مستحيلة قد ترك رجال القبائل أحرارا في المشاركة في المعركة القادمة حيث يكون هناك حظ أوفر من النجاح والغنيمة . ولعلهم كانوا حكماء في مغادرة ميدان الهزيمة بأسرع ما يمكن ، ذلك ان النمط المتبع هو انضمام الانكشارية التركية المنهزمة في الجيش التونسي الى المنتصرين في القبض على العرب أو البربر ، واذا لم يستطع هؤلاء أن يأتوا بالفداء الجيد ، فان رؤوسهم تقطع وتحمل كعلامة على الانتصار .

كانت الحياة السياسية فى المغرب دائما تسير سيرا اتفاقيا ، أو قضاء وقدرا . ففي خلال فترة قصيرة رجع محمد باي الى السلطة فى تونس ، ومن جديد وجد بسهولة حلفاء له فى رجال القبائل الذين كانوا يكرهون أسيادهم الأتراك فى الجزائر . وكان سلطان مراكش الذي كان يتطلع الى إعادة النظر فى العلاقات مع الجزائر ، سريعا فى الانضمام الى الباي التونسي ضد العدو المشترك . ان هذا التطور للأحداث قد كلف الحاج شعبان مرة أخرى حوالي أربعين ألف ايكو Ecus ، وهي الضريبة التي كان من الواجب دفعها الى الخزينة من البايليك الشرقي . لقد كانت نقودا هو فى أشد الحاجة اليها لدفع مرتبات الجنود . ولم يكن هناك بديل ، فأعادت المليشيا الجزائرية (الانكشارية) الكرة ضد تونس ، متحالفة هذه المرة مع باي طرابلس الذي كان له أيضا ما يؤاخذ به محمد باي .

وبحلول سنة 1695 استطاع شعبان أن « يهدىء » شمال افريقية وان يخرج برؤية جديدة لدوره (1) . فمن مجموعة الرسائل التي كتبها الى لويس الرابع عشر والى وزرائه نرى الحاج شعبان ، ذلك الجندي الداي ، يصارع من أجل تحقيق تصور لشمال افريقي موحد من جديد تحت

---

1 – كتب الحاج شعبان فى 6 مارس سنة 1965 الى لويس الرابع عشر يخبره عن انتصاره على التونسيين ، فرغم أن عددهم كان اكبر « فان الله العلي القدير قد منحنا النصر ، دون النظر الى ذلك العدد ، وعندما التقى الجيشان كان كل جندي منا يحارب مائتين (ولعل هذا مبالغة ضخمة) (**) .. وكانت الفرقة الجزائرية الواحدة تحارب اربع فرق من العدو ... اكثر من اربعين الف جندي بين فارس وراجل . ولكن بفضل الله فقدوا الشجاعة والقوة ، وحققنا انتصارا كاملا ، فاستولينا على جميع أمتعتهم ومدافعهم وبنادقهم وخيامهم واعلامهم وفساطيطهم وعتادهم الحربي ، وقد هرب الخائن محمد باي الى تونس ، وكان الباشا قد طلب الأمان في سفينة فرنسية .. ان هذا الانتصار حصل في سهول الكاف ، كما قضينا على عشرة آلاف ثائر من العرب الذين والوا (محمد) الباي ، وقد أعطينا الأمان الى 2700 تركي كانوا قد انضموا الينا ... » واستمر الداي شعبان على ذلك النحو ليبين انه « انا هو الذي شاء الله تعالى أن يجعلني وسيلة لتخليص تونس من الطغيان ومعاقبة الاشرار ... » وقد أخبر أن السلطان قد كرمه على انتصاره بمنحه هدية هي « قفطان شرف عظيم ، منحنيه لكي يظهر للناس مدى رضاه ... وفي نفس الوقت عينني اميرا وقائدا عاما للجمهوريات الثلاث ، ومعاونه في الدولة (الامبراطورية) . وهكذا فاني ارى نفسي اميرا وحاكما وضابطا وقائدا مطلقا لدول شمال افريقية الثلاث » ، (انظر بلانتي Plantet : مراسلات دايات الجزائر 1/451–452) .

(**) – ما بين القوسين توضيح من المؤلف نفسه . (المترجم) .

سلطة بايلارباي باشا ، وكان يرى ان هذا السنجق (الاقليم) الزيري ما هو الا جزء من الدولة (الامبراطورية) العثمانية . انه فاكهة « كنزي لانعاش السلطان » وتأمين حدوده في البحر الأبيض المتوسط . وكان شعبان ينظر الى « العرب » (وهي عبارة تجمع بوضوح البربر والعرب على السواء) (*) ، على انهم الأعداء الحقيقيون الذين تجب السيطرة عليهم لتأكيد السلطة التركية وضمان الدعم المالي للمليشيا الانكشارية . ومن الواضح انه كان يعتقد انه هو الرجل الذي يمكنه ان يحكم مجموع المدن والاعراش وغيرها من الكيانات السياسية . فهذا باي تونس الجديد كان تابعا له ، وهذا باي طرابلس كان حليفا له ، وكانت حملاته العسكرية القوية قد برهنت على انه كان جنديا قادرا على المحافظة على حكمه . ولكن قبل أن يقرر السلطان رأيه في جعله بايلارباي ، كان الحاج شعبان هدفا لمؤامرة اغتيال . وقد نجح في افشال هذا المشروع الأول ، ولكن انتقامه الوحشي أبعد عنه قسما كبيرا من أصحاب النفوذ في الانكشارية . وعندما وقعت مؤامرة جديدة ضده نجحت : فقد حمل الى السجن وخنق . ومن السخرية ان الحاج شعبان كان قد أخبر لويس الرابع عشر ، قبل ذلك بسنوات قليلة ، بأن مجال تحركاته كان محدودا ، لأن الداي كان بكل بساطة عبارة عن « مخلوق » للمليشيا ، « مخلوق » لا يستطيع أن يتصرف بدون دعمها (**) . ولم يمض الا عشر سنوات أو نحوها على ذلك حتى غير الدايات ذلك النمط من الدستور حتى يتمكنوا على الأقل من الحكم دون أن يكونوا قلقين من جانب الديوان . ولكن خليفته ، وهو رجل أقل مغامرة منه ، لم يتبع مشروع توحيد ايالات شمال افريقية . ويبدو أن ابرز غاياته كانت الحصول على الطعام اللذيذ والرغبة في العيش للتمتع به .

وواضح أن الجزائريين ، طالما كانوا في حالة حرب مع جيرانهم ، لا يريدون الدخول في نزاع مع عدو خطر خطورة الملك الفرنسي الذي ما

(*) – ما بين القوسين توضيح من المؤلف نفسه . (المترجم) .

(**) – كتبنا عن شعبان باشا مقالة استندنا فيها الى ما كتبه عنه أحمد برنار صاحب كتاب (الشعوب المحرقة) ، نشرت في (مجلة التاريخ) الجزائرية ، عدد 18 ، 1985 . (المترجم) .

تزال آثار قصف قنابله للجزائر حديثة العهد . ومع ذلك فان العلاقات مع فرنسا لم تسر سيرا حسنا . فالمشكل المزمن للاتراك والجزائريين ، وهم أولئك الأرقاء المقيدين على السفن الحربية الفرنسية ، قد استمر يقض مضجع الداي ووزرائه . لقد كان هؤلاء المنكودون فى بعض الأحيان أبناء أو أقارب للرياس أو غيرهم من أعيان مدينة الجزائر ، بينما كان آخرون منهم مجرد جنود انكشارية ولهم أصدقاء فى المليشيا ، ومنهم من كانت له علاقة غالية بالعائلات الحضرية فى المدينة ذات النفوذ أيضا . وكان أولئك الأرقاء يكتبون الرسائل الى بلدهم يقصون فيها أحوالهم ويذكرون فيها أسماء آخرين كانوا مثلهم مقيدين على السفن . وكانت هذه الرسائل تحمل الى الداي مع الالحاح عليه فى التحرك . وعلى الوجه الآخر من الصورة نجد ضباط السفن الحربية الفرنسية يتمتعون بأدوار هامة كحراس سواحل وسعاة بريد . وكانوا لا يريدون زعزعة قـوة التجديف عندهم بتنحية خيرة المجدفين لديهـم . لقد كان المجرمـون والهوغينات Huguenots المتمردون (1) الذين يؤتى بهم من الأراضي الفرنسية الى السفن الحربية ، كانوا فى العادة ضعفاء جدا ، وكانوا غير متعودين على حياة البحر ، ولذلك كانوا غير صالحين للتجديف . وكانت هناك دائما معاذير « مقنعة » لرفض اطلاق سراح أولئك الارقاء (المسلمين) من قيودهم فى السفن ، وهى معاذير ليس لها أي معنى فى الجزائر .

أرسل الحاج شعبان الى فرنسا أفصح رجاله لسانا ، وهو محمد المين El-Mine (الأمين ؟) ، لمحاولة اقناع الملك الفرنسى بتنفيذ مواد المعاهدة التى تنص على اطلاق سراح الأرقاء المسلمين ، أو على الأقل اطلاح سراح أولئك الذين لهم روابط فى الجزائر . وقد وصل محمد المين الى فرساي فى وقت غير مناسب . فالحرب فى أوروبا كانت بكل وضوح قضية دائمة تكلف المملكة (الفرنسية) الكثير وتعدها بالقليل ، فقد كانت تستنفد

---

1 - بعد الغاء معاهدة مرسوم نانت Edict of Nantes سنة 1685 وجهت جماعات كثيرة من الهوغينات المتمردين الى الاسطول الحربي . ان هؤلاء الرجال المنكودين لم يرتكبوا اي ذنب سوى ممارسة دينهم . وهناك دلائل تدل على ان معظمهم ، ولا سيما القساوسة والمعلمين ، كانوا بدنيا غير صالحين للعمل في السفن الحربية ، ولكن ما داموا قد أرسلوا الى هناك عقابا لهم ، فان عدم قدرتهم البدنية لم تؤخذ بعين الاعتبار .

الكثير من طاقة الملك ووقته . ولعل أكثر من ذلك أهمية بالنسبة للمبعوث الجزائري هو أن سينولي Seignelay ، الوزير الذي كان سيتحادث معه، كان مريضا ، مرض الموت ، بحيث توفي بعد عودة محمد المين الى الجزائر بقليل . وما دامت التقارير المرسلة الى الوزير من قبل متصرف طولون تشير الى أهمية الارقاء (المسلمين) في السفن الحربية بالنسبة للعمليات الناجحة التي يقوم بها الأسطول في البحر الأبيض فان محمد المين وجد نفسه دائما في الظل Antechambre . ولم يتمكن أبدا من رؤية سينولي . ان رسائله تعبر عن الشكوى المرة لرجل كان يرى نقوده ووقته وطاقته تتبخر بدون أدنى فرصة لنهاية ناجحة لمهمته . وأخيرا أمرته الوزارة ان يغادر فرساي وأن يتوجه الى طولون حيث سينظر المتصرف في قضيته . ولكن لم يصادف هناك نجاحا أكثر مما صادف في فرساي .

وبينما كان مبعوثه في فرنسا ، كان الحاج شعبان يكتب الى لويس الرابع عشر والى سينولي ليحث الفرنسيين على القيام بشروط المعاهدة. ان هذه الرسائل هامة لا من حيث الضوء الذي تلقيه على المشكل بل من حيث الضوء الذي تلقيه على شعور الداي نفسه . ان الحجج التي قدمها الداي كانت مصاغة في قالب مواعظ فقهية عريضة ، ومناقشات للحقوق الاخلاقية ، وتكرار فضفاض لوجهات النظر الجزائرية في القضية . ومن الواضح ان الحاج شعبان كان يملي هذه الرسائل بنفس الروح التي كان يحاضر بها أو يخطب بها في الديوان . وسيكون من المهم معرفة كيف استقبلت رسائله في فرساي .

وبعد وفاة سينولي سنة 1690 برهن وزير البحرية الجديد، بونشارتران Pontchartrain على أنه لم يكن أكثر مرونة ، وخصوصا بعد سنة 1692 ، عندما أصبح مسؤولا أيضا على تنظيم المجهودات الملكية المتعلقة بمكافحة المجاعة في فرنسا . ورغم ذلك ، فان دي لاكروا الابن de la Croix ، الذي قام بترجمة الرسائل الجزائرية ، والذي كان كذلك هو المترجم في كثير من المفاوضات قد أوضح ، في مذكرة أعدها ، بأن معاهدة سنة 1689 كانت معاهدة جيدة ، وان الجزائريين بصفة عامة قد التزموا بها واحترموها ، ولكنها كانت قد انتهكت

بالمؤامرات ومن قبل الأفراد والمسؤولين في فرنسا ، أولئك الذين « لا يعرفون البلاد (الجزائر) ، ولا يتكلمون اللغة ولا يعرفون عادات وتقاليد المفاوضات ، ولا التاريخ الماضي ... » وعلى اثر قراءة الرسائل الواردة من الجزائر ، فان المرء لا يكاد يفهم لماذا لم يقطع الداي كل العلاقات مع فرنسا ، ولكن ما دام معظم الأسطول الجزائري كان يؤدي الواجب مع البحرية العثمانية وما دام الجزء الأكبر من القوات البرية الجزائرية كان منشغلا بالحروب على الحدود ، فمن المحتمل ان تكون الحاجة الى المعونة (النقدية) من حصن فرنسا ، بالاضافة الى الخطر الكامن في الحرب ضد فرنسا ، هي التي قررت الموقف في صالح السلام . فنحن لا نملك الوثائق التي توضح هذه النقطة .

ان المجاعة في أوربا (1) سنة 1692 جعلت أسواق الحبوب في شمال افريقية عاملا هاما في مسيرة الحرب . فقد اعترف القنصل الانكليزي في الجزائر بأن قطع تدفق الحبوب ، وخصوصا من تونس ، يمكن ان يكون له عواقب خطيرة على جهود الحرب الفرنسية . وفي نفس الوقت اعترف بونشارتران أيضا ، باعتباره وزيرا مكلفا بمكافحة المجاعة ، بأن تونس قد أصبحت مصدرا حيويا للحبوب بالنسبة لجنوب فرنسا . ان كلا من المجاعة والشك في مصير الحرب بأوربا قد نتج عنه وضع فرنسي أكثر استعدادا للتفاهم ، ومع ذلك فان قضية الارقاء الجزائريين والأتراك في مقاعد التجديف على الأسطول الحربي الفرنسي قد استمرت تشكل العقبة الكأداء في العلاقات بين البلدين (الجزائر وفرنسا) .

وبينما كان الحاج شعبان متورطا في حروبه مع مراكش وتونس ، كان النزاع الأوربي يبدو وكأنه لا نهاية محتملة له ، لقد كان وضعا متجمدا ـ لا سلام ولا حرب ـ . غير ان الحرب قد ادت في الأخير الى نتيجة أثرت على جماعات البحارة في شمال افريقية . ان معركة لاهوغ La Hougue سنة 1692 ، كانت تبدو لأول وهلة نصرا غير حاسم لكلا الطرفين ، حقا أن الفرنسيين قد أمروا باقامة دعاء « الشكر لك

---

1 ـ ان اطروحة الدكتوراه التي تقدم بها بالريس بيرجي P. Berger عن هذه المجاعة (مكتبة جامعة شيكاغو) تعتبر عرضا ممتازا للقضايا المطروحة عندئذ .

Te Deums ، بينما ادعى الانكليز والهولنديون معاً « يا رب » الانتصار . اما في الجزائر فالأمر كان بعيدا عن الوضوح ، ولكن خلال سنة تبين أن معركة لاهوغ قد سجلت نهاية التفوق الفرنسي في البحر . ذلك أن أسطول كولبير ، قد عانى من العواصف بعد المعركة . وبعد وفاة سينيولي لم يكن هناك أحد يحث لويس الرابع عشر على صرف نقوده على الأسطول . وبحلول سنة 1695 أصبح نشاط الفرنسيين مقصورا على عمليات السفن الخاصة (القرصنة) في المحيط الأطلسي ومراقبة السواحل القريبة في البحر الأبيض . ومن جهة أخرى فان انشاء قاعدة انكليزية بحرية في قادس قد سمح للبحرية الانكليزية ــ الهولندية بمراقبة مضيق جبل طارق ، ومداخل المحيط الأطلسي نحو أوروبا واحتمال ممارسة ضغط بحري قوي في البحر الأبيض . وما دام معظم هذه الجهود الأخيرة كانت مستعملة للسيطرة على البحر على السواحل الجنوبية والشرقية لاسبانيا (1) ، فان الجزائر قد اعترفت بالقوة البحرية الانكليزية ، ولكن ــ وهذا ما أحزن القنصل الانكليزي في الجزائر ــ ليس باعتبارها القوة المهيمنة التي تقنع الداي بضرورة قطع العلاقات مع فرنسا .

والواقع أن الجزائريين كان عليهم أن يعترفوا بانه لا أحد من الطرفين (الانكليزي والفرنسي) يمكنه ادعاء النصر . ان دعاء « الشكر لك يا رب » Te Deums الفرنسي ، الذي وقع انشاده للاستيلاء على نمور Namur كان جيدا وطيبا ، ولكن من الواضح أن أعداءهم الانكليز والهولنديين لم يفشلوا ، ولم يكن الفرنسيون في وضع يجبرونهم به على نشدان السلام . بالعكس ، لقد كان ملك فرنسا هو الذي حاول أن يشكل « حزبا ثالثا » من المحايدين ليتدخلوا في محاولة وضع حد للمنازعات (2) .

---

1 ــ ان ذلك لم يمنع من حدوث النكبة التي حلت بوحدة بحرية انكليزية عندما حطمت عاصفة هوجاء قطعة كاملة من الأسطول .

2 ــ لقد تتبع ريتشارد بينغام Bingham في اطروحته للدكتوراه (جامعة الينوي ، شيكاغو سيركل) ، هذه القضية بالتفصيل .

وهذا الوضع كان مناسبا للداي ووزرائه . لقد كانوا مستعدين للاستماع لمقترحات الدخول في الحرب من الطرفين ، مع عدم القيام بأي شيء نحوها . وكون الطرفين قد اتصلا بهم (الداي ووزرائه) في هذا الموضوع له فوائد عملية . ذلك أن القناصل والتجار الأجانب قد أمطروهم بالهدايا : بالملابس ذات الصباغة الممتازة ، وبالساعات والمسدسات ، والساعات الحائطية ، والخواتم ، والمرايا ، والفواكه المجففة ، والخمور المعتقة ، والمعاجين الراقية . وكان القنصل الانكليزي كثير الاهتمام بتذكير حكومته بأن زوجات السلطات (الوزراء) الجزائرية كن طماعات كما كن صاحبات تأثير . فهن يحتجن أيضا الى « هدايا » ، ومن جهة أخرى فان النقود أيضا قد تبادلتها الأيدي (أي الرشوة) بهذه المناسبة . ولكن لا الحاج شعبان ، ولا خليفته الحاج أحمد ، قد قطع علاقته بالانكليز أو بالفرنسيين .

ولكن الحرب في أوروبا قد انتهت في الأخير بمعاهدات ريسويك Ryswick وبمعاهدة سابقة بين ملك فرنسا ودوق صافوى ، بدون التدخل الجزائري . حقا أن الحاج أحمد قد استطاع أن يموت موتا طبيعيا بالطاعون سنة 1698 بدون التورط فى الحرب على أية جهة من حدوده . ولكن خليفته ، حسن شاوش الذي كان أيضا ضابطا من الانكشارية ، لم يكن محظوظا مثله . وكانت تونس هي مشكلته . فقد كانت هناك عدة عائلات متنازعة على السلطة فى تونس . وفي سنة 1699 ظهر شخص يدعى مراد باي منتصرا . وكان ماضيه معروفا بأنه ماض عاصف . ففي احدى المرات أمر عمه بأن تفقأ عيناه ، ولكن طبيبا فرنسيا صديقا عرف كيف يجري العملية دون أن يفقده بصره فعلا . وعندما دارت الأيام وأصبح مراد في السلطة ، حمل رأس عمه على رمح . وعندما أصبح مراد على رأس الحكم رجع الى السياسة التي كان محمد باي قد سلكها منذ عشر سنوات خلت ، وهي التدخل في الضريبة التي كانت تدفع الى بايليك قسنطينة بالجزائر . وفى ربيع سنة 1700 حدثت معركة بين القوات التي كان يقودها باي قسنطينة والتونسيين ، وقد خرج منها مراد منتصرا وارتكب مجزرة في الأسرى ، بما في ذلك

حوالي خمسمائة من الانكشارية ، وأرسل آذانهم الى تونس دليلا على انتصاره ، ثم فتح المفاوضات مع سلطان مراكش للقيام بعمل مشترك ضد الجزائر .

وكانت أخبار المجزرة قد جاءت بمنات من مليشيا الانكشارية الى قصر الداي طالبين الأخذ بالثأر . فما كان من حسن شاوش الا أن استقال في الحال من منصبه ، وخلفه فيه الحاج مصطفى ، الذي كان جنديا قويا ، وأصبح هو الداي . وقد نظم الداي الجديد حملة لفك حصار مراد باي على قسنطينة . كانت قواته أقل من قوات التونسيين ، ولكنه هاجم معسكرهم خلال الليل ، فكانت مفاجأة كاملة ـ وهي حقيقة هامة توضح ما كانت عليه هذه الجيوش ـ وانتصارا حاسما . وقد قام الداي مصطفى بارتكاب مجزرة ضد العرب والبربر الذين أسرهم . أما الأتراك فقد سمح لهم بانقاذ جلودهم ، وذلك بالتجند في فرقة الانكشارية الجزائرية .

وكانت المشاكل التي واجهت الداي مصطفى هي نفس المشاكل التي واجهها الحاج شعبان منذ عشر سنوات مضت : فقد اعتدى المراكشيون، بعد ذلك ، على بايليك الغرب بجيش ضخم ، معظمه من الفرسان ، من المفروض فيه أنه جيش من القوة بحيث يستطيع سحق الجزائريين . ولكن المليشيا الجزائرية كانت أفضل انضباطا ، وكانت قوة نيرانها أفضل توجيها . وقد هربت قوات القبائل تحت ضغط النيران ، وحقق الحاج مصطفى نصرا جديدا . ورجع الى مدينة الجزائر بحوالي ثلاثة آلاف رأس ، بالاضافة الى خمسين من القواد المراكشيين الأحياء الذين كان يتوقع منهم توفير فدية جيدة .

أعلن الداي انتصاره الى لويس الرابع عشر وذلك بارساله اليه عددا من الخيول الجميلة التي كانت جزءا من غنائمه . وقد وصلت هذه الهدية الى فرنسا في اللحظة التي كان فيها الملك يتقبل عرش أسبانيا لحفيده ، فيليب ، وهو التقبل الذي كان ذا أهمية بالغة للجزائر . لأنه قد وحد عرشي فرنسا وأسبانيا تحت عائلة البوربون . فقد كانت احداهما تقليديا

صديقة للجزائر ، والأخرى كانت عدوتها التي لا تعرف التراجع • ومنذ هذا الحين أصبح من الطبيعي أن ملك فرنسا لا يمكن الاعتماد عليه في أنه سيرحب بالغارات الجزائرية على أسبانيا ولا على السفن الاسبانية •

ان قبول العرش الاسباني لفيليب لا يعني بالضرورة أن الحرب ستكون هي التالية ، ومع ذلك فان ذلك هو ما حدث فعلا • أما أسبابها فمعقدة وهي خارج نطاق هذا الكتاب • ذلك أن الداي مصطفى كانت له مشاكل أخرى غير تلك التي كانت تواجه الدول الكبرى في أوربا : فهذا مراد ، باي تونس ، الذي كان قد فر عندما فك الجزائريون الحصار عن قسنطينة ، قد تمكن من استرداد قوته بعد الهزيمة وكان يخطط لاعتداء آخر على القطر الجزائري سنة 1702 • ولكن قبل تحرك قواته ، قام ابراهيم الشريف ، وهو أحد قواده ، بانقلاب ، وتمكن من وضع رأس مراد ، مع رؤوس أربعة من أقاربه (بما في ذلك رأسان لطفلين) على الرماح • وقد عرضت تلك الرؤوس من شرفة القصر بتونس •

وخلال سنتي 1703 و 1704 كان الداي مصطفى وابراهيم الشريف ، الذي هو الآن باي تونس ، حليفين في مشروع هجوم على طرابلس ، ولكن قبل انجاز المشروع اكتشف مصطفى بأن باي تونس كان يعد مؤامرة مع باي طرابلس لذبح الجزائريين عندما ينزلون على ساحل طرابلس • ولكن الجزائريين تفادوا المؤامرة ، بينما منع التونسيون من التحرك لأن الطاعون ، الذي كان يقتل يوميا المئات من الضحايا ، قد ضرب مدينتهم وكذلك معسكرهم (سنة 1704) •

ان عواقب هذه القصة تبدو وكأنها مأساة (درامة) من النوع الباروكي baroque فقد غزا الحاج مصطفى تونس لمعاقبة ابراهيم الشريف على الخيانة • وانهزم باي تونس واختير في مكانه باي آخر سرعان ما أصر على أن الجزائريين كانوا يحاربون ابراهيم الشريف الذي كان أسيرهم • ومن ثمة فان على الحرب أن تتوقف وان على الجزائريين أن يعودوا الى بلادهم • غير أن مصطفى كانت له أفكار أخرى • فقد

كان يريد عقد معاهدة ودفع تعويضات حتى يكون قادرا على دفع مرتبات جنوده . وكان مصطفى قد تجاوز امكانات نفسه عند محاولته فرض ارادته وهكذا فشل في زحزحة التونسيين . وأخيرا قام جنوده الساخطون عليه بعزله عن الحكم ، ثم رجعوا الى مدينة الجزائر مع داي جديد ، وذلك سنة 1705 .

وفي نفس الوقت أصبحت الحرب في أوروبا أكثر عنفا من ذي قبل . فقد كان القائدان الموهوبان ، امير صافوي ، يوجين ، ودوق مارلبورو Marlborough ، ينازلان الجيش الفرنسي في أروبا ، ثم أن المعركة البحرية التي حدثت في خليج ملاقة Malaga ، سنة 1704 ، قد أعطت للانكليز الفرصة لاقامة قاعدة لهم في جبل طارق . ولكن المعركة البحرية في حد ذاتها لم تكن في الواقع انتصارا حاسما . فقد تنازل الأسطولان لمدة ساعات ، وكلاهما تكبد أضرارا كبيرة ، وأصبحا تقريبا بدون بارود ولا قنابل عندما حان الوقت لفك المنازلة . ولكن الانكليز واصلوا حتى نزلوا اليابسة في جبل طارق ، وأقاموا هناك قاعدة بينما كان الفرنسيون يحتلفون بالانتصار بدعاء « الشكر لك ، يارب » ولكنهم لم يتحدوا سيطرة الانكليز من جديد تحديا خطيرا على مضيق جبل طارق . والواقع أن البحرية الانكليزية خلال السنوات اللاحقة قد تمكنت من التقدم السريع نحو غربي البحر الأبيض . فقد استولت على ميناء ماهون بجزيرة مينورقة ، وراقبت السواحل الايطالية ، ودعمت اعتداء فاشلا على جنوب فرنسا نفسها .

ان هذا التحول في القوة البحرية ، يضاف اليه البناء السياسي الغريب في أسبانيا ، قد عبد الطريق أمام الهجوم الجزائري الناجح ضد القاعدتين اللتين كانتا تحت أسبانيا وهما وهران والمرسى الكبير . لقد كانت كلتاهما من أقدم الأماكن التي احتلتها أسبانيا على ساحل الشمال الافريقي . فقد تم الاستيلاء عليهما عقب موت ازابيلا بقليل . وكانت قوة تحصيناتها قد وقفت ضد الهجوم تلو الهجوم خلال القرنين المواليين . وكانت وهران والمرسى الكبير تعطيان البحرية الأسبانية قاعدة لمراقبة مداخل البحر الأبيض الى مضيق جبل طارق ، بالاضافة الى مواقع مراقبة من جهة

الشرق نحو مدينة الجزائر نفسها . وكانت التحصينات أيضا تسيطر على دواخل البلاد على مسافة أميال من حولها . وكان بعض الأهالي قد تشجعوا على جلب انتاجهم وبضائعهم الأخرى الى السوق الواقع خارج حصون وهران ، كما كان مسموحا لبعض الأهالي بالعيش داخل المدينة . غير أن الواقع هو أن وهران كانت مدينة أسبانية ، مدينة عبارة عن معسكر ، قاعدة للعمليات البحرية من جهة والغزوات ضد القبائل الأهلية من ناحية أخرى . ان هذه الغارات الدورية كانت تجربة مستمرة بالنسبة للقبائل الرحل وشبه الرحل الواقعة حوالي مائة ميل من وهران ، كما كانت مصدر احراج لباي البايليك الغربي . ولو لم يكن أمرا قد أكل عليه الدهر لقلنا : ان وهران كانت « عظما في اللهاة الجزائرية ! » .

ان التحول الذي طرأ على القوة البحرية ، وكذلك شكل النزاع على خلافة العرش الأسباني ، قد خلق وضعا شجع على الهجوم على المدينة . فقد ادعى أميران عرش أسبانيا : أحدهما فيليب الخامس البوربوني المدعوم من قبل مملكة جده الفرنسي ، والثاني كارل (كارلوس الثالث) الهابسبورغي المدعوم من قبل جده النمساوي ، وكذلك من قبل مملكة انكلترا ، والأراضي المنخفضة المتحدة . وكلا الأميرين جاء بالجنود – جنود أجانب – على الأراضي الاسبانية . وبينما كان مؤيدو فيليب هم الفرنسيين من الكاثوليك الرومانيين (تابعي رومة) ، كانت جيوش كارل مؤلفة من الانكليز والبروتيستانت الهولنديين ، والهوغينات الفرنسيين ، والألمان اللوثريين ، بالاضافة الى بعض الكاثوليك الألمان . وكان الجنود البروتيستانت في الجيوش الهابسبورغية كثيرا ما اندهشوا من الممارسات الدينية التي رأوها في أسبانيا حيث بدت لهم المعابد والكنائس عبارة عن وثنية وليس مسيحية . ومن نتيجة ذلك أن سلوكهم كثيرا ما أثار دهشة الشعب الاسباني على حساب قضية المدعي الهابسبورغي . وقد وصل المشكل الى شمال افريقية حيث رفض الحاكم الاسباني هناك ، الذي هو من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، أن يكون له أي دور مع الخوارج (الهراطقة) الذين يحاولون وضع كارلوس الثالث على العرش . ومن سوء حظه وحظ جنوده أن أنصار

المدعي الهابسبورغي كانوا هم الوحيدين الذين لهم قوة بحرية يمكنها أن تنقذ وهران .

بدأت المحاولة للاستيلاء على وهران على اثر معركة خليج ملاقة . وكان الداي الجزائري ، الحاج مصطفى ، في تونس في حالة حرب مع جاره الشرقي ، عندما قرر باي الأقليم الغربي ، مصطفى بوشلاغم ، أن الوقت كان ناضجا لمهاجمة المواقع الاسبانية . لقد كان هذا الباي جنديا مقداما وطموحا غير أن القوات التي كانت تحت امرته لا تكاد تكفي لفرض الاستسلام على وهران . وكان الباي قد بدأ الحصار سنة 1704 ، ولكنه لم يزد على أن وضع أسس الحصار . غير أن حصاره أصبح سنة 1705 أكثر فعالية عندما جاء رجال البربر والعرب للمشاركة في قواته . وبنهاية تلك السنة أصبحت وهران مقطوعة من جهة البر ومعتمدة في تموينها على البحر . لقد كانت تلك هي السنة التي تم فيها عزل الداي الحاج مصطفى . ثم استقال خليفته في السنة الموالية . وقد استمر حصار وهران هو الشغل الشاغل لبايليك الغرب ، كما أنه استمر حصارا غير حاسم . ولم تقرر الحكومة في الجزائر ضرورة الاستيلاء على وهران الا سنة 1707 . فقد اعترف الداي أن انتصارا هناك قد يملأ خزائنه ، بينما الحصار سيشغل عددا كبيرا من جنوده بعيدين عن مدينة الجزائر ، حيث لا يشكلون خطرا عليه .

وقد جمع الداي كل القوات التي يمكنه توفيرها ووضعها تحت قيادة أوزن حسن ، القريب منه (1) ، والذي برهن على بعض المهارة كجندي . وكانت مدافع الحصار قد نقلت عن طريق البحر ، وتحرك الجيش عن طريق البر ، وفي طريقه استطاع الجيش أن يضم اليه جماعات من الفرسان البربر الذين أحسوا بامكان النهب ، بالاضافة الى الجهاد ضد عدو مكروه . وعندما وصل أوزن حسن ، أصبح حصار وهران هجوما

---

1 – ليس واضحا ما اذا كان ابن عم أو عديلا له ، ولكنه على كل حال كان صديقا ثقة .

نشيطا (*) • وكانت مطالب الحاكم الاسباني للدعم قد أصبحت عصية ولكن فيليب الخامس لم يستطع أن يقدم له معونة معتبرة ، كما رفض ذلك الحاكم أن يكون له أي علاقة مع « الخوارج » الذين كانــوا يؤيدون كارلوس الثالث ، وقد قال بأنه يفضل ، بدلا منهم ، التعامل مع الشيطان • ومن سوء حظ الاسبان أن هذا لم يكن بديلا ممكنا •

ولكن وهران كانت موقعا حصينا لا يستسلم بدون حرب • فقد كان على المحاصرين ، لكي يستولوا على المدينة ، أن يستولوا أولا على أربعة مواقع محصنة من حولها ، كل منها مستقل عن الآخر ، ولكن في اتصال سهل مع المدينة الواقعة وراء الأسوار • وحتى بعد الاستيلاء على هذه القلاع الأربع فان المدينة وقصبتها كانتا ما تزالان صامدتين • وحتى عندئذ فانه لم يكن هناك انتصار نهائي ، الى أن وقع الاستيلاء أيضا على التحصينات التي تحرس المرسى الكبير • فلا غرابة اذن أن نعرف عن فشل الهجومات الواحد تلو الآخر في الماضي ، ذلك أنه طالما كانت التموينات والامدادات تصل من البحر ، فان وهران والمرسى الكبير كانتا بعيدتين تقريبا عن النيل منهما •

كان مع الجزائريين عدد من المهندسين الأعلاج ، أو على الأقل أعلاج يفهمون الألغام والمتفجرات التي يمكنها شق ثلوم في الأسوار • وقد سقطت القلعة الأولى ، وهي سان فيرديناندو ، في الثامن من سبتمبر 1707 بعد وقوع انفجار فتح فيها ثلمة • وقد أعطى ذلك الى أصحاب المدافع المسلمين مكانا أفضل يضربون منه قلعة سانتا كروز التي سقطت أيضا في آخر سبتمبر على اثر انفجار آخر أوقع ثلمة في سورها • وكانت القلعة الثالثة ، وهي سان قريقوار ، أكثر صعوبة ، ولكن بنهاية نوفمبر ، أدى انفجار لغم الى فتح ثغرة في سورها ولم تسقط الا بعد الهجوم عليها • وكانت المقاومة العنيدة التي أبداها المدافعون عنها قد أعطت

(*) – من المصادر العربية عن فتح وهران الاول : كتاب (التحفة المرضية) لمحمد بن ميمون بتحقيق محمد بن عبد الكريم ، مطبوع ، وارجوزة الحلفاوي ، ثم شرح الجامعي عليها من المخطوطات ، انظر أيضا ما كتبناه عن هذا الفتح في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) • ومن الطبيعي أن يختلف تفسير أحداث فتح وهران في المصادر الاسلامية والاوروبية • (المترجم) •

للانكشارية العذر في ارتكاب مجزرة ضد الذين ظلوا منهم على قيد الحياة . أما آخر قلعة تقع خارج مدينة وهران ، وهي قلعة لاموان . فقد سقطت بعد عدة أيام ولقي المدافعون عنها نفس المصير أيضا . واذا كانت معاملة المنهزمين تبدو قاسية — وحتى وحشية — فتجدر الملاحظة أن الاسبان غالبا ما ارتكبوا نفس الشيء ، ذلك أن الحرب بين المسلمين والمسيحيين في شمال افريقية كانت ، منذ وقت بعيد ، عملا داميا وقاسيا .

ثم بدأ الهجوم على مدينة وهران نفسها . وقد سقطت قلعة وهران في الثاني من يناير سنة 1708 . بينما استبسل المرسى الكبير المحصن الى منتصف أبريل . وبهذا التاريخ كانت الحرب في أروبا قد وصلت الى درجة الأزمة التي استحوذت على كل الاهتمام . ولم تكن وهران تعني الا القليل أو لا تعني شيئا لأولئك الذين كانوا متورطين في النزاع . أما الجزائريون فقد كانوا يحتفلون بانتصار عظيم . فبعد حصار دام أربع سنوات ، ومر بمرحلة اللاحرب واللاسلم ، تمكنت الانكشارية الجزائرية من الاستيلاء على المواقع خلال حملة دامت عشرة أشهر . وكان عدد الخسائر في الأرواح من الجانبين عظيما ، ولكن عندما رجع الجزائريون الى مدينتهم (الجزائر) بألفين من المساجين (كثير منهم كانوا من ذوي الكفاءات : ضباط ، وبعض فرسان مالطة الفرنسيين ، وبعض العائلات الاسبانية الهامة) كان الاحتفال حقا عظيما . كما كانت هناك غنائم معتبرة في قطار البضائع ، وكانت القبائل التي اشتركت في الحصار والهجوم قد ثأرت لنفسها من الاعتداءات الاسبانية السابقة .

وقد أرسل الداي مفاتيح وهران الى اسطانبول (*) ومعها طلب منح أوزن حسن لقب باشا . غير أن هذا الطلب لم ينفذ أبدا . ولا بد أن وهران كانت تبدو سنة 1708 بعيدة جدا ، بعيدة كثيرا من القرن الذهبي ، كما كانت غير هامة نسبيا . ان حكومة السلطان كانت ما تزال

(*) — في الأصل To Oran to Istanbul اي الى وهران الى اسطانبول ، والصواب أرسل الداي مفاتيح وهران الى اسطانبول . (المترجم) .

ترنح من الهزيمة التي لقيتها على أيدي الأمير يوجين ومن المعاهدة التي فرضها الأمبراطور ليو بولد على الباب العالي • وكان المستشارون الاغريق (اليونانيون) ، الذين انضموا الى حكومة السلطان عندما هدد التجار الايطاليون والقساوسة الجزويت دينهم وتجارتهم ، غير مهتمين بالتوسع في المحيط الغربي (*) • ذلك انه بعد سنة 1700 لم تكن القضية الكبرى للدولة العثمانية هي التوسع ، بل ان وزراء السلطان كانوا في الحقيقة يكافحون من أجل بقائها هي • وكان الانتصار في وهران بالنسبة لوزراء السلطان ، قد جاء متأخرا كثيرا عن وقته بمائة وخمسين سنة •

وعندما رجع الجنود المنتصرون من وهران أهدى القنصل الفرنسي الى الداي قطعة من القماش الراقي ، رغم أن منافسه الانكليزي قد فاقه ، كما كتب هو ، عندما قدم هدايا تبلغ قيمتها على الأقل خمسمائة بياستر • لقد كانت هذه سنوات صعبة على الفرنسيين • فهم كانوا يرون منافسيهم الانكليز يصلون الى مكانة الهيمنة في البحر الأبيض ، وكان الجيش الانكليزي والهولندي المحارب من أجل قضية المدعى الهابسبورغي في اسبانيا قد حصل على الخيول والحبوب وعلف الدواب من الجزائر ، وعندما طارد القراصنة الفرنسيون السفن الانكليزية ، استطاعت أربعون منها على الأقل في مدة سنتين ، أن تجد مأمنها في وهران التى أصبحت الآن تحت أيدي الجزائريين (**) • كذلك عندما هدد الطاعون المرعب في نهاية العقد الأول من القرن باجبار لويس الرابع عشر على قبول أي شرط يتقدم به أعداؤه ، تمكن الانكليز من منع تصدير الكثير من القمح الى فرنسا من شمال افريقية • ولم يرفع الداي حتى صوته بالاحتجاج عندما أغرقت سفينة انكليزية حربية سفينة فرنسية تحت مدافع عنابة ، بحجة أن السفينة كانت تغرق نتيجة اصابتها بنيران مدفع قبل رسوها بعنابة • وقد أسر القنصل الفرنسي الى حكومته بأن « السبب الحقيقي

(*) — كذا Western Ocean المحيط الغربي • (المترجم) •

(**) — المقصود ان السفن الانكليزية اصبحت تختبيء في وهران بعد ان اصبحت في أيدي الجزائريين • (المترجم) •

هو أن الداي لم يكن يريد أن يصبح متورطا مع الانكليز الذين يخشى من قوتهم البحرية ... »

ومهما كان الأمر ، فان القنصل الانكليزي كان أيضا يواجه صعوبات مع الجزائريين خلال هذه السنوات الأخيرة من الحرب . فقد كانت المنازعات التي لا نهاية لها حول الجنسية عندما كان العلم الانكليزي يرفع أكثر فأكثر على السفن الايطالية والاسبانية ، بل أحيانا كان يرفع على سفن ليس لها فرد انكليزي واحد . وقد حدثت أزمة حادة سنة 1711 ، عندما أطلق بحار (قرصان) انكليزي النار على سفينة جزائرية ، بعد أن فشل في أمر بحارها الجزائري بتخفيض علمه . وكان النزال الذي تلا ذلك غير متواز : فقد كانت السفينة الانكليزية ذات أربع وأربعين مدفعا بينما كانت السفينة الجزائرية ذات اثنى عشر مدفعا فقط . وخسر الجزائريون نصف الطاقم قتيلا أو جريحا ، وكادت سفينتهم أن تغرق . وقد أنذر القنصل حكومته بأن الحادث قد يقود الى تنفيذ الاعدام في الانكليز الذين بالجزائر أو قد يؤدي حتى الى اعلان الحرب ضد انكلترا . وكانت النتيجة : أن قام السيد جون جيننقس Jennings بارسال الضابط بالشين Bulchen الى الجزائر ، حاملا رسالة تعد بأن السيد نوريس Norris ، وهو الضابط البحار (القرصان) الذي سبق ذكره ، سيعاقب على هجومه غير المرخص به . وكانت هناك أيضا «هدايا» عديدة في الموضوع ، ويبدو أن الداي كان قد سر بذلك سرورا كبيرا .

وحتى امكانية اضعاف فرنسا اضعافا شديدا بمهاجمة تجارتها دون التعرض للعقوبة ، لم يقنع الجزائريين باعلان الحرب على هذه المملكة . ان الوثائق حول هذا الموضوع قليلة ، ولكن هناك كثير من الدلائل التي تدل على أن سيل « الهدايا » الى الداي ووزرائه وكبار الرياس ، كان له أثر على موقف الجزائر الحيادي . وكل من انكلترا وفرنسا كانت تدفع ، من أجل « الحماية » ، ولكن ليس بالطريقة التي تدفع بها الدول الصغيرة والتي وصلت الى حد الضريبة (الاتاوة) النقدية ، ومع ذلك فان « الهدايا » التي أصبحت شيئا فشيئا « تقليدية » كان لها نفس

التأثير . وفي سنة 1712 استطاعت الأراضي المنخفضة المتحدة أن تنهي عهد الحرب الطويل بين الهولنديين والجزائر . فمعاهدة سنة 1712 قد نصت على الدفع المنتظم في شكل معدات حربية ، بالاضافة الى النقود ، لضمان أمن التجارة الهولندية ضد الغارات الجزائرية . لقد تدهورت القوة البحرية الهولندية خلال هذه اسنوات الصعبة من الحرب، ولم تكن الأراضي المنخفضة المتحدة في وضع يسمح لها باستعمال قوة مماثلة لقوة فرنسا أو بريطانيا ، والواقع أن الأراضي المنخفضة أصبحت تدريجيا ، بعد سنة 1714 ، معتمدة على القوة الانكليزية لحمايتها . ان الأيام التي كان يمكن فيها لهذه الجمهورية الصغيرة (هولندا) أن تخطط للسلام أو للحرب على قدم المساواة مع مملكتي فرنسا وانكلترا وأسبانيا ، قد انتهت . وان القوة الهولندية في أعين الجزائريين أصبحت تعادل قوة السويد والدانمارك ، ولذلك فان السلام مع هولندا لا يمكن أن يستغرق وقتا طويلا .

ان هذه السنوات الأخيرة من الحرب كانت أيضا صعبة بالنسبة للحكومة الجزائرية . ذلك أن فتح وهران لم يضمن للداي ولا لقائده الحصانة من القضايا السياسية الجزائرية . فخلال السنوات الأخيرة من الحرب في أروبا وجد الرياس صعوبة يوما بعد يوم في الحصول على الغنائم . وكادت التجارة الفرنسية تختفي من البحر ، بينما كان الحلفاء (انكلترا وهولندا) يرافقون ، خوفا من القراصنة الفرنسيين ، معظم السفريات التجارية سواء المتعلقة بسفنهم أو بسفن محايدة . ونتيجة لذلك تدهور بيع السفن المستولي عليها ، حتى انه خلال ثلاثة أشهر لم يحضر الى الميناء سوى اثنتين . وكانت الميلشيا ما تزال تتوقع دفع أجورها ، وكان الداي دائم البحث في قاع خزينته عن النقود . وقد عرفنا أن من أهم مصادر النقود هي تلك الاتاوة ، أو الضريبة ، التي تدفعها القبائل في الأقاليم الثلاثة . وكان باي كل أقليم يحضر شخصيا النقود التي جمعها . وأثناء الممارسة العملية كان البايات في العادة يتفادون القيام بهذه المهمة ، وذلك بارسالهم خليفة عنهم بالنقود . ذلك أنه من الأفضل البقاء في الأقليم حيث الحماية متوفرة من الجنود الذين

يمكن الاعتماد عليهم ، أما التوجه الى الجزائر ففيه التعرض لخطر فقدان الأمن والحرية (*) . وقد نقل باي الغرب مقره الى وهران بعد الاستيلاء على هذه المدينة ، وكان بانتظام يقدم الضريبة المتوقعة منه . أما باي الشرق فقد كان بطيئا في تقديم ضريبته . وقد أمره الداي سنة 1710 أن يحضر ضريبته الى الجزائر ، ولكنه عصى الأمر . وبدلا من ذلك جمع كل النقود التي تمكن من وضع يده عليها وأسرع بالتوجه الى مكان مجهول ! وعندما أصبح الداي بدون نقود لم يستطع أن يدفع رواتب الانكشارية . وقد حاول أن يشرح الأمر ، ولكن ثورة حدثت أدت الى مقتل كل من الداي واوزن حسن ، بطل وهران .

وكان الأوغاد الذين قادوا الهجوم هم الذين وضعوا واحدا منهم على كرسي الحكم . ولم تعرف مدينة الجزائر مدة خمسة أشهر سوى الفوضى . ولم يكن الداي الجديد ، وهو ابراهيم ، الذي يلقب بالمجنون The Mad ، رجلا حكيما . فقد حاول أن يغتصب زوجة أحد الانكشارية ، ولكن المرأة الغاضبة طلبت النجدة . فأسرع اليها العبيد وأطلقوا النار على الداي وهو يلوذ بالفرار ، وأعلنوا الفضيحة على الملا حتى تسمع كل المدينة . ولم يستطع القصر أن يكون ملجأ لمن حاول الاغتصاب ، فقد كان له عدد من الأعداء الذين كان يسرهم جدا أن يجدوا فرصة لذبحه ووقع انتخاب داي جديد . وقد ظهر على شاوش رجلا قويا تسانده العناصر الأكثر تفهما من المليشيا وقام بقطع رؤوس أصدقاء وأنصار الداي السابق ، وغير من نظام الحكومة حتى يعطى لوزرائه السلطة في الحكم . كان حكمه قد فتح الطريق الذي حصل فيه الداي على قوة أكثر وأدى الى اضعاف دور الديوان ، حتى انه (أي الديوان) أصبح ، بعد حين ، عبارة عن « ختم من المطاط » . فعندما وصل أحد الباشوات المعين من قبل السلطان الى الجزائر ، رفض على شاوش أن يسمح له بالنزول بحجة أن الجزائر ليست في حاجة الى « رجل غريب » ليحضر مجلس حكومتها . وقد قبل السلطان في النهاية هذا القرار ، ووافق على تعيين على شاوش ليكون هو الباشا .

(*) - «التوجه الى الجزائر» المقصود به الزيارة المعروفة بزيارة الدنوش . (المترجم) .

وبعد أن أنهت معاهدات 1713 — 1714 الحرب في أروبا ، قام علي شاوش بكل ما يستطيع لبناء أسطوله البحري حتى يكون في امكانه ، اما أن يجد النقود لدفع رواتب جنوده من بيع السفن والبضائع المحتجزة ، واما من الاتاوات التي تدفعها الدول الصغيرة التي ترغب في تامين المرور الحر لسفنها • كما أن علي شاوش كان قادرا على جعل البايات في الأقاليم يدفعون اتاواتهم (الدنوش) ، بالاضافة الى أنه شرع في انشاء مراكز قوية ، أو تحصينات ، في الأقاليم (البايليكات) يكون في امكانها ضمان فعالية أكثر للسيطرة التركية على القبائل المنتشرة •

ولكن الداي القوي لم يكن محبوبا من الجميع • ففي سنة 1713 حدثت محاولة على حياته قام بها الجنود الذين كانوا يريـدون وقف تقلص سلطة الديوان • غير أن المؤامرة فشلت ، وكان مصير المذنبين الخنق • ثم حدث سنة 1715 زلزال مخيف حطم قسما كبيرا من المدينة وخلق كثيرا من الاضطراب والنهب والفوضى السياسية • ومع ذلك فان الداي لم يتجاوز الأزمة ، بل أنه كان قادرا على أن يموت على فراشه ، بعد ثلاث سنوات أخرى • ميتة هادئة •

ان الحربين الكبيرتين اللتين وقعتا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر قد سجلتا بداية عهد جديد من القوة البحرية التي سيكون لها تأثير حاسم على ايالات شمال افريقية • ذلك أن السفن الحربية الجديدة التي أصبحت تملكها مملكتا انكلترا وفرنسا كانت أبعد من أن يستطيع الجزائريون حشدها • ان سفن المعارك البحرية من الدرجة الأولى ، التي كانت تحمل أكثر من مائة مدفع ، كانت عبارة عن قلعة عائمة ، بينما أضافت السفن قاصفة القنابل bomb-ketches التي في مقدورها رمى القذائف ذات القوة المخربة الكبيرة — أضـافت عاملا جديدا في الارهاب • وكل ما كانت الحاجة اليه خلال القرن الثامن عشر لاحتواء البحارة — القراصنة هو سفن المعارك البحرية من الدرجة الثالثة • وقد استطاع الأسطول الجزائري أن يستولى على عدد من هذا النوع من السفن الحربية (نوع الفرقاطة) ، ولكن معظم سفن

الجزائرين كانت لا تحمل أكثر من خمسين مدفعا ، ولم تكن ندا للسفن الحربية التي تملكها الدول البحرية الأوروبية . ان التقدم التقني للملاحة البحرية ، الذي غذاه السباق البحري خلال الثمانينات من القرن السابع عشر والحروب الكبيرة ، كان في طريقه الى أن يجعل أسطول البحارة الجزائري التقليدي يكاد يكون نشازا في ترابط الأحداث التاريخية . فلم يعد في قدرة الرياس أن يفترسوا تجارة الدول التجارية الكبيرة .

الفصل الثالث عشر
القرن الثامن عشر، حكومة الداي

من أكثر الوثائق دقة فى تناول حكومة الجزائر فى منتصف القرن الثامن عشر تلك الوثيقة التي كتبها القنصل الفرنسي ، لومير Le Maire فقد قال أن بنية الايالة السياسية بحدود سنة 1750 ، قد أصبحت الى حد ما مستقرة سواء من حيث ممارسة السلطة المركزية أو من حيث حكومة البايات (الأقاليم) • ولكن هذا لا يعني أن جميع الدايات فى القرن الثامن عشر قد ماتوا على فراشهم او أن أهل القبائل البربرية والعربية قد استسلموا استسلاما تاما لأسيادهم الأتراك • (*) فالواقع هو أن العكس هو الصحيح • ومع ذلك فان الفوضى التي سيطرت على منتصف القرن السابع عشر ، عندما كان الديوان وطائفة الرياس يمارسون نوعا متطرفا من الديمقراطية الممزوجة بالاغتيال ، قد انتهت بنمو سلطة الداي كحاكم مطلق •

ولكن هذا الوضع لم يحدث بين عشية وضحاها • فعندما أجبر الجنود ميزومورتو على تسليم منصبه ، أصبح ضابط محبوب من فرقة الانكشارية دايا منتخبا ، وهو أول حلقة من سلسلة طويلة من الدايات المنحدرين من صفوف الجنود بدلا من طائفة الرياس • وقد سار هذا النظام فى البداية سيرا متعرجا ، غير أن المنصب احتاج ، منذ أوائل القرن الثامن عشر ، عندما أصبح علي شاوش دايا بعد اعدام ابراهيم المدعو بالمجنون ، الى حكم قوي يعرف كيف يسيطر • فقد عاش علي شاوش

(*) ـ هذا الاستنتاج من المؤلف ليس جديدا على من قرأوا آراء المدرسة التاريخية الفرنسية الاستعمارية حول تاريخ الجزائريين • (المترجم) •

عدة مؤامرات ضد حياته ، وأجبر السلطان على تعيينه باشا ، وعاش أيضا خلال الزلازل والطاعون الذي نسبه « المرابطون الدراويش » الى سياسته المعادية لله ، وقد حكم الايالة وعرف كيف يموت على فراشه ، غير أن خليفته ، الداي محمد ، لم يكن محظوظا مثله ، فقد تمكن البحارة المتآمرون من اعدامه ، أي أولئك الذين اعترضوا على سياسته البحرية ، ولكنهم في النهاية قد ألقى عليهم القبض وقطعت رؤوسهم أو سلخت جلودهم من قبل وزراء الداي المغتال ، الذين سموا بعد ذلك واحدا منهم هم ليتولى منصب الداي .

وكان الداي الجديد ، عبدي (باشا) آغا الصبايحية ، أقوى في الحكم من علي شاوش ، كما كان أكثر منه حكمة . ويخبرنا لومير أن عبدي كان الرجل الذي استطاع أن يثبت قواعد الحكم في الايالة . وقد كان حكمه ، كما نراه اليوم ، يشبه الى حد ما مكانة سيد (بوس Boss) المدينة الكبير في الولايات المتحدة ، مع الأخذ في الاعتبار طبعا بأن فرقة الانكشارية وطائفة الرياس تمثلان دائرته الانتخابية . وكان قد بدأ حكمه بتأمين الوزراء في مجلسه الخاص وكذلك أولئك الذين يخدمونه ، في حياتهم وفي أملاكهم وفي حقهم في توريث العقارات الى أبنائهم . وكان هو نفسه نزيها ومتجردا من الغش والفساد ، ولكنه كان يغض النظر عندما كان عماله يملاون جيوبهم ما دام ذلك لا يشكل خطرا على الدولة . ان هذه السياسة جعلت مجلس الوزراء قوة متلاحمة وصلبة البناء . وقد اعترف هؤلاء الرجال (الوزراء) أن مناصبهم وسلطتهم وثروتهم متوقفة على رضى الداي ، وأن الداي بدوره متوقف عليهم . ويخبرنا لومير بأن عبدي لم يعزل مسؤولا أبدا طالما كان يؤدي واجبه ، ولكن عندما يموت واحد منهم فان عبدي كان دائما يملأ مكانه بقريب له أو صديق أصله من منامن Menemen ، وهي الناحية التي كان الداي قد ولد فيها بأناضوليا . وهذا التصرف هو الذي أدى الى بداية عهد ما يسمى بحكم عائلة منامن التي حكمت الجزائر خلال أغلب القرن الثامن عشر .

ولعل أبرز نتائج هذا الوضع الجديد هو تدهور سلطة الديوان . ومع ذلك فان الحرية من « ديمقراطية » الديوان لم تكن تعني حرية الداي

ليعمل بدون أي اعتبار للعواقب . حقا ، انه كلما أصبح الداي حاكما مطلقا فقد حقه في أن يكون متقلب الأطوار . فقد تعرف سلفه بعنف واستبداد وطغيان ، ولم يكن يوقفهم عن ذلك الا رصاصة او خنجر من مغتال . وكان عبدي وخلفاؤه الناجحون قلما يصدرون قرارا عندما يواجهون المشكل لأول مرة . فقد كان ، مثل لويس الرابع عشر أو غيره من الحكام المستبدين ، يتملص من الاجابة عند الطلب ، لقد كان يحيل القضايا والمواقف السياسية الى مجلس الوزراء ، لاتخاذ القرار بشأنها . فاذا لم يتوصلوا الى اتفاق كان كل عضو يرسل « أصدقاءه الأوفياء » — ولعل التعبير الأفضل يجب أن يكون « جواسيسه » — لمعرفة رأي الجنود . وهكذا نرى بأن الديوان ، وان لم يعد يسيطر على السياسة ، فان رأي المليشيا الانكشارية كان ما يزال له وزنه . ذلك أن الجزائر قد استمرت تحت حكم زعماء « لجيش احتلال » .

وبعد صعود عبدي الى السلطة أصبحت العلاقات مع الباب العالي أيضا علاقات محددة . فقد أقنع علي شاوش السلطان بتسميته باشا ، ولكن عندما قتل الداي محمد ، أرسل السلطان مسؤولا من اسطانبول ليتولى المنصب الشرفي وهو منصب الباشا . غير أن عبدي رفض السماح له بالنزول . وبعد بعض المفاوضات وافق السلطان على ارسال القفطان أو خلعة الحكم ، الى الداي ، وبذلك جمع لقبي الداي والباشا في شخص واحد . ولكن هذه الطريقة لم تكن هي أفضل حل من وجهة نظر وزراء السلطان الذين فقدوا بذلك حق التعيين الذي قد يعطي الى الأصدقاء أو يباع الى من يدفع ثمنا أعلى . ولكن ذلك الحل لم يكن بالضرورة غير مقبول للباب العالي ، لأن حكومة السلطان غالبا ما يمكنها الحصول — وقد حصلت فعلا — على المساعدات البحرية من الأسطول الجزائري ، وكذلك فان الوزراء باسطانبول كانوا ، في مقابل خدمة من هذا النوع أو ذاك ، قادرين على الحصول على « هدايا » من الجزائر . وكان الدايات من جهتهم فخورين بلبس القفطان الذي جاءهم من الباب العالي ، وكانوا في حاجة الى حق تجنيد جنود جدد من المشرق لدعم الميليشيا الانكشارية . (وقد تطورت عن ذلك علاقات غريبة : فالسلاطين العثمانيون

خلال القرن الثامن عشر كانوا مطمئنين الى أن الداي ــ الباشا فى الشمال الغربي (الجزائر) « كان دائما مستعدا للطاعة كخادم لمن هو بنعمة الله أعظم الأباطرة ... ظل الله فى الأرض » ومع ذلك فانه كلما تناقضت أوامر السلطان مع رغبة أو ارادة الداي فانه يقع تجاهلها . ان المسرحية التي حدثت أوائل القرن الثامن عشر عندما استولى البحارة الجزائريون على غنيمة غنية لأوستاند Ostend ، تعتبر مسرحية معبرة . فالسلطان ، الذي كان فى سلام مع امبراطور الهابسبورغ الذي كان أيضا حاكما للأراضي المنخفضة النمساوية ، أمر بأن تعاد الغنيمة الى أهل أوستاند . وقد مثلت هذه الكوميديا فى الديوان حيث ادعى الداي أنه هو وكيله . فقد كانت الأصوات فى الديوان على هذا النحو : « اننا فى سلام مع أنكلترا وفرنسا ... وليس هناك دول أخرى مسيحية . ولا نريد اي شيء من سلام السلطان مع الأمبراطور الروماني المقدس ! » انهم لم يخافوا من شارل السادس ولا من الأمير يوجين خوف السلطان ووزرائه منهما . وفى مناسبة أخرى يخبرنا مورغان Morgan أنهم أصروا على أنهم « سيحرقون سفنهم ويصبحون رعاة ابل » بدل التسليم فى حق اتخاذ القرار حول أي أمر من أوامر السلطان يطيعون . ففي خلال القرن الثامن عشر كانت العلاقات بين الجزائر واستانبول أكثر رفاهة وأكثر ضعفا مما كانت عليه فى العهود السابقة ، ومع ذلك فانها لم تقطع .

وحتى مع القفطان ومع لقب الباشا ــ الداي ، فان المنصب لم يكن كله بركات صافية . فقد كان الداي ما يزال سجينا فى قصره ، وكان دائما مهددا بالاغتيال . كان راتبه هو راتب أعلى ضابط فى المليشيا ، بما فى ذلك نصيب يومي من الخبز ، وكانت مائدته على حساب الحكومة ، وكانت اقامته بالقصر مجانية اذا كان أعزب ، واذا كانت له زوجة فلا يجوز لها أن تقيم معه فى القصر . وقد كان لهذا المنصب فرص لجمع الثروة : الهدايا من كل نوع ، من القناصل ، والبايات والقياد ، والجالية اليهودية ، والتجار الذين يرغبون فى الحصول على خدمة ، بالاضافة الى

سهم من الغنائم البحرية • ولكن ماذا لو جمع الداي ثروة ؟ اذا كان له ورثة فانهم عادة يسارعون بتوزيعها والا فان الداي الجديد قد يصادر معظمها • ونتيجة لذلك فاننا نجد معظم الدايات الناجحين يقومون حفاظا على شرفهم وسمعتهم ، ببناء مساجد جديدة أو حمامات ، أو يعيدون بناء القديم منها ، وينشئون مصهرا للمدافع أو يقوون التحصينات • وما دام لا يمكن توريث المنصب من الأب الى الابن ، كما كان الحال فى تونس ، فان الاهتمامات العائلية dynasty لم تسيطر على السياسة الجزائرية •

وقد لخص الأسقف جوان كانو Cano هذا الوضع البائس فيما يلي : « وهكذا كان يعيش والد بدون أطفال ، وزوج بدون زوجة ، وطاغية بدون حرية ، وملك على عبيد ، وعبد لرعاياه • » وربما كان الوضع أسوأ من ذلك ، لأن حياة الداي كانت غالبا فى خطر • فمن الثلاثين دايا الذين حكموا بين 1683 و 1818 لم يمت منهم موتا طبيعيا سوى ستة عشر ، والأربعة عشر الآخرون منهم ماتوا مقتولين • وقد صدق الأب القس فو Fau حين كتب سنة 1729 قائلا : « ان الداي فى الغالب لا يخرج ••• فقد يحدث أنه اذا خرج من قصره أن تستقبله طلقة من بندقية تعفيه من لقب الداي ومن حياته معا • » ويبدو لومير متأكدا من أن النظام ، بمنتصف القرن الثامن عشر ، كان من القوة بحيث يستطيع حماية الداي من الاغتيال ، ولكنه كان مخطئا • اذ أنه لم تكد تمضي سنة أو نحوها على كتابته لمذكرته ، حتى استطاعت شلة من « الألبانيين » أن تغتال الداي وخزناجيه (وزيره للمالية) ، ولكنهم بدورهم صفوا عن آخرهم من قبل رئيس الطباخين وعبيده • والداي الجديد ، وهو عبدي المعين من الوزراء الباقين ، كان قد حياه الديوان على هذا النحو : « انها ارادة الله ! » وعلى هامش اغتيال الداي وخزناجيه توجد قصة طريفة ، وهي أنه اكتشف فى أوراق الخزناجي القتيل أنه كان يعد لمشروع كبير يقوم فيه بقتل الداي نفسه وجعل حكم الجزائر وراثيا فى عائلته • وكانت مؤامراته قد اتسعت حتى شملت الأقانيم ، بالاضافة الى شلة فى فرقة الانكشارية • لقد كان ذلك هو آخر مرة يحاول فيها أحدهم انشاء منصب وراثي للداي • وقام الداي الجديد ، الذي كان متشككا فى كل أحد ، بتنفيذ الاعدام فى المتآمرين ؛ وخلال سنة أو نحوها ، قتل

أيضا كثيرا من كبار المسؤولين الآخرين ، بما فى ذلك رئيس الطباخين الذي كان قد قتل الألبانيين ورفض قبول منصب الداي لنفسه حين عرض عليه •

ان الخليفة لهؤلاء الدايات ، خلال القرن الثامن عشر ، كان أحد وزرائهم الذي هو فى العادة الخزناجي أو وزير المالية ، رغم أن المسؤولين الآخرين كان يمكنهم أن يطمحوا الى كرسي الحكم • وكان الشرط الرسمي الوحيد هو أن الداي يجب أن يكون تركيا بالاصالة • ذلك ان الأعلاج والكراغلة كانوا مستعدين لتولي هذا المنصب من أجل حماية قوة وهيمنة جيش الانكشارية المحتل • ويمكن أن جيش الانكشارية المحتل • ويمكن أن يكون الرجل الراغب فى المنصب الداي شبه أمي ، وأن يكون ابن فلاح ، أو كما حدث فى احدى الحالات ، ابن « بائع ألسنة البقر • » وتيجة لذلك كان الرجال الذين أصبحوا دايات قد جاؤوا معهم بأنواع كثيرة من التجارب والقدرات والخصائص الذاتية • وهناك عدد منهم كانوا حكاما كرماء ومتفهمين ، بينما كان آخرون طغاة متشككين لا يثقون فى أحد ، كما كانوا يسيئون الحكم •

ورغم سيئاته ، فان النظام كما تطور خلال القرن الثامن عشر قد أدى الى استقرار أكثر مما كان عليه الحال فى العهود السالفة ، وذلك أنه قد أدى الى ظهور نوع من البيروقراطية • ان السلطة الحقيقية للايالة كان يمارسها الداي والوزراء ، وكان الأخيرون موظفين يعينهم الداي ويعملون بارادته • وكانوا فى العادة أصدقاء له ، ولكنهم كانوا فى الواقع أيضا « صنائعه » • وكان أول مسؤول فى هذا « المجلس الوزاري » هو الخزناجي ، الذي كان فى نفس الوقت نوعا من الوزير والخليفة الطبيعي للداي فى منصبه • أما القوة العسكرية فقد كانت مقسمة بين آغا الانكشارية ، والخوجة أو قائد الفرسان ، وآغا جيش السكان الأصليين (*) ، ووكيل الخرج أو وزير البحرية • وكان كبير عمال القصر هو رئيس الطباخين ، بينما كان خوجة الخيل هو الذي يستقبل الضرائب

(*) — كذا ، والمقصود به ما يعرف بآغا العرب • (المترجم) .

(أو وزير الخيل) ، وبالاضافة الى ذلك هناك الخوجات (الكتاب) ، ومسؤولو الشرطة ، والمبعوثون ، وآخرون ممن يحتاج اليهم لتنفيذ الأوامر . وكثير من هؤلاء الناس جاؤوا من مركز الموهبة المتين لميليشيا الانكشارية ، وهم الخوجات : (Codeas) (*) ان هؤلاء كانوا أناسا قادرين على القراءة والكتابة وكانوا يشترون وظيفة الخوجة . وكانوا في الحقيقة هم الكوادر (الاطارات) التي يأتي منها عمال الخدمة المدنية . لقد كانوا يدبرون بيع الخيول والحبوب والجلود وغيرها من الأشياء التي تسيطر عليها الحكومة . (**) وكانوا أيضا يذهبون الى البحر على سفن البحارة (القراصنة) باعتبارهم كتابا لتسجيل الغنائم المحتجزة ، وكمية البضائع ، وعدد ونوع الأرقاء المأسورين . وقد أصبح عدد منهم رياسا ، كما أصبح بعضهم « وزراء » في حكومة الداي .

وكان الوزراء (Powers) قد اغتصبوا السلطات التقليدية . مثلا فقد استمر آغا القمرين في أداء مهمته كقاض في الجرائم التي يرتكبها أعضاء فرقة الانكشارية ، ولكن سلطة قيادة الفرقة ، بالاضافة الى القوات الاحتياطية ، كانت قد أعطيت للوزراء في مجلس الداي الضيق . ونفس الشيء يقال عن البحرية . فطائفة الرياس قد استمرت في انتخاب أمير البحر (أميرال) ، ولكن أثناء القرن الثامن عشر كانت معظم السفن في الأسطول مملوكة اما من قبل دائرة الداي (الدبليك) أو من قبل أفراد كانوا بدورهم وزراء في حكومة الداي ، بدلا من ملكية أفراد الرياس أو ملكية جماعية بين تجار مغامرين . وهكذا فان القوة الحقيقية في الشؤون البحرية قد استولت عليها الحكومة ، لأن وكيل الخرج أصبح هو الذي يسيطر على أسطول البحارة (القراصنة) .

ومرافقة لهذا التطور حدث تدهور تدريجي في الأسطول البحري . وهناك أسباب كثيرة وراء ذلك أولها أن عدد الرياس ذوي الكفاءات قد هبط بدرجة كبيرة خلال القرن ، ويعود ذلك جزئيا الى أنه لا يكاد يوجد

(*) ـ كذا كتبها المؤلف ، وقد ترجمناها بالخوجات بحكم الوظائف التي ذكرها لهم ، ولكنها قد تترجم أيضا بالكواهي (جمع كاهية) . (المترجم) .

(**) ـ يعرفون بخوجة الخيل ، وخوجة الزرع ، وخوجة الجلد ، الخ . (المترجم)

أي ضابط من الأعلاج للانضمام الى الطائفة ، وربما يكون ذلك عائدا الى ان التجارة الانكليزية والفرنسية كانت بعيدة المنال على البحارة الجزائريين خلال القرن ، بينما عرف الهولانديون والسويديون والهامبورغيون ، والدنماركيون ، والأمريكيون ، وحتى البنادقة عرفوا كيف يشترون الحماية • بل استطاع حتى الأسبان فى نهاية القرن الثامن عشر توقيع معاهدة • وهذا التطور لم يترك الا القليل من فرص الغنائم •لقد كانت الايالة تقطع علاقاتها من وقت لآخر مع دولة او أخرى من الدول الصغيرة ، ولكن ما دامت التجارة كانت تحمل على السفن الانكليزية أو الفرنسية أو الهولاندية ، فان الرياس الجزائريين قد أصبحوا يصادفون باستمرار صعوبات فى الحصول على الغنائم •

وهناك عامل آخر يمكن ملاحظته فى تدهور الأسطول البحري (الجزائري) خلال القرن الثامن عشر : وهو التحول المستمر نحو استعمال السفن الصغيرة (الشبيكات) التي كانت طاقتها بين العشرين والثلاثين مدفعا ، باعتبارها الشكل القياسي لسفينة البحارة • وبينما لا يمكن لهذه السفن الصغيرة أن تقف فى وجه السفن الحربية الأروبية ، حتى ولو كانت من الدرجة الثالثة ، فانها كانت سفنا مجوفة السطح ، وسهلة القيادة ، وسريعة ، بحيث يمكنها أن تسبق السفن الحربية التي تحمل معدات حربية ثقيلة ، ومن ثمة يمكنها (الشبيكات) أن تستولي على سفن الصيد الصغيرة وكذلك سفن التجارة المحلية التي تتنقل على سواحل البحر الأبيض ، وليس السفن المسلحة الثقيلة • وكان الأسطول الجزائري فى منتصف القرن يضم عددا من الفرقاطات ، ولكنها فى كل حالة ، كانت سفنا ، بطريقة أو بأخرى ، اما وقع الاستيلاء عليها واما وقع شراؤها ، ولم تكن سفنا مصنوعة فى الجزائر من أجل الاسطول البحري •

وقد ظهر مشكل ثان فى القرن الثامن عشر : وهو لماذا سمح الداي بكل التجارة الدولية للايالة تقريبا لتكون فى أيدي التجار الأروبيين أو اليهود ؟ ان جزءا من الجواب على ذلك يمكن تلمسه فى دور اليهود المتعاظم الهام فى حكومة الجزائر • انه بقدر ما أصبح نظام حكم الداي معتمدا أكثر على البيروقراطية ، بقدر ما لعب فيه أصحاب المال اليهود دورا كبيرا • وقد كان

الأتراك ينظرون الى أنفسهم على أنهم جنود وحكام وليس ارباب مال .
وبذلك أصبحت دور التجارة اليهودية ، التي كانت لها صلات مع مختلف انحاء أوروبا ، ذات أهمية أكثر فأكثر للحركة الاقتصادية والمالية في الايالة .
ومع النفوذ جاءت القوة والأهمية الأعظم في المجتمع التجاري . لقد كانت حكومة الداي هي الوكيل الرئيسي لمعظم البضائع التي تبيعها الجزائر الى أوروبا : فالصوف والجلود والخيول والقمح ، وغيرها من مثل هذه البضائع الأولية : كانت في الواقع من احتكار حكومة الداي (الدايليك) .
ولكن الداي لا يستطيع تسويق هذه البضائع بنفسه ، فكان عليه أن يعتمد على التجار الأجانب — ومعظمهم فرنسيون — واليهود للقيام بأعماله التجارية (بيزنيس) . ولماذا لم يتحرك الرياس ويشتركون في هذه الأعمال التجارية (بيزنيس) المربحة ؟ ان الجواب بسيط عندما ننظر الى القواعد والتنظيمات التي كانت تضعها الدول المسيحية والمراسي المسيحية للتجارة الاسلامية . فهناك عدد من القواعد ، والتعريفات والتنظيمات — وكلها تهدف الى الابقاء على التجار المسلمين بعيدين عن الأسواق الأوروبية . (*) والرياس ، اذا كانوا أيضا أعلاجا ، يضاف اليهم الخطر على حياتهم اذا نزلوا بمرسى مسيحي .

وهكذا فانه بالرغم من أن حكومة الداي كانت تبدو رابحة من حيث الاستقرار ، فانها لم تتحرك في الواقع نحو وضع يضمن لها المساواة التجارية مع جيرانها الأوروبيين . ففداء الأرقاء كان ما يزال في أيدي الرهبان أو القناصل أو التجار اليهود أو المسيحيين . وكانت تجارة الايالة في أيدي التجار على غير المسلمين . فالداي قد يكون له احتكار تصدير كثير من البضائع الأولية ، ولكنه كان ما يزال معتمدا على الآخرين في ادارة أعماله .

فاذا ترك المرء مدينة الجزائر وانتقل الى الأقاليم (البايليكات) ، فان تداخل المشاكل كان يزداد حدة واتساعا . وتشير الدراسة التي قام بها

(*) — واضح انه كانت للاوروبيين خطة في منع دخول المسلمين أرضهم سواء باسم التجارة او غيرها ، ومع ذلك فالاوروبيون هم الذين كانوا يرمون المسلمين بالتعصب وضيق الأفق الخ . (المترجم) .

رين Rinn عن الجزائر تحت الداي الأخير ،(*) الى أن الحكومة
(الجزائرية) تتشابه كثيرا مع ممالك أروبا فى العصور الوسطى ، حيث
كان الملوك يحكمون ومعهم تشكيلة من السادة (اللوردات) والحكام
الأتباع والمدن المنتظمة فى شكل نقابات ، انهم « رعايا » ولكنهم غالبا
ما كانوا أكثر قوة من الملك نفسه . لقد كان ذلك هو الوضع فى الايالة
(الجزائرية) : كان الملوك (**) والشيوخ الذين يحكمون السكان العرب
والبربر داخل البلاد ، يبقون على علاقات مؤدبة مع البايات الذين يدعون
انهم يحكمون البايليك باسم الداي فى الجزائر . ان قوة الباي كانت تقوم
فى الغالب على علاقاته الشخصية أو العائلية مع الناس الذين « يحكمهم » ،
أو على نظام من « مراكز المراقبة » تحرسها حاميات من الانكشارية ،
وهي المراكز التي كانت تسيطر أو تكاد على طرق الاتصالات الرئيسية .

وليس هناك من شك فى أن الوضع السياسي فى الأقاليم كان ، بمنتصف القرن الثامن عشر ، قد أصبح أكثر استقرارا من ذي قبل . ويعود ذلك فى جزء غير يسير الى التخلي عما كان معمولا به وهو استدعاء البايات بعد مدة تتراوح من سنتين الى أربع سنوات . فهذا مصطفى بوشلاغم ، مثلا ، الرجل الذي بدأ حصار وهران الذي أدى الى سقوط هذه المدينة ، قد حكم أقليمه حوالي خمس وعشرين سنة ، وكان مقدرا له أن يعيش حتى يرى الأسبان يستعيدون الغنيمة ، وهي وهران ، التي كان قد فتحها فى شبابه . ولكن الشيء المهم فيما يبدو هو أنه فى خلال تلك الخمس والعشرين سنة كان الباي قادرا على أن يتعلم كيف يحكم ، وربما لا يقل عن ذلك أهمية ، هو أنه تعلم كيف يقيم علاقات مع الشيوخ والمدن فى اقليمه ، وهو الأمر الذي سمح له بتنصيب عائلته بشكل يكاد يجعلها تتوارث منصب البايات فى الغرب (الجزائري) . لقد كان يكفي أن تكون متزوجا من ابنة الباي حتى تنال السمعة والمكانة فى البايليك . فحيثما كان كثير من

(*) – يشير الى الدراسة التي كتبها ونشرها الضابط الفرنسي لويس رين بعنوان (مملكة الجزائر في عهد آخر الدايات) . (المترجم) .

(**) – كذا يطلق عليهم المؤلف : ملوك Kings ، والمقصود بهم رؤساء الأعراش وشيوخ القبائل الخ . (المترجم) .

الشيوخ والأمراء يحكمون الدواوير (*) التي تصعب السيطرة عليها ، تصبح العلاقات الشخصية ذات أهمية كبرى فى التطور السياسي .

وفى الاقليم الشرقي كان كيليان Keliane حسين ، الملقب بوكمية ، قد حكم قسنطينة حوالي خمس وعشرين سنة . وقد تعلم هو أيضا من أخطائه . ففي أوائل عهده بالحكم كان « جيش » من القبائل قد وضع له كمينا فى الهضاب العليا عندما وضع خطة للقيام « بغزوة » قد أعدت اعدادا سريعا . لقد تعلم بعد ذلك أن يحضر نشاطه العسكري تحضيرا دقيقا ، كما كان قد طور نظام « مراكز المراقبة » لتأمين الطرقات . ان هذه التحصينات كانت تشبه المراكز الحدودية فى السهول الغربية خلال القرن التاسع عشر بالولايات المتحدة الامريكيةة . وقد يظهر انه كانت بين رجال القبائل (فى الجزائر) وهنود السيوكس بشمال أمريكا أمور كثيرة متشابهة .

وجميع الكتابات تدل على أن هذين البايين (بوشلاغم وبوكمية) وكذلك أكثر خلفائهم نجاحا ، كانوا قد حكموا بنوع خليط من القوة والمكر والتآمر والرشوة والاقناع الودي . وكون العرب يعتبرون أنفسهم أرقى من البربر ، وكذلك أرقى من الأتراك ، قد سمح للبايات بممارسة سياسة « قسم واحكم » ، خصوصا وأن القبائل البربرية كانت هي نفسها أبعد ما تكون عن الوحدة . فالوضع كان يظهر اذن من جديد أنه كان يشبه ما جرى بالغرب الأمريكي فى منتصف القرن التاسع عشر .

ومن المهم كذلك أن نلاحظ أن الكراغلة كان يمكنهم أن يطمحوا الى منصب الباي . والواقع أنه فى كل من بايليك الغرب وبايليك الشرق ، قد تولى الأبناء منصب آبائهم . وكان مؤسسو هذه العائلات الحاكمة أتراكا بالأصالة . وكان أبناؤهم هم أبناء نساء « أهليات » بالأصالة . ولم يبطل هذا التقليد فى القرن التاسع عشر عندما « ورث » عثمان باي ــ مثلا ، وهو ابن محمد الكبير ، ورث منصب والده فى بايليك

(*) ــ يسميها المؤلف «قرى الخيام» ، وقد فضلنا ترجمتها بالدواوير . (المترجم) .

الغرب بعد سنة 1815 • لقد كان والده هو الباي الذي فتح وهران سنة 1792 • وكذلك كان حسن باي ، الذي حكم قسنطينة أوائل القرن التاسع عشر ، فقد كان هو ابن صالح (*) باي الذي تولى المنصب قبله • ويخبرنا الملاحظون الواحد بعد الآخر أن المسؤولين الكراغلة كانوا « يكرهون » الأتراك مضطهدي السكان البربر ، ولكنهم عندما تولوا هم حكم البايليك ، جمعوا الضرائب وساسوا البلاد تماما كما ساسها آباؤهم من قبل •

ولم يكن حكم القبائل الرحل ونصف الرحل ، أمرا بسيطا بالاضافة الى حكم القرى والمدن الأكثر استقرارا الواقعة على الساحل وفى داخل البلاد ، فقد كانت حامية تركية مؤلفة من خمسين الى عدة مآت من رجال المليشيا الانكشارية قادرة فى العادة على أن تحافظ على الأمن فى المدينة • ومع ذلك فان تلمسان وكذلك عدة قرى ومدن أخرى كانت قادرة على طرد الحامية وأن تقيم حكومة من الأعيان أمكنها أن تدوم سنوات ، وحتى عشر سنوات ، قبل أن يستطيع الأتراك استعادة سلطتهم • وكان الحكم فى داخل البلاد (الريف) أكثر صعوبة ، لأن قسما كبيرا من الايالة الجزائرية كان يقع على الهضاب وعلى مناطق جبلية ، أو على مشارف الصحراء • أما الأراضى السهلية الخصبة فلم تكن تشكل سوى جزء صغير من البلاد •• وقد كان الكثير ، ان لم يكن معظم سكان هذه المناطق الجبلية سكانا رحلا يتبعون قطعانهم من مكان الى آخر • غير أنه كانت توجد أيضا بعض القرى والمدن ذات الماضى الطويل حيث السكان يمارسون الزراعة وبعض الأعمال اليدوية أو الآلية المنتجة لبضائع تباع فى الأسواق • وكانت قرى الخيام أو الدواوير يحكمها شيوخ ، وقد يحكم مجموعة منها أمير ، أما فى المدن فقد كانت هناك حكومة من الأعيان يراقبها فى العادة تركى بعناية ، وهو نفسه قائد الحامية • وكل هؤلاء الناس كانوا يخضعون للشريعة الاسلامية والقانون العرفى ، وهو القانون الذي ينفذه فى العادة مسؤولوهم الطبيعيون أو الوراثيون • وجميعهم

(*) – في الاصل صلاة باي ، والمعروف أن صالح باي استمر في الحكم مدة طويلة ، وكان من أناضوليا ، ومات مقتولا . (المترجم) .

كانوا يقاومون الاتاوات التي يجبيها الأتراك كضرائب ، وكانوا يتهربون من دفعها كلما أمكنهم ذلك . فلا غرابة اذن أن حكام تونس ومراكش على الحدود قد وجدوا حلفاء مستعدين بين القبائل المنتشرة (في الجزائر) . وقد كان البايات في حاجة ، لكي يحكموا ، الى كل الحكمة وكل المهارة التي يمكنهم توفيرها .

وفي كثير من الأحيان كانت الاتاوة لا تدفع الا اذا قامت محلة تركية بقيادة قائد ، بل أحيانا بقيادة الباي نفسه ، « بغزوة » لجمعها . ولكن هذه « الغزوات » قد أصبحت بنهاية القرن السابع عشر وخلال الثامن عشر أكثر صعوبة لأن السكان (*) كانوا يملكون الأسلحة النارية ، ولكنهم لم يتعلموا حيل (تاكتيك) المعارك بطريقة أكثر فعالية . وقد يكونون شجعانا بما فيه الكفاية ، ولكن كتائب الفرسان كانت غير قادرة على مواجهة نيران الجنود الأتراك المركزة ، خصوصا عندما أصبح هؤلاء الجنود يملكون أيضا مدافع صغيرة . ومع ذلك فقد حدثت حالات وقع فيها الطابور التركي في الفخ أو في الكمائن بالجبال وهزم شر هزيمة . وقد كانت مراقبة المدن الى حد ما أسهل ، ما دامت في العادة كانت معتمدة على حامية تركية تحت قيادة قائد مقره قصبة (قلعة) المدينة . وكان دور الحامية هو حماية السكان بالاضافة الى السيطرة عليهم . ان وجود الحامية يذكر بأن جميع البلاد كان تحت حكم جيش احتلال . (**)

وفي أواخر القرن الثامن عشر تدهورت السلطة التركية في الأقاليم (البايليكات) لأن الامدادات بالجنود من المشرق أخذت تتقلص وكان على المليشيا الانكشارية ، التي لم تعد من القوة بحيث تستطيع أداء مسؤولياتها ، أن تعزز بجيش احتياطي مجند من السكان البربر والعرب . ولم تكن هذه القوة الاحتياطية محل ثقة كما هو الشأن في الانكشارية ،

(*) – يستعمل المؤلف عبارة natire tribesmen ، وقد فضلنا ترجمتها بالسكان بدل القبائل الأهلية . (المترجم) .

(**) – لا نرى ضرورة لهذا الاستنتاج الذي كرره المؤلف في عدة مناسبات من كتابه ، كما رأينا ، ذلك أن السلطة الحاكمة حتى في الدول المستقلة ذات السيادة تبقى على الثكنات والحاميات العسكرية في مختلف نقاط القطر ، والعبرة في نظرنا ليست في تواجد الجيش ، أي جيش ، ولكن في المعاملة . (المترجم) .

ولكن لم يكن هناك بديل آخر • فحينما وصل الفرنسيون سنة 1830 لم يكن يوجد سوى قليل من مليشيا الانكشارية فى أي اقليم من الأقاليم • بل انه حتى فى دار السلطان ، وهي المنطقة التي كان يحكمها الداي مباشرة ، كان الجنود البربر والعرب الذين كانوا تحت قيادة قائد وآغا العرب الاحتياطيين ، كانوا هم الجنود الوحيدين الذين يحرسون المدن • ولم يكن فى اقليم التيطري كله سوى خمسين انكشاريا من الفرسان ومائة وعشرين من الانكشارية المشاة ، بينما كانت مليشيا الانكشارية فى كل من الاقليم الشرقي (قسنطينة) والغربي (وهران) مجرد قوة رمزية • والواقع انه فى جميع الايالة لم يكن يوجد من الانكشارية (سنة 1830) سوى ألفين وخمسمائة رجل (2500) ، وكان كثير منهم غير صالح للحرب •

وربما يكون من الحق أن نقول أن النظام ، الذي كان قائما على جيش احتلال مجند من مناطق خارج حدود الايالة ، كان عمليا نظاما خربا عندما وقع الغزو الفرنسي • والواقع أن كون الدايات لم يستطيعوا خلال القرن التاسع عشر علاج عدوى الثورات التي قامت بها القبائل البربرية والعربية ، وكذلك تلك التي قام بها سكان المدن التقليدية ـ يعتبر دليلا على أن حكومة الداي لم تتحول من نمط حكم معروف لأي جيش احتلال الى نمط حكم معتمد على تأييد السكان الأهليين • وربما كان مثل هذه الحكومة غير ممكن فى البلاد ذات الأنماط الثقافية التي نجدها فى المغرب الأوسط فى أوائل القرن التاسع عشر •

الفصل الرابع عشر
القرن الثامن عشر، الجزائر واسبانيا

بقطع النظر عن الدولة المسيحية التي قد تكون فى حرب مع الجزائر ، فان اسبانيا وممالك الملك الاسباني كانت دائما عدوة . ولا يمكن ان يكون سلام مع اسبانيا . ذلك أن صيادي السمك الاسبان وسفن النقل الساحلي كانت هي « الفريسة الطبيعية » للرياس . واذا انعدمت الغنائم الأخرى ، فان الاسبان سيء الحظ كانوا دائما هناك . ان ابراج المراقبة على طول الساحل الاسباني ، والقرى الجاثمة على جنبات الروابي أو على قطع الجبال الصخرية ، وكذلك تحصينات المراسي فى المدن — كانت كلها شواهد صامتة على التهديد الذي كان يشكله شمال افريقية ، بينما المئات ، بل الآلاف ، من رعايا الملك الاسباني المسترقين فى شمال افريقية تشهد بأن جميع الاحتياطات لم تمنع الغارات سواء من البحر أو من البر .

وفى السنوات الأخيرة من حكم شارل الثاني كانت سلطة العرش الاسباني قد تدهورت لدرجة أنه لا يمكن القيام معها الا بعمل ضئيل لحماية رعايا الملك . وعندما توفى شارل الثاني سنة 1700 واندلعت حروب أروبية لتقرير حق الخلافة على العرش (الاسباني) ، أصبحت الحرب الأروبية حربا أهليـة فى اسبانيا مع أنصار شارل الثالث الهابسبورغي النمساوي يحاربون أنصار فيليب الخامس البوربوني . لقد حارب الاسباني ، وكان الجنود الفرنسيون والانكليز والألمان وغيرهم من الأروبيين قد أضيفوا الى هذا الخليط ان هذه الحرب قد أعطت للأتراك الجزائريين الفرصة فى الاستيلاء على وهران والمرسى الكبير . ولم تكن هناك نجدة متوفرة للمدافعين ، ولكن ضياع وهران كان صدمة

قوية للشرف الاسباني وللوضع البحري الاسباني في النهاية الغربية للبحر الأبيض . وكان ضياعها أيضا هزيمة للمسيحية ، لأنها كانت آخر احتلالات القرن السادس عشر الاسبانية الهامة في الحرب ضد المسلمين . ولذلك كانت الرغبة في استعادة وهران رغبة دينية ، بالاضافة الى كونها مطلبا سياسيا واضحا وضوح المطالب القومية في القرن التاسع عشر .

لقد كانت قرارات ميدان المعركة هي ترك فيليب الخامس ليسطر على عرش اسبانيا ، وتحول في السياسة الانكليزية مهد الطريق لمساومة تعطيه حق تملك التيجان الاسبانية ، بينما كان منافسه قد حصل على تيجان ايطاليا والأراضي المنخفضة الاسبانية . ولكن فيليب لم يكن عندئذ حرا حرية تامة ليقوم في الحال باستعادة وهران . لقد كان مشكله المستعجل هو توحيد الممالك الاسبانية من خلال تطور حكومة بيروقراطية على النمط الفرنسي . لأول مرة منذ وحدة تاجي أراغون وكاستيل ، انتج نظامه هياكل ادارية ومالية مكنت مملكته من الوحدة . انه لم يقم حقا بضم التيجان العديدة لاسبانيا في وحدة معنوية مع كاستيل ، ولكنه فرض نظم كاستيل على جميع التيجان ، وبذلك أعطى للمملكة دفعة اقتصادية وسياسية جديدة . وبالطبع فان هذه التغيرات لم تجعل القوة الاسبانية على قدم المساواة مع قوة أنكلترا أو فرنسا ، ولكن تلك التغيرات أثرت على توازن القوى الذي كان موجودا بين اسبانيا ودول شمال افريقية الاسلامية . فالجيش الاسباني الذي أصبح الآن صلبا بالانضباط الفرنسي ، قد أصبح وسيلة أكثر فعالية من ذي قبل ، كما استعادت البحرية الاسبانية شيئا من قوتها السابقة . ورغم ان الملك ووزراءه كانوا منشغلين كثيرا بأمور أخرى في السنوات التالية لسنة 1714 تمنعهم من اعطاء شمال افريقية اهتماما جديا ، فانهم بحلول سنة 1721 كانوا قادرين على فك الحصار على سبتة ، وبحلول سنة 1730 كانوا مستعدين لتخطيط استعادة مدينة وهران .

وفي يونيو (جوان) من سنة 1732 تجمعت ارمادة (أسطول) ضخمة مؤلفة من خمسمائة وخمس سفن تتراوح ما بين البواخر الحربية الكبرى الى مراكب التموين والبريد ، حاملة لجيش من ثلاثين ألف رجل الى

وهران • وبالاضافة الى مدافع البواخر الحربية كانت هناك حوالي مائتي مدفع حصار لضرب استحكامات المدينة • وكان قائد الحملة ، وهو الكونت دي مونتمار Montemar مدعوما بضباط أكفاء ورجال مدربين ولكن لم تكد تحدث أية حرب • لقد كان مصطفى بوشلاغم ، الباي الذي كان قد وجه الحصار التركي الذي ادى الى سقوط وهران منذ ربع قرن مضى ، هو الذي يقود الدفاع ، ولكنه لم يكن لديه عمليا أي دعم ، ولم يكن الداي عبدي باشا ، الذي كان مريضا مرض الموت والذي بلغ الثامنة والثمانين من عمره ، قادرا على أخذ القرار لارسال المساعدة من الجزائر • فقد توفى عبدي فى شهر سبتمبر • وحاول الداي الجديد ، الذي كان صهره (عديله) ، أن يجمع جيشا ، ولكن الوقت كان قد فات • فقد سقطت وهران والمرسى الكبير فى أيدي الغزاة بدون مقاومة تقريبا • وكان ذلك حبة مرة فى حلق بوشلاغم ، لأنه كان عليه أن يتخلى عما استولى عليه فى شبابه بدون أن يكون قادرا على خوض حرب حقيقية •

وعندما وصلت المساعدة من الجزائر حاول بوشلاغم أن ينصب حصارا حول المدينة • ولكن الاسبان لم يكونوا ، هذه المرة ، ضعفاء بسبب الحرب الأهلية ، كما أن الاتراك لم يكونوا بالقوة التي كانوا عليها فيما مضى • فقد تمكن الاسبان من القيام بهجمة جعلت معظم المدافع الجزائرية غير صالحة للاستعمال ، كما تمكنوا من قتل عدد كبير من الجنود المسلمين الذين كانوا يحاولون نصب الحصار ، وكذلك أفسدوا أعمال الحصار • وقد كلفت هذه الخرجة (أو الهجمة) الاسبان ألفا وخمسمائة رجل ، ولكن الجزائريين خسروا فيها أكثر ، بما فى ذلك امكان نصب حصار ناجح •

وقد حكم الاسبان من جديد مدينة وهران من سنة 1732 الى عهد الثورة الفرنسية ، حينما كانوا مجبرين أيضا على التخلي عنها للجزائريين • ولكن احتلال وهران خلال القرن الثامن عشر كان يختلف عن احتلالها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر • فلم يعد الاسبان يرسلون غزوات الى أعماق دواخل البلاد (الريف) ، وأصبحت وهران مدينة اسبانية فيها حامية اسبانية ، وكان تمويلها من اسبانيا بطريق البحر •

3

وكانت هناك عائلات مسلمة قليلة تعيش فى وهران ولكن المدينة كانت اسبانية وموجهة توجيها كاملا نحو اسبانيا • ويبدو أنه لم يكن يوجد برنامج لتوسيع الهيمنة الاسبانية الى مناطق أبعد من المناطق المجاورة لوهران والمرسى الكبير •

ولكن اقامة التجهيزات والاستحكامات أعطت الاسبان قوة أكبر لمقاومة تسللات الرياس الجزائريين • فقد أصبحت وهران ومرساها قاعدة هامة للمراقبة البحرية فى غربي البحر الأبيض • وكانت السفن الحربية لاسبانيا ومالطة ونابولي تستطيع أن تقوم بعملياتها من وهران الى مالطة • فقد كانوا يراقبون البحر ويغيرون على قرى ومدن الايالتين الجزائرية والتونسية • بحلول آخر القرن الثامن عشر كاد ساحل شمال افريقية يتجرد من القرى ، بل من الناس ، لأن السكان مثلهم مثل القرويين الأسبان ، قد تخلوا عن سكنى الساحل ، باعتباره مكانا من الخطر أن يعيش فيه الانسان • ان الحروب البحرية (القرصنة) الجزائرية والاجراءات التي تطورت لمكافحتها ، كانت غليظة وقاسية وباهظة الثمن ، وربما كان السكان الفلاحون على الجانبين من البحر الأبيض بينهم أمور مشتركة نتيجة لهذه الحرب أكثر مما كانت بينهم وبين حكامهم الذين كانوا يوجهونها •

✗ وخلال السنوات الواقعة بين استعادة وهران (1732) وسنة 1775 كانت الحكومة الاسبانية مضطرة الى تركيز اهتمامها على الحروب والتهديدات فى أروبا بدل التركيز على خطة تفرض بها على الجزائر وقف هجوماتها على اسبانيا والسفن الاسبانية • وسنرى أنه خلال فرص عديدة فى هذه السنوات ، عندما كان الفرنسيون يفكرون فى الحرب ضد جماعة البحارة (الجزائريين) ، طرحت فكرة تعاون فرنسا مع اسبانيا فى مثل هذه الحرب ، ولكن الفكرة رفضت على أساس ان المصالح والمشاريع الفرنسية والاسبانية كانت مختلفة من بعضها البعض وانها غالبا ما كانت فى الواقع متعارضة • فالاسبان كانوا يرغبون فى القضاء النهائي على جماعة البحارة الجزائريين • بينما كان الفرنسيون خلال القرن (الثامن عشر) ليس فقط لا يتمنون هذه الخاتمة بل انهم كانوا يقرون بأن سلاما بين

اسبانيا والجزائر قد لا يكون فى صالح المصالح الفرنسية ما دام سيجرد السفن الاسبانية من تهديد البحارة الجزائريين ، ومن ثمة يؤدي الى خلق منافس خطير للفرنسيين • والحقيقة ان الاسبان كانوا يطمحون الى القضاء على الجزائر قضاء مبرما باعتبارها « عش القراصنة » ، ولم يكن الأمر يتوقف سوى على الوقت المناسب والطريقة الأفضل لتحقيق ذلك •

أصبح شارل الثالث ملكا على اسبانيا سنة 1759 • وكان أول مشكل واجهه هو ايجاد مخرج من حرب السنوات السبع لا يضر بمملكته ، وفى العشر سنوات الموالية حاز لنفسه لقب « الطاغية المستنير » من خلال اصلاحاته التي أدخلت حياة جديدة على جماعة الاسبانية • وبحلول سنة 1774 كان مستعدا أن ينظر فى قضية الجزائر • وكانت الخطة تقتضي هجوما مباشرا على المدينة من البر ومن البحر أيضا • وان الانتصار فى هذه الخطة سينهي الى الأبد تهديدات « عش القراصنة » •

وقد عهد بقيادة الحملة الى الكونت أوريلي O'Reilly وهو جندي متميز وعضو من عائلة ذات أصل ايرلاندي أصبحت متمركزة فى اسبانيا • ورغم السمعة التي كان يتمتع بها أوريلي فان الاختيار كان اختيارا سيء الحظ • فقد برهن على انه كان ضابطا يمكنه أن ينفذ الأوامر الصادرة من غيره • ولكنه كان غير قادر على اتخاذ الاحتياطات التي قد تسهل المفاجآت ، كما انه لم يكن يملك الحسم الذي هو ضروري عندما تبلغ الحوادث درجة الازمة •

كانت الحملة قوية الدعم • فقد ضمت وحدات المشاة التي تتألف من حوالي عشرين ألف رجل ، وحوالي ثمانمائة فارس ، وتسعمائة مدفعي مع مدافعهم • وقد حملت السفن ثلاثة آلاف وخمسمائة بحار ، وعددا كبيرا من الأرقاء للقيام بالاعمال الشاقة • ومن الخمسمائة ونيف من السفن التي تتألف منها الارمادة (الأسطول) توجد خمسون باخرة حربية ، ذات طاقة نارية أبعد ما تكون عن أن يستطيع الجزائريون اعدادها • وكانت الحملة مستعدة للانطلاق فى صيف سنة 1775 • لقد كانت تشكل منظرا مهيبا ، فمن حق أوريلي أن يأمل انه سيكرر النجاح الذي حققه سلفه ضد وهران سنة 1732 •

وان حمله على هذا النحو من الضخامة لا يمكن أن تبقى سرية . ومن ثمة فان الجزائريين قد حضروا أنفسهم لمواجهة الاسبان بكل القوة التي كانت في وسعهم . فقد جاء البايات الثلاثة بأفضل جنودهم ، وأرسل شيوخ القبائل الذين كانوا يتطلعون الى النهب والى اغتنام الفرصة لخوض معركة ضد أعداء الله (*) ، أرسلوا كتائب كثيفة من الفرسان . وجهز وزراء الداي كل القوات التي كانت تحت تصرفهم . ونتيجة لذلك فان الفرسان وسائقي الابل ، بالاضافة الى نوع من الجيش النظامي ، كانوا جميعا ينتظرون الاسبان قبل وصولهم . وقد أعلن الداي أنه سيدفع عشرة دنانير عن كل رأس مسيحي يؤتي به الى الجزائر . وهذا صاحب كتاب (الزهرة النيرة) يكتب عن ذلك قائلا : « ان هذا الاجراء كان حكيما لأن الطمع في التعويض المالي كان يجعل الجندي يقطع رأس كل الذين وقعوا بين يديه ، ويحمل الدليل الدامي الى أقدام الباشا » وكان من الممكن أيضا أن يؤدي ذلك الى احداث فوضى كاملة في صفوف الدفاع الجزائري لو أن الاسبان لم يغتروا بقوتهم بحماقة ، لأن الاضطراب الناتج عن البحث ، بدون تمييز ، عن الرؤوس وقطعها كان يمكن أن يكون نكبة .

لقد كان الله ، أو مجرد الحظ ، مع الجزائريين ، لأن الاسبان قد ارتكبوا أخطاء ، بل هي أسوء حظا مما فعلوا ، انهم نزلوا على نفس الشاطىء الذي نزل عليه شارل الخامس منذ قرنين وأربع وثلاثين سنة خلت . كان الانزال قد بدأ حوالى الساعة الرابعة صباحا يوم السابع من يوليو سنة 1775 . وبمجرد ما نزل الجنود وجدوا أنفسهم منهمكين مع المناوشين الذين حاولوا منعهم من النزول . وبسرعة أجبرهم الاسبان على التقهقر ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام نيران الرماة المختبئين وراء الخنادق أو خلف الحواجز الواقعة على سفح الجبل . وكلما نزلت قوات جديدة وحاولت توسيع المقدمة وجدوا أيضا أنفسهم في مواجهة فرسان

(*) — منذ القديم كانت الشهادة والغنيمة الدافعين الرئيسيين للجهاد ، ولكن المؤلف في جميع الكتاب يركز على الدافع الثاني حتى انه يسميه حب النهب والسلب الخ . (المترجم) .

البابليك . وبدلا من الانسحاب وتحصين شاطيء النزول ، كلما ازداد زول الجنود ، فان الاسبان رموا بثقلهم في المحاربة . وكان تقدمهم قد انحسر في تعثر لأن الجزائريين نازعوهم الطرق الغائرة وسياج النباتات وغيرها من الاعمال الدفاعية . وكانت النيران قاتلة . وفي هذه اللحظة صدر الأمر بالتراجع والتجمع ، ولكن قبل طاعة الأمر ساق رجال القبائل البربرية قطيعا ضخما من الابل على الجانب الأيمن من الموقع الاسباني . فأصاب الرجال والخيول الرعب من هذه الحيوانات الفظة ، وبات الانسحاب اندحارا فوضويا (+) . وقد كتب أحد المسؤولين فيما بعد يقول : « بدون الجهل المطبق للعدو الذي لا يعرف كيف يستفيد من فرصهم ، فانه لا شيء كان يمكن أن ينقذ الاسبان من الانكسار الكامل . » أن عرض عشرة دنانير للرأس قد يكون انقذ جزءا من الجيش الاسباني . وقد انسحب الاسبان في فوضى الى نقطة النزول لكنهم وجدوا الجزائريين قد نقلوا المدافع الى المرتفعات المجاورة وأصبح بامكان ضرباتهم أن تخرق صف الانسحاب فلم يعد هناك من حل آخر سوى الرجوع الى السفن باكبر قدر من الجنود الذين أمكن انقاذهم . وهكذا فشلت الحملة فشلا ذريعا . وبعد شهر من الهزيمة نسب أوريلي النكبة الى « الحماسة غير المتبصرة »

من قبل الجنود الذين « هاجموا ، وهم بدون نوم ، بسرعة كبيرة وأضاعوا فرصتهم » . ولكن الأمر كان أكثر من مجرد حماسة غير متبصرة . فقد كان لدى كل جندي من جنود المشاة احدى وثمانون طلقة خرطوش ، وعندما بدأ انسحاب الهزيمة كانت المشاة قد استنفذت كل ما عندها من ذخيرة اضافية . وحتى لو لم تضطرب أمورهم من قطعان الابل فانهم كانوا واقعين في مشكلة على كل حال ، لأن الجنود كانوا قد انزلوا على الشاطيء بدون مؤونة ، ودخلوا المعركة دون أن يحضروا شاطئا حصينا ، كما أن طلائعهم فشلت في معرفة ان الجزائريين قد وضعوا المدافع على المرتفعات المطلة على جسر النزول . ونحن نملك عددا من الكتابات الجيدة عن هذه المعركة

(*) ـ لا نذكر أن المصادر الاسلامية اشارت الى دور الابل في هذه الحملة ، ويبدو ان المؤلف نسي ان الاسبان بالخصوص كانوا يعرفون الابل ولذلك لا تخيفهم حتى تكون سببا في هزيمتهم ، ويبدو أن المسألة مسألة ايجاد مبرر غير عادي للهزيمة مثل العواصف والحيوانات الخ . والغريب ان المؤلف سار مع هذه الرواية . (المترجم) .

كتبها رجال كانوا حاضرين لها • وجميعها متفقة على ان الحملة كانت مرقعة ترقيعا باتصالات سيئة وتقديرات سيئة وتخطيط سيء •• وقد كتب أحد النقاد الاسبان ، الذي ربما يجب أن تكون له فيما بعد الكلمة الاخيرة في الموضوع ، يقول : « ان الحملة قد تمت على معرفة ضئيلة بالميدان وبعدد العدو ، وبالتحضير للدفاع • » وهذا يؤدي الى النكبة •

ان الهزيمة لم تكن في الحجم الذي عاناه شارل الخامس (شارلكان سنة 1541 م) ، ولكنها كانت هزيمة مهينة يرغب الجيش الاسباني ، في نسيانها • فقد خسروا جميع المدافع التي انزلوها ، ومعظم البنادق والأسلحة الصغيرة التي تعود الى المشاة ، وكل المؤونة التي انزلت على الشاطيء • وقد قتل سبعة وعشرون ضابطا وخمسمائة جندي ، وجرح مائة وواحد وتسعون ضابطا وأكثر من الفي (2000) جندي • ولا ندري كم من هؤلاء قد مات أيضا ، ولكن نسبة الشفاء من الجروح في القرن الثامن عشر كانت أقل من نسبتها في القرن العشرين • ان المؤلف التركي الذي حيا الانتصار قد أخبرنا بأن « الاسبان يقولون ان الرصاص كان مسموما لأن جميع جرحاهم قد ماتوا ••• فلله الشكر ! »

ان النكبة التي حلت بحملة أوريلي لم تؤد الى انهاء الجهود الاسبانية في اجبار الجزائريين على طلب السلام مع العرش الاسباني ، ولكن الحرب الأروبية العامة ، المعروفة بحرب الاستقلال الامريكي ، قد حولت انتباه البلاد الاسبانية الى ان وجد هذا النزاع نهاية له • وكان المسؤولون ، من جهتهم ، يفكرون من جديد في امكانية نصب حصار جديد لوهران ، لأنه في هذه السنوات ، عندما تركز الانتباه على شمالي القارة الامريكية ، استطاع باي الاقليم الغربي ، محمد الملقب بالكبير ، أن يسيطر على القبائل الواقعة داخل حدوده الاقليمية وان يجعلها تحت نظره • وقد نجح ، باستعمال ذكي للقوة والاغراء ، أن يحصل منها على دفع اتاوات بشكل منتظم الى حد ما ، كما حصل على بعض المعونة العسكرية لنصب حصار جديد على وهران • ولكن الاسبان جعلوا هذا الحصار عملا شاقا ، ذلك انهم قد حصنوا المدينة تحصينا أكثر فعالية مما كان عليه الحال من قبل ووفروا لها حامية مناسبة جيدة التموين • حقيقة ان الاسبان كانوا

بصفة عامة أسرى داخل الأسوار التي أقاموها ، ولكن من الحقيقة أيضا ان تلك الأسوار كانت تمثل دفاعا هائلا • وبحلول سنة 1780 استطاع الباي محمد أن ينصب الحصار حول المدينـة من جهـة البر ، ولكن الأتراك الجزائريين كانوا بعيدين جدا من الاستيلاء على المدينة طالما كان في استطاعة الاسبان الاحتفاظ بالبحر مفتوحا •

وبحلول سنة 1783 ، عندما انتهت ، في الأخير ، الحرب الامريكية ، كان البلاط الاسباني مستعدا لردود الفعل سواء من جهة حصار وهران من قبل الباي محمد ، أو من جهة مشكل الثأر للهزيمة التي لحقت بحملة أوريلي • ومرة أخرى كان لا يمكن للتحضيرات أن تبقى سرية • وكان الداي خائفا من تكرار ثورة قام بها الأرقاء حديثا ، فقام بارسال حوالي ألف وخمسمائة رقيق اسباني لخارج المدينة (الجزائر) ، ودعا البايات لارسال الجنود للمساعدة في مقاومة الاعتداء المتوقع • ولكن الاسبان قد اكتفوا في النهاية ، بقنبلة (المدينة) والاستعراض البحري بدلا من القيام باعتداء كامل الجوانب • فقد ظهر أسطول أمام مدينة الجزائر مكونا من عشر فرقاطات ، وخمس وعشرين شبيكة وأربعين شلوب Chaloupes وكان ذلك يوم 29 يوليو 1783 • وقد بدأ القصف بالقنابل في اليوم الأول من اغسطس • وخلال تسعة أيام رمي الاسبان حوالي أربعة آلاف قنبلة ومثلها من عدد الكور أما في اتجاه المدينة نفسها واما في اتجاه التحصينات • وكانت الخسائر أقل مما كان الاسبان يأملون ، ومع ذلك فقد كانت خسائر معتبرة • فقد وقعت اضرار بليغة بعدة مئات من المنازل ، بما في ذلك قصر الداي نفسه ، وقتل حوالي مائتي (200) شخص • ان فعالية القصف قد ازدادت نوعا ما منذ جهود الفرنسيين قبل قرن ، ومع ذلك فان « التقدم » في هذا الصدد لم يكن كبيرا • ففي سنة 1783 لم يكن الأمر يقتضي سوى حوالي نصف ذلك العدد من السفن لانجاز حوالي نفس الخراب الذي خلفه قصف دوكين Duquesne سنة 1682 • وليس لدينا سبيل لمقارنة الخسائر التي تركتها الحملتان (الفرنسية والاسبانية) •

وفي سنة 1784 ظهرت ارمادة (أسطول) اسبانية أخرى أمام الجزائر وحاولت من جديد قنبلة المدينة ، ولكن الجزائريين ، بما لديهم من بارود وطلقات ، وبعض المدافع الجديدة التي قدمتها لهم السويد والأراضي المنخفضة وانكلترا — كانوا قادرين على منع الاسبان من الاقتراب الكافي الذي يمكنهم من تسديد القصف الى المدينة وكان تبادل الطلقات بين السفن الحربية والتحصينات لم يتسبب الا في خسائر طفيفة للطرفين . ومن الواضح ان القصف بالقنابل لن يؤدي الى اخضاع الجزائر .

×ورغم ذلك فان نمو التجارة الاسبانية ومعها اعتداءات الرياس الجزائريين كان يتطلب فعل شيء ما حول العلاقات الجزائرية — الاسبانية وفي سنة 1785 حصل الاسبان ، من خلال المساعي الحميدة التي قام بها القنصل الفرنسي ، على حق ارسال بعثة الى الجزائر لتتفاوض على السلام . والتنازل الكبير الذي كان يمكن للمفاوضين الاسبان تقديمه هو ارجاع وهران والمرسى الكبير الى الأتراك الجزائريين . وكان الاسبان يعتقدون ان ذلك لا يعني تخليهم عن أمر عظيم اذا استطاعوا أن يؤمنوا بعد ذلك مركزا تجاريا مع تنازلات شبيهة بتلك التنازلات التى حصل عليها الحصن الفرنسي في البايليك الشرقي . ومن الواضح ان الجزائريين من جهتهم كانوا يعتقدون أن تقديم دفع سنوي ، بالاضافة الى استعادة وهران ، كان بديلا مناسبا لا ستمرار المنازعات . ومن جهة أخرى فان نمو القوة البحرية الاسبانية جعل « تجارة » البحارة الجزائريين غير مربحة بالطريقة التي كانت عليها من قبل . ومهما كان الأمر فان الداي ووزراءه قد وافقوا على معاهدة سلام مع المملكة الاسبانية ، وهي الأولى من نوعها بين الحكومتين (الاسبانية والجزائرية) في تاريخهما كله . والنقطة الرئيسية في المعاهدة قد تركزت على ارجاع وهران .

ان ظلال ايزابيلا الكاثوليكية ، والكاردينال خيمينز دي سيزنيروس Cisneros والجنود الابطال الاسبان الذين دافعوا عن وهران طويلا — ان هذه الظلال الماضية قد أضيفت الى الشرف الجريح للاساقفة الكاثوليكيين المعاصرين والوطنيين النبلاء الاسبان . وكلما تفاقم النقد

للمعاهدة كانت الحكومة الاسبانية تجد المبرر تلو الآخر لتأخير الجلاء عن وهران . وقد خلف شارل الرابع والده على العرش سنة 1788 . ولم يكن هناك وقت لنقل الجنود من وهران . ثم جاءت الثورة الفرنسية سنة 1789 ، فاستولت على انتباه جميع أروبا . ولكن الأتراك الجزائريين كانوا منشغلين بوهران أكثر مما كانوا منشغلين « بحقوق الانسان والمواطن » أو بقضايا المملكة الفرنسية . لقد أرسل الباي محمد المبعوثين ، أو ذهب هو بنفسه ، الى جميع الدواوير والقرى والمدن في بايليك الغرب . وما دام الاسبان لم يسلموا وهران فانه كان يطلب المساعدة لتجديد « الجهاد » لاستعادتها . وقد يكون تجمع لديه ، بحلول سنة 1789 ، حوالي خمسين ألف رجل جاهزين للحصار ، رغم ان معظمهم لن يفيدوا سوى في مراقبة الطرق والحقول لتدعيم الحصار . ثم ان الطبيعة ـ وليس البارود والالغام الجزائرية ـ قد جاءت لمساعدة المحاصرين (*) .

ففي اغسطس سنة 1790 حدثت عدة زلازل صغيرة الحجم في النواحي المحيطة بوهران . وفي الثامن والتاسع من أكتوبر اهتزت الأرض أقوى هزات . لقد كان ذلك انذارا بأشياء ستحدث . وفي 21 ـ 22 أكتوبر تداعت الأرض واهتزت فسقطت المباني والحيطان . ان وهران كانت انقاضا . وجميع الأطباء في المدينة قد قتلوا ، كما قتل الحاكم (الاسباني) وجميع أفراد عائلته . وكذلك قتل ثلاثة ضباط سامين وواحد وثلاثون ضابطا برتبة كابتانات وليوتنات . اما الناس العاديون والجنود فقد قتل منهم حوالي ألفين . وكان الاحياء الباقون المرعوبون يمشطون الأنقاض بحثا عن الأصدقاء والأقارب . ومرت أسابيع في دفن الموتى . أما الحكومة الاسبانية فقد بعثت في الحال بالامدادات والمؤونة ، ولكن الحقيقة هي أن الأرض استمرت في الاهتزاز مدة شهر كامل بعد الزلزال العنيف الذي حدث في 21 ـ 22 أكتوبر ، مما تسبب في بطء الجهود الرامية الى

(*) ـ من جديد يعود المؤلف للعامل الخارق للعادة كسبب من أسباب هزيمة الأروبيين ، وهو هنا الزلزال . (المترجم) .

الاستعداد لمواجهة الجزائريين (*) القادمين وحلفائهم البربر • ولم يكد ينتهي الزلزال حتى وصل الباي محمد أمام وهران لتجديد حصار المدينة •

كان الباي محمد وقواده متأكدين من أن الزلزال كان من عمل الله الذي تدخل الى جانبهم في النزاع (**) • ولكنهم عندما حاولوا الهجوم على المدينة قابلهم الاسبان بنيران مميتة أجبرتهم على التقهقر في اضطراب• ثم ان الباي محمد أصبح مقتنعا بأن عليه أن يستعمل وسائل أكثر تداولا للاستيلاء على وهران : الحصار الضيق وعمليات التلغيم • والواقع أن نهاية وهران أصبحت أمرا لا شك فيه ، وهي حقيقة اعترفت بها عندئذ الحكومة في مدريد • وكان موت الداي المسن والمريض في الجزائر قد جاء الى الحكم بالداي حسن ، الذي كان خزناجيا أو وزيرا للمالية • وكان الداي حسن مستعدا للاصغا الى العروض الاسبانية الدبلوماسية • وقد وقعت معاهدة جديدة في سبتمبر سنة 1791 ووافق عليها الطرفان أوائل شهر ديسمبر • وقد نصت من جديد على الجلاء عن وهران وانشاء « حصن » اسباني في المرسى الكبير لتسهيل العمليات التجارية الاسبانية مع بايليك الغرب ولاستعمال المياه الاقليمية لصيد السمك • وفي مقابل ذلك كان الاسبان سيدفعون الى الداي معونة مالية محددة • وفي اليوم الأخير من شهر فبراير سنة 1792 دخل الباي محمد ، الملقب الآن بالكبير ، وهران دخولا رسميا • وفي الوقت الذي دخلها فيه كانت معظم العائلات الاسبانية المقيمة هناك قد رجعت الى اسبانيا • وقد أكد للسبعين عائلة أو نحوها الباقية بأن نمط حياتها سيتسامح معه ولن يصيبها أذى طالما بقيت وفية • وبعد وقت قصير أرسل السلطان تهانيه الى الداي والى الباي على استرجاع المدينة التي طالما خضعت للاحتلال المسيحي الى السيطرة التركيـة •

(*) — الظاهر ان المقصود بالجزائريين هنا الامدادات الواردة من مدينة الجزائر ، لا سيما الأتراك • (المترجم) •

(**) — من المصادر الاسلامية عن فتح وهران الثاني : كتاب الثغر الجماني لابن سحنون ، تحقيق الشيخ البوعبدلي ، مطبوع ، ثم رحلة ابن زرقة وعجائب الاسفار ، لابي راس ، كلاهما مخطوط بالعربية ، لكن الأخير مترجم الى الفرنسية • (المترجم) •

وباسترجاع وهران للمرة الثانية تكون الايالة الجزائرية قد نجحت في النهاية في اخراج الاسبان من المغرب الأوسط . ان القصة التي بدأت باحتلال الكاردينال خيمينيز وبيدرو نفارو للمدن الساحلية الممتدة من وهران الى طرابلس قد انتهت . ففي خلال تلك السنوات الثلاثمائة تقريبا حارب الاسبان الأتراك والبربر والعرب حروبا سميت بأشكال مختلفة جهادا او صليبية . انها حروب دموية وقاسية درت الثروة أحيانا على المنتصرين ووعدت دائما الموتى بالخلاص في الآخرة . ويجب على المؤرخ أن يعترف ببطولة الممثلين ، وبالعاطفية للقصة ، وبالتأثير المأساوي ، بالاضافة الى لحظات الابتهاج بالحوادث . أما الفيلسوف فقد يسأل ما اذا كانت مجرد حكاية شكسبير رويت من قبل أحد الحمقى ، أو درس يعلم الأجيال اللاحقة أكثر فأكثر عن الأحوال البشرية وعن قضايا حكم الناس (*) .

(*) — يعبر المؤلف بذلك عن رأيه الليبرالي الواضح وموقفه ، كمؤرخ ، من العوامل المتحكمة في مصير البشرية . (المترجم) .

الفصل الخامس عشر

القرن الثامن عشر، بقية أوروبا المسيحية والجزائر

[خلال القرن الثامن عشر كله بقيت أنكلترا وفرنسا فى حالة سلام مع الجزائر . ان القوة البحرية التي كانت لدى هاتين الدولتين قد أفهمت الجزائريين انه من الأفضل لهم المحافظة على السلام . نعم حافظوا عليه ، ولكن فقط طالما كان ذلك ضروريا لاقناع « أصدقائهم » الأقوياء ان الحرب مع الجزائر ستكون أبهظ ثمنا من الابقاء على ما يسمى بالعلاقات « السلمية » من خلال الدبلوماسية . وكانت السفن الحربية الانكليزية والفرنسية تزور مرسى الجزائر من وقت الى آخر لتشعر الداي ومستشاريه بالحقيقة ، وهي ان القوة البحرية المهيمنة كانت موجودة ، بينما كان قنصلا الدولتين الكبيرتين يشرحان بانتظام بأن حكومتيهما تصران على ضرورة التزام الجزائر بنصوص معاهدة السلام .]

وبتقدم القرن استطاعت دول أروبية أخرى أيضا أن تعقد السلام مع الجزائر ، وبذلك ضمنت الحصانة من احتجاز سفنها : الأراضي المنخفضة المتحدة ، وهامبورغ ، والدنمارك ، والسويد ، والأمبراطور (بالذات عن أراضيه المنخفضة النمساوية) ، والبندقية ، ثم فى نهاية القرن جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة . ان هذه المعاهدات قد ضمنت الأمان مقابل ثمن : كانت حكومة الداي قد حصلت على حوالي نفس الدخل من الأتاوات التي يدرها الاستيلاء على السفن فى البحر ، فى شكل غنائم نقدية . ورغم ان المعاهدات لم يكن من السهل المفاوضة بشأنها لأن الرياس والتجار المعنيين بالأرباح من الغنائم كانوا فى العادة غير سعداء

عندما يحصل علم دولة أخرى على الحصانة • ولن يكون مفيدا أن نتابع المفاوضات المختلفة التي قادت الى هذه المعاهدات ، ولكن قصة المشاكل التي وقت في احدى منعطفات التطور في المعاهدة التي بين الأراضي المنخفضة المتحددة والجزائر في وسط القرن الثامن عشر تقدم لنا توضيحا مفيدا •

في الفترة ما بين 1714 و 1720 احتجز الجزائريون أربعين سفينة هولندية كغنائم وحوالي سبعة آلاف وخمسمائة بحار هولندي أصبحوا أرقاء • واذا أخذنا في الاعتبار حجم الأسطول الهولندي التجاري فان هذه الأرقام لا تدل على خسائر كبيرة • انه يمكن أن تكون حتى الخسائر من العواصف ومن أخطاء الربابنة تعادل ما حدث من خسائر مالية • غير أن هذه الخسائر كانت خطيرة في نظر التجار وملاك السفن الذين فقدوا نقودهم ، وكذلك في نظر العائلات التي فقدت الرجال ، بالاضافة الى البحارة أنفسهم الذين أصبحوا أرقاء • وهناك مشكل آخر كان يزعج ملاك السفن الهولنديين ، وهو أنه طالما كانت السفن الهولندية تواجه خطر الاحتجاز ، فان التجار الأجانب كانوا مترددين في أن يعهدوا ببضائعهم واشخاصهم الى السفن الهولندية ، وهذا يعطي الفرصة لحركة السفن الانكليزية والفرنسية •

كان أول اقتراح بانهاء هذه الهجومات الباهظة هو بناء أسطول بحري هولندي ، (للقرصنة) لمحاربة الجزائريين • وقد قدمت عريضة بهذا المعنى الى البرلمان Estates General تصر على أن أسطولا من ست سفن حربية ، ثلاث ذات خمسين مدفعا ، وثلاث ذات أربعين مدفعا ، يمكنها أن توقف الغارات الجزائرية عن طريق حصار مضيق ، وثمن هذا المشروع هو 383ر400 فلورة في السنة • ولم يتحقق شيء من هذا الاقتراح • ولكن السفير الهولندي في اسطانبول حاول في السنة الموالية أن يحصل على مساعدة الباب العالي لعقد معاهدة مع الجزائر ، كما قام القنصل الهولندي في ازمير باتصال مع بكير رايس ، وهو أمير بحر (أميرال) الطائفة الجزائرية ، وهو الاتصال الذي أغنى الأخير غنى

كبيرا (*) . ونتيجة لذلك حث السلطان الداي على النظر في السلام مع الأراضي المنخفضة ، وقد ثنى بكير رايس على الاقتراح . وعندما وافق الداي على استقبال بعثة هولندية ، أخبر (أي الداي) القنصل الفرنسي بأن القرآن يحتم عليه أن يسمع الى أية دولة « تطلب » السلام .

وصلت أمام الجزائر ست سفن حربية بقيادة وكيل أمير البحر . وقد عين الداي رقيقا من أصل فلاماندي ليكون مترجما . وعندما تقدمت المفاوضات أصبح من الواضح ان معرفته للغة التركية كانت بدائية . فقد كانت المفاوضات لا تسير الى أي هدف . وفي هذه اللحظة ظهر أيضا في الجزائر السفير الفرنسي الجديد في الدولة العثمانية وهو داندريزيل d'Andrezel الذي جاء على ظهر باخرة حربية لمناقشة القضايا المعلقة بين الجزائر وفرنسا . وأثناء تبادل الزيارات سأل وكيل أمير البحر الهولندي السفير اذا كان يمكنه استعارة السيد لينوار Lenoir ، المترجم الفرنسي، فوافق داندريزيل على ذلك بسرعة واعلم لينوار أن يبقيه على اطلاع حول سير المفاوضات . لقد فهم الفرنسيون ان السلام بين الجزائر والهولنديين سيضاعف من نشاط التنافس الهولندي في ميدان التجارة . وكانت « ترجمات » لينوار صحيحة ومع ذلك فان المفاوضات انقطعت . ولكن لينوار لم يكن العامل الوحيد في قطع المفاوضات . فقد كانت هناك شكاوى من الرياس ومن غيرهم من أن السلام سيقضي على مشروع اقتصادي هام ، وهو الاستيلاء على الغنائم الهولندية . ثم انه في لحظة حرجة ظهرت سحب من الجراد في سماء الجزائر ، وقد أكد المرابطون للأهالي بأن الله كان يتكلم ضد أي سلام مع الهولنديين (**) .

(*) — واضح ان المؤلف يقصد ان الهولنديين قد رشوا بكير رايس لكي يسعى في السلام بين الجزائر وهولندا وقد الح المؤلف كثيرا في كتابه على ظاهرة الرشوة هذه كوسيلة فعالة استعملها الاوروبيون للوصول الى اغراضهم من حكام الجزائر . (المترجم) .

(**) — اذا صح هذا فانه يدل على مكانة المرابطين بين السكان ، ولكن المعروف ان الحكام كانوا يتوددون الى المرابطين لكسب تأييدهم في القضايا المهمة . انظر مثلا « اربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة » في كتابنا (تجارب في الادب والرحلة) . وكذلك فصل : المرابطون والطرق الصوفية في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ج 1 . (المترجم) .

ان فشل المفاوضات جاء في النهاية من « سوء تفاهم » حول شروط المعاهدة . فالداي طلب خمسين صاريا وستة مدافع برونزية وستة حديدية، وأربعة عشر الف كورة للمدافع ، والف قنطار من البارود ، وألف وأربعمائة بندقية ، وألف وأربعمائة سيف . كان وكيل أمير البحر الهولندي ، الذي كانت لديه تعليمات بعدم الموافقة على الدفع في شكل معدات حربية ، يعتقد ان لديه اتفاقا قديما مع الديوان ينص على تقديم هدية من أربعة آلاف بياستر كل سنة لمدة ست سنوات . وكان لينوار منتبها للوضع فاقترح أن يشرح للداي بأنه كان قد أساء الفهم . وقد ادعى الداي انه كان غاضبا . فعرض عليه وكيل أمير البحر الهولندي بأن يرفع الدفع الى ثمانية آلاف بياستر . فرد عليه الداي بأنه لا هو ولا سلفه قد قبلوا الدراهم أبدا ، وأن فعل ذلك يعتبر اخلالا بالشرف . فأبحر وكيل أمير البحر الهولندي مبتعدا بدون معاهدة ، ولكن ليس قبل أن يؤكد للسفير الفرنسي داندريزيل بأن السفير الهولندي في فرساي يشكر الملك الفرنسي على المساعدة الفرنسية في الجزائر . وبعد سنوات قليلة نجحت بعثة هولندية أخرى في الحصول على شروط وضعها الداي ، وهي : كميات كبيرة من المعدات الحربية في شكل هدايا . وقد استنكر القنصل الفرنسي والانكليزي كلاهما المعاهدة الهولندية ، على انها غير أخلاقية ومخلة بالشرف . فقد كان الهولنديون يمونون الجزائريين بالمعدات الحربية لمهاجمة الدول التجارية المسيحية الأخرى . ويجب أن نلاحظ أن الدايات المتأخرين لم يجدوا صعوبة في قبول الاتاوة نقدا ، فقد دفعت البندقية ، من أجل السلام ، 22,000 سكينية ذهبية اتاوة سنوية من 12,000 سكينية ذهبية . ودفعت جمهورية الولايات المتحدة الفتية 642,500 دولار واتاوة من 21,600 دولار ، في شكل معدات بحرية . كما دفعت كل من هامبورغ والسويد والدنمارك ونابولي أيضا كميات وافرة من أجل الحماية .

وبينما كان شراء الحماية يعطي في العادة اجراء من الأمن لتجارة البلاد التي تدفع « الاتاوة » فان الأمر لم يكن كذلك في كل الأحوال فقد حاول الرياس ، الذين وجدوا ضحاياهم الممكنين قد انحصروا فقط

ف أولئك الذين يرفعون الأعلام الاسبانية أو البرتغالية أو الدول الايطالية الصغيرة ، أن يجدوا أي عذر للاستيلاء على السفن كغنائم اذا كانت تعود الى تلك الدول التي كانت تفنيا في سلام مع الايالة • وقد كان غالبا من الصعب الحصول على تعويض ذي بال اذا كان الأمر يتعلق بدولة صغيرة ، بل حتى ولو كان يتعلق بالأمبراطور باعتباره حاكم الأراضي المنخفضة النمساوية • وكان الملك الدنماركي قد قرر في احدى المرات أن يستعمل القوة ، ولكن الأسطول الصغير الذي استطاع أن يرسله الى الجزائر لم يستطع أن يقترب بما فيه الكفاية ، لكى تصيب قنابل مدافعه المدينة ، فما بالك في جعلها تتسبب في اضرار بليغة ، وكانت بواخره الحربية غير قادرة على أن تحاصر أي واحدة من السفن الجزائرية المسماة بالشبكات ذات السرعة والخفة الفائقة • لقد كانت المحاولة الدنماركية نكبة أوحت في الجزائر بنظم الشعر الساخر ، وأوحت كذلك ببعض الابتهاج من قبل القناصل الآخرين في المدينة •

ان تجربة جمهورية الولايات المتحدة الفتية كانت أسعد حظا من تجربة المملكة الدنماركية ، ومن ثمة يجب أن يكون لها مكان أكثر اتساعا في هذا التاريخ ما دام من الصعب على مؤرخ أمريكا الشمالية الذي يكتب عن الجزائر أن ينسى ان فرقة البحارة (المارينز) للولايات المتحدة ما تزال تنشد عن انتصاراتها نشيد « على سواحل طرابلس » ، أو أن أول أسطول بحري للجمهورية الفتية قد أنشيء وفي الذهن البحارة الجزائريون (*) • لقد كانت السفن المنطلقة من المستعمرات الانكليزية ترفع العلم الانكليزي • وباستثناء فترة قصيرة جدا خلال القرن السابع عشر عندما لم يفهم الجزائريون لماذا كانت السفن القادمة من « المزارع الأمريكية » لم يكن لها جوازات السفر المناسبة ، فان المعاهدة الانكليزية ـ الجزائرية كانت تغطي النقل البحري من مستعمرات أنكلترا أيضا • وفي سنة 1783 ، عندما كان السلام بين كونفدرالية الولايات المتحدة الامريكية وأنكلترا ما يزال يكتب ، حاول الأمريكيون ، بدون نجاح ، أن يحصلوا على نص

(*) ـ يشير المؤلف الى ان سياسة الجزائر البحرية هي التي جعلت الأمريكيين يعتمدون المال لبناء أسطول بحري قوي يستطيع الوقوف في وجه الأسطول الجزائري ويفرض احترام علمهم . (المترجم) •

يضمن لهم استقرار الحماية الانكليزية لتجارتهم في البحر الأبيض ، ان هذا الفشل لم يكن سوى جزء من المشكل الذي واجه المصالح التجارية للجمهورية الفتية . لقد كانت الأسواق الانكليزية والفرنسية التي تحميها تشريعات تجارية — كانت على العموم مغلقة في وجه الأمريكيين ، بل حتى في الغرب الهندي (West Indies) لم يكن من السهل على التجار من الجمهورية الجديدة أن يقيموا علاقات تجارية مرضية . غير أن هناك منطقة لم تكن مغلقة في وجههم هي الأوطان المشرقية التابعة للسلطان التركي . ولكن عندما ظهر العلم المرصع بالنجوم (علم أمريكا) في مياه البحر الأبيض ، أصبح غنيمة شرعية في نظر رياس شمال افريقية . وقد ازداد المشكل حدة أوائل التسعينات من القرن الثامن عشر عندما عقدت كل من أسبانيا والبرتغال السلام مع الجزائر ، ومن ثمة سمح لسفن البحارة الجزائريين بالتجوال في المحيط الأطلسي حيث وجدوا من جديد سفن الولايات المتحدة . وقد نصح السفير الأمريكي بلندن ، جون آدمز J. Adams ، بـ « شراء » الحماية كما فعلت الدول الصغيرة الأخرى . أما توماس جيفرسون Jefferson ، السفير الأمريكي في باريس ، فقد حث على انشاء أسطول بحري لفرض احترام العلم الجديد . ولكن الكونفدرالية لم تكن قادرة على تلبية أي من الاقتراحين بنجاح .

وما دام الواقع هو أن الأسطول البحري لا وجود له فقد أصبحت محاولة « شراء الحماية أمرا محتما ، ولكن أول بعثة أرسلت الى شمال افريقية (الجزائر) للتفاوض لم يكن لديها سوى 80٬000 دولار . وقد عبر داي الجزائر عن اعجابه بالجنرال واشنطن ، بل انه طلب صورته ، رغم ان الدراهم لم تكن كافية للتأثير عليه . وعندما نص الدستور الجديد للجمهورية الفدرالية على وجود حكومة في مقدورها فرض الضريبة (على الأمريكيين) ، وضع وزير الخارجية جيفرسون ، خلافا لنصيحته الأولى ، ثمانمائة ألف دولار (800٬000) لفدية الارقاء التابعين للولايات المتحدة وشراء السلام . وقد كلفت المعاهدة التي وقعت سنة 1795 ، 642٬500 دولار بالاضافة الى اتاوة سنوية في شكل معدات بحرية . وفي السنة الموالية وسعت هذه المعاهدة لتشمل هدية لسفينة من نوع فرقاطة ذات ستة وثلاثين مدفعا ، ويبدو ان الثمن كان باهظا ، ففي سنة 1799

مرت حوالي ثمانين سفينة تابعة للولايات المتحدة في سلام الى البحر الأبيض للتجارة مع الدولة العثمانية • وكانت هذه السفن ممنوعة من الأسواق الانكليزية والفرنسية معا •

وهناك هامش غريب لقضية هدية السفينة الفرقاطة : فعندما سلمت الجزائريين لاحظوا انهم لا يملكون سفينة شبيهة لها ، في القدرة على الابحار • فأمر الداي باثنتين أخريين ، على حسابه • ولكن عندما أصبح جيفرسون رئيسا رفض السماح بتسليم الفرقاطتين كما رفض أيضا ارسال المعدات الحربية (*) في شكل اتاوة • ان خصومته نحو المصالح التجارية المتنافسة مع دائرته هو الزراعية جعلته معاديا أيضا للأسطول البحري وللاتاوة من أجل التوسع التجاري ، ولكن عندما هاجم الجزائريون السفن التجارية للولايات المتحدة ، كان جيفرسون هو المسؤول على بناء سفن الفرقاطات الشهيرة التي حاربت ، فيما بعد ، في حرب سنة 1812 (**) • وفي المراسلات التي دارت بين آدمز وجيفرسون خلال السنوات الأخيرة من حياتهما نجد ان جون آدمز يذكر فضل جيفرسون على انه هو أب الأسطول البحري للولايات المتحدة •

وأعظم انتصار بحري مدهش ضد دول شمال افريقية حدث بعد أن أطلقت معاهدة غانت Ghent القوات البحرية للولايات المتحدة المتحرك ضد دول « القرصنة • » فقد دخل ستيفان ديكاتور Decatur الى البحر الأبيض على رأس أسطول صغير من ثلاث سفن وقابل وحارب أمير بحر الأسطول الجزائري في يونيو سنة 1815 • وعندما انتهى الاشتباك كان أمير البحر ، وهو الرايس حميدو (***) وكثير من رجاله موتى وحوالي خمسمائة من البحارة الجزائريين والانكشارية كانوا أسرى • ثم توجه ديكاتور الى مدينة الجزائر حيث أعلن نتائج اشتباكه • ولم يكن الجزائريون يصدقون ان أكثر أمراء بحارهم شهرة وأكثرهم شجاعة كان

(*) — كذا ، يذكرها المؤلف تارة معدات حربية وتارة معدات بحرية • (المترجم) •

(**) — لعل المؤلف يشير بذلك الى الحرب التي جرت بين أمريكا وبريطانيا في هذه السنة (1812) • (المترجم) •

(***) — كتبه المؤلف حمادة Hamada (المترجم)

قد هزم وقتل ، ولكن ديكاتور اطلق عددا من الأسرى « المغربين » الذين أكدوا القصة • وكانت النتيجة معاهدة جديدة بين الجزائر والولايات المتحدة تضمن الحرية لتجارة الولايات المتحدة دون دفع اتاوة (1) • وفي السنة الموالية جاء اللورد اكسموث Exmouth الذي قضى عمليا على المؤسسة البحرية الجزائرية بغارة مفاجئة • ورغم ان الجزائريين استطاعوا أن يستعيدوا الى حد ما قوتهم فانهم لم يعودوا أبدا يشكلون تهديدا لتجارة الولايات المتحدة •

ومن نتائج المعاهدات الموقعة مع الدول الأروبية الصغيرة مرور الهيئة القنصلية فى الجزائر بتغيرات هامة • ففي القرن السابق (السابع عشر) كان قناصل الفرنسيين والانكليز والهولنديين هم الوحيدين الممثلين فى الجزائر • وكانوا غالبا ما يظلون فى مكاتبهم القنصلية حتى عندما تكون حكوماتهم فى حالة حرب مع الايالة ، ولكن حيواتهم وطرق معيشتهم كانت فى الغالب صعبة جدا • أما فى منتصف القرن الثامن عشر ، عندما توسعت الهيئة القنصلية لتشمل أغلب الدول الأروبية التي لها اتصالات تجارية فى البحر الأبيض ، فان القناصل أصبحوا فى الواقع أشباه سفراء (quasi-ambassadors) وتطورت فيما بينهم روح التضامن المهني esprit de corps • وأحيانا كانت انكلترا وفرنسا فى حالة حرب ضد بعضهما ، ولكن ذلك لم يمنع قنصليهما من الانضمام الى كامل الهيئة القنصلية للاحتجاج على سوء معاملة واحد منهما •

ولدينا صورة وافية عن هذا التضامن بين أعضاء الهيئة القنصلية خلال منتصف القرن الثامن عشر وذلك فى المذكرة التي كتبها القنصل الفرنسي لومير ، ثم فى مرحلة لاحقة ، فيما كتبه الباحث الفرنسي دي بارادي de Paradis • ان هذه الملاحظات مدعومة بالمعلومات المستخرجة من هنا وهناك من المراسلات ، تسمح لنا بأن نرى أعضاء هذه الهيئة القنصلية فى شكل متنوع • فقد كان عدد منهم مدمنا لشرب الخمر ، ولعل ذلك

---

1 - ان أفضل عمل يتناول باختصار العلاقات بين الولايات المتحدة والايالات الشمال افريقية يوجد في كتاب جيمس ا • فيلد J.A. Field الذي عنوانه (امريكا وعالم البحر الابيض المتوسط ، 1776 - 1882) ، برنستون ، 1969 •

يعود جزئيا الى خلفيات بيئاتهم : فأحد القناصل الانكليز كان رجلا لا يمكن لأحد أن يعهد اليه بسر من الأسرار لأنه كان فى العادة ملازما لكأسه • وكان بعضهم معجبا بنفسه الى حد الغرور ، فكان يظن نفسه اكثر ذكاء وأفضل اطلاعا مما كان عليه فعلا • وكان أحد القناصل الهولنديين المتكبرين قد ميز نفسه على انه مرجع فيما يتعلق « بالسياسة العليا » لأنه سبق له أن عاش فى باريس واستمر فى قراءة « الغازيت Gazette » • وكان أيضا متزوجا من ابنة القنصل السويدي الذي هو تاجر ذو نفوذ كبير على الداي نظرا للعطايا التي كان يعطيه اياها • ومعظم القناصل الفرنسيين وبعض القناصل الانكليز كانوا رجالا ممتهنين للعمل القنصلي ، بينما كان آخرون تجارا ، وغالبا ما لم يكونوا رعايا للملك الذي من المفروض انهم كانوا يمثلونه • وكان أحد القناصل الفرنسيين ، وهو ابن « لقنصل فرنسي سابق ، قد عاش فى الجزائر صبيا ، وكان يتكلم لغات الايالة بطلاقة • اما القناصل الذين لا يتمتعون بهذه المزية فقد كان عليهم أن يعتمدوا فى الاتصالات على مترجميهم •

وبنهاية القرن أصبحت حيوات هؤلاء القناصل أقل عرضة للخطر • فقد سمح لهم بمغادرة البنايات القنصلية حيث كانت تتم جميع الاعمال ، وأن يسكنوا فى مغاني (فيللات) خارج المدينة حيث الحدائق تعطي نوعا من الرشاقة لمعيشتهم • كما تطورت أيضا حياة اجتماعية بين القناصل والتجار الأروبيين من جهة وبين بعض الرياس الأكثر تمدنا ، والمسؤولين الأتراك ، وأغنياء السكان من الكراغلة والبلدية (الحضر) فى المدينة من جهة أخرى • ولكن معظم المسؤولين الأتراك بقوا خارج هذه الدائرة •

ومن بين أكثر أعضاء هذه الجماعة ، (*) أهمية تاجر يدعى جورج لوجي Logie (أيضا Logier, Legier) والذي ظهر أول مرة فى الجزائر يقود سفينة تجارية ترفع العلم السويدي • وكان لوجي هو الذي فاوض على معاهدة السلام للسويد ثم أصبح قنصلا سويديا • وقد

(*) – عن هذه الشخصية انظر ما كتبناه عنه في مقالتنا (عن النشاط العسكري والتجاري للجزائر في القرن 18 م) في المجلة التاريخية المغربية ، عدد 33–34 (يونيو 1984) •

استطاع ان يشتري عددا من السفن المحتجزة التي كان يقودها تحت العلم السويدي كتاجر وكوكيل تجاري عام للداي • وفى احدى مراحل حياته كان لوجي يطمح الى أن يصبح قنصلا لانكلترا ، وحصل على تأييد الداي لترشحه • وقد طرد الداي القنصل الانكليزي بحجة من الحجج ، ولكن عندما ظهر امير البحر كفانديش Cavandish أمام الجزائر على رأس قطعة من الأسطول ومعه السيد بلاك Black القنصل الانكليزي ، تراجع الداي وسمح للقنصل الانكليزي بالرجوع • ومع ذلك فان مكانة لوجي لم تمس بسوء كثيرا • فقد كان الداي معتمدا عليه فى ادارة كثير من الأعمال (بيزنيس) التجارية للايالة ، وكان هو يقدم للداي ووزرائه هدايا مناسبة • ويخبرنا لينوار Lenoir بأن الداي كان فى الواقع لا يحب بل يخاف هذا القنصل السويدي ، ولكنه كان كثير الاعتماد على خدماته فلم يقطع علاقته معه • وكان لوجي هو والد زوجة القنصل الدنماركي ، وكان عدد من القناصل الآخرين معتمدين على خدماته أيضا • ولم يضاهه أحد فى سلطته الا رجال المال واليهود فى مرحلة لاحقة ، الذين جعلوا أيضا أنفسهم لا غنى عنهم للداي ولحكومته •

ان جهود لوجي فى جعل نفسه قنصلا انكليزيا توضح اختلافا بين التعيينات الفرنسية والانكليزية • ففي القرن الثامن عشر كان القناصل الفرنسيون أناسا عاديين لهم تجربة فى النظام القنصلي ، وكانوا غالبا أناسا لهم معرفة باللغة التركية حصلوا عليها من المشرق قبل ظهورهم بالجزائر • ومن جهة أخرى كان (القناصل) الانكليز فى الغالب تجارا مقيمين فى الجزائر ، أو تجارا لهم مصالح هناك • وكان هذا تحولا من السياسة التي تم بشأنها الاتفاق فى منتصف القرن السابع عشر بعد اتهام عدد من التجار ــ القناصل ، بأنهم كانوا السبب فى الحرب بين أنكلترا والجزائر • ونتيجة لهذا الاجراء المتغير ، فانه حتى الداي حاول أحيانا أن يختار بين الخلفاء الموجودين لقنصل انكليزي مات أثناء أدائه الخدمة ، وكانت الحكومة فى لندن فى الواقع قد قبلت فى عدة مناسبات اختيار الداي • وربما كان من نتائج هذا ان القنصل الانكليزي كان فى الغالب فى حالة سوء تفاهم مع التجار الانكليز المقيمين فى الجزائر الذين لم يترددوا فى التدخل فى الأعمال القنصلية مع الداي ، أو يكتبوا رسائل شكوى

ضد القنصل الى الوزراء فى لندن . وقد لاحظ أحد القناصل الانكليز بأن سلوكا كهذا من قبل تاجر فرنسي كان ينتج عنه استدعاؤه فى الحال الى فرنسا . ذلك أن الفرنسيين كانوا متشددين أكثر من أية دولة من الدول الأخرى .

وبينما كانت حياة قنصل ما فى القرن الثامن عشر بالجزائر أكثر أمنا من حياة زميله فى القرن السابع عشر ، فان القنصل كان ما يزال يواجه مشاكل مع البحارة الجزائريين ومع الداي ، بالرغم من أن معاهدة سلام وحماية قد تضمن أمن النقل البحري لهذه المملكة . ومن بين المشاكل التي استمرت فى الظهور ، فشل الرياس الجزائريين فى اظهار علمهم الحقيقي الا بعد طلبهم حق الصعود الى ظهر السفينة وفحص حمولتها . فكان ربان السفينة غير متأكد من انه كان يتعامل مع رايس جزائري أو مع قرصان من سلا (*) . ذلك ان قراصنة سلا كانوا أيضا يرفعون اعلاما مزيفة حتى اللحظة الأخيرة . فاذا كان لدى الربان قوة نارية كافية تجعله يأمل فى الانتصار فانه قد يجيب الطلب بقنابل المدافع . والنتيجة : انه اذا فشل فى صد البحارة عنه ، فانه سيحمل الى الجزائر ، وقد يحبس قنصله ، وقد يحاول السكان حتى محاكمة الربان والقنصل معا . وقد قال أحد القناصل الفرنسيين عن هذا الوضع بأنه « كابوس » بالنسبة له ولموظفيه . وكان القناصل الآخرون يواجهون نفس الاخطار ، ولم يكن أمرا سهلا أن تلطف مشاعر الداي « الجريحة » ، أو تهدىء من غضب أصدقاء وعائلات الجزائريين الذين قتلوا فى الاشتباك ، كما كان صعبا فى نفس الوقت أن تنقذ السفينة المتهمة وطاقمها .

وهناك مشاكل أخرى متصلة بحق « الزيارة والتفتيش » كانت مسجلة فى معظم المعاهدات . فقد كان على ربان السفينة أن يحمل معه جواز سفر ، ولكن الرايس وكاتبه لم يكونا غالبا قادرين على قراءة اللغة

(*) – سلا مدينة معروفة بالمغرب الأقصى ، والمؤلف ، كما سبق له ، فرق بين النشاط البحري والقرصنة ، وقد اعتبر اعمال الجزائريين من النوع الأول لذلك يسميهم بحارة corsairs واعتبر اعمال السلاويين قرصنة ولذلك سماهم pirates (المترجم) .

الانكليزية أو الفرنسية ، فما بالك باللغات الاروبية الاخرى • ونتيجة لذلك كان العمل يجري بمقارنة طول السطور على جواز السفر بالسطور الموجودة على نسخة الرايس • فاذا لم تتوافق السطور أعلن بأن جواز السفر كان مزورا واحتجزت السفينة • وقد جرت العادة أن القنصل ف امكانه أن يطلق السفينة عندما تأتي الى المرسى ، ولكن غالبا ما يكون جزء من الحمولة قد « فقد » • كان الجزائريون يكرهون تسليم الغنيمة • وكان الداي يعرف ان قرار تحرير السفينة قرار غير محبوب ، وبعد حادث كهذا كتب أحد القناصل اليائسين : « ••• ان الشره غير العادي من أجل النقود هو الذي يقود هؤلاء البرابرة ، انه يجعلهم يشنون العدل وينكثون بالعهود ••• » ، ثم أضاف بأن « الداي كان كالحيوان المفترس لا يفكر الا ف مصالحه الخبيسة الخاصة • »

وبالاضافة الى ذلك يوجد مشكل يشكل خطرا خاصا على القنصل الفرنسي وموظفيه ، وهو ناجم من كون الحجاج الجزئريين والمتوجهين الى مكة وكذلك أعيان الجزائريين أو الأتراك الذاهبين الى المشرق كانوا غالبا يسافرون على سفن فرنسية ، وفى عدد من المرات كان البحارة (القراصنة) الاسبان أو المالطيون ، يتعرضون لهذه السفن ، ويحملون المسافرين المسلمين وبضائعهم ، الى موانيء مسيحية ، كاذ الحجاج يباعون فى سوق الرقيق ، وكانت بضائعهم تصادر • وكلما حدث شيء من هذا كان القنصل الفرنسي فى خطر ، فلم يكن من السهل اقناع الأسبان بتسليم المسافرين المسلمين ، كما ان اعادة ممتلكاتهم كان أمرا مستحيلا • وفى عدد من المناسبات كان الملك الفرنسي يقوم بشراء هؤلاء المنكودين ويعيدهم الى الجزائر • ولم « تتفضل » الحكومة الاسبانية الا فى مناسبة واحدة باطلاق سراح الأسرى الذين كانت من قبل قد رفضت الطلب الفرنسي بشأنهم • وذلك عندما كان الاسبان يأملون فى تلك اللحظة فى الحصول على معاهدة سلام مع الجزائر وكان تفضلهم قد أدى الى أن يفقد القنصل الفرنسي ماء وجهــه •

ان المشاكل المتصلة بفرار الارقاء كانت دائمة موجودة فى جميع تجارب القناصل الأروبيين فى الجزائر • لقد كان الارقاء طبعا من الممتلكات

ولم تنازع الدول الأوروبية في شرعية الملكية . وكانت الانذارات توجه الى القناصل والتجار الأوروبيين وربابنة السفن بعدم مساعدة الارقاء على الفرار ؛ ولكن اذا استطاع أحد الشياطين الفقراء أن يسبح الى سفينة راسية في عرض المرسى فانه ليس من السهل اعادته الى مالكه القديم لكي يواجه موتا محققا ؛ ومع ذلك فان المالكين والداي وكذلك الديوان ، كانوا ينظرون الى هذا التصرف على انه لصوصية ، وانه شاهد على ان الأوروبيين لا يحترمون نصوص المعاهدات . وحتى عندما استطاعت جماعة صغيرة من الارقاء أن يخطفوا مركبا ويبحرون فيه نحو (جزيرة) ميورقة فان القنصل الفرنسي أصبح يواجه اتهامات خطيرة . وعندما استطاعت جماعة أخرى أن تتغلب على طاقم صغير متروكا على السفينة ، بينما كان معظم زملائهم يتمتعون بـ « مسرات » الجزائر ، فان القنصل الفرنسي قد اتهم بأن له يدا في كل ما حدث . ان هذه الحوادث كانت باستمرار تثار وتراجع كلما جاء القناصل الأوروبيون باتهامات ضد الجزائريين على انهم لا يحترمون مواثيقهم .

ومصدر آخر للنزاع الدائم خلال القرن الثامن عشر بين الداي والقنصل الفرنسي والانكليزي ظهر من كون كثير من السفن التي ترفع الاعلام الانكليزية أو الفرنسية كانت في الواقع تحمل أناسا ، بل وكان يقودها أناس ، ليسوا بكل وضوح أنكليزا أو فرنسيين . فبعد سنة 1715 كانت قواعد أنكلترا في منطقة البحر الأبيض مراسي عسكرية وتجارية هامة ؛ وكان من الواضح ان سكان هذه القواعد كانوا أناسا ذوي أصول اسبانية أو ايطالية . وكان في استطاعة هؤلاء الناس الا يحملوا علم ملك انكلترا ولا يتكلموا اللغة الانكليزية . ولكن عندما كان الرياس يوقفون سفن هؤلاء الناس ، فان الجزائريين كانوا يفترضون أنهم كانوا يحاولون فقط تفادي الاحتجاز . وكانت القضية الفرنسية مختلفة الى حد قليل . ذلك ان كثيرا من السفن التي تحمل علم الملك الفرنسي كان عليها ويقودها أناس من مواليد شواطيء البحر الأبيض الممتدة بين مرسيليا وليفورنيا . وكان من الشائع ان الرياس يوقفون سفينة ترفع العلم الفرنسي ولكنها تحمل أناسا كلهم من جنوة . فكان القناصل في الجزائر يواجهون بالادعاء بأن العلم والتسجيل كان مجرد

حيلة • لقد كانت هذه حالات صعبة ، فكان القنصل الفرنسي غالبا ما يسلم في القضايا التي لها علاقة بالجنويين ، وكان القنصل الانكليزي يحاول أحيانا اقناع الداي بأن المقيمين في جبل طارق أو مرسى ماهون كانوا حقيقة رعايا من رعايا ملك انكلترا •

ومشكل آخر كان يزعج قناصلة القرن الثامن عشر جاء من كون التجار اليهود المقيمين في الجزائر قد احرزوا على تأثير كبير لدى الداي وأصبحوا يشكلون منافسة خطيرة بالنسبة للتجار الفرنسيين. لقد أصبح الداي معتمدا على عدد من هؤلاء التجار اليهود من أجل المساعدة المالية وفي مقابل ذلك منحهم امتيازات عظيمة • وكان هؤلاء التجار يهودا « أروبيين » ، ولم يكن عليهم أن يلبسوا بالطريقة التي يظهر بها اخوانهم في الدين الافريقيين ، كما ان ثقافتهم ونظرتهم الاقتصادية كانت قد تشكلت باتصالاتهم مع التجار اليهود في أروبا • وكان القناصل الفرنسيون قد قاوموهم مقاومة تكاد تكون عنيفة ، وكانوا يحثون ملكهم على اصدار قوانين تمنع هؤلاء اليهود المحظوظين من التجارة في الموانيء الفرنسية ، ولكن بدون جدوى • فقد كان للتجار اليهود اتصالاتهم ، وكانوا يتعاملون في البضائع التي تحتجز كغنائم ، بالاضافة الى الانواع العادية من التجارة ، وكانوا ضروريين بالنسبة لحكومة الداي • وعلى أية حال ، فاذا كان هناك من يشك في قدم أو في عمق العواطف الأروبية المعادية لليهود ، فعليه أن يقرأ مراسلات القناصل الفرنسيين من الجزائر خلال القرن الثامن عشر •

وقد سبب التجار المسيحيون أيضا اضطرابا ونزاعا • ومن القضايا الصارخة قضية التاجر الذي قبل عنده تخزين بضائع تعود الى الداي على وجه الأمانة ، ثم استطاع أن يختلس منه ليس من الأرباح فقط بل من رأس المال أيضا ، وهناك حالة أخرى وهي حالة التاجر الذي كان مدينا للداي بمبلغ كبير من المال ثم مات بدون موارد • وقد كان الملك الفرنسي مضطرا لتعويض الخسائر لكي يتفادى صعوبات اضافية • وكان لهذا التصرف مبررات ، لأن حكومة الملك الفرنسي قد أقامت شروطا وتنظيمات خاصة بالموانيء وحددت واجبات التعريفة الجمركية التي جعلت من المستحيل عمليا على التاجر المسلم أن يتاجر في الموانيء الفرنسية •

وهكذا فان الجزائريين لا يستطيعون في الواقع أن ينقلوا بأنفسهم حمولاتهم من الصوف والجلود والقمح والشمع والعسل وغيرها من مثل هذه البضائع الى السوق الفرنسي . لقد كانت التجارة كلها في ايدي اليهود او في أيدي الفرنسيين . وكانت تلك شكوى شرعية من قبل الجزائريين ، لأن تنظيمات الميناء كانت تمنعهم عمليا من التجارة مع أوروبا حتى في سفنهم الخاصة .

وكانت المراسيم (البروتوكول) أيضا مصدرا للصعوبات . فقد كان الجزائريون يشتكون من أن السفن الحربية الفرنسية الانكليزية غالبا ما كانت لا تحييهم التحية المناسبة . فبحلول القرن الثامن عشر كانت التحية في البحر قد أصبحت طقوسا محددة ، والفشل في ادائها كاملة الى آخر جزئية من تفاصيلها يعتبر اهانة . ونفس الشيء يقال عن انماط التحية بالنسبة للسفن الحربية ، وامراء البحر ، والقناصل ، وربابنة السفن العادية في المرسى . وكانت السفن الحربية تحيي المدينة حين تدخل مياه المرسى خارج الجزائر ، وكان من المتوقع ان مدافع المدينة ومدافع الرصيف البحري (المول) سترد التحية . واذا أرسل أمير البحر أناسا الى الشاطيء للتفاوض ، فان عليه أن يكون متأكدا من أن (المول) قد حيا رجاله التحية المناسبة والا فانهم لن ينزلوا على الشاطيء . واذا كانت قطعة الأسطول التي وصلت تحمل سفيرا فان التحية يجب أن تكون مختلفة عن تحية مبعوث عادي . فللقنصل خمس طلقات مدفعية ، ولسفير الملك احدى عشر ، وليس من الممكن الاتفاق دائما على عدد الطلقات التي يجب اطلاقها ، فكلا الجانبين كان لا يريد تحمل الاهانة . فاذا أصبح المرء بحضرة الداي ، فان هناك مشاكل أخرى تنجم : وأكثر هذه المشاكل الحاحا تطورت من اصرار الداي على وجوب تقبيل يده من قبل القنصل . ولم تكن هذه العادة جارية في البلاطات الأخرى . غير ان رفضها قد يؤدي ، وقد أدى فعلا ، الى توترات . وهناك قضية أخرى مردها حق القنصل في حمل سيف . واثناء العهود الأولى لم يكن ذلك أمرا ملحا لأن معظم القناصل كانوا من التجار الذين لم يكونوا يحملون في العادة سيوفا ، ولكن بحلول القرن الثامن عشر عندما كان القناصل ينظرون الى أنفسهم على أنهم « شبه سفراء » وكان كثير منهم في الواقع رجالا

مهتمين لوظيفتهم الدبلوماسية ، فان السيف كان رمزا للمنصب ، ومع ذلك فان الدايات كانوا لا يريدون اي أسلحة فى غرفة المجلس ، فالجزائريون كانوا مجبورين على ترك أسلحتهم عند الباب ، وكذلك يجبر أيضا على القنصل الأوربي ، ان القناصل قد ربحوا القضية عادة حول تقبيل اليد ، ولكنهم خسروها بالنسبة لحقهم فى حمل السيف .

ورغم كل هذه المشاكل فانه لا فرنسا ولا انكلترا ولا ايالة الجزائر قد قطعت فعلا العلاقات خلال القرن الثامن عشر . حقيقة ان الجزائريين قد قطعوا علاقاتهم من وقت لآخر مع هذه او تلك من الدول الصغيرة التي كانت تدفع الاتاوة من أجل الحماية ، ولكن حتى عندئذ فان الفرنسيين على الخصوص كانوا يعوضون كثيرا من الغنائم للرياس ، فكان (الجزائريون) يتفادون النزاع مع اية دولة من الدولتين البحريتين الكبيرتين . ولا شك ان الخوف من الانتقام هو الذي أقنعهم (الجزائريين) بالمحافظة على السلام . وكان وجود القواعد البحرية الانكليزية فى حوض البحر الابيض خلال القرن الثامن عشر قد جعل الوحدات البحرية الانكليزية القوية قادرة على القيام بعمليات حرة على طول ساحل الشمال الافريقي، كما أن الأسطول الفرنسي الرابض فى طولون ومرسيليا كان أيضا على مسافة قصيرة تجعل من السهل عليه ضرب الجزائر . ان القصف الذي وقع فى آخر القرن السابع عشر بالاضافة الى القوة الهائلة للمؤسسات البحرية فى القرن الثامن عشر قد جعلت فرنسا وأنكلترا قوتين ، ومن الخطورة جدا الدخول معهما فى حرب . ان هذا التفسير للأحداث ينزع عن الجزائريين الفضل الذي طالما ادعوه ، وهو انهم كانوا « أوفياء لعهودهم » ، وانه من الحق القول بأن الدايات كانوا غالبا يتكلمون عن رغبتهم فى المحافظة على ما جاء فى المعاهدات التي وقعوها . ومع ذلك فانه يبدو من السذاجة الاعتقاد بأن مجتمعا كان معتمدا كل الاعتماد على أعمال بحرية شبيهة بالقرصنة فى القرن السابع عشر ، قد أصبح فى آخر القرن الثامن عشر مجتمعا تقيا محافظا على القوانين ، ولا سيما اذا عرفنا انه بحلول ذلك الوقت (آخر القرن 18) كانت القوة البحرية الأروبية قد أصبحت هي

المهنة ؛ حتى مع اعتبار ان سفن الشبيكات الجزائرية كانت سريعة وسهلة القيادة (*) .

وتوجد أسباب عديدة لضبط النفس الذي أظهرته الحكومتان الانكليزية والفرنسية ازاء الوخزات (pinpricks) والمقلقات التافهة التي جربتاها من البحارة الجزائريين ومن طغيان الدايات . وكان بعض الكتاب على درجة كبيرة من الخسة ، بحيث اقترحوا بان انكلترا وفرنسا حافظتا على السلام مع « البرابرة » ، لأنهما كانتا مسرورتين برؤيتهم يفترسون تجارة منافسيهما الصغار في ميدان التجارة الدولية وحركة نقل المسافرين في حوض البحر الأبيض . وقد يكون هذا سببا واضحا في ان أيا من الحكومتين لم تجب اطلاقا على العرائض العديدة التي تدعو الى ان تشترك أوروبا المسيحية في مجهود واحد يسحق اعشاش القرصنة في شمال افريقية . حقيقة انه في الامكان توثيق هذا الرأي من مراسلات القناصل الانكليز والفرنسيين ، ولكن هناك أسباب أخرى ، ربما أكثر أهمية ، لفشل الانكليزي والفرنسي في انهاء القرصنة من هذه الجمهوريات اللصة،والقضاء قضاء مبرما على استرقاق الأروبيين من قبل المغيرين المسلمين. فمن جهة كانت الأساطيل الانكليزية والفرنسية خلال أكثر القرن الثامن عشر منهمكة أما في حروب واقعية ضد بعضها البعض ، واما في التحضير لحرب جديدة . وكان لويس الرابع عشر قد وجد من الحكمة أن يكون دائما في سلام مع دول شمال افريقية كلما كان هو في حرب ، وكان خلفاؤه قد طبقوا نفس الرأي . وهذا لا يعني انهم لم يفكروا في عمل عسكري ضد الايالة الجزائرية ، لأننا سنرى انهم فعلوا ، ولكن كانت هناك دائما أسباب للتأجيل . ورغم ان القوة البحرية الجزائرية لم تكن خطيرة ، فان السيطرة عليها كانت صعبة وباهظة التكاليف ، ورغم ان الجزائر كان يمكن ضربها بالقنابل ، فقد كان هناك دائما سؤال وهو هل

(*) — يعتبر هذا تفسيرا ودفاعا وموقفا من المؤلف ، وهو من أطروحاته الأساسية التي اقام عليها كتابه ، فاختلال التوازن هو الذي جعل الجزائريين ، في نظره ، يتراجعون وليس الأخلاق والتقاليد والقوانين ، كما أن التنافس ، هو الذي منع الاروبيين — سيما بريطانيا وفرنسا — من القيام بعمل مشترك ضد الجزائر وليس الامر هو قوة الجزائر ذاتها . ولكن رأي المؤلف هنا غير مقبول على علاته . (المترجم) .

ان ذلك القصف كان جديرا بالتكاليف التي يتطلبها • ان القصف الفر[نسي الذي] جرى في القرن السابع عشر قد تسبب في أضرار ، ولكن معظم السكان غادروا المدينة طلبا للأمان ، واهم نتيجة دائما تتجت عنه هي شعور العداء الحاد ضد الفرنسيين من قبل السكان الجزائريين •

وبدلا من ارسال السفن الحربية وحاملات القنابل لقصف الجزائر ، فضل الانكليز والفرنسيون ارسال قطع الأسطول لاظهار العلم ، وارسال « هدايا » ورشاوى للمحافظة على رضى الداي ووزرائه • ولدينا قوائم لهذه « الهدايا » ، بعضها كانت موجهة الى مسؤولين صغار في المرسى ، ولكن معظمها كان موجها الى الداي ، وموظفيه ، والى كبار الرياس ، ومن الغريب أن « الهدايا » لم تكن « كافية » الا نادرا • وان التقارير القنصلية ممتلئة بالقصص عن خيبات الأمل في كرم القنصل • ومن اكثر القصص الصارخة تلك التي حدثت أوائل القرن التاسع عشر عندما احضر القنصل بروطون Broughton هدية الى الداي تتمثل في صندوق نشوق جميل يعمل بالموسيقى ومعه ابزيم مرصع بالزمرد والأحجار الكريمة • فقد نظر الداي الى الهدية ثم سأل القنصل عما اذا كان « ملكه قد اعتبره طفلا يلهو بلعبة طان ، طان ، طان ! » ان الهدية قد كلفت ألفا وخمسمائة جنيه • كما أن الداي لم يكن قد تأثر برزمة قماش الجوخ الانكليزي الجيد الذي أحضره له بروطون أيضا • لقد لاحظ عليه انه كان من « النوع الرديء • » ثم رجع القنصل في اليوم التالي بحزمة من المسدسات ، ولكن الداي سأله : « أين المدافع التي تجيء معها ؟ » وقد لاحظ بروطون بعد ذلك ملاحظة ذكر فيها شيئا عن وضع الجواهر أمام خنزير •

ومن الصعب معرفة ما اذا كانت هذه الردود الخشنة وغير المهذبة مجرد طريقة من التلاعب للحصول على أكبر قدر ممكن من الخواتم والساعات والدبابيس والأقمشة الرفيعة وغير ذلك ، أو كانت بكل بساطة خشونة في الطباع شائعة بين الناس غير المتحضرين • ان الشواهد الموجودة تشير فقط الى مشكل التوقعات والخيبات ونتائجها التي تصدع الرأس بالنسبة للقناصل • وهذا أحد القناصل الفرنسيين كتب ، وهو في حالة يأس وغضب : « خلال الستة أيام التي أنا فيها هنا ، يوجد شيء يكدرني باستمرار حول

الهدايا التي أنا مجبر على تقديمها الى هذا الجمع من الجحودين ، ان كل واحد منهم يريد شيئا ، وكلهم يتحدثون عن نوعية الأشياء التي أعطتها لهم الدول الشمالية ، فاذا أنا استمعت اليهم فستكلف بـ 225,000 فرنك (livres) والواقع ان التكاليف كانت ترتفع كل عشر سنوات ، وربما كان ذلك نتيجة هبوط الأرباح من تجارة البحارة (الجزائريين) • وقد اشار قنصل انلكيزي كان قد قدم هدايا تكلفت بـ 50,000 طالرز (talers) (*) ، بأن ذلك كان أكثر بكثير من راتبه هو السنوي • ان « الهدايا » كانت ثمنا للسلام • فعندما نرى القناصل يرشون من أجل الخدمة أناسا يتراوحون ف درجات السلم من الداي الى مسؤول بسيط ف الميناء ، نفهم بأن الجزائريين لم يحافظوا على السلام لأنهم فقط كانوا يرغبون ف احترام المعاهدات التي وجدت بينهم وبين أنكلترا وفرنسا • وربما كانت هذه الهدايا أيضا شاهدا على أن الخوف من الانتقام البحري لم يكن بنفس الأهمية التي اعتقدها الكثيرون ، ان « الهدايا » من الدول البحرية الكبيرة ، و « الهدايا » مضافا اليها الاتاوة من الدول الصغيرة ، هي التي أبقت البحارة مقيدين وحمت كثيرا من التجارة ف حوض البحر الأبيض من نشاطهم الشبيه بالقرصنة (quasi-piracy) •

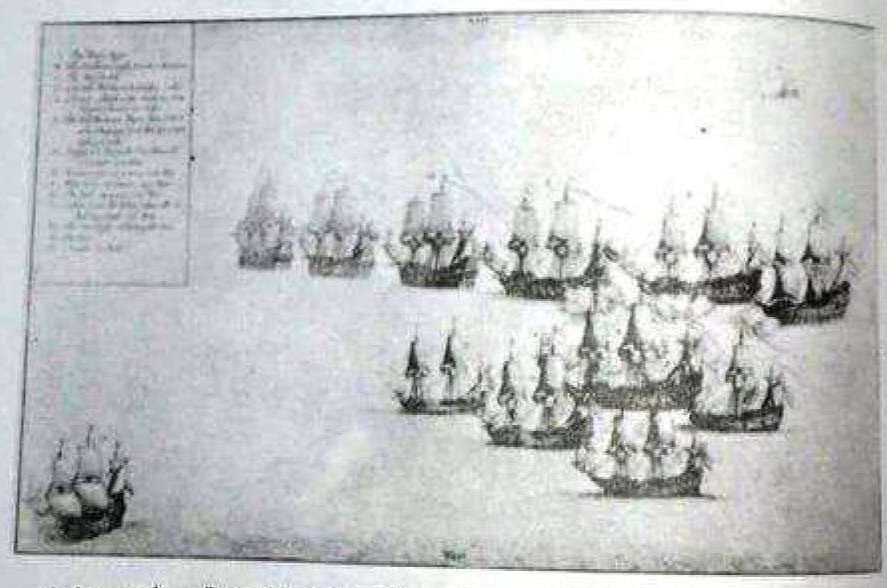
★ لقد كانت البرتغال وأسبانيا والجزر الاسبانية والدول الايطالية الصغيرة هي التي قدمت معظم « اللعبة » التي جاء بها الرياس الجزائريون خلال القرن الثامن عشر الى الميناء • ولم تقدم الدول الشمالية الصغيرة الغنائم التجارية والارقاء ليباعوا ف الجزائر خلال القرن الثامن عشر الا بعد أن فشلت ف توقيع اتفاق حول دفع الاتاوة •

(*) ــ الطالرز = عملة فضية المانية قديمة • (المترجم) •



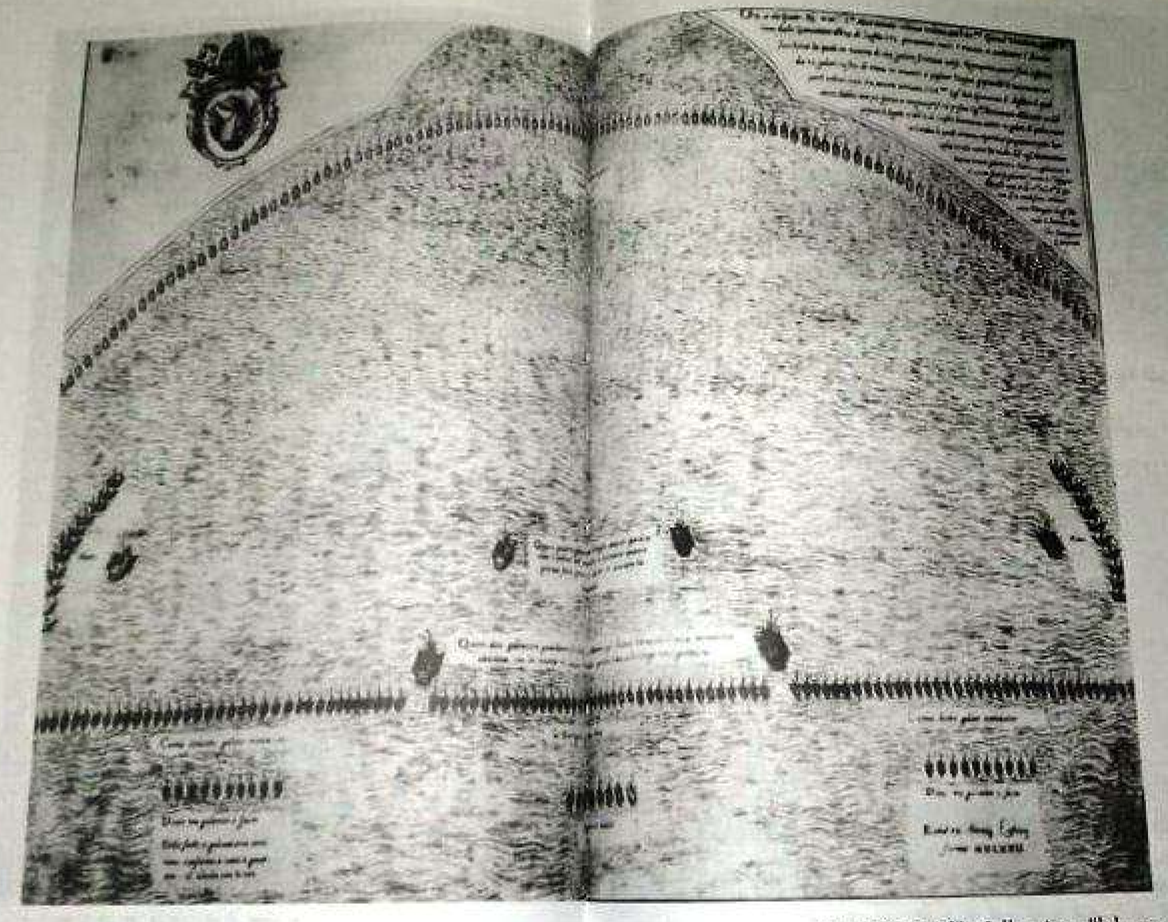
أ ـ تمثل الصورة أعدام قسيس انتقاما من ضرب دوكين مدينة الجزائر بالقنابل .

مجموعة فيوليت ـ جامعة باريس)



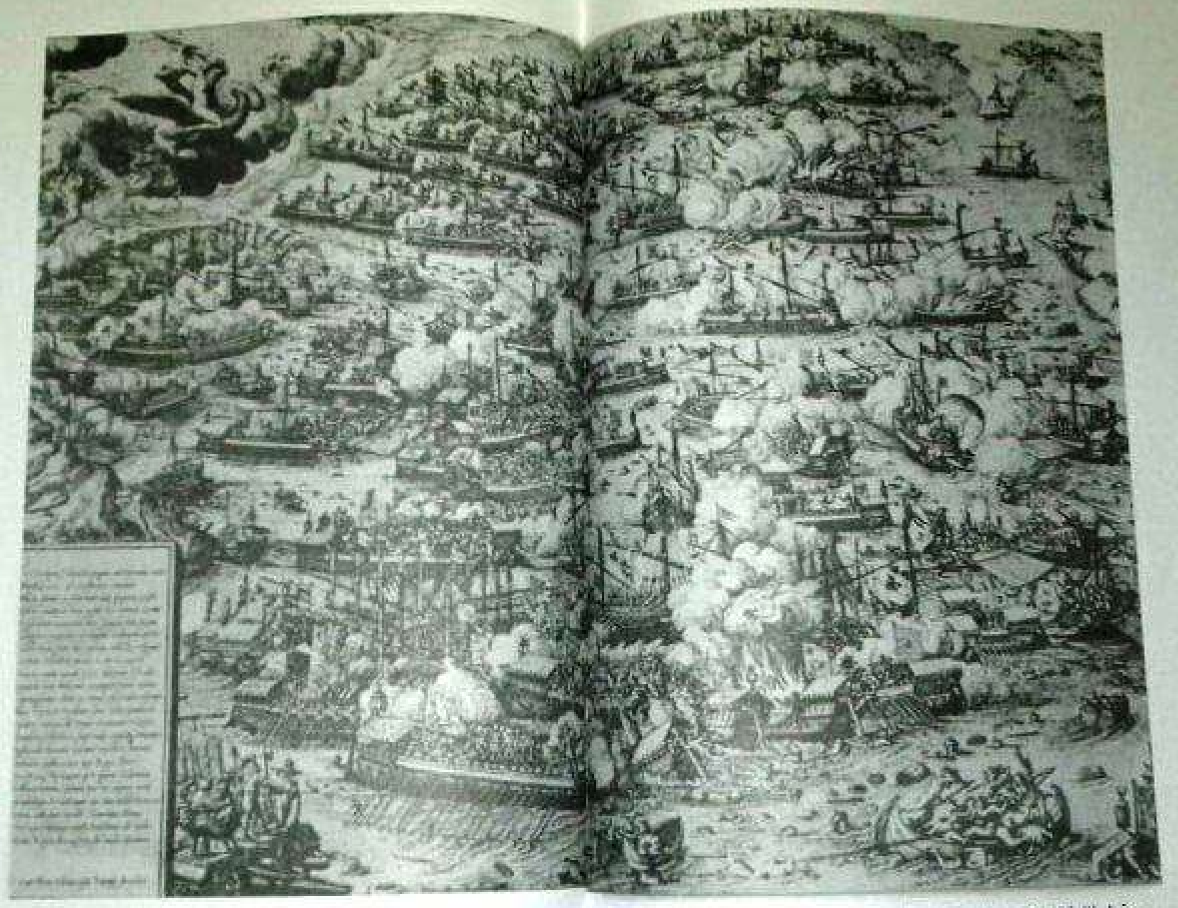
ب ـ صورة تمثل المعركة التي جرت بين السفينة الانكليزية (ماري روز) مع اربع سفن انكليزية اخرى صغيرة وبين ست سفن قرصنة جزائرية ، والنتيجة هزيمة سفن القرصنة التي كانت قوتها من 30 الى 40 مدفعا .

(مكتبة بيل ـ جامعة منيسوتا)



رسم إيطالي يوضح الموقع الأول لمعركة ليبانتو .

(مكتبة نيوبيري – شيكاغو)



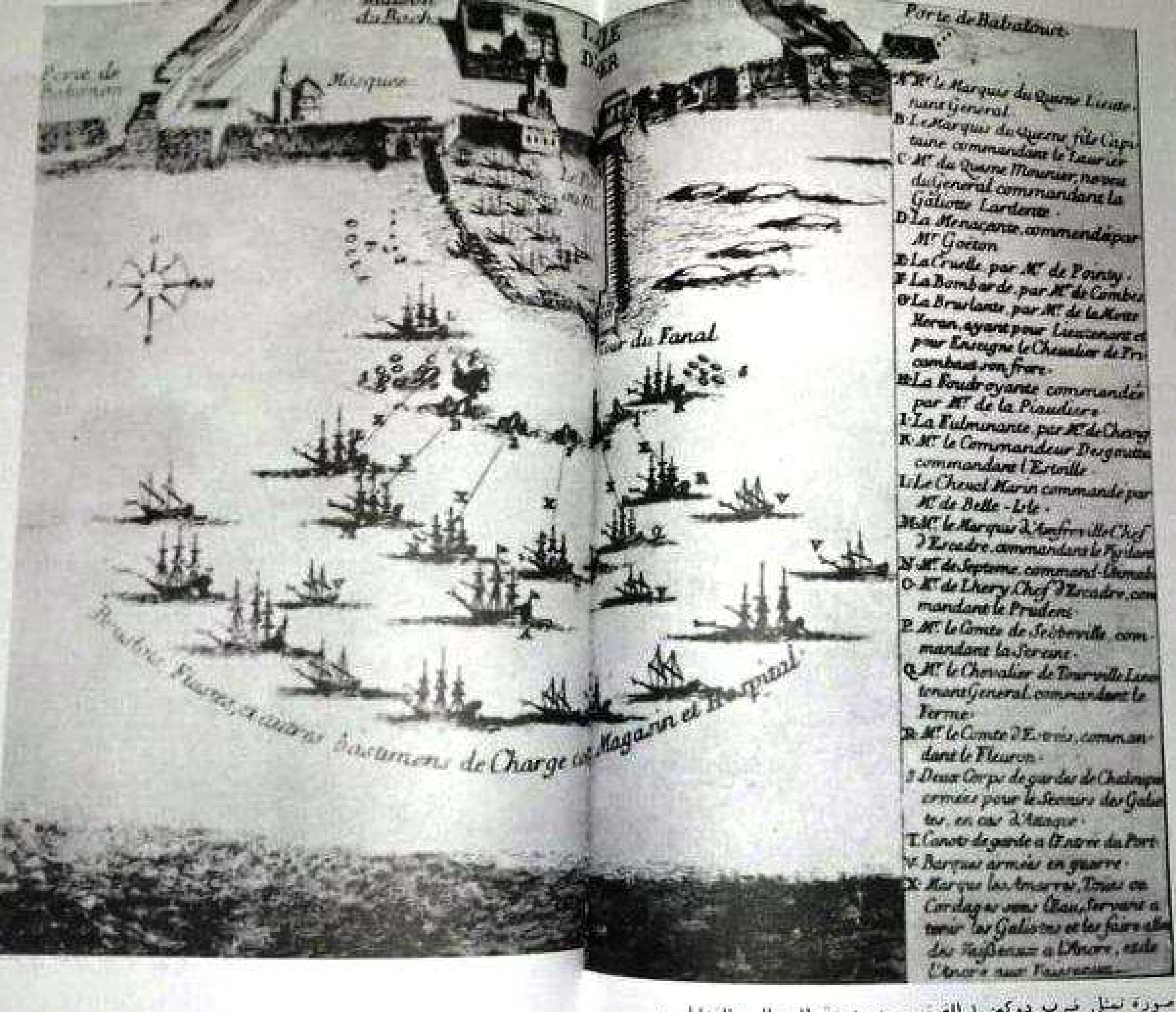
صورة ايطالية لمعركة ليبانتو أثناء الالتحام .

(مكتبة نيوبيري - شيكاغو)

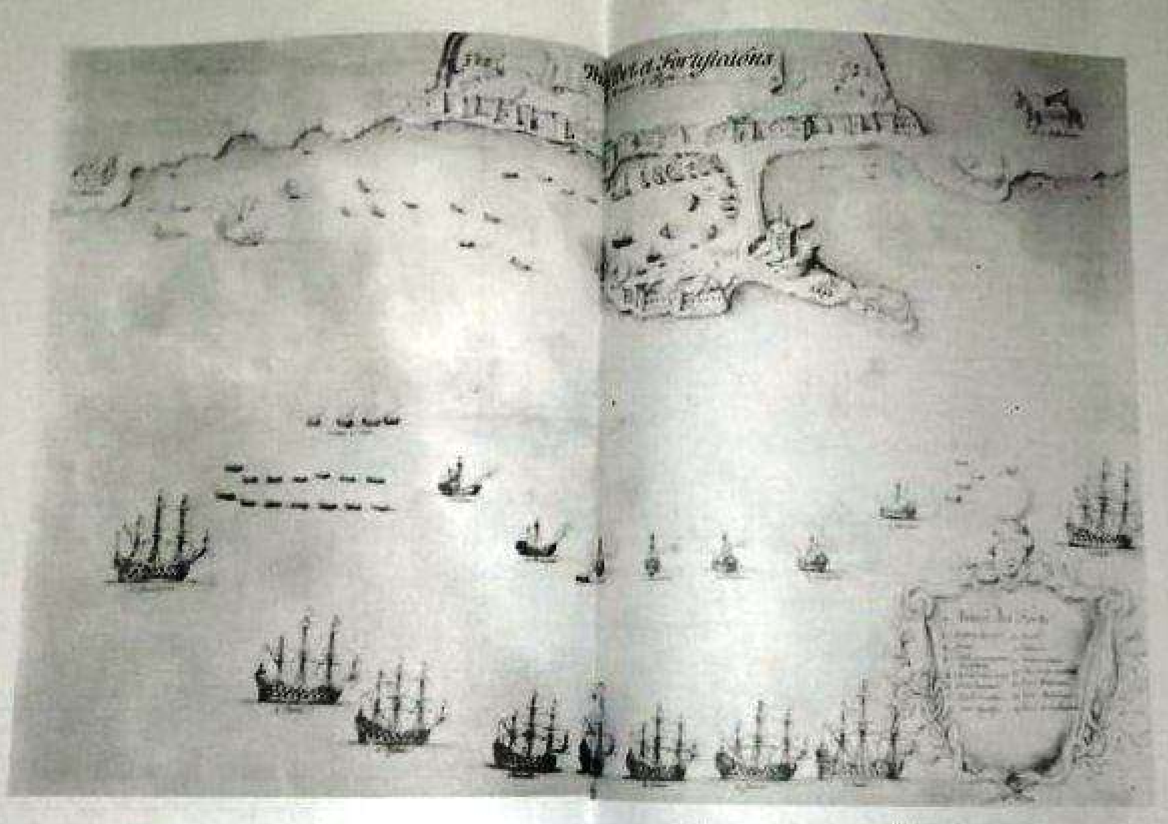


فرسان من البربر او العرب في هيئة استعداد للمعركة .

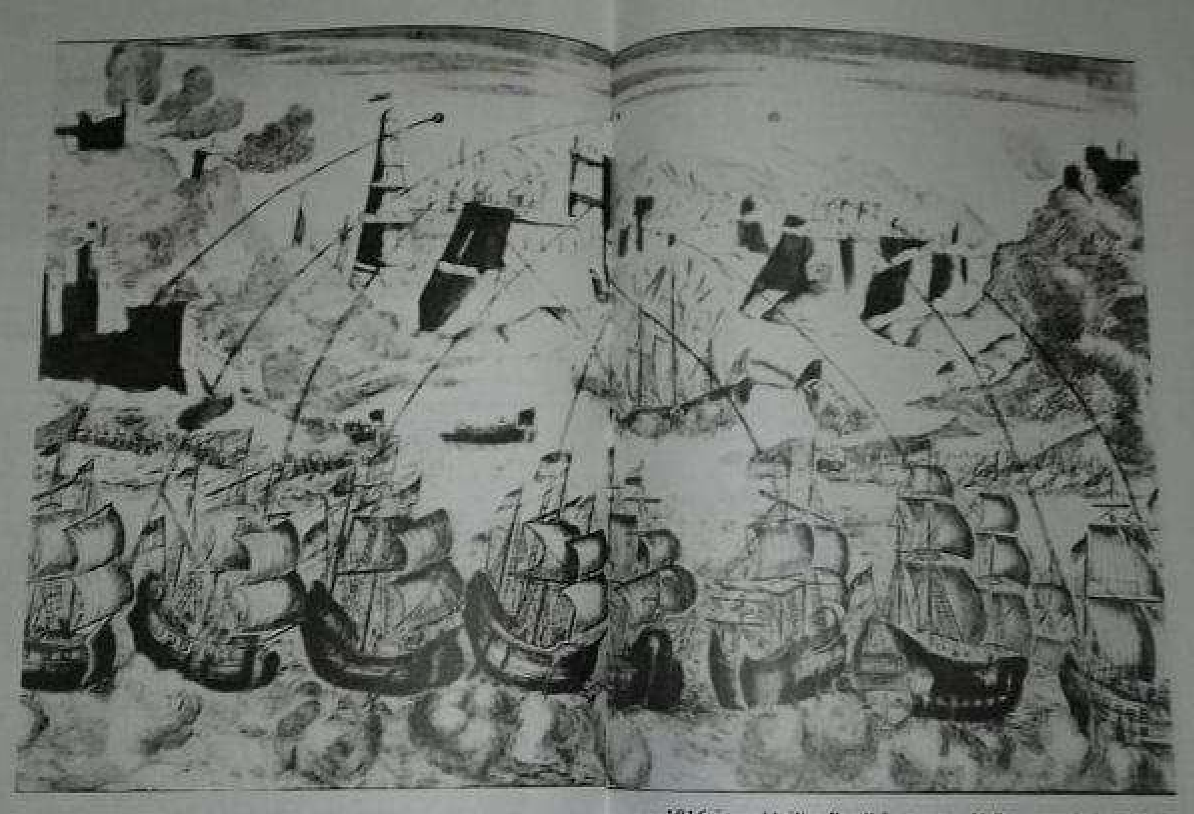
(مجموعة فيوليت ـ باريس)



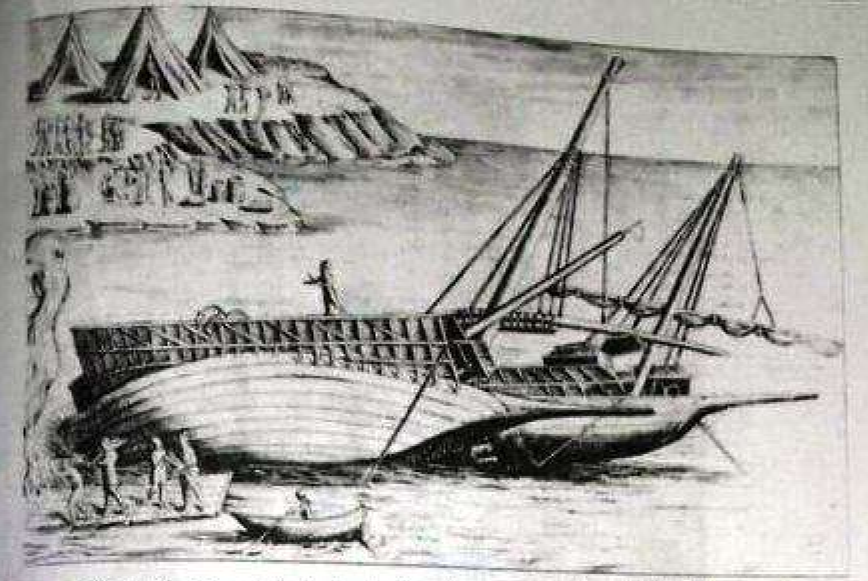
صورة تمثل ضرب دوكين (الفرنسي) مدينة الجزائر بالقنابل .



صورة أخرى تمثل ضرب دوكين (الفرنسي) مدينة الجزائر بالقنابل .
(المكتبة الوطنية ـ باريس)



قصف اللورد اكسموث (الانكليزي) مدينة الجزائر بالقنابل سنة 1816 .
(المكتبة الوطنية – باريس)



ا ـ سفينة اربقية وحولها رجال يغلون الزفت ليطلوا به هيكل السفينة .

(مكتبة بيل ـ صور جامعة منيسوتا)

in Barbarye

POUR ALGER

en Barbarie

ب ـ منظر من باب عزون بمدينة الجزائر . ويرى رجل محكوم عليه لجريمة ارتكبها معلقا من سنارة في الحائط وكان الاعتقاد السائد هو ان باب عزون يصبح (جوعان) اذا لم يكن هناك شخص محكوم عليه .

(مكتبة بيل ـ صور جامعة منيسوتا)



ا ـ الساحة الداخلية لأحد البانيوات (السجون) المخصصة للأرقاء . عن رسم معمول في اوائل القرن 18 او اوائل 19 .

(مجموعة ڤوليت ـ باريس)

ب ـ الملابس الجزائرية في نهاية القرن 17 . الرجل ذو اللحية مسؤول تركي ترافقه زوجته . والزوجان الشابان يمثلان البلدية او الحضر . وتمثل الصورة البعيدة أحد الفلاحين ومعه زوجته .

(مكتبة بيل ـ جامعة منيسوتا)

ا ـ تمثل الصورة احد البلدية (الحضر) الجزائريين في حالة سفر مع زوجته واحد ارقائه .

(مكتبة بيل ـ صور جامعة منيسوتا)

ب ـ منظر داخلي لمنزل احد الاثرياء بمدينة الجزائر ، يعود الى القرن 18 .

(مكتبة بيل ـ صور جامعة منيسوتا)

الفصل السادس عشر

نهاية الأيالة

كاد الصبر الفرنسي ينفذ فى عدة مرات خلال القرن الثامن عشر نتيجة التدخل الجزائري ضد التجارة الفرنسية . وكانت حكومة الملك (الفرنسي) قد فكرت جديا فى الدخول فى حرب ضد الجزائر لوقف ذلك التدخل . ومن هذه المرات ما حدث سنة 1731 : فقد استولى الجزائريون على سفينة ترفع العلم الفرنسي واعتبروها غنيمة بحجة أن ربانها وطاقمها كانوا جميعا جنويين . وبعد فترة قصيرة أسر رايس آخر أربعة عشر شخصا من صيادي السمك الفرنسيين وباعوهم فى سوق الجزائر . ولم تجد احتجاجات القنصل الفرنسي ، وقد أمر الملك أمير البحر دوقيتروان Duguaytrouin بأن يتوجه الى الجزائر على رأس قطعة من الأسطول تضم أربع سفن حربية (جملة مدافعها 224 مدفعا) وأن يطلب احترام معاهدة السلام . كان الداي عندئذ هو عبدي باشا ، وكان رجلا طاعنا فى السن وأعور ، وكان يشك فى كل شخص . وكان قد نجا من ثلاث محاولات اغتيال خلال السبع سنين التي حكم فيها . وعندما وافق فى النهاية على مناقشة القضايا ، استبعد جميع الشكاوى الفرنسية جانبا : فالسفينة وطاقمها كانوا جنويين ، وكذلك كان الصيادون ! ولكن كانت له شكوى خاصة به . فقد كان عهد بثلاثمائة وخمسين كيسا من الصوف الى تاجر فرنسى ، يدعى السيد ميشان Meschein ليبيعها فى مرسيليا ، ولكن ميشان أصبح مفلسا ، وصادر البلاط الفرنسي أكياس الصوف ليدفع منها ديون الدائنين . وكانت الصوف تعود الى الداي ، الذي كان فى قمة غضبه من التصرف الاستبدادي للبلاط الفرنسي . وقد شك أمير البحر الفرنسي بأن الداي قد يكون على حق بخصوص الصوف

وانه كان ايضا قد امر بأسر الفرنسيين لكي يعلن عن شكواه بطريقة أوضح . والحقيقة انه اذا لم يحصل على تعويض فان أسرى آخرين لا محالة سيقعون في الأسر . ولذلك اقترح أمير البحر فتح المفاوضات .

وقد اقروا في فرنسا بانه قد يكون هناك بعض المبررات لشكوى الداي ، ولكن عندما أصبح القنصل الفرنسي متورطا أيضا ، من خلال خطأ وقع فيه فيما يبدو ، مع عبدي باشا ، قررت الحكومة الفرنسية فتح تحقيق واسع . فعينت (الحكومة) لومير Le Maire ، الذي أعطته تجربته في المشرق تفهما كبيرا لطرق الحياة والخصائص الاسلامية ، عينته قنصلا في الجزائر مع التعليمات بأن يبعث اليها بطرق العمل الممكنة والمحتملة . وتعتبر رسائل لومير المكتوبة خلال النيف والعشرين سنة التالية من أهم الوثائق قيمة لأنها تعطينا نظرات فاحصة عن حكومة ومشاكل الجزائر خلال هذا العهد . وعلى عكس آرائه التي عبر عنها فيما بعد ، نجد لومير في أوائل الثلاثينات من القرن كان مستعدا جدا لتبني نزاع مسلح باعتباره أفضل السبل لاجبار الجزائر على احترام التزاماتها . (1) ولكن قبل أن تقرر الحكومة في فرساي نوع الحركة التي تتبناها ، حولت الحرب المسماة بحرب الخلافة البولندية (1733 — 1735) الانتباه الفرنسي . ان الذي خسر العرش البولندي هو صهر (أب زوجة) لويس الرابع عشر ، ولكنه حصل على عرش اللورين فيما بعد ، وهو الحل الذي أعطى هذا الاقليم ، مستقبلا ، الى فرنسا . وعندما انفرجت الأحداث الأروبية ، أصبحت تونس وطرابلس ، وليس الجزائر ، هما هدفي العمل العسكري الفرنسي . ثم أن « اغتصاب » فريدريك الثاني لسليسيا سنة 1740 وما حدث بعد ذلك مما يسمى بحرب الخلافة النمساوية — كل ذلك جعل فرنسا وأروبا مشتبكة في مشاكل القارة الى سنة 1748 .

---

1 — اقترح لومير في هذا العهد ان ثمن الابقاء على ثمانية الى عشر فرقاطات ذات الستة والخمسين الى السبعين مدفعا لن يكون اكثر بكثير من الثمن العادي في الابقاء على الاسطول البحري ، وفي نفس الوقت ، فانه سيجعل البحارة يتدربون وسيجلب الاحترام لأعمال الملك ، ومن الواضح انه (أي لومير) كان ممتعضا من القوة البحرية الجزائرية ، وقد اخطأ في تقدير ثمن الابقاء على اسطول في مياه الشمال الافريقي . انظر : AAE, Alg. XIII, Fols. 109 and passim.

فلا غرابة اذن أن تكون الحكومة الفرنسية قد فتحت المناقشة من جديد ، بعد سنة 1748 ، حول فرص الحرب ضد الجزائر . لقد ظهرت قائمة طويلة بالشكاوى من سلوك الرياس الجزائريين بالاضافة الى سيل من الكتيبات والرسائل التي تعبر عن الرأي العام الفرنسي المتنور « المتحضر » حول الحاجة الى النظام في العالم ، وجميعها طالبت بالحاح بعض التحرك العقابي ضد دول شمال افريقية « غير المهذبة القائمة بالقرصنة » ، والتي تعتبر الجزائر حتى الآن أكثرها أهمية . وقد أشار عدد من كتاب الكتيبات بأن أوروبا « المتحضرة » يمكنها بسهولة ، لو شاءت ، أو تخلص العالم من غارات النهب المنطلقة من ساحل شمال افريقيــة . (*)

ولكن عندما درس الأمر في فرساي تبين أنه لم يكن على تلك الدرجة من البساطة . ذلك أن كل من كتب مذكرة يكاد يبدأ مناقشته بالقصف الذي قام به لويس الرابع عشر في الثمانينات من القرن السابع عشر . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجزائر أفضل تحصينا ، كما أن البحرية الفرنسية لم تعد تملك السفن الخاصة بحمل القذائف (القنابل Bomb-ketches التي وجهت القذائف في ذلك العهد . ومن جهة أخرى فان القوات البحرية الجزائرية كانت أضعف ، سنة 1750 ، مما كانت عليه من قبل ، ذلك أن الأسطول الجزائري كان يتكون كله تقريبا من السفن نوع الشبيكات التي تحمل أقل من ثلاثين مدفعا . (**) ان هذه السفن كانت أسرع وأسهل في القيادة من السفن الحربية الفرنسية ، ولكن ليس لها حظ في النجاح الا اذا استطاعت اثنتان أو ثلاثة منها محاصرة الفرقاطة الفرنسية ، وأي سفينة حربية يمكنها أن توقع الهزيمة بقطعة كاملة من

(*) ـ طرحت هذه الأفكار ، ومن بينها فكرة شيلر الامريكي ، في أوائل عهد التفكير الاستعماري الاروبي ، ويبدو ان المؤلف منساق وراء نفس التيار ، لانه لم يناقش او يرفض ذلك المنطق . (المترجم .)

(**) ـ نود ان نحيل على مقالتنا (عن النشاط العسكري والتجاري للجزائر في القرن 18) المنشورة في المجلة التاريخية المغربية عدد 33-34 ابريل ـ جوان 1984) فقد جاء فيها أن بعض سفن الأسطول الجزائري كانت ذات 52 مدفعا ، و 40 مدفعا الخ . (المترجم) .

ومع ذلك فان هذه الشيكات كانت خطيرة على الأسطول الجزائري • ولا يمكن استبعاد خطرها الا بوجود حراسة التجارة الفرنسية ، أو بنصب حصار مضيق على الموانيء الجزائرية • ولكن هذا ملازمة سيكون غالي الثمن كما انه غير مضمون الأمان ضمانا مطلقا للتجارة الفرنسية • وكثيرا ما لوحظ أن هناك فرقا كبيرا بين سنة 1682 وسنة 1750 وهو يتمثل فى أن اسبانيا فى التاريخ الأخير كانت حليفة لفرنسا ومن ثمة فان الموانيء الاسبانية ستقدم للقوات الفرنسية الماء والطعام والخشب والمعدات البحرية • ومع ذلك فقد كانت هناك معارضة قوية لأي تحرك فرنسي – اسباني مشترك • فالأسبان سيطلبون تخريب الجزائر ، وهذا سيؤثر على السلطان العثماني ويعرض التعاون الفرنسي – العثماني الى الخطر • ان فرنسا لا تشترط القضاء نهائيا على جماعة البحارة (فى الجزائر)، ولكن تطلب فقط الجزائر احترامهم للمعاهدات • وحتى ولو كان الاسبان أقل خشونة نحو الجزائر ، ألا يطلبون ، كثمن أدنى ، معاهدة سلام بين الجزائر وأسبانيا ؟ ولكن هذا بالطبع كان ، لسوء الحظ ، ضد المصالح الفرنسية ، لأنه سيؤدي فى الحال الى التنافس الأسباني فى ميدان التجارة ويطلق يد الحركة التجارية الاسبانية بحيث يزول عنها التهديد بالاحتجاز • وكان لومير ، الذي سبق أن اقترح القيام بتحرك عسكري ، قد اقترح الآن ارسال سفير الى الجزائر للتغلب على كل المشاكل • انه كان يكتب من فرساي ، ومن الواضح أنه كان يرى نفسه هو هذا السفير المقترح •

وبينما كان لومير وغيره يدرسون التحرك الفرنسي ، حدث فى الجزائر ما يعرف « بالتمرد الألباني » واغتيال الداي ووزير ماليته (الخزناجي) • وكان معروفا عن الداي الجديد انه متميز بمزاج حاد ، لقد كان رجلا يجب أن يتولى هو دور منفذ حكم الاعدام بعد أن يكون قد أصدر هو نفسه حكم الموت • ومع ذلك فان لومير زعم أنه ربما تمكن من الوصول الى اتفاق معه • وكانت المذكرة التي كتبها بهذا الشأن مؤرخة فى سنة 1754 • وكان ظهور الأزمة التي أنتجت الثورة الدبلوماسية ، وحرب السنوات السبع قد أعطتاه الفرصة لمحاولة ذلك • لقد رجع الى الجزائر • وبعد اقامة قصيرة فى السجن الجزائري ، نتيجة نزاع مع الداي ، وجدت

المشاكل الفرنسية ـ الجزائرية حلها عن طريق « الهدايا » (*) واستعداد لاعتبار ما فات مات ، وذلك سنة 1757 •

ان ضعف البحرية الفرنسية من جراء حرب السنوات السبع نتج عنه كثير من الانتهاكات للمعاهدة الفرنسية ـ الجزائرية للسلام والصداقة • وعندما انتهت هذه الحرب سنة 1763 ، أمر المجلس الملكي أمير البحر سوفران Suffren باعداد خطة لمعاقبة الجزائر • ويبدو أن سوفران قد قام بعمله بجدية ، حتى أنه درس تجارب القرن السابع عشر البحرية • وقد برهن ، أمير البحر الهولاندي ، ميشيل دي رويتر Ruyter ، على أنه كان واحدا من أفضل مصادره • وكتب سوفران قائلا عن رويتر : « انني أقر بكل سرور بأن المرء لا يخاف من الوقوع فى الزلل باتباعه نصيحة رجل عظيم عظمة (رويتر) فى لحرب والبحر • » (1) كانت مقترحات أمير البحر تتحدث بانتظام عن مشاكل السيطرة على البحر الأبيض بطريقة تجعل الجزائريين يطلبون السلام • فهو سيحرس حركة النقل البحري المتوجهة الى المشرق وقادس وسيجعل سفن الشبيكات و / أو الفرقاطات فى محطات معينة لحراسة الساحل الجنوبي الفرنسي ، وسيجوب المنطقة الواقعة بين مالطة والأزورس • وسيضع قطعة من الأسطول مكونة من ست سفن حربية عند ساحل الشمال الافريقي لمراقبة السفن الجزائرية التي قد تحاول الخروج من المرسى • وقد أكد للحكومة أنه اذا توفرت ثلاث قوافل للحراسة كل منها للمشرق وقادس « فانه سيكون من غير الممكن للجزائريين أن يرتكبوا أي ضرر » للتجارة الفرنسية • وأظهر اهتمامه للطاقة الحربية الجزائرية فى البحر ، وذلك باشارته الى أن السفن الحربية لا تحتاج الا الى جنود قلائل بينما السفن من نوع الشبيكات والفرقاطات ستحتاج الى عدد كبير من البحارة لمعادلة

(*) ـ ركز المؤلف كثيرا على قضية الرشوة (الهدايا) كظاهرة اخلاقية اقتصادية في العلاقات الجزائرية الاوروبية ، ولعله لا يعرف ان اللعنة في تقاليدنا الاسلامية قد انصبت على الراشي والمرتشي معا : « لعن الله الراشي والمرتشي » ، ومعنى ذلك انه اذا كان الجزائريون مذنبين لانهم قبلوا الرشوة فان الاوروبيين ايضا ملعونون لانهم قدموا الرشوة ، ولأمر ما بدات اللعنة بالراشي قبل المرتشي . (المترجم) •

(1) B.N. mss. franc. N.A. 9431, fols. 225 f.

الجزائريين . وقد قام شوازول Choiseul وزير الخارجية العظيم للويس الخامس عشر بتهنئة أمير البحر على شمولية مقترحاته .

ولم يكد يجف حبر المذكرة التي تقدم بها سوفران حتى حدث حادث فى البحر أدى الى أزمة . فقد أغرقت فرقاطة فرنسية شبيكة جزائرية بدعوى أنها ظنتها سفينة لأحد قراصنة سلا ، وكانت النتيجة فقدان كل الطاقم فى البحر . وعندما وصلت الأخبار الى الجزائر استشاط الداي غضبا ، ورمى بالقنصل الفرنسي ومستشاروه فى السجن مقيدين بالحديد ، وصادر جميع السفن الفرنسية فى المرسى ، وضرب تاجرا فرنسيا بحجة أنه تشاجر مع بحار جزائري ، وأمر باحتلال موقع التنازل للشركة الفرنسية الافريقية (وهو المسمى حصن فرنسا قديما) والقاء القبض على سكانه .

تلقى أمير البحر سوفران الأوامر بالتوجه الى الجزائر على رأس سفينتين بحريتين وفرقاطة ليرى ما يمكن عمله . كانت الأوامر المعطاة اليه : يجب عليه « ألا يغضب الداي الذي يتحكم فى حياة القنصل الفرنسي . » وأرسى سوفران بعيدا عن اصابة الهدف من مدافع الميناء ، وأعطى الاشارة بأن لديه مجموعة من الرسائل للداي ، ولا شك أن الجزائريين قد فهموا أن أوامر أمير البحر كانت على نحو يجعل السلام أو الحرب مترتبة على المفاوضات . وقد ترك لنا السيد دي فابري de Fabry ، الذي قام بالمفاوضات الدبلوماسية على لسان أمير البحر ، تفاصيل هائلة عن القضية كلها .

وكالعادة ، كانت المراسيم والسمعة قد شكلت العقدة الأولى للمفاوضات . فالداي قد أهان مملكة فرنسا بوضع القنصل ومستشاره فى السجن ، وكونه قد أطلق سراحهما فيما بعد ليس الا قضية ثانوية . وقد أمر أمير البحر القنصل فالبير Vallière بأن لا يكون له مع الداي أية اتصالات (الرسمية) ، ويمكن لتاجر فرنسي فى الجزائر أن يعمل كواسطة . وعندما استطاع سوفران أن يقنع الجزائريين بأن يسمحوا لفالبير بزيارته على سفينة العلم ، توسل المسكين (القنصل) حقيقة ، بأن لا يعود الى المدينة . فقد أعجبه الأمن على ظهر السفينة الحربية . ولكن سوفران قرر أنه جاء

الى الجزائر ليتفاوض لا لكي يخطف القنصل . وأخيرا أصبح الأمر يتعلق بشرف وأمن السيد دي فابري الذي كان متوقعا أن ينزل الأرض ويتفاوض على الشروط . فكم من طلقة مدفع تطلق لتحيته ؟ وهل سيكون آمنا من الاهانة ؟ وهل سيرجع الداي فورا الموقع الى الشركة الفرنسية الافريقية ويطلق سراح مسؤوليه ورجاله ؟ لقد كانت المفاوضات حول هذه الأمور بطيئة . وحدثت عاصفة شتوية في الأسبوع الأخير من يناير 1784 فأجبرت السفن الحربية الفرنسية على الرحيل ، ولكن عندما رجع الفرنسيون في العاشر من الشهر ، (*) كانت قضية التحيات (المراسيم) قد حلت . وغادر القنصل فالبير سفينة العلم بثلاث طلقات مدفعية وبست مرات : « يحيا الملك ! » ولما وصل الى الرصيف البحري (المول) تلقى خمس طلقات مدفعية من بطاريات الرصيف تحية له . وعندئذ أرسل الداي ذبائح من البقر والغنم والدجاج ، بالاضافة الى الخضروات الطازجة الى الأسطول (الفرنسي) كهدية . وبعد ذلك بقليل نزل السيد دي فابري ، الذي تلقى التحية المناسبة كمبعوث للملك ، وجاء الى الرصيف البحري (المول) ومعه هدية الى الداي تتمثل في رقيق مسلم كان قد أنقذه في ميورقه .

دامت المفاوضات حوالي أسبوع . وكل جانب استعرض ما عنده من مظالم وشكاوي ، وكل طرف اتهم الآخر بخرق المعاهدة . وفي النهاية صيغت ، في السادس عشر من يناير ، معاهدة السلام الفرنسية — الجزائرية . لقد كانت تحتوي تقريبا على نفس الشروط التي كان لومير يأمل في الحصول عليها سنة 1752 . وكانت الاضافات الهامة لا تخرج عن ضرورة قيام كل طرف وضع توقيعه بأن يعاقب بنفسه أي بحار أو غيره من الأشخاص الذين هم رعايا حكومة الطرف الموقع ، على أي انتهاك للمعاهدة ، واشتملت أيضا على بند ينص على منع قراصنة سلا من البيع على السفن الجزائرية ، للبضائع أو للطواقم التي يستولون عليها ، بالاضافة الى ضرورة مغادرة سفن سلا للجزائر خلال أربع وعشرين ساعة بعد وصولها . ولم يكن الجزائريون على الخصوص سعداء بالنسبة للبند

(*) — لم يوضح المؤلف اي شهر يقصد . (المترجم) .

الاساءات قد فات ويجب نسيانه . وفي السنوات الموالية كانت هناك صرخات في الجزائر تطالب بانهاء المعاهدة سنة 1789 عندما يحين أجلها . لقد كانوا يقولون ان مائة سنة كانت مدة طويلة وأن ظروف كثيرة قد تغيرت .

وباقتراب سنة 1789 كانت هناك أسباب أخرى لاعادة النظر . فالمعاهدة مع اسبانيا ، كما رأينا ، قد وقعت ولكن شروطها لم تطبق لأن الاسبان كانوا ما يزالون في وهران . ولكن عندما يحين موعد تطبيق المعاهدة ، سيجد البحارة الجزائريون صعوبة في الحصول على الغنائم التي يستولون عليها شرعيا الا اذا انتهت المعاهدة الفرنسية . ومن جهتهم كان الفرنسيون يحتجون بأن المعاهدة قد جددت سنة 1718 ، ومن ثمة فانها لا تنتهي الا سنة 1818 . ثم هناك أزمة أخرى : فقد أغرقت سفينة حربية فرنسية شبيكة جزائرية . وأصرت الحكومة الفرنسية بسرعة على أن الأمر كان خطأ ، وحصلت على تأييد سلطان تركيا ، (*) ، وقدمت الى الداي هدية ثمينة . وكان البحارة في هذه الأثناء يستعدون للتوجه الى المشرق لمشاركة الأسطول العثماني في البحر الأسود في الحرب ضد روسيا ، وانتهى النزاع بهدوء وذلك بأن زادت الشركة الفرنسية الافريقية من مدفوعاتها السنوية على امتيازاتها في الساحل الجزائري . وأن الأزمة التي حدثت في فرنسا عندما دعي البرلمان Esteter General لحل المشاكل الداخلية ، جعلت المشاكل المنجرة عن الجزائر تعتبر ثانوية وغير ذات بال نسبيا ، لقد كان لدى الثوريين أحداث أخرى غير أحداث شمال افريقية تشغل بالهم .

وبحلول سنة 1793 ، وبعد تنفيذ الاعدام في لويس السادس عشر ، عندما أعلنت حكومة فرنسا الثورية الحرب على أنكلترا ، بالاضافة الى اعلانها الحرب على معظم القارة الأروبية — عادت السياسة العليا الى النظر في الصدام مع الجزائر ، لأن كلا من الفرنسيين والانكليز حاولوا توريط الداي في الحرب . وكان الداي الجديد ، وهو حسن ، من قرابة

(*) — هكذا ذكره المؤلف : سلطان تركيا ، والتعبير التاريخي السلطان العثماني أو سلطان الدولة العثمانية . (المترجم) .

الداي الأخير ، (*) عاجزا كخزناجي وبقي عاجزا كذلك كداي . فقد كان قد أصبح معتمدا اعتمادا كليا على اثنين من تجار اليهود هما نفتال بوشناق ويوسف بكري ، اللذين أصبحا يسيطران على حكومة الايالة . وقد نصح اليهوديان في البداية ، مثل ما يعمل رجال الأعمال الأذكياء ، بأن يسلك الداي مسلكا محايدا بين فرنسا وانكلترا ، ولكن بعد سنة 1794 عندما أشارت الأخبار من أوربا بأن الفرنسيين ربما يكونون هم الفائزين ، أخذ اليهوديان يميلان نحو فرنسا . ولا شك أن ذلك يعد انتصارا كبيرا للسياسة الفرنسية ، ولكن القنصل الفرنسي بالجزائر وجد نفسه شخصيا ، وكذلك عائليا ، متورطا في مشاكل مع (لجنة الانقاذ العام) . فقد فر أحد أقاربه الى اسبانيا ، وكان عليه هو أن يغادر سريعا وظيفته . وكانت الحوادث في أوربا قد غطت بسرعة على جميع المشاكل الأخرى ، بينما كان الفرنسيون يتحولون من النظام المعبر عنه بالتجمع (Convention) الى نظام حكم الادارة ، بعد اعدام روبسبيير وأصدقائه ، وأجبر ضباط الحكومة الجديدة ، بما فيهم نابليون بونابرت ، بروسيا والنمسا على الخروج من الحرب .

ثم تلا ذلك نزول نابليون في مصر . فأرسل السلطان بسرعة الى الجزائريين يحثهم على الانضمام اليه في الحرب ضد فرنسا . ولكن الداي ومستشاريه قرأوا دروس السنوات القليلة الماضية بطريقة مختلفة : فهم لا ينوون اثارة نابليون ولا حكومة الادارة (الفرنسية) . غير أن الجزائر وجدت نفسها سنة 1802 متورطة من جديد في شبكة السياسة النابليونية . فقد كانت الدول الايطالية الصغيرة هي التي توفر تقليديا الغنائم للرياس ، ولكن بعد حملة نابليون سنتي 1800 — 1801 أصبحت هذه الدول داخلة في فلك السلطة النابليونية النامية . وقد أرسل الى الجزائر مبعوثا عنه ليعلن بأعلى صوته : اذا لم تشتغل الايالة بأمور نفسها وتخضع للادارة الفرنسية وتتوقف عن مضايقة رعايا القنصل الأول (نابليون) ، فانه سيفعل بالجزائر ما فعله بدولة مماليك مصر . ولم يكن الانطباع

(*) — يشير بعبارة الداي الأخير الى محمد باشا الذي طال بقاؤه في الحكم . انظر عنه أحمد توفيق المدني (محمد عثمان باشا) . (المترجم) .

بالهيئة الفرنسية في أوربا قد ضعف عندما ظهر أمير البحر الانكليزي نيلسون Nelson ، أمام الجزائر لقد جاء لدعم قنصل كان قد أساء التقدير عندما دعا النساء المسلمات الى بيته ، ولكن الأوامر التي كانت لدى نيلسون لا تعطيه صلاحية استعمال القوة • فغادر الجزائر ، تاركا الانطباع أن فرنسا كانت هي الأقوى حقيقة ، وأن انكلترا كانت تقريبا غير هامة •

وكان فقدان الغنائم وفقدان الاتاوات النقدية وصعوبة جمع الضرائب ، كلها قد عرضت حكومة الداي للخطر • وكان تطاول مستشاري الداي على اليهود لم يساعده كثيرا • فكان أن اغتيل بوشناق سنة 1805 وهو يغادر القصر • وسارع الداي حسن (*) بالاعتراف بأن العمل الذي قام به القاتل كان في صالح الدولة ، ولكي ينقذ نفسه سمح للانكشارية بنهب الحي اليهودي • ولكن ذلك لم ينقذه • فقد اغتيل هو أيضا بعد ذلك بأسابيع قلائل •

ان هذه الاغتيالات كانت بداية عهد جديد من الفوضى • فقد تولى المنصب داي جديد وهو أحمد ، ولكن المظاهرات استمرت ، وكان منافس الداي أحمد من أجل السلطة ، وهو الآغا ، قد حرض على القيام بأعمال القتل والنهب بدون تمييز • وفي نهاية شهر تمكن أحمد من القبض على منافسه وقطع رأسه ، واسترجع شيئا من النظام الى الجماعة ، ولكن مشاكله لم تنتهي • فقد كان يفتقر الى النقود لدفع أجور جنوده ، وهو وضع مليء بالأخطار له ولمدينة الجزائر • وكانت الحرب في أوربا تزداد اشتعالا : موقعة أوسترليتز ، وجينا ، وفريدلاند ، وتقسيم العالم بين نابليون والقيصر الاسكندر • وقد حاول الداي أحمد أن يفرض أتاوات أكثر على الدول الأوروبية التي تستعمل البحر الأبيض ، ولكنها قد أصبحت جزءا من الدولة (الامبراطورية) الفرنسية ، وكان نابليون مصرا على أن مناطق حكمه لا تحتاج الى حماية من الجزائر • وفي تلست

(*) — الداي المعني بالأمر هنا هو مصطفى باشا وليس الداي حسن كما ذكر المؤلف . (المترجم) .

Tilsit اتفق هو والقيصر الاسكندر على أن نابليون يمكنه ، عندما يكون مستعدا ، الاستيلاء على الجزائر وأقاليمها (بايليكاتها) كمستعمرة أو كتابعة للدولة الفرنسية • ولم يكن نابليون مستعدا لتنفيذ ذلك ، ولكنه لم يكن مستعدا أيضا أن يترك الدول التابعة له تدفع الاتاوة الى الجزائر • وعندما لم تتوفر النقود ، كانت حياة الداي أحمد فى خطر ، وهكذا قتل فى شهر نوفمبر سنة 1808 •

وفور تولي الداي الجديد ، وهو علي الغسال er R'assel واجه مطلبا ملحا وهو أن تفتح الخزينة ويوزع محتواها على الجنود الذين جعلوا منه دايا • وقد رد هو بأن الجنود يجب الا يأخذوا أكثر من أجورهم وأنه لايمكنهم الاعتداء على الخزينة • ثم كان المطلب الجديد ، وهو اعطاء الجنود حق نهب مدينة الجزائر • ولكن هذا المطلب حطم الجبهة الصلبة التي تتألف منها الفرقة الانكشارية • فقد كان الأعضاء المتزوجون والكراغلة مترددين فى رؤية منـازل أقاربهم تقع فريسـة للاعتداء ، مع ما يتلو ذلك لا محالة من الفوضى • فأخذوا يؤلفون فرقا خاصة بهم انضم اليها بعض شبان البلدية (الحضر) الأكثر مغامرة • بينما نظم الانكشاريون العزاب أنفسهم ضد هؤلاء • ولم يجروؤ أي تنظيم على الدخول فى حرب ، ولكن الحياة النظامية للمدينة قد توقفت تماما • وفى السابع من فبراير سنة 1809 اغتيل علي الغسال ، وانتخب القتلة المسمى الحاج علي ليكون خليفة له • لقد كان الحاج علي يمقت الخمور وكان رجلا مرعبا ، وقد تمكن من استعادة بعض النظام للحياة فى الجزائر ، غير أنه سرعان ما كان على سوء تفاهم مع الجالية الأروبية ، وخصوصا مع القنصل الفرنسي الذي ترك وظيفته ورجع الى فرنسا •

وقد رأينا أن نابليون ، باتفاقه السري مع الاسكندر ، كان له الترخيص باحتلال الجزائر • وفى سنة 1808 أرسل (نابليون) المهندس الروسي بوتان Butin الى الجزائر لدراسة الأرضية ووضع تصميم لمشروع الاحتلال • ولكن المشاكل التي ظهرت فى أسبانيا أجبرته على التأخير • وبعد سنة 1809 أصبحت اسبانيا مشكلا عويصا بالنسبة للامبراطـور (نابليون) ، ولم تحن سنة 1811 حتى أصبحت روسيا على وشك أن

تكون شكلا عويصا له كذلك . وهكذا وضعت خطة غزو الجزائر في رفوف الأرشيف ، ولكنها استعيدت وأزيل عنها الغبار وطبقت سنة 1830 .

ان الأحداث المضطربة التي أعقبت قرار نابليون بغزو روسيا قد غطت على كل من غارات القرصنة التي كان يقوم بها البحارة الجزائريون ، وعلى الحرب الصغيرة التي كانت تجري بين الولايات المتحدة الأمريكية وانكلترا . وعندما لم ترسل الولايات المتحدة سنة 1813 الاتاوة ، أعلن الداي والديوان الحرب عليها ، ولكن لم تكن توجد سفن رافعة لعلم الولايات المتحدة فى البحر الأبيض ، لأن قوافل الحراسة الانكليزية جعلت حركة نقل السفن الانكليزية فى ذلك البحر آمنة ، وكان الجزائريون مترددين فى الاستيلاء على سفن تعود الى الدولة (الامبراطورية) الفرنسية . حاول الحاج علي أن يحصل على النقود باعادة فتح النزاع المزمن مع تونس ، ولكن حتى هذه المحاولة فشلت فى اعطاء النتائج المرجوة . فكان أن اغتيل الحاج علي يوم 22 مارس سنة 1815 ؛ فأصبح خزناجية ، محمد ، هو الداي الجديد ، ولكنه اغتيل أيضا فى الأسبوع الأول من أبريل من نفس السنة (1815) . وقد تولى عمر آغا منصب الداي فى الوقت الذي علم فيه أن معاهدة غانت Ghent قد أنهت النزاع بين أنكلترا والولايات المتحدة . وفى 17 من يونيو (جوان) سنة 1815 خاض ستيفان ديكاتور معركة بحرية مع أمير بحر الأسطول الجزائري . وقد لاحظنا أن القائد الجزائري كان قد قتل ، (*) واحتجزت سفنه ، وأجبر الداي على عقد السلام مع الولايات المتحدة ، وهو السلام الذي ضمن المرور الآمن للسفن الأمريكية . وبعد أسابيع قليلة وصل اللورد اكسموث الى الجزائر وفرض معاهدة أخرى تشترط حرية المرور للسفن الانكليزية والسردينية والصقلية والأيونية . وكان تجريد الجزائر من نقود هذه البلدان قد جعل من الصعب شيئا فشيئا المحافظة على القوات العسكرية الجزائرية التي كانت فى تضاؤل مستمر .

(*) – انظر الفصل الخامس عشر ، فقرة الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية . (المترجم) .

بل هناك ما هو أكثر من ذلك ما يزال قادما • ففي أوائل سنة 1816 ظهر الأسطول الانكليزي من جديد أمام الجزائر • وقد شرح اللورد اكسموث للداي بأن مؤتمر فيينا قد قرر الغاء الرق والقرصنة • وطلب بأن يقبل الجزائريون هذا القرار وأن يحرروا أرقاءهم المسيحيين • وقد كان الداي والديوان كلاهما مستغربين وغاضبين من هذا الموقف : كيف يمكن للدول الأروبية أن تعطي لنفسها حق التدخل في نظام قائم منذ أمد طويل على عادات وقوانين بلادهم ، وهو النظام الذي أقره القرآن نفسه ؟ وعندما سمع السكان بذلك لم يصدقوه أيضا • وكان المبعوثون الانكليز موضع سخرية بل هوجموا بدنيا في الشوارع • وقد أنذر القنصل الفرنسي بأن ذلك سيترتب عليه الانتقام ، ولكن الداي رفض الاصغاء •

وقد جاء الانتقام سريعا ، اذ وصلت أمام الجزائر قوة بحرية انكليزية ــ هولاندية تتألف من ست وثلاثين سفينة حربية • وأرسل اللورد اكسموث مركبا الى الرصيف يحمل علم الهدنة وانذارا أخيرا • وبينما كان الجزائريون يدرسون الانذار ، تحرك الأسطول الانكليزي ــ الهولاندي بسرعة واتخذ وضعا يسمح له بأن يطلق النار ويصيب الهدف عبر الرصيف البحري (المول) والميناء • وكان المبعوثون عائدين الى السفينة الرئيسية بجواب سلبي على الانذار ، عندما اكتشف الجزائريون فجأة أن الأسطول قد اتخذ وضعا يسمح له بصب النار على سفنهم وعلى تحصيناتهم • وحدث أن أحدا أمر المدافع الموضوعة على الرصيف البحري باطلاق النار • فأطلقت ثلاث طلقات • فأجيبت بوابل قاتل من النيران من السفن بينما اشتعل الأسطول كله من بعيد ، فقتل المدفعيون الجزائريون ، وحطمت مدافعهم ، وأغرقت أو أحرقت السفن الموجودة في المرسى • لقد كانت ضربة قاضية للبحرية الجزائرية ، كما كانت خسارة فادحة في الأرواح • ان الاحتياطيين من الجزائريين والأتراك حاربوا بشجاعة ولكن الضربة كانت غير متوقعة ــ بل ان الجزائريين كانوا دائما يعتقدون أنها كانت ضربة خيانة • حقيقة ، أن الضربة لم تكن ممكنة الا لأن الجزائريين قبلوا علم الهدنة كدليل على حسن النية الانكليزية ــ الهولاندية • لقد كان القناصل الأروبيون باستمرار يلومون الجزائريين على غدرهم ــ فلعله يمكن اطلاق نفس الوصف على الأروبيين أيضا •

وعندما سكتت المدافع سارع الداي عمر بعقد السلام بالشروط الانكليزية – الهولاندية • وهو لم يكن يدري أن السفن المتحالفة قد استنفدت عمليا جميع ما عندها من بارود وقذائف ، اذ كان لا يمكنها أن تقوم بهجوم آخر • وقد أملى اللورد اكسموث شروط السلام املاء : الغاء نظام الرق ، تحرير الأرقاء المسيحيين الموجودين (جميعهم حوالي الف ومائتين) ، ودفع تعويض حربي من خمسمائة ألف فرنك • لقد كان ما يزال بامكان الجزائريين أن يعلنوا الحرب على الدول الصغيرة ، وكان ما يزال بامكانهم أن يحتفظوا بأي أسرى كسجناء ولكن ليس كأرقاء • ورغم أن البحرية الجزائرية قد عانت من خسائر فادحة ، فانه خلال سنة واحدة وقعت كل من السويد وتوسكانيا والدنمارك معاهدات وافقت فيها على دفع الاتاوة مقابل ضمان الأمن لسفنها •

ولم يكد الأسطول الانكليز – الهولاندي يبتعد عن الأنظار حتى ثار الانكشارية ونهبوا الحي اليهودي فى المدينة • وقد استطاع الداي عمر أن يهدئهم بعض الوقت ، ولكنه كان قد اغتيل خلال نفس الشهر • وقد خلفه علي خوجة الذي بوصوله الى السلطة كان النظام الذي شرعه خير الدين بربروس بادخال الانكشارية الى الجزائر – على وشك الانتهاء •

ان النزاع بين العزاب من الانكشارية ورفاقهم الذين كانوا اما متزوجين واما من الكراغلة الذين هم أطفال الأتراك ، قد تسبب فى صدمة لمعنويات وسمعة الفرقة الانكشارية • ومن جهة أخرى فان كون التجنيد من المشرق كاد عمليا أن ينتهي قد جرده أيضا من عنصر البقاء • وقد قرر علي خوجة أن يحرر نفسه من طغيان هؤلاء الجنود • اذ أنه لم يكن يتولى المنصب حتى انسحب ، ومعه الخزينة العامة ، الى حصن القصبة الذي كان يحرسه ألفان من المرتزقة الزواويين • ثم أعلن أن أي تركي بالاصالة قد يرغب فى العودة الى المشرق سيكون حرا أن يفعل ذلك ، ولكن على أولئك الذين يختارون البقاء فى الجزائر الطاعة التامة • لقد كان علي خوجة رجلا متمسكا بأوامر الدين ونواهيه ، فقد أغلق الحانات ، وطرد جميع النساء من الثكنات العسكرية ، وأعلن عن اجراءات انضباطية قاسية

(draconian) • (*) وسرعان ما ثار عدد كبير من الانكشارية ، ولكن الثورة وضع لها حد بسرعة بواسطة جيش من الكراغلة والزواوين متألف من ستة آلاف رجل • وكانت العقوبة على الثورة غليظة • وقد مات علي خوجة سنة 1818 بالطاعون الذي كان ما يزال متوطنا في الجزائر • وكان خلفه ، الذي كان رجلا ضعيفا وكان يتطلع الى ان يكون آمنا في منصبه ، قد أصدر العفو على المتهمين من الانكشارية والتي بعض المراسيم الخاصة بالتزام النواهي الدينية • ولكن الأمر كان متأخرا عن استعادة فرقة الانكشارية مكانتها القديمة في السلطة • فحينما وصل الفرنسيون سنة 1830 كانت المليشيا الانكشارية ، وهي تقدر بأقل من ألفين وخمسمائة رجل ، عاملا ثانويا في المقاومة ضد الغزو (الفرنسي) •

ان العقد الأخير من الحياة المستقلة للايالة التركية الجزائرية يعرض المشاكل المنتظرة التي كان الفرنسيون سيواجهونها عندما استولوا على البلاد • فقد انتشرت الثورات في البايليكات (الأقاليم) ، اذ رفض العرب والبربر على السواء دفع الضرائب أو الاعتراف بسلطة أسيادهم الأتراك ، بعد أن تأكدوا من ضعف حكومة الداي وتدهور قوته العسكرية • وكان البايات الذين فشلوا في استعادة النظام اما عزلوا واما خنقوا خنقا ، غير أن كلا الاجرائين لم يبرهن على فعاليته بالنسبة لخزينة الداي • فالضرائب التي أمكن جمعها ، والاتاوات التي كانت تدفعها الدول الصغيرة غير القادرة على حماية سفنها الخاصة ، ومدفوعات الامتيازات الأروبية في القالة ووهران ، وأثمان الغنائم القليلة التي بيعت نقدا — كل ذلك لم يكد يثمر نقودا كافية لدفع أجور القوات العسكرية رغم انخفاض عددها • ولذلك فانه لم يكن من المستبعد أن يسقط النظام نتيجة ضعفه الخاص حتى ولو لم يقرر الفرنسيون الغزو والاحتلال •

لقد كانت الفوضى الموروثة عن هذا النظام جعلت حياة القناصل الأروبيين صعبة • ان السلطات الجزائرية حاولت البقاء داخل الحدود

(*) — دراكو Draco حاكم اغريقي ومشرع من القرن السابع قبل الميلاد ، والمراد أن تشريعاته كانت غير انسانية أو قاسية • (المترجم) •

التي حددها صبر الدول الأوروبية ، ففي هذه السنوات الأخيرة و
الاعتداء الفعلي على قنصلي هولاندا والدنمارك ، وأخذ أعضاء
هيئتيهما (وكانوا بربرا وليسوا أوروبيين) بعيدا بتهمة الخيانة . وكانت
الدول الصغيرة لا تملك القوة لمعاقبة مثل هذا السلوك . أما الانكليز
فقد ضربوا الجزائر بالقنابل سنة 1824 عندما طرد قنصلهم من المدينة
بسبب مشاجرة مع الداي . وكان مجموع السفن التي ضربت المدينة
اثنتين وعشرين سفينة حربية ، ولكن القصف كان من مسافة بعيدة بحيث
لم يخلف الا أضرارا طفيفة . وفى النهاية خضع الانكليز للداي ، مثل
بقية الحكومات الأخرى ، وعينوا رجلا آخر كقنصل . لقد كان قصف
المدينة غالي الثمن كثيرا وكانت ثمراته معدومة . وهذا هو الذي اقنع
الجزائريين كما أقنع سلطان تركيا (كذا) بأن الجزائر لا يمكن قهرها
طالما لم يستفز الداي أوربا كلها ضده . ولكن هذا الادعاء برهن على
أنه كان خاطئا ، فقد نزلت حملة فرنسية بالجزائر سنة 1830 ، واحتلت
المدينة وأنهت حياة الايالة التركية .

وكانت أصول المشكل الذي أدى فى النهاية الى التدخل العسكري الفرنسي تعود الى عهد حكومة الادارة (سنة 1796) عندما كان التاجران اليهوديان المتنفذان ، بكري وبوشناق ، قد مونا فرنسا بالقمح ، الذي كان معظمه يرجع الى حكومة الداي (الداي الدايليك) وليس الى التجار . ولم تدفع حكومة الادارة الثمن ، ولكن نابليون ، بصفته قنصلا ، اعترف سنة 1801 بالدين ورخص بالدفع . غير أن النقود لم تسلم (الى الجزائر) . ولم يحصل شيء للتخفيف من غضب الداي الا بعد عودة عائلة البوربون الى الحكم . وفى سنة 1818 صيغت ووقعت معاهدة (بين الجزائر وفرنسا) وقدر الدين فيها بسبعة ملايين فرنك . وبعد سنتين وافقت غرفة النواب (البرلمان) على قانون يسمح بدفع الدين . وعندما وصل الأمر الى هذه النقطة تقدمت جماعة من التجار الفرنسيين بدعوى قضائية لجمع الديون التي بلغت حوالي خمسة ملايين فرنك ، وهي الديون التي لهم على بكري وبوشناق . وقد غادر التاجران بكري وبوشناق الجزائر فجأة خوفا على حياتهما ، بينما كان القنصل الفرنسي يشرح للداي أن نقوده لا يمكن اعادتها اليه الى أن تجد الديون حلها وأنه لا يمكن أن يتقاضى منها

الا الفضلة المتبقية بعد ذلك الحل . ولكن هذا كان شيئا لا يمكن ان يدخل عقل الداي . فالنقود كانت نقوده هو وليس نقود بكري ولا نقود بوشناق . فكيف يجوز لمحكمة فرنسية ان تسمح لأي شخص ان يسرق نقوده ؟ وعندما رفضت الحكومة الفرنسية السماح له باستعادة التاجرين ، أصبح الداي مقتنعا انه كان مخدوعا .

ورجعت القضية الى الظهور ف الثلاثين من أبريل سنة 1827 . لقد كانت صدفة سيئة الحظ اذ حدثت ف نهاية شهر رمضان ، وهو الوقت الذي يصل فيه التعصب الاسلامي درجته القصوى (*) واسوأ من ذلك تلك الأخبار التي وصلت : ان الأسطول الجزائري ، الذي كان يدعم البحرية العثمانية ف مجهودها للقضاء على الثورة اليونانية ، كان قد حوصر من قبل حملة بحرية أروبية ، وأنه قد نفد زاده من التموين . وقد شاع الاعتقاد بأن طواقمه وبحارته كانوا يموتون جوعا . فماذا حدث ؟ ان القنصل الفرنسي اختار هذه اللحظة بالذات ليطلب اطلاق سراح سفينة كانت ترفع العلم الفرنسي ولكنها ف الحقيقة ترجع الى رعية من رعايا الدول البابوية ! استشاط الداي غضبا ، فصرخ باعتراضه ضد السلوك الفرنسي ، وسرد جميع شكاواه ، وعندما حاول القنصل أن يجيب ، ضربه بمروحة وهدده بوضعه ف السجن . ان الامتعاض الفرنسي من نظام الداي ، والظلم الذي كان يشعر به هو من جراء اجراءات المملكة الفرنسية ، والمساعدة الأروبية التي قدمت للثوار اليونانيين ، والاهانة الأخيرة التى لحقته من طلبه ارجاع غنيمة « شرعية » — كانت كلها أمورا فوق طاقة الداي . ولكنها كانت فوق طاقة الفرنسيين أيضا !

ففي اليوم الحادي عشر من جوان سنة 1827 وصل أسطول فرنسي أمام الجزائر ، وحمل الفرنسيين المقيمين ف المدينة ، ثم توجه الى القالة لنقل الفرنسيين المرتبطين بالتنازلات هناك . وبعد انجاز ذلك ، شرع الفرنسيون ف نصب الحصار البحري ضد الجزائر .

(*) — هكذا يصف المؤلف العبادة في شهر رمضان بانها تعصب اسلامي قد بلغ اقصى مداه ، ولا ندري ان كان هذا حكما دينيا او حكما سياسيا ، ولكن الظاهر ان المؤلف لم يسلم من الوقوع تحت تاثير المنطق الاستعماري الذي اختلق شتى المبررات لاحتلال الجزائر . (المترجم) .

وقد كان الحصار سيئا على الطرفين . ان الفرنسيين قد استولوا على عدد من سفن البحارة الجزائريين ، ولكن المحافظة عليها كانت مرتفعة التكاليف . ثم حدث « حادث » آخر : لقد تحطمت سفينتان فرنسيتان على ساحل الجزائر . ان طاقميهما قد احتجزوا من قبل القبائل البربرية وعوملوا في البداية معاملة الضيوف ، ثم قتلوا وبيعت رؤوسهم للداي . لقد كان ذلك وقودا أضيف الى النار ، وهو وضع سيء الحظ استمر الى يوليو سنة 1829 ، حينما أرسل الفرنسيون مبعوثا عنهم الى الجزائر لمحاولة انهاء النزاع عن طريق التفاوض . وكان الداي ، الذي يبدو أنه اعتقد أن الاستعداد الفرنسي للتفاوض كان متصلا بمشاكل سياسية خطيرة في فرنسا ، قد رفض منح التنازلات . حقا لقد كانت مشاكل خطيرة في فرنسا حيث كان حزب الغلاة ((Ultra)) الذي كان معاديا للهيئة الانتخابية ، وهي الهيئة المكونة فقط من العائلات الغنية والمحافظة ، ولكنها لم تكن رجعية بالدرجة التي كان يعتقدها فيها حزب الغلاة . وفي الثامن من أكتوبر سنة 1829 أصبح جول ـ أرمان بولينياك J. A. Polignac هو الوزير الأول . لقد كان محافظا لدودا ، بل رجعيا ، وكان مثل شارل العاشر ، لم يتعلم أبدا أي شيء جديد ولم ينس أي شيء قديم . وكان عازما على خنق الأزمة التي كانت تنذر بقرنها في المملكة ، ولو أدى الأمر الى القيام بانقلاب . وقد اقترح أحدهم بأن الجزائر قد تحول الأنظار الفرنسية عن المشاكل المتولدة عن التشريعات الدينية الرجعية . وفي هذه الأثناء اكتشف أحدهم الخطط المتعلقة بغزو الجزائر والتي كان قد وضعها بوتان لنابليون . لقد كانت خططا كاملة تشمل حتى التعليمات الخاصة بحركة الجنود في البر من أجل الاستيلاء الأخير على المدينة . انها الخطة النابليونية التي يمكن تنفيذها على يد حاكم بوربوني معاد والتي تجعل الفرنسيين ينسون أمجاد نابليون . وربما كانت هناك أسباب أخرى وراء القرار بغزو الجزائر الذي تمت الموافقة عليه يوم 31 يناير 1830 ، ولكن أهمها هو الرغبة في خلق حادث يؤدي الى تحويل الأنظار عن الوضع المتردي في فرنسا .

ولكن المسألة ما تزال مسألة وجهة نظر أوروبا . لقد كان القيصر الروسي في صالح ذلك بحماس . (*) ولم يكن للدولتين الألمانيتين أي مانع . ولم تكن الدول الصغيرة في وضع يجعلها تقول شيئا . ولم تعارض سوى انكلترا والدولة العثمانية . أما الأتراك فقد حاولوا الاصرار على أن الجزائر كانت جزءا من بلادهم بالرغم من أن أحدا في الجزائر لم يبد أي اهتمام بفرمانات (مراسيم) السلطان . وأخيرا قرر السلطان بأن أفضل ما يمارسه هو ارسال مبعوث الى الجزائر لحث الداي على قبول التفاهم فاذا فشل ذلك ، ربما لا تحدث نكبة ما دامت المحاولة تلو الأخرى للهجوم على الجزائر في السابق قد فشلت فشلا ذريعا — فلماذا لا يفشل هذا الهجوم أيضا ؟ وأما الانكليز فقد عارضوا ، لأنهم لا يريدون الجزائر الخاضعة للفرنسيين في وضع يضايق تجارتهم في البحر الأبيض ، انهم لا يريدون تعديلا فرنسيا للحالة القائمة في عالم البحر الأبيض . وقد احتج السفير الانكليزي في باريس ، ولكن الفرنسيين قرروا أن الاحتجاجات كانت ، بصفة عامة ، على الورق فقط ويمكن تجاهلها . وهكذا بدا أنه لا وجود لأية مشاكل يمكن أن تعترض طريق الحملة التي كانت بصدد التحضير في موانيء فرنسا بالبحر الأبيض . والشيء الوحيد الجدير بالاهتمام هم المدافعون : فهم لديهم الكثير من الوقت لكي يعرفوا أن الفرنسيين يخططون لضربة ضدهم .

وخلافا لحملتي شارل الخامس (شارلكان) وأوريلي ، فان الحملة الفرنسية سنة 1830 كانت معدة اعدادا محكما . فقد كان بوتان منظما دقيقا ، ومهندسا جيدا ، ثم أنه وضع خطته بعد دراسة فاحصة واسعة للأرضية . ولم يحن 25 من شهر أبريل حتى كانت حوالي ستمائة سفينة ، منها ثلاثمائة سفينة حربية ، مستعدة للابحار . أما الجنود فقد التحقوا بالسفن أيام 11 — 18 من شهر مايو ، وفي اليوم الثاني والعشرين منه غادرت الأرمادة (الأسطول) كلها الميناء . وحدثت عاصفة أجبرتهم على التوقف في بالمة حوالي أسبوعين ، ولكن الأسطول كان أمام ساحل الجزائر

(*) — كان قيصر روسيا عندئذ هو نقولا الأول ، ويقصد المؤلف أن القيصر كان مؤيدا متحمسا للحملة الفرنسية على الجزائر . (المترجم) .

يوم 12 من يوليو ، وفي 14 منه نزلت الدفعة الأولى من الجنود الى البر . وفي هذه اللحظة الحرجة هددت عاصفة أخرى بمعاملة الفرنسيين كما عاملت العاصفة القديمة شارل الخامس ، ولكن الفرنسيين كانوا أكثر حظا وأبعد نظرا . فقد كانوا قد غلفوا المؤن والمعدات في محتويات مضادة لتسرب المياه يمكن رميها الى البحر وتركها تطفو نحو البر حيث يمكن أن ينتشلها الجنود الذين يكونون قد سبقوها الى البر . ولم يكن قد تم بهذه الطريقة الا جزء صغير فقط حتى هدأت العاصفة بالسرعة التي كانت قد بدأت بها ، ونزل الفرنسيون آمنين الى البر سواء رجالهم ، وخيولهم ، ومعدات الاسعاف ، والمدافع ، وعلف الدواب ، والطعام ، والبارود ، والطلقات ، وجميع الأمور الأخرى المتعلقة بالمؤونة الحربية . ولم تكن المقاومة الجزائرية لعملية الانزال سوى مقاومة رمزية .

ولكن المشروع كله تعرض في هذه الأثناء الى الخطر عندما أرسل السلطان ، ربما بتدخل من السفير الانكليزي باسطانبول ، باشا الى الجزائر حاملا أوامر الى الداي بأن يوافق على أية شروط للسلام في مقابل وقف الغزو . فاذا وافق الداي على ذلك فان كل المشروع (الحملة) ستكون في خطر . وقد فهم القائد الفرنسي ذلك . واستطاع أن يوقف السفينة التي تحمل الباشا (المبعوث) وأن يوجهها بعيدا ، مع مبعوث السلطان ، دون أن يسمح لأي شخص بالنزول أو يقوم باتصالات مع السلطات الجزائرية . ولا يمكن للداي الآن أن يزعم أنه ، خضوعا لأوامر سيده ، مستعد أن يجعل الغزو الفرنسي غير ضروري .

وكان على الغزاة أن يواجهوا جنودا وخيالة من كل أنحاء الايالة الجزائرية . فقد أرسل البايات الثلاثة أفضل ما عندهم من جنود ، وانضمت القبائل الى الحرب ضد العدو المسيحي ، الذي يكرهونه أكثر من الأتراك ولكن هذه القوات كانت بصفة عامة غير منضبطة ، وضعيفة القيادة ، وغير مستعدة لتقف ضد جنود يقودهم رجال كثير منهم تعلموا فن الحرب تحت قيادة نابليون .

وسيكون عملا غير مفيد أن نصف تقدم عملية الغزو . ولم يحدث أي تعرض لخطر الفشل الا عند نقطة واحدة : ففي يوم 29 يونيو اعتقد الجنرال

ديبري Despres أن السراب الذي ظهر أمامه وأمام هيئة قيادته ما هو الا شاهد على أن خريطة بوتان كانت خاطئة • وقد حثه عدد من أعضاء هيئته على اعادة النظر ؛ ولكنه أمر بتغيير اتجاه جنوده مما كان سيؤدي الى نكبة للحملة كلها • ومن حسن حظه أن الجزائريين لم يكونوا في أي وضع يمكنهم من اغتنام فرصة غلطته قبل تصحيحها • أما من النواحي الأخرى فقد سار الغزو سيرا دقيقا • وفي الرابع من يوليو سقطت آخر حاميات مدينة الجزائر وسلم الداي بشرط السماح له بمغادرة البلاد بعائلته وثروته تحت حماية الجيش الفرنسي • لقد كان يريد أن يهرب بحياته ، وممتلكاته ، ويترك للآخرين أن يقرروا ما يفعلون حول السلام •

ودخل الجيش الفرنسي الجزائر تحت أنظار جموع عابسة • وكان الانكشارية قد أغلقوا الثكنات على أنفسهم ، أما المتزوجون منهم فقد اندمجوا في زحام البلدية (الحضر) • ومن الواضح أن هؤلاء « الأسياد » السابقين في الجزائر كانوا خائفين من جموع السكان في المدينة خوفهم من الغزاة الفرنسيين • وفي تلك اللحظة ، تردد الفرنسيون ، اذ لا وجود لحكومة يتعاملون معها وطلبوا أوامر أخرى من باريس • لقد حدث الانتصار (في الجزائر) يوم الرابع من يوليو ، ولكن حدثت في يوم 26 و 27 منه ثورة في باريس • وكان على بولينياك وحكومته وملكه شارل العاشر أن يغادروا البلاد الى أنكلترا • وشملت الحكومة الثورية الماركيز دي لافاييت Lafayette وتالليراند Talleyrand بالاضافة الى ادولف تيير Thiers الصحفي — المؤرخ المتميز ، وفرانسوا غيزو Guizot الأستاذ — المؤرخ المشهور ، وكازمير بيريي وهو من أصحاب البنوك الأغنياء ، وغيرهم من أمثالهم في القيمة ؛ وهم رجال من الصعب على المرء أن يتوقعهم يقودون ثورة تؤدي الى اقامة الحواجز في شوارع باريس • ولكنهم كانوا هم الرجال الذين عليهم أن يقرروا ماذا يفعلون بالجزائر • وكان صعبا عليهم أن يقبلوا ، عن رضى ، أن يملي عليهم السفير الانكليزي ، ماذا يفعلون ، هذا السفير الذي أصر على أن عليهم أن يؤسسوا حكومة أهلية (الجزائر) ويعودوا الى فرنسا ، ولكن كان عليهم أيضا أن يواجهوا الرأي العام في بلادهم ، الذي تطور في أوروبا نتيجة الثورات في أمريكا الشمالية والجنوبية ، وكان منطلق هذا الرأي

العام هو أن المستعمرات تعتبر حملا ثقيلا طالما هي لا تقدم الا فائدة ضئيلة للبلاد الأم ، وهي ثائرة متمردة حالما تصبح ذات قيمة • ومع ذلك فان القرار جاء في صالح أولئك الذين كانوا يريدون البقاء في مدينة الجزائر واقامة نظام حكم فرنسي في الجزائر كلها •

وكان القرار قرارا خطيرا (مصيريا) • فعندما حصل الجنرال الفرنسي المنتصر على توقيع آخر داي للجزائر على معاهدة تمنح الفرنسيين السيطرة والحكم لمدينته وأرضه ، لم يكن هناك ما يقدمه حقيقة للمسؤولين الفرنسيين الا الشيء اليسير جدا • فقد كان الجيش الانكشاري قد فقد ، منذ أمد ، قوته في الحكم • والواقع أنه لم يكن في البلاد كلها سوى حوالي ألفين وخمسمائة (2 500) انكشاري قادرين على حمل السلاح ، بينما كان شيوخ وأمراء البربر والعرب الذين يحكمون قبائلهم ، بالاضافة الى أهل المدن الذين كانوا مستعدين الى تأكيد سلطتهم على جماعاتهم ، لم يعتبروا أنفسهم ملزمين بأي اتفاق قد يكون الداي قد وقعه مع المنتصرين • وباختصار فان الجيش الفرنسي المحتل وجد نفسه في واقع الأمر لا يكاد يسيطر الا على قطعة الأرض التي يسيطر عليها • وكان زعماؤه قد واجهوا بالضبط تقريبا نفس المشاكل التي واجهت الايالة التركية في سنواتها الأخيرة • فقد رفضت الأرياف والمدن ، التي أصبحت مسرحا لثورة مزمنة خلال عشر سنوات أو تزيد ، رفضا قاطعا قبول الحكام الجدد بشكل لا يختلف عن موقفهم من الحكام القدماء •

واذا كان الفرنسيون قد ورثوا نفس المشاكل فان تأثير حكمهم كان مختلفا عن تأثير حكم الأتراك • ويجب أن لا يتبسم أحد عندما يكتب الفرنسيون عن « مهمتهم الحضارية » في افريقيا وغيرها لمجرد أن الجنود والبروقراطيين الفرنسيين طبقوا ، في بعض الأحيان ، مناهج واجراءات غير متناسبة مع تلك المهنة المثالية • ان فرنسا قد أدخلت الحضارة الغربية الى الجزائر رغم أن الطريقة التي أدخلت بها أدت في بعض الأحيان ، الى تأثير ممزق للعادات القبلية القديمة ، وبدأ ذلك التأثير وكأنه لا يعدو أن يكون فرض الحضارة الفرنسية على شعب غير مستعد لتقبلها ، عن طريق البنادق والرشاشات • وهذه الحضارة الغربية أخذت شكل نظام اقتصادي

حديث ، وعمران حضري أكثر عقلانية ، وتعميم للتعليم والخدمات الصحية العامة • واحترام أكثر لحكم القانون ، بالاضافة الى تحضير غير مخطط وغير متوقع لاطارات (كوادر) قادرة على ادارة وانجاز ثورة ضد الحكم الفرنسي • وليس هناك أحد يزور المستعمرات الفرنسية القديمة اليوم ولا يرى الحقيقة ، وهي أن فرنسا قد أعطت الكثير لهذه الشعوب خلال سنوات حكمها لهم • (*) ولكن كل هذا لم يكن داخلا في مخططات سنة 1830 ، عندما قررت مملكة يوليو الجديدة في فرنسا أن تحل محل الأتراك كحكام للجزائر وأقاليمها (بايليكاتها) • لقد كان ذلك مقدرا له أن يكون هو قصة المائة والأربعين سنة التالية من التاريخ الجزائري •

(*) — تبنى المؤلف آراء المدرسة الفرنسية الاستعمارية (وهل نقول آراء الامبريالية اليوم؟) حول نتائج الاستعمار «وفوائده» ولا سيما مبدأ «المهمة الحضارية الفرنسية» — كما تتبنى الامبريالية عمل الرجل الأبيض — ولو درس بموضوعية لعرف أن التعليم الذي أشار اليه كان أسطورة فقط وأن المهمة الحضارية لم تكن سوى مهمة تدمير حضارة أخرى بالعنف ، رغم أننا لا ننازع في بعض النتائج التي أشار اليها . (المترجم) •

المختصرات (*)

وثائق الشؤون الخارجية (فرنسا)	A.A.E. Archives des Affaires Etrangères
الوثائق الوطنية (فرنسا)	A.N. Archives Nationales
وثائق تاج أراغون (اسبانيا)	A. de C. de A. Archivo de Corona de Aragon
المكتبة الوطنية (فرنسا)	B.N. Bibliothèque Nationale
المتحف البريطاني	B.M. British Museum
المجلة الافريقية	R.A. Revue Africaine

(*) — هذا المختصر من وضع المؤلف نفسه . (المترجم) .

المصادر

ان كل من يرغب في كتابة تاريخ عام عن ايالة الجزائر التركية ـ البحرية سيكون مدينا كثيرا للأشخاص الذين عاشوا في الجزائر وكتبوا عن تجربتهم فيما بالاضافة الى مسؤولي الدول الاوروبية الذين حاولوا ان يبقوا حكوماتهم على اطلاع على الاحوال والمشاكل . وان هذه الدراسة ليست استثناء . فالفصول الاربعة الاولى تعتمد اعتمادا كبيرا على المؤرخين وكتاب الاخبار والجغرافيين الذين كتبوا خلال القرن السادس عشر . وقد وجدت ، مثل كل الباحثين الآخرين ، ان اعمال هايدو ومرمول لا تقدر بثمن . ولولاهما لما قارب أي كتاب عن المغرب خلال هذا العهد حدود الثقة العلمية . وعرف القرنان السابع عشر والثامن عشر كتابات اكثر من نوع المذكرات وكتب الرحالة ، ولكن اهمها بالنسبة للباحثين هي الرسائل والمذكرات التي اعدها القناصل والضباط البحريون وغيرهم من المسؤولين الذين كانوا يمثلون الدول الاوروبية في الجزائر . ان رسائلهم تعتبر شواهد ثمينة يمكن من خلالها التأكد من كتابات الرحالة والأرقاء والتجار والقساوسة وغيرهم ممن تركوا لنا صورا وآراء عن الرجال والأحداث في المنطقة . ومن سوء الحظ انه لا وجود لوثائق اخرى مكتوبة من قبل الاتراك او الجزائريين لا بصفتهم مسؤولين ولا بصفتهم رحالة ، نعني بذلك الوثائق المتوفرة لنا نحن الذين لا نعرف غير اللغات الأروبية .

لقد قسمت المواد التي استعملتها الى :

1 ـ رسائل ووثائق مخطوطة ثم رسائل ووثائق مطبوعة طبعت في عصرها .

2 ـ كتب وكتيبات وغيرها من المواد التي كتبت قبل سنة 1830 .

3 ـ اعمال انتجها باحثون متخصصون وغيرهم منذ 1830 .

وانني لا أدعي بأن هذه البيبلوغرافية هي عمل كامل لكل المواد المتصلة بالايالة التركية ، ومع ذلك فانها تقدم قاعدة صلبة لهذه الدراسة ، ويجب

المصادر

ان كل من يرغب في كتابة تاريخ عام عن ايالة الجزائر التركية ـ البحرية سيكون مدينا كثيرا للأشخاص الذين عاشوا في الجزائر وكتبوا عن تجربتهم فيها بالاضافة الى مسؤولي الدول الاروبية الذين حاولوا ان يبقوا حكوماتهم على اطلاع على الاحوال والمشاكل . وان هذه الدراسة ليست استثناء . فالفصول الاربعة الأولى تعتمد اعتمادا كبيرا على المؤرخين وكتاب الأخبار والجغرافيين الذين كتبوا خلال القرن السادس عشر . وقد وجدت ، مثل كل الباحثين الآخرين ، ان اعمال هايدو ومرمول لا تقدر بثمن . ولولاهما لما قارب اي كتاب عن المغرب خلال هذا العهد حدود الثقة العلمية . وعرف القرنان السابع عشر والثامن عشر كتابات اكثر من نوع المذكرات وكتب الرحالة ، ولكن أهمها بالنسبة للباحثين هي الرسائل والمذكرات التي أعدها القناصل والضباط البحريون وغيرهم من المسؤولين الذين كانوا يمثلون الدول الاروبية في الجزائر . ان رسائلهم تعتبر شواهد ثمينة يمكن من خلالها التأكد من كتابات الرحالة والأرقاء والتجار والقساوسة وغيرهم ممن تركوا لنا صورا وآراء عن الرجال والأحداث في المنطقة . ومن سوء الحظ انه لا وجود لوثائق اخرى مكتوبة من قبل الاتراك او الجزائريين لا بصفتهم مسؤولين ولا بصفتهم رحالة ، نعني بذلك الوثائق المتوفرة لنا نحن الذين لا نعرف غير اللغات الاروبية .

لقد قسمت المواد التي استعملتها الى :

1 ـ رسائل ووثائق مخطوطة ثم رسائل ووثائق مطبوعة طبعت في عصرها .

2 ـ كتب وكتيبات وغيرها من المواد التي كتبت قبل سنة 1830 .

3 ـ اعمال انتجها باحثون متخصصون وغيرهم منذ 1830 .

وانني لا ادعي بأن هذه البيبلوغرافية هي عمل كامل لكل المواد المتصلة بالايالة التركية ، ومع ذلك فانها تقدم قاعدة صلبة لهذه الدراسة ، ويجب

ان توضح حاجات اي شخص يرغب في زيادة البحث في مظاهر تاريخ الجماعة التركية – البحرية بالجزائر .

مخطوطات ومصادر اولية مطبوعة :

1 – المخطوطات :

MANUSCRIPTS

Public Record Office, London, 772-Sp. 71-1, 2, 3, 4. 772-IND. 13393-96.

Archives des Affaires Etrangères, Paris. France, M. et D., 792, 917, 297, 366. Algérie, M. et D., 12, 13.

Archives Nationales, Paris. K 1334.

Archivo de Corona de Aragon, Barcelona. Consejo de Aragon, Legajos, 555-62.

Bibliothèque Nationale, Paris. Ms. Franç. 16141, 16164, 167838, 15875, 15466, 16633, 10655, 19608, 5561, 19799, 23355.

British Museum, London. Newcastle Papers, Add 28093-32779 ; PS 8/ 10261.

2 – المطبوعات :

Anderson, R.C., *The Journals of Sir Thomas Allen* (1666-1678), Navy Records Society, 1940.

Barutell, jan S. de, *Documentos sobre la aramada de liga y batalla de Lepanto sacados del archivo de Simancas*, Madrid, 1842-43.

Basset, René, *Documents musulmans sur le siège d'Alger en 1541*, Paris, 1890.

Berbrugger A., " Les Casernes de janissaires à Alger," *Revue* (R.A.) vol. III, pp. 138-50.

— " L'Expédition d'O'Reilly contre Alger en 1775," R.A. VIII, 172-87, 408-20 ; IX, 303-6 ; XI, 458-67.

— " Mers el Kébir et Oran d'après Diego Saurez Montanes", R.A. IX, 251-67, 337-56, 410-29 ; vol. X, 43-50, 111-25.

Carrière, S. *Négotiations de la France dans le Levant au XVI siècle*, 4 vols., Paris, 1848-60.

Chappell, Edwin, *The Tangier Papers of Samuel Pepys*, Navy Records Society, 1935.

Clement, Pierre, *Lettres, instructions et mémoires de Colbert*, 7 vols., Paris, 1861-70.

Deny, J., " Charte des hopitaux chrétiens d'Alger en 1694," R.A. XVIII, 233-44.

Devoulx, Albert, "Le registre des prises maritimes", R.A. XV, 70-79, 149-60, 184-201, 285-99, 362-74, 447-57 ; XVI, 70-77, 146-56, 233-40, 292-303.

— Les registres de la solde des janissaires conservés à la Bibliothèque Nationale d'Alger, R.A. LXI, 19-46, 212-60.

Dumont, jean, *Corps universel diplomatique du droit des gens*, vol. III, Amsterdam, 1731.

Effendi, Ibrahim, *A Letter from the Government of Algiers to Admiral Russel*, London, 1695, Newberry case 6a, 160 no. 65.

Estado Mayor Central de Ejercito, Servicio Historico Militar, *Dos expeditiones Espanolas Contra Argel* 1541 y 1775, Madrid, 1946.

Grammont, H.D. de, "Correspondance des consuls d'Alger (1690-1742)", R.A. XXXI, 164-212, 295-319, 341-49, 436-77 ; XXXII, 52-80, 117-60, 230-38, 308-19, 321-37 ; XXXIII, 122-76, 219-55. وهو مطبوع ايضا ككتاب بنفس العنوان : (Algiers, 1890) =

— "Documents Algériens", R.A. XXIX, 430-59 ; XXX, 399-402, 468-76 ; XXXI, 161-63.

— "Lanfreducci et Othon Bossio, Colte et discours de barbarie", R.A., LXVI, 428-48.

— (as trans.), *Relation des préparatifs fait pour surprendre Alger par Jeronimo Conestaggio*, Algiers, 1882.

— "Relations entre la France and la Régence d'Alger au XVII siècle", R.A. XXIII, 5-32, 95-114, 134-60, 225-40, 295-330, 367-93, 409-48 ; XXVIII, 198-218, 273-300, 339-54, 448-63 ; XXIX, 161-71.

Instituto Historico de Marina, *La batella naval del senor Juan de Austria segun un manuscrito anonimo contemporaneo*, Madrid, 1971.

Kaiser Karl V, *Correspondenz des Kaiser Karl V*, 3 vols., Leipzig, 1844-46.

Lanfreducci, Francois, *Côte et Discours de Barbarie* (preface, trans., Ch. Montchourt and Pierre Grandchamp), R.A. LXVI, pp. 429-548. Memorandum prepared for Grand Master of Knights of St. John, 1587.

Navarrete, F.N., Salva, M., and Baranda, P.S., *Coleccion de documentos inéditos para la Historia de Espana*, vols. I, III, XXXIX,XL, Madrid, 1846-62.
ان هذه المجلدات قيمة بالنسبة الى الحرب التركية-الاسبانية ، القرن 16.

Plantet, E., *Correspondance des Beys de Tunis avec la cour de France* (1577-1830), 3 vols., Paris, 1893-1899.

— *Correspondance des Deys d'Alger avec la cour de France*, 2 vols., Paris, 1889.

Powell, J.R., *The Letters of Robert Blake*, Navy Records Society, 1937.

Rouard de Card, E., *Traités de la France avec les pays de l'Afrique du nord : Algérie, Tunisie, Tripolitaine, et Maroc*, Paris, 1906.

Sue, M.J.E., *Correspondance de H. d'Escoubleau de Sourdis*, Paris, 1839.

Testa, I. de, *Recueil des traités de la Porte Ottoman avec les puissances étrangères*, Paris, 1864.

مؤرخو وكتاب الحوادث : القرن السادس عشر :

كل الكتاب الذين يتناولون ظهور الجماعة التركية – البحرية في شمال افريقية يعتمدون على العمل الذي كتبه فراديغو هايدو Fra Diego Haédo وهو راهب بنديكتيني Benedictine كان سجينا بالجزائر خلال 1578 – 1581 . لقد كان ملاحظا وسائلا دقيقا وذكيا وشديدالحساسية. ويعتبر عمله اساسيا لكل الكتابات الغربية اللاحقة عن الجزائر .

1. Topographia e Historia General de Argel, Valladolid, 1612.
2. Epitome de Los Reyes de Argel, Trans. by R.A. de Grammont, 1880-1881, Alger, 1881.

وترجم ونشر كتابا .

3. Dialogos de la Captividad, Trans. by Molinervolle, Alger, 1897.

والتاريخ التالي الذي لا يقل اهمية في القرن السابع عشر ، هو كتاب بيردان Père Pierre Dan لقد كان من كبار جماعة الثالوث المقدس St. Tinity وفداء الارقاء في مدينة فونتينبلو . وعاش في الجزائر خلال جزء من عشرية 1630 – 1640 . ويعتبر كتابه : تاريخ بربارية (شمال افريقية) وبحارتها ، باريس 1637 عمدة لهذا العهد ، ويجب ان نغض النظر عن ميول بيردان المسيحية ، وهو في ذلك مثل هايدو . فاذا فعلنا ذلك فان كتابه يعتبر مصدرا ذا قيمة كبيرة .

والمؤرخ التالي الذي يتمتع بمواد هامة هو لـــوجي دي طـــاسي Laugier de Tassy وكتابه هو :

Histoire du Royaume d'Alger, Amsterdam, 1725.

وكان طاسي مسؤولا في القنصلية الفرنسية بالجزائر بالاضافة الى انه كان مبعوثا بحريا للملك الأسباني في نيذرلاند (هولاندا) ، ولكن عمله معتم لانه لم يستطع ان يقاوم الأخبار عن الحكاية الأسطورية للعلاقة الغرامية بين عروج وزوجة حاكم الجزائر الذي خنقه . ان « الرسائل الحقيقية » التي قدمها لقرائه تعتبر مجرد هذيان فرنسي خلال القرن الثامن عشر ، ولكن كتابته عن عهده هو في الجزائر تعتبر جديرة بالانتباه الدقيق .

وقد اعتمد جوزيف مورغان (*) Joseph Morgan مؤرخ القرن الثامن عشر الانكليزي عن بربارية (شمال افريقية) اعتمادا كبيرا على ما كتبه طاسي ، حتى ان عمله لا يكاد يخرج من كونه ترجمة لتاريخ هذا الرجل الفرنسي ، ونعني بذلك كتاب مورغان المسمى :

A compleat History of the Piratical States of Barbary, London, 1750.

وتحتوي المكتبة الوطنية الفرنسية على نسختين مخطوطتين من اواخر القرن الثامن عشر عن «تاريخ مشروح» كتبهما ابي رينال Abbé Raynal بعنوان : Mémoire sur Alger. B.N. Mss. franc. 6429 fols. 102-61 (نسختان من المذكرة) .

وهذا العمل مكتوب كتابة جيدة ويحتوي على معلومات دقيقة عن عصره .

ومن اهم الكتب المؤلفة ، عن المغرب العربي في القرن السادس عشر كتاب لويس ديل مرمول كرانجال Luis del Marmol-Caranajol الجغرافي ومدون الحوادث ، وهو المسمى بـ :

Description General de Africa con todos los successos de guerra a Avido entre los infideles y el Pueblo Christiano, Granada, 1573.

وهو في ثلاثة اجزاء ، وتوجد منه ترجمة فرنسية غير امينة قام بها نيقولا سمسون N. Samson ، باريس ، 1667 . وقد كان مرمول مع شارل الخامس في تونس . كما كان مسترقا في المغرب الاقصى ، وكان قد قضى حوالي عشر سنوات متنقلا في المغرب العربي . فوصفه للمنطقة وشعبها يعتبر ذا قيمة كبيرة .

وهناك ثلاثة من كتاب الحوادث الاسبان الذين تعتبر اعمالهم ايضا مفيدة جدا . وهم :

— Alfonso de Santa Cruiz : Cronica del Emperador Carlos V, Edition de la Réal Academa de la Historia, Madrid, 1920-1922, 3 vols.
— Juan de Marianai A. General History of Spain from the First peopling of it by tribol Til the Death of King Ferdinand, Trans. by Capt. John Stevens, London, 1699.
— Prudencia de Sandoval : Historia de la Vida y Hechos del Emperador Carlos V Maximo, Fortisimo, Rey Catholico de Espana y los indias, y Tierra Firme del Mar.

(*) ـ ذكره المؤلف هنا جوزيف ، وقد وجدناه في بعض المؤلفات جون مورغان ، انظر دراستنا عن كتابه (الكامل في تاريخ الجزائر) في كتابنا (ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر) القسم الاول ـ فصل : الجزائر في مؤلف انكليزي قديم المترجم) .

وقد نشر لاول مرة في مدريد سنة 1604 . لقد كان هؤلاء الكتاب
الثلاثة مطلعين جيدا على الاحوال الاسبانية في وقتهم . وان كتاباتهم
تعتبر جديرة بالاعتبار . فهم كانوا ينسخون احوال العصر ويعكسونها في
تواريخهم . وبالاضافة الى هؤلاء يوجد مؤرخ وكاتب حوادث اسباني آخر
يستحق الانتباه ، وهو بيدرو اباركه Padra Abarca الذي كان
باحثا وعضوا في منظمة الجزويت . وكتابه يسمى :

- De los Anales de los Reyes de Aragon, Salamanca, 1684.

وهناك ايضا تاليف جغرافي ومدون للحوادث يعتبر اساسيا ايضا وهو
تاليف الباحث العربي المتنصر الذي الفه تحت اسم ليو افريكانوس :
Leo Africanus

- De Totius Africa Descriptions Libri, zurick, 1555 (French translation by Jean Temporal, Lyon, 1556).
- J.B. Gramaye : Africae illustratae Libri Decem, etc.

وهذا الكتاب ليس مجرد اجترار لمؤلفي افريكانوس ومرمول .

ان كتاب الحوادث ومؤرخي القرن السادس عشر والسابع عشر
يخبروننا عن قصة عروج واخوته . ولكن اكثر هذه الكتابات اهمية والاثارة
للمتعة هو ما كتبه سنان شاوش (الذي يدل اسمه على انه ربما كان مبعوثا
او رسولا من عند السلطان) ، ونعني به كتاب غزوات عروج وخير الدين
(مؤسسي اوجاق الجزائر) . وتوجد لهذا الكتاب ترجمتان واحدة
اساندر رانغ وفيردينان دينيس والثانية لفانتور ديبارادي :

- Sander Rang and Ferdinand Denis : La Fondation de la Regence d'Alger, 2 vols. Paris, 1837, B.N. LK8-141 venture de paradis : B.N. Mss. Franc. N.A. 892

وبارادي هو الباحث (الفرنسي) المتميز الذي عاش خلال القرن الثامن
عشر ، وربما كتب الترجمة المذكورة في نهاية القرن المذكور . وترجمته
مخطوطة في المكتبة الوطنية الفرنسية كما سبق .

ومن الواضح ان الوثيقة (الغزوات) كتبها شخص اما كان يعرف خير الدين
جيدا فكان يسجل قصصه بالتوالي ، او كتبها آخر لكنه يعرف هذا
الشخص جيدا . فلا يمكن «للغازي» خير الدين أن ينال تعاطفا اكثر – بل
اسطوريا نوعا ما – في غزواته حتى ولو كتبها هو بنفسه . وهناك عمل
تركي آخر يجب الرجوع اليه وهو كتاب حاجي خليفة : تاريخ الحروب
البحرية للأتراك (وهو مكتوب حوالي سنة 1645) ، وقد ترجمه الى
الانكليزية :

- James Mitchell : History of the maritime wars of the Turks, London, 1831, B.N. J3-371.

وعنوانه بالتركية معناه : تحفة الكبار في أسفار الغزوات البحرية .
ويعتبر هذا العمل اكثر دقة مما قبله ، وهو يتناول النشطة البحرية العثمانية في البحرين الأحمر والأسود بالاضافة الى البحر الأبيض المتوسط .

وان المؤرخ الفرنسي في القرن السادس عشر ، سينيور دي برانتوم de Brantôme قد عالج مشاكل القرن السادس عشر بكتابة دراسات شخصية (بيوغرافيات) : ويبدو واضحا انه كان على معرفة بالأخبار المتوفرة في البلاط الفرنسي ، بالاضافة الى انه كان على اطلاع عام على احوال اوربا في ذلك العهد :

— *Pierre de Bourdelle, Sgr. de Brantôme* : Oeuvres complètes, Paris, *1864-1882, II vols.*

وهناك عمل فرنسي آخر كتبه نقولا دوفينوا :

— *Nicholas N. Dauphinois* : The Navigations, Perigrinations and voyages of Nicholas

(بدون تاريخ)

وهذا الكتاب ترجم عن الفرنسية في :

— *Collection of voyages and travels from the library of the Earl of Oxford, vol. I, pp. 701-707. 1765 (?)*

وكانت رحلته قد بدات سنة 1551 . وقد كان حاجبا وجغرافيا عاديا لهنري الثاني ملك فرنسا .

واكثر الكتب رواجا عن سياسة شارل الخامس الافريقية هو :

— Expeditio in Africam ad Algeriam, Paris and Antiverp, 1542.

وهو مترجم الى الانكليزية هكذا :

— Lamentable and Piteons Treatise, etc.

Harkian Miscellany

وقد اعيد طبعه في مجموعة هارليان بلندن سنة 1745 .

اما الترجمة الفرنسية فعنوانها :

— L'Expédition et voyage de l'Empereur Charles le Quint en Afrique contre la cité d'Arges, Lyon, 1542.

Thomas Chaloner

وقد كان السيد نقولا فارسا من فرسان القديس يوحنا . وكان مع شارل في الجزائر . وكان السيد توماس شالوني الذي كان ايضا فارسا من فرسان القديس يوحنا وكذلك كا نمع شارل (في الجزائر ؟) ، قد كتب مذكرته في :

— De Republica Anglorum Instauranda, Hakluyt, vol. II, pp. 99 ff.

ويقدم لنا الكتيب التالي الذي الفه فونتاس ديغودي « قصصا حية » عن كثير من الاشخاص الذين عالجناهم في هذه الدراسة ، وهو :

— Fuentas, Diego de : Conquesta de Africa donde de Hallaran agora nueramente recopiladas por Diego de Fuentas muchas y muy notables hazanas de particulaves cavalleros, Anvers, 1590.

بالاضافة الى كتاب جونز فيليب الذي يتحدث عن « المعركة » التي جعلت الانكليز محل ترحيب في الجزائر في نهاية القرن السادس عشر ، وهو هذا :

— Jones, Philip : A true account of a worthy fight performed in the voyage from Turkie by five ships from London against II gallies and two frigate of the king of spaines at pantalarea within the staights. Anno 1586, reproduced in Hakluyt : Navigations, voyages, etc. vol. VII, pp. 229-238, Edinburgh, 1888.

رحالة وجغرافيو القرنين السابع عشر والثامن عشر :

بحلول منتصف القرن السابع عشر اخذ الاروبيون الغربيون يطورون بسرعة ذوقا في ادب الرحلات والجغرافية وغيرهما من المعارف العامة . وكما يتوقع المرء فان المغرب العربي ساهم بقسطه في هذا الادب . وبعض هذا الأدب يعتبر مصدرا هاما للمؤرخ . والعناوين التالية كانت مفيدة للغاية في تحضير هذا الكتاب . غير انه يجب علي ان الاحظ ان المذكرات التي اعدها القناصل الانكليز والفرنسيون والتي هي موجودة في مكتب السجلات العامة (Public Record Office) وفي وثائق الشؤون الخارجية وفي المكتبة الوطنية ، بالاضافة الى اوراق فانتور دي بارادي الموجودة ايضا في قاعة المخطوطات بالمكتبة الوطنية :

(MS. Franc. N.A. 3158, 3160, 9134-38 and MS. Franc. 6429-30)

ربما كانت (تلك المذكرات) اكثر فائدة من اي عمل من اعمال الرحالة والجغرافيين ، باستثناء توماس شو Thomas Shaw الذي برهن على انه كان ملاحظا لا يقل نباهة عن الرجال الذين ارسلوا الى الجزائر ليخبروا عن احوالها لفائدة وزراء الملك .

والمؤلفات التالية اعمال مفيدة كتبها رحالة او هي جرائد (يوميات) زيارات للجزائر :

Anonymous, *Etat des Royaumes de Barbarie* : Tripoli, Tunis et Alger, Rouen, 1703.

ثلاث رسائل من المفروض انها كتبت من قبل القساوسة عن رحلتهم الى الجزائر من اجل الفداء ، وفيها تعاليق هامة عن مجتمع كل ايالة من الايالات .

Anonymous, *Several voyages to Barbary... with the hardships and sufferings and the redeeming of Christian slaves. With a journal of the siege and surrender of Oran*, 2d ed., London, 1736.

Britton, J., *Algiers Voyage, Journal or Briefe reportary of all occasions hepning in the fleet of ships sent out by the king, his most excellent Majestie... against the Pirates of Algiers... etc.*, London, 1671.

Broughton, Elizabeth, *Six Years Residence in Algiers*, London, 1838.

Brown, Dr. John. *Barbarossa, a Tragedy* (1832).

قطعة مسرحية مثيرة مثلت في فيلادلفيا . وهي قائمة على قصة زفيرة (ظفيرة ؟) ، غير ان خير الدين في هذه المسرحية ، وليس اخاه عروج ، هو القاتل وهو القائم بدور الاغتصاب المزعوم . وهو هنا قد قتل من قبل سليم ، ابن زفيرة ، في نهاية المسرحية .

Carey, Mathew, *A short account of Algiers, containing a description of the climate... manners and customs... several wars... with powers of Europe from the usurpation of Barbarossa... to the present. With a concise view of the origin and rupture between Algiers and the United States*, Philadelphia, 1784.

وهو كتاب صغير الحجم مع عنوان يكاد يكون في طول الكتاب نفسه لكي يخبر شعب الولايات المتحدة الامريكية لماذا هم يعانون في شمال افريقية .

Croix, Abbé Nicolle de la, *Géographie Moderne*, 2 vols., Paris, 1769.

Dapper, Olfert, *L'Afrique*, Amsterdam, 1686.

وقد ترجم هذا الكتاب الى الانكليزية مع نفس الايضاحات (رسوم وصور) الواردة في الطبعة الفرنسية .

D'Avity, Pierre, S.O.T.V.Y. gent. ord. de la c. de Roy, *Les Estates, Empires et principautez du Monde*, Paris, 1615 (also printed in English the same year : see Newberry Ayer 137/a7/q615 and Case F 09.06.)

Dominici, Alfonso de'. *Trattato della miserie, che patiscono i fedeli christiani schiavi de' Barbari, e dell'indusgenze che sommi pontifici han concesse per lo riscatto di quelli*, Rome, 1647.

Dunton, John, *A true Journal of the Sallée fleet with the proceedings of the Voyage* (1636) Library of the Earl of Oxford, vol. II, pp. 492-98.

Fau, R.P. de la Mercy, "Description de ville d'Alger avec observation d'une éclipse de lune qui y arriva le 13 février 1729", R.A. CXXXIV, 250-56.

Faye, J.B. de la, *Etat des Régences de Barbarie Tripoli, Tunis et Alger*, The Hague, 1704.

Frejus, Roland, *Relation d'un voyage fait en Mauritanie par Roland Frejus de Marseille par ordre de S.M. en 1666*, Paris, 1670.

Grammont, H.D. de, and Piesse, L., "Un manuscrit du Père Dan, Les Illustres Captifs", R.A. XXVII, 11-35 ; 191-206 ; 355-79 ; XXVIII, 29-76.

Labat, J.B. ed., *Mémoires du Chevalier d'Arvieux*, 6 vols. Paris, 1736.
وهذه تتناول مشاكل القرن السابع عشر ، ويعطي دارفيو d'Arvieux
لنفسه قيمة اكثر مما تثبت الشواهد .

Le Sieur Tollet, *Nouveau voyage fait du Levant en années 1731 et 1732, Alger, Tunis, Tripoli, etc.*, Paris, 1742.

Ogiley, John, *Accurate Descriptions of the Regions of Egypt, Barbary and Biledgered*, London, 1686.

Panati, Philoppo (trans. and with notes by Edward Blaquière), *Narrative of a Residence in Algiers*, London, 1818.

Rocqueville, Sieur de, *Relation du Royaume et du Gouvernement d'Alger*, Paris, 1686.

Shaw, Dr. Thomas, *Travels or Observations relating to several parts of Barbary and the Levant*, 2 vols., Edinburgh, 1808 (first publication in folio, London, 1738).

Spragge, Sr. Edw., *A true and Perfect Relation of the Happy Success Victory obtained against the Turks of Algiers at Bugia by his Majesties fleet in the Mediterranean under the command of Sr. Edw. Spragge, (May 1671)*, London, 1671.

Tassy, Laugier de, *Traité de l'Esclavage des Chrétiens au Royaume d'Alger avec l'Estat présent de son gouvernement, de païs et de la manière dont les Esclaves Chrétiens son traitez et rèchatez*, Amsterdam, 1731.

Tindall, Mat. Doctor of Laws, *An essay concerning the Laws of Nations and the Rights of Sovereigns, London*, 1694.

Venture de Paradis, "Alger au XVIII siècle", R.A. XXXIX, 265-314 ; XC, 33-78 ; 250-77 ; CXI, 68-118. In manuscript, Bib. Nat. ms. franç. n.a., 892.

Villotte, S. J., P., *Voyages d'un missionaire de la Compagnie de Jésus, en Turquie, en Perse, en Armenie et en Barbarie*, Paris, 1739.

Vries, S. de, *Historie van Barbaryen en des zelf Zee-roovers*, 2 vols. Amsterdam, 1684.

مؤلفات عن الرق والفداء :

يوجد عدد من الكتب الهامة التي الفها اناس كانوا ارقاء في الجزائر او في اجزاء اخرى من المغرب العربي ، بالاضافة الى كتابات بعنوان « رحلات الفداء » . ويقدم لنا الدكتور ايلان فريدمان Ellen Friedman في دراسة عن الاسرى الاسبان في شمال افريقية التي ستنشر قريبا ، يقدم لنا افضل قائمة بهذه الكتابات التي الفها مؤلفون اسبانيون . وان

المؤلفات الآتية التي رجعت اليها تمثل افضل الأعمال المتوفرة في مكتبة نيوبري بشيكاغو .

Anonymous, *L'Esclave religieux et ses avantures*, Paris chez Daniel Hartlmels, MDCXC.

D'Aranda, Emanuel, *The History of Algiers and Its Slavery* (trans. by John Davies), 1666.

Davis, William, *A True Relation of the Traveles and Most Miserable Captivity of William Davis*, Library of the Earl of Oxford, vol. I, 1745, pp. 475-88.

De la Motte, P., Comelin, Fran., and Bernard, Jos., *Voyage to Barbary for the Redemption of Captives*, Eng. trans., London, 1785.

Knight, Francis, *A Relation of Seven Years of Slavery under the Turks of Algiers Suffered by an English Captive Merchant*, London, 1640, and Library of Earl of Oxford, vol. II.

ان هذا العمل الذي الفه فرنسيس نايت F. Knight يعتبر من اكثر الأعمال دقة في هذا الأدب المتعلق بالرق والفداء . لقد كان هو رفيقا في نفس الوقت الذي ظهر فيه القس (الأب) دان Dan ، في الجزائر ، ولذلك فان الرجلين يواجه احدهما الآخر ، بل انهما ـ كما هي العادة ـ يؤكد احدهما ما جاء به الآخر .

Martin, Maria, *History of the Captivity and Sufferings of Mrs. Marie Martin who was Years a Slave in Algiers. Written by Herself*, Boston, Newberry Library case 4-5779-5.

Oakley, William, *Eben-Ezer or a Small Monument of Great Mercy Appearing in the Miraculous Deliverance of John Anthony, William Oakley, William Adams, John Jephs and John Carpenter*, London 1675.

ويقول وليام اوكلي W. Oakley عن كتابه « لقد كتبته تاركا الأصدقاء ليقرأوه . والى ان يكون في استطاعتي ان اظهر على اصدقائي بتعليمهم التحدث بالانكليزية بطريقة افضل قليلا ، فانه لن يكون في قدرتي الزعم بأنني اتركهم يذهبون الى الخارج ... ان المادة والحشو من نصيبي انا ، اما التنسيق والشكل فمن عمل الآخرين . » وبذلك يكون اوكلي « صادقا » مع نفسه « عادلا » مع قرائه . ان اوكلي كان رفيقا (في الجزائر ؟) من اول اغسطس سنة 1639 الى 30 يونيو سنة 1644 .

Pellow, Thomas, *The History of the Long Captivity and Adventures of Thomas Pellow in South Barbary*, 1720-1736, ed. N.D. Newberry Library case Y 1565.

Phelps, Thomas, *A True Account of the Captivity of Thomas Phelps*, London, 1685. Newberry Library, Bonapart collection, vol. 8.

Robinson, Henry, *Libertas or Reliefe to the English Captives in Algier*, London, 1642.

Underhill, Dr. Updyke, *The Algerian Captive or the Life and Adventures of Dr. Updyke Underhill, Six Years a Prisoner among the Algerians*, Hartford, 1816.

كتاب وباحثون منذ 1830 : المثقفين او القراء عمـوما في خلال القرن الماضي قدمت الى جمهور ثمانية او عشرة أعمال تاريخية تتعلق فرنسا وانكلترا وايطاليا حوالي الاحتلال التركي . ومن اوائل هذه الاعمال بالمغرب العربي خلال سنوات ما كتبه بليفير R.L. Playfair :

— The scourge of christendom. Annals of British Relations with Algiers Prior tho te French conquest. London, 1884.

وهو كتاب في الواقع يتناول انشطة او بالاحرى جزءا من انشطة عدد من القناصل الانكليز في الجزائر ، كما انه قائم على الوثائق الانكليزية خاصة ، ومهتم بالمشاكل الانكليزية بالدرجة الاولى . اما الكتاب الثاني فهو ما نشره غرامون H.D. de Grammont :

— Histoire d'Alger sous la domination Turque, Paris, 1887.

انه كتاب ما يزال اساسيا (كلاسيكيا) . لقد علم غرامون نفسه ان يكون مؤرخا ، فكان في الواقع اهم باحث في تاريخ الايالة التركية(الجزائر) من جهتي تآليفه التاريخية ونشره للوثائق المصدرية . ونحن لم نعد نقبل تفسيره للقوى المتحكمة في الايالة ولكن يجب علينا ان نعجب بعمله . ويجب من ناحية اخرى أن نذكر انه كان مركزا كثيرا بالخصوص على فرنسا كما كان بليفير مركزا كثيرا على انكلترا .

أما الدراسة الهامة التالية التي تتناول جميع شمال افريقية من القديم الى الاحتلال الفرنسي فهي كتاب ميرسييه E. Mercier :

— Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps plus reculés jusqu'à la conquête française, Paris, 1891, 3 vols.

ان هذا الكتاب يعتبر منجما من الحقائق التي لم تكن دائما مهضومة ، ولكنه ذو قيمة بالنظر الى التفاصيل . وقد نشر لين بول Lanc Poole كتابه : The Barbary Corsairs — سنة 1890 ، ولكنه لم يضف شيئا الى القصة ما عدا أنه كتاب بالانكليزية . ويأتي بعد ذلك كتاب هنري غارو : H. Garrot :

— Histoire générale de l'Algérie, Paris, 1907.

الذي هو كتاب عام موجه الى جمهور فرنسي مهتم بدور فرنسا في شمال افريقية .

لم انهت الحرب العالمية الاولى مؤقتا الاهتمام بالجزائر ، ولا سيما بالجزائر تحت الاتراك ، ولكن في سنة 1931 نشر شارل اندري جوليان Ch. A. Julien كتابه :

— *Histoire de l'Afrique du Nord.*

وهذا كتاب ممتاز يتناول تونس والجزائر ومراكش من الفتح العربي الى سنة 1830 . وقد طبع هذا الكتاب ثانية سنة 1966 وظهرت له ترجمة انكليزية سنة 1970 قام بها جون بيتري John Petrie ورغم ان جوليان لم يخصص للاحتلال التركي سوى ستين صفحة ، فان هذا الكتاب جدير حقا بالقراءة .

لم تاتي دراسة السير غودفري فيشر Godfrey Fisher :

— *The Barbary Legend, war, Trade, and Piracy in North Africa (1515-1830) Oxford, 1957.*

ومؤلفه يقدم ادعاء حقيقيا واضحا وهو ان الحضارة الاروبية لهذا العهد كانت خشنة وعنيفة ولا يمكن الاعتماد عليها من عدة وجوه ، لم يستمر في اتجاهه فيدعي ايضا ان حكام وبحارة ايالات شمال افريقية كانوا اقل ذنبا من الاروبيين بالنسبة الى تلك الخطايا . وكل جهد لتبرئة (Whitewash) اهل الجزائر يمكن القيام به موجود في هذا الكتاب. انه من المدهش الواضح ان نتبع جهود فيشر في اظهار الشمال افريقيين كضحايا للتصرفات الاروبية بينما هم كانوا دائما رجالا شرفاء !

لقد قضى السير غودفري وقتا طويلا في البحث ، ولكنه عتم كتابه باجحاف préjudice معكوس . أما كتاب هيوباك Pierre Hubac :

— *Les Barbaresques, Paris, 1949.*

فهو يحاول ايضا ان ينظر الى اهل شمال افريقية من وجهة نظرهم ، ولكنه لم (يبرئهم Whitewash).

ولكن افضل دراسة خلال السنوات الأخيرة هي كتاب سلفاتوري Salvatore Bono :

— *I Corsari Barbareschi, Turin, 1964.*

وكان هذا الكتاب قد نشر تحت اشراف Radiotelevisione Italiana . وهو مركز على البحارة ونشاطهم بدل حكومة الايالة التركية ، ولكنه من هذه الناحية يعتبر كتابا ممتازا ، كما انه يحتوي على بيبلوغرافية جيدة تهتم بالدرجة الأولى بالمصادر الايطالية التي هي عادة غير مستعملة من قبل الكتاب الآخرين — بما في ذلك مؤلف هذا الكتاب .

اما كتاب بيترايل Peter Earl :

— Corsairs of Malta and Barbary, London, 1970.

فهو كتاب مفيد من جهة فرسان القديس يوحنا اكثر من بحارة الجزائر . لقد استعمل اول الوثائق (ارشيفات) الموجودة في مالطة ليقدم لنا صورة افضل من نشاط البحارة المسيحيين . وهناك دراسة اخرى اكثر حداثة واكثر عموما قام بها ابو النصر

J.M. Abun-Nasr :

— A History of the Maghrib, London, 1971.

وهي دراسة تقدم وجهة هامة مساندة للعرب للمشاكل . وان كل من يرغب في المزيد من الدراسة ابعد مما كتب جوليان او ميرسيية بالنسبة لتاريخ المغرب العربي قبل القرن السادس عشر ، فعليه ان يرجع الى كتاب قوتيية

E.-F. Gautier :

— L'Islamisation de l'Afrique du Nord, Paris, 1927.

وكذلك كتاب مارسيه ،

G. Marçais :

— Berberie Musulmane et l'Orient au moyen âge, 1946.

وانظر كذلك :

— Victor - L. Tapie : France in the age of Louis XIII and Richelieu, New York, 1975.

— Alberto Tenenti : Piracy and the decline of Venice, 1580-1615, Berkeley and Los Angeles, 1967.

مؤلفات في تاريخ المغرب العربي والجزائر :

Boyer, Pierre, *La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française*, Paris, 1964.

Braudel, Fernand, *La Méditerranée et le monde Méditerranéen à l'Epoque de Philippe II*, enlarged 2d ed., 2 vols., Paris, 1966 ; New York, 1971.

يعتبر واحدا من اهم الدراسات التاريخية ، عن اي موضوع ، لمنتصف القرن العشرين .

—. " Les Espagnes et L'Afrique du Nord de 1492 à 1577 ". R.A. CXIX, 184-233, 351-410.

Conrotte, Manuel, *Espana y los paises musulmanes durante el ministero de Floridablanca*, Madrid, 1909.

Friedman, Ellen, " Spain vs. Islam : Christian Captives in North Africa in the Early Modern Age ".

ان هذه اطروحة دكتوراه (PH. D.) روجعت وستنشر قريبا، وقد تشرفت بقراءتها . وهي معتمدة كثيرا على الكتبات والأرشيفات (الوثائق) الأسبانية . ولكني كبحت نفسي عن «نهب» هذه الدراسة الممتازة : ان عمل الدكتورة فريدمان يجب تقديمه باسمها الخاص .

Guasch, Gil, *Ferdimando el catholico y los consulados catalanes en Africa*, Zaragoza, 1956.

Hubac, Pierre, *Les Barbaresques*, Paris, 1949.

Kahane, Henry, Kahane, Renée, and Tietze, Andreas, *La Lingua Franca in the Levant*, Urbana, Ill., 1958.

Masson, Paul, *Histoire des établissements et du commerce française dans l'Afrique barbaresque*, 1560-1793, Paris, 1903.

Mesnard, P., "Charles-Quint et les Barbaresques", *Bull. Hispanique*, LXI (1959), 215-35.

Monlau, Jean, *Les états barbaresques*, Paris, 1964.

Mulhagen, Marquis de, *Carlos y su Politica Mediterranea*, Madrid, 1962

Nasr, J. M. Abun, *A History of the Maghreb*, Cambridge, 1971.

Ontiveros y Herres, Eduardo, *La Politica Nordafricana de Carlos I*, Madrid, 1950.

Prieto y Llovera, P., *Politica Aragonesa en Africa hasta la muerte de Ferdando el Catholico*, Madrid, 1856.

Sorgia, Giancarlo, *La Politica Nord-Africana di Carlo V*, Padua, 1963.

Tailliart, *L'Algérie dans la littérature française*, Paris, 1961.

Vilanova, J.M., *Una Politica defensiva Mediterrania in la Espagna del siglo XVI*, Zaragoza, 1956.

التواريخ البحرية :

وهناك عدد من التواريخ البحرية تتناول الحرب في البحر خلال القرن السادس عشر . ومن أبرز الكتاب في هذا الموضوع هو امير البحر (ادميرال) جوريان دي لاغرافيير (Gravière) وقد كان بحارا مجربا مارس الحياة البحرية على سفن البحر الأبيض المدفوعة بالاشرعة ، كما كان عالما له استعداد قوي لدراسة واكتشاف الشواهد المتوفرة لديه . فكتبه جديرة بالقراءة :

— Jurien de la Gravière : Les chevaliers de Malte et la Marine de Philippe II, Paris, 1887.

— Les corsaires Barbaresques et la marine de Soliman le Grand, Paris, 1887.

— Doria et Barbarousse, Paris, 1886.

— La guerre de Chypre et la bataille de Lepante, 2 vols. Paris, 1886.

ان الكتاب التاريخي الاساسي للبحرية الاسبانية هو كتاب دورو سيزارو فيرنانديز Duro Cesareo Fernandez :

— Armada Espanola desda La Union de Los Reinos de Castilla y Aragon, vol. I, Madrid, 1895.

ومجموعها تسعة اجزاء صدرت بين 1895 و 1897 .

والكتابان التاليان (Bradford) السلطان كلاهما مترو؟ ومفيد ، دالا ان
مؤلفهما براد فورد يعرف البحر الأبيض ، كما انه
استعمل مصادر جيدة :

— Bradford, Emile, the Great Siege, New York, 1961.
— » » the Sultan's Admiral, a Life of Barbarossa, London, 1968.

وهناك كتاب صغير الحجم وحديث العهد ولكنه مهم لتركيزه على بناء
السفن ومواقع المدافع :

— Guilmartin, John F : Gunpowder and Galleys, Changing technology and Mediterranean warfare at sea in the sixteenth Century, London, 1974.

Armas, Antonio Rumeu de, *Piraterias y ataques navales contra las Islas Canarias*, 3 vols. in 5 parts, Madrid 1945-1950.

Bamford, Paul, *Fighting Ships and Prisons : the Mediterranean Galleys of France in the Age of Louis XIV*, St. Paul, Minn., 1973.

ورغم ان الكتاب لا يتناول المغرب العربي فانه ما يزال ذا قيمة كبيرة
لاي دراسة عن المشاكل البحرية في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن
السابع عشر .

Christian, P., *Histoire des pirates et corsaires de l'Océan et de la Méditerranée depuis leur origine jusqu'à nos jours*, 4 vols., Paris, 1846-50.

Clowes, Wm. Laird, *The Royal Navy*, vols. II and III, London, 1898-1904.

Corbett, J.S., *England in the Mediterranean*, 1603-1713, 2 vols., London, 1904.

Delarbre, J., *Tourville et la marine de son temps*, Paris, 1889.

Duro, Cesàreo Fernandez, *El gran Dukue de Osuna y su Marina, Jornados contra Turcos y Venecianos*, 1602-1624, Madrid, 1885.

Dyer, Florence E., *The Life of Admiral Sir John Narbrough*, London, 1931.

Field, James A., *America and the Mediterranean World*, 1776-1882, Princeton, 1969.

Garratt, G.T., *Gibraltar and the Mediterranean, London*, 1939.

Grammont, H.D. de, " Etudes Algériennes : la course ", *Rev. Hist. XXV*, pp. 1-24.

يعتبر هذا الكتاب افضل كتاب مختصر عن مشاكل القراصنة . انظر ايضا
الفصل الثالث من

Bono, Salvadore, *I Corsari Barbareschi*, Turin, 1964.

Jal, A., *Abraham du'Quesne et la marine de son temps*, 2 vols., Paris, 1923.

Munido, Francesco-Felipe Oless, *La Galera en la navegacion y el combate, Tome I, Eli be qui suelto en el centario de la bataille de Lepanto,* Barcelona, 1971.

Roncière, Charles Bourel de la, *Histoire de la marine française*, Paris, 1932, 6 vols.

Rotalier, Ch. de, *Histoire d'Alger et de la piraterie des Turcs dans la Méditerranée*, 2 vols., Paris, 1841.

Routh, E.M.G., *Tangier, England's Lost Atlantic*, 1661-1684, London, 1912.

مالطة وفرسان القديس يوحنا :

Dockway, Lord Thomas (Grand prior of the Order in England), *A Briefe Relation of the Siege and Taking of the Citie of Rhodes by Sultan Soliman*, 1524.

Engel, Col. E., *L'ordre de Malte en Méditerranée* (1530-1708), Monaco, 1957.

Salva, Col. Jaime, *Lo Orden de Malta y las acciones navales Espanoles contra Turkos y Berberiscos en los siglos XVI y XVII*, Madrid, 1944.

ابحاث في دوريات متخصصة :

Berbrugger, A., « Les consuls d'Alger pendant la conquête de 1830 », *R.A. IX, 57-60.*

Bardoux, J. « Une vie d'un consul auprès de la Régence d'Alger », R.A. *65, 1924, 261-286.*

Bourgues, Leon, " Sanson Napollon ", *Rev. de Marseille et de Provence*, May-June 1886, May-June 1887.

Boyer, P. " Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger ", R.A., 1966, pp. 297-316.

Braudel, F., " L'Economie de la Méditerranée au XVII Siècle ", *Cahiers de Tunisie* IV, no. 14, pp. 175-97.

Cazenave, Jean, « Un Consul français à Alger au XVIII siècle ; Langoisseur la Vallae ", R.A., 79, 1936, 101-122.

Capot-Rey, R., " La politique française et le Maghrib ", R.A. CXXV, pp. 176-217.

Clarke, G.N., " The Barbary Corsairs in the Seventeenth Century ", *Cambridge Historical Journal XVIII*, pp. 22-35.

Devoulx, A., " Assassinat du Pacha Mohammed Tekelerli ", R.A. XV, pp. 81-89.

— " La Marine de la Régence d'Alger ", R.A. XIII, 384-420.

— " Le Registre des Prises Maritimes", R.A. XV, pp. 73-77, XVI, 146-157, 234.

Emerit, Marcel, " Une Marine marchande barbaresque au XVIII siècle ", *Cahiers de Tunisie* III, pp. 361-70.

Grandchamp, P., " La prétendue captivité de Saint Vincent de Paul à Tunis ", *La France en Tunisie au XVII siècle* 1651-1660, VI, pp. 1-20.

A. Hess

والأبحاث التالية هي أبحاث ممتازة كتبها الدروهيس
وهي نتيجة البحث في الأرشيفات التركية باسطانبول ، بالاضافة الى
المصادر التي يرجع اليها في العادة الباحثون الغربيون . ان الاستاذ هيس
قد سلط أضواء جديدة على التاريخ العثماني .

Hess, Andrew, " The Battle of Lepanto and its Place in Mediterranean History ", *Past and Present*, no. 57 (1972), pp. 53-73.

— " The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of Oceanic Discoveries, 1453-1525 ", *Amer. Hist. Rev.*, LXXV, 1892-1919.

— " Firearm and the Decline of Ibn Khaldun's Military Elite ", *Archivum Ottomanicum*, V (1974),

— " The Moriscos : An Ottoman Fifth Column in Sixteenth Century Spain ", *Amer. Hist. Rev.* LXXIV, no. I (1968), 1-25.

— " The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth Century World War ", *Int. J. Middle East Studies IV* (1973), 55-76.

— " A Rough Translation of Hyreddin Barbarossa's *Ghazavatname* for the history of the Moriscos as Taken from the Istanbul University *MS* ", 2636 (Latin text by Ertugrul Düzdag) " Xerox manuscript.

Macabich I., " Sobre la ofensiva franca-turca en la tercera guerra entre Carlos V y François I,", *Hispania, IX* (1949), no XXXVII, pp. 640ff

Mathiex, Jean, " Sur la marine marchand barbaresque au XVIII siècle ", *Annalles* XIII, pp. 87-93.

Mesnard P., " Charles Quint et Les Barbaresques ", *Bull. Hispanique*, LXI (1959), pp. 215-35.

Pignon Jean, " Osta Moratto Turco Genovese, Bey de Tunis, 1635-1640 ", *Cahiers de Tunisie* III, no. II, pp. 331-62.

Rinn, L., " Le royaume d'Alger sous le dernier Dey ", R.A. XXXXI, pp. 121-52, 331-50.

Robin N., " L'Organisation militaire et administrative des Turks ", R.A. XVII, pp. 132-40, 196-207.

Sevillano y Colom, Francisco, " Mallorca y la defensa de Bugia, (1515)", *Boletin de la Sociedad Arqueologica Luliana*, 1972, pp. 332-370.

Watbled Ernest, " L'Etablissement de la domination Turque en Algérie ", R.A. XVII, pp. 287-99, 352-63.

— « L'expédition du duc de Beaufort contre Djidjelli (1664) », R.A. XVII, 215-31.

الفهارس

– ب –

– ف –

ب ـ فهرس الدول والجماعات والشعوب والقبائل

فهرس الاماكن والبلدان

ـ ا ـ

– ت –

- ج -

- د -

- ر - ز -

- س -

– ص –

– ط –

– ع – غ –

– ف –

محتوى الكتاب

